دار العيدروس للكتاب الحديث

الدولة الإسلامية الثالثة
الخلافة الأموية

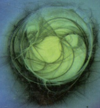
إسرة أبو سفيان أبو المروان الأموى



البروفيسور الدكتور
محمد حسن العيدروس

دار الكتاب الحديث

في هذا الكتاب



الدولة الإسلامية الثالثة
الخلافة الأموية
أسرة أبو سفيان أبو المروان الأموي

المؤلف في سطور

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة.
- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية.
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير في التطورات السياسية في الإمارات العربية 1932 - 1971 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية 1921 - 1971.
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديراً للعلاقات الثقافية بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1993 وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة، ثم في جامعة الكويت 1993 - 2000 ثم في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من 2002 - 2006: الأمين العام لل[redacted]ريخ العسكري، ثم رئيس [redacted]افيا للاتصال الثقافي والتجا[redacted]عام 2007 حتى الآن، وهو[redacted] من الجمعيات العلمية الإقلي[redacted] في الأمانة العامة لاتحاد الم[redacted]عام 1991 وحتى الآن ورئيس[redacted]ات روتردام الإسلامية.
- صدر له أكثر من اثني [redacted]ثر من أربعين بحثاً معظمها في الخليج العربي والدراسات العربية والإسلامية.

دار العيدروس للكتاب الحديث

الدولة الإسلامية الثالثة

الخلافة الأموية

أسرة أبو سفيان وأبو المروان الأموى

البروفيسور /محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية
رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات

دار الكتاب الحديث

العيدروس ، محمد حسن
الدولة الإسلامية الثالثة : الخلافة الأموية أسرة أبو سفيان وأبو المروان الأموي /
محمد حسن العيدروس . ـ القاهرة : دار الكتاب الحديث ، 2009 م
644 ص ؛ 24 سم .
تدمك 5 246 350 977
1- الدولة الأموية (661م – 750 م)
أ ـ العنوان
953.02

رقم الإيداع 2529 /2009

دار الكتاب الحديث

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dkhadith@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

قــال الله تعــالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور] صدق الله العظيم.

«إهداء» إلى سيدة نساء العالمين بنت رسول الله محمد ﷺ فاطمة الزهراء وإلى زوجها الإمام علي رضى الله عنه، وإلى سيدى شباب أهل الجنة سبطى رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسن والإمام الحسين رضى الله عنهما وإلى بقية العترة الطاهرة.

وإلى والدى المرحوم السيد/ حسن أحمد علوى العيدروس طيب الله ثراه وأغمده الجنة إن شاء الله.

وإلى أبناء الأمة الإسلامية لكى يهتدوا ويسيروا فى الطريق الذى رسمه القائد العظيم رسول الله محمد ﷺ ورئيس أول دولة إسلامية ليخرجوا هذه الأمة من الذل والهوان وجاهلية أنظمة الحكم والتخلف الذى لحق بها من جراء عدم اتباع نهج رسول الله ﷺ فى تطبيق الشريعة الإسلامية فى أنظمة الحكم والسياسة والعدالة الاجتماعية والديمقراطية الإسلامية والحرية والمجتمع المدنى ودولة المؤسسات الإسلامية والعودة إلى خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمداً كبيراً وثناء كثيراً والصلاة على سيدنا وحبيبنا وشفيعنا رسول الله محمد(ﷺ) وعلى آل بيته الأخيار الأطهار إلى يوم الدين.

يعتبر تنازل الإمام الحسن بن على رضى الله عنهما، عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان، بداية مرحلة جديدة فى التاريخ الإسلامى بكل تحولها الجذرى عن النظام السياسى الإسلامى الذى أوجده رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده، وكما عرفه المسلمون ومارسوه من النظام السياسى الديمقراطى الإسلامى من الانتخاب الحر والاختيار والشورى حسب الكفاءة الدينية والسياسية إلى النظام الملكى الأوحد الوراثى التسلطى القمعى مع ما صاحبه من الترف والبذخ وحياة القصور القيصرية وغيرها مما خلق معه إشكالية عدم التوازن مع الاندماج السياسى والاجتماعى وبالتالى أدى إلى انهيار الخلافة من مضمونها الدينى والدنيوى وتعطيل الشريعة الإسلامية مما كان معه الانهيار وعدم الاستمرار.

نجد أن العراق كان يمثل البداية والنهاية لحكم الأسرة الأموية بفرعيها السفيانى والمروانى، كما أن المعارضة والثورات التى شهدتها الأقاليم فى المشرق والمغرب الإسلامى غلب عليها الطابع الاجتماعى ـ الفكرى وامتدت إلى الشام بعد ثورة القبائل اليمنية على الحكم الأموى عندما انقلب آخر حكامها مروان بن محمد ضد القبائل اليمنية التى ساندت الأسرة الأموية طوال حكمها مما جعلها تثور على الحكم الأموى وتنضم للعباسيين مما كان سببًا فى سقوط الحكم الأموى الذى اعتمد أساسا على القبائل اليمنية وإخلاصها لها، وبرغم نجاح الحكام الأمويين فى ضرب العراق العلوى إلا أنهم لم يستطيعوا وقف دوره السياسى المعارض حيث امتد هذا

الفكر الثورى العلوى المعارض من العراق إلى خراسان بعدما تزايدت عمليات الاضطهاد والقمع مما أدى إلى تفريغ العراق من السكان والهجرة إلى خراسان ومنها كانت الانطلاقة للمعارضة العلوية بقيادة أسرة آل العباس التى أسقطت الحكم الأموى.

بسقوط حكم النخبة الأموية خسر العرب السيادة المطلقة بعد مجيء الفرس ثم الترك إلى الحكم العباسى. وبالرغم من سلبيات حكم الأسرة الأموية إلا أنها تبقى من الصفحات المشرقة فى التاريخ العربى الإسلامى فقد امتدت الدولة الإسلامية إلى حدود الصين شرقا وجنوب فرنسا غربا وقرب الأناضول البيزنطية شمالاً ونهر النيل جنوبا وهذا بحد ذاته إنجاز كبير يضاف إلى التاريخ الحضارى العربى - الإسلامى وسوف نتناول فى كتابنا عن الدولة الإسلامية الثالثة حكم أسرتى أبى سفيان وأبى مروان الأموية ونظام الحكم السياسى والفتوحات الإسلامية والحياة الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والمعارضة العلوية والثورات ثم سقوط النظام الأموى.

أتمنى أن أكون قد وفقت فى هذا الكتاب إلى إعطاء صورة عن الحكم الأموى فى الدولة الإسلامية الثالثة. ونطلب من الله فى آخر دعوانا أن يوفقنا إلى قول الحق وعمل الحق والدفاع عن الحق - الحق الإسلامى والحمد لله تعالى والصلاة على خاتم النبيين وإمام المتقين رسول الله محمد ﷺ وعطرته من آل البيت رضوان الله عليهم.

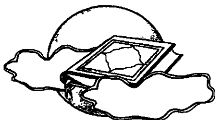
اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

البروفيسور محمد حسن العيدروس

مدينة البحر - العين

الإمارات العربية المتحدة

الفصل الأول



حكم أسرتى أبى سفيان وأبى مروان الأموية

- تنازل الإمام الحسن عن الخلافة لمعاوية.
- حكام أسرتى أبى سفيان وبنى مروان

بنى أبى سفيان:

(1) معاوية بن أبى سفيان 40 هـ الموافق 660 م.
(2) يزيد بن معاوية – 60 هـ الموافق 679 م.
(3) معاوية بن يزيد – 64 هـ الموافق 683 م.

بنى مروان:

(4) مروان بن الحكم – 64 هـ الموافق 683 م.
(5) عبد الملك بن مروان – 65 هـ الموافق 684 م.
(6) الوليد بن عبد الملك – 86 هـ الموافق 685 م.
(7) سليمان بن عبد الملك – 96 هـ الموافق 714 م.
(8) عمر بن عبد العزيز – 99 هـ الموافق 717 م.
(9) يزيد بن عبد الملك – 101 هـ الموافق 719 م.
(10) هشام بن عبد الملك – 105 هـ الموافق 723 م.
(11) الوليد بن يزيد بن عبد الملك – 125 هـ الموافق 742 م.
(12) يزيد بن الوليد بن عبد الملك – 126 هـ الموافق 743 م.
(13) إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك – 126 هـ الموافق 743 م.
(14) مروان بن محمد بن مروان – 127 هـ الموافق 744 م.
(15) سليمان بن هشام – 127 هـ الموافق 744 م.

تنازل الإمام الحسن عن الخلافة لمعاوية:

كان الإمام الحسن عليه السلام رجل صدق قد كره الفرقة وآثر اجتماع الكلمة وخاض غمرات الفتنة، على كُره منه في أكبر الظن. قاوم الفتنة ما وسعته مقاومتها أيام عثمان فلم يخض فيما خاض الناس فيه من حديثها، ولم يشارك في المعارضة حين عظم الشر. وكان من الذين أسرعوا إلى دار عثمان فقاموا دون الخليفة يريدون حمايته. ولكن الخليفة قُتل على رغم ذلك، لأن خصمه تسوروا عليه الدار. ولم يكن الإمام الحسن ﷺ يرى أن يشترك أبوه في شيء من أمر الفتنة من قرب أو من بعد، وإنما أشار عليه أن يعتزل الناس وأن يترك المدينة فيقيم في ماله بِيَنْبع. فلم يسمع الإمام عليّ ﷺ له، وإنما رأى أن مكانه في المدينة حيث يستطيع أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر أو يصلح بين الناس. فلما قُتل عثمان لم ير الإمام الحسن ﷺ لأبيه أن يقيم في المدينة ولا أن يتعرض للبيعة ولا أن يقبلها وإن عُرضت عليه. ولو استطاع الإمام الحسن ﷺ لاعتزل الفتنة اعتزالا كما فعلت تلك المعتزلة من أصحاب النبي. ولكن عرف لأبيه حقَّه عليه، فأقام معه وشهد مشاهده كلها، على غير حُب لذلك أو رغبة منه فيه. ثم لم يكن الإمام الحسن ﷺ يرى لأبيه أن يترك مُهاجَره في المدينة، وأن يرحل إلى العراق للقاء طلحة والزبير وعائشة، وإنما كان يؤثر له أن يبقى في مُهاجره مجاوراً للنبي، ويكره له أن يذهب إلى دار غربة ويتعرض للموت بمضيعة. وكان أبوه يعصيه في كل ما كان يشير عليه من ذلك، حتى بكى الإمام الحسن ﷺ ذات يوم حين رأى ركاب أبيه تؤم العراق، فقال له أبوه: إنك لتحن حنين الجارية. ولم يفارق الإمام الحسن ﷺ حَزَنُه على عثمان، فكان عثمانيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، إلا أنه لم يَسُلّ سيفًا للثأر بعثمان، لأنه لم ير ذلك حقًا له، وربما غلا في عثمانيته[1].

شهد الإمام الحسن ﷺ مع أبيه، مشاهده في البصرة وصفّين والنهروان. وأكاد أعتقد مع ذلك أنه وأخاه الإمام الحُسين ﷺ قد شهدا هذه الحروب دون أن يشاركا فيها. بل نحن نعلم أن أباهما كان يَضن بهما على الخطر مخافة أن يُصيبهما شر فتنقطع ذريّة النبيّ ﷺ. كان يقيهما بنفسه وبأخيهما محمد بن

1 ـ طه حسين ـ علي وبنوه ص176.

الحنفيـة، وكان يشـتد على محـمد هذا ويعنُف به إن رأى منـه فى الحرب أناة أو تقصـيراً حتى كلمه فى ذلك بعض أصـحابه. فقد كـان الإمام علىّ ﷺ إذاً أشد الناس إيثاراً للحسن والحسين لمكانهما من النبىّ، وكان أصحابه يصنعون صنيعه فى ذلك فيؤثرونهـما بالخير والبرّ. ويُروى أن رجلا أهدى إلى الحـسن والحسين وترك محمداً فلم يُهد إليه شـيئًا، فلما رأى الإمام علىّ ﷺ ذلك من الرجل وضع يده على كتف محمد وتمثّل:

وما شرّ الثلاثة أُم عـمـرو   بصاحبك الذى لاتُصبحينا

فذهب الرجل فأهدى إلى محمد كما أهدى إلى أخويه.

كان الإمـام الحسن ﷺ إذاً كارهًا للفـتنة منذ ثارت. وقد روى الثـقات من أصحـاب الحديث أن النبى ﷺ أخذ الإمـام الحسن ﷺ وهو صبىّ فـأجلسه إلى جانبه على المنبر، وجعل ينظر إليـه مرة، وينظر إلى الناس مرة أخرى، يفعل ذلك مراراً، ثم قال: إن ابنى هذا سـيّدٌ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين كـبيرتين من المسلمين. فـقد وقع هذا الحديث من نفس الصبى مـوقعًا أى موقع. وكـأنه ذكرَه حين ثارت الفتنة، وكـأنه حاول بمشورته على أبيه، فى مـواطنه تلك التى ذكرناها آنفًا، أن يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين فيحقق نبوءة جده ﷺ. وكأن بكاءه حين بكى لم يكن رفقًا بأبيه وإشفاقًا عليه فحسب، وإنما كان إلى ذلك حزنًا، لأنه لم يحقق ما توسّم به جدُّه فيه. والمسلمون يختلفون، فأما المؤرخون والمحدثون من أهل السُّنة فينبئـوننا بأن عليًا أبى أن يستخلف حين طلب إليـه ذلك بعد أن أصيب ويقول قوم: إن الناس طلبوا إليه أن يستخلف الإمام الحسن ﷺ. فقال: لا آمركم ولا أنهاكم[1].

يقول الشـيعة إن عليًا استخلـف الإمام الحسن ﷺ نصًا. ومهـما يكن من شىء فلم يعرض الإمام الحسن ﷺ نفسَه على الناس، ولم يتعرض لبيعتهم، وإنما دعا إلى هذه البـيعة قيس بن سـعد بن عبُـادة. فبكى الناس واستجـابوا. وأُخرج

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص177.

الإمام الحسن عليه السلام فأجلس للبيعة، وطفق ـ كما يقول الزهرى ـ يشترط على الناس أن يسمعوا ويطيعوا، ويحاربوا من حارب ويسالموا من سالم. فلما سمع الناس منه تكراره لأمر السلم ارتابوا وظنوا أنه يريد الصلح. وقال بعضهم لبعض: ليس هذا لكم بصاحب وإنما هو صاحب صلح. وقد مكث الإمام الحسن عليه السلام بعد البيعة شهرين أو قريبًا من شهرين لايذكر الحرب ولا يظهر استعدادًا لها، حتى ألحّ عليه قيس بن سعد وعبيد الله بن عباس، وكتب إليه عبدالله بن عباس من مكة يحرّضه على الحرب. ويلحّ عليه فى أن ينهض فيما كان ينهض فيه أبوه. فنهض للحرب وقدّم بين يديه اثنى عشر ألفًا من الجند، جعل عليهم قيس بن سعد، وجعل معه عُبيد الله بن عباس. وقوم يقولون إنه جعل على هذا الجند ابن عمه، وأمره أن يستشير قيس بن سعد وسعيد بن قيس الهمدانى ولا يخالف عن رأيهما. فمضى الجند وخرج الإمام الحسن عليه السلام فى إثرهم فى عدد ضخم من أهل العراق، وكأنه خرج يُظهر لهم الحرب ويدبّر أمر الصلح فيما بينه وبين خاصته. حتى إذا بلغ المدائن تسامع الجيش ببعض ذلك، فاضطرب الناس وماج بعضهم فى بعض، واقتحموا على الإمام الحسن عليه السلام فسطاطه وعنفوا به عنفًا شديدًا حتى انتهبوا متاعه. فخرج الإمام الحسن عليه السلام يريد المدائن. وطعنه رجل فلم يصب منه مقتلا. يقول بعض المؤرخين: إن هذا الرجل كان من أصحابه، ويقول بعضهم الآخر: إنه كان من الخوارج وأنه قال للحسن وهو يَهُمُّ به: أشركت كما أشرك أبوك. وقد أقام الإمام الحسن عليه السلام فى المدائن حتى برئ من جرحه، وتعجل السلم فى أثناء ذلك ثم رجع إلى الكوفة فاستقبل فيها سفراء معاوية الذين أعطوه كل ما أراد. أعطوه الأمان له ولأصحابه كافةً، وأعطوه خمسة ملايين من الدراهم كانت فى بيت المال بالكوفة، وأعطوه خراج كورتين من كور البصرة ما عاش. وبينما كان الإمام الحسن عليه السلام يفاوض فى الصلح كان عبُيد الله بن عباس يتعجل السلم لنفسه ويترك جيشه إلى معاوية دون أن يستخلف عليه أحدًا. رشاه معاوية بالمال، فلم يستطع أن يعصى المال. وكذلك انحرف عبدالله بن عباس عن الإمام علىّ عليه السلام، وانحرف عبيد الله بن عباس عن الإمام الحسن عليه السلام. كلاهما ينحرف عن صاحبه فى أشد الأوقات حرجًا وأعسرها عسرًا. ونهض قيس بن سعد بأمر هذا الجند، حتى جاءه

أمر الإمام الحسن ﷺ بالدخول فى طاعة معاوية. فأظهر الناس على ذلك وخيَّرهم بين أن يدخلوا فيما دخل فيه إمامهم أو يقاتلوا عدوهم على الحق بغير إمام. فاختاروا العافية، ووضعت الحرب أوزارها. وفتحت الطريق لمعاوية إلى الكوفة، فدخلها موفوراً، وبايع له الناس ولم يبايع قيس بن سعد إلا بعد خطوب[1].

لقد كان الإمام الحسن والحسين عليهما السلام يعودان بالكثير منها على نفر من الذين فقدوا ثرواتهم فى سبيل القضية التى ناصروا فيها الإمام وكانا يُغدقان برَّهما ونَداهما على أولى الأرحام، وعلى الفقراء والمساكين. لقد انفرد «الحسن» بأنه الرجل الذى قاسَم الله ماله ثلاث مرات وخرج عنه كله مرتين، ورجل هذه شيمته، لايطلب المال ليُترف به، إنما يطلبه ليؤدى به حقوقًا كثيرة، أهونُها كفالة الأرامل والأيتام الذين استشهد أزواجهم وآباؤهم وهم يقاتلون تحت راية الإمام. فمن أجل تلك الحقوق، ومن أجل شغَفه بالخير والبر اشترط لنفسه ولأخيه وَفْرة العطاء. وحسبنا فى هذا المقام شهادة «معاوية» نفسه، فذات يوم أعدَّ أحمال الهدايا التى كان يرسلها بين الحين والحين لصفوة الصحابة فى مكة والمدينة وبينما القافلة تتهيأ للسفر، نظر معاوية فيمن حوله وقال لهم: «إن شئتم أخبرتكم بما يصنع القوم بهذه الهدايا» ثم راح يسمى بعض الأسماء، ويسوق الحديث عنها، حتى جاء ذكر «الإمام الحسن والحسين عليهما السلام» فقال:

«.. وأما الحسن، فلعلَّه يدَع لزوجاته بعض الطيِّب، ثم يترك لمن حوله كل شيء. وأما «الحسين» فيبدأ بأيتام الذين قُتلوا مع أبيه فى صفِّين، فإن بقى بعد ذلك شيء نحرَ به الجُزر، وسقى به اللبن» أجل . هذه شهادة «معاوية» وفيها فصل الخطاب، ومن فصل الخطاب أيضًا، أن العطاء الجزيل الذى فُرض لهما، لم يكن يكفيهما، مع أنهما لم يُعرف عنهما قط عيش المترفين ولا حياة المسرفين. ولقد تراكم على «الإمام الحسن ﷺ» دَين ثقيل، وانتهز معاوية الفرصة فعرض

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص179.

عليه قدراً كبيراً من المال يقضى به ديونه، نظير بيعه عين ماء كانت للإمام «على ﷺ» بالمدينة، وكان الإمام قد أهداها فقراء المدينة وأهلها، يرتوون منها بغير حساب ورفض «الإمام الحسين ﷺ» هذا العرض. ففيم إذن كانت هذه الديون رغم وفرة العطاء لقومٍ لايحيَون فى ترف ولا فى سرف. إنها كانت بسبب حقوق مذخورة، وعطايا مبرورة تعودّها الكرام، أبناء الكرام. قبل معاوية شروط الصلح من فوره، وتنازل له الإمام الحسن ﷺ عن الخلافة. وسارع معاوية إلى الكوفة ليتلقى بيعة أهل العراق، وفى الجمع الحاشد من المسلمين، دعا «الإمام الحسن ﷺ» لإلقاء كلمة، فوقف «الإمام الحسن ﷺ» والأبصار شاخصة إليه، والأنفاس معلَّقة بشفتيه اللتين لايدرى أحد عن أى نوع من القول ستنفرجان وجاءت كلماته فى تلك المناسبة على وِفاق سعيد ومجيد مع صاحبها العظيم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: [1]

«أيها الناس إن الله هداكم بأولّنا وحقَن دماءكم بآخرنا، ألا إن أكيَس الكيّس التُّقى، وإن أعجز العجز الفُجور وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه ومعاوية: إما أن يكون أحقّ به منى، فقد تركتُه له وإما أن أكون أحقّ به منه فقد تركته لله عز وجل، ولخير أمة محمد ﷺ وحقْن دمائها» ثم التفتَ صوْب معاوية وقال: (وإن أدرى لعلَّه فتنة لكم ومتاع إلى حين).

إن العظمة الإنسانية لتكشف عن أصالتها فى مثل هذه المواقف، وبمثل هذه الكلمات وحيث يلتقى الصدق، والقوة، والترفع، والحكمة أسعد لقاء. ومضى كل إلى سبيله. معاوية إلى الشام عاصمة ملكه العريض و«الإمام الحسن ﷺ» إلى المدينة، قرير العين بما حقن من دماء، عظيم الغُنْم بما بذل من فداء مردِّداً كلماته المضيئة هذه: «لقد كانت جَماجِم العرب بيدى فى العراق، تُسالم من سَالَمْت وتحارب من حاربت. ثم تركتُها ابتغاء وجه الله» ولقد وفَّى بعهده مع معاوية. ووفَّى بالعهد معه أخوه «الإمام الحسين ﷺ» الذى كان قبل إبرام الصلح من أشدّ

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ أبناء الرسول فى كربلاء ـ ص53.

مُعارضيه. تُرى، هل سيَفى معاوية؟ أم إغراء السلطة المطلقة سيجشّمه مشقّة الوفاء على أية حال، فقد أدّى الإمام الحسن ﷺ ما اعتقده واجبًا، وأعطى من ذات نفسه ما هو أهلٌ له. لقد ترك للآخرين دنياهم، وعكَف هو على الطاعة، والعبادة والخير. عابدًا: يحب الله ويخشاه، ويخرج إلى الحج من المدينة إلى مكة أعوامًا كثيرة ماشيًا على قدميه والنجائب تُقادُ بين يديه، حتى إذا سئل عن سبب هذا الإجهاد لنفسه أجاب. «إنى أستحى أن ألقى ربى، ولم أمشِ على قدمىّ إلى بيته». جوادًا: لم يكن يُبقى من ماله شيئًا، لايعرف مكروبًا إلا فرَّج كُربته، ولا غارمًا إلى قضى دَينه. سيِّدًا: لايعرف الدنيَّة ولا يقبلها، ولا يعرف السوءُ طريقًا إلى لسانه ومقاله. يقول «محمد بن إسحاق»: «ما رأيت أحدًا كان إذا تحدث تمنيت الا يسكت، مثل الإمام الحسن بن على عليهما السلام وما سمعت منه كلمة سوء قط وإن أشد كلمة سمعتها منه، هى تلك التى قالها حين وقعت خصومة بينه وبين عمرو بن عثمان، فقال الإمام الحسن ﷺ: ليس له عندنا إلا ما رغم أنفه. تلك أشد كلمة سمعته يقولها» ولقد تحدث ـ رضى الله عنه ـ راسمًا للناس صورة المؤمن المثالى الرشيد، فقال: [1]

«إنه مَن تصغُر الدنيا فى عينه ويخرج على سلطان بطنه، وفرجه، وجهله. لايسخَط ولايتبرّم. إذا جالس العلماء، كان على أن يسمع أحرصَ منه على أن يتكلم وإذا غُلب على الكلام، لم يُغلب على الصمت. لايشارك فى ادِّعاء، ولايدخل فى مراء. لايغفُل عن إخوانه، ولا يختصّ نفسه بخير دونهم. وإذا تردَّد بين أمرين، لايدرى أيهما أقرب إلى الحق. نظر أيهما أقرب من هواهُ، فخالفه واتقاه».

هذه خلاصة لدستور حياته ومنهاج نفسه، أفلا يكون قرير العين إذن بهذا السلام الذى سيوفر له فرصة العكوف على فضائله ومزاياه يُنمِّيها ويزكِّيها. بلى. ولقد استقر وأخوه وآل بيتهما بمدينة رسول الله. ولم تكد تنزاح عن الناس فى شتى الأقطار غمرات ما كانوا فيه من خلاف صراع، حتى راحت أرواحهم تهفو

ا ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص55.

نحو المدينة، وخواطرهم تطوّف من قريب وبعيد حول ريحانتى رسول الله. يُظهرنا التأمل فى هذا كله على اتجاه نفوس الناس وقلوبهم فى ذلك الوقت إلى الدنيا أكثرَ من اتجاهها إلى الدين. وقد يظهرنا ذلك أيضًا على أن الإمام الحسن وأباه عليهما السلام، وهذه القلة القليلة من أشباههما، إنما كانوا يعيشون غُرباء فى هذه البيئة الجديدة القديمة، أو فى هذا الخلف الذى خلف من المسلمين. جماعة من هذه القلة كرهوا الفتنة واستيأسوا من بيئتهم ففروا بدينهم إلى العزلة وآثروا الله على الناس، وآخرون رأوا أن الدين لم يُوحَ به إلى النبى ليؤثر به نفسه ويفرّ به من البيئة التى ملأها الفساد، وإنما أوحى به ليصلح من أمر الناس ما فسد، ويقوّم من حياتهم ما اعوج، ويحملهم على الجادة، ويهديهم الصراط المستقيم. وقد نهض النبى بأمر ربه، لم يفر بدينه إلى غار حراء، ولم يعتزل به أهل مكة، وإنما واجه قومه بما كرهوا، عنَّف بهم وعنفوا به، وألحّ فى دعائهم إلى الخير وألحّوا فى المكر به والكيد له والتأليب عليه، حتى أخرجوه من وطنه، فلم يثبط ذلك من همه، ولم يُفل من حده، ولم يكن يحفل فى سبيل الدين بأن يضع خصمهُ الشمسَ فى يمينه والقمر فى يساره إن استطاعوا، وكانت له العاقبة. فحمل الناس على الخير وهداهم إلى الدين، لم يشفق من تبعة، ولم يخف مكروهًا. وقد رأى الإمام علىّ عليه السلام وأمثاله القليلون أن النبى قد سن لهم سنة فى إنفاذ أمر الله وحَمْل الناس على الحق، فمضوا على سنة النبى وصاحبيه من بعده، واحتملوا فى ذلك ما احتملوا من البلاء والعناء والقتل فى ميادين الحرب، أو القتل غيلة أثناء الخروج إلى الصلاة ولم يكن بد من أن تصير أمور الناس إلى ما صارت إليه، فقد لقى العرب غيرَهم من الأمم، ورثوا ملكهم وعرَفوا حضارتهم وبلوا ما فى حياتهم من خير وشر، ومن حلو ومرّ. وكان من الطبيعى أن تنتهى الأمور إلى إحدى اثنتين: فإما أن يقهر الغالبون فيعرّبوا هذه الأمم المغلوبة، وإما أن يقهر المغلوبون فيفتنوا هذه الأمة الغالبة. وقد فُتنت الأمة الغالبة عن كثير من أمرها، فأعرضت عن خلافتها وعن سنتها الرشيدة، ودفعت إلى الملك تقلد فيه قيصر وكسرى أكثر مما تقلد النبى والشيخين[1].

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ـ ص 181.

يكفى أن نلاحظ أن أشراف أهل العراق كانوا يتصلون بمعاوية فى أيام الإمام علىّ ﷺ، يتلقون ماله ويمهدون له أمره. وأن نلاحظ بعد ذلك أن الإمام الحسن ﷺ لم يكد يفرغ من البيعة حتى فرغ جماعة من الأشراف الذين بايعوه إلى معاوية، منهم من سار إليه فبايعه وأقام معه حتى عادوا فى صحبته إلى العراق، ومنهم من أرسلوا إليه الكتب ينبئونه بضعف الإمام الحسن ﷺ وانتشار أمره واختلاف الناس عليه، ويتعجلون قدومه إلى العراق، حتى لم يتحرج معاوية من أن يتأذن فى أصحابه من أهل الشام: أن كُتب أهل العراق قد تواترت إليه يدعونه فيها إلى أن يسير إليهم، وأن أشراف أهل العراق قد جعلوا يُقبلون عليه ليبايعوه. وقد غير معاوية سياسته فجأة تغييراً تامًا، فأعرض عن العنف ومال إلى الرفق وأمعن فيه. وكأنه كان يعرف عثمانية الإمام الحسن ﷺ وبغضه للفتنة وتحرجه من سفك الدماء، كما كان يعرف كغيره من عامة الناس مكان الإمام الحسن ﷺ من النبىّ ونزوع نفسه إلى الخير وعزوفها عن الشر فلم يكد الإمام الحسن ﷺ يكتب إليه مع جُندب بن عبدالله الأزدى ينبئه بأن الناس قد بايعوه ويدعوه إلى الطاعة، حتى ردّ عليه معاوية ردًا رقيقًا ليس فيه شىء مما كان فى كتبه إلى الإمام علىّ ﷺ من الشدة والغلظة والتأنيب والامتناع. وإنما كتب إليه ينبئه: أنه لو كان يعلم أنه أقوم بالأمر وأضبط للناس وأكيد للعدو وأحوط على المسلمين وأعلم بالسياسة وأقوى على جمع المال منه لأجابه إلى ما سأل، لأنه يراه لكل خير أهلا. ويقول له إن أمرى وأمرك شبيه بأمر أبى بكر وأمركم بعد وفاة رسول الله ﷺ. يريد أن أبا بكر وأصحاب النبى معه عرفوا لأهل البيت مكانتهم من النبىّ واستحقاقهم لكل كرامة، ولكنهم مع ذلك صرفوا الخلافة عنهم. وقد عاد الأمر إلى مثل ما كان عليه بعد وفاة النبى، لم تتغير مكانة أهل البيت ولم يتغير استحقاقهم لكل كرامة، ولكن غيرهم ـ وهو معاوية ـ أقدر منهم على النهوض بأمر الخلافة وأعباء السلطان ثم وعده أن يسوّغه ما فى بيت مال العراق، وأن يجعل له خراج ما يختار من الكور، يستعين به على مئونته ونفقاته ما عاش[1].

عاد جُندب بكتاب معاوية إلى الإمام الحسن ﷺ، وأنبأه باجتماع أهل الشام وكثرتهم وتأهبهم للمسير إليه، وأشار عليه أن يغزوهم قبل أن يغزوه. ولكنّ الإمام

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص182.

الحسن ﷺ ظلّ ساكنًا لاينشط للحرب حتى علم أن معاوية قد سار إليه، وكاد أن يبلغ حدود العراق. هنالك نهض للقائه وجرى له ما علمت من الأحداث. ولم يكن قعود الإمام الحسن ﷺ عن الحرب جُبنًا أو فَرَقًا، وإنما كان كراهية لسفك الدماء من جهة، وشكًّا في أصحابه من جهة أخرى. وقد تبين له بعد مسيره وما كان من أمره مع الناس حين بلغ المدائن أنه لم يكن مخطئًا. ولاسيما بعد أن عرف وفود الأشراف من أهل العراق على معاوية، وأن الذين لم يفدوا عليه قد كتبوا إليه. فكان يقول لأهل العراق: أنتم أكرهتم أبي على الحرب وأكرهتموه على التحكيم، ثم اختلفتم عليه وخذلتموه. وهؤلاء وجوهكم وأشرافكم يفدون على معاوية أو يكتبون إليه مبايعين. فلا تغرونى عن دينى. ثم تعجل الصلح. فأرسل إليه معاوية عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة، وعبدالرحمن بن سمرة فعرضا عليه الصلح وألحّا عليه فيه، ورغّباه بما رغباه به مما علمت. فقبل مبدأ الصلح وأرسل سفيرين إلى معاوية، هما عمرو بن سَلَمَة الهمدانى ومحمد بن الأشعث الكندى، ليستوثقا من معاوية ويعلما ما عنده. فأعطاهما معاوية هذا الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب للحسن بن علىّ من معاوية بن أبى سفيان. إنى صالحتك على أن لك الأمر من بعدى، ولك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ، وأشد ما أخذه الله على أحد من خلقه من عهد وعقد. لا أبغيك غائلة ولا مكروهًا. وعلىّ أن أعطيك فى كل سنة ألف ألف درهم من بيت المال. وعلى أن لك خراج يَسًا ودارابجرد تبعث إليهما عمالك وتصنع بهما ما بدا لك. شهد عبدالله بن عامر وعمرو بن سلمة الكندى وعبدالرحمن بن سَمُرة ومحمد بن الأشعث الكندى وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين.

ونلاحظ أن معاوية لم يبدأ هذا الكتاب كما كان يبدأ كتبه إلى الإمام علىّ ﷺ: «من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب»، وإنما قدم فكتب: «إلى الحسن ابن على من معاوية بن أبى سفيان» يُظهر بذلك تكريمَ الإمام الحسن ﷺ وأنه يسير معه سيرة غير سيرته مع أبيه وقد عرض معاوية على الإمام الحسن ﷺ ثلاثة أشياء: أن يجعله ولى عهده. وأن يجعل له مرتبًا سنويًا من بيت المال ألف ألف درهم، وأن يترك له كورتين من كور فارس يرسل إليهما (عُمّاله) ويصنع بهما ما

يشاء ثم أعطى على نفسه العهد المشدد المؤكد أن يؤمن الإمام الحسن ﷺ من كل غائلة. ولم يكتف الإمام الحسن ﷺ بهذه الشروط، لأن فيها شيئًا لا يملكه معاوية فى رأيه، وهو ولاية العهد. ولأن ما عدا هذا من الشروط المالية نوع من الإغراء وليس بذى خطر عند الإمام الحسن ﷺ. فبيت مال العراق فى يده، وكور فارس كلها فى يده أيضًا، وقد أهمل معاوية فى كتابه شيئًا هو أخطر من كل ما ذكر، وهو تأمين أصحاب الإمام الحسن ﷺ الذين حاربوا مع الإمام علىّ ﷺ وهموا بالحرب مع الإمام الحسن ﷺ نفسه ولذلك احتفظ الإمام الحسن ﷺ بكتاب معاوية عنده وأرسل إليه رجلا، من بنى عبدالمطلب من جهة، وبينه وبين معاوية قرابة قريبة من جهة أخرى، وهو عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وأمه أخت معاوية. فقال له ائت خالك وقل له: إن أمّنت الناس بايعتك. وكأن الإمام الحسن ﷺ أراد أن يصطنع شيئًا من اللباقة، فاحتفظ بشروط معاوية وطلب إلى معاوية مزيداً هو تأمين الناس. ولكن معاوية كان أدهى من ذلك وأبرع كيداً. فقد أعطى ابن أخته طوماراً ختم فى أسفله وقال له: اكتب ما شئت فجاء عبدالله بن الحارث بهذا التفويض المطلق إلى الإمام الحسن ﷺ، فكتب فيه الإمام الحسن ﷺ: «هذا ما صالح عليه الحسنُ بن علىّ معاوية بن أبى سفيان. صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين. وعلى أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وعلى الا يبغى الحسن بن على غائلة سراً ولا علانية ولا يخيف أحداً من أصحابه، شهد عبدالله بن الحارث وعمرو بن سلمة». ثم رد عبدالله بن الحارث إلى معاوية بكتابه هذا ليُشهد عليه من شاء من أصحابه، ففعل[1].

تم الصلح، ولكنه لم يتم دون أن يترك بين الرجلين شيئًا من اختلاف الرأى وسوء التفاهم، كما يقال فى هذه الأيام. أكان الكتاب الأول الذى أرسله معاوية إلى الإمام الحسن ﷺ قائمًا يكفل للحسن ما أعطاه معاوية من الشروط، ما عدا

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص184.

ولاية العهد التى لم يرضـها الإمام الحسن عليه السلام. أم سقط بهذا الكتـاب الذى كتبه الإمام الحسن عليه السلام وأمضـاه معاوية. أما الإمـام الحسن عليه السلام فقد رأى أن كـتاب معاوية الأول ظل قـائماً، وأن معاوية قـد التزم فيه ما وعـد به من مرتب فى كل عام، ومن خـراج هاتين الكورتين للحـسن ما عـاش. وأما مـعاوية فـقد رأى أن الكتاب الثانى قد ألغى الكتاب الأول إلغاء فليس للحسن عنده إلا ما طلب من أن يكون الأمـر شورى بعـد موت مـعاوية، ومن تأمـين الناس على أنفسـهم وعلى أموالهم وذراريهم، ومن ألا يبغى الإمام الحسن عليه السلام غائلة سراً أو جهراً، ومن أن يعمل فى أمـر المسلمين بكتاب الله وسنة رسـوله وسيرة الخلفاء الصـالحين. ومن أجل اختلاف الرأى هذا طـلب الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية، بعـد أن استقام له الأمر أن يفى له بشروطه المالية. فأبى عليه معاوية وقال له: ليس لك عندى إلا ما شرطت لنفسك. وكأن الإمام الحسن عليه السلام أراد تحكيمًا، وكأنه أراد أن يحكم سعد ابن أبى وقاص. فلم يقـبل معاوية تحكـيمًا ولكنه على ذلك أرضى الإمـام الحسن عليه السلام بما أعطاه وما فـرض له من المال. وتكثر المؤرخون والرواة بعـد ذلك، فزعم قوم أن معـاوية وفى بالشروط للحسن ثم أغـرى أهل البصرة سراً، فطـردوا عُمَّال الإمام الحسن عليه السلام من الكورتين، وأبوا أن يدفعوا إليه شيئًا من خراجهما، وقالوا: هذا فيـؤنا وليس لأحد غيـرنا فيه حق والأمـر كما رأينـا أيسر من ذلك. والشىء الذى ليس فيه شك، هو أن معـاوية قد برّ الإمام الحسن عليه السلام وأرضاه بالمال، فلم يجد فى حياته عسراً ولا ضيـقًا، وإنما عاش فى المدينة عيشة الغنىّ السخى، الذى ينفق عن سعة ولا يحسب للمـال حسابًا. ومهما يكن من شىء فقـد سار معاوية إلى الكوفة مطـمئنًا راضى البال، ينشُـر من حوله الرضى والطمـأنينة. واستـقبله الإمام الحسن عليه السلام فبايعه وبايعه الناس. وكـأن معاوية أراد أن يعلن الإمام الحسن عليه السلام رضاه عن هذا الصلح واطمئنانه إلى النظام الجديد[1].

وهذا طـبيعـى لايحتـاج فـهمـه وقـبوله إلى تكـلف من تكلّف من الرواة والمؤرخين، الذين زعموا أن عمرو بن العاص هو الذى أغرى معاوية بدعوة الإمام

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص185.

الحسن عليه السلام إلى أن يتكلم؛ ليظهر للناس عجزه وضعفه أو ليسوءه أمام أنصاره وشيعته. فالحسن لم يختلس الصلح اختلاسًا، ولم يستخف به من الناس، والإمام الحسن عليه السلام قد خطب الناس غير مرة فى حياة أبيه وبعد وفاته، فلم يعرف منه عيًا أو حصرًا وهو بعد ذلك أو قبل ذلك من أهل بيت لم يُعرفوا قط بعىّ أو حصَر، وإنما كانوا معدن الفصاحة واللَّسن وفصل الخطاب. وقد خطب الإمام الحسن عليه السلام فقال خير ما كان يمكن أن يقال وأصدق ما كان يمكن أن يقال أيضًا، قال: «**أيها الناس إن أكيس الكيس التُّقى، وأحمق الحمق الفجور. إن هذا الأمر الذى سلمته لمعاوية إما أن يكون حق رجل كان أحق به منى فأخذ حقه، وإما أن يكون حقى فتركته لصلاح أمة محمد وحقن دمائها. فالحمد لله الذى أكرم بنا أوّلكم وحقن دماء آخركم**».

هذا الكلام قد أغضب معاوية، وأنه لام عمرو بن العاص لأنه هو الذى ألح فى أن يتكلم الإمام الحسن عليه السلام ثم هم بعد ذلك يزيدون فى كلام الإمام الحسن عليه السلام ما عسى أن يكون منه وما عسى ألا يكون ومهما يكن من ذلك فقط سخط على الإمام الحسن عليه السلام جماعة من أصحابه الذين أخلصوا له ولأبيه، وأخلصوا فى بغض معاوية وأهل الشام. ورأوا فى هذا الصلح نوعًا من التسليم لم يكن يلائم ما بذلوا أيام الإمام علىّ عليه السلام من جهد، ولم يكن يلائم كذلك ما كان فى أيديهم من قوة. فمنهم من كان يقول للحسن: يا مُذلّ المؤمنين، ومنهم من كان يقول له: يا مُذل العرب، ومنهم من كان يقول له: يا مسود وجوه العرب ولكن الإمام الحسن عليه السلام لم يحفل بشىء من ذلك، وإنما رضى عن خطته كل الرضا، رأى فيها حقنًا للدماء ووضعًا لأوزار الحرب وجمعًا لكلمة الأمة، وتمكينًا للمسلمين من أن يستقبلوا أمورهم مؤتلفين لا مختلفين ومتفقين لا مفترقين، ومن أن يفرغ أهل الثغور لثغورهم يردون عنها طمع العدو فيها وفيما وراءها، ومن أن يفرغ الجند للفتح يستأنفونه من حيث وقفته الفتنة. ويقول الرواة: إن الإمام الحسين بن علىّ عليهما السلام لم يكن يرى رأى أخيه ولا يُقرّ ميلَه إلى السلم، وإنه ألحّ على أخيه فى أن يستمسك ويمضى فى الحرب، ولكن أخاه امتنع عليه وأنذره

بوضعه فى الحديد إن لم يطعه. وليس فى هذا شىء من الغرابة: فقد كان الإمام علىّ ﷺ نفسه يتنبأ ببعض ذلك، يتحدث بأن الإمام الحسن ﷺ سيخرج من هذا الأمر، وبأن الإمام الحسين ﷺ هو أشبه الناس به، وربما قسا على الإمام الحسن ﷺ شيئًا فقال: إن الحسن فتى من الفتيان صاحب جفان وخوان. وقد فرغ الإمام الحسن ﷺ من هذا الأمر كله وارتحل بأهل بيته إلى المدينة، وترك معاوية فى الكوفة يدبر دولته الجديدة كما يشاء. ولكن الإمام الحسن ﷺ لم يكد يبعد عن الكوفة حتى أدركه رسول معاوية يريد أن يرده إلى الكوفة ليقاتل طائفة من الخوارج خرجت عليه. فأبى الإمام الحسن ﷺ أن يعود، وقال: لقد صالحته وما أريد إلا حقن الدماء واجتناب الحرب. وانتهى الإمام الحسن ﷺ إلى المدينة فلقى من أهلها إثر وصوله إليها مَن لامه فى الصلح كما لامه فيه أهل الكوفة، فكان يقول للائميه: كرهت أن ألقى الله عز وجل فإذا سبعون ألفًا أو أكثر تشخب أوداجهم دمًا، يقول كل منهم: ياربى، فيم قُتلت. ولم يكد الإمام الحسن ﷺ يترك الكوفة فى طريقه إلى المدينة حتى أظهر معاوية لأهل العراق شدة بعد لين، وعنفًا بعد رفق فأعلن إليهم أول الأمر ألا بيعة لهم عنده حتى يكفوه بوائقهم. ويردوا عنه خوارجهم هؤلاء الذين خرجوا عليه. فمضى أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم كما كانوا يقاتلونهم أيام الإمام علىّ ﷺ. واستبان لهم أن أمرهم لم يتغير وأنهم كانوا يقاتلون أبناءهم وإخوانهم وأولى مودتهم ليطيعوا عليًا، ثم هم الآن يقاتلونهم ليطيعوا معاوية. ثم أعلن إليهم آخر الأمر أن ذمته بريئة ممن لم يقبل فيعطى البيعة. وأجلهم ثلاثًا فأقبل الناس من كل أوب يبايعون. وهذا كله إن دل على شىء فإنما يدل على أن معاوية صانع أهل العراق. فلما تم له ما أراد اصطنع الحزم وساس أهل العراق سياسة لم يكونوا يعرفونها من قبل فأخرجهم من الدعة التى ألفوها، وعلمهم أن طاعة الأمراء فرض لاينبغى التردد فيه أو الالتواء به، وأن من لم يُعط الطاعة فلا أمان له، وقد برئت منه ذمة السلطان[1].

ومع مرور الأيام، كان تطلع المسلمين إلى المدينة بما فيها من هدى ونور، يفوق تطلعهم إلى دمشق رغم ما فيها من دنيا وإغراء. وراحت مجالسهم وندواتهم

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص187.

فى كل بلد تردد ما نقله الشقات من أصحاب الرسول عن حبه لابنيه «الإمام الحسن، والحسين عليهما السلام». كان الناس يسمعون ويتناقلون أنباء هذا الحب العظيم الذى أضفاه عليهما جدّهما النبى، فتكاد أفئدتهم تطير شوقًا إليهما حتى بعض أولئك الذين ناصبوهُما من قبلُ العداء. وراح المسلمون يرددون تلك الأحاديث التى تصور قدرَهما، والتى حباهما الرسول بها كثيراً:

«الحسن، والحسين سيدا شباب أهل الجنة. بعد عيسى ويحيى» «هذان ابناى وابنا ابنتى اللهم إنى أحبهما فأحبهما، وأحب من يُحبهما» «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً» «الحسن، والحسين ريحانتاى من الدنيا» «حُسين منِّى، وأنا من حسيْن، أحبَّ الله من أحبَّ حُسينًا»

وهكذا استولى على الناس ولع نبيل، بتتبع أنباء حياتهما ـ مذ أهلاً على الحياة. كيف اختار الرسول بنفسه اسميهما كيف كان يداعبهما كيف كان يحزنه أن يسمع بكاءهما. وراحت الوفود من كل مصر تشدّ رحالها إلى المدينة لتلقى بها ابنى رسول الله وأحب الناس إليه، ولترتشف من حكمة «الإمام الحسين عليه السلام» الذى عكف على إلقاء الدروس والعظات بمسجد الرسول. وكانت حلقات درسه غاية فى الجلال والمهابة وصفها معاوية نفسه فقال:

«إذا دخلت مسجد رسول الله، فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير؛ فتلك حلقة أبى عبدالله الحسين». كذلك أخذ الشاكون من ظلم ولاة معاوية واستهتارهم، يغذون السير إلى المدينة حاملين شكواهم إلى «الإمام الحسن والحسين عليهما السلام» فيدعُوان الناس للصبر، ويرسلان لمعاوية بالنصح.

تُرى، هل سيصبر بيت أبى سفيان على هذه المكانة المتصاعدة دومًا فى قلوب الناس للحسن وأخيه وأهل بيته؟ كلا. فذات يوم، دُسَّ للإمام الحسن عليه السلام السُّم فى الطعام. ويُمسك التاريخ فى هذه الجريمة الدنيئة، بإحدى زوجاته وهى ـ جعدة بنت الأشعث بن قيس ـ كما يمسك بأصابع الغدر الأموى. ومن عجب أن الأشعث بن قيس، والد جَعْدة، كان من أبرز أنصار الإمام علىّ عليه السلام ثم كانت له

أثناء خدعة التحكيم وبعدها مواقف مشبوهة، ومحاولات مريبة كانت سببًا في أكثر ما نزل بالإمام يومها من آلام وأخطار[1].

ومرض «الإمام الحسن عليه السلام» مرض الموت وبقيت أصالة فطرته وإيمانه متألقة، حتى تحت وطأة هذا الاغتيال الخفيّ، والسُّقم الفاجع الأليم. ففي علّته هذه، أخذ أخوه «الإمام الحسين عليه السلام» يُلحّ عليه كي يبوح له بمن يعتقد أو يظن أنه صاحب هذه الجريمة النكراء لكن حفيد الرسول العظيم، لاينسى مبادئه تحت سَحْق آلامه، فيسأل أخاه: «وفيمَ سؤالك عمَّن سقاني السُّم؟ أتريد أن تُقاتلهم؟ لا إني أكِلُ أمرهم إلى الله!!» انظروا إنه حتى في غمرة الموت لا تتخلف إرادته عن مبادئه، ويبقى رجل الأناة والسلام فيه، متفوقًا على الألم، وعلى الكراهية بل وعلى حقه العادل في القصاص المشروع وراح يملأ أيامه الباقيات بالصلاة والدعاء، مُردِّدًا منها ذلك الدعاء الذي كان جَدّه الرسول قد علّمه له منذ شبابه:

«اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيْت، وتولّني فيمن تولّيت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شرَّ ما قضيت، فإنك تَقضي، ولا يُقضى عليك، وإنه لايذِلّ من والَيت ولا يعزّ مَن عاديت تباركتَ ربَّنا، وتعاليت».

لقد هداك الله ـ أبا محمد ـ وعافاك، وتولاّك، وبارك لك فيما أعطاك وما تركتْ مقاديرك العظيمة جُرعة السّم تأخذ طريقها إليك، إلا لتستكمل بالشهادة والفداء، شرف الانتماء إلى بيت القرابين والشهداء. وبعد . فقد آن لبطل السلام أن تُزفَّ إلى الجنة روحه ولكن لاتزال أمامنا وصية يريد أن يوصى بها، فقد كان شوقه عظيمًا لأن يُدفن مع جده الرسول وكان قد استأذن «السيدة عائشة» في ذلك، فأذنت له. الآن، وشمس حياته تميل للغروب قال لأخيه الإمام الحسين عليه السلام:

«إذا مت فادفني مع النبي، فإني كنت قد طلبت ذلك من عائشة وأجابتني .. وإذا عارضك بنو أمية، فلا تراجعهم، وادفني في البقيع» ومن أسف أن الذي

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ـ ص57.

توقعه قد حدث فرفض مروان بن الحكم أمير المدينة من قبل معاوية أن تُحقَّق رغبة الشهيد المسَجَّى وأنزل إلى الشارع حرسه المسلَّح في خسَّة ودناءة، تليقان بمروان، وبمن على شاكلة مروان. ورأى «الحسين» رضى الله عنه ذلك، فانتضى سلاحه، وصمم على إنفاذ وصية أخيه. لكنّ نفراً من الصحابة الأجلاّء ذكروه بالفقرة الأخيرة من الوصية وحمَلوه عليها: «فإن منعوك، فلا تُراجعهم، وادفني في البقيع» وشَرُفَ ثرى البقيع بهذا الضيف المجيد. وآبتْ إلى وطنها في جنات الخلد، روح السيِّد وروح الشهيد[1].

وهكذا يستبعد الإمام الحسن ﷺ من رأسه فكرة المخاطرة، ببقايا الملتزمين بالخط السياسي الإصلاحي، ممن صمدوا في وجه الخوف والإغراء، وجسدوا ضمير الاتجاه الإسلامي وعنصر الاستمرارية فيه. وكانت المحافظة على الفئة النخبوية في إطار ما سيعرف بحركة التشيع - أحد الافرازات المنظمة لهذا الاتجاه - من أبرز هموم الإمام الحسن ﷺ في ذلك الوقت، حين جاءت وثيقة الصلح مع معاوية، تضم بين شروطها إعلان العفو العام والأمان لجماعته. ولعل مواقف الإمام الحسن ﷺ بعد اعتزاله الحياة السياسية وإقامته في «المدينة» تصب في هذا المسار، متجليًا ذلك في مقاومته الدائمة لنزعات التطرف بين شيعة الكوفة، وإلزامها بالهدوء والانضباط، كون الظروف برأيه لم تتغير، وفرص النجاح ما تزال غير قريبة. من أقوال الإمام الحسن ﷺ لوفود الكوفة بعد تنازله عن الخلافة: «ما أردت بمصالحتي معاوية إلا أن أدفع عنكم القتل، عندما رأيت من تباطؤ أصحابي عن الحرب» أو «فصافحت بقيًا على شيعتنا خاصة من القتل ورأيت دفع هذه الحرب إلى يوما»[2].

1 - خالد محمد خالد - نفس المرجع ص59.
2 - د. إبراهيم بيضون - من دولة عمر إلى دولة عبدالملك - ص142.

حكام أسرتى أبى سفيان وبنى مروان،

الأمويون من أبى سفيان

(1) معاوية بن أبي سفيان 40 هـ الموافق 660 م.

(2) يزيد بن معاوية – 60 هـ الموافق 679 م.

(3) معاوية بن يزيد – 64 هـ الموافق 683 م.

الأمويون من بنى مروان

(4) مروان بن الحكم – 64 هـ الموافق 683 م.

(5) عبد الملك بن مروان – 65 هـ الموافق 684 م.

(6) الوليد بن عبد الملك – 86 هـ الموافق 685 م.

(7) سليمان بن عبد الملك – 96 هـ الموافق 714 م.

(8) عمر بن عبد العزيز – 99 هـ الموافق 717 م.

(9) يزيد بن عبد الملك – 101 هـ الموافق 719 م.

(10) هشام بن عبد الملك – 105 هـ الموافق 723 م.

(11) الوليد بن يزيد بن عبد الملك – 125 هـ الموافق 742 م.

(12) يزيد بن الوليد بن عبد الملك – 126 هـ الموافق 743 م.

(13) إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك – 126 هـ الموافق 743 م.

(14) مروان بن محمد بن مروان – 127 هـ الموافق 744 م.

(15) سليمان بن هشام – 127 هـ الموافق 744 م.

1 - معاوية بن أبى سفيان:

هو «معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه «هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف»، ويلتقى نسبه من جهة أبيه وأمه مع نسب رسول الله ﷺ فى «عبد مناف»، ولقب بخال المؤمنين لأن أخته «أم حبيبة» أم المؤمنين كانت زوجًا للنبىﷺ. ولد قبل الهجرة بنحو خمسة عشر عامًا، وأسلم عام الفتح سنة (8هـ الموافق 629م)، مع أبيه وأخيه «يزيد ابن أبى سفيان» وسائر «قريش»، وشارك فى عهد «أبى بكر الصديق» فى فتوح الشام تحت قيادة أخيه الأكبر «يزيد». وعينه «عمر بن الخطاب» واليًا على الشام، بعد وفاة أخيه «يزيد» عام (18هـ الموافق 639م)؛ وظل فى ولايته مدة خلافة «عمر»، ثم أقره «عثمان بن عفان» (34 ـ 36هـ الموافق 654 - 656م) على ولايته، فاستمر فى سياسته الحكيمة، ضابطا لعمله، حارسًا لحدود إمارته، متصديا بكل حزم لأعداء الإسلام ،حبوبًا من رعيته. استقبل بعض المسلمون حكم «معاوية» استقبالا حسنًا، فكان خبيرًا بشئون الحكم وأمور السياسة، تدعمه فى ذلك خبرة واسعة، وتجربة طويلة فى الإدارة وسياسة الناس، امتدت إلى أكثر من عشرين عامًا، هى فترة ولايته على الشام، وأنه كان لمعاوية نصيب كبير من الذكاء والدهاء، وسعة الأفق، وقدرة فائقة على التعامل مع الناس على قدر أحوالهم، أعداء كانوا أم أصدقاء. وقد أفرغ «معاوية» جهده فى توطيد دعائم الدولة، واتبع فى تحقيق ذلك سياسة تقوم على دعائم ثابتة، تتلخص فيما يلى:[1]

ـ العمل على تضميد جراح الأمة، وتسكين نفوسها، وتأليف قلوبها بعد فترة مضطربة من حياتها، والإحسان والتودد إلى كبار الشخصيات من شيوخ

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ العصر الأموى ـ ص10.

الصحابة وأبنائهم، ومباشرته أعماله بنفسه. بهذه السياسة. استقرت الدولة، فأخذ «معاوية» بالشدة، واتسمت سياسته الخارجية وبخاصة تجاه الدولة البيزنطية بمواصلة الضغط عليها، ومحاصرة «القسطنطينية» ـ عاصمتها ـ أكثر من مرة، وجعلها تقف موقف الدفاع عن نفسها. وتوفى «معاوية» فى شهر رجب عام (60هـ الموافق 679م).

2 - يزيد بن معاوية (60 ـ 64هـ - الموافق 679 ـ 683م):

هو «يزيد بن معاوية بن أبى سفيان» وأمه «ميسون بنت مخول الكلبية». ولد فى «دمشق» عام (26هـ الموافق 646م) فى خلافة «عثمان بن عفان»، حين كان أبوه واليًا على الشام، فنشأ فى بيت إمارة وجاه، وقد عنى أبوه بتربيته تربية عربية إسلامية، فأرسله وهو طفل إلى البادية عند أخواله من «بنى كلب» فشب شجاعًا كريمًا، أبى النفس عالى الهمة، شاعرًا فصيحًا، وأديبًا لبيبًا، لكنه كان ميالاً إلى حياة اللهو والفجور.

توليته الخلافة

كان «يزيد» غائبًا عن «دمشق» عند وفاة أبيه فى (رجب - 60هـ الموافق 679م) فأخذ البيعة له «الضحاك بن قيس»، ولما حضر جاءته الوفود وأمراء الأجناد، لتعزيته فى أبيه وتهنئته بالخلافة، وتجديد البيعة له. وقد ترسم «يزيد» خطى أبيه، واستوعب وصيته له التى توضح له معالم طريقه السياسى، وتبين له كيفية التعامل مع المشكلات وأحوال الرعية، وهذه الوصية تعد من أهم الوثائق السياسية فى فن الحكم وإدارة الدول. حافظ «يزيد» على سلامة الدولة وهيبتها، وحمى حدودها، واستمرت حركة الفتوحات فى عهده، فوصل «عقبة بن نافع» إلى شواطئ «المحيط الأطلسى»، مخترقًا الشمال الإفريقى كله، وعبرت طلائع الفتح نهر «جيجون» لفتح بلاد «ما وراء النهر» (آسيا الوسطى). وكان يمكن لعهد

«يزيد» أن يكون امتداداً لعهد أبيه، استقراراً واستتبابًا، لولا عدة حوادث خطيرة عكرت صفو الأمة الإسلامية، وزلقت بظلال سوداء على عهد «يزيد»، وطمست إنجازاته، منها حادثة استشهاد الإمام «الحسين بن على» - رضى الله عنهما - فى «كربلاء» عام (63هـ الموافق 682م)، ثم قصف وتدمير «مكة المكرمة» للقضاء على دولة «عبدالله بن الزبير» عام (64هـ الموافق 683م) ولم تطل أيام «يزيد»، فقد توفى فى شهر ربيع الأول عام (64هـ الموافق 683م)،وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره.

3 -معاوية بن يزيد (أربعة أشهر)

هو «معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان»، وأمه «أم هاشم بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة»، ومع أنه لم ينهض بعمله باعتباره خليفة، فإنه أخذ مكانه فى سلسلة خلفاء الدولة الأموية، ويسميه بعض المؤرخين «معاوية الثانى»؛ لأن أباه قد عهد إليه بالخلافة بعده، طبقًا لنظام الوراثة الذى أسسه جده «معاوية»، وقد بايعه الناس بعد وفاة أبيه، لكنه أعلن فى صراحة أنه عاجز عن النهوض بمسئولية الخلافة، وعليهم أن يبحثوا عن شخص كفء من أهل الصلاح والتقوى لتحمل عبء منصب الخلافة. ولم تطل حياة ذلك الشاب الورع، حيث توفى بعد أبيه «يزيد» بنحو أربعة أشهر، أو بعد أربعين يومًا فى قول آخر.

4 -مروان بن الحكم (64 - 65هـ الموافق 683 - 684م)

هو «مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبدشمس». ولد فى السنة الأولى من الهجرة، وهو ابن عم الخليفة «عثمان بن عفان» رضى الله عنه، وكان كاتبه وأمين سره، وولاه «معاوية بن أبى سفيان» فى خلافته «المدينة المنورة» أكثر من مرة، ثقة منه بقدرته وخبرته السياسية التى اكتسبها طوال عمله مع «عثمان». «كان أبوه قد أسلم عام الفتح، ونفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف لأنه يتجسس

عليه، ورآه النبى ﷺ يوما يمشى ويتخلج فى مشيه كأنه يحكيه فقال له: كن كذلك، فما زال كذلك حتى مات. ولما توفى رسول الله ﷺ كلم عثمان أبا بكر فى رده، لأنه عمه، فلم يفعل فلما توفى أبو بكر وولى عمر كلمه أيضا فى رده، فلم يفعل، فلما ولى عثمان رده وقال: إن رسول الله ﷺ وعدنى أن يرده إلى المدينة، فكان ذلك مما أنكر الناس عليه». «لما مات بويع لولده عبدالملك بن مروان فى اليوم الذى مات فيه وكان يقال له ولولده بنو الزرقاء، يقول ذلك من يريد ذمهم وعيبهم، وهى الزرقاء بنت موهب جدة مروان بن الحكم لأبيه وكانت من ذوات الرايات التى يستدل بها على بيوت البغاء، فلهذا كانوا يذمون بها، ولعل هذا كان منها قبل أن يتزوجها أبو العباس بن أمية والد الحكم، فإنه كان من أشراف قريش»[1].

اضطرب أمر «بنى أمية» بعد رفض «معاوية بن يزيد» أن يتولى الخلافة، أو يعهد بالأمر إلى أحد من أهل بيته، وفى هذه الأثناء أعلن «عبدالله بن الزبير» نفسه خليفة للمسلمين عام (64هـ) فى «مكة»، فبايعته «العراق» و«مصر»، حتى الشام نفسها معقل الأمويين بايعه معظم أقاليمها، وبدا الأمر كما لو أن دولة الزبيريين قامت، ودولة الأمويين بادت. كان «مروان بن الحكم» وابنه يعيشون فى «المدينة المنورة» فأخرجهم منها «عبدالله بن الزبير» فرحلوا إلى الشام، حيث تجمع هناك كل أنصار «بنى أمية» وولاتهم، من أمثال: «عبيد الله بن زياد»، و«الحصين بن نمير»، فأخذوا يشجعون «مروان» على تحمل قيادة البيت الأموى، ومنع دولتهم من السقوط. وبعد مداولات طويلة بين زعماء القبائل استغرقت عدة شهور عقد مؤتمر فى «الجابية» بالقرب من «دمشق»، فى شهر ذى القعدة عام (64هـ الموافق 683م)، بويع فيه «مروان بن الحكم» بالخلافة، باعتباره أكبر أبناء البيت الأموى

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص92 وانظر: ابن الأثير ج4 ص193.

سنًا، وأكثرهم تجربـة. كان على «مروان» بعد بيعته أن يثبت جدارته بهذا المنصب وأهليتـه له، بأن يسترد نفوذ «بنى أمية» وسلطانهم فى الشام، معـقلهم الرئيسى، الذى خضع مـعظمه لعبـدالله بن الزبير، ومن ثم خاض «مـروان» مع أنصار «ابن الزبير» معركة كبيرة فى «مرج راهط»، شرقى «دمشق» فى نهاية عام (64هـ الموافق 683م)، كان النـصر فيـها حليف «مـروان»، وبداية الطريق لاستعادة الأمـويين لدولتهم التى كانت قاب قوسـين أو أدنى من الزوال. ولم يضع «مروان» وقتًا بعد هذا الانتصار، فعـاد إلى «دمشق» حيث تلقى وفود المهنئين والمبايعـين، وبعد فترة قصـيرة اطمـأن فيهـا على استـقرار الأوضاع فـى الشام ترك ابنه «عبـدالملك» فى «دمشق» نائبًا عنه فى حكمها، وتوجـه إلى «مصر» التى كانت تحت حكم «عبدالله ابن الزبير»، فاستردها بسهولة، وأقام بها نحو شهرين، رتب فيها أوضاعها، وعين ابنه «عبدالعـزيز» واليًا عليها، وعـاد هو إلى «دمشق»، ليستـأنف صراعه مع «ابن الزبيـر»، لكن الموت عـاجله سنة (65هـ الموافق 684م) بعـد حكم دام عـشـرة شهور[1].

5 -عبدالملك بن مروان (65 -86هـ الموافق 684 - 705م)

فى هذه السنة أمر مروان بن الحكم بالبـيعة لابنيه عبد الملك وعـبد العزيز. وكان السبب فى ذلك أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير حين وجهه أخوه عبدالله إلى فلسطين رجع إلى مروان وهو بدمشق قد غلب على الشام ومصر، فبلغ مروان أن عمرا يقول: إن الأمـر لى بعد مروان، فدعا مروان حسان ابن مالك بن بحدل فأخبره أنه يريد أن يبايع لابنيه عبدالملك وعبدالعزيز وأخبره بما بلغه عن عمـرو فقال: أنا أكفيك عمـرا، فلما اجتمع الناس عند مروان عـشيا قام حسان فقال: إنه قد بلغنا أن رجالا يتمنون، قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبدالعزيز، فبايعوا عن آخرهم».

---

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ـ ص12.

ذكر موت مروان بن الحكم وولاية ابنه عبدالملك (65هـ الموافق 684م)

«في شهر رمضان من هذه السنة مات مروان بن الحكم. وكان سبب موته أن معاوية بن يزيد لما حضرته الوفاة لم يستخلف أحدا، وكان حسان بن بحدل يريد أن يجعل الأمر من بعده في أخيه خالد بن يزيد وكان صغيرا وحسان خال أبيه فبايع حسان ابن الحكم وهو يريد أن يجعل الأمر بعده لخالد، فلما بايعه هو وأهل الشام قيل لمروان تزوج أم خالد وهي بنت أبي هاشم بن عتبة، حتى يصغر شأنه فلا يطلب الخلافة، فتزوجها فدخل خالد يومًا على مروان وعنده جماعة وهو يمشي بين صفين: فقال مروان: والله انك لأحمق تعال يا ابن الرطبة الأست يقصر به ليسقطه من أعين أهل الشام. فرجع خالد إلى أمه فأخبرها، فقالت له: لا يعلمن ذلك منك إلا أنا، أنا أكفيكه فدخل عليها مروان فقال لها: هل قال لك خالد في شيئا؟ قالت: لا، إنه أشد لك تعظيما من أن يقول فيك شيئا. فصدقها ومكث أياما، ثم إن مروان قام عندها يوما فغطته بوسادة حتى قتلته، فمات بدمشق وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل إحدى وستين وأراد عبدالملك قتل أم خالد فقيل له: يظهر عند الخلق أن امرأة قتلت أباك، فتركها»[1].

خبر ولاية الحجاج بن يوسف العراق: في هذه السنة (75هـ الموافق 649م) ولى عبدالملك الحجاج بن يوسف العراق دون خراسان وسجستان، فأرسل إليه عبدالملك بعهده على العراق وهو بالمدينة وأمره بالمسير إلى العراق، فسار في اثنى عشر راكبا على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجأة، وقد كان بشر بعث المهلّب إلى الخوارج، فبدأ الحجاج بالمسجد فصعد المنبر (فقال): إني والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التين ولايقعقع لي بالشنان، ولقد مررت عن

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسي ـ عندما يحكم الإسلام ص91 وانظر ابن الأثير ج4 ص981 ـ 194 ـ الطبري ج7 ـ ص 83.

ذكاء وجريت إلى الغاية القصوى. ثم قرأ: (ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون). وأنتم أولئك وأشباه أولئك، إن أمير المؤمنين عبدالملك نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فوجهني إليكم ورمى بي في نحوركم، فإنكم أهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق، فإنكم طالما أوضعتم في الشر وسننتم سنن الغي فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان ولأمرينكم به حتى تدرّوا، ولألحونكم لحو العود، ولأعصبنكم عصب السلمة حتى تذلّوا، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تذروا العصيان وتنقادوا، ولأفرعنكم قرع المدرة حتى تلينوا، إني والله ما أعد إلا وفيت، ولا أخلق إلا فريت. وهذه الجماعات ولايركبن رجل إلا وحده، أقسم بالله لتقبلن على الإنصاف، ولتدعن الإرحاف وقيلا وقال وما تقول وما يقول وأخبرني فلان، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده، فيم أنتم وذاك؟ والله لتستقيمن على الحق أو لأضربنكم بالسيف ضربا يدع النساء أيامى، والولدان يتامى، حتى تذروا السمهى، وتقلعوا عن هواها، إلا أنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جبى فيء ولا قوتل عدو ولعطلت الثغور ولو أنهم يغزون كرها ما غزوا طوعا[1]

خبر ما كان بين أنس بن مالك والحجاج: «وقتل مع ابن الجارود عبدالله ابن أنس بن مالك الأنصاري، فقال الحجاج: ألا أرى أنسا يعين علي؟ فلما دخل البصرة أخذ ماله، فحين دخل عليه أنس قال: لا مرحبا ولا أهلا بك يا ابن الحبشية! شيخ خلال جوال في الفتن مرّة مع أبي تراب ومره مع الزبير ومره مع ابن الجارود أما والله لأجردنك جرد القضيب، ولأعصبنك عصب السلمة

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسي ـ نفس المرجع ـ ص94 ـ وانظر ابن الأثير ج4 ص375 الطبري ج7 ـ ص210.

ولأقلعنك قلع الصمغة. فقال أنس: من يعنى الأمير؟ فقال: إياك أعنى أصم الله صداك، فرجع أنس فكتب إلى عبدالملك كتابا يشكو فيه الحجاج وما صنع به، فكتب عبدالملك إلى الحجاج: أما بعد يا ابن أم الحجاج فإنك عبد طمت بك الأمور فعلوت فيها حتى عدوت طورك وجاوزت قدرك، يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب لأغمزنك غمزة كبعض غمزات الليوث الثعالب، ولأخبطنك خبطة تود لها أنك رجعت فى مخرجك من بطن أمك، أما تذكر حال آبائك فى الطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ويحتفرون الآبار بأيديهم فى أوديتهم مياههم؟ أنسيت حال آبائك فى اللؤم والدناءة فى المروّة والخلق؟ وقد بلغ أمير المؤمنين الذى كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقداما وأظنك أردت أن تسبر ما عند أمير المؤمنين فى أمره فتعلم إنكاره ذلك وإغضاءه عنك، فإن سوغك ما كان منك مضيت عليه قدما، فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين أصك الرجلين، ممسوح الجاعرتين. ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب أكثر فى الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين لأرسل من يسحبك ظهرا لبطن حتى يأتى بك أنسا فيحكم فيك. فأكرم أنسا وأهل بيته واعرف له حقه وخدمته رسول الله ﷺ، ولاتقصرن فى شىء من حوائجه ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إلكه من أمر أنس وبره وإكرامه فيبعث إليك من يضرب ظهرك ويهتك سترك ويشمت بك عدوك، والقه فى منزله متنصلا إليه، وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله، والسلام».

خبر خطبة عبدالملك فى الحج: «وحج عبد الملك بالناس (75هـ الموافق 694م) فخطب الناس بالمدينة فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد فإنى لست بالخليفة المستضعف، يعنى عثمان، ولا بالخليفة المداهن، يعنى معاوية، ولا بالخليفة المأفون، يعنى يزيد، ألا وإنى لا أداوى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم، وإنكم تحفظوننا أعمال المهاجرين الأولين ولاتعملون مثل أعمالهم،

وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه. ثم نزل».

خبر عبدالملك يفرض البيعة لأولاده: «كتب الحجاج إلى عبدالملك يزين له بيعة الوليد وأوفد في ذلك وفدا فلما أراد عبدالملك خلع عبدالعزيز والبيعة للوليد كتب إلى عبدالعزيز: إن رأيت أن يصير هذا الأمر لابن أخيك. فأبى، فكتب إليه ليجعل الأمر له ويجعله له أيضا من بعده، فكتب إليه عبدالعزيز: إني أرى في ابن أبي بكر ما ترى في الوليد، فكتب إليه عبدالملك ليحمل خراج مصر. فأجابه عبد العزيز: إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا، وإنا لاندري أينا يأتيه الموت أولا، فإن رأيت أن لاتفسد على بقية عمري فافعل. فرق له عبد الملك وتركه، وقال للوليد وسليمان: إن يرد الله أن يعطيكما الخلافة لايقدر أحد من العباد على رد ذلك. فقال عبدالملك: اللهم إنه قطعني فاقطعه. فلما مات عبدالعزيز قال أهل الشام: رد على أمير المؤمنين أمره. فلما أتى خبر موته إلى عبدالملك أمر الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان، فبايعوا وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان. وكان على المدينة هشام بن اسماعيل فدعا الناس إلى البيعة فأجابوا، إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: لا أبايع وعبدالملك حي، فضربه هشام ضربا مبرحا وطاف به تبّان شعر حتى بلغ رأس الثنية التي يقتلون ويصلبون عندها ثم ردوه وحبسوه»[1]

«كان عبدالملك بن مروان أراد أن يخلع أخاه عبدالعزيز من ولاية العهد ويبايع لابنه الوليد بن عبدالملك، فنهاه عن ذلك قبيصة بن ذؤيب وقال: لاتفعل فإنك تبعث على نفسك صوت عار ولعل الموت يأتيه فتستريح منه. فكف عنه

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسي ـ نفس المرجع ص96 وانظر ابن الاثير ج4 ص514، الطبرى ج8 ص55.

ونفســه تنازعه إلى خـلعه. فـدخل عليـه روح بن زنبـاع وكـان أجل الناس عند عبدالملك، فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ماتنطح فيه عنزان، وأنا أول من يجيبك إلى ذلك. وقال: نصـبح إن شاء الله. ونام روح عند عبـدالملك، فدخل عليهـما قبيصة بن ذؤيب وهما نائمان، وكان عبـدالملك قد تقدم إلى حجابه أن لا يحجبوا قبيـصة عنه، وكان إليه الخاتم والسكة تأتيـه الأخبار قبل عبـدالملك والكتب. فلما دخل سلم عليه، وقال: آجـرك الله فى عبدالعزيز أخـيك. قال: هل توفى؟ قال: نعم، فاستـرجع ثم أقبل على روح وقال: كفانا الله ما كنا نريد. وأمـر عبدالملك الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان، فبايعوا وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان.

ولد «عبـدالله بن مروان بن الحكم» فى «المـدينة» عام (26هـ الموافق 684م) فى خلافة «عثمان بن عفان»، ونشأ بهـا نشأة علمية، وتتلمذ على كبار الصحابة، من أمثـال «عبدالله بن عمـر»، و«أبى سعيـد الخدرى»، و«أبى هريرة» - رضى الله عنهم، وبرع فى الفقه حتى عد من فقهـاء «المدينة»، وقد تواترت الأخبار عن فقهه وغزارة علمــه ورجاحة عـقله، قال عنه «الذهبى»: «ذكـرته لغزارة علمـه»، وقال «الشعبى»: «ما جالست أحداً إلا رأيت لى الفضل عليه إلا «عبدالملك بن مروان»، واحتج الإمام «مالـك بن أنس» بقضائه. ومكث «عبدالملك» معظم حـياته قبل أن يلى الخلافة فى «المدينة المنورة»، لم يغادرها إلا لحج أو لجهاد، فقد اشترك فى فتح وتحرير «المغرب العربى» فى عهد «معاوية بن أبى سفيان».

تولى «عـبد الملك» الخـلافة بعـد وفاة أبيـه فى رمضـان عام (65هـ الموافق 684م)، ووجد الدولة الإسلامية قد تنازعتها خمس دول: دولته هو، وتتكون من «مـصر» والشـام وعاصـمتـها «دمـشق»، ودولة «عـبدالله بن الزبيـر» وتتكون من «الحجـاز» وبعض «العـراق» و«بلاد فارس»، وعاصـمتـها «مكة المكرمـة»، ودولة للشيعـة أقامها «المختـار بن أبى عبيد الثقـفى» فى جزء من «العراق»، وعاصـمـتها «الكوفة»، ودولة للخوارج الأزارقـة فى إقليم «الأهواز»، جنوبى شرقى «العراق»،

ودولة للخوارج في عمان وحضرموت. رأى «عبدالملك» أن هذه الدول التي برزت خلال الفوضى التي عمت بعد وفاة «يزيد بن معاوية» لا رابط يجمع بينها سوى العداء لبني أمية، فتركهم في البداية يأكل بعضهم بعضًا، فاشتبك «ابن الزبير» مع «المختار الثقفي»، وقضى عليه تمامًا حتى أرسل له جيشًا بقيادة أخيه «مصعب بن الزبير»، فتمكن من هزيمته عام (67هـ الموافق 686م)، وبذلك تخلص «عبدالملك» من واحد من أقوى خصومة دون أن يبذل أي جهد، ثم توجه هو على رأس جيش استطاع أن يقضي به على «مصعب بن الزبير» عام (72هـ الموافق 691م)، ثم أرسل جيشًا بقيادة «الحجاج بن يوسف» إلى «مكة» استطاع أن يقضي على «عبدالله بن الزبير» عام (73هـ الموافق 692م)، كما نجح عبدالملك في القضاء على دولتي الخوارج، وبذلك تخلص من خصومه، وقضى على الانقسامات التي أضعفت الدولة الإسلامية، وأعاد إليها وحدتها، ولذا عده المؤرخون المؤسس الثاني للدولة الأموية، وعدوا عام (73هـ الموافق 692م) عام الجماعة الثاني.

أظهر «عبدالملك» براعة فائقة في إدارة الدولة وتنظيم أجهزتها، مثلما أظهر براعة في إعادة الوحدة إلى الدولة الإسلامية، فاعتمد على أكثر الرجال - في عصره - مهارة ومقدرة، وأعظمهم كفاءة وخبرة، وسياسة وإدارة، ومن أبرزهم «الحجاج بن يوسف الثقفي» الذي عهد إليه «عبدالملك» بإدارة القسم الشرقي للدولة، الذي تكون من «العراق»، وكل أقاليم الدولة الفارسية القديمة، وكان «الحجاج» عند حسن الظن به، فبذل أقصى طاقته في تثبيت أركان الدولة، والقضاء على كل مناوئيها، وكذلك إخوة «عبدالملك» الذين كانوا من أبرز ركائز دولته، ومنهم: «بشر بن مروان»، «ومحمد بن مروان» و«عبدالعزيز بن مروان» الذي ولي «مصر» نحو عشرين عامًا (65 - 85هـ الموافق 684 - 704م). وتفقد «عبدالملك» أحوال دولته بنفسه وتابع أحوال عماله وولاته، وراقب سلوكهم، ولم يسمح لأحد منهم بأن يداهنه أو ينافقه. وأنجز أعمالا إدارية ضخمة، دفعت بالدولة الإسلامية أشواطًا على طريق التقدم والحضارة، تمثلت في تعريب دواوين

الخراج في الدولة الإسلامية كلهـا، وتعريب النقود، وتنظيم ديوان البريد، وجعله جـهازاً رقـابيا، يراقب العـمـال والولاة ويرفع إليه تقـارير عن سـير العـمل فى الولايات. قال أبو مـسهر: قـيل لعبد الملك بن مـروان فى مرضه: كـيف تجدك؟ قال: أجدنـى كما قال الله تعـالى: «ولقد جئتـمونا فرادى كمـا خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم». وقال سعـيد بن بشير: إن عبدالملك حين ثقل جعل يلوم نفـسه ويضرب يده على رأسـه، وقال: وددت أنى كنت أكتـسب يوما بيوم ما يقوتنى بطاعة الله، فذكر ذلـك لابن حازم، فقال: الحمدلله الذى جعلهم يتمنون عند المـوت ما نحن فيـه ولانتمنى عند الموت ماهم فـيه. وقال عـمران بن موسى المودب: يروى أن عبـدالملك بن مروان لما اشتد عليه مرضـه قال: ارفعونى على شرف. فـفعل ذلك. فـتنسم الروح ثم قال: يادنـيا ما أطيـبك، إن طويلك لقصير، وإن كبيرك لحقير، وإن كنا منك لفى غرور، وتمثل بهذين البيتين:

إن تناقـش يكن نقاشـك يار ... بّ عذابا، لا طوق لى بالعذاب

أو تجاوزت فانت ربّ صفوح ... عن مسىء ذنـوبه كالـــتراب

يحق لعبدالمـلك أن يحذر هذا الحذر ويخاف، فإن من يـكن الحجاج بعض سيئاته يعلم على أى شىء يقدم عليـه. قال عبـدالملك لسعيـد بن المسيب: يا أبا محـمد صرت أعمل الخـير فلا أسر بـه، وأصنع الشر فلا أساء به. فـقال: الآن تكامل فيك مـوت القلب. توفى عبدالملك بن مروان منـتصف شوال 86هـ الموافق 705م وكان عمره ستين سنة وقـيل ثلاثا وستين سنة. وأوصى بنيه فقال: انظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنـه نابكم الذى عنه تفترون ومحنكم الذى عنه ترمون، فاكرمـوا الحجاج فإنه الذى وطأ لكم المنابر ودوّخ لكم البـلاد وأذلّ الأعداء وكونوا بنى أم بردة لاتدب بينكم العقـارب. وضعوا معروفكم عند ذوى الأحـساب فإنهم أصون له وأشكر لما يؤتى إليهم منه» [1].

---

1 ـ د. عبدالله فهـد النفيـسى ـ المرجع السابق ص96 وانظر ابن الأثير ج4 ص514. والطبرى ج8 ص55.

6 - الوليد بن عبدالملك (86 - 96هـ)

هو «الوليد بن عبدالملك بن مروان». ولد عام (50هـ الموافق 670م)، وهو أكبر أبناء «عبدالملك»، الذى حرص على تربيتهم تربية إسلامية، فعهد بهم إلى كبار العلماء والصلحاء لتعليمهم وتربيتهم، وخص ابنه «الوليد» بعناية خاصة، لأنه ولى عهده، وخليفته فى حكم الدولة الإسلامية، فشب «الوليد» على الصلاح والتقوى، حافظًا للقرآن، دائم التلاوة له. تولى «الوليد» الخلافة بعد وفاة أبيه، الذى ترك له دولة واسعة الثراء، غنية بالموارد، قوية الساعد، مرهوبة الجانب، موحدة الأجزاء، متماسكة البناء، موطدة الأركان، فاستثمر ذلك على أحسن وجه فى الفتوحات الإسلامية، فاستكمل المسلمون فى عهده فتح وتحرير المغرب العربى كله، وفتحوا بلاد «الأندلس»، وأتموا فى المشرق فتح بلاد «ما وراء النهر» - آسيا الوسطى - وفتح إقليم «السند» فى «شبه القارة الهندية». وبرز فى عهده عدد من القادة الكبار، منهم من أشرف على فتح تلك البلاد، مثل: «الحجاج بن يوسف الثقفى»، ومنهم من قاد تلك الفتوحات بنفسه، مثل: «قتيبة بن مسلم الباهلى» فاتح بلاد «ما وراء النهر»، و «محمد بن القاسم الثقفى» فاتح «السند»، و«موسى ابن نصير» و«طارق بن زياد» فاتحى «الأندلس». كما نهض «مسلمة بن عبدالملك» أخو «الوليد» بمنازلة الدولة البيزنطية، ومواصلة الضغط عليها، والاستعداد لمحاصرة عاصمتها «القسطنطينية». وشهد عصره نهضة عمرانية كبرى، فأعاد بناء «المسجد النبوى» وأدخل عليه توسعات كبيرة، وعهد إلى ابن عمه والى «المدينة» «عمر بن عبدالعزيز» بمتابعة ذلك، كما بنى «المسجد الأقصى» فى مدينة «القدس»، وبنى «مسجد دمشق»، وأنفق عليه كثيرًا ليكون آية من آيات العمارة، وعنى عناية فائقة بتعبيد الطرق التى تربط بين أجزاء الدولة، التى امتدت أطرافها من «الصين» شرقًا إلى «الأندلس» غربًا، ومن «بحر قزوين» شمالا إلى «المحيط الهندى» جنوبًا وبخاصة الطرق التى تؤدى إلى «مكة المكرمة»، لتسهل سفر حجاج بيت الله الحرام.

«وكان الوليد أراد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لولده عبدالعزيز فأبى سليمان، فكتب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك، فلم يجبه إلا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس، فكتب الوليد إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه فأبطأ، فعزم الوليد على المسير إليه ليخلعه وأخرج خيمة، فمات قبل أن يسير إليه. وكان الوليد لحانا لايحسن النحو، دخل عليه أعرابى فمت إليه بصهر بينه وبين قرابته، فقال له الوليد: من ختنك؟ بفتح النون، وظن الأعرابى أنه يريد الختان، فقال: بعض الأطباء. فقال له سليمان: إنما يريد أمير المؤمنين من ختنك؟ وضم النون. فقال الأعرابى: نعم فلان، وذكر ختنه. وعاتبه أبوه على ذلك وقال: إنه لايلى العرب إلا من يحسن كلامهم. فجمع أهل النحو ودخل بيتا فلم يخرج منه ستة أشهر ثم خرج وهو أجل منه يوم دخل. فقال عبدالملك: قد أعذر. وخطب يوما فقال: يا ليتها كانت القاضية، وضم التاء، فقال عمر بن عبدالعزيز: عليك وأراحتنا منك»[1].

وفى عهده سبقت الدولة الإسلامية كل دول العالم فى تقديم الخدمات للناس مجانًا، وبخاصة الخدمات الطبية لأصحاب الأمراض المزمنة، يقول «الطبرى»: «كان الوليد عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد، مسجد دمشق، ومسجد المدينة، ووضع المنابر، وأعطى الناس، وأعطى المجذومين، وقال لا تسألوا الناس، وأعطى كل مقعد خادمًا، وكل ضرير قائدًا، وفتح فى عهده فتوح عظام». وتوفى الوليد بن عبدالملك فى جمادى الآخر عام (96هـ الموافق 714م). وخلف تسعة عشر ابنا وكان دميما يتبختر فى مشيته وكان سائل الأنف جدا».

7 -سليمان بن عبدالملك (96 . 98هـ الموافق 714 - 716م)

هو «سليمان بن عبدالملك بن مروان». ولد فى «المدينة»، ونشأ فى الشام، وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه أخوه «الوليد بن عبدالملك». كان

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص98 وانظر: ابن الأثير ج4 ص522 ـ الطبرى ج8 ـ ص97.

«سليمان» من أفضل أولاد «عبد الملك»، ومن أكبر أعوان أخيه «الوليد» أثناء خلافته، وولى له «فلسطين»، وصفه «الذهبى» بقوله: «من أمثل الخلفاء - يعنى من أفضلهم - نشر علم الجهاد، وكان دينا فصيحًا فوها، عادلا محبًا للغزو، استعان فى إدارة دولته وتصريف شئونها بعظماء الرجال وصالحيهم، من أمثال: ابن عمه «عمر بن العزيز»، و«رجاء بن حيوة». حافظ «سليمان» على هيبة الدولة ومكانتها، فواصل الجهاد والفتوحات، وأرسل جيشًا بقيادة أخيه «مسلمة بن عبدالملك» لحصار «القسطنطينية»، فدام نحو عام كامل (98 - 99هـ الموافق 716 - 717م)، وأشرف بنفسه على هذه الحملة، حيث اتخذ من مدينة «مرج دابق» شمالى الشام مركز قيادة له؛ ليكون على مقربة من ميدان المعارك الحربية، وتوفى هناك فى شهر صفر عام (99هـ الموافق 717م)، ولذا يعده بعض العلماء أنه مات شهيدًا، بعد أن توج أعماله بعمل يدل على صلاحه وحرصه على مصالح المسلمين، وهو تولية ابن عمه «عمر بن عبدالعزيز» الخلافة من بعده[1]. وكان الناس يقولون: سليمان مفتاح الخير، ذهب عنهم الحجاج وولى سليمان فأطلق الأسرى وأخلى السجون وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبدالعزيز. وكان موته بدابق من أرض قنسرين، لبس يوما حلة خضراء ونظر فى المرآة فقال: أنا الملك الفتى، فما عاش جمعة»[2].

8 - عمر بن عبدالعزيز (99 - 101هـ)

هو «عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم»، وأمه «أم عاصم بنت عاصم ابن عمر بن الخطاب»، ولد فى «المدينة المنورة» عام (62هـ الموافق 681م) على الأرجح، ونشأ بها بناء على رغبة أبيه، الذى تولى إمارة «مصر» بعد ولادة «عمر» بثلاث سنوات عام (65هـ الموافق 684م)، فنشأ بين أخواله من أسرة «عمر بن الخطاب»، ونهل من علم علمائها من بقية الصحابة، وكبار التابعين، حتى صار

1 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - المرجع السابق - ص15.
2 - ابن الأثير ج4 ص522.

من كبار الـفقهاء علمًا وعـملا. ظل «عمر» فى «المدينـة» حتى عام (85هـ الموافق 704م)، وهى السنة التى توفى فيهـا أبوه، فاستدعاه عمه «عـبدالملك بن مروان» إلى «دمشق»، وخلطه بأبـنائه، وزوجه ابنته «فـاطمة»، ثم عينه واليًا على منطقة «خناصرة» شمالى شرقى الشام، ثم عينه ابن عمه «الوليد ابن عبدالملك» واليًا على «المدينة المنورة»، فكان ذلك مـصدر سعـادة لعمر ولأهل «المديـنة» جميـعًا، ونعم الناس فى فتـرة ولايته عليـها (87 ـ 93) الموافق 705م بالعدل والأمن، وأشرك معه أهل العلم والفـضل منهم فى إدارة أمور الولاية فى عام 99هـ الموافق 717م.

«وفى هذه السنة اسـتـخلف عمـر بن عـبدالعـزيز. وسبـب ذلك أن سليمـان بن عبـدالملك لما كان بدابق مرض، على ما وصـفنا، فلما ثقل عهـد فى كتاب كتـبه لبعض بنيه، وهو غلام لم يبلغ، فقال له رجاء بن حيوة: ماتصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحـفظ الخليفـة فى قبره أن يسـتخلف على الـناس الرجل الصالح. فـقال سليمان: أنا أستـخير الله وأنظر فيه ولم أعزم، فمكث سليـمان يوما أو يومين ثم خرقه ودعا رجاء فقال: ماترى فى ولدى داود؟ فقال: هو غائب عنك بالقسطنطينة ولا تدرى أحى هو أم لا. قال: فمن ترى؟ قـال رجاء: رأيك. قال: فكيف ترى فى عمر بن عبدالعـزيز؟ قال رجاء: فقلت: أعلمه والله خيرا فـاضلا سليما. قال سليمان: هو على ذلك ولئن وليته ولم أولّ أحدًا سواه لتكونن فتنة ولايتركونه أبدا يلى عليـهم إلا أن يجعـل أحدهم بعـده، وكان عـبدالمـلك قد عـهد إلى الوليـد وسليمـان أن يجعـلا أخاهمـا يزيد ولى عهـد، فأمر سلـيمان أن يجـعل يزيد بن عـبدالملـك بعد عـمـر وكان يـزيد غائبـا فى الموسم. قـال رجـاء: قلت رأيك. فكتب:[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبدالله سليمان أمير المؤمنين لعمر ابن عبدالعزيز، إنى قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك يزيد بن عبدالملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم. وختم الكتاب».

1 ـ ابن الأثير ج5 ـ ص11، الطبرى ج8 ص102.

أخذ «عـمر بن عبدالعزيز» منـذ أن ولى الخلافة فى بذل كل مـا يملك من طاقة، وما يـتمتع به من خبرة فـى إصلاح أمور الدولة، واستقـرار الأمن، ونشر الرخاء والـعدل، وتحقـيق الكفاية والـوفرة فى كل أنحـائها، والحرص عـلى مال المسلمين، وإنفاقـه فى وجوهه المشروعة، وحسن التصـرف فى الأمور، والدقة فى اختـيار الولاة والقـضاة وسائـر كبار رجـال الدولة، وتحقـيق التوازن بين طبـقات المجتمع، ومـجادلة الخارجين على الدولة بالحسنى، لإقناعـهم بالعودة إلى حظيرة الجـماعـة. وقـد سرت تلك الروح فى كل نـاحيـة من نواحى الحـياة فى الأمـة الإسلاميـة، فعمها الرخـاء، وسادت فيها الكفـاية والعدالة الاجتماعـية، حتى إن عمال الصدقات كانوا يبحثون عن فقراء لإعطائهم فلا يجدون.

رأى «عمر بن عـبدالعزيز» أن الدولة اتسعت كـثيراً، وأن كثـيراً من المشاكل والأخطاء نشأت من ذلك الاتساع، فرأى وقف الفتوحات والاهتمام بنشر الإسلام فى البلاد التى تم فـتحها، وإرســال الدعاة والعلماء لدعـوة الناس بدلا من إرسال الجيوش والحملات، وقد أثمرت تلك الجهود نتـائج محمودة، فأقبل أبناء الشعوب المفتوحة على اعتناق الإسلام، يجذبهم إليه سمعة الخليفة الحسنة، وسمو أخلاقه، ونبله وعدله، الذى تجاوز حدود دولته إلى غيرها من الدول، فكان موضع إعجاب وتقدير، وحمد وثناء من أهلهـا، وبخاصة الدولة البيزنطية. وقد اسـتمرت خلافة «عمر» سنتـين وبضعة أشهر، شهـدت فيها الدولة إصلاحـات عظيمة فى الداخل والخارج، وامتلأت الأرض نوراً وعدلا وسماحة ورحمة، وتجدد الأمل فى النفوس بإمكان عودة حكم الراشدين، واقعًا ملموسًا وحـقيقة لا خيالا، وأن يقام المعوج، وينصلح الفاسد، ويرد المنحرف إلى جـادة الصواب، إذا استشعر الحاكم مسـئوليته عن الأمة أمـام الله، واستعـان بأهل الصلاح من ذوى الكفـاءة والقدرة، ومن ثم فليس بغريب أن يطلق على «عمر» «خـامس الخلفاء الراشدين»، وأن يكون موضع تقدير أشد الفرق عداء لبنى أميـة كالشيعة والخوارج[1]. «توفى عمر بن عبدالعزيز

---

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ـ ص16.

في رجب سنة إحدى ومـائة وكانت شكواه عشرين يوما. ولـما مرض قيل له: لو تداويت. قال: لو كان دوائي في مسح أذني ما مـسحتها، نعم المذهوب إليه ربي، وكان موته بدير سمعان[1].

9 ـ يزيد بن عبدالملك (101 ـ 105هـ الموافق 719 ـ 723م)

هو «يزيد بن عبـدالملك بن مروان»، وأمـه «عاتكة بنت يزيد بن مـعاوية بن أبي سفـيان». ولد في «دمـشق» عام (71هـ الموافق 690م) على وجه التـقريب، وبويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه ابن عمه «عمر بن العزيز» في نهاية شهر رجب (101هـ الموافق 719م). «وفيها تولى يزيد بن عـبدالملك بن مروان الخلافة، وكنيته أبو خالد، بعهد من أخيه سليمان بعد عمر بن عبدالعزيز، ولما احتضر عمر قيل له: اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة؟ قـال: بماذا أوصيه؟ إنه من بني عبدالملك. ثم كتب إليـه: أما بعد فاتـق يايزيد الصرعة بعد الغـفلة حين لاتقال العـثرة، ولا تقدر على الرجعـة، إنك تترك ما تترك لمن لايحمدك، وتصـير إلى من لايعذرك، والسلام» «وعمد يـزيد إلى كل ماصنعه عمر بن عبـدالعزيز مما لم يوافق هواه فرده ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثما آجلا».

ذكر البيـعة بولاية العهد لهـشام والوليد (102هـ الموافق 720م): «لما وجه يزيد بن عبدالملك الجيوش إلى يزيد بن المهلب واستـعمل على الجيش أخاه مسلمة ابن عبدالملك وابن أخيـه العباس بن الوليد بن عبدالملك. قال له العـباس: يا أمير المؤمنين إن أهل العـراق أهل غدر وارجـاف، وقد توجـهنا محاربـين، والحوادث تحدث ولا نأمن أن يرجف أهل العـراق ويقولوا مات أمير المؤمنيـن فيفت ذلك في أعضـادنا، فلو عهـدت عهد عـبدالعزيـز بن الوليد لكان رأيا صوابـا. فبلغ ذلك مسلمة بـن عبدالملك، فأتى أخاه يزيد فـقال: يا أمير المؤمنين، أيهـما أحب إليك أخوك أم ابن أخيك؟ فقـال: بل أخي ـ فقال: فأخوك أحق بالخلافـة. فقال يزيد:

---

1 ـ ابن الأثير ج5 ص28 ـ الطبري ج8 ـ ص128.

إذا لم تكن في ولدي فأخي أحق بها من ابن أخي كما ذكرت. قال فابنك لم يبلغ فبايع لهشام بن عبدالملك ثم بعده لابنك الوليد، وكان الوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة، فبايع بولاية العهد لهشام بن عبدالملك أخيه وبعده لابنه الوليد بن يزيد، ثم عاش يزيد حتى بلغ ابنه الوليد، فكان إذا رآه يقول: الله بيني وبين من جعل هشاما بيني وبينك». «كان يزيد من فتيانهم، فقال يوما وقد طرب وعنده حبّابة وسلامة القس (وهما جاريتان): دعوني أطير. قالت حبابة: على من تدع الأمة؟ قال: عليك فقالت: على من تخلف الأمة والملك؟ قال: عليك والله، وقبل يدها، فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك»[1].

تدل أخباره قبل توليه الخلافة على أنه كان يحب العلم ومجالسة العلماء، ولديه ميل إلى الاستقامة، وقد حاول بعد توليه الخلافة أن يقتدى بسلفه العظيم «عمر بن عبدالعزيز»، لكن قرناء السوء حالوا بينه وبين ذلك، وزينوا له حياة اللهو واللعب، ويعبر عن ذلك «ابن كثير» بقوله:

«فلما ولي - «يزيد بن عبدالملك» الخلافة - عزم على أن يتأسى بسيرة «عمر ابن عبدالعزيز»، فما تركه قرناء السوء، وحسنوا له الظلم». ولم تكن مناعة «يزيد» ضد الانغماس في حياة اللهو قوية، فاستجاب لقرناء السوء ورفاق اللهو، ولولا أن الدولة الأموية كانت زاخرة بالرجال الأفذاذ، وعامرة بالأبطال من أبناء الأسرة الحاكمة لانهارت في عصره، فقد عوض هؤلاء عدم كفاءة الخليفة لقيادة الدولة، ويأتي في مقدمتهم أخوه: «مسلمة بن عبدالملك» فارس «بني مروان»، وابن أخيه «العباس بن الوليد بن عبدالملك»، وابن عمه «مروان بن محمد بن مروان»، وقد نجح الأولان في القضاء على الثورة العارمة، التي أشعلها «يزيد بن المهلب» عام (102هـ الموافق 720م)، أحد أبناء البيوتات العربية الطامحة في الخلافة بعد ما نجح في السيطرة على معظم «العراق»، وعرض الدولة للسقوط،

---

1 - د. عبدالله فهد النفيسي - المرجع السابق ص101 وانظر: ابن الأثير ج5 ص67 - الطبرى ج8 - ص141.

كما تصدوا لحركات الخوارج وكل مناوئى الدولة، وحافظوا على سلامتها. ولم تطل خلافة «يزيد»، فقد توفى فى أواخر شهر شعبان عام (105هـ الموافق 723م). وكانت ولايته أربع سنين وشهرا وأياما وكان مرضه السل»[1].

10 ـهشام بن عبدالملك (105 ـ 125هـ الموافق 723 ـ 742م)

فى هذه السنة استخلف هشام بن عبدالملك لليال بقين من شعبان وكان عمره يوم استخلف أربعا وثلاثين عاما وأشهرا وكانت ولادته عام قتل مصعب بن الزبير سنة اثنين وسبعين، فسماه عبدالملك منصورا، وسمته أمه باسم أبيها هشام بن اسماعيل بن الوليد بن المغيرة المخزومى، فلم ينكر عبدالملك ذلك، وكانت أمه عائشة بنت هشام حمقاء فطلقها عبدالملك[2]. هو هشام بن عبدالملك بن مروان، رابع أبناء «عبدالملك» الذين ولوا الخلافة. ولد فى «دمشق» عام (72هـ الموافق 691م)، وبويع له بالخلافة عام (105هـ الموافق 723م). ومع أن المصادر التاريخية لم تحدثنا كثيراً عن حياته قبل الخلافة، وعمّا إذا كانت له مشاركة فى تسيير أمور الدولة أم لا، فإنها تجمع على أنه كان ذا رأى وبصيرة، وحكمة وفطنة، حازمًا ذكيّا، له بصر بالأمور، جليلها وحقيرها محشوا عقلا على حسب تعبير «الطبرى». وكان من حسن الطالع للدولة الأموية وللمسلمين أن يخلف «هشام بن عبدالملك» أخاه «يزيد»، فقد ظل فى الخلافة نحو عشرين عامًا، أدار فيها الدولة بكفاءة عالية، وأظهر حكمة سياسية فى تعامله مع الكتلتين العربيتين الرئيسيتين فى الدولة، وهما عرب الجنوب (اليمن)، وعرب الشمال الحجاريين، فلم يتحيز إلى كتلة ضد الأخرى، واحتفظ بعلاقة طيبة معهما ومع الجميع بصفة عامة، ولعل هذه السياسة هى التى كفلت للدولة الاستقرار النسبى طوال حكمه. وقد تمتع «هشام» بعديد من الصفات اللازمة لرجل الدولة، من حلم وتسامح وسعة صدر، وعدل وحزم، أما أبرز صفاته الإدارية على الإطلاق فهى قدرته الفائقة على تدبير

1 ـ ابن الاثير ج5 ص67 ـ الطبرى ج8 ص141.
2 ـ ابن الأثير ج5 ـ ص120 ـ الطبرى ج8 ـ ص178.

الأموال وحسن التصرف فيها، مع تحرى العدل فى جمعها وإنفاقها على حد سواء فنعمت الدولة فى عهده باستقرار مالى كبير. وأظهر «هشام» كفاءة عالية ومقدرة فائقة فى إدارة الشئون الخارجية للدولة، فحافظ على هيبتها فى عيون أعدائها، وبخاصة الدولة البيزنطية. ولم يعكر صفو الدولة فى عهد «هشام» سوى ثورة «زيد بن على بن الحسين بن على» عام (121هـ الموافق 738م)، حين حرضه العراقيون على الثورة ضد «هشام»، والخروج عليه، ثم تخلوا عنه كما فعل أسلافهم مع جده «الحسين بن على» وتركوه يلقى حتفه عام (122هـ الموافق 739م) وقد حزن هشام على قتله، لأنه كان يكره سفك الدماء. وتوفى «هشام بن عبدالملك» فى مطلع شهر ربيع الآخر عام (125هـ الموافق 742م). بالرصافة ودفن بها وكان مرضه الذبحة وكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة شهور وواحداً وعشرين يوما.[1]

11 - الوليد بن يزيد بن عبدالملك (125 -126 هـ الموافق 742 - 743م)

«كانت بيعته لست مضين من شهر ربيع الآخر من السنة، وقد تقدم عقد أبيه ولاية العهد له بعد أخيه هشام بن عبدالملك وكان الوليد حين جعل ولى عهد بعد هشام ابن إحدى عشرة سنة، ثم عاش بعد ذلك فبلغ الوليد خمس عشرة فكان يزيد يقول: الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك فلما ولى هشام أكرم الوليدَ بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون وشرب الشراب، وكان يحمله على ذلك عبدالصمد بن عبد الأعلى مؤدبه، واتخذ له ندماء، فأراد هشام أن يقطعهم عنه فولاه الحج سنة ست عشرة ومائة، فحمل معه كلابا فى صناديق وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة وحمل معه الخمر، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر، فخوفه أصحابه وقالوا: لا نأمن الناس عليك وعلينا معك. فلم يفعل. فى عام 126هـ قتل الوليد بن يزيد بن عبدالملك الذى يقال له

---

1 ـ ابن الأثير ج5 ص261 ـ الطبرى ج8 ص283.

الناقص فى جمادى الآخرة. وكان سبب ذلك ما تقدم ذكره من خلاعته ومجانته، فلما ولى الخلافة لم يزد من الذى كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلا تماديا، فثقل ذلك على رعيته وجنده وكرهوا أمره». «كان من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم، منهمكا فى اللهو والشرب وسماع الغناء فظن ذلك من أمره فقتل. وأشعاره حسنة فى الغزل واللهو والفسق والمجون والعتاب ووصف الخمر وغير ذلك، وقد أخذ الشعراء معانيه فى وصف الخمر فسرقوها وأدخلوها فى أشعارهم وخاصة أبو نواس فإنه أكثرهم أخذا لها. قال الوليد: المحبة للغناء تزيد فى الشهوة، وتهدم المروءة، وتنوب عن الخمر، وتفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء رقية الزنا، وانى لأقول ذلك على وأنه أحب إلى من كل لذة، وأشهى إلى نفسى من الماء إلى ذى الغلة، ولكن الحق أحق أن يتبع، قيل: إن يزيد بن منبه مولى ثقيف مدح الوليد وهنأه بالخلافة، فأمر أن تعد الأبيات ويعطى بكل بيت ألف درهم، فعدت فكانت خمسين بيتا فأعطى خمسين ألف درهم، وهو أول خليفة عد الشعر وأعطى بكل بيت ألف درهم. ومما شهر عنه أنه فتح المصحف فخرج: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [سورة إبراهيم 15]، فألقاه ورماه بالسهام وقال:

تهددنى بجبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك حشر ... فقل يارب مزقنى الوليد

فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيرا حتى قتل». (1)

هو أول حفيد من أحفاد «عبدالملك بن مروان» يتولى الخلافة، طبقًا لنظام الوراثة الذى سار عليه الأمويون، وتعد خلافة «الوليد بن يزيد» بداية النهاية للدولة الأموية، وطليعة سقوطها؛ لأنه كان على شاكلة أبيه لهواً ولعبًا، وإذا كان أبوه قد

1 ـ ابن الأثير ج5 ص280 ـ 290 الطبرى ج8 ص288.

رزق من يعـوض نقص كفاءته فـى الحفاظ على سـلامة الدولة، من إخـوته وأبناء عمـومتـه، فإن «الوليد» لـم يجد مثل هذا مـن أفذاذ الرجال، بل ثار علـيه أبناء عمومته من أبنـاء «الوليد بن عبدالملك» وأخيه «هشام»، وشهـد عصره أول انقسام داخلى بين الأسرة الأموية وأشده خطراً. وقد حاول «الوليد» استرضاء الجند بزيادة رواتبهم، واستمـالة الناس بزيادة أعطياتهم من الأموال الكثيرة التى تركـها له عمه «هشام بن عبدالملك» فى خـزانة الدولة، لكن ذلك لم يمنع الثائرين عليه من أبناء عمـومته بزعامـة «يزيد بن الوليد» من تلطيخ سـمعته واتهـامه بالفسـق والفـجور، والمبالغة فى تلك التهم والتـشهير به؛ لأن «ابن الأثير» يقول: «إن خصـومه نجحوا فى خطتهم، وقتلوه فى جمادى الآخرة عام (126هـ الموافق 743م)».

12 - يزيد بن الوليد بن عبدالملك (126 - 127هـ الموافق 743-744م)

«فى هذه السنة بـويع يزيد بن الوليـد الذى يقـال له الـناقص، وإنما سـمى الناقص لأنه نقص الزيادة التى كـان الوليد زادها فى عـطيات الناس، وهى عـشرة عشرة، ورد العطاء إلى ما كان أيام هشام. ولما قتل الوليد بن يزيد خطب يزيد فى الناس فذمه وذكر إلحاده وأنه قتله لفـعله الخبيث وقال: أيها الناس إن لكم على أن لا أضع حجرا على حجر ولا لبنة، ولا أكترى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة وولدا، ولا أنقل مالا عن بلد، حـتى أسد ثغرة وخـصاصة أهله بما يغنيهم، فـما فضل نقلته إلى البلد الذى يليه، ولا أجمركم فى ثغوركم فأفتنكم، ولا أغلق بابى دونكم، ولا أحمل على أهل جـزيتكم.. فإن وفيت لكم بما قلت فـعليكم السمع والطاعة وحسن الوزارة، وإن لم أف فلكم أن تـخلعونى إلا أن أتوب، وإن علمتم أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم فى نفسـه مثل ما أعطيكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه. أيها الناس لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

ذكر بيـعة إبراهيم بن الوليد بالعـهد (126هـ الموافق 743م) «فى هذه السنة أمر يزيد بن الوليـد بالبيعـة لأخيه إبراهيم ومن بعـده لعبد العزيز بن الحـجاج بن

عبدالملك. وكان السبب فى ذلك أن يزيد مرض سنة ست وعشرين ومائة، فقيل له ليبايع لهما، ولم تزل القدرية بيزيد حتى أمر بالبيعة لهما»[1].

هو أول أموى من أم غير عربية يتولى الخلافة، فأمه فارسية تدعى «شاه أفريد بنت فيروز بن يزدجرد الثالث» آخر ملوك الفرس. تولى الخلافة بعد مقتل ابن عمه «الوليد بن يزيد» عام (126هـ الموافق 743م)، وحاول أن يظهر الصلاح والتقوى، ويتشبه بعمر بن عبدالعزيز فى عدله وزهده، ليمحو من أذهان الناس فعلته الشنعاء بابن عمه، لكنه لم ينجح فى ذلك، إذ اضطربت عليه الأمور، ونقم عليه الجند بعد أن أنقص أعطياتهم التى كان قد زادها الخليفة السابق، ولقبوه «يزيد الناقص». وقد اضطربت الدولة فى عهده اضطرابًا شديدًا، وجر عليها بفعلته كوراث لا قبل لها بها، وشغل أبناء الأسرة الأموية فى صراعات داخلية دموية، فى الوقت الذى كانوا فيه أحوج الناس إلى الوحدة والتضامن إزاء الدعوة العباسية التى نشطت استعدادًا للانقضاض على الدولة. وزاد الأمر سوءًا أن «يزيد» عجز عن المحافظة على سياسة التوازن بين القبائل العربية التى انتهجها عمه «هشام بن عبدالملك»؛ فانحاز إلى أهل «اليمن» الذين ساعدوه فى الثورة على «الوليد»، مما أغضب «عرب الحجاز»، فثاروا عليه فى الشام معقل «بنى أمية»، ثم أخذ الخلل والاضطراب يسرى فى جميع أقاليم الدولة. وفى ظل هذه الأحداث الهائجة، والأجواء العاصفة يتوفى «يزيد» فجأة فى نهاية عام (126هـ الموافق 743م)، «فى هذه السنة توفى يزيد بن الوليد لعشر بقين من ذى الحجة، وكانت خلافته ستة أشهر وليلتين . . وكان موته بدمشق وكان عمره ستا وأربعين سنة وهو القائل:

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدّتى خاقان

إنما جعل قيصر وخاقان جديه لأن أم فيروز بن يزدجرد ابنة كسرى شيرويه

---

1 ـ ابن الاثير ج5 ص291 ـ ص310 ـ الطبرى ج9 ص45.

ابن كسرى وأمها ابنة قيصر وأم شيرويه ابنة خاقان ملك الترك»[1]. توفى يزيد تاركًا الدولة غارقة في حالة من الفوضى والغليان[2].

13 - إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك (127هـ الموافق 744م)

على الرغم من مبايعة بعض الناس لإبراهيم بالخلافة بعد وفاة أخيه «يزيد» الذى كان قد عهد إليه بالخلافة، فإن الأمر لم يتم له، ولم يستطع أن يمسك بزمام الأمور فى الدولة التى انفرط عقدها، لذا يقول «الطبرى»: «كان الناس فى جمعة يسلمون على إبراهيم بن الوليد بالخلافة، وفى الأخرى بالإمارة، وفى الثالثة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة»، كما رفضت معظم أقاليم الشام بيعته، وحملته هو وأخاه «يزيد» مسئولية قتل «الوليد بن يزيد» وما ترتب على ذلك من فتن وشرور. وفى هذه الأثناء تحرك «مروان بن محمد بن مروان»، والى «أرمينيا» و«أذربيجان»، لإنقاذ الدولة من السقوط والضياع، بعد أن هاله وأفزعه ما أقدم عليه أبناء عمومته، وقدم إلى «دمشق» على رأس ثمانين ألف جندى، للقضاء على «إبراهيم بن الوليد» الذى هرب، فدخلها فى ربيع الآخر عام (127هـ الموافق 744م)، وبايعه الناس بالخلافة، مؤملين إنقاذ الدولة من الضياع، ولكن كان للأقدار رأى آخر، فقد شاءت أن تكتب فى عهده شهادة وفاة تلك الدولة.

14 - مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (127 - 132هـ الموافق 744 - 749م)

هو آخر خلفاء «بنى أمية»، ولى حكم «أرمينيا» و«أذربيجان» منذ خلافة ابن عمه «هشام بن عبدالملك»، وكان من أكفأ الولاة، وأكثرهم خبرة وبصرًا بالأمور؛ فارسًا شجاعًا، بطلا مقدامًا، غيورًا على ملك «بنى أمية». أدرك «مروان» عواقب مقتل «الوليد بن يزيد» على البيت الأموى، فخرج من «أرمينيا» قاصدًا «دمشق»؛

1 - ابن الأثير ج5 - 310 - الطبرى - ج9 ص45.
2 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - نفس المرجع - ص19.

ليثأر لمقتل «الوليد» لكن الخليفة الجديد «يزيد بن الوليد» ترضاه، ورجاه أن يرجع، ووعده بإصلاح الأحوال، فرجع مؤملا أن يفى الخليفة بوعده. غير أن الخليفة توفى فجأة، تاركًا الدولة وأحوالها مضطربة، لأخيه «إبراهيم»، الذى عجز عن النهوض بأعباء الخلافة؛ مما دفع «مروان» إلى التحرك من جديد، قاصداً «دمشق»، ليجد «إبراهيم» قد غادرها هربًا، فيدخلها، ويبايع له بالخلافة، ليقوم بآخر محاولة لإنقاذ الدولة الأموية، التى شاءت الأقدار ان تكون نهايتها على يديه. ولايستطيع احد أن يلوم مروان أو يحمله مسئولية زوال الدولة، فعوامل سقوطها كانت تتفاعل وتعمل من زمن بعيد، وكتب له أن يجنى وحده الثمار المرة لأخطاء من سبقه، على الرغم مما بذله من جهد ومثابرة، وعزم لا يلين، فحارب فى أكثر من ميدان، وصارع أحداثًا عدة، كانت كلها ضده، وأول خطر واجهه هو انقسام البيت الأموى شيعًا وأحزابًا، وإشعال أبناء عمومته الثورات العارمة ضده فى الشام والعراق، ثم انقسام القبائل العربية؛ حيث وقفت القبائل اليمنية فى وجهه، وهم الأنصار التقليديون لبنى أمية، وهبوب ثورات الخوارج الأخيرة ضد الدولة، وانفجار المشكلات فى أنحاء الدولة كلها من «الأندلس» حتى بلاد «خراسان» و«ما وراء النهر». وفى الوقت الذى يواجه فيه «مروان» كل هذه الظروف الصعبة، متنقلا من ميدان إلى ميدان، ومن جبهة إلى أخرى دون كلل أو ملل، محاولا إنقاذ الدولة، وبث روح الحياة فيها وتجديد الدماء فى أوصالها؛ تفاجئه رايات العباسيين منحدرة من «خراسان» كالسيل المنهمر، مكتسحة كل قواته فى طريقها، ولم تتوقف إلا بهزيمته وهو على رأس جيوشه فى معركة على «نهر الزاب» بالعراق، فى شهر جمادى الآخرة عام (132هـ الموافق 749م)[1].

ولم يجد «مروان» طريقًا سوى الهرب إلى «مصر»، غير أن العباسيين لاحقوه إلى هناك، واستطاع «صالح بن على بن عبدالله بن عباس»، عم أول

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ـ ص21.

خليفة عباسى أن يقتله فى قرية تسمى «زاوية المصلوب» التابعة لبوصير الواقعة جنوبى «الجيزة»، فى ذى الحجة عام (132هـ الموافق 749م)، وبوفاته انتهت الدولة الأموية فى المشرق، وقامت الدولة العباسية، وصدق الله العظيم القائل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]

إشكالية حكم الأسرة الأموية

نلاحظ الاتجاهات السياسية فى الدولة الإسلامية بعيد وفاة الرسول، إذ كانت بداياتها الخجولة فى «السقيفة» مع ظهور أول اتجاه بزعامة «الأنصار». فقد شعر هؤلاء بأن مشاركتهم الفاعلة فى «دولة الرسول» قد لاتكون كذلك فى «دولة الخلافة» التى حظيت أو كادت بالإجماع القرشى، لمصلحة المسلمين الرواد من «المهاجرين». على أن «الأنصار» لم يحققوا، لأسباب عديدة، اتجاهًا سياسيًا مستقلا، على الرغم من وضوح موقفهم المناهض عمليًا للسلطة التى أخذت تميل لمصلحة الأسرة الأموية منذ تولى عثمان الخلافة، وبلوغ هذا الموقف ذروته من العداء فى ثورة «المدينة» على خلافة يزيد (الحرة). فقد أثبت المهاجرون أنهم القوة المعنوية والمادية المتفوقة فى الدولة الصاعدة، دون إغفال ما كان لموقعهم «التجارى» القديم، المرتبط بالنفوذ والزعامة فى الحجاز، فضلا عن موقعهم «الإسلامى» الريادى، من تأثير على المعادلة المستجدة والقدرة على إمساكها بإحكام شديد. وكان من البديهى أن يتعاطف «الأنصار» مع الاتجاه غير المنتصر فى السقيفة الذى تزعمه الإمام على عليه السلام بصورة طبيعية، فهو على الرغم من انتمائه لمجموعة «المهاجرين» التى حسمت «قرشية» الخلافة، فقد بدا واضحًا أن ثمة اتجاهًا يقوده ويلتزم بالدفاع عنه، وهو الإتجاه الإسلامى الذى كان من أبرز تطلعاته، استمرار الصيغة - النموذج - التى حققها الرسول محمد (ﷺ) فى «المدينة» والمحافظة على موروثها السياسى والاجتماعى، المتجسد فى «المؤاخاة» والمساواة والعدالة، وشتى القيم التى ظهرت فى السنوات العشر الأولى من الهجرة. لقد شدت المعاناة المشتركة «الأنصار» إلى الإمام على عليه السلام، انطلاقًا من هذا الموقع وعبر هذا الالتزام، مشكلين معًا النواة «الشعبية» للاتجاه الإسلامى الذى أخذ ينتشر مع تطور الدولة واتساعها، وما انطوى عليه ذلك من مشاكل وتناقضات، لم يكن التصدى لها على جانب من السهولة. وإذا كان الاتجاه الذى كسب معركة الخلافة فى

السقيفة، قد حقق ذلك من خلال مبادرته السريعة، واختراقه «الوسطى» للاتجاهات والكتل الأخرى، فإن ذلك لم يعد قائمًا بعد نحو سنوات قليلة فقط، بعد أن أسقط هذه المعادلة عنصران اثنان: الأول، غياب الرواد الذين عكسوا وهجهم على هذا الاتجاه وكانوا مصدر قوته، إن لم نقل مصدر وجوده، والآخر إعادة الاتجاه القبلي الاستقراطي القرشي بزعامة أبي سفيان المهزوم، تكوين نفسه مجددًا وبروزه قويًا في أعقاب اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واختيار خليفة له، مما أدى إلى ذلك الفرز السياسي الواضح الذي كان عمر ونهجه الموازن من ضحاياه الكبار. وهكذا فإن الإتجاه القبلي، تظاهر بالهزيمة دون الاعتراف فعليًا بها، خصوصًا وأن سقوط مكة (8هـ الموافق 629م) تم بصورة غير قهرية، وفي ظل شيء من إعادة الاعتبار للبيت الأموي الأرستقراطي وحلفائه الذين قادوا حرب التصدي لدعوة الإسلام ودولته. ولعل السنوات العشر الأولى من قيام خلافة الراشدين في الدولة الإسلامية الثانية، كانت فترة ترقب لزعماء هذا الاتجاه، إذ سقطت رموزهم فقط أبوسفيان، أبو جهل، عتبة بن ربيعة، في الوقت الذي أتيح للجيل الثاني منهم، الدخول مبكرًا إلى قلب الأحداث وشغل أدوار هامة، على المستوى العسكري (يزيد بن أبي سفيان) أو الإداري (معاوية). وليس ثمة شك أن ارتباط معاوية بن سفيان بالولاية الشامية واتخاذه موقفًا شبه مستقل فيها، حتى في أوج المركزية الراشدية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد عزز من موقعه السياسي وأعطاه حجمًا خاصًا في الإدارة الراشدية في الدولة الإسلامية الثانية. فما لبثت الشام أن تحولت إلى معقل عسكري وشهدت بدايات تكوين الأسطول العربي الإسلامي، وذلك تحت مظلة التصدي للخطر البيزنطي المستهدف هذه الولاية، الذي تبين أنه لم يكن الهاجس الحقيقي للقائمين عليها، بعد أن كشفت التطورات ما يطمح إليه والي الشام من هذه القوة العسكرية الصاعدة[1].

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ـ ص328.

تولى معاوية بن أبي سفيان بعد وفاة أخيه يزيد على دمشق وأعمالها، ثم ولاه عمر الأردن بدلا من شرحبيل بن حسنة، فعمل معاوية على كسب رضاء الخليفة عمر عليه ليبقيه على الشام، فاهتم باستكمال فتح مدن الساحل كطرابلس وقيسارية وعسقلان وأسكنها الأربطة ووكل بها الحفظة، وعمل وفقًا لرأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه على تحصين الثغور الإسلامية بإقامة نظام المرابطة على السواحل أثناء الصيف عندما ينفتح البحر، ورأى معاوية ضرورة اصطناع سياسة بحرية مجاراة للروم، وعمل على صناعتها في مصر، وتهيأ له على هذا النحو إنشاء عدد كبير من السفن، واستعان فى ذلك بعمال البحر من أهل الشام ومصر، وكتب إلى الخليفة عمر يسأله فى أن يأذن له بغزو قبرص لقربها من الشام، فطلب عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص والى مصر أن يصف له البحر، فكتب إليه: «إني رأيت خلقًا كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق»، فلما قرأ الخليفة عمر كتاب عمرو كتب إلى معاوية يقول: «لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدا». وقد امتثل معاوية لنهى الخليفة عمر إرضاء له، وترك أمر الغزو البحرى إلى فرصة أخرى. وعندما اضطر معاوية، بعد أن أصبح عاملا على الشام، إلى أن يعدل من مظهره كحاكم للبلاد إما مجاراة للحضارة البيزنطية المتغلبة على الشام أو تشبهًا بحكام الروم، حتى يفرض هيبته فى نفوس سكان الشام حسب قوله، فبدأ يتأنق فى ملبسه مثل ملوك القياصرة المسيحيين ويتخلى عن مظاهر الخشونة التى التزمها الصحابة رضوان الله عليهم، ثم أصبح لا يسير إلا فى موكب يحيط به الحراس والحجاب مثل ملوك كسرى، وقد بهت عمر عندما قدم إلى الشام، فخرج معاوية لاستقباله فى موكب حافل، ولم ترق للخليفة مشاهدة مظاهر الترف والعظمة فى هذا الاستقبال، واستنكر ذلك وقال: «أكسروية يا معاوية؟»، فقال يا أمير المؤمنين إنا فى ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة»، فسكت عمر ولم يخطئه لما احتج عليه معاوية بمقصد من مقاصد الحق والدين. وكان معاوية على الرغم من

اتخاذه مظاهر الأبهة والترف ممسكًا بزمام نفسه، فلم يطلق لنفسه العنان خوفًا من شدة عمر[1].

يعود الخلاف والتنافس بين الهاشمية والأموية إلى العصر الجاهلي ثم أخذ شكلا أكثر عنفا بعد ظهور الإسلام، تلك الرسالة التى جاء بها رسول الله محمد (ﷺ) الهاشمى فجهد الأمويون بوضع الصعاب فى سبيل نجاحها ولكن رسول الله محمد (ﷺ) شق طريقه متغلبا على الحواجز الأموية المعترضة كافة ناجحا فى الدعوة الإسلامية وبذلك غدا الأمويون فئة مستضعفة عديمة القيمة ثم لا وزن لها سياسيا فعمدوا إلى العمل سراً لكى يستعيدوا مجدهم المفقود ومكانتهم الأرستقراطية الضائعة فى ظل الحكومة الإسلامية، وكانت الحركة الانتخابية فى السقيفة أول مناسبة استغلوها فتحرك أبو سفيان زعيم الحزب الأموى السرى فى الإسلام كما كان زعيم الحزب الأموى والكفار قبل فتح مكة للعمل فى حماسه ونشاطه مستغلا العناصر غير الراضية عن نتائج الانتخاب ولكنه فشل فشلا ذريعا لما اكتشف الإمام على عليه السلام دسيسته. على أن الحزب الأموى الأرستقراطى استفاد من هذه المناسبة الانتخابية شيئين وهما، ثبوت الخلافة فى قريش أولا، وإبعاد آل البيت عن الحكم ثانيا، والأمويون لايحسبون حسابًا لغيرهم من سائر الأسر القرشية فاعتقدوا أن مصير الحكم لهم إن آجلا أو عاجلا، وهذا ما يشهد به قول أبى سفيان بعد فوز عثمان بالخلافة «فو الذى يحلف به أبو سفيان مازلت أرجوها لكم». ولنعلم مقدار نفوذهم النفسى العميق على غيرهم من قريش فقال المسعودى: «بلغ أبا بكر رضي الله عنه عن أبى سفيان أمر فأحضره وأقبل يصيح عليه، وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح ابنه أبى بكر فقال لقائده: على من يصيح ابنى؟ فقال له على أبى سفيان. فدنا من ابنه أبى بكر وقال له: أعلى أبى سفيان ترفع صوتك ياعتيق؟ لقد تعديت طورك وجزت مقدارك؟ فتبسم أبو بكر رضي الله عنه ومن حوله المهاجرون والأنصار وقال له أبو بكر: يا أبت، إن الله قد

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص602.

رفع بالاسلام قومًا وأذل به آخرين». وهذه القصة لاتحتاج إلى تعليق فيما يختص بسلطتهم على قريش ومبلغ نفوذهم، وفى دهشة أبى قحافة وجواب ابنه أبى بكر دليل على ذلك. فالذلة التى لحقتهم كما يقول أبو بكر رضي الله عنه - والمفروض فيهم أنهم الأعزاء - حملتهم حملا عنيفا على السعى الحثيث للاستحواذ على السلطة بأى ثمن وبأى وسيلة واسترداد عزتهم المدحورة[1].

يظهر أن الفشل جعل الأمويين يغيرون أسلوب العمل فعمدوا إلى تملق الخلفاء وإظهار الرغبة فى الخدمة الإدارية بإخلاص، فأكثر أبو بكر وعمر من تعيينهم فى شتى المراكز وبذلك انفسح المجال أمامهم فى سبيل العمل على ضرورة استخدام السلطة التى أصبحت فى أيديهم فهم يصرفونها على الشكل الذى يلائم مصالحهم ويخدمها، فكانت وسائلهم كثيرة ومعين أفكارهم لاينضب. فتارة يستخدمون نفوذ الحكومة وتارة يميلون إلى الإغراء والأطماع. ولم تزل الأيام تؤاتيهم وتجرى وفق أهوائهم حتى أواخر عهد عمر رضي الله عنه فقد بدأ يميل إلى بنى هاشم ميلا شديداً فهو يتوسل حين الجدب بالعباس، ويقرب ابنه عبدالله. ويشيد بسابقات الإمام على عليه السلام فى الإسلام ويقترن بابنته أم كلثوم فى أخريات أيامه ويفضى إلى عبدالله بن عباس بأشياء كثيرة عن الخلافة وأنهم -أى آل هاشم- أحق بهذا الأمر. وقد أيقن الأمويون وهم الساهرون على قضيتهم أن عمر لابد صائر إلى ترشيح الإمام على عليه السلام للخلافة وبذلك ينهار حجر الأساس من بنائهم فكان اغتيال عمر، وأن الشعوبيين كانوا يستخدمون لمآرب الأحزاب الكبيرة وكان الحزب الأموى أقوى الأحزاب القائمة وأملكهم لوسائل الإغراء فضم إليه كأدوات منفذة أبا لؤلؤة وجفينة وكعب الأحبار وسواهم وكان لكل واحد من هؤلاء دور خاص يقوم به. فهذا الاغتيال أحدث بلبلة كبيرة فى الأفكار وهيأ المجتمع لنقلة جديدة. وقد ظهرت فى سماء المجتمع برامج لا عهد للعرب بها أدت إلى زيادة التبلبل الفكرى من مثل حصر السلطات العليا فى أسرة أو قبيلة، هذه الفكرة التى روج

---

1 ـ عبدالله العلايلى ـ الإمام الحسين ـ ص245.

لها الحزب الأموى وعمل على نشرها وتعصب لهـا وكان رد الفعل على التمهيد لنظريتـهم ظهور نظرية الخـوارج بأنها لعـامة العرب أو لغـامة المسلمـين. فنظرية الخوارج رد قوى للنظرية الأموية التى جنحوا إلى تطبيقها بغير لباقة أيقظت عنعنات العـرب الأخرين فـإن المعروف عـن الخوارج أن أكـثرهم من اليـمنيـين من غيـر الحـجازيين، وزاد فى عنعنتـهم حصـر الصـلاحيـة فى أسرة ثم الوراثة الملكيـة، فالانتقال من الديمقراطية التى هى طبيعة عربية تتصل بأسباب النفى والمزاج العقلى إلى الأرستـقراطية فالملكـية الوراثية، أيقظ المجتـمع الإسلامى لثورات متواصلة. وكان عهد عثمان فيه نظريتان تتـحاربان وهما الأموية الوراثية الملكية، والجمهورية وأشياعها جمهور العرب ومن الاحتكاك الشديد تولد العنف[1].

يدل ذلك على أن الحزب الأموى كان يعمل لأهداف ثابتة تغير السياسة دفعة واحدة ومن أساسـها فى عهد عثـمان الذى ترك لهم سياسة الأمـور العامة وأطلق أيديهم فى كل المقـدرات ولكن الشعب بدأ يستـيقظ ويستـفيق على أعـمالهم من سباته العمـيق فرأى تعديًا على حقوقه ورأى انتهـابًا واغتصابًا فى كل المرافق ولمس الفساد يدب فى طرق الإجراء والإدارة وشعر بالحـاجة الملحة إلى الإصلاح فمضى معلنا الثـورة ودق الناقوس الشعبى ولم يجـد مصلحا ينسجم مع مـيوله إلا الإمام على ﷺ فترامى الشـعب فى أحضانه. فالحزب الأموى كـان يعمل بوحى خاص ولمآرب خاصـة على منهج مقرر ورغم الظروف المختلفـة التى غمرته نجد لحـركاته طابعاً خاصًا لايتغير، فعهد معاوية كـعهد عثمان فى الجوهر السياسى عند التدقيق والعمق وميزة عهـد عثمان أنه كان أكثر اتصالا بالرأى الشعبى فى السـياسة العامة وذلك بسبب أنه كان الـتجربة الأولى من تجربات الحزب وإنه نقلـة بين عهدين ثم تسنى للحزب فى الدور الـثانى أى فى عهد مـعاوية أن يحكم مبـاشرة وأن يعطل الصلاحيـات الشعبية ويكمم الحـريات ويتحلل من كل مسؤوليـة أمام الشعب ولم يعترف بالرقابة الشعبية[2].

---

1 ـ عبدالله العلايلى ـ نفس المرجع ص247.
2 ـ عبدالله العلايلى ـ نفس المرجع ـ ص248.

وما أن توفى عمر حتى أفصح معاوية عن نواياه فى الاستئثار بحكم الشام كله وحقق أول مرحلة فى هذا المخطط بعد مضى عامين فقط من خلافة عثمان بن عفان، إذ أسند إليه الخليفة ولاية الشام كلها، فأخذ يعمل منذ ذلك الحين على تمكين سلطانه فى هذه الولاية مستغلا قرابته إلى الخليفة. وبدأ يحقق حلمه القديم فى غزو الجزر القريبة من الساحل الشامى، فما زال يلح على عثمان فى غزوها حتى أذن له فى الغزو بحراً، وأمره أن يعد فى السواحل إذا غزا أو أغزى جيوشًا سوى من فيها من الرتب، وأن يقطع الرتب القطائع ويمنحهم الأخائذ، وأول غزوات معاوية البحرية غزوة قبرص، فقد أذن له عثمان بغزوها على شروط، منها أن يحمل معه امرأته، وأن يدعم الدفاع عن السواحل قبل خروجه فى الغزو، وألا يكره المسلمين على الغزو معه. فحمل معاوية معه زوجته فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل، وحمل عبادة بن الصامت معه امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية وذلك فى عام 28هـ (649م) بعد انحسار الشتاء، ففتحها معاوية وغنم المسلمون غنائم كثيرة. وعلى هذا النحو يعتبر غزو معاوية لقبرص أول غزو بحرى يقوم به المسلمون فى البحر المتوسط، ولم يكن المسلمون قد ركبوا بحر الروم قبل هذه الغزوة. ثم استعمل معاوية على البحر عبدالله بن قيس الحارثى الفزارى فغزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة فى البحر ولم يغرق فيه أحد. ثم كان انتصار الأسطول الشامى بقيادة معاوية بن أبى سفيان والأسطول المصرى بقيادة عبدالله بن سعد على أسطول البيزنطيين فى واقعة ذات الصوارى عام 34هـ الموافق 654م حداً فاصلا فى تاريخ البحر المتوسط غير مصيره وثبت للمسلمين السيطرة البحرية على هذا البحر، وضمن تفوقهم البحرى على البيزنطيين، وكسب معاوية بهذا الانتصار كسبًا أدبيًا كبيراً دعم مكانته فى قلوب أهل الشام بوجه خاص، وثبت قدميه فى حكم هذه البلاد الشامية. وفى سبيل هذا الكسب اعتمد على القبائل اليمنية، فجعل منها فرقة خاصة زاد فى عطائها إلى مقدار الضعف، وجعلهم جنداً مستقلا لايختلطون بسواهم، كما تقرب من القبائل اليمنية الغساسنة، فتزوج من ميسون بنت بجدل أم يزيد وما إن أحس بقوة مركزه حتى ألح على عثمان، عندما

عصـفت ثورة الأمصار بـالمدينة عام 34هـ الموافق 654م، وتعرض عثـمان لخطر الاغتيال، ألح عليه أن ينتقل معه إلى دمـشق، فأهلها كانوا موالين للخليفة، وقال له غداة ودعه: «يا أمير المؤمنين، انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر ما يزالون، ولكن عثمان رفض أن يترك دار هجرة الرسول. والظاهر أن معاوية كان يهدف من وراء دعوته للخليفة الانتقال إلى دمشق أن يكتسب بوجوده سندًا روحيًا يكفل له أن يظفر بالخلافة من بعده، بدليل أنه خاطب جمـاعة من المهاجرين فى المدينـة قبل رحيله عنها إلى الشـام فقال فى جملة ما قاله: إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذا الناس يتغالبون إلى رجال فلم يكن منكم أحـد إلا وفى فـصيلتـه من يرأسـه ويستـبد عـليه ويقطع الأمـر دونه ولايشهـده ولا يؤامره، حـتى بعث الله عز وجل نبيـه ﷺ، وأكرم به من اتبـعه، فكانوا يرأسون من جاء من بعده وأمرهم شورى بينهم يتـفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلك وقـاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم، وإن أصغـوا إلى الدنيا وطلبوها بالتـغالب سلبوا ذلك، ورده الله إلى من كـان يرأسهم وإلا فليحذروا الغير، فإن الله على البدل قـادر. ويلوح معاوية فى عبارته الأخيرة بتحول الرئاسة إلى البيت الأموى إذا ما تعرض عثمان لاعتداء الثوار المسلمين عليه دون أن ينصره المهاجرون فى المدينة[1].

ولم يكن عثمـان، وهو من جيل الأوائل فى الإسلام، يمثـل مطلقًا الاتجاه القبلى الأرستقراطى الذى دأب على استعادة نفوذه واتخاذ دور قيادى فى المتغيرات الجديدة. أمـا الممثل الحقيـقى الحاكم فى الظل، فلم يكن فى دائرة الضـوء تمامًا، وإنما كان يعمل بهدوء وحذر، مخططًا لما بعد مرحلة الخليـفة الشيخ، ومستفيدًا ما أمكن من تلك الظروف غـير الطبـيعيـة. وهذا كان لدى مـعاوية الموقع السـياسى (زعامة الاتجـاه القبلى القرشى الأرستقـراطى) والمادة المقاتلة (قبائل الشـام اليمنية) والتعبئة النفسية (مقـتل عثمان)، فضلا عن المسوغ «الشرعى» (ولاية الدم) إلخ..

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ـ ص605.

من أجل تفجير أزمة سياسية فى مستوى الخلافة، دون التورع عن استخدام مختلف الوسائل لتحقيق أهدافه.

وكانت الدولة المسلمة يومذاك، وبعد أن فُتحت الدنيا لها وعليها. بحاجة ماسة إلى حاكم من ذلك الطراز الربّانى، بحاجة إلى واحد من أولئك الرجال الذين يمثلون فضائل أيام الوحى وعصر النبوة. ولم يكن الإمام على ﷺ يومئذ الرجل الأفضل والأمثل فحسب، بل كان الرجل الأوحد الذى تتمثل فيه وتهيب به كل حاجات دينه وأمته. وكان الخروج عليه يومذاك يشكل خروجًا أكيداً على عصر النبوة بكل ما يمثله من هُدى وعدالة ونور. ولقد كانت بصيرة الإمام على ﷺ من النفاذ والصدق بحَيث أبصرَت أبعاد المصير إذا استقرَّ السلطان فى أيدى الأمويين فلقد يهون الأمر، لو بدأ النكوص بمعاوية، وانتهى به، غير أن الإمام على ﷺ كان يرى ببصيرته الصادقة أن الانحراف إذا بدأ، فلن يُؤذن بانتهاء. وكان يرى أن الأمويين إذا أفلحوا فى تثبيت ملكهم المنشود، فسيتحول التراث الجليل الذى تركه الرسول إلى مُلك عَضوضٍ ودنيا جامحة ومن ثمّ صار دَحْض هذه المحاولة التعسة واجب المؤمنين كافّة. وهذه كلمات أبى سفيان التى يجترّ بها نوايا أسرته وقومه، لاتدع مجالا للشك فى أطماعهم وما يبتغون. فهو يوصى أهله وذويه قائلا: «لقد صار الأمر إليكم فلا تدعوه يُفلت، وتلقفوه كالكرُة، فإنما هو الملك ولا أدرى ما جنّة ولا نار» وهو يمرّ بقبر «حمزة عم الرسول» فيستعيد ذكرى الأيام الماضية ويقول «يا أبا عمارة إن الأمر الذى اجتلدْنا عليه بالسيوف قد صار إلى غلمان بنى أمية» وهو حتى من قديم، لم يكن يرى فى الإسلام إلا مُلْكًا .. فيوم فتح مكة، وقد صحبه العباس عمّ النبى إلى الرسول ليُسلم، وينجو بحياته، نظر إلى الكتائب العارمة تحمل رايات الإسلام، فإذا به ينظر إلى «العباس» ويقول: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما» فيجيبه «العباس» رضي الله عنه «يا أبا سفيان إنها النبوة، لا المُلك» أجل هذا هو الفارق الكبير بين تفكير بنى هاشم وتفكير بنى أمية فبنو هاشم يرون الدين على حقيقته. نُبوةً، وهُدى، ونورا.

وبنو أمية يرونه من خلال أمانيِّهم وأطماعهم. مُلْكًا، وتسلُّطًا، وسيادة وإن «الإمام عليًا» لم يُخدع إذن عن جوهر الموقف الذى اتخذه معاوية حين رفض بيعة الإمام، ولم يخدع عن عواقب هذا الموقف إذا تركه المسلمون يستشرى ويتفاقم وإذا كانت مقاومة هذا الجنوح الخطير واجب المؤمنين. فمَن أولى المؤمنين بهذا إنهم آل بيت النبى أهل التقوى، وأهل التضحية. وهكذا شرع موكب التضحيات فى مَسيرة عالية، كلها قِمم ومُرتفعات مُستهلا بأشرف تلكم القمم وأعلاها حياة الإمام الرشيد الشهيد «على بن أبى طالب» رضى الله عنه وأرضاه ثم بحياة الشهيد الممجَّد والعظيم «الإمام أبى عبدالله الحسين بن على ﷺ» ومعه عشرات من إخوانه، وأهل بيته وصحبه، فى يوم يجعل الولْدانَ شيبًا. وهكذا، لم تكن «كَربلاء» مَلْحمةً ذات فصل واحد، بدأ وانتهى يوم العاشر من المحرم بل كانت ذات فصول كثيرة. بدأت قبل كربلاء بسنوات طوال واستمرت بعد كربلاء دهراً طويلا.. أجَل لقد بدأت ملحمة كربلاء ومأساتها، يوم تمَّت خُدعة التحكيم، وحين وقع التمرد الرهيب والفتنة العمياء فى صفوف أتباع الإمام، ثم حين خلا الجوّ لراية الأمويين داخل الشام، وخارج الشام[1].

ليس من شك فى أن الإمام عليًا ﷺ قد أخفق فى بسط خلافته على أقطار الأرض الإسلامية، ثم هو لم يُخفق وحده وإنما أخفق معه نظام الخلافة الإسلامية كلُّه. وظهر أن هذه الدولة الجديدة التى كان يُرْجى أن تكون نموذجًا للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها. فيقوم الحكم فيها على مثْل ما كان يقوم عليه من قبلُ من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات، الذى تُستذل فيه الكثرة الضخمة، لا من شعب واحد بل من شعوب كثيرة، لقلة قليلة من الناس وهى أسرة أبى سفيان وبنو مروان بن الحكم الذى نفاه رسول الله محمد ﷺ من المدينة عاصمة الإسلام، عسى أن تكون من شعب بعينه بين هذه الشعوب، وهو الشعب الذى استقر أمر الحكم فيه. بل لم يُخفق الإمام على ﷺ ونظام الخلافة وحدهما، وإنما أخفقت معهما الثورة التى

1 ـ خالد محمد خالد ـ أبناء الرسول فى كربلاء ص29.

قامت أيام عثمــان لتحافظ، فيما كــان أصحابها يقولون، على الخلافــة الإسلامية سماحها وصلاحها ونقاءهــا من شوائب الأثرة والعبث والطغيان والفساد. فأولئك الثائرون إنما ثاروا لأن عثمان لم يُحسن سيــاسة أموالهم ومرافقهم. عجز عن هذه السـياســة، على أحسن تقــدير، فركــب بنو أميــة رقاب الناس، وعـبث العمــال بالولايات والفيء، وأسرف الخليفة فى بيت المال يؤثر به ذوى رحـمه والمقربين إليه من سائر الناس. فهم كانوا يريدون أن يردوا أمر الخلافة إلى مثل ما كان عليه أيام الشيـخين أبو بكر وعمـر بحيث يتحـقق العدل وتُمـحى الأثرة، ولا توضع أموال الناس إلا فى مواضعها، ولا تُنفق إلا على مرافـقهم، ولاتُؤخذ إلا بحقها. ولكن زعماءهم وقادتهم قُتلوا فى سبيل هذه الثورة قـبل أن يُتموا تثبيتها: قُتل حكيم بن جَبَلة فى البصرة قبل أن تقع موقعة الجمل. وقُتل زَميله البصرى حُرْقوص بن زُهير فى النَّهروان، وقتل محمد بن أبى بكر وكنانة بن بِشْـر فى مصر، ومحمد بن أبى حُذيفة فـى الشام. ومات الأشتر مَـسمومًا فى طريـقه إلى مصر. وقُتـل عمَّار بن ياسر بصفِّين[1].

فهؤلاء زعماء الثورة، مـنهم من قُتل قبل أن تشُبّ الحروب على الإمام على ﷺ ومنهم من قـتل أثناء هذه الحـروب، ومنهم من خـالف إمامـه ثم قُـتل أثناء الخروج عليه، ومنهم من قَـتله معاوية وأصحابه جـهرةً أو سراً. وواضح أن الذين ثاروا بعثــمان حتى حصـروه وقتلوه لم يُقتلوا عن آخـرهم، وإنما بقى منهم خلف كانوا أتباعًا لأولئك الزعماء الذين ذكـرنا قَتْلَهم. والمهم أن قادة الثورة قد ماتوا من دونها، وأن الثورة قد فـقدت بموتهم عُقولها المفكِّرة المدبِّرة، فأدرك ســائر أصحابها الفشلُ والتـخاذلُ والتواكلُ، وألقَـوا بأيديهم وآثروا العافيـة. وكانت الظروف التى أرادوا أن يقاوموها بثورتهم أقوى من أن تُقــاوَم. ولكن كلمة الظروف هذه غامضة تحـتاج إلى شىء من الوضــوح. وأول هذه الظروف وأجدرهــا بالعناية والتفكيـر: الاقتصــاد. فقد كان نظام الخـلافة، كما تصوره الشـيخان أبو بكر وعمـر، يسيراً سمحًا لا عُسر فيه، أخص ما يوصف به أنه لايستطيع أن يستقرّ ولا أن يستقيم إلا

1 ـ طه حسين ـ على وبنوه ص155.

إذا آمن به أشدّ الإيمان وأعمقَه أولئك الذين أقيم لهم من المسلمين. والإيمان بهذا النظام يقتضى قبل كل شىء إيمانًا خالصًا بالدين الذى أنشأه، إيمانًا يتغلغل فى أعماق القلوب، ويسيطر على دخائل الضمائر والنفوس، ويسخر لسلطانه عقول الناس حين تفكر، وأجسامهم حين تعمل، وألسنتهم حين تقول. إيمانا لايقبل شركة مهما يكن لونها، إيمانًا بالله لا شريك له من الآلهة والأنداد، وإيمانًا بالدين لاشريك له من المنافع والأهواء. وهذا النوع من الإيمان، إنْ تحقق للكثرة من أصحاب رسول الله محمد ﷺ، فإنه لم يَخْلُص من بعض الشوائب، لا بالقياس إلى الذين أسلموا بآخره، ولا بالقياس إلى الذين كان رسول الله محمد ﷺ يتألّفهم بالمال[1] ولا بالقياس إلى كثرة من الأعراب الذين قال الله فيهم:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14] وكان النبى ﷺ يعرف المنافقين من أهل المدينة ومن غيرهم، يدله الوحى عليهم وينبئه الله بأمرهم، وربما أنبأه الله بأن منهم قومًا لايعلمهم هو وإنما يستأثر الله وحده بعلمهم. فلما قُبض النبى انقطعت أو كادت تنقطع وسائل العلم بهؤلاء المنافقين. فكان المؤمنون المخلصون كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود، كما قال النبى ﷺ. كانوا قلّة قليلة. وليس أدلّ على ذلك من ارتداد العرب بعد وفاة رسول الله محمد ﷺ، وجهاد أبى بكر وأصحابه حتى ردُّوهم إلى الطاعة بعد تلك الخطوب الكثيرة التى نعرفها. ثم تجاوز الإسلام جزيرة العرب وبسط سلطانه على ما فُتح من الأرض أيام الشيخين وأيام عثمان، فكثر الذين خضعوا لهذا السلطان غير مؤمنين به ولا مُخلصين له، وإنما الخوف وحده قوام ما كانوا يَبذلون من طاعة وكذلك كان الفتح مصدر قُوة ومصدر ضعف للدولة الجديدة فى وقت واحد. كان مصدر قوة، لأنه بسط سلطانها ومد ظلها على أقطار كثيرة من الأرض. وكان مصدر ضعف لأنه أخضع لها كثرة من الناس لايؤمنون بها وإنما يخافون منها ويرهبون سطوتها. وكان مصدر قوة لأنه جبى لها كثيرًا من المال الذى لم يكن يخطر لها على بال. وكان مصدر ضعف لأن هذا المال أيقظ منافع كانت

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص156.

نائمة، ونبه مآرب كانت غافلة، ولفت إليه نفوسًا كانت لاتفكر إلا فى الدين. ثم خلق حاجات لم تكن معروفة ولا مألوفة. أظهر للعرب فنونًا من الترف وخَفْض العيش فأغراهم بها ودعاهم إليها، ثم عوّدهم إياها، ثم أخذهم بها أخذًا، إلا قلة قليلة جدًا استأثر الدين بها من دون الدنيا، وشغلها التفكير فى الله عن التفكير فى المال والمنافع والحاجات.

لقى عُمر العناء كل العناء فى سياسته للعرب أيام خلافته، ثم لم يَشْق وحده بهذا العناء الذى لقيه، وإنما شقى به العرب كلهم. ضاقوا بسياسته ضيقًا شديدًا. شَقّ عليهم العدل الذى يسوى بين القوى والضعيف. وشق عليهم الشّظف الذى كان يريد أن يُمسكهم فيه ويضطرهم إليه. فلما مات سرِّى عنهم وابتسموا للدنيا وابتسمت الدنيا لهم. ولكن هذا الابتسام لم يتصل إلا ريثما استحال إلى عبوس عابس وشرٌ عظيم. فالابتسام للمال يُغْرى بالاستزادة منه، والاستزادة منه تفتح أبوابًا من الطمع لا سبيل إلى إغلاقها. وإذا وجد الطمع وجد معه زميله البَغْى، ووجد معه زميل آخر هو التنافس. ووجد معه زميل ثالث هو التباغض والتهالك على الدنيا. وإذا وجدت كل هذه الخصال وجد معها الحسد الذى يحرق قلوب الذين لم يُتَح لهم من الثراء ما أتيح لأصحاب الثراء. وإذا وجد الحسد حاول الحاسدون إرضاءه على حساب المحسودين، وحاول المحسودون حماية أنفسهم، وكان الشر بين أولئك وهؤلاء. وهذا كله هو الذى حدث أيام عثمان، وهو الذى دفع أهل الأمصار إلى أن يثوروا بعمالهم، ثم إلى أن يثوروا بخليفتهم، ثم إلى أن يحصروه ويقتلوه. وقد هم الإمام على ﷺ أن يرد العرب إلى ما كانوا عليه أيام الخليفة عمر ﷺ. ولكن أيام الخليفة عمر ﷺ كانت قد انقضت ولم يكن من الممكن أن تعود[1].

ملك المال قلوب أصحاب المال فقاتلوا عليه فى العراق وقاتلوا عليه فى الشام، وانتصر الإمام على ﷺ فى العراق ولكنه انتصار لم يكد يتم حتى نسيه المغلوبون والغالبون جميعًا. فما أسرع ما ذكر أهلُ البصرة عثمانيَّتهم بعد الجمل. وعثمانيتهم هذه ليس معناها حُب عثمان والطلب بدمه فحسب، وإنما معناه أوسع

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص158.

من ذلك وأشمل. معناها هذا النظام الذى عرفوه فألفوه، نظام الطمع والجشع والتنافس فى المال والتهالك عليه، والضيق بتلك الحياة التى فرضها الخليفة عمر ﷺ على العرب والتى كان الإمام على ﷺ يريد أن يعود إلى فرضها عليهم. وقد شكا ابن عباس أهل البصرة إلى الإمام على ﷺ أنهم بعد خروجه عنهم إثر وقعة الجمل عادوا إلى شيء من الاضطراب لم يرضه منهم ابنُ عباس. لم يرَ منهم ما كان ينتظر أن يرى من الانقياد والطاعة السمحة. فكتب إليه الإمام على ﷺ هذا الكتاب الذى إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإمام عليًا قد فهمهم حق فهمهم، وأراد أن يستصلحهم ما وجد إلى ذلك سبيلا:

«أتانى كتابك تذكر ما رأيت من أهل البصرة بعد خروجى عنهم. وإنما هم مقيمون لرغبة يرجونها أو عقوبة يخافونها. فأرغب راغبهم واحلل عقدة الخوف عن راهبهم بالعدل والإنصاف له إن شاء الله» هم مقيمون على رغبة يرجونها أو عقوبة يخافونها، هذا حق ليس فيه شك. ولكن الدواء الذى اقترحه الإمام على ﷺ لم يكن ميسورًا، فهو أراد أن يرغب الراغب ويحل عقدة الخوف عن الخائف. ولكنه أراد أن يكون هذا كله فى حدود العدل والإنصاف والعدل لايرغب راغبًا وإن حل عقدة الخوف عن الخائف. وليس أدلّ على ذلك من أن عبدالله بن عباس لم يبلغ ما أراد الإمام على ﷺ من السياسة، وإنما أراد أن يرغب الراغبين فرغب معهم. وهمّ أهل البصرة أن يستجيبوا لمعاوية وأن يثوروا بزياد، لولا أن الإمام عليًا ﷺ زاد عُقدة الخوف عليهم تعقيدًا، فأرسل إليهم جارية بن قُدامة الذى حرق فريقًا منهم بالنار تحريقًا. ثم لم يكن المنتصرون مع الإمام على ﷺ يوم الجمل خيرًا من المغلوبين. طمعوا فى مال أهل البصرة بعد أن انتصروا عليهم، فلما ردهم الإمام على ﷺ عن ذلك جمجموا، وقال قائلهم: يُبيح لنا دماءهم ثم لا يُبيح لنا أموالهم ثم ذهب أهل الكوفة مع الإمام على ﷺ على قبول التحكيم ومنذ ذلك اليوم ظهر أن الثورة قد أخفقت، وظهر أن الإمام عليًا ﷺ لن يبلغ من إحياء سيرة عُمر ما كان يريد. ثم لم يكن الإمام على ﷺ وحده هو الذى ظهر إخفاقه، فهذا أبو موسى الأشعرى الذى اختاره أهل اليمن حكمًا على غير رضا

من إمامهم على ﷺ، تبين فى وضوح واضح أنه كان يرى رأيًا مخالفًا أشد الخلاف لرأى الذين اختاروه. كان يريد أن يبايع للطيب ابن الطيب عبدالله بن عمر ليُحيي اسم عمر وسيرته. ولم يكن أهل اليمن يريدون عمر ولا ابنه ولا أحدًا من الذين يُشبهونهما، وإلا ففيم كانت خيانة الإمام على ﷺ وفيم كان استكراهه على ما لا يريد ثم تبين أن أهل الحجاز لم يكونوا خيرًا من أهل البصرة والكوفة، فكثيرًا منهم كانوا يتسللون إلى الشام إيثارًا لدنيا معاوية، حتى شكا أميرُ المدينة سَهْل بن حُنيف إلى الإمام على ﷺ من ذلك. فعزّاه الإمام على ﷺ عن هؤلاء المتسللين. وليس من شك فى أن كثيرًا من أهل مكة كانوا يفعلون فعل نظرائهم من أهل المدينة. بل ليس من شك فى أن كثيرًا من الذين كانوا يقيمون فى الحرمين ويؤثرون البقاء فى الحجاز على الذهاب إلى الشام كانوا يتلقّون من معاوية هداياه ومنَحه، لايرون بذلك بأسًا ولا يجدون فيه حرجًا[1].

ولكأنما كان «الإمام على ﷺ» يرى ببصيرته الثاقبة كل ذلك المصير! فذات يوم أثناء مسيره مع جيشه إلى «صفين» بلغ به السير هذه الرقعة من الأرض، فتمهل فى سيره ثم وقف يتملى مشهد الفضاء الرهيب، وسالت عبراته، واقترب منه أصحابه صامتين واجمين، لا يدرون ماذا أسال من مقلتى الأسد الدموع ثم سألهم ويُمناه ممتدة صوب تلك الأرض التى تعلقت بها عيناه: ما اسم هذا المكان؟ قالوا: كربلاء. قال: «هنا محَط رحالهم ومُهْراق دمائهم» واستأنف سيره مع المقادير. تُرى من كان يعنى، ومن كان ينعى، أكان يعنى قرة عينه «الحسين» ومَن معه من إخوة له وأبناء؟ أكان يعنى أولئك الأبطال الذين ستشهد هذه الأرض ذاتها استشهادهم الرهيب والمَهيب بعد عشرين عامًا لا غير من هذه النبوءة الصادقة؟ ربما. وربما لم يكن إلهامه ولم تكن بصيرته يومئذ معلقين بواحد بذاته من أهل بيته المباركين. فهو على أية حال يدرك تمامًا أن المعرَكة التى بدأها من أجل الحق لن تنتهى ويدرك أنه لن يصبر أحد من بعده مثلما سيصبر أبناؤه الذين ورثوا البطولة كابرًا عن كابر وحين يحتدم فى البصائر النقية ولاؤها لحق مقدس، أو لمبدأ جليل،

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص159.

فإن هذا الاحتدام يتلقى فى لحظة إشراق روحى مدداً من الرؤية غير منظور، يكشف الغيب ويجذب إلى دائرة الاستشراف أحداث الزمن البعيد. ولعل شيئا كهذا، حدث ذلك اليوم، فرأى الإمام التقى النقى بلاء أبنائه وحفدته، رأى بلاءهم العظيم فى سبيل القضية التى حمل لواءها، ورأى «محط رحالهم، ومُهراق دمائهم» القضية إذن، كانت كما قلنا، قضية «النبوة» لا «الملْك». النبوة بكل تألقاتها الورعة وموازينها العادلة لا الملك الذى يريد نفر من الأمويين أن يردوا به وثنية الجاهلية فى أثواب تنكرية والذين يدرسون معارك «الجمَل، وصفين، وكربلاء» خارج هذه الدائرة، لا يأمنون تفكيرهم، وزيغ أحكامهم[1].

رأينا كثيرين ممن تحدثوا عن «كربلاء» يحملون «الإمام الحسين ﷺ» مسئولية مصيره، ومصير الذين خرجوا معه. و«الإمام الحسين ﷺ» رضى الله عنه، يتحمل فى شجاعة وغبطة مسئولية ذلك المصير، ولكن ليس بالمعنى الذى يقصده هؤلاء. فهم يرون أنه خرج تلبية لدعوة ثوار الكوفة إياه، باعتبار هذه الدعوة فرصة رآها سانحة لاسترداد الخلافة من بيت معاوية إلى بيت الإمام. وهم يلومونه، أو يكادون؛ لأنه لم يُصغ لنُصْح الناصحين من عشيرته الأقربين؛ كى يبقى مكانه فى البلد الحرام «مكة» نافضًا يديه من مشاكل الموقف الكالح الذى نتج عن استخلاف يزيد فهل كان ذلك كذلك؟ أبداً. وإن الأمر لمختلف جداً. فالقضية فى ضمير الإمام الحسين ﷺ لم تكن قضية فرصة سنحت ولا هى قضية حق شخصى فى الخلافة يبتغى استرداده ولا هى من القضايا التى يكون للإنسان الرشيد حق التخلى عنها.

القضية فى ضمير التقىّ الشجاع، كانت قضية دين، ويستوى عنده تخليه عن هذه القضية، وتخليه عن هذا الدين. صحيح أن «الشكل الخارجى» للقضية تمثل يومها فى استخلاف يزيد لكن «جوهرها» الصحيح كان واضحًا أمام وعى «الإمام الحسين ﷺ» ورشده ونور بصيرته ـ تمامًا كما كان واضحًا من قبل أمام وعى أبيه الإمام على ﷺ، وأمام رشده وبصيرته. واستخلاف يزيد على هوانه، لاينفى عن القضية موضوعيتها العميقة، ولايقلل من تبعة النهوض بها، بل هو

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص31.

يزيد من إلحاح هذه التبعات. فـ «يزيد» هذا، لايمتلك ذرة من الصلاحية التى تؤهله لأن يجلس من الأمة المسلمة حيث كان يجلس من قبل «أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى» لقد كانت خلافة واحد من طرازه أدهى كارثة تنزل بالدولة وبالأمة. لاسيما، وهو يُستخلف فى عصر لا تفصله عن عصر النبوة والوحى سوى سنوات معدودات وفى جيل لايزال يحيا فيه رجال شامخون أبرار من أصحاب رسول الله أمثال «عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، والحسن، والحسين، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن أبى بكر، وأبى الدرداء، وقيس بن سعد بن عبادة». ولئن كان هناك من خيار الصحابة والمسلمين من سكن لهذا الوضع الأليم بعد وقوعه، فإنهم لم يفعلوا عن رضًا واقتناع، بل عن رغبة فى تجنيب المسلمين مزيداً من الحروب والآلام والدماء ـ الأمر الذى لم يتردد «الإمام الحسن عليه السلام» نفسه عن النهوض به ـ من قبل ـ حين تنازل عن حقه فى الخلافة لمعاوية، ولو أن معاوية وفى بالعهد الذى أبرمه مع «الإمام الحسين عليه السلام» أمام المسلمين كافة فترك الأمر من بعده لمشورة الناس واختيار الأمة؛ لتغير موقف «الإمام الحسين عليه السلام» ولتغير بالتالى مجرى الأحداث.

نستطيع أن نبصر عدالة القضية التى ناضل دونها الإمام الحسين عليه السلام وأبناؤه، أكثر مما كان متاحًا لمعاصريها فهم كانوا ينظرون إليها من خلال حدسهم وتقديرهم لاحتمالات المستقبل حين يستقر الأمر لبيت أبى سفيان، وحين تنتهى إلى أيدى أبنائه مصاير الإسلام والمسلمين. أما نحن اليوم، فالأمر بالنسبة لنا ليس أمر حدس أو احتمال. إنّ ما كان حدسًا بالأمس، قد صار حقيقة، وما كان احتمالا وظنًا، أصبح واقعًا وتاريخًا. فها هو ذا معاوية، لا يكتفى باغتصابه الخلافة، ثم لايرغب وهو على وشك لقاء ربه فى التكفير عن خطئه، تاركًا أمر المسلمين للمسلمين بل يُمعن فى تحويل الإسلام إلى ملك عضوض وإلى مزرعة أموية فيأخذ البيعة ليزيد كولى عهد له ويأخذها بالذهب، وبالسيف. ثم ها هو يزيد يتربع على عرش أبيه بعد وفاته، فيهمل أمر المسلمين، ويعكف على اللهو بفهوده وقروده حتى يلقب بـ «يزيد القرود» ثم يسلط من قواده ورجاله من ينزلون بالعباد والبلاد من الهول مايخجل الشيطان نفسه من اقترافه. فابن زياد، فى الكوفة والبصرة، يحز رأس كل

من تسول له نفسه أن يقول: لِمَ. ثم يقتل أبناء الرسول وأحفاده وآل بيته فى كربلاء قتلا تناهى فى البشاعة والرجس. ومسلم بن عقبة، مبعوث يزيد إلى المدينة المنورة دار الهجرة ووطن الأنصار وعاصمة الإسلام، يصنع بها وبأهلها من الوحشية والجريمة ما يتعاظم كل وصف. وحتى مكة بمسجدها الحرام، يرسل إليها «يزيد القرود» من يستبيحها، ويستبيح مسجدها الحرام[1].

ثم حين يختفى بيت أبى سفيان بموت يزيد، ويسطو على الحكم بيت مروان، وهو شعبة أخرى، وامتداد آخر للأمويين يظهر الحجاج لينشر الخراب والدمار والقتل فى كل مكان باسم الأمويين، وفى سبيل دعم ملكهم ووثنيتهم. هذه الأهوال كلها، والتى نراها نحن اليوم بعد وقوعها، كان الإمام على ﷺ يحسُّها ببصيرته قبل وقوعها. كان بإلهامه الصادق يرى كل ذلك المصير، فقام قومته ليمنع الكارثة قبل نزولها وقام من بعده ابنه العظيم «الإمام الحسين ﷺ» ليمنع امتداد الكارثة واستمرارها. وهكذا نرى أن معركتهم الجليلة الباسلة، لم تكن معركة حق شخصى فى الخلافة ولا معركة ثأر جاهلى قديم وإنما كان يمثل التيار والحزب الإسلامى. إن الذى أدركه الإمام قبل وقوعه، فنهض يتحاماه، كان يدركه معه أولئك الذين وقفوا فى صفه، وصمدوا معه إلى النهاية فى إخلاص مكين أدركه الصحابى الجليل «عمار بن ياسر» الذى قال عنه الرسول: «اهتدوا بهدى عمار» والذى قال عنه أيضًا: «تقتل عمارًا الفئة الباغية» والذى أجمع الصحابة بلا استثناء، وفيهم معاوية ذاته على فضله وورعه وصدق نهجه وعظمة روحه أدرك «عمار» نفس المصير. وآمن بذات القضية، فصمم على الخروج للقتال مع «الإمام على ﷺ» مع أنه يومئذ كان قد جاوز التسعين من عمره. إنه لم يجد عملا أفضل من ذلك العمل، يختم به حياته المجيدة، فراح يصول ويقاتل، ملخصًا إيمانه بقداسة القضية التى رفع «الإمام على ﷺ» لواءها فى هذه الكلمات المضيئة الثائرة[2].

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص33.

2 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص35.

«أيها الناس. سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يثأرون لعثمان، ووالله ما قصدهم الأخذ بثأره، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرأوها، وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرغون فيه من شهواتهم ودنياهم، وما كان لهؤلاء سابقة فى الإسلام يستحقون بها طاعة المسلمين أو الولاية عليهم. ألا إنهم ليخادعون الناس بزعمهم أنهم يثأرون لدم عثمان وما يريدون إلا أن يكونوا جبابرة وملوكًا. والذى نفسى بيده، لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ وها أنذا أقاتل بها اليوم. والذى نفسى بيده، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، ما وهن يقينى بأننا على الحق وأنهم على الباطل» إنها قضية تفوقت بعدالتها وبقداستها حتى على النصر ذاته فلم يعد النصر مزية لها كما لن تكون الهزيمة إزراءً بها. . هكذا عاشت فى ضمائر أهلها وشهدائها كما عبر وصور عمار بن ياسر فى كلماته السالفة: «والذى نفسى بيده، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، ما وهن يقينى بأننا على الحق وأنهم على الباطل». والغريب أننا حين نستعرض ما روى البلاذرى لنا من كتب الإمام على ﷺ إلى عماله على المشرق، فلا نرى من هذه الكتب كلها إلا كتابين اثنين يثنى فيهما الإمام على ﷺ على عاملين اثنين ثناء لا تحفظ فيه. فقد أرسل إلى سعد بن معوذ الثقفى عامله على المدائن:

«أما بعد. فقد وفرت على المسلمين فيئهم وأطعت ربك ونصحت إمامك، فعل المتنزه العفيف. فقد حمدت أمرك ورضيت هديك وأبنت رشدك. غفر الله لك. والسلام» فأما سائر كتبه إلى أولئك العمال، ففى بعضها التأنيب والتوبيخ، وفى بعضها العتاب والتخويف، وفى بعضها الآخر الوعظ والتأديب. وقد علمت ما كان من مصقلة بن هبيرة ومن المنذر بن الجارود. أحدهما يلتوى بالمال حتى يفر إلى الشام. والثانى يلتوى بالمال حتى يحبس فيه. بل لم يكن كل الذين اعتزلوا الفتنة بمأمن من هذه النكسة التى أصابت المسلمين بعد الفتح حين كثر عليهم المال. فإذا كان سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة قد فروا بدينهم

من الفتنة فلم يدخلوا فى حرب مع أحد الفريقين الخصمين، وصمموا على عزلتهم كما أرادوها خالصة لله ودينه، فقد كان المغيرة بن شعبة مثلا معتدلا، يؤثر العافية فى الطائف، ولكنه كان ضيقًا بهذه العافية، وكان يتحرق شوقًا إلى العمل، ولعله لم يكن يضيق بشىء كما كان يضيق بما أتيح لعمرو بن العاص من نجاح، على حين ظل هو يعلك لجامه كالجواد القارح الذى حيل بينه وبين النشاط. وكان أبو هريرة يقيم فى المدينة ولايكره أن تناله النافلة من مال معاوية بين حين وحين. وقد نشط المغيرة بن شعبة فى أمر معاوية بعد أن صار إليه الأمر كله، على حين احتفظ الشيخان سعد وابن عمر بعزلتهما الوادعة. ولم يكن أهل الحرمين يحبون القتال بعد ما بلوا من الأحداث، فكانوا وادعين يقبلون ما يساق إليهم من خير مهما يكن مصدره، ويبايعون لصاحب السلطان والبأس. كانوا على طاعة الإمام على ﷺ. ثم بايع أهل المدينة لمعاوية حين أخافهم بُسْر بن أرْطاة. فأما أهل مكة فأجابوا بسراً فى غير ما خوف ولا رهب، لأن معاوية أوصاه بهم خيراً. فلما ألم بهم قائد الإمام على ﷺ بعد أن طرد بسراً، بايع أهل مكة لمن بايع له أهل الكوفة، دون أن يتبينوا من هو. وبايع أهل المدينة لمن بايع له أهل الكوفة، بعد أن عرفوا أنه الإمام الحسين بن على عليهما السلام[1].

كل شىء إذًا كان يدل على أن سلطان الدين على النفوس لم يكن من القوة فى المنزلة التى كان فيه أيام عمر، وعلى أن سلطان المال والسيف كان قد استأثر بالقلوب والنفوس. وكل شىء يدل على أن الإمام عليًا ﷺ، والذين ذهبوا مذهبه من المحافظة على سيرة النبى والشيخين، إنما كانوا يعيشون فى آخر الزمان الذى غلب الدين فيه على كل شىء. وبذلك فإن أول الظروف التى كانت تقتضى أن يُخفق الإمام على فى سياسته هو ضعف سلطان الدين على نفوس المحدثين من المسلمين، وتغلب سلطان الدنيا على هذه النفوس. وكان العرب إلى أيام عمر لا يعرفون من شؤون غيرهم إلا قليلا، يحمل إليهم التجار منهم، حين يعودون بتجارتهم، أخباراً مختلطة عن الفرس والروم والحبشة، وعن الشام ومصر والعراق خاصة. وينقل إليهم الوافدون عليهم من التجار الأجانب والمجلوبون لهم من

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص161.

الرقيق أخبـاراً عن هذه البلاد، لعلها كانـت فى نفوسهم واضحة، ولكـنها كانت لاتكاد تنتقل إلى نفوس العرب حتى تختلط ويشوبـها كثير من الإبهام والغموض، حتى كان علم العرب بشؤون هذه البلاد أقـرب إلى الأعاجيب وأنباء الأساطير منه إلى الحقائق الصـحيحة والوقائع الصـادقة. فلما كان الفتح رأت جـيوش المسلمين الكثير من حقائق هذه البـلاد. ثم استقرت فيها واستقر العـرب فعرفوا هذه البلاد معرفة صحـيحة، وبلوا من أمورها وأمور أهلها أشياء لم يكونوا يحـققونها. وقد أخذهم شىء من الدهش أول الأمر لما رأوا وما سمعوا، ولكنهم ألفوا هذه الأشياء وهؤلاء الناس، ثم جعلوا يختارون مما رأوا من الأخلاق والسـير وضروب الحياة ما يستطيعون اختياره، مما يلائم أمزجتـهم وطبائعهم وأذواقهم. وجعلت نفوس تتغير تغيـراً بطيئًا أول الأمـر، ولكنه جعل يسرع ويقـوى كلما طالت إقامـتهم فى هذه الآفاق. وقد رأوا حضارة راعتهـم، وفنونًا من الترف سحرت عيونهم، وألوانًا من خفض العيش ورقـته لم تكن تخطر لهم على بال. وقد تعلقت نفوس كـثير منهم بهذه الطرائف التى رأوها، وتمنت ضمائرهم، شاعـرة بذلك أو غير شاعرة به، أن تأخذ من هذه الحيـاة أطرافًا. وأثر هذا كله فى نظرها إلى الأشياء وحكمهـا عليها وتقديرها لقيم الحياة[1].

وقد بهرهم أول ما بهـرهم جلال الملك الذى أزالوه فى بلاد الفرس، والذى نقصوه من أطرافه فى بلاد الروم. وقارن الأذكـياء وأصحاب المطامع منهم، بين ما أقبلوا عليـه من ذلك وما تركوا وراءهم فى المدينة أو فى غـيرها من حضـر البلاد العربية وباديتها، فأكبروا هذه الجديد وصغر قديمهم فى أنفسهم، واستحيا أكثرهم من إظهار ذلك. فتناجت به ضمائرهم، وهوت إليه قلوبهم، وجعلوا ينظرون إلى من وراءهم من أولئك الشـيوخ أصحـاب النبى فى كثـير من الإجلال والإكـبار، ولكن فى كـثيـر من الرفق والرثاء أيضًـا. يُجلونهم ويكبرونـهم لمكانهم من النبى وسابقـتهم فى الدين، ويرفـقون بهم ويرثون لهم لأنهم يـمثلون جيـلا قديمًـا قد انقضت أيامه أو أوشكت أن تنقضى. وكـان الذين يعودون منهم إلى المدينة يلقون عمر فيتكلفون التجمل بسيرته ويحتالون فى ألا يظهر على دقائق أمرهم وحقائقه.

---

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص162.

يلقـونه مظهرين الشظف وغلظة الحـياة وخـشونة العـيش ليرضى عنهم ويطـمئن إليهم. فإذا خلوا إلى أنفسهم، أو خلا بعضهم إلى بعض، أخذوا بما ألفوا من لين الحيـاة، وأشفـقوا على عـمر من حـياته الخـشنة تلك، فى كثـير من الإكـبار له والإعجاب به. فلـما كانت خلافة عـثمان خفت عليـهم مؤونة هذا التكلف، فلم يكن عـثمـان يحب الشظف ولا خشـونة العيش، فـأظهروا من أمـرهم ما كـانوا يكتمون. ورقت الحـياة فى المدينة نفسها حتى دخلهـا الترف واستقر فيـها، وحتى جعلت الدور والقصـور ترتفع فى المدينة وما حولها، وحتى جعل الشـباب يقبلون على ألوان من اللعب لم يكن للعـرب عهـد بها من قبل. وحـتى اضطر عثـمان نفسـه، على إســماحه وإيثاره للدعة، إلى أن يقـاوم هذه الألوان من الفتنة المجلوبة التى جعلت تسلك سبيلها إلى النفوس[1].

ثم رأى العـرب جماعـة من شيـوخ الصحـابة وأصحـاب السابقـة والمكانة يستكثرون من المال ويُقبلون على شيء من اللين، فأقبلوا على ما أقبل عليه أئمتهم ومعلموهم. ثم جلب الفتحُ إلى الحجاز أعـداداً ضخمة من الرقيق، على اختلاف أجناسهم وعلى اخـتلاف طبقـاتهم، فى حياتهم القديمـة التى كانوا يحيـونها فى بلادهم قبل الفتح. فلم يترك هؤلاء الرقيق من الرجـال والنساء أخلاقهم وطباعهم وأمزجتهم وراءهم عند حدود البلاد العربيـة، وإنما حملوها معهم وأظهروا سادتهم على كثير منها، ثم أغروا سادتهم بكثـير منها. فلم يجدوا من سادتهم مقاومة ولا امتناعًا، وإنما وجدوا استجابة وإقبالا، فافتنّوا فيما أحب سادتهم من هذا كله. ثم لم يكن هذا كله مقصوراً على الرقيق الذين حملوا على الأرض العربية، وإنما كان شاملا كـذلك للرقيق الذين استـقروا مع سادتهم فى الأقطار المفتـوحة. وكل هذا جدد النفس العربيـة تجديداً يوشك أن يكون تامًا، وباعد بينها وبين الحـياة الخشنة القديمة أشد المباعدة. فلما قُتل عـثمان وأقبل الخليفة الرابع يريد أن يحملهم على الجـادة، وأن يردهم إلى السيـرة التى ألفـها المسلمـون أيام النبى والشـيخـين، لم ينشطوا لذلك ولم يطمئنوا إليه، وإنما نظروا فرأوا خليفـة قديما يدبّر جيلا جديداً،

---

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص163.

ويريد أن يدبره تدبيراً ينافر أشد المنافرة ما أحب من حياة الخفض واللين. ثم نظروا بعد ذلك فرأوا أميراً آخر قد أقام فى الشام، وقد جدد نفسه مع هذا الجيل الجديد. ثم لم يكتف بتجديد نفسه والملاءمة بينها وبين رعيته، إنما يغرى رعيته بالتجديد ويعينها عليه بالمال. ويحتج لذلك بما شاء الله من الحجج. فهو مقيم فى بلاد مجاورة لبلاد الروم، وهو يريد أن يُلقى فى روع الروم أنه ليس أقل منهم أبهة ولا أهون منهم شأنًا ولا أرغب منهم عن طيبات الحياة، وأن أصحابه يشبهونه فى ذلك. ثم هو يحارب هؤلاء الروم فينبغى أن يحاربهم بمثل أسلحتهم. ثم هو يحارب خصمه فى العراق فينبغى أن يكيد له ويغرى به ويخذل عنه ويفرق الناس من حوله[1]. وكان معاوية يمثل الحكم فى الظل فلم يكن فى دائرة الضوء تمامًا إنما كان يعمل بهدوء وحذر مخططا لما بعد مرحلة الخليفة الشيخ، ومستفيداً ما أمكن من تلك الظروف غير الطبيعية فقد كان لدى معاوية الموقع السياسى زعامة الاتجاه القبلى القرشى الأرستقراطى والمادة المقاتلة قبائل الشام اليمنية القوية، والتعبئة النفسية مقتل عثمان، فضلاً عن المسوغ الشرعى ولاية الدم... إلخ، من أجل تفجير أزمة سياسية فى مستوى الخلافة دون التورع عن استخدام مختلف الوسائل الميكافيلية لتحقيق أهدافه لاستعادة نفوذ بنى سفيان واتخاذ دور قيادى فى المتغيرات الجديدة.

كان مقتل عثمان فى أعقاب انتفاضة مسلحة، المنعطف الأكثر خطورة، فقد بدأت ملامحه فى اغتيال عمر بن الخطاب الذى جاء اغتيالا فى الوقت نفسه لمشروعه السياسى المتكامل، فقد كان من نتائجه البارزة تهميش الحجاز، بعد أن فقد دوره المؤثر مع انتشار العرب المسلمين فى إطار حركة الفتوح. ومعنى ذلك أن الصراع على الحكم، قد انتقل إلى الأمصار (الجمل وصفين)، حيث خاض الإمام على ﷺ الحرب بالقبائل العراقية ومعظمها قبائل يمنية، بينما خاضها معاوية بالقبائل الشامية اليمنية. ومن المفارقات اللافتة، أن يكون العراق، وتحديداً الكوفة ـ على الرغم من انتصار الأمويين السياسى وإعلانهم الحكم فى الشام ـ البداية

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص163،

والنهاية معا للدولة الأموية عبر فرعيـها السفيانى والمروانى معًا، فقد بدأت الأولى (السفيانية) مع صلح الإمام الحسن ﷺ وانتهت فى أعقاب كربلاء، بينما تكرست الثانيـة (المروانية) عـمليًا، بعـد القضـاء على مصعـب بن الزبير، وانتـهـت بقرار إسقاطهـا الذى أعلنه أبو سلمة الخلال من مـسجد الكوفة بداية الحكم الـعباسى. ولعل أبرز ما تنطوى عليه هذه المفارقة، هو أن المعارضة الدؤوبة التى قادتها الحركة الشعبية فى هذه المدينة، كانت الهاجس اليومى للخلفاء الأمويين، الذين لم يجدوا سوى القوة سبيلا للدفاع عن نظامهم، المسـتمد (شرعيته) من السيف، ولـم يجدوا غيره سبيلا للمحافظة عليـه. وكان من الطبيعى أن يتلقى العراق، أقسى الضربات فى هذه المواجهـة الطويلة والحادة بين الأمويين والمعارضـة، سواء كانت شيـعية أم زبيرية أو خوارجية[1].

تنازل الإمام الحسن ﷺ عن حقه فى الخلافة لمعاوية:

ولما دفن الإمام على ﷺ خرج ابنه الإمام الحسن ﷺ إلى المسجد الجامع، فاجتمع الناس إليه فبايعوه متحفظين، إذ كان الإمام الحسن ﷺ قد اشترط عليهم أن يبايعوه على مـسالمة من يسـالم ومحاربة من يحارب، وكـانوا يميلون إلى الإمام الحسين ﷺ، ولكن الإمام الحسين ﷺ أبى أن يبايعه القوم فى حـياة أخيه. أما معـاوية، فقد بويع بالخـلافة من جديد فى بـيت المقدس بعد أن قـتل الإمام على ﷺ، ودعى بأمـير المؤمنين، ثم أقـبل معاوية غـازيًا العراق بجـيوش كـثيـفة فى مقدمتهـا عبدالله بن عامر بن كريز، فاستولى على عـين التمر، ثم نزل الأنبار فى طريقه إلى المدائن. وبلغ ذلك الإمـام الحسن ﷺ وهو بالكوفة، فـخرج فى اثنى عشر ألفًا يقودهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى متجهًا إلى المدائن، فلما وصل إلى ساباط رأى من أتباعـه زهدًا وانصرافا عن الحرب، فـأعلن الإمام الحسن ﷺ أنه لا يريد أن يحمل الناس على ما يكرهون، وأن الجماعـة خير من الفرقة، وكان فى معسكر الإمام الحسن ﷺ جماعة قد أخذوا بآراء الخوارج، فقالوا « كفر الإمام

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ـ ص329.

الحسن ﷺ كما كـفر أبوه من قبل»، فهاج النـاس عليه وانتزعوا مصـلاه من تحته ونهبوا متاعه، وطعنه أحدهم فى فخذه، فحمل الإمام الحسن ﷺ وهو جريح إلى المدائن وقد نزف نزفا شديدا، ونزل القصر الأبيض، وعولج حتى برأ. ثم إنه كتب إلى معاوية وقد وافى الأنبار يتنازل له عن الخلافـة بشروط منها: أن يعطيه معاوية ما فى بيـت مال الكوفة وقـدره خمـسة آلاف ألف دينار، وأن يحـمل إلى الإمام الحسين ﷺ كل عام ألفى ألف دينار، وأن يترك له خـراج دار ابجرد من فارس، وأن يكف عن سب أبيـه، فأجـابه مـعاوية إلى شـروطه، ولكنه أخل بالشـرطين الآخرين، فأما خـراج دار ابجرد فقد منعه أهل البـصرة عن إعطائه إياه بإيعاز من معاوية، وأما الكف عن سب الإمام على ﷺ فلم يف به أيضا. وذكر ابن قـتيبة أن الإمام الحسن ﷺ اصطلح مع معاوية على أن يظفر معاوية بالخلافة ما كان حيا فإذا مات فالأمـر للإمام الحسن ﷺ. ثم سار الإمام الحسن ﷺ بأهل بيته حتى وافى الكوفة، وتم تنازل الإمام الحسن ﷺ عن الخلافة لمعاوية فى 25 ربيع الأول عام 41، وقيل فى ربيع الآخـر، وقيل فى جمـادى الأول. أما معاوية فـقد دخل الكوفـة وبايعه النـاس، والتقى فـيهـا بالحـسن. ثم رحل الإمام الحـسن ﷺ إلى المدينة، ورحل معاوية إلى دمشـق بعد أن استعمل المغيرة بن شـعبة على الكوفة، وسمى هذا العام بعام الجماعة لاجتماع الأمة فيه على خليفة واحد. وإذا بحثنا فى الأسباب التى حملت الإمام الحسن ﷺ على تنازله عن الخلافة رغم اعتراض أخيه الإمام الحسين ﷺ على ذلك، وجدناها تنحصر فيما يلى: (1)

1 ـ كان الإمام الحسن ﷺ ينفر من الحرب ويشـفق على المسلمين من الفتن الداميـة، وكان قـد شهد بنفـسه عـاقبة الفـتنة الكبرى ومـا انتهت إليـه من مآسٍ ونكبات، راح ضحيتها كل من الخـليفة عثمان والإمام على ﷺ، وأدت إلى تجدد النزاع القديم بين بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وبين بنى عبد المطلب بن هاشم بن عـبـد مناف. وقـد عبـر عن ذلك فى قـوله مـخـاطبا أصـحـابه وهو

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ـ ص608.

بساباط: «أيها الناس، إنى قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة، وإنى ناظر لكم كنظرى لنفسى، وأرى رأيا فلا تردوا على رأيى، إن الذى تكرهونه من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة، وأرى أكثركم قد نكل عن الحرب، وفشل عند القتال، ولست أرى أن أحملكم على ما تكرهون». كان الإمام الحسن ﷺ يزهد فى الخلافة إذ كان توليه لها يفضى إلى الفتنة بين المسلمين، وكان قد نصح أباه الإمام عليا ﷺ بأن يقيل طلحة والزبير من بيعتهما، وأن يدع القوم يتشاورون عاما كاملا، فإذا رفضوه رفضهم وإذا قبلوه قبلهم.

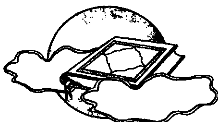
2 ـ أراد الإمام الحسن ﷺ أن يخمد الفتنة على يديه، إما رغبة صادقة فى حقن دماء المسلمين وتسكين الفتنة وإشفاقا عليهم من الإقبال على مزيد من المعارك ومزيد من التضحيات البخسة، أو لاقتناعه بعقم أى محاولة للتغلب على أهل الشام، الذين رجحت كفتهم بسبب تلاحمهم وتضامنهم أمام أهل العراق المنقسمين على أنفسهم. وفى كلتا الحالتين جاء تصرف الإمام الحسن ﷺ نابعًا عن تفهم دقيق للموقف ومعبراً عن نظرة واقعية لحقائق الأمور. ولقد قرن الحسن بين ما فعله هو إذ حقن دماء المسلمين بما فعله جده رسول الله إذ بصر العرب بعد ضلال وهداهم بعد كفر، ويعبر الإمام الحسن ﷺ عن ذلك بقوله: «أيها الناس، إن الله هدى أولكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا».

3 ـ لم يعد الإمام الحسن ﷺ يثق بأهل الكوفة بعد ما فعلوه بأبيه فى موقعة صفين وبعد أن تخذلوا عن الإمام الحسن ﷺ وكرهوا القتال، ونفروا بسرادقه، وتفرقوا عنه، وقد عبر عن ذلك فى خطبته لأهل العراق فقال: «يا أهل العراق إنه سخى بنفسى عنكم ثلاث: قتلكم أبى، وطعنكم إياى، وانتهابكم متاعى». ولما سئل الإمام الحسن بعد أن عاد إلى المدينة عن السبب الذى حمله على التنازل، قال: «كرهت الدنيا، ورأيت أهل الكوفة قومًا لايثق بهم أحد أبدًا إلا غلب، ليس أحد منهم يوافق آخر فى رأى ولا هوى، مختلفين لا نية لهم فى خير ولا شر.

لقد لقى أبى منهــم أموراً عظامًا، فليت شـعرى لمن يصلحون بعـدى، وهى أسرع البلاد خرابًا». وهناك من يعزون تخليه عن حقه فى الخلافة بأنه لم يكن مهيأ لحمل أعبائها لتفضيله الحياة السهلة.

الواقع أن عودة الإمام الحسن إلى المدينة وتفضيله المقام بها بقيـة حياته على الكوفة أكـبر المصرين، إنما يعبـر عن نزعة دينية، وعن ميل إلى الانـزواء، كما أن القول بزواجـه من سبعـين امرأة مبـالغ فيه ويحـمل على الشك، فلم يكن له من الولد سوى ثمانية ذكور من أربع زوجات وأمهات أولاد لا يمكن أن يصل عددهن إلى مـثل هذا الرقم. ولذلك لانعتـقد أنه تخلى عـن الخلافـة لرغبته فى الحـياة السهلة، صحيح أنه كان يكره الفتن والقتال، ولكنه كان لا يتردد فى حمل السلاح والتعرض للموت إذا ما اقتضى الأمـر ذلك، وقد رأيناه يدافع عن عثمان بن عفان حتى جرح وتلطخ وجـهه بالدماء، ورأيناه فى أهل العراق يسعى لمحـاربة معاوية، ثم يطعنه بعضهم فى فخذه فينزف نزفًا شـديداً. فلم تكن المغامرة من طبيعته، ولا مزاجـه مع التهور، مـثبًا ذلك فى تفـاديه المضى فى حرب خاسـرة، بعد أن رأى «هوى الناس فى الصلـح» حسب القـول المنسـوب له. ولكن الحـذر الشـديد فى المقابل، كان هـو الطابع الملازم لقراراته السياسـية بصورة شبه دائمـة، حين ظلت خطواته، مقرونة بالاتزان والواقعيـة حتى بعد «الصلح»، على الرغم من التحريض المستمر من بعض أنصاره على تغييـر هذا النهج الذى توخى منه البقاء على «شيعته من القـتل ودفع هذه الحرب إلى يوم مـا»، استناداً إلى الرواية التـاريخيـة. وكان محـصلا لانعـدام ثقتـه بالجزء الأكـبر من أعـوانه الذين أدانتـهم حروب صفـين ومفاوضات التـحكيم، بعد انكشاف ما فى نفوسهم من تغليب للمـصالح الخاصة على غيرها من الالتـزامات المبدئية، دون أن يجد ثمة تغيـيراً فى الموازين العسكرية التى كانت تسيـر بوضوح وفق إرداة معاوية ومصلحتـه، منذ توقف الحرب وعودة الإمام على عليه السلام إلى الكوفة.

الفصل الثانى



نظام الحكم السياسى

- ظهور الدولة الجديدة.
- إشكالية حكم الأسرة الأموية.
- التحول من الحكم الإسلامى الانتخابى الشعبى إلى الحكم الوراثى الملكى.

استعادت الدولة وحدتها السياسية بعد تنازل الإمام الحسن ﷺ، ولكنها فقدت الكثير من ملامحها السابقة، ذلك أن عهداً جديداً ومختلفًا برز مع معاوية في دمشق التي أصبحت حاضرة الدولة الناشئة. أما الكوفة التي عاصرت نهاية الخلافة الراشدية، بعد أن اختارها الإمام على مركزاً له في أعقاب حرب الجمل، فقد تراجعت إلى الوراء، ولكن دون أن تفقد بريقها السياسي والاستقطابي في مواجهة الحكم الأموي، بينما «المدينة»، الحاضرة الأولى، لفها النسيان وانطوت على نفسها بعيداً عن الأحداث، قبل أن تتحول مع الزمن إلى «منفى» للقيادات السياسية، وجلهم من أبناء الصحابة، حين اشترى معاوية سكوت بعضهم بالمال، والآخر بالقوة، محاولا تطويق خطرهم واحتواء معارضتهم ما استطاع سبيلا إلى ذلك. وليس ثمة شك أن نجاح معاوية في إقامة هذه الدولة، اعتمد في المقام الأول على موهبة غير عادية في السياسة والحكم، إذ كان على درجة عالية من الذكاء والمرونة، بالإضافة إلى صناعة العلاقات الاجتماعية التي أتقنها، وقدرته على استقطاب الأنصار والحلفاء وعلى إضعاف الخصوم والإيقاع فيما بينهم. وأخيراً لم يكن مؤسس الدولة الأموية يتورع، حتى في الوقت الذي كان فيه يسكن وجدان الناس ويهيمن على تصرفاتهم، عن استخدام مختلف الوسائل، حتى غير المشروعة، وصولا إلى تحقيق غاياته وأهدافه، وهذه الصفات المتعددة التي اجتمعت في شخصية معاوية، أسهمت في ولادة نهج جديد في الحكم، لم يكن مألوفًا في العهود السابقة. فمعاوية وفقًا لهذه المعطيات، يعتبر رائد ما يسمى بالمدرسة «الميكافيلية» أو «المعاوية» في السياسة، القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية، تلك التي عرفت باسم صاحبها المفكر الإيطالي «مكيافيلي» الذي ذاعت شهرته في أوروبا منذ عصر النهضة. وقد وصف المؤرخ الدمشقي «الحصني» هذه النزعة الوصولية لدى معاوية بقوله: إنه «عاش بين زعازع الفتن وقوارع الحروب، مستعينًا

على بلوغ أمله بدهائه واصطناع الفطاحل من قريش وغيرهم، حتى بلغ الشأو الذى تحدثه به نفسه. وهكذا فإن دولة معاوية، اتخذت فى مسارها التنظيمى - السياسى اتجاهًا إنقلابيًا، تطورت معه الخلافة إلى ملك، أو من «الثيوقراطية» الدينية إلى «الأتوقراطية» السياسية، حسب التعبير الإغريقى القديم. وتعدت هذه التغييرات الجذرية، مضمون السلطة إلى مظاهرها، التى اقتبست من النظام البيزنطى بوجه خاص، إذ كان يطيب لمعاوية البحث عن أحوال ملوكهم، كما يقول المؤرخ الدمشقى السالف الذكر، ولعل هذا التحول فى الفكر السياسى وفى تقاليد الحكم، مرتبط فى جانب ما بالعامل الجغرافى، كون معاوية عاش مع بداية الفتوح على تخوم الدولة البيزنطية، بعيدًا عن بساطة الحجاز وعفوية الحياة الاجتماعية فيه. ومن هذا المنطلق فهو يرفض نهج السلف، بإعطاء المسجد دوره الاستقطابى التقليدى فى حياة رجل الدولة فى الإسلام، ويتمسك بهذه المظاهر الدنيوية المعقدة. فقد نسب إليه إقامة حاجز بينه وبين عامة الناس، مؤثرًا الإقامة فى «الخضراء»، أو قصره الشهير الذى تميز بكل مظاهر الملوك، من العرش إلى الحرس إلى الحجاب، فضلا عن الاعتزال فى محراب المسجد الذى كان أشبه بمقصورة خاصة تفصله عن بقية المصلين، إلى آخر هذه المظاهر التى انفرد بها معاوية، دون أسلافه من خلفاء الدولة الإسلامية. ولعله كان ميالا بالفطرة إلى هذا النمط السلوكى، الذى تجلى وهو بعد ما يزال واليًا على الشام، حين وصفه الخليفة عمر بن الخطاب حينذاك، بأنه «كسرى العرب» حسب رواية المدائنى[1].

انطوت بيعة الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية على مرحلة هامة من مراحل التاريخ الإسلامى. إنها طوت العصر الراشدى وافتتحت العصر الأموى، وأدت إلى عودة الأسرة «المحمدية العلوية» إلى موقع المعارضة فى السلطة، بعد مراحل طويلة من

1 - د. إبراهيم بيضون - المرجع السابق - ص147.

الصراع، حيث انتهت جولة أخرى لصالح الأمويين. وبدأ بعام الجماعة عهد جديد من عود الحكم فى الدولة الإسلامية، التى استعادت وحدتها السياسية، مع اعتلاء معاوية سدة الخلافة فى دمشق التى أضحت العاصمة المركزية للدولة الجديدة. لقد كان معاوية أرحب أفقًا، وأبعـد مدى من المحيط الذى حوله. وكانت تطلعاته إلى قيام دولة «ملكية أرسـتقراطية وراثية»، فى رأس اهتماماته، لذلك اجـتهد أن يقيم صرح دولته على عدة أركان لعل أهمها:(1)

1 ـ التغييـرات فى بنية النظام السياسى، وتتمـحور حول دور الجيش، الذى أنشأه ونـظمه منذ أن كـان واليًا على الشـام؛ فى تحقـيق الاستقـرار فى الداخل، والتوسع فى الخارج.

2 ـ السياسـة الداخلية، وتتناول الإدارة وتحقيق التـوازن القبلى وتأمين ولاية العهد، وإخضاع المعارضة.

3 ـ توطيد الأمن فى ربوع العالم الإسلامى.

4 ـ مبـاشرة أمور الدولة بنفـسه، حيث كـرس كل وقته وجـهده من أجل مملكته.

5 ـ السيـاسة التوسعـية، فقد اعـتمد معـاوية فى تحقيق ذلك على مـواهبه السياسـية، حيث كان على درجـة عالية من الذكاء والمرونة بالإضـافة إلى أنه أنشأ علاقـات اجتـماعـية اسـتقطبت الحلفـاء وأضعـفت الخصـوم، واضطرته الظروف السياسية، التى أحاطت بدولته الناشئة، أن يعـمل على صعيدين: صعيد التحالف مع السكان الأصليين فى بلاد الشام، وصـعيد التحالف مع أقوى القـبائل العربية، وهى القبـائل اليمنيـة، التى ساندته فى الوصـول إلى الحكم، وقد شكلت ركـيزة حكمه. وثبت هذا التحـالف زواجه من ميسون الكلبـية، وزواج ولده يزيد بامرأة

1 ـ د. محمد سهيل طقوش ـ تاريخ الدولة الأموية ـ دار النفائس ـ ص17.

منهم. ويوضح لنا هذا التحالف الخط السياسى الذى اعتمده فى علاقاته العامة. لكن معاوية الحجازى، وهو السياسى البارع، لم تكن تعنيه عصبية ما إلا بقدر ما تخدم مصالحه، وقد هدف أن يجعل العنصر العربى دعامة أساسية لطموحه الشخصى، وطموح الطبقة الأموية الحاكمة. وخاصة القبائل اليمنية لقوتها ولشدتها ولكثرتها. ومن المؤكد أن هذه المنهجية السياسية أدت، من خلال مسارها التنظيمى إلى شكل مختلف من الخلافة، إلى الملكية.

كان من بين السمات التى ميزت المجتمع الجاهلى هى انقسام هذا المجتمع إلى عصبيتين حجازية ويمنية حيث تمثلت الحجازية بقبائل نزار وربيعة ومضر من عرب الشمال، بينما تمثلت اليمنية بقبائل أخرى هاجرت من جنوبى الجزيرة العربية واستوطنت بلاد الشمال وغيرها من البلاد المفتوحة منها قبائل الأزد والغساسنة والمناذرة، وتزعمت قبيلة كلب اليمنية الشام. وخمدت هذه العصبية خلال عصر الرسالة وعصر الخلفاء الراشدين، إلا أن انتشار القبائل العربية فى الأمصار على إثر الفتوحات الإسلامية، حمل معه هذه العصبية الجاهلية بين عرب الحجازيين فى الشمال الذين انتسبوا لجدهم عدنان وعرفوا بالعدنانية، وبين عرب اليمنيين فى الجنوب الذى انتسبوا لجدهم قحطان وعرفوا بالقحطانية، وتحولت مع مرور الزمن إلى حزبين سياسيين اشتد التنافس بينهما وأثر، إلى حد كبير، فى الاتجاهات السياسية لدولة الخلافة الأموية.

ومن ناحية أخرى فإن مؤسس دولة الأمويين، استولى، كما هو معروف، على الحكم فى ظل ظروف غير طبيعية، دون أن يتم ذلك عبر «الانتخاب» أو «الجماعة»، بل عن طريق القوة فى أعقاب حرب أهلية دامية. ومن هذا المنظور، فإن أى نظام يشاد بالسيف، يحتاج إلى أن يحميه السلاح نفسه، أو كان عرضة للانهيار السريع، وهذه الحقيقة كانت نقطة الضعف الرئيسية فى دولة معاوية، على الرغم من محاولة استيعابها، من خلال التأكيد على دور القوة المسلحة، كأداة

ضرورية لحماية هذه الدولة. وكـان للقبائل اليمنية الشامية التى حملت أعباء هذا الدور، تأثير كبير فى الدفاع عن الحكم الأمـوى، وضرب حركات المعارضة بمنتهى الشدة عن طريق الحملات العسكرية التـى قادها ابن زياد وسفيان بن الأبرد الكلبى (العراق) ومسلم بن عقبة والحجاج بن يوسف (الحجاز) وكلثوم بن عياض القشيرى وحنظلة بن صـفوان الكلبى (المغـرب الأقصى). وهكذا فـإن تكوين هذه المؤسـسة (الجيش)، تم فى إطار النظام القـبلى التقليدى الذى استـعاد حيويته تدريـجيًا منذ حرب الجمـل، وهى أول معركة بين المسلمـين، كان الالتزام فيـها ظاهراً بالموقف القبلى، قبل أن يتبلور فى مـعارك صفين، حيث قاتلت القبـائل كوحدة عسكرية، وليس كأفراد ملتزمين بموقف مـبدئى وثابت. وكانت الخطورة فى ذلك، أن الجيش الأموى، تحول مع الوقت إلى «طبقة» عسكرية، تمتـعت بامتيازات خاصة وتحركت وفق مصـالحها الاقـتصادية والقـبلية، قبل أن تكون أداة طيـعة فى قبـضة الدولة، وبالتالى فـإن العمليـات الحربية التى تم تنفـيذها فى ذلك الوقت، كـانت انعكاسًا واضحًا لهذه «المؤسسة». فلم تعد حركة الفتـوح قضية مبدئية، على نحو ما كانت عليه بالنسبة لمقـاتلى العصر الأول من الإسلام، بعد أن افتقدت الكثـير من وهجها ومن مضمـونها الإنسانى، وبعد أن لجأ الخلفـاء أو معظمهم، إلى تسيـيس الفتوح وإخضاعها لاعـتبارات مرحلية، كامتصاص النقـمة أو إرواء رغبات القادة والجنود المتعطشين للمال وللسيطرة.

ومن ثم إبعـادهم عن التـدخل فى شـؤون الحكم، فـضـلا عـن النزعـة «الامبـراطورية» التى خالجت الخلفاء الأمـويين، والسعى إلى إقـامة دولة عظمى، محورها العنصر العربى (القبائل) الذى اقتصرت عليه القوة العـسكرية لهذه الدولة. بيد أن هذا «الجـيش» برغم تناقضاته الـقبلية والإقليـمية، كـان الأداة الفاعلة التى اعتمـد عليها معـاوية وكبار الخلفاء الأمـويين، فى تثبيت النظام وضـرب الحركات

الثورية المعادية. فالطابع العسكرى إذن، كان أكثر سمات هذه الدولة تجليًا، بعد أن زامنها فى جميع المراحل، من الولادة التى تمت بالقوة، كما أشرنا، إلى النهج القمعى التقليدى فى التعامل مع المعارضة وخصوم النظام، وأخيرًا إلى السقوط الذى تم بالقوة أيضًا، وبوسائل أكثر تطرفًا من الوسائل الأموية. وبعد هذا الموقف عند تكوين «الجيش» الأموى، الذى كان عصب الحياة السياسية والعسكرية فى دولة معاوية، لابد من الإحاطة بالجوانب الأخرى للأخيرة التى قامت على هذه الأركان الثلاثة:[1]

1 ـ التغيرات السياسية فى بنية النظام، وهى تتمحور حول دور الجيش والتحول إلى «الملكية» الفردية.

2 ـ السياسة الداخلية، وتتناول: الإدارة ـ التوازن القبلى ـ ولاية العهد ـ تطويع المعارضة.

3 ـ السياسة التوسعية، وتتعلق بالنظام الحربى والدفاعى، فضلا عن استئناف حركة الفتوح.

ولقد ألمحنا سابقًا إلى تعديل نظام الحكم الذى تطور نحو الملكية متأثرًا بالمظاهر المقتبسة عن التقاليد البيزنطية، كذلك ألمحنا إلى دور «الجيش» فى قيام هذه الدولة واستمرارها، وتحوله إلى جهاز يستمد منه الخلفاء الأمويون القوة والشرعية فى السلطة. إما السياسة الداخلية، فقد جاءت فى الواقع انعكاسًا لذهنية الحكم والسياسة التى جعلت من الأسرة الحاكمة والقبائل القريبة منها فئة متميزة فى موقعها الاجتماعى والسياسى. إما خارج النطاق الأسروى، فقد اتبع معاوية قاعدة التوازن العلائقى مع حلفائه، حيث كانت القوى القبلية فى الشام، تعمل بمجملها فى خدمة الدولة، دون أن تعيقها عن ذلك تناقضاتها المحلية والمتوارثة. فهو على الرغم من ارتباطه بتحالفات ومصاهرات مع اليمنيين، لا سيما كبرى قبائلهم

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ـ ص147.

«كلب»، فإن الحجازيين لم يشعروا فى عهده بالظلم أو الحرمان، انطلاقا من سياسته الموازنة التى لم تثر حفيظة ما إزاء خصومهم التقليديين، بل كانت على العكس من ذلك تدفعهم إلى توثيق علاقاتهم بالدولة والتسابق إلى مواقع النفوذ فيها. وكان من محصلات هذا التحالف الأموى ـ الحجازى، تعيين الضحاك بن قيس الفهرى (من قريش الظواهر) على ولاية دمشق، بما يعنيه هذا المنصب من أهمية وخطورة فى ذلك الحين.

يستفاد من دراسة التاريخ الإسلامى فى شتى مراحله ـ أن عملية نقل السلطة لم تكن دائما ذات نسق واحد. فنجد أنها ـ خلال الصدر الأول للإسلام ونعنى فترة الخلافة الراشدة بالذات ـ كانت تتبع نسق الرضا والاختيار والبيعة الديمقراطية والمشورة وصفقة اليد وثمرة القلب، والابتعاد ـ ما أمكن ـ عن كل صور الاستلاب والعسف والجبر والقهر والاغتصاب. لكن هذا النسق المتقدم لم يقدر له عمرا طويلا (11 ـ 40هـ) أى ما يقارب الثلاثين عاما. تبع ذلك نسق آخر. فى نقل السلطة يختلف ـ شكلا وموضوعا ـ عن النسق الأول الذى ساد فى فترة الخلافة الراشدة. وقد بدأ هذا معاوية مؤسس الدولة الأموية التى استمرت لمدة أطول بكثير من دولة الخلافة الراشدة، أى ما يقارب سبعة وثمانين عاما، ساد خلال الفترة الأموية أسلوب جديد لنقل السلطة. أسلوب لايخلو من الجبر والقهر والاستلاب والعسف أفرز حكما وراثيًا عائليا صرفا ابتعد شيئا فشيئا عن حوزة العقيدة السماوية الإسلامية والمنهج العقائدى الديمقراطى والدعوة إلى الله وتحقيق القسط بين الناس كما علمنا القرآن، ودخل شيئا فشيئا إلى عالم الدولة الوراثية الملكية المستبدة وعمليات الاستدعاء السياسى للقبيلة وتكريس التفاوت المعيشى بين الناس وبروز الإقطاع السياسى كقوة ارتدادية جديدة. وحملت هذه الدولة منذ نشأتها كل الجراثيم التى ادت ـ فى النهاية ـ إلى انهيارها. وقامت الدولة العباسية كرد فعل تاريخى للدولة الأموية، غير أن طبيعة هذا الرد لم تكن راشدة على الإطلاق، بل سلكت ذات الأسلوب وذات الاتجاه من حيث نقل السلطة ومن حيث وفرة الروح الجبرية والقهرية والاستلابية. ودارت أيام وشهور وسنون وقرون التاريخ الإسلامى

على هذا النمط الجبرى الملكى بحيث أصبحت ـ عمليًا ـ فكرة الفصل بين الدين والسياسة واردة على صعيد الواقع، بل وعلى مقعد الخلافة نفسها. نقصد، أن العائلات الحاكمة والسلالات المغتصبة للسلطة أخذت على مر التاريخ تحكم وتتوارث الحكم وتشن الحروب وتوقع المعاهدات وتستحدث التشريعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، تفعل كل ذلك باسم الإسلام، وفى نفس الوقت تقاوم بشراسة تاريخية لا مثيل لها كل جهد فردى أو جماعى لإعادة الإسلام ـ بالفعل ـ إلى القيادة السياسية، وإلى ماكينة القرار السياسى الديمقراطى. وتحقق بالفعل الانشطار فى القيادة الإسلامية. فعلى رأس الدولة وفى أجهزتها تسود العقلية السياسية المحضة الخالية من التوجه العقائدى الذى عناه الإسلام تاريخيا. وعلى الصعيد الشعبى ينتشر الفقهاء، والعلماء والمحدثون والقراء ورواة الحديث والمؤرخون وغيرهم من الفئات ذات التوجه العقائدى الإسلامى الصرف. وأصبحت سلطة العائلات الحاكمة والسلالات المغتصبة للسلطة تتحدث بلغة لاتفهمها القاعدة الشعبية الإسلامية. وأصبحت الأخيرة لاترى فى الأولى تجسيدا عمليا صحيحا للإسلام. وأفرز هذا الانشطار والانقسام فى كيان الأمة الإسلامية أدبا وفقها وشعرا يعكس المرارة واليأس والانزواء من جهة، كما أنه يعكس أيضا الروح التوفيقية التى سادت فى تلك المرحلة[1].

وإزاء هذا التراكم التاريخى الضخم للأفعال وردود الأفعال والذى استمر لمدة لاتقل عن 14 قرنا، يبرز السؤال الجوهرى: كيف تكون الدولة عندما يحكم الإسلام؟ هل دولة الإسلام التى ندعو لها هى دولة الخلافة الراشدة؟ أم هى الدولة الأموية والعباسية إلى آخر المسميات؟ ويبرز السؤال الجوهرى بشكل عفوى وطبيعى خاصة بعد قراءة التاريخ الإسلامى وبالذات مراحل الدولة الراشدة والأموية والعباسية. ذلك لأن هناك اختلافا كبيرا بين دولة الخلافة الراشدة من جهة والأموية والعباسية من جهة أخرى من حيث أسلوب نقل السلطة السياسية وطبيعة

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ عندما يحكم الإسلام ص16.

تراكيب السلطة السياسية وتوجه الدولة بشكل عام وطبيعة اتجاه السياسات الاجتماعية والاقتصادية التى سادت آنذاك. فالسلطة الراشدة قامت وانتقلت من أبى بكر إلى عمر إلى عثمان إلى على رضى الله عنهم بالرضا والديمقراطية والانتخاب الحر والاختيار لعموم المسلمين، تحققت فيها صفقة اليد وثمرة القلب، وكافة شروط البيعة الإسلامية الصحيحة. بينما نجد أن السلطة الأموية قامت وانتقلت عن طريق الجبر والتوارث وولاية العهد وهو طريق لا يقره الفقهاء ولا تقره الشريعة الإسلامية. وتركيب السلطة الراشدة كان تركيبا نادرا فى بساطته ومباشرته وانفتاحه على الأمة والجماعة وإعماله لآيات الشورى وتلقيه المشورة الإسلامية تلقيا للتنفيذ لا للتنطع والاستعداد الدائم لدى الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم وأرضاهم ـ لركوب أى صعب من أجل الدعوة الإسلامية والتحرج من الأكل من بيت المال حتى ضمن الحدود التى سمح لهم بها الشرع. وأما تركيب السلطة الأموية فكان معقدا ومن طراز السلطة القيصرية فى القسطنطينية وملكيا صرفا أقام الحجب والجدر بين الملوك الجدد فى دمشق وبين الأمة والجماعة وأهدر وعطل مبدأ الشورى وتلقى المشورة الإسلامية، وتوسع فى الأكل من بيت المال حتى خرج كثيرا على حدود ما هو مسموح به شرعا. وأما توجه الدولة الراشدة فكان يهدف إلى تكريس وتعزيز وتثبيت النظام الإسلامى وتطبيق شريعته حتى إن خلفاء تلك الدولة النادرة فى رشدها خسروا فى هذا السبيل كثيرا من القوى المؤيدة لهم فى الجزيرة العربية، بينما نجد أن توجه الدولة الأموية العام كان يهدف إلى تكريس وتعزيز وتثبيت حكم العائلة الأموية حتى إن خلفاء تلك الدولة أثاروا ـ فى سبيل ذلك ـ النعرات بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب وشتتوا العرب أنفسهم عن طريق القبلية العدنانية والقحطانية والمضرية والأزدية واليمانية إلى آخر قائمة «الردح» العربى[1].

قد يعترض معترض على نقدنا لمعاوية بن أبى سفيان بحجة أن معاوية من صحابة رسول الله ﷺ وأن الصحابة رضوان الله عليهم ـ كما يعتقد عامة المحدثين

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص17.

والفقهاء ونحن نتبعهم بلا شك ـ «كلهم عدول»، وقد يذهب هذا المعترض للقاضى أبى بكر بن العربى يستفتيه فى هذا الأمر فيفتح كتاب «العواصم من القواصم» ليؤكد لنا أن معاوية كان محل ثقة رسول الله ﷺ الذى قال عنه: اللهم اهد به. . وأن عمر بن الخطاب جمع له الشامات كلها وأفرده بها لما رأى من حسن سيرته وأنه ـ أى معاوية ـ حمى البيضة وسد الثغور وأصلح الجند وظهر على العدو إلى آخر ما يقوله القاضى ابن العربى عن معاوية. ونقول نحن أن كل هذا لايجعل من معاوية بن أبى سفيان شخصا معصوما من الخطأ وحتى لو أخطأ فإن هذا لايتنافى مع «الصحابة كلهم عدول». ونحن فى هذه الدراسة نذهب ـ فى هذا الأمر ـ مذهب الداعية الكبير أبى الأعلى المودودى رحمه الله: «إن عقيدتى عن الصحابة الكرام هى نفس عقيدة عامة المحدثين والفقهاء وعلماء الأمة منهم أن «كلهم عدول» وطبيعى أنهم الوسيلة التى بها وصل الدين إلينا وأى شك فى عدالتهم ـ ولو قدر ذرة ـ يؤدى إلى الشك فى الدين ذاته. غير أنى لا أفهم «الصحابة كلهم عدول» بمعنى أنهم جميعا لايخطئون وأن كل واحد منهم كان فوق كل نوع من نقاط الضعف، أو النقائص البشرية وأن أحدا منهم لم يخطئ قط، إنما أفهمها على أن أيا من الصحابة لم يتجاوز الصدق والصواب فى روايته عن الرسول ﷺ أو نسبته له أى قول أو فعل. فإن فهمناها على المعنى الأول ما وجدنا فى تأييده روايات قوية ذات أسانيد صحيحة، لا فى التاريخ ولا فى الحديث. وإن فهمناها على المعنى الثانى ثبت لدينا بالقطع ما لا يمكن لأحد أن يثبت ما يخالفه من أى مصدر موثوق. إلى حد أنهم حتى وهم يديرون رحى المعارك أمام بعضهم لم ينتحل أى منهم ولو حديثا واحدا يؤيد به موقفه أو يكذب ولو حديثا صحيحا يعارض مصلحته. لهذا لاينبغى أن تفهم أذهاننا خطأ ـ عند مناقشة خلافات الصحابة ـ أننا لو اعترفنا بصحة موقف أحدهم وخطأ الآخر، ففى ذلك خطر على الدين. أما فى رواية الصحابة عن رسول الله ﷺ، فنحن نثق فيهم ـ بلا استثناء ـ ثقة قاطعة ونقبل رواية أيهم بكل احترام وتوقير. فإن نحن فهمنا عدل الصحابة على أن كافة صحابة الرسول ﷺ كانوا أوفياء مخلصين تماما وكانوا جميعا يعرفون أن المسئوليات الكبرى فى تبليغ سنة الرسول وهديه للناس فى أعناقهم ومن ثم لم

يخطئ أحد منهم قط فى نسبة أى قول للنبى ﷺ، فإن هذا التفسير لمعنى الصحابة كلهم عدول يصدق عليهم جميعا بلا استثناء. أما إذا فهمناها على أن الصحابة كلهم ـ دون استثناء ـ كانوا عادلين فى كافة الأمور فلم يصدر عن أى واحد منهم فعل يخالف العدل والإنصاف فإن هذا التفسير لن ينسحب عليهم جميعا. ومما لا شك فيه أن كثرتهم الغالبة كانت ذات شأن بعيد فى العدل والإنصاف ولكن لا يمكن أن ننكر أن بعضًا منهم صدرت عنه بعض الأمور التى تخالف العدل أيضا. لهذا لا يمكن اعتبار التفسير الثانى لـلصحابة كلهم عدول قاعدة كلية غير أن عدم كونه قاعدة كلية لايستتبع أو يستلزم بالضرورة أن يكون أحد منهم غير ثقة فى روايته الحديث عن النبى ﷺ لأن التفسير الأول لـلصحابة كلهم عدول قاعدة كلية لم تنقض أو تخالف قط، فلنسأل أنفسنا هذا السؤال الجوهرى: لماذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسله؟ يجيب القرآن على هذا السؤال بآية قاطعة حاسمة فاصلة؛ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد ـ25] يقول الشوكانى: أى ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة والقسط والعدل. ويؤكد الله فى كتابه الكريم هذا المعنى بـآيات عديدة مؤداها أن تحقيق العدل والقسط والمساواة بين الناس هو الهدف السامى الذى تسترشد فى تحقيقه كل رسالات السماء إلى الأرض. لا بل إن الله يهدد ويتوعد كل الطغاة الجبارين المستكبرين فى الأرض الذين يقفون حجر عثرة فى طريق العدل بين الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران ـ21]. وتتوالى الآيات فى القرآن لتؤكد هذا المعنى[1].

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف ـ 29] ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة ـ42] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء ـ 135] ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران ـ 18].

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص22.

وإذا كان هذا هو هدف كل رسالات السماء إلى الأرض، وإذا كانت هذه هى مهمة رسل الله إلى الأرض، وإذا كانت هذه هى مهمة المصطفى ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين، فإن كل من يقف فى وجه تحقيق هذا الهدف السامى ـ أى تحقيق العدل والقسط والمساواة بين الناس ـ فهو من ضمن من توعده الله فى كتابه الكريم وهو من ضمن المعوقات فى طريق الدعوة إلى الله. والقسط بين الناس لايمكن أن يتحقق إلا إذا آمنت به مؤسسة الحكم وأجهزتها، فكيفما يكون موقف الحكم من قضية القسط بين الناس يكون حال الناس سلبًا وإيجابًا، فإذا كان تركيب الهيئة الحاكمة تركيبًا عائليًا مغلقًا امتيازيًا متسلطًا فلن يتحقق بالضرورة القسط بين الناس كما أمر به الله، والذين لايفهمون هذا البعد من أبعاد شريعة الله يخطئون كثيراً ويظلمون الناس كثيراً، بل إنهم يظلمون أنفسهم أكثر وأكثر.

كان من الضرورى أن نقول كل ذلك للرد على بعض الأقلام الإسلامية الملتزمة التى تقع هذه الأيام فى خلط كبير ـ فى حد علمنا ـ ونسأل الله أن يبصرها ويبصرنا معها فى فهم شريعته. تنبرى هذه الأقلام الإسلامية الملتزمة ـ وبحسن نية ـ للدفاع عن كلية التاريخ الإسلامى فى كل فتراته وهى فى ذلك لاترضى ولاتقبل أية بوادر انتقادية له سواء صدرت من أصدقاء أو أعداء. ونعتقد ـ والله أدرى وأعلم ـ أن هذه الأقلام تقع فى خلط بين تاريخ المسلمين من جهة والإسلام من جهة أخرى. وهى تعتبر كل نقد لتاريخ المسلمين ـ والذى هو تاريخ بشر بكل ما فى البشر من ضعف وخطأ ـ هو بالضرورة نقد للإسلام. ولنا فى ذلك رأى أرجو أن تتسع له صدور إخواننا فى الله، وإذا لم تتسع ـ لاسمح الله ـ له الصدور فليؤخذ على أنه رأى وحسب وليكن الاختلاف فى هذا الأمر رفيع المستوى. ولئن كان ابن تيمية ـ كما قال أخونا فى الله زين العابدين الركابى ـ قد رفع الملام عن الأئمة الأعلام بإيجاد الأعذار المقبولة والتفسير الموضوعى لتفاوتهم أو اختلافهم فى الدليل، فإن الثمرة العملية لذلك ـ بالنسبة لنا ـ يجب أن تكون أو تتمثل فى أن يرفع الملام عن المختلفين اليوم داخل إطار العمل للدعوة الإسلامية. نقول إن

هجوم المستشرقين والصليبيين واليهود والعملاء الحضاريين للغرب وللشرق على الأمويين والعباسيين والفاطميين والحمدانيين والعثمانيين مثلا لاينبغى أن يستفزنا ويستثيرنا لدرجة أن تشرع الأقلام، كل الأقلام، فى دفاع مستميت عن كلية الفترة الأموية والعباسية والفاطمية والحمدانية والعثمانية دون أن نعى خطورة الانحرافات التى حصلت فى تلك الفترات من تاريخنا الإسلامى. وأهم وأخطر انحراف وقعت فيه تلك الفترات أنها جعلت الخلافة ـ وهى مؤسسة الحكم الإسلامى ـ شأنا عائليا خاصًا توارثتها وكأنها ملكية خاصة دون أدنى اعتبار للأصول السياسية التى تقيد بها الخلفاء الراشدون ولأن هيئة الحكم اتخذت هذه الطبيعة فى تركيبها، وكان موقفها ـ بشكل عام ـ من قضية القسط والعدل والمساواة بين الناس موقفًا سلبيا للغاية. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الخلافة ـ بشكل عام ـ فى تلك الفترات تحولت إلى موقع امتيازى عائلى تسلطى غابت عنه المقاييس الربانية والأهداف السامية التى جاء الإسلام لتحقيقها فى الأرض. وحكم العائلة سواء كانت العائلة الأموية أو العباسية أو الفاطمية أو الحمدانية أو العثمانية أو أية عائلة حاكمة فى عالمنا الإسلامى اليوم هو أخطر انحراف وقع فى التاريخ الإسلامى. ذلك لأنه يحيط العائلة الحاكمة ـ بشيبها وشبابها وصبيانها وغلمانها ونسائها ومهرجيها[1] ومن لايذكر الله فيها ـ بسياج من الهيبة والامتياز المادى والمعنوى على حساب كل الآيات التى وردت فى الكتاب الكريم.

التحول من الحكم الإسلامى الانتخابى الشعبى إلى الحكم الوراثى الملكى:

وبتنازل الإمام الحسن عليه السلام عن الخلافة أصبح معاوية خليفة للمسلمين بإجماع الأمصار الإسلامية، ومنذ هذه اللحظة أخذ يعد العدة لحصر الخلافة فى البيت الأموى، وجعلها وراثية، بعد أن استقامت الأمور فى الدولة الأموية وأخذت الأوضاع نصيبها من الاستقرار، واجهت معاوية مشكلة معقدة، وهى مشكلة الحكم ومصير الدولة بعد غيابه. وإذا كان النظام الفردى (الأوتوقراطى) الذى تبناه، أو فرض نفسه فى ذلك الحين، حيث القوة العسكرية كانت مصدر

1 ـ د. عبدالله النفيسى ـ نفس المرجع ص23.

السلطة فى البيت الأموى، قد اكتسب الكثير من ملامح الأنظمة الزمنية المعاصرة، فمن الطبيعى أن يتخذ خطوات أشد وضوحًا فى هذا الاتجاه، خلال السنوات العشر الأخيرة من عهد معاوية، منصرفًا خلالها أو يكاد إلى معالجة هذه المسألة. وكانت ثمة دوافع تشجع الخليفة على حسم ولاية العهد فى حياته، أنه عاصر جميع مراحل الصراع السياسى، المقنوع والمكشوف على السلطة، منذ وفاة الرسول وحتى عهده الذى كان لا يزال مثاراً للجدل، مروراً بالتجربة الراشدية، أو بعضه الذى شكل أداة التفجير الموقوتة ضد نظامه، وتحول إلى صورة مثالية فى أذهان المسلمين للدولة العادلة. ولعل أكثر ما خشيه معاوية، على الرغم من هذا الاتجاه «الملكى» لدولته الأموية، انهيار الأخيرة بعد غيابه، وسط التطاحن والعصبيات وشتى الوان التناقض الذى حفلت به الساحة الشامية. فهى إذن مشكلة فراغ، لا بد أن تتزامن مع غياب شخصية غير عادية، جمعت فى يدها كل أطراف السلطة، كما ارتبطت تاريخيًا بجميع مراحل تكوينها وانطبعت بصماتها على مظاهر الحياة السياسية والقبلية فى الدولة. ولقد سوغ بعض المؤرخين ـ وفى طليعتهم ابن خلدون ـ هذا التحول «الملكى» للخلافة وإخراجها «عن أصولها»، بأن مؤسس الدولة الأموية أراد وضع حد لمشكلة السلطة المزمنة، وذلك من منظور قرشى عصبوى حين قال: «إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرتضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم». على أن هذه المسألة، مرتبطة أساسًا بالتطورات التى رافقت قيام الدولة الإسلامية بعد وفاة النبى، انطلاقًا من السقيفة وجدليات البيعة الأولى، ومن ثم إخفاق الشورى التى ظهرت كنظرية فى أعقاب ذلك، لتسويغ شرعية الخلافة وإنقاذها من «حصار» الأمر الواقع. وإذا كانت هذه الصيغة على الرغم من نجاحها فترة ما فى العهد الراشدى قد أثبتت فشلها فى أواخره، فإن المشروع الأموى رفضها تمامًا واعتبرها ملغية منذ مقتل عثمان، لتقوم على أنقاضها نظرية «الحق القرشى» شبه المقدس، تلك التى أخذ معاوية يبشر بها منذ الثلاثينات الأولى. والواقع أن ثمة وجهين

للمشكلة خالجا رأى معاوية فى ذلك الحين: الأول، إقناع الناس بقبول مبدأ الوراثة، لاسيما كبار المعارضين فى الحجاز. والثانى، أن يزيد لم يكن على الأرجح، وحسب المرويات أو معظمها، ذلك الرجل المطلوب لملء الفراغ بعد أبيه المؤسس. ومن أجل سد هذه الثغرة وتهيئة الأجواء المناسبة لإعلان ولاية العهد، كان لابد من اتخاذ خطوات سريعة تجعل من يزيد الشخصية المؤهلة للمهمة الصعبة. لذلك حرص معاوية على رسم صورة جديدة له أمام المسلمين، تعكس الوقار وأيضًا الشجاعة وحسن القيادة. فأرسله إلى مكة نائبًا عنه فى موسم الحج - حيث العادة جرت بأن يقيم الخليفة الحج أو ينيب عامل «المدينة» - بما لذلك من تأثير على الرأى العام الإسلامى، لاسيما الحجازى، فضلا عن تبديد الشكوك بجدية يزيد وتغيير الصورة الغائمة التى انطبعت فى أذهان الناس عنه. كما هيأ له الفرصة التاريخية، لقيادة المحاولة الكبرى التى استهدفت عاصمة البيزنطيين وانتهت إلى حصارها، تمهيدًا لإخضاعها والسيطرة عليها، وذلك فى العام نفسه (50هـ الموافق 670م) الذى دعا فيه معاوية أهل الشام إلى بيعة يزيد، حسب رواية «ابن خياط». غير أن هذه الحملة، على الرغم من ضخامتها وما رافقها من آمال عريضة بالدخول إلى القسطنطينية، فإن هذه الأخيرة أثبتت مناعتها وصعوبة اختراقها، دون أن يكون فى متناول الحملة الأموية، من الأسلحة المتطورة لإسقاطها، مما انتهى بها إلى الانسحاب، ومعها نقطة إضافية من الفشل الذى حفل به سجل ولى العهد طوال تاريخه السياسى. غير أن معاوية، وقد شهد بوطأة السنين المديدة على كاهله، لم يشأ انتظارًا أكثر لحسم هذه المشكلة. فهو يمتلك القدرة على تنفيذ ما يريد، وتوظيف ثقله السياسى فى إقناع أشد المتصلبين من أبناء الصحابة. وكانت الصورة العامة، كما استوعبها معاوية تخضع لمعطيات متفاوتة، وتحديدًا لاتجاهين متناقضين: الأول، هو الرافض مبدئيًا لهذا الأمر، وقد ضم الفئات المتذمرة التى قبلت مكرهة بالحكم الأموى، وانتظرت غياب مؤسسة الإعلان السلبى الذى أصبح أكثر تشنجًا مع تداول الحديث عن ولاية العهد. أما ذريعتها الأخرى، فهى أن الإجراء كان برأيها دخيلا على العرف المألوف وخروجًا على «الشورى» التى

أصبحت على الرغم من انتقاد الكثيرين لها في العهد السابق، المطلب الأوسع دائرة لدى الجمهور الإسلامي في ذلك الحين. أما الاتجاه الثاني، فكانت تمثله القوى القبلية المؤيدة للنظام والمتحالفة معه، وهي المستفيدة عملياً من مبدأ الاستمرارية المطروح، لاسيما الأجناد العسكرية في الشام والأردن وبعض العراق[1].

الحقوق السياسية للأفراد في ظل الشريعة الإسلامية. حق انتخاب رئيس الدولة: للأفراد في ظل دولة الخلافة الإسلامية حق انتخاب رئيس الدولة، فمن اختاروه لهذا المنصب فهو رئيس الدولة الشرعي. بهذا صرح الفقهاء، ومن أقوالهم الصريحة في ذلك: «من اتفق المسلمون على إمامته وبيعته ثبتت إمامته ووجبت معونته». المغني، ابن قدامة، جـ8 ص106 «الإمامة (أي رئاسة الدولة) تثبت بمبايعة الناس (لرئيس الدولة) لابعهد السابق له». منهاج السنة، ابن تيمية، جـ1، ص142. فرئيس الدولة في الإسلام رجل تختاره الجماعة وترضى به، وهو يستمد سلطانه من هذا الرضى وذاك الاختيار. وإذا كان للأفراد في الدولة الإسلامية حق انتخاب رئيس الدولة، فما أساس هذا الحق؟ هذا الحق يقوم على أساس مبدأ الشورى الذي أقرته الشريعة الإسلامية وعلى أساس آخر هو مبدأ مسئولية الجماعة عن تنفيذ أحكام الشرع. أما مبدأ الشورى فقد نطق به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى ـ 38] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران ـ 159] فهذا النص يصرح بأن أمور المسلمين، لاسيما المهمة منها (ورئاسة الدولة خاصة) يجب أن تدار عن طريق الشورى. ولاشك أن منصب رئيس الدولة من الأمور الخطيرة التي يجب أن تجرى فيها المشاورة، لأنه أمر يهم المسلمين جميعهم ويتعلق بصميم شؤونهم، فيجب أن يكون لهم رأى فيمن يولى عليهم. والمشاورة تستلزم أن يبدى كل واحد منهم رأيه فيمن يراد انتخابه رئيساً للدولة أما مبدأ مسئولية الجماعة عن تنفيذ أحكام الشرع، فهذه المسئولية تستفاد من مجموع النصوص القرآنية كما تؤيدها السوابق التاريخية الثابتة. ومخاطبة الشارع

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ـ ص157.

فى القرآن الكريم موجهة إلى جماعة المسلمين، مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء ـ 135] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة ـ 1] ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة ـ 71] تدل هذه النصوص وأمثالها دلالة واضحة على مسؤولية الجماعة نحو تنفيذ أحكام الشرع ومنها ما يتعلق بجميع شؤونهم. وهذه المسؤولية الضخمة الملقاة على عاتق الجماعة تقتضى أن يكون السلطان من حق الجماعة نفسها ـ ولايستأثر به فرد أو عائلة ـ لتستعين به على تنفيذ ما هى مسؤولة عنه وهو تنفيذ أحكام الشرع. ولكن مباشرة الجماعة سلطانها هذا لايمكن أن يتم بصفتها الجماعية فإن هذا غير ممكن عملا أو تنفيذًا. ولهذا ظهرت نظرية النيابة عن الجماعة فى مباشرة سلطاتها. فالجماعة من حقها أن تختار من ينوب عنها فى مباشرة سلطانها لتنفيذ ما هى مكلفة به شرعًا. وهذه الإنابة من خالص حقها الشرعى، لأن المالك يحق له أن يوكل غيره عنه فيما يملكه، والأمة ـ جماعة المسلمين ـ تملك السلطان فهى تملك ـ إذن ـ حق التوكيل فيه، وهى وحدها التى تختار رئيس الدولة.

المركز القانونى لرئيس الدولة فى الإسلام: وبناء على ذلك يتضح بجلاء المركز القانونى لرئيس الدولة فى الإسلام. فهو مركز النائب والوكيل عن الأمة، فهى التى انتخبته نائبًا عنها ليدير شؤونها وفق منهج الشرع الإسلامى ولتطبيق سائر أحكامه، وهذا ما صرح به الفقهاء. ومن خرج عن عقد الوكالة هذا وخرج عن حكم الله وشريعته هذه فهو كافر يجب قتاله كما يقول ابن كثير، فى معرض تفسيره لآية: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ... (٥٠)﴾ [المائدة].

الأمة مصدر السلطات: وإذا كان مركز رئيس الدولة فى الإسلام هو مركز الوكيل عن الأمة، فمن البديهى أنه يستمد سلطاته من موكله، أى من الأمة. فالأمة فى الإسلام هى مصدر السلطات كما يقولون اليوم فى الاصطلاح القانونى الحديث. ورئيس الدولة يباشر هذه السلطات باسم الأمة وبهذا الاعتبار فقط لا بأى اسم آخر أو أى اعتبار آخر.

الميكانيكية فى التنفيذ: وإذا كانت الأمة تملك حق انتخاب رئيس الدولة فى الإسلام، فكيف تباشر هذا الحق فعلاً؟ هل يقوم به أفراد الأمة مباشرة؟ أم يقوم بهذا الحق طائفة منهم بتخويل صريح من الأمة؟ الواقع أننا لانجد فى الشريعة الإسلامية نظامًا محددًا وصريحًا فى كيفية قيام الأمة بحقها فى انتخاب رئيس الدولة، مما يدل أن تنظيم هذا الأمر متروك لتقدير الأمة نفسها، فيمكن أن يكون بأسلوب الانتخاب المباشر أو غير المباشر فكلا الأسلوبين تتسع له قواعد الشريعة. فالانتخاب المباشر يجد له سندًا فى قوله تعالى: «**وأمرهم شورى بينهم**» فهذا النص بظاهره يقتضى أن يتشاور أفراد الأمة فى شؤونهم ومنها انتخاب رئيس الدولة. ويرى هذا كثير من الفقهاء عند تفسيرهم لهذه الآية ومنهم الرازى إذ يقول: «إذا وقعت واقعة وتشاوروا فيها أثنى الله عليهم، أى لاينفردون برأى، بل ما لم يجتمعوا عليه لايعزمون عليه» تفسير الرازى، أما الانتخاب غير المباشر فيجد له سنده فى السوابق التاريخية الثابتة فى عصر الخلفاء الراشدين وهو خير العصور فهمًا وتطبيقًا للإسلام، فقد تم انتخاب أولئك الخلفاء الكرام من قبل طائفة من الأمة هم الذين يسمون بأهل الحل والعقد وتحققت بعد ذلك مبايعة الأمة لمن اختاروا وانعقدت بذلك البيعة الكبرى التى بدونها لاتصبح الخلافة شرعية[1].

أهل الحل والعقد: إذا كان انتخاب رئيس الدولة بطريق غير مباشر أمرًا سائغًا فى الشرع الإسلامى وكان الذين يباشرونه هم من يسميهم الفقهاء «أهل الحل والعقد»، فمن هم أهل الحل والعقد؟ وما علاقتهم بالأمة؟ وكيف يحوزون هذه المنزلة؟ أما من هم أهل الحل والعقد فمن قراءة ما كتبه الماوردى والفراء وابن قدامة وابن تيمية وابن كثير وغيرهم يفهم أنهم المتبوعون فى الأمة التى تثق بهم وترضى برأيهم لما عرف عنهم من الحرص على مصالحها. وعلاقتهم بالأمة علاقة النائب والوكيل، فهم يباشرون انتخاب رئيس الدولة نيابة عن الأمة، وهم وكلاء عنها، ومن ثم يعتبر اختيارهم رئيس الدولة كاختيار الأمة نفسها له. وهم يحوزون منزلة الحل والعقد فى شؤون الأمة لأن الأمة هى التى تدفعهم إلى هذه المنزلة وتختارهم

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص158.

لها. كيف نعرف أهل الحل والعقد فى عصرنا هذا؟: إذا أخذنا فى الوقت الحاضر بالانتخاب غير المباشر لرئيس الدولة، وفقًا للأحكام الشرعية التى بيناها، فلا مناص من قيام الأمة بانتخاب من يمثلونها فى مباشرة هذا الانتخاب. ومن تنتخبهم الأمة لهذه المهمة يمكن أن يوصفوا بأنهم أهل الحل والعقد. وعلى الدولة فى الإسلام أن تضع النظام اللازم لإجراء هذا الانتخاب وضمان سلامته. وهذا أمر ضرورى ولازم لإيجاد أهل الحل والعقد واثبات وكالتهم عن الأمة بالتوكيل الصريح، لأن التوكيل الضمنى كان متيسراً أيام الخلافة.

حق المشاورة: والحق الثانى للأفراد فى دولة الإسلام ـ بعد حق انتخاب رئيس الدولة ـ هو حق المشاورة. وهو فى الحقيقة امتداد لحق الأمة فى انتخاب رئيس الدولة. فما دامت هى التى تختاره وهو وكيلها فى إدارة شؤونها فمن حقها عليه أن يشاورها. وإذا كان الخطاب فى آيات الشورى موجها إلى الرسول الكريم ﷺ على جلالة قدره وعظيم منزلته، فوجوب المشاورة على غيره من الحكام أوجب وألزم. وعلى ما قلناه تدل أقوال الفقهاء والمفسرين. «ولا غنى لولى الأمر عن المشاورة فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ» ابن تيمية، السياسة الشرعية. «إنما أمر الله نبيه بمشاورة أصحابه مما أمره بمشاورتهم فيه تعريفًا منه أمته ليقتدوا به فى ذلك». تفسير الطبرى، جـ4، ص94. يؤيده فى ذلك تفسير القرطبى، جـ4، ص250. كذلك الرازى، جـ9، ص66 يقول: «قال الحسن وسفيان بن عيينة: إنما أمر بذلك ـ أى أمر النبى ﷺ بالمشاورة ـ ليقتدى به غيره فى المشاورة ويصير سنة فى أمته». ومما يؤكد حق المشاورة للأمة على حكامها أن النبى ﷺ على عظيم قدره ومنزلته وتأييده بالوحى، كان كثير المشاورة لأصحابه. شاورهم يوم بدر فى الخروج للقتال، وشاورهم يوم أحد أيبقى فى المدينة أم يخرج للعدو، وأشار عليه الحباب بن المنذر يوم بدر بالنزول على الماء فقبل منه، وأشار عليه السعدان، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يوم الخندق بترك مصالحة العدو على بعض ثمار المدينة فقبل منهما (الرازى، جـ9، ص67).

وهكذا كان رسول الله ﷺ كثير المشاورة للجماعة الإسلامية حتى ذكر ابن تيمية فى السياسة الشرعية أنه لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ. ونظراً لثبوت حق الأمة فى المشاورة ولزومه على رئيس الدولة صرح الفقهاء بأن ترك هذا الحق من قبل رئيس الدولة موجب لعزله فى الإسلام. فقد جاء فى تفسير القرطبى: «قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لايستشير أهل العلم والدين فعزله واجب» جـ4، ص249. فلا بقاء إذن لحاكم مستبد فى دولة الإسلام. ولكن كيف تتم المشاورة؟ وكيف بالإمكان تنظيم الشورى الواجبة شرعًا نصًا وروحًا فى هذا العصر؟ إن ما يوافق أحوال العصر وروح الشريعة أن تقوم الأمة بانتخاب أهل الشورى الذين على رئيس الدولة مشاورتهم فى المسائل العامة ويخولون أيضًا سلطة انتخاب رئيس الدولة إذا شغر منصبه.

حق مراقبة رئيس الدولة: والحق الثالث للأفراد فى ظل دولة الإسلام هو حق مراقبة رئيس الدولة وسائر الولاة فى أعمالهم وتصرفاتهم التى تخص شؤون الدولة. وتستمد الأمة هذا الحق من طبيعة علاقتها برئيس الدولة، فهى علاقة وكالة، وهى التى اختارته ومن حق الموكل فى الشريعة الإسلامية أن يراقب وكيله ليطمئن على حسن قيامه فيما وكله فيه. وحق المراقبة يقرره الإسلام ويريد به تقويمَ رئيس الدولة إذا انحرف عن النهج الشرعى القويم، وأول منازل التقويم النصح. جاء فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه: «أن النبى ﷺ قال: الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». وإذا لم يفد النصح فمن حق الأمة استعمال القوة اللازمة لتقويمه وردعه عن الظلم وعن سائر مظاهر الانحراف والاعوجاج. فقد جاء عن النبى ﷺ أنه قال: «والله لتأمرُنّ بالمعروف وتنهوُنّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنّه على الحق قصرا، أو ليضربَنّ الله بقلوب

بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم» رواه أبو داود (انظر رياض الصحالين ص122). وفي حديث آخر يقول المصطفى ﷺ. «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (نفس المرجع).

حق عزل رئيس الدولة: قلنا إن المركز القانونى لرئيس الدولة فى الإسلام هو مركز الوكيل بالنسبة للأمة. فمن البديهى أن يكون من حقها عزله إذا خرج عن حدود وكالته أو لم يقم بمهام الوكالة عجزاً أو تقصيراً. ولأن من يملك التعيين يملك العزل. والأمة هى التى اختارته فتملك تنحيته إذن. ومباشرة هذا الحق يستلزم المبرر الشرعى وهو الخروج على حدود الوكالة أو العجز عن القيام بمهامها. وهذا ما صرح به الفقهاء[1]. وها هو ابن حزم يتحدث فى هذا الموضوع فيقول: «فهو الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإن زاغ عن شيء منهما منع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق، فإن لم يؤمن أذاه إلا بخلعه خلع وولى غيره». ابن حزم، الفصل بين الملل والنحل. فى العالم اليوم ما يقارب الألفى مليون مسلم، هل بإمكان القارئ أن يسمى واحداً منهم يتمتع بهذه الحقوق الشرعية الإسلامية؟ وقوى عزم معاوية على البيعة ليزيد، خاصة بعد أن أرسل إليه المغيرة وفداً من أهل الكوفة يطالبونه بمبايعة يزيد وليًا لعهده، ولكنه آثر التمهل والتؤدة حتى لايثير عليه الإمام الحسن بن على عليه السلام وأبناء الصحابة، ورأى أن يترك إعلان ذلك إلى ما بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام، ولهذا سعى سعيًا حثيثًا إلى إهلاكه بالسم، وتشير الروايات إلى أن زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس هى التى سمته بتحريض من معاوية، وقيل إن يزيد بن معاوية هو الذى دس إليها أن تسمه فيتزوجها. وعندما علم معاوية بنبأ وفاته، لم يخف فرحته بوفاته وسجد وسجد من كان معه. وذكروا أنه عندما تلقى نبأ وفاة الإمام الحسن عليه السلام كبر فى قصر الخضراء تعبيراً عن سروره فكبر أهل الخضراء، ثم كبر أهل المسجد بتكبير

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص161.

أهل الخضراء. فآثر معاوية الالتزام بنصيحة زياد، أو التظاهر بذلك، طاويًا مشروعه بعض الوقت، حتى إذا توفى الأخير عاد إلى إحيائه واتخاذ قرار بتنفيذه، معتمدًا على حلفائه الشاميين، وفى طليعتهم الضحاك بن قيس (فهر) ويزيد بن المقنع (كندة) والحصين بن نمير (السكون) ومسلم بن عقبة (مرة) وحسان بن بحدل (كلب)، لاسيما الأخير، زعيم اليمنية فى الشام وخال يزيد المرشح لولاية العهد وكان معاوية كما ذكرت يمهد للبيعة ليزيد، فأراد أن يظهره أمام المسلمين بمظهر المجاهد المثابر، فيبعثه مع المجاهدين فيحرز بذلك كسبًا أدبيًا يرفع من شأنه، ويمحى من ذاكرة المسلمين ما عرف به يزيد من خلاعة، مما يساعد على تأهيله لمنصب الخلافة، وكان يزيد معروفًا عند المسلمين بلهوه ومجونه وعكوفه على الشراب، وكان معاوية قد أغزى سفيان بن عوف العامرى فى عام 45هـ الموافق 665م إلى الطوانة بأرض الروم، فأصيب الجيش بالحمى والجدرى، وبلغ يزيد هذا النبأ وهو على شرابه مع أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر، فقال:

أهون علي بما لاقت جموعهم   يوم الطوانة من حمى ومن موم

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقًا   بدير مران عندى أم كلثوم

فبلغ ذلك معاوية، فأقسم عليه ليغزون إحدى الغزوات المقبلة، فأردف به معاوية ذلك الجيش، فغزا القسطنطينية، فسميت غزوته بالرادفة.

فلما توفى الإمام الحسن ﷺ فى عام 49هـ الموافق 669م عزم معاوية على البيعة ليزيد، فكتب إلى عماله يأمرهم بتقريظ يزيد ووصفه، وبإرسال الوفود إليه من الأمصار، فأقبلت الوفود من العراق والشام تبايعه. وأرسل معاوية أثناء ذلك إلى مروان يأمره بأن يعد الناس نفسيًا لقبول مبدأ تعيين يزيد وليًا للعهد، إذ كان عرب الحجاز بوجه خاص غير مستعدين للنقلة من النظام الإسلامى الديمقراطى القائم على الشورى إلى النظام الوراثى الاستبدادى. وعندما خاطب مروان أهل المدينة بذلك كان رد الفعل عنيفًا، وأعلن أبناء الصحابه استنكارهم لولاية العهد، ونهض الصحابى الجليل عبدالرحمن بن أبى بكر وأعلن معارضته بقوله: «ما الخيار

أردتم لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل»[1]

أعلن معاوية رسميًا البيعة ليزيد، حسب رواية المسعودى، وتم استدعاء كبار الشخصيات وزعماء القبائل إلى قصر «الخضراء» فى دمشق، حيث جرت احتفالات التنصيب. وما لبثت الوفود أن تهافتت على الحاضرة الأموية، مباركة الحدث عن طوع أو ممالأة أو إكراه. وكان وحده الحجاز، يكاد يكون غائبًا عن المشاركة، دون أن يقتصر الأمر على أبناء الصحابة، بل تعداهم إلى بنى العاص، من البيت الأموى نفسه. وقيل إن مروان بن الحكم الذى كان وقتذاك واليًا على الحجاز، احتج بشدة على هذا الأمر، «ناصحًا» معاوية بما نسب إليه: «اعدل عن تأميرك الصبيان، واعلم أن لك من قومك نظراء». ولعل مروانًا، الذى كان فى الصدارة أيام عثمان وشارك ـ ربما عامدًا ـ فى توريطه ودفعه إلى ما انتهى إليه، راودته نفسه بأن يكون هذا الأمر له، دون أن ينفصل ذلك عن ظهور مروان كمرشح أبرز للخلافة، فى اجتماع «الجابية» الذى عقد بعد موت يزيد. ومن جهة أخرى فإن زعماء الحجاز، كانوا يجدون فى أنفسهم كفاءة تتجاوز ما عند يزيد للخلافة، فضلا عن أن غياب معاوية كان بالنسبة إليهم مقرونًا بارتفاع الكابوس المخيم على حياتهم السياسية، وانتعاش الآمال المكبوتة وعودة الاعتبار إلى مقر دولتى الرسول والخلافة، وحرية التحرك لأبناء الصحابة الذين عاشوا طوال عهده فيما يشبه الإقامة الجبرية. وهكذا فإن البيعة لم تستكمل فصولها فى «الخضراء»، بعد إصرار أربعة على رفضها من زعماء الحجاز الكبار وهم: الإمام الحسين بن على عليه السلام وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر وعبدالرحمن بن أبى بكر. وقد وجد معاوية فى هذا الموقف نوعًا من العصيان، مما دفعه وهو السياسى المرن، إلى التوجه نحو «المدينة» من أجل تسوية الأمر مع المعارضين الأربعة: غير أن هؤلاء، انتقلوا إلى مكة، المكان المفضل حينذاك، للابتعاد عن ملاحقة السلطة، ولكن دون

[1] د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص 613.

أن يقنع ذلك معاوية بتجاهلهم أو الكف عنهم، بل جد السير فى طلبهم - وقد فقد صبره أو كاد - إلى المدينة المقدسة. وفى المسجد، حيث اجتمع مع أبناء الصحابة وهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر بن أبى طالب وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير، وخاطبهم فى رغبته فى أخذ البيعة ليزيد، فعارضوه كلهم، ورد عليه عبدالله بن عمر قائلا: «.. فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبى، فوالله ما أدخلنى مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطًا مشروطًا وإنما هى فى قريش خاصة لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم من كان أتقى وأرضى»، دافع ابن الزبير باسم رفاقه، عن الموقف الذى حدا بهم إلى رفض البيعة التى هى حسب رأيهم، خروج على على الإسلام والأعراف وخرق لسنن الأوائل من الخلفاء. بيد أن معاوية لم يعبأ كثيراً بحجج أبناء الصحابة، ولم يتردد فى أخذهم بالشدة وتهديدهم بالقتل، قبل الوصول إلى انتزاع اعترافهم - الشكلى على الأقل - بولاية العهد والبيعة ليزيد[1].

ثم عاد معاوية إلى الشام، وأخذ يعطى المقارب، ويدارى المباعد، ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس، ثم عاود معاوية مطالبة أهل المدينة بالبيعة لابنه، واستخدم سعيد بن العاص عامله على المدينة وسائل العنف والغلظة فى حمل الناس على مبايعة يزيد، فأبطأ الناس عنها إلا اليسير منهم، ولاسيما بنى هاشم الذين أنكروا أن يتولى عليهم من يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ويظهر الفسوق. فاضطر معاوية إلى القدوم بنفسه إلى المدينة وهو ينوى إرغام المعارضين على قبول البيعة ليزيد، فقدم فى ألف فارس، وأدى فريضة الحج بمكة وقفل إلى المدينة، فدعا بالمعارضين الأربعة وهم: الإمام الحسين بن على عليه السلام، وعبدالله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبى بكر، وعبدالله بن الزبير، فحضروا، وسألهم فى تقديم ابنه

1 - د. إبراهيم بيضون - المرجع السابق - ص159.

يزيد وليًا لعهده، فلما أبوا، قال معاوية: «فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم، إنه قد أعذر من أنذر، إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، وإنى قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه». ثم دعا صاحب حرسه وأمره بأن يقيم على رأس كل منهم حارسين يحمل كل منهما سيفه، حتى إذا ما اعترض واحد منهم على ما يقوله معاوية بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما. ثم خرج وخرجوا معه إلى مسجد المدينة، فرقى المنبر وخاطب المسلمين معلنًا موافقة هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم على البيعة ليزيد، وأمر القوم بمبايعة يزيد، فبايع الناس، أمام سكوت ساداتهم.

الخلافة عقد مراضاة واختيار لا يدخله اكراه ولا إجبار: نعم الخلافة عقد مراضاة واختيار لا يدخله اكراه ولا إجبار. فلابد أن يتحقق الرضا من الطرفين: رضا المرشح للخلافة ورضا المبايعين له. فلا يجوز اكراه أحد على تحمل وزر الخلافة، كما لايجوز أخذ البيعة من الناس بالاجبار والاكراه. «ولما كانت الخلافة عقدا فإنها لاتتم إلا بعاقد، كالقضاء لايكون المرء قاضيا إلا إذا ولاه أحد القضاء، والإمارة لايكون أحد أميرا إلا إذا ولاه أحد الإمارة، والخلافة لايكون أحد خليفة إلا إذا ولاه أحد الخلافة. ومن هنا يتبين أنه لا يكون أحد خليفة إلا إذا ولاه المسلمون، ولا يملك صلاحيات الخلافة إلا إذا تم عقده لها ولا يتم هذا العقد إلا من عاقدين أحدهما طالب الخلافة والمطلوب لها، والثانى المسلمون الذين رضوا به أن يكون خليفة لهم. ولهذا كان لابد لانعقاد الخلافة من بيعة المسلمين. وعلى هذا فإنه إذا قام متسلط واستولى على الحكم بالقوة فإنه لايصبح بذلك خليفة ولو أعلن نفسه خليفة للمسلمين، لأنه لم تنعقد له خلافة من قبل المسلمين، ولو أخذ البيعة على الناس بالاكراه والاجبار لا يصبح خليفة ولو بويع، لأن البيعة بالاكراه والاجبار لاتعتبر ولاتنعقد بها الخلافة لأنه عقد مراضاة واختيار

لايتم بالاكراه والاجبار، فلا تنعقد الخلافة إلا بالبيعة عن رضا واختيار». ومن هنا كان لأى طرف أن يرفض البيعة، وقد رفض بالفعل سعد بن عبادة زعيم الخزرج والأنصارى من صحابة الرسول ﷺ مبايعة أبى بكر ولم يتخذ ضده أى إجراء. طلب من أصحابه أن يحملوه إلى بيته وترك أياما ثم بعث إليه: أن أقبل وبايع، فقد بايع الناس، وبايع قومك فقال: أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبلى، وأخضب سنان رمحى، وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى، فلا أفعل وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى وأعلم ما حسابى. فكان سعد بن عبادة لا يصلى بصلاتهم ولا يجمع معهم ولايفيض معهم بإفاضتهم انتقال الناس من عرفات فى موسم الحج فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر رحمه الله. ويؤكد أبو بكر بعد البيعة فى خطبته: «أطيعونى ما اطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم». ويستنتج الفقهاء من ذلك أن الخليفة مشروط الخضوع له بخضوعه لله ولرسوله ولكافة التشريعات الإسلامية. ترى هل يجرى فى أيامنا هذه لانتخاب رئيس أكثر مما جرى فى بيعة أبى بكر؟ إذا كانت الحرية شرطًا أساسيًا لصحة الانتخاب، فهل ترى فى يوم السقيفة أى أثر للخروج عنها؟ هل ترى فى يوم السقيفة أى أثر للاكراه المادى أو المعنوى مارسه أحد الفرقاء على الآخر؟ إن يوم السقيفة كان يوما خالدا من أيام الحرية فى الجزيرة العربية لانشهد مثله هذه الأيام[1].

التنازع على الخلافة جائز لجميع المسلمين: من حق كل مسلم يرى فى نفسه الأهلية أن يطلب الخلافة بالأساليب الشرعية. هذا جائز لجميع المسلمين ولم يرد أى نص فى النهى عن التنازع على الخلافة. ولقد ثبت أن المسلمين تنازعوا عليها فى سقيفة بنى ساعدة والرسول ﷺ مسجى على فراشه لم يدفن بعد. وثبت أيضا أن أهل الشورى الستة وهم من كبار الصحابة رضوان الله عليهم اختلفوا

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص56.

عليها على مرأى ومسمع من جميع الصحابة فلم ينكر عليهم، مما يدل على اجماع الصحابة على جواز التنازع على الخلافة، وعلى جواز طلبها والسعى لها ومقارعة الرأى بالرأى والحجة بالحجة فى سبيل الوصول إليها. أما النهى عن طلب الإمارة الوارد فى الأحاديث فهو نهى للضعفاء ومن لايصلحون لها كما صرح بذلك رسول الله ﷺ. أما الذين يصلحون للإمارة فإنه يجوز لهم أن يطلبوها. فقد طلبها عمرو بن العاص وولاه الرسول. فالأحاديث الواردة مخصوصة بمن ليس أهلا لها، سواء الإمارة أو الخلافة. أما من كان أهلا لها فإن الرسول لم ينكر عليه طلبها وقد ولاها لمن طلبها. فلما كان الرسول ولى الإمارة لمن طلبها ونهى عن طلب الإمارة فإنه يحمل النهى على أنه نهى عن طلب ممن ليس أهلا لها. لا النهى مطلقا. والقضية بعد ذلك شورى بين المسلمين دون اكراه أو إجبار.

ليس فى الإسلام عائلة حاكمة: حيث أن الخلافة (رياسة الدولة) فى الإسلام عقد مراضاة واختيار لايدخله إكراه ولا إجبار، وحيث أن التنازع على الخلافة جائز لجميع المسلمين، تصبح فكرة العائلة الحاكمة وقوانين توارث الحكم لاغية فى الإسلام بل لاتستند إلى أى مضمون شرعى اسلامى، وهذا بالضبط ما وقع فيه بنو أمية وبنو العباس ومن خلفهم إلى يومنا الحاضر. فها هو رسول الله ﷺ يقول: لانورث، ما تركنا فهو صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال ـ يعنى مال الله ـ ليس لهم أن يزيدوا على المأكل. وها هو أبوبكر مسجى على فراش الموت لم يفكر بأحد أبنائه لاستخلافه وعندما أشرف على الناس يحاول أن يقنعهم بجدارة ابن الخطاب قال: «فإنى ما استخلفت عليكم ذا قرابة» وها هو عمر بن الخطاب ينزف دمًا بعد طعنة أبى لؤلؤة ـ لعنه الله ـ يخاطب أهل الشورى: عبدالرحمن، وعلى، وعثمان، والزبير، وسعد، وطلحة فيقول: «أنشدك الله يا على إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس، أنشدك الله ياعثمان إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس، أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل أقاربك على رقاب الناس» ويستنكر عمر مقالة الرجل الذى أشار عليه باستخلاف ولده

عبدالله بن عمر: «قاتلك الله، ويحك، والله ما أردت الله بهذا. فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد يسأل عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي وإن نجوت كفافا لاوزر ولا أجر إني لسعيد». ويؤكد ابن تيمية بأنه يجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل بغض النظر عن النسب والقرابة والمصالح العائلية والخاصة استنادا إلى قول رسول الله ﷺ. «من ولي من أمر المسلمين شيئا، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله». وإلى قول عمر بن الخطاب: من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين. يضيف ابن تيمية في نصحه لولي الأمر: «فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات، من نوابه على الأمصار، من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان، والقضاة، ومن أمراء الأجناد ومقدمي العساكر الصغار والكبار، وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات، وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين. وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده، وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمير الحج والبريد والعيون الذين هم القصاد، وخزان الأموال، وحراس الحصون والحدادين الذين هم البوابون على الحصون والمدائن، ونقباء العساكر الكبار والصغار، وعرفاء القبائل والأسواق ورؤساء القرى الذين هم الدهاقون. فيجب على كل من ولي شيئا من أمر المسلمين، من هؤلاء وغيرهم، أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه» ويضيف ابن تيمية: «فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره، لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس، كالعربية والفارسية والتركية والرومية، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه عن الأحق، أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[الأنفال 27]. ثم قال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال 28]. فإن الرجل لحبه لولده، أو لعـتيقه، قد يؤثره فى بعض الولايات، أو يـعطيهما لا يستحقه، فيكـون قد خان أمانته وكذلك قد يؤثره زيادة فى ماله أو حفظه، بأخـذ ما لا يستحقه أو محاباة من يـداهنه فى بعض الولايات، فيكون قد خـان الله ورسوله، وخـان أمانته. وفوق كـل هذا نجد أن القـرآن ينفى الـوشيجة الـعائلية أمام الـوشيجة المؤدية لـلصلاح وهى العقدية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾. [الحديد 26] ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد 27] ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. [هود 42 ـ 46]. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾. [التحريم 10]. هذه ذريات وعـائلات أنبيـاء الله يقرر القرآن بأنـها لاتخلو من الفسـق والكفر والخيانة، فـكيف الذريات والعائلات التى لانبـوة ولا كتاب؟ وكـيف يقبل المسـلمون الـعائلـة كصيغـة للحـكم وهى صيغة بيولوجية لاتـستند إلى أية معايـير فكرية أو دينـية أو إنسانية؟ من أجل هذا رفض الخلفاء الراشدون أن يتلوثوا تاريخيا بها وأدركوا المعنى التاريخى لقول الله: «فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون».

يراس دولة الإسلام خليفة لا مَلِك: نتطرق إلى موقف القرآن من فكرة الدولة، بأن القرآن يقرر أن الله هو : مالك الملك وعليه فهو: الملك. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر23] فملكية هذا الكون كله تعود إلى الله. وحيث أنه يملك هذا الكون فمن حقه وحده الحاكمية على ما يملك ومن حقه أن يستخلف أيا شاء على ما يملك. من هنا يصبح رئيس الدولة خليفة لا ملكًا لأن الملك هو الله وحده لاشريك له فى الملك. والله وحده هو صاحب الجلالة والعظمة والسمو وكل من فى الكون عبيد له، آمنوا بذلك أم لم يؤمنوا فما هم بمعجزين فى الأرض.

والقضية بالنسبة لنا ليست قضية ألقاب سياسية أو إدارية، إطلاقا، فلو كانت قضية ألقاب لهانت ولما اعترضنا على الممارسات المنحرفة اليوم فيما يسمى بـ «العالم الإسلامى». القضية أخطر من ذلك بكثير حيث أنها مرتبطة بالتسلسل العقائدى فى خلفية تفكير الإنسان المسلم الذى يؤمن بأن الله هو الملك وأنه مالك الملك وحيث أنه يملك هذا الكون كله بمن وما فيه لذلك فمن حقه الحاكمية والتشريع ومن واجبنا الاتباع لا الابتداع. فإذا جاء أحد التعساء المرضى وقال: أنا الملك، اهتز كل ذلك فى ذهن ولاشعور الإنسان المسلم البسيط وسلم أمره للملك المزعوم. من هنا جاءت رواية ابن سعد للحوار الذى دار بين سلمان الفارسى وعمر بن الخطاب، ومنها نعلم أن عمر قال لسلمان: أملك أنا أم خليفة؟ فقال له سليمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة. واقتنع عمر بأن صفة «الملك» هى خاصة بالله وبأن كسرى الذى يدعيها وقيصر الذى يصر عليها بنوا نظما تتميز بالظلم الاجتماعى ونحن نعلم أن الأمر قد حسم فى استحسان لقبى: «الخليفة» و «أمير المؤمنين»، ونعلم أنه ـ أى عمر ـ قال لأحد أصهاره ـ كما يروى محمد بن سيرين ـ عندما اشتم منه أنه يريد ميزة من بيت المال: أأردت أن ألقى الله مَلِكًا خائنًا.[1]

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص64.

ليس في الإسلام حكم وراثي: اتفق جمهور الفقهاء أنه لايجوز عقد ولاية العهد للأبناء أو الأقارب إذا كانت النية حفظ الحكم في باب الارث لأن الخلافة لاتورث. لذلك يقول الفقهاء إن الخلافة لاتنعقد بالاستخلاف، أى بولاية العهد، لأنها ـ أى الخلافة ـ عقد بين المسلمين والخليفة. فيشترط في انعقادها بيعة من المسلمين وقبول من الشخص الذى بايعوه. والاستخلاف أو العهد أو وراثة الحكم بالتعبير الحديث لايحصل فيه ذلك، لذلك لاتنعقد به رياسة الدولة أى الخلافة. وعلى ذلك فاستخلاف خليفة لخليفة آخر يأتى بعده لايحصل فيه عقد الخلافة لأنه لايملك حق عقدها. ولأن الخلافة حق المسلمين لا للخليفة، فالمسلمون يعقدونها لمن يشاؤون. فاستخلاف الخليفة غيره أى عهده بالخلافة لغيره لايصح، لأنه اعطاء لما لا يملك، واعطاء ما لا يملك لايجوز شرعا. فإذا استخلف الخليفة خليفة آخر سواء كان ابنه أو قريبه أو غير قريب لايجوز، ولا تنعقد الخلافة له مطلقا لأنه لم يجر عقدها ممن يملك هذا العقد، فهى عقد فضولى لايصح وأما ما روى أن أبا بكر استخلف عمر، وأن عمر استخلف الستة، وأن الصحابة سكتوا ولم ينكروا ذلك فكان سكوتهم اجماعا، فإن ذلك لايدل على جواز الاستخلاف أو العهد أو وراثة الحكم. وذلك لأن أبا بكر لم يستخلف خليفة وإنما استشار المسلمين فيمن يكون خليفة لهم بعده فرشح عمر وعليّ، ثم إن المسلمين خلال ثلاثة أشهر كاملة فى حياة أبى بكر اختاروا عمر بأكثريتهم، ثم بعد وفاة أبى بكر جاء الناس وبايعوا عمر، وحينئذ ـ وحينئذ فقط أى بعد بيعة الناس فى المسجد ـ انعقدت الخلافة شرعا لعمر. أما قبل البيعة فلم يكن خليفة، ولم تنعقد الخلافة له لابترشيح أبى بكر ولا باختيار المسلمين له، وإنما انعقدت حين بايعوه فى المسجد وقبل الخلافة. وأما عهد عمر للستة فهو ترشيح لهم من قبله بناء على طلب المسلمين. ثم استشار عبدالرحمن بن عوف المسلمين فيمن يكون منهم فاختار أكثرهم عليا إذا تقيد بما كان عليه أبو بكر وعمر، وإلا فعثمان. وعندما رفض الإمام على ﷺ التقيد بالشرط وقبل عثمان، بويع عثمان. فالخلافة انعقدت لعثمان ببيعة الناس لابترشيح. ولو لم يبايعه الناس لم تنعقد له الخلافة ولم تعتبر فى الشرع. لذلك لابد من بيعة المسلمين للخليفة. ولايجوز أن تكون بالعهد أو الاستخلاف أو

قوانين التوارث لأنها عقد ولاية وينطبق عليها ماينطبق على العقود. لأن الإسلام يرفض الحكم الوراثي ولايقبله مطلقا. وبمقتضى هذه القاعدة ـ قاعدة وجوب بيعة (رضى) المسلمين ـ قال عمر: «من دعا إلى إمارة نفسه بغير مشورة من المسلمين فاقتلوه» ثم أصدر قراراً باستثناء ابنه عبدالله من استحقاق الخلافة، «ويحضر عبدالله بن عمر مشيراً ولا شيء له في الأمر». لكي لاتصير قيادة المسلمين منصبا وراثيا. يتضح لنا من هذه الوقائع أن الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله ﷺ كانوا يرون الخلافة منصبا انتخابيا لابد من الفصل فيه برضا المسلمين ومشورتهم فيما بينهم أما الوراثة أو اغتصاب الحكم عنوة فليس ذلك سبيل الإسلام[1].

البيعة: حين أوجب الشرع على الأمة نصب خليفة عليها، حدد لها الطريقة التي يجرى بها نصب الخليفة، وهذه الطريقة ثابتة بالكتاب والسنة واجماع الصحابة. وتلك الطريقة هي البيعة. والبيعة فرض على المسلمين جميعا، وهي حق لكل مسلم رجلا كان أو امرأة. أما كونها فرضا فالدليل عليه أحاديث كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». أما كونها حقا لجميع المسلمين فإن البيعة من حيث هي تدل على ذلك، لأن البيعة هي من قبل المسلمين للخليفة وليست من قبل الخليفة للمسلمين. فالبيعة لخليفة هي بيد المسلمين وهي حقهم، وهم الذين يبايعون، وبيعتهم هي التي تجعل الخلافة تنعقد للخليفة. أما التفصيلات العملية لاجراء البيعة للخلافة فينبغي أن يتناقش المسلمون ويتحاجون فيمن يصلح للخلافة، حتى إذا استقر الرأى على أشخاص، عرضوا على المسلمين، فمن اختاروه منهم طلب منهم أن يبايعوه كما طلب من باقي المرشحين أن يبايعوه. وما يحصل في هذه الأيام ـ خارج مساحات ملوك الطوائف بالطبع ـ من اجراء الانتخابات بالاقتراع السرى، واتخاذ صناديق اقتراع، وفرز الأصوات وما شاكل ذلك فإن هذه كلها أساليب لأداء الاختيار بالرضى وللمسلمين أن يختاروا هذه الأساليب ولهم أن يختاروا غيرها

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسي ـ نفس المرجع ص65.

يؤدى إلى تمكين المسلمين من القيام بفرض نصب الخليفة بالرضا والاختيار يجوز للمسلمين أن يستعملوه، ما لم يرد دليل شرعى على تحريمه.

وكانت النتيجة ليزيد بن معاوية المرشح الأوحد الإجبارى 99,9٪، وبذلك ثار معاوية على القاعدة التى سنها الخلفاء الراشدون، فخرج على نظام الحكم الدينى، واستحدث نظام الوراثة فى الحكم. وكان النظام الوراثى فى الحكم جديداً على المسلمين لم يألفوه من قبل، ولهذا السبب اعترض عدد من المؤرخين على تلقيب معاوية ومن جاء بعده من خلفاء بنى أمية بالخلفاء، وآثروا تلقيبهم بالملوك، وقد تضافرت عوامل مختلفة مع العامل السابق فى حمل الناس على القول بهذا اللقب. فقد كان الناس ينقمون على بنى أمية تعصبهم للعرب على الموالى، ونزوعهم للروح الجاهلية، وميل بنى أمية إلى مظاهر الأبهة والفخامة المعروفة عند القياصرة والأكاسرة، فمعاوية «أول من أقام الحرس والشرط والبوابين فى الإسلام، وأرخى الستور، واستكتب النصارى، ومشى بين يديه بالحراب، وأخذ الزكاة من الأعطية، وجلس على السرير والناس تحته، وجعل ديوان الخاتم، وبنى وشيد البناء، وسخر الناس فى بنائه ولم يسخر أحد قبله، واستصفى أموال الناس فأخذها لنفسه. وكان سعيد بن المسيب يقول: فعل الله بمعاوية وفعل، فإنه أول من أعاد هذا الأمر ملكاً. وكان معاوية يقول: أنا أول الملوك». والظاهر أن الوسائل الملتوية التى توسل بها معاوية فى الوصول إلى الخلافة: من اصطناع الخديعة والمكر، والدس، والرشوة، لتأليب الناس على الإمام علىّ ﷺ، كانت عاملا فى ابتعاده عن المثل التى اتبعها الخلفاء الراشدون، فقد ذكر اليعقوبى إن سعداً بن مالك دخل عليه بعد أن تنازل له الحسن عن الخلافة فقال: «السلام عليك أيها الملك، فغضب معاوية فقال: ألا قلت السلام عليك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذلك إن كنا أمرناك، إنما أنت منتز (أى ثائر)[1]. وذكر السيوطى أن سعيد بن جمهان قال لسفينة:

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص605.

إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، قال: «كذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من أشد الملوك، وأول الملوك معاوية»[1] ولكن بيعة كهذه تمت بالقوة والضغط، لم تكن أكثر من عملية سطحية ومؤقتة، دون أن يغيب هذا الواقع عن معاوية الذى كان أول العارفين به، مؤكدًا عليه بوصيته الشهيرة المنسوبة له «إنى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك، إلا أربعة نفر من قريش، الحسين ابن على وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن أبى بكر. فأما عبدالله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين ابن على فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحمًا ماسة وحقا عظيمًا، و أما ابن أبى بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم، ليس له همة إلا فى النساء واللهو. وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها، فقدرت عليه فقطعه إربًا إربًا[2]. وحين مات بعد قليل ومعه همموم هذا الموقف الحجازى. وكان مبعث هواجسه بوجه خاص، اثنان من الزعماء الأربعة، وهما: الإمام الحسين بن على عليه السلام وعبدالله بن الزبير، اللذان رفضا البيعة فى حضوره. فكلاهما شخصية قيادية بارزة، وله رصيد كبير من التقدير والإعجاب، فضلا عن الطموح الظاهر ـ وإن اختلفت الدوافع والأفكار والطروحات ـ لدى الاثنين. ولقد حدث ما توقعه الخليفة الأموى الأول بعد موته، حيث كان هبوب الأزمة سباقًا من الحجاز.

يلاحظ من قراءة النصوص المتعلقة بالفترة الأموية ـ من زاوية نقل السلطة ـ أنها فترة مليئة بالمؤامرات. وواضح من خلال النصوص أن الأمويين ـ باستثناء عمر ابن عبدالعزيز الذى لم يتجاوز عهده سنتين فقط ـ كانوا ينظرون للخلافة على أنها

1 ـ السيوطى ص185.
2 ـ الطبرى ـ جـ6 ـ ص180.

بضاعة عائلية. فهذا معاوية بن أبى سفيان أول خلفائهم يتآمر مع المغيرة بن شعبة ويدفع الرشوة له من أجل تثبيت ولده يزيد بن معاوية والعهد له. وهذا مروان بن الحكم (64هـ الموافق 683م) يأمر بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز. وهذا عبدالملك بن مروان (65هـ الموافق 684م) يفرض البيعة لأولاده ويخطب فى الحج بالناس (75هـ الموافق 694م) قائلا: «والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه». بعد أن أسكرته السلطة. ويحكم الناس أولاد عبدالملك من بعده الوليد وسليمان. وكاد سليمان أن يعهد لابن له لم يبلغ بعد لولا تدخل رجاء بن حيوه وجاء دور عمر بن عبدالعزيز وسط معارضة أموية عاتية. وأكبر دليل على ذلك كان خلافة يزيد بن عبدالملك فقد عمد يزيد إلى كل ما صنعه عمر بن عبدالعزيز مما لم يوافق هواه فرده ولم يخف شناعة عاجلة ولا اثما آجلا. ويأتى من بعد يزيد أخوه هشام بن عبدالملك ويحكم الأمة عشرين عاما ثم يأتى من بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك ومن بعده يزيد بن الوليد بن عبدالملك ومن بعده إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك وكأن ليس فى أمة محمد ﷺ إلا أولاد عبد الملك. ومن يلق نظرة عاجلة على تسلسل «الخلفاء» الأمويين يدرك أنها ـ أى الخلافة ـ تحولت إلى كسروية وهرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل آخر كما قال عبد الرحمن بن أبى بكر. إن طبيعة السلطة السياسية التى يدور محورها حول عائلة معينة وتتحدد شخصيتها السياسية وفق مقتضيات مصلحة العائلة الحاكمة، لا تستطيع قطعا الارتقاء لمنهج الإسلام فى الحكم وهو منهج أممى عالمى يخرج عن الدوائر المغلقة للعائلة والقبيلة والقوم والعشيرة، ويتجاوزها ويتخطاها لأنه منهج يقوم أساسا على تحرير الإنسان ـ لكونه إنسانًا ـ من كل أشكال العسف الاجتماعى والإقطاع السياسى والتفاوت الطبقى المشين الذى يفرزه الحكم العائلى. ولقد كان الحكم الأموى ـ كحال أشكال الحكم العائلى اليوم فى كثير من الأقطار «الإسلامية!» ـ حكما عائليا ضيقا أفرز عسفا اجتماعيا وإقطاعا سياسيا وتفاوتا

طبقيا واقتصاديا مشينا وكل ذلك يعد بلاشك انحرافا أساسيا عن منهج الإسلام فى الحكم الملكى العائلى الأموى[1].

(أ) الخروج عن السنن الشرعية فى السياسة المالية:

زادت مصاريف العائلة الأموية لأنها كانت تنظر للخلافة على أنها بضاعة عائلية وتعتبر بيت مال المسلمين إرثا عائليا، وزادت كذلك مظاهر بذخ الخلفاء الأمويين وتبعهم فى ذلك الولاة وسائر عمال الدولة، وانطلقت الأيدى بالجور والعسف فى جباية الأموال بالوسائل غير المشروعة، وبارهاق الناس بالضرائب الفادحة، فزادوا فى الخراج والجزية، على حين كانت الزيادة تناقض العهد، وفرضوا الضرائب على الأرض الخراب وفرضوا هدايا على الذميين فى عيد النيروز ووضعوا ضرائب لهم على مرور السفن بالماء، ووضع مروان بن محمد فى ولايته على أرمينية ضرائب على الأسماك. ومع هذا التفنن فى فرض الضرائب استخدموا القسوة فى تحصيلها وكل هذا لم يجد نفعا فى حفظ التوازن المالى للعائلة الأموية، وأدى فوق ذلك إلى نفور الناس منهم واستخدمه الدعاة لاسقاط دولتهم، لأن المصالح العامة التى كانت الشريعة الإسلامية تهدف لتحقيقها أهملت تماما.

(2) زرع الجراثيم الأولى لفكرة الفصل بين الدين والدولة:

كانت القيادة فى العهد الراشد للأمة الإسلامية قيادة واحدة تستقطب جميع نواحى الحياة. وكانت الحياة العملية والسياسية والفكرية فى عهد الخلفاء الراشدين تدور حول محور واحد هو محور الإسلام ومصالح دعوته وأمته. وكانت التوجيهات السياسية والتدابير القضائية والتعليمات الإدارية والتنظيمات العسكرية وشئون الحرب والصلح تنطلق من هذا المصدر بعينه. والقادة الذين كانوا يوجهون هذه النواحى هم الذين كانوا فى الوقت نفسه قادة المسلمين فى الأخلاق والفكر

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص107 وانظر ـ ابن الاثير ج5 ص265 ـ الطبرى ج8 ص288.

والعلم والتربية الروحية. غير أن النظام الملكى العائلى الأموى قد شق هذه الوحدة العضوية فى القيادة الإسلامية. كيف ؟ أما الشئون السياسية فقد استأثر بها بنو أمية، وأما النواحى الخلقية والفكرية والروحية فقد انتقلت أزمتها إلى رجال العلم والفقه. وأصبح الفقهاء والعلماء وصحابة رسول الله ﷺ روادا فى الشئون الروحية والخلقية والدينية المحضة. وكان هذا الانقسام الذى اعترى الوحدة العضوية للقيادة فى الدولة الإسلامية فى حد ذاته فتنة مدمرة فعلا - كما وصفها أستاذنا الراحل أبو الأعلى المودودى - رحمه الله، وكان من المحتوم أن تنعكس آثارها السيئة على المجتمع الإسلامى آنذاك. وبما أن الغايات تختلف، وبما أن بنى أمية عائلة حاكمة أولا وقبل كل شيء، وبما أن الفقهاء والعلماء وصحابة الرسول ﷺ مسلمون ومؤمنون قبل كل شيء، فقد نجم عن كل ذلك تباعد بين هاتين القيادتين، واتسع الصدع بينهما، ثم شرع التناحر والتصارع بينهما، وقد دفعت الدولة الإسلامية والدعوة الإسلامية ضريبة كبيرة فى هذا المضمار. وصار الفقهاء لا يعون لغة الملوك - ولا يطلب منهم أن يعوها - وصار ملوك بنى أمية لايعون لغة الفقهاء - مع أنه مطلوب الخضوع لها. وصارت القيادة السياسية فى واد، والإسلام فى واد آخر. وزرعت بذلك عمليا فكرة الفصل بين الإسلام كدين ومنهج ونظام للحياة من جهة، والقيادة السياسية من جهة، والسبب: فكرة العائلة الحاكمة. هذه الفكرة التى سمحت لأمثال الوليد بن يزيد بن عبدالملك لأن يصبح خليفة للمسلمين وهو الذى إذا ذهب إلى الحج حمل معه كلابا فى صناديق وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة وحمل معه الخمر وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر فأى إسلام هذا وأية خلافة هذه؟

(3) التغيير فى أسلوب تنصيب الخليفة:

إن الخلافة عقد مراضاة واختيار، لايدخله إكراه ولا إجبار. فلابد أن يتحقق الرضا من الطرفين: المرشح للخلافة ورضا المبايعين له من الأمة. فلا يجوز إكراه أحد على تحمل وزر الخلافة، كما لايجوز شرعا أخذ البيعة من الناس بالإجبار

والاكراه. ولم تكن خلافة معاوية برضا الناس ولا بعد مشورتهم وهو أول من يعرف ذلك وأول من صرح بذلك فى خطبة له بالمدينة فى بداية عهده:

«أنا أعلم أنكم لاتسرون بولايتى ولاتحبونها، وانى لعالم بما فى نفوسكم من ذلك، ولكنى خالستكم بسيفى هذا مخالسة، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فارضوا منى ببعضه». أليس هذا بالملك الجبرى الذى ذكره رسول الله ﷺ؟ وأين بيعة الرضا والاختيار وأين صفقة اليد وثمرة القلب؟.

(4) تكميم الأفواه:

واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة فى الدين من الواجبات الشرعية التى نص عليها الكتاب والسنة. وكانت الجماعة الإسلامية فى العهد الراشد تقوم به خير قيام. ولا يعنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة فى الدين الكلمات الرخوة لولاة الأمر، المكتنزة بأشكال التودد والتقرب والحث، بقدر ما كانت حزمة من الكلمات اليابسة. فالمعروف قد أمر به الله والمنكر قد نهى عنه الله، فلم الوجل والخوف من الصدع بذلك؟ وقد كان عمر رضى الله عنه يقول لمن يسدده ويتوعده بالسيف ان حاد عن طريق الحق: «لاخير فيكم ان لم تقولوها، ولا خير فينا ان لم نقبلها». وكان الرسول ﷺ ينهى صحابته عن المدح والتمادح ويقول لهم: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب». إلا أن عصر معاوية ألغى كل ذلك، وقد بدأ عهده بقتل الصحابى حجر بن عدى عام 41 هجرية الموافق 661م. وكان معاوية قد أمر الخطباء فى المساجد بلعن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فوق المنابر. ولاشك أن هذا الأمر يؤلم المسلمين والصالحين. ولقد غضب الصحابى الجليل حجر بن عدى لذلك فكان إذا وقف زياد والى البصرة يسب الإمام عليا رضى الله عنه، وقف حجر يرد عليه ويمدح عليا ويذم معاوية. فما كان من زياد - وبتدبير من معاوية - إلا أن قبض على حجر وعلى اثنى عشر من إخوانه وجمع شهادات من عدد كبير من المرتزقة يتهم فيها حجر وإخوانه على أنه يخطط لحرب معاوية. وجىء بحجر إلى معاوية فأمر بقتله وسبعة

من اخوانه. ورد معاوية أحدهم ـ وهو عبدالرحمن بن حسان ـ إلى زياد وكتب له أن اقتله شر قتلة، فدفنه زياد حيا. يقول الحسن البصرى: «أربع خصال كن فى معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة. انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة. واستخلافه بعده ابنه سكيرا خميرا يلبس الحرير ويضرب الطنابير. وادعاؤه زيادا وقد قال رسول الله ﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر. وقتله حجرا وأصحاب حجر، فيا ويلا له من حجر ويا ويلا له من حجر وأصحاب حجر»[1].

(5) احياء الجاهلية والجنسية والقبلية:

كانت دولة معاوية الأموية منذ بدايتها ذات صبغة عربية خالصة حتى أن المساواة بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب تلاشت. وفى ظل دولة الأمويين فرضت الجزية على المسلمين الجدد مخالفة فى ذلك أحكام الإسلام مخالفة صريحة. وكان ذلك عقبة كبرى فى سبيل انتشار الإسلام. وتولدت ردود الفعل الطبيعية المتوقعة عند المسلمين من غير العرب والعجم. وكانت التفرقة بين العرب وغير العرب واضحة وصريحة حتى أننا نرى الحجاج بن يوسف يصدر أمرا فى الكوفة ألا يؤم الناس فى الصلاة من كان من العجم. ولما قبضوا على سعيد بن جبير الصحابى الجليل وجاءوا به إلى الحجاج ذكره باحسانه إليه إذا جعله إماما للناس فى الصلاة بينما الإمامة لا تكون لغير العرب. بل لقد وصل الأمر إلى حد منع تقديم الأعجمى ليصلى بالناس صلاة الجنازة، اللهم إذا لم يكن فى الحضور ولو صبى من العرب. وإذا أراد عربى مسلم أن ينكح مسلمة من الموالى كان عليه أن يرجع فى ذلك لا إلى والدها أو أقاربها، كما تقرر الشريعة الإسلامية، بل إلى من تتمتع أسرتها بولايتهم من العرب. وراج بين العرب فى دولة بنى أمية اطلاق اصطلاح «الهجين» (وهو شتم) على من كانوا يولدون من زوجات غير عربيات.

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص112 وانظر الطبرى ج4 ص190 ـ 210، ابن عبدالبر ـ الاستيعاب ج1 ص135، ابن الاثير ج3 ص242، ابن خلدون ج3 ص14، المودودى ـ الخلافة والملك ص105.

كـذلك شاع بـين الناس عدم المساواة بينهم وبـين أولاد الزوجات العـربيـات فى الميراث، مـع أن الشريعة الإسـلاميـة تساوى بينهم دون شك. ويروى أبـو الفرج الأصفهانى أن رجلا من بنى سليم زوج ابنته لمسلم أعجمى فذهب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة وشكاه عند الوالى ففرق الوالى على الفور بين الزوجين وجلد الأعجمى وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه وأهانه اهانة بالغة. من هنا ومن خلال هذا الواقع المزرى الذى ساد أيام معاوية وبـنى معاوية نشأت النزعة الشعوبيـة (القومية الأعجمية)، ومن هنا لقيت دعوة العباسيين فى مناطق العجم ـ وبالأخص خراسان ـ تأييدا ومساندة ضد بنى أمية. ولم يكتف بنو أمية بتشتيت الأمة، على هذا النمط فقط، بل عمدوا إلى تشـتيت العرب أنفسهم عن طريق احياء العصـبيات القبلية: العدنانية والقحطانية واليمانيـة والمضرية وأزد وكلب وقيس إلى آخر قائمة السخف العربى. وقد كتب ابن كثير فى البـداية والنهاية نقلا عن ابن عسـاكر أنه فى الوقت الذى كانت جيوش العباسيين تزحف فيه علـى دمشق كانت العصبيات بين اليمانية والمضرية تستعر فى دمشق (العاصمـة الأموية) فكنت ترى فى كل مسجد محرابين وكان فى المسجـد الجامع منبران يرتقيهمـا إمامان كل منهما يناصر قـبيلته ورهطه. لقد كـانت هذه النزعات تلقى تشـجيعـا منذ بداية دولة معـاوية، وكان يستـغلها لمصـالحه الشـخصـية وسـار على هذا الدرب «خلفاء» دولتـه ـ باستـثناء عمـر بن عبدالعزيز ـ غير أن السحر انقلب على الساحر فى النهاية.

(٥) تقديم مصالح العائلة الحاكمة على نصوص الكتاب والسنة:

ولا نبالغ إذا قلنا إن معـاوية ومن بعده يزيد ومروان كانوا يقدمـون مصالح عائلتـهم الحاكمـة ومطامعها على نـصوص الكتاب والسنة. ويكفـينا هنا أن نعدد مخالفات وتجاوزات معاوية للكتاب والسنة خلافا ظاهراً صريحا لا لبس فى ظهوره وصراحتـه. وكانت السنة ـ أيام الخلافة الراشدة ـ ألا يرث الكافـر مسلما ولايرث المسلم كافـرا، فشرع معاوية ـ خـلال عهده ـ يورث المسلم كافـرا ولايورث الكافر مسلمـا. ويقول ابن كـثير أن مـعاوية بدل سنة الرسول ﷺ فـى الدية وكانت دية

المعاهد مساوية لدية المسلم فخفضها معاوية إلى النصف وكان يأخذ النصف الآخر لنفسه ولا يضعها فى بيت المال. كذلك ابتدع معاوية بدعة كريهة وهى أنه وسائر ولاته ـ وبأمره ـ كانوا يكيلون السب والشتم للإمام على رضى الله عنه فى خطبهم على المنابر. كانوا يلعنون عليا رضى الله عنه ـ وهو أحب أقرباء رسول الله إلى قلبه الشريف ـ من فوق منبر المسجد النبوى نفسه وأمام الروضة النبوية ذاتها وكان أولاد سيدنا على وأقرب أقربائه يسمعون هذا اللعن بآذانهم. ولاشك ان هذا الأمر من وجهة نظر الدين والأخلاق يعتبر عملا فظا شديد القبح. كذلك خالف معاوية كتاب الله وسنة رسوله خلافا ظاهرا فى تقسيم مال الغنائم. فكتاب الله وسنة الرسول ينصان على ضرورة ذهاب خمس مال الغنيمة إلى بيت المال وتقسيم الأخماس الأربعة الباقية بين الجند الذين اشتركوا فى القتال. أما معاوية فقد أمر باستخراج الذهب والفضة من مال الغنائم واختص بها نفسه، ثم قسم باقى المال حسب القاعدة الشرعية. أليست هذه سرقة من مال المسلمين؟ كذلك رفع معاوية أعوانه وولاته فوق نصوص الكتاب والسنة، ورفض رفضا باتا محاسبتهم حسب أحكام الشريعة على ظلمهم وتعديهم. فذات مرة كان واليه على البصرة عبدالله بن عمرو بن غيلان يخطب فى المسجد فرماه شخص بحجر، فأمر أعوانه فأمسكوا به وقطعوا يده مع أن الشريعة لاترى ذلك جرما تقطع فيه يد فاعله، فاستغاث الرجل بمعاوية فقال: «لاسبيل إلى القود من نوابى ولكن الدية» وأعطاه الدية من بيت المال. يفعل ذلك معاوية مع علمه أن رسول الله ﷺ كان يستقد من نفسه. وحين عين معاوية زيادا واليا على الكوفة ـ إلى جانب البصرة ـ وارتقى منبر المسجد الجامع فى الكوفة ليخطب خطبته الأولى رماه بعض الناس بالحجارة احتجاجا على تعيينه، فأمر أتباعه فأغلقوا أبواب المسجد وقبضوا عليهم جميعا (واختلفت الأخبار فى عددهم بين ثلاثين إلى ثمانين رجلا) وقطعوا أيديهم. فلم ترفع عليهم دعوى ولم يقدموا إلى محاكمة ولم تثبت عليهم شهادات كما تنص على ذلك الشريعة إنما كل الذى حدث أن والى معاوية قطع أيدى كل من كان فى المسجد بأمر منه، وهو ما لا يجوز فى الشرع قط، ولم يحفل بلاط معاوية

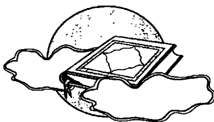
بالمسألة، ولم يعرها أدنى التفات. وابتدع معاوية بدعة كريهة أخرى تعكس الطبيعة الانتقامية لدى «أول ملوك العرب» وهى حكاية قطع الرؤوس وارسالها من مكان إلى مكان آخر، وهتك حرمات الجثث، والتمثيل بها، وهو ما كان ذائعا أيام الجاهلية وحرمه الإسلام تحريما شديدا، وقضى عليه قضاء مبرما. وأول رأس قطع فى الإسلام هو رأس سيدنا عمار بن ياسر الصحابى الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية». ولقد نقل الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده بسند صحيح كما نقل ابن سعد فى الطبقات رواية تقول: إن رأس الصحابى عمار بن ياسر قطع فى حرب صفين وأحضر إلى معاوية وتنازع عليه رجلان كلاهما يزعم أنه الذى قتل عمار. وسلك معاوية نفس السلوك الوحشى الفظيع مع الصحابى الجليل محمد بن أبى بكر الصديق فى مصر وكان واليا عليها من قبل الإمام على ابن أبى طالب عليه السلام، فلما استولى عليها معاوية، قتله ثم وضع جثته فى جلد حمار ميت وأحرقها. وبعد أن استن معاوية هذه السنة القبيحة الكريهة القذرة المجافية لنص القرآن وسيرة الرسول ﷺ، من بعد ذلك، أصبح الأسلوب المعهود أن لاترحم جثث الذين كانوا يقتلون بدافع الانتقام السياسى، فقطع رأس الإمام الحسين رضى الله عنه وجىء به من كربلاء إلى الكوفة، ومنها إلى دمشق، ثم داست الخيل على جثته ووطئت بالأقدام. وفى عهد مروان قتل النعمان بن بشير - الذى ظل يحمى عائلة بنى أمية حتى عهد يزيد، بسبب مساعدته لعبد الله بن الزبير، وقطع رأسه وألقى فى حجر زوجته. وطيف برأس مصعب بن الزبير فى الكوفة ومصر ثم جىء به إلى دمشق وعلق أمام أعين الناس وكانوا يريدون الطواف به فى مدن الشام غير أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبدالملك بن مروان نفسه احتجت على ذلك احتجاجا شديدا وقالت: «أما رضيتم بما صنعتم حتى تطوفوا به فى المدن» ثم أخذته وغسلته ودفنته. وقد ارتكب مع عبدالله بن الزبير واخوانه عبدالله بن صفوان وعمارة بن حزم ما هو أشد من ذلك وحشية وجاهلية، إذ قطعت رؤوسهم وجىء بها من مكة إلى المدينة ثم من المدينة إلى دمشق وعرضت فى كل مكان وعلقت جثثهم عدة أيام على مشانق فى مكة حتى تعفنت.

ثم مـاذا كان من يزيد بن مـعـاوية وخليفته الذى قـلده الخلافـة بلا مشـورة من المسلمـين؟ قتل الإمـام الحـسين بن على رضى الـله عنه بعد أن وقف وحـده فى الميدان. ذبحـوه ونهبوا مـا كان على جسده، ومـزقوا حتى ثوبه الذى يسـتره، ثم داسـوه بالخيل ووطؤوه بالأقـدام. ومـزقوا أثواب نسـوته وقطعـوا رؤوس كل من استشـهد فى كربلاء وجاءوا بها إلى الكوفـة ثم أرسلت كل هذه الرؤوس من بعد إلى دمشق، فعلقـها يزيد فى أبهية بلاطه وصالاته. ثم كانت وقـعة الحره فى آخر أيام يزيد وخـروج أهل المدينة عـليـه، فأمـر يزيد بـالهـجوم علـى المدينة المنورة واستباحـتها لمدة ثلاثة أيام بحيث استطاع جيش يزيد المكـون من اثنى عشر ألفا أن يدخل بيـوت المدينة ويهتك أعـراض النساء بلا خـجل. حتى أن ابن كـثيـر قال: «حتى قيـل إنه حبلت ألف امرأة فى تلك الأيام من غيـر زواج». ثم هاجم جيش يزيد، بعد فراغه من أمر المدينة المنورة، مكة المكرمة ليقاتل سيدنا عبدالله بن الزبير فرمى الكعبة الشريفة بالحجارة فتهدم جدار من جدرها. هذه الحوادث ـ منذ معاوية مرورا بيـزيد ودولة بنى مروان وبنى عبدالمـلك ـ أوضحت أن هذه العائلة الحاكـمة كأية عـائلة حاكمة ـ كـانت تراعى أول ما تراعى سلطتـها وبقاءها واستـمرارها، وتضع حمـايتها والحـفاظ عليهـا فوق كل شىء ـ فلم تتورع فى سـبيل ذلك عن انتهـاك أى حد من الحدود، وذبح أية شـريعة من الشرائع. وهتك أية حـرمة من الحرمات. وهذا ليس سبيل الإسلام[1].

---

1 ـ د. عبـدالله فهد النفـيسى ـ نفس المرجع ص115 ـ 117، وانظر ـ طبقـات ابن سعد ج7 ص29، الطبرى ج4 ص178، الاستيعاب ج1 ص118، ابن الاثير ج3 ص223، البداية والنهاية ج1 ص29، المودودى-الخلافة والملك ص113.

الفصل الثالث



الفتوحات الإسلامية

- الأمويون والنشاط البحرى.
- معاوية وحصار القسطنطينية الأول والثانى والثالث.
- تحرير المغرب العربى من الاستعمار الرومانى - البيزنطى.
- تحرير عقبة بن نافع للمغرب العربى.
- فتوحات أبى المهاجر.
- ولاية عقبة بن نافع الثانية.
- زهير بن قيس البلوى يثأر لعقبة.
- حسان بن النعمان ودوره فى تحرير المغرب العربى.
- موسى بن نصير.
- فتح إسبانيا وحملة طريف بن مالك.
- طارق بن زياد فاتح إسبانيا.
- فتح بلاد ما وراء النهر - الشرق الإسلامى.
- قتيبة بن مسلم فاتح بلاد ما وراء النهر - الشرق الإسلامى.

الأمويون والنشاط البحرى

شهد العصر الأموى أوسع حركات الفتح الإسلامى وأكثرها نشاطًا فى التاريخ الإسلامى كله بعد فتوحات الخلفاء الراشدين، التى شملت «العراق» و«بلاد فارس» كلها و «مصر» و«الشام»، ثم توقفت الفتوحات الإسلامية، أو كادت تتوقف بسبب الفتن والحروب الأهلية التى حدثت بين المسلمين. وقد استأنف المسلمون فتوحاتهم بعد اجتماع شملهم على «معاوية بن أبى سفيان» وتوحدهم تحت رايته فى عام الجماعة عام (41هـ الموافق 661م)، وحقق الأمويون أعظم إنجازاتهم على الإطلاق فى ذلك الميدان العظيم، وامتدت فتوحاتهم إلى مناطق عديدة فى قارات العالم القديم (آسيا. أفريقيا. أوربا) ففتحوا فى عهد «الوليد بن عبدالملك» بلاد «ما وراء النهر» (آسيا الوسطى) وإقليم «السند» فى «شبه القارة الهندية»، واستكملوا تحرير المغرب العربى كله فى حدود «مصر» الغربية إلى «المحيط الأطلسى»، ثم عبروا «مضيق جبل طارق» إلى القارة الأوربية، ليفتحوا «الأندلس»، وجنوبى «فرنسا»، كما استولوا على معظم الجزر فى «شرقى البحر المتوسط» وشرقه وجنوبه، ثم واصلوا ضغطهم على مدينة «القسطنطينية»، عاصمة الدولة البيزنطية، وحاصروها أكثر من مرة. وجد المسلمون أنفسهم بعد عشر سنوات من بداية الفتوحات الإسلامية قد سيطروا على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط؛ بالإضافة إلى سيطرتهم شبه الكاملة على «البحر الأحمر»، دون أن تكون لديهم قوة بحرية، فهم ليسوا أهل بحر، بل هم أهل صحراء، وإذا كانت لدى بعضهم خبرة بحرية كأهل حضرموت فهى خبرة تجارية وليست قتالية، ولذا كان من الضرورى أن يمتلكوا قوة بحرية تمكنهم من الدفاع عن الشواطئ التى امتلكوها.

وقد كان من حسن حظ الأمويين وبفضل مهارتهم أنهم عرفوا كيف يكتسبون العمال المخلصين من العرب، من رجال الحرب والحكم (الإدارة) فى نفس الوقت. من هؤلاء: قتيبة بن مسلم الفاتح الحقيقى لما وراء النهر (من سنة 706م/ 87هـ ـ 715م/ 97هـ)، وموسى بن نصير فاتح الأندلس (123هـ/ 711م)

على عـهد الوليد. فكـلاهما دفع حدود الإسـلام ووسعـها. الأول حـتى حدود الصين، والثانى نحو الغرب حتى جبال البرانس[1]. بعد موت الوليد وجه الخليفة سليمـان جهوده العسـكرية نحو القسطنطينيـة إذ كان يريد تحقـيق اسطورة منسوبة للنبى تقول بأنه سـيلى أمر هذه المدينة (وكـانت هذه هى المرة الثانية التى تتـعرض فيها مدينة الأباطرة لهجوم خطير. ففى خلال خمس سنوات من 673 ـ 677م/ 54 ـ 58هـ أيام معاوية عسكر المسلمون أمامها كمـا ألقت بحريتهم مراسيها مقابل مينائها، ولكن الهجوم المضاد الذى قام به المحاصرون، كما أن النار الجريجورية أو اليونانيـة كان لهـا أثرها فى فك الحصـار). وفى عام 717/ 98هـ عـهد الخليـفة سليمان إلى أخيـه مسلمة بقيادة جيش قوى مزود بآلات الحـصار، وتم حشد هذا الجيش فى قاعـدة دابق قرب حلب تحت رقابة الخليفـة المباشرة. وفى نفس الوقت جهـز أسطول كان عليه مـساعدة الجـيش (وعبر جـيش مسلمـة الدردنيل، وتقدم الأسطول فى البسفور وعلى طول سواحل بـحر مرمرة. وأغلق القرن الذهبى وهو بناء المدينة بسلسلة طويلة) ولكن فى نهـاية العام اضطر المسلمون إلى الانسـحاب، وذلك نتيجة لسـوء تموينهم وهجوم فصل الشتاء عليهم، وللهـجمات المتكررة التى أرهقهم بها البلغار[2].

*** معاوية وحصار القسطنطينية:**

وضع «معاوية بن أبى سفيان» منذ أن ولى الخلافـة أهدافًا سياسية، كان فى مقدمتها فتح مدينة «القسطنطينيـة»، عاصمة الدولة البيزنطية، العدو اللدود للدولة الإسلاميـة، ولعله كان يستهـدف بسقوطها سقـوط الدولة نفسها، كـما هو الحال بالنسبة إلى دولة الفرس التى لم تـستطع الصمود بعد سقوط «المدائن» عاصـمتها. وكانت «القـسطنطينية» تعد من أمنع المدن فى العـالم، لموقعها الفـريد على القرن الذهبى الممتد فى مياه «خليج البسفـور»؛ حيث تحيط بها المياه من الشرق والشمال

1 ـ د. سعد زغلول ـ الدولة العباسية ص20.
2 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص20.

والجنوب، أما الناحية الغربية المتصلة بالبر، فقد أقام الأباطرة البيزنطيون سلسلة من الأسوار والأبراج لحمايتها من أية هجمات ولم يثن ذلك كله عزيمة «معاوية» عن فتح عاصمة البيزنطيين، فاستولى على الجزر البيزنطية الواقعة شرقى «البحر المتوسط». مثل: «رودس»، و «كريت»، و«أدوارد»؛ ليتخذها محطات للأسطول الإسلامى، تمهيداً لغزو «القسطنطينية». ولما أكمل ذلك جهز أول حملة بحرية إليها، بقيادة «سفيان بن عوف» وجعل ابنه «يزيد» أميراً شرفياً عليها، سنة (49هـ)، وشارك فى هذه الحملة عدد من الصحابة، مثل «عبدالله بن عمر»، «وعبدالله بن عباس»، و«أبى أيوب الأنصارى». لم تنجح هذه الحملة فى تحقيق أهدافها؛ بسبب مناعة المدينة، وبرودة الجو الشديدة على العرب، فعادوا بعد أن استشهد عدد من الأبطال، منهم «أبو أيوب الأنصارى» الصحابى الجليل وقد تنبأ الرسول ﷺ بهذه الغزوة، ووعد أهلها المغفرة، فقال: «أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم» [صحيح البخارى][1].

* الحصار الثانى:

على الرغم من عدم التوفيق الذى لحق الحملة الأولى، فإن «معاوية» لم ييأس، وقاد حملة أخرى، وفرض الحصار على المدينة سبع سنوات (54 ـ 60هـ الموافق 673 - 679م). واقتصرت العمليات الحربية على فصلى الربيع والصيف، لصعوبة القتال فى الشتاء. وقد أبلى المسلمون فى ذلك الحصار بلاء حسنًا، وتحملوا الصعاب والمشقات، لكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، فقد فاجأ البيزنطيون المسلمين بسلاح لم يكن لهم به عهد، عرف باسم «النار الإغريقية» وهو مركب كيميائى يتكون من النفط والكبريت والقار، كانوا يشعلونه بالنار، ويقذفون به السفن الإسلامية، فتشتعل بها النيران، ولم يجد «معاوية» بدا من رفع الحصار وعودة الجيش إلى «دمشق».

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص24.

* الحصار الثالث:

اهتم الخليفة «سليمان بن عبدالملك» بفتح «القسطنطينية» اهتمامًا كبيراً، وجهز لذلك جيشًا ضخمًا، بلغ زهاء مائة ألف جندى، ومزوداً بنحو ألف وثمانمائة سفينة حربية، وأسند قيادته إلى أخيه «مسلمة بن عبدالملك»، واتخذ هو من مدينة «دابق» شمالى الشام مركز قيادة، يتابع منه أخبار الجيش وسير عملياته. وقد حاصر الجيش المدينة مدة عام كامل (98 ـ 99هـ الموافق 716 - 717م) دون جدوى، فقد استعصت المدينة على السقوط، على الرغم من الاستعدادات الكبيرة للجيش الإسلامى وتضحياته الجسيمة. ولم تكن تلك الحملات الثلاث بغير فائدة، مع عجزها عن فتح «القسطنطينية»، فقد شغلت الدولة البيزنطية بالدفاع عن نفسها وعن عاصمتها، وجعلت الاستيلاء عليها أملا إسلاميًا لم يخب نوره أو تنطفئ جذوته عبر القرون، حتى حققه السلطان العثمانى «محمد الفاتح» سنة 857هـ = 1453م)، وشيد مسجداً بالقرب من قبر «أبى أيوب الأنصارى» أول شهيد إسلامى هناك.

تحرير المغرب العربى من الاستعمار الرومانى ـ البيزنطى

وصل المسلمون فى أواخر خلافة «عثمان» إلى «تونس» الحالية، لكنهم لم يواصلوا فتوحاتهم بسبب الفتن التى استمرت حتى نهاية خلافة «الإمام على بن أبى طالب ﷺ» (36 ـ 40هـ الموافق 656 - 660م)، فلما استتب الأمر لمعاوية سنة (41هـ الموافق 661م)، كانت جبهة «شمالى إفريقيا» أولى الجبهات التى اهتم بها، لأنها كانت تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية التى عزم على تضييق الخناق عليها، فأرسل عام (41هـ الموافق 661م) حملة إلى «المغرب العربى» بقيادة «معاوية بن حديج»، ثم أرسله على رأس حملة أخرى سنة (45هـ الموافق 665م) فاستطاع أن يفتح العديد من البلاد، مثل «جلولا» و«سوسة».

أخفقت محاولة معاوية بن حديج كما اخفقت المحاولات السابقة ولهذا كان على العرب المسلمين أن يغيروا خطتهم فى الحرب من أساسها فقد كان عدوهم الاستعمار الرومانى المسيحى يعتمد فى معركة المغرب العربى على ثلاثة عناصر

قوية أولها أسطول بحرى ضخم بقواعد راسخة فى صقلية، وثانيها موانئ وقواعد بحرية فى سواحل المغرب العربى حتى المحيط الأطلسى تتعاون كلها فى صد المغيرين وردهم على أعقابهم، وثالثها تأييد قبائل عرب البربر المقيمين بالسهول الساحلية والتى كانت قد اعتنقت المسيحية ديانة الاستعمار الرومانى وتشربت الثقافة الرومانية مثلما حدث للقبائل العربية اليمنية فى بلاد الشام والعراق التى تشربت الثقافة المسيحية البيزنطية. وفعلا عاد العرب المسلمون إلى المعركة مرة أخرى عام 50 هـ الموافق 670م. بخطة جديدة لمواجهة تكتيك العدو وخططه وعاد القائد الكبير عقبة بن نافع الفهرى فاتح المغرب وفى ذهنه عدة أمور عديدة لإحراز النصر فى هذه المعركة الحاسمة عن طريق تجنب الطريق الساحلى بأية وسيلة مع محاولة التقرب من السكان الأصليين من البدو من عرب البربر الذين يكرهون الثقافة المسيحية للاستعمار الرومانى والحكم البيزنطى وبذلك يطوق الثغور الساحلية من أسفل ويتجنب خطر الأسطول البيزنطى، إضافة إلى انشاء قاعدة للفتح الإسلامى للمغرب الإسلامى تكون بعيدة من البحر بالقدر الذى يجنبها خطر الأسطول، وقريبة من المنطقة التى تقع عند نهاية السهل الساحلى وبداية المناطق الواقعة من خلفها يتجمع فيها المقاتلة من المسلمين وتحشد فيها المؤن والذخائر وتتخذ قاعدة للفتح إلى المغرب العربى كله[1].

تحرير عقبة بن نافع للمغرب العربى:

أسند «معاوية بن أبى سفيان» قيادة الجيش الفاتح إلى «عقبة بن نافع»، وهو واحد من كبار القادة الذين لمعت أسماؤهم فى الفتوحات الإسلامية فى العصر الأموى، ولم يكن «عقبة» جديدًا على الميدان فقد شارك فى فتح تلك البلاد منذ أيام «عمرو»، واكتسب خبرة كبيرة فواصل فتوحاته فى هذه الجبهة ولما رأى «عقبة» اتساع الميدان، وبعد خطوط مواصلاته عن قواعده فى «مصر»، شرع فى بناء مدينة تكون قاعدة للجيش، ومركزًا لانطلاقاته وإمداداته، فبنى مدينة «القيروان» (50 ـ 55هـ الموافق 674م) بإذن من «معاوية»، وكان لهذه المدينة شأن عظيم فى

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ تاريخ المغرب والأندلس ـ ص24.

الفتوحات وفى الحركة العلمية، وأثناء تأسيسها كان «عقبة» يدعو سكان المنطقة إلى الإسلام، فدخل كثير من «البربر» سكان البلاد فى الإسلام.

* فتوحات أبى المهاجر:

ظل «عقبة بن نافع» يواصل فتوحاته ونشر الإسلام حتى عزله «معاوية» وولى مكانه قائدًا آخر، لا يقل عنه شجاعة وإقدامًا، وحبا للجهاد فى سبيل الله، هو «أبو المهاجر بن دينار»، وكان يتمتع إلى جانب مهارته العسكرية بقدر من الكياسة وحسن التصرف والفطنة، فقد أدرك أن عرب البربر سكان المغرب العربى قوم أشداء، يعتدون بكرامتهم ويحرصون على حريتهم كالعرب تمامًا، وأن سياسة اللين والتسامح قد تجدى معهم أكثر من سياسة الشدة. وقد نجحت سياسة «أبى المهاجر» فى اجتذاب عرب البربر إلى الإسلام، وبخاصة عندما أظهر تسامحًا كبيرًا مع زعيمهم «كسيلة بن لمزم»، وعامله فى إجلال وإكرام، فأسلم الرجل متأثرًا بتلك المعاملة، وأسلم بإسلامه طائفة كبيرة من قومه. وفى مقابل تلك السياسة المتسامحة مع «عرب البربر» كان «عقبة» حازمًا فى تعامله مع الدولة البيزنطية التى حاولت أن تحتفظ بالمغرب العربى بعد أن فقدت «مصر» والشام، لكنها لم تنجح، فقد حقق «أبو المهاجر» نصرًا عسكريًا عليها، مكنه من السير إلى الغرب، فاتحًا معظم «المغرب الأوسط» ـ الجزائر الحالية ـ ووصل إلى «تلمسان»[1].

* ولاية عقبة بن نافع الثانية:

أعاد الخليفة يزيد بن معاوية «عقبة بن نافع» مرة أخرى إلى «المغرب العربى»، فواصل جهود «أبى المهاجر»، وقام بحملته التى اخترق بها الساحل كله فى شجاعة وجرأة حتى بلغ شاطئ «المحيط الأطلسى»، وأوطأ أقدام فرسه فى مياهه، وقال قولته المشهورة: «اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد، أقاتل من كفر بك حتى لايعبد أحد دونك». وبذلك أصبح

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص 25 ـ 26.

عقبة بن نافع الفهرى أسطورة فى تاريخ الفتوح الإسلامية من حيث سرعة وعنف الهجوم والآفاق التى وصل إليها فقد تجاوز تونس وتوغل فى المغرب الأوسط ثم سار فى إقليم الساحل حتى وصل مدينة طنجة ودار حول ساحل الأطلسى إلى إقليم «السوس» الأدنى ثم الأقصى حتى وصل إلى مدينة أغمات فى السودان الغربى، ولم يقف عند هذا الحد، بل توغل فى غرب افريقيا ووصل إلى بلاد «غانة» والتكرور وبنى فيها بعض المساجد[1] وفى أثناء عودة «عقبة» من غزوته المظفرة تعرض لكمين نصبه له البيزنطيون بمساعدة «كسيلة» زعيم «البربر»، الذى كان «عقبة» قد أهانه، فبينما هو يسير فى عدد قليل من جنوده يبلغ زهاء ثلاثمائة جندى انقضت القوات البيزنطية عليه وعلى من معه عند بلدة تهودة فاستشهدوا جميعًا عام (63هـ الموافق 682م). ومما أسهم فى وقوع الكارثة أن «عقبة» كان قد وقع فى خطأ عسكرى كبير، إذ سرح معظم جيشه، وأمرهم بالسير أمامه، فابتعد عنه لمسافة طويلة، مما جعل الجيش البيزنطى ينفرد به ويهزمه هزيمة ثقيلة أضاعت كل الجهود التى بذلها المسلمون فى فتح تلك البلاد، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الخلف، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بالقيروان، وعادوا إلى «برقة».

* زهير بن قيس البلوى يثأر لعقبة:

تسلم «زهير بن قيس البلوى» قيادة الجيش خلفًا لعقبة بن نافع عام 63هـ الموافق 682م، وعزم على الثأر من البيزنطيين و«البربر»، لكنه لم يستطع أن يحقق هدفه إلا فى عام (69هـ الموافق 688م)، نظرا لانشغال الدولة الأموية بالأحداث والفتن الخطيرة التى حدثت فى الداخل بعد وفاة «يزيد بن معاوية» عام (64هـ الموافق 684م). تحرك «زهير» بجيش كبير وزحف على «القيروان» عام (69هـ الموافق 688م)، والتقى على مقربة منها بجيش «كسيلة»، فهزم «البربر» هزيمة ساحقة بعد معركة شديدة وفى أثناء عودته إلى «برقة» للدفاع عنها ـ بعدما نمى إلى علمه أن البيزنطين زحفوا عليها فى جموع عظيمة ـ تعرض لهجوم بيزنطى مفاجئ، فلقى حتفه هو ومن معه.

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص27.

* حسان بن النعمان ودوره فى تحرير المغرب العربى

وصلت أخبار استشهاد «زهير» ومن معه إلى الخليفة «عبدالملك بن مروان» وهو مشغول بصراعه مع الخوارج والشيعة وآل الزبير، فلم يتمكن من القيام بعمل حاسم إلا بعد أن استقرت له الأوضاع، فأسند قيادة جبهة المغرب العربى إلى «حسان بن النعمان» وطلب عبدالملك من القبائل اليمنية فى الشام ليحشدوا إليه الجند، وأقبل أفراد من القبائل اليمنية على الانخراط فى سلك المجاهدين وبلغ عددهم حوالى أربعين ألف جندى، وكانت الخطة التى التزم بها القائد حسان بن النعمان تدل على تطور هام فى تاريخ الحملات العسكرية، فقد انصرف إلى مهاجمة القلاع الساحلية مثل «قرطاجنة» وهذا يدل على نمو البحرية الإسلامية نموا جعلها تقدم على المخاطرة باقتحام ميدان المغرب العربى ومساعدة القوات البرية لقهر الروم وإتمام التحرير الإسلامى. وكان من نتيجة ذلك أن فتحت مدينة قرطاجنة معقل المقاومة وقاعدة الأسطول البيزنطى وأحرز الأسطول العربى الناشىء أول نصر له، وأن تحرير المغرب العربى قد تم بعدها. وأراد حسان أن يثبت أركان هذا النصر ويضع حدا لمحاولات الروم البحرية فأنشأ قاعدة للأسطول الإسلامى فى مدينة تونس. وإذا كانت القيروان حصنًا من الداخل ومعسكرًا للقوات البرية فقد أصبحت تونس قاعدة الأسطول الإسلامى فى المغرب العربى وكان حسان موفقا حين اهتم بتحصين تونس وجلب لها بعض الأسر المشتغلة بصناعة السفن لتدريب وتمكين أهل البلاد من ركوب البحر وقام بتولية عرب البربر فى وظائف الولاية وتمتعهم بالمساواة الكاملة فبين لأهل البلاد الفرق الواضح بين السياسة العربية والسياسة المسيحية البيزنطية القديمة فاشتد ساعد الإسلام وأقبل عليه عرب العاربة من الأماريغ البربر منذ ذلك الوقت إقبالا عظيما[1]. واستطاع حسان بعد جهد جهيد القضاء على الوجود البيزنطى فى المغرب العربى، وأن يحطم مدينة «قرطاجنة» أكبر مركز بيزنطى، وأن يبنى محلها مدينة «تونس» الحالية، كما قضى على كل مقاومة للبربر الموالين للمسيحيين البيزنطيين، بعد أن حقق نصرًا هائلا

1 ـ د. حسين احمد محمود ـ المرجع السابق ص26.

على زعيمتهم الكاهنة التى آلت إليها الزعـامة بعد مقتل «كسيلة»، ونعم المسلمون بأولى فتـرات الاستقـرار فى المغرب العربى ولم يكن «حـسان بن النعمـان» قائداً عسكريا عظيمًا فحسب؛ بل كان رجل دولة وتنظيم وإدارة أيضًا، فأنشأ الدواوين، ورتب أمور الخـراج والجزية، ووطّد سلطان الحكـم الجديد فى الثغـور والنواحى، وجدد مدينة «الـقيروان»، وأنشأ بها المسـجد الجامع، ووضع سيـاسات مستـقبلية انتهت بأهل المغرب العربى كله إلى اعتناق الإسلام.

موسى بن نصير:

حل موسى بن نصير عام (85هـ الموافق 704م) محل «حسان بن النعمان» فى ولاية المغرب العربى وقيادة جيوش الفتح بها، فأكمل ما بدأه سابقوه من القادة العظام، وقدر لـه أن يجنى ثمار غرسـهم، ففى ولايتـه تم فتح «المغـرب العربى» كله، وأقبل أبناؤه على اعـتناق الإسلام فى حرية تامة، بعـدما أدركوا وفهـموا ما يحمله من عـزة وكرامة وحـرية وعدل ومساواة. فلمـا جاء موسى بن نصـير إلى المغرب الأقصى يريد أن يترسم خطة عقبة مع تطبيقه لمبادئ حسان كتب له النجاح الذى لم يتوافر لعقـبة من قبل، ولكن موسى كان أبعد نظراً مـن عقبة، ولم يكن قائداً فـحسب انما كان مصلحًـا وسياسيًـا فى نفس الوقت فقرب إليه عـرب البربر وحببهم فى الحكومة الجديدة وولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب فى إدارة البلاد فبدأوا يقبلون على الإسلام إقبـالا عظيما. وموسى لم يكن يحب أن يكون إسلام عرب العاربة الأمازيغ من البربر خوفًا أو رهبة بل عن حب واقتناع، فأخذ يعلمهم الدين وينشئ المساجد فى البلاد التى فـتحها فأنشأ مسجـدا فى مدينة «أغمات» فى أقصى المغرب وبدأت الثقافة الإسلاميـة تنبت فى هذه البيئة الحديثة، والتزم موسى سياسة حسـان وتابع خلفاء موسى هذه السياسة فإن إسمـاعيل بن أبى المهاجر فى عهد عمر بن عبدالعزيز عمل على نشر الإسلام، وأمده الخليفة بطائفة من التابعين انتشروا فى المغرب الأقصى يحضون الناس على الإسـلام وكان ذلك عاملا حاسما فى اندفاع الإسلام إلى الأندلس، فقد كـان عرب البربر فى المغرب الأقصى الذين

دخلوا فى الإسلام حديثا هم عدة هذا الفتح وطارق بن زياد المغربى وجهوده وبروزه فى قصة الفتح يعتبر دليلا على نجاح سياسة موسى وانتشار الإسلام[1].

*** فتح إسبانيا: حملة طريف بن مالك الاستطلاعية:**

«إسبانيا» أو «شبه جزيرة أيبيريا» هى الجزء الجنوبى الغربى من قارة أوروبا وتشمل فى الوقت الحاضر دولتى «إسبانيا» و «البرتغال». عندما استقر الأمر للمسلمين فى «المغرب» فى ولاية «موسى بن نصير»، وأقاموا فيها نظامًا عادلا ورحيمًا. وكانت بداية فتح الأندلس أيضا وفقًا للسياسة العربية التقليدية وهى استشارة الحاكم فى بداية عمليات الفتح ثم بداية الغارات الخاطفة التى تسمى بالغارات الثغرية أو غارات جس النبض حين كتب الوليد بن عبدالملك إلى موسى ابن نصير يأمره أن يختبر بلاد الأندلس بسرية صغيرة فكانت الحملة المعروفة بقيادة طريف بن مالك عبر البحر إلى الأندلس فى قوة صغيرة من أربعمائة رجل ومائة فارس وقام «طريف» بسلسلتين من الغارات الخاطفة وغنم فيها غنائم كثيرة ثم عاد إلى المغرب مرة أخرى بعد أن حققت الحملة أهدافها[2].

*** طارق بن زياد فاتح إسبانيا:**

اختار «موسى بن نصير» للقيام بمهمة فتح «إسبانيا» «طارق بن زياد» وهو من أصل عرب البربر لما يتمتع به من شجاعة ومهارة فى القيادة، فخرج فى سبعة آلاف جندى، معظمهم من «عرب البربر»، وعبر المضيق الذى يفصل بين الساحل المغربى والساحل الأندلسى، والذى لايزال يحمل اسمه، ونزل على الجبل ـ الذى حمل اسمه أيضًا ـ فى شهر رجب عام (92هـ الموافق 710م)، واستولى عليه بعد عدة معارك مع القوات القوطية التى كانت تقوم بحراسته، وتوغل فى جنوب البلاد[3].

---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص28.

2 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص30.

3 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ـ ص26 ـ 28.

وما إن علم الملك «روذريق» بنزول المسلمين في بلاده ـ وكان فى شمال غرب البلاد مشغولا بقمع ثورة اندلعت ضده ـ حتى عاد مسرعًا لـلقاء المسلمين على رأس جيش قوامه نحو مائة ألف جندى، ولما علم «طارق» بعودة الملك طلب مددًا من «موسى بن نصير»، فأمده بخمسة آلاف، وأصبح عدد جيشه اثنى عشر ألفا، والتقى الفريقان فى أواخر شهر رمضان عام (92هـ الموافق 710م)، وحقق المسلمون نصرًا حاسمًا، ويؤكد المؤرخون أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة «شذونة» قد قررت مصير «الأندلس» لصالح المسلمين، لأن الجيش القوطى دحر تمامًا، وهبطت روحه المعنوية إلى الحضيض، ولم يعد قادرًا على المقاومة، فانفتح الطريق أمام البطل الفاتح «طارق بن زياد»، ليستولى على مدن مهمة، مثل: «قرطبة» و «غرناطة»، ووصل إلى «طليطلة» فى وسط البلاد، وكانت عاصمة البلاد فى ذلك الوقت. أرسل «طارق» إلى «موسى بن نصير» يبشره بهذه الانتصارات، ويطلب منه مددًا جديدًا، فعبر إليه بنفسه على رأس قوة كبيرة قوامها ثمانية عشر ألفًا، ونجح فى فتح عدد من المدن فى غربى البلاد مثل «إشبيلية» وهو فى طريقه إلى لقاء «طارق» فى «طليطلة». اتفق القائدان العظيمان على استكمال فتح «الأندلس»، فاتجه كل منهما إلى ناحية فأخذ «طارق بن زياد» طريقه إلى الشمال الشرقى، فى حين اتجه موسى إلى الشمال الغربى، ونجح الاثنان فى غضون عامين (93 ـ 95هـ الموافق 711 - 713م) فى فتح معظم شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا)، عدا منطقة جبلية فى أقصى الشمال الغربى، استعصت عليهم، أو لم يحفلوا بها، ولم يدروا أنها ستكون فيما بعد البؤرة التى ستنمو فيها المقاومة المسيحية. وقد استمر الإسلام فى «إسبانيا» زهاء ثمانية قرون، شاد المسلمون خلالها حضارة عظيمة، جعلت منها البقعة الوحيدة المضيئة فى القارة الأوربية كلها، التى كانت تعيش عصورًا مظلمة وتحيا حياة متخلفة.

فتح بلاد ما وراء النهر «الشرق الإسلامى»

أطلق المسلمون اسم بلاد «ما وراء النهر» على البلاد المعروفة الآن باسم «آسيا الوسطى» الإسلامية أو «الشرق الإسلامى»، وتضم خمس جمهوريات

إسلامية، كانت خاضعة للاتحاد السوفيتى، ثم من الله عليهم، فاستقلوا بعد انهياره. وتقع بلاد «ما وراء النهر» بين نهر جيجون (أموداريا) فى الجنوب، ونهر «سيحون» (سرداريا) فى الشمال، وأهلها من أصول تركية، حلوا بها منذ القرن السادس الميلادى. وكانت هذه البلاد تتكون عند الفتح الإسلامى من عدة ممالك مستقلة، وهى:

1 ـ مملكة «طخارستان»، وتقع على ضفتى نهر «جيجون»، وعاصمتها «بلخ».

2 ـ مملكة «الخُتّل»، وهى أول مملكة شمالى نهر «جيجون» وعاصمتها مدينة «هلبك».

3 ـ مملكة «ضغانيان»، وعاصمتها تسمى «ضغانيان» أيضا.

4 ـ مملكة «الصغد»، وعاصمتها مدينة «سمرقند»، ومن أهم مدنها «بخارى».

5 ـ مملكة «خوارزم» وعاصمتها مدينة «الجرجانية». وكانت تسمى هذه بالممالك الجيجونية، بالإضافة إلى عدة ممالك أخرى تقع على ضفتى نهر «سيحون»، سميت بالممالك السيحونية، وهى «الشاش»، و«أشروسنة»، و«فرغانة».

وهذه الممالك كلها تم فتحها خلال عشر سنوات (86 ـ 96هـ الموافق 705 ـ 714م) فى خلافة «الوليد بن عبدالملك»، على يد «قتيبة بن مسلم الباهلى»، وبقوة دفع هائلة من «الحجاج بن يوسف الثقفى» والى «العراق» والمشرق.

*** قتيبة بن مسلم فاتح بلاد ما وراء النهر «الشرق الإسلامى»:**

طرق المسلمون هذه البلاد عدة مرات منذ خلافة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، وغزاها عدد كبير من القادة المسلمين كان آخرهم «المهلب بن أبى صفرة»، ولم تكن حملاتهم عليها للاستقرار الدائم والفتح المنظم، وإنما كانت لتعرفها ومعرفة أحوالها. وبدأت المرحلة الحاسمة فى الفتح والاستقرار مع تسلم «قتيبة بن مسلم» قيادة جيوش الفتح وولاية إقليم «خراسان» عام (85هـ الموافق 704م)، وكانت الظروف مواتية له تمامًا، فالدولة الأموية كانت عندئذ فى أحسن حالاتها استقرارًا وهدوءًا وثراء عريضًا فاجتمع لقتيبة مهارة القائد، وعزم الوالى ـ «الحجاج» ـ

وتشجيعه، وقوة الدولة وهيبتها، فكانت فتوحاته العظيمة فى بلاد «ما وراء النهر». ولم يكن «قتيبة» قائداً عسكريًا فذا فحسب، بل كان إلى جانب ذلك رجل دولة، وصانع سياسة، وواضع نظم وإدارة، فعمل بعد تسلمه أمور الولاية على القضاء على الخلافات العصبية التى كانت تعصف بالقبائل العربية فى «خراسان»، من جراء التنافس على الولايات. وجمع زعماءهم، ولم يكتف «قتيبة» بتوحيد صفوف القبائل العربية تحت راية الجهاد، بل عمل على كسب ثقة أهل «خراسان» الأصليين، فأحسن إليهم، وقربهم وتودد معهم، وعهد إليهم بالوظائف، فاطمأن الجميع إليه، ووثقوا به وبقيادته.

* مراحل الفتح:

مرت خطوات «قتيبة»، فى فتح تلك البلاد التى استمرت نحو عشر سنوات (86 ـ 96هـ الموافق 705 - 714م) عبر مراحل أربع هى:[1]

* المرحلة الأولى (86 ـ 87هـ الموافق 705م):

وفيها أخضع «قتيبة بن مسلم» إقليم «طخارستان»، الواقع على ضفتى نهر جيجون، ويبدو أن أوضاعه لم تكن قد استقرت للمسلمين تمامًا، منذ أن فتحه «الأحنف بن قيس» فى خلافة «عثمان بن عفان»، وكانت تلك بداية ناجحة، فبدون توطيد أقدامه فى «طخارستان» لم يكن ممكنًا أن يمضى لفتح «ما وراء النهر»، وأصبح يتمتع بهيبة كبيرة فى تلك البلاد؛ فما إن يسمع الملوك بمسيره إليهم، حتى يسرعوا إلى لقائه وطلب الصلح.

* المرحلة الثانية (87 ـ 90هـ الموافق 705 - 708م):

وفيها فتح «قتيبة» إقليم «بخارى»، بعد حروب طاحنة، وانتظام حملاته عليها، وكان الغزو يحدث فى الصيف، لأن شتاء تلك البلاد كان قاسيًا شديد البرودة على العرب، لكنهم أصروا وجاهدوا حتى تم لهم الفتح. والحقيقة أن جهل أهل البلاد بالإسلام، وتصورهم أن المسلمين جاءوا للاستيلاء على خيرات

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص28 ـ 31.

بلادهم، هو الذى جعلهم يقاومونهم، لكنهم لما عرفوا أن المسلمين ليسوا غزاة، وإنما هداة يحملون إليهم الإسلام؛ أقبلوا على اعتناقه والإيمان بمبادئه. يقول المستشرق المجرى «أرمينوس فامبرى»: «إن بخارى التى قاومت العرب فى البداية مقاومة عنيفة، قد فتحت لهم أبوابها، لتستقبلهم ومعهم تعاليم نبيهمﷺ، تلك التعاليم التى قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة، ثم أقبل القوم عليها بعد ذلك فى غيرة شديدة، حتى لنرى الإسلام الذى أخذ شأنه يضعف اليوم فى جهات آسيا الأخرى، وقد غدا فى بخارى اليوم ـ (1873م) ـ على الصورة التى كان عليها أيام الخلفاء الراشدين».

* المرحلة الثالثة (90 ـ 93هـ الموافق 708 - 711م):

وفيها أكمل فتح حوض نهر «جيجون» كله، وتوج عمله بالاستيلاء على «سمرقند»، أعظم مدائن «ما وراء النهر» كلها.

* المرحلة الرابعة (93 ـ 96 هـ الموافق 711 - 714م):

وفيها عبر «قتيبة» نهر «سيحون»، وفتح الممالك السيحونية الثلاث: الشاش، وأشروسنة، وفرغانة، ووصل إلى إقليم «كاشغر» الذى يلامس حدود «الصين»، التى تهيأ لفتحها، لولا أن وفاة «الحجاج» عام (95هـ الموافق 713م)، وبعده الخليفة «الوليد بن عبدالملك» عام (96هـ الموافق 714م) جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك «الصين» على دفع الجزية له مع رسول إليه «هبيرة بن المشمرج الكلابى». وقد أصبحت تلك البلاد جزءًا مهما وعزيزًا من العالم الإسلامى، نشأت فيها مراكز علمية وحضارية، مثل «سمرقند»، و«بخارى» و«جرجان» وغيرها، وخرَّجت عددًا هائلا من علماء المسلمين الذين ملأت أسماؤهم سمع الدنيا وبصرها.

فتح السند (باكستان) والقائد محمد بن قاسم عام 89هـ الموافق 707م

بدأ «الحجاج بن يوسف الثقفى» يعد العدة لفتح إقليم «السند» فى «شبه القارة الهندية»، بعد أن استقام الأمر له فى جنوبى بلاد فارس وتوطدت أقدام

المسلمين هناك، وقضى على تمرد «رتبيل» ملك «سجستان»، وأخضع بلاده. ويعد فتح بلاد «السند» شبيهًا بفتح بلاد «ما وراء النهر» من عدة وجوه، منها:

سبق الفتح المنظم لبلاد «السند» سلسلة من الحملات والغزوات التى قام بها المسلمون لمعرفة طبيعة البلاد وجمع المعلومات عنها، كما حدث لبلاد «ما وراء النهر» وإن مسألة فتح «السند» أمر مفروغ منه حيث إن الرسالة المحمدية جاءت لتنشر الإسلام بين الناس جميعا، وتدعوهم إليه على أيدى شبابها ورجالها وكهولها كمحمد بن قاسم وقتيبة بن مسلم وعقبة بن نافع وموسى بن نصير وطارق بن زياد ولم يكن هؤلاء القادة الأبطال إلا خلفاء لخالد بن الوليد ومثنى بن الحارثة وسعد بن أبى وقاص وغيرهم، فالرسالة النبوية لم تأت لتظل فى الحجاز أو تكون مقصورة على العرب في الجزيرة العربية بل جاءت إلى الناس كافة: «**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيراً..**» وكانت فتوحات المسلمين قد وصلت إلى حدود الصين شرقًا كما كانت تسير سيرًا حثيثًا مرضيًا إلى جنوب غرب قارة أوربا، ففتح «السند» جاء كنتيجة طبيعية وأمر حتمى خاصة بعد أن فتحت بلاد إيران وبلاد ما وراء النهرين تحت مظلة الإسلام، وخاصة بعد فتح سجستان وكرمان ومكران عام 23هـ الموافق 644م كنتيجة تالية لفتح أقاليم سابقة لها كإيران والعراق وبعد أن قتل القائد المجاهد عبدالله بن نبهان وهو يحاصر «دبل» وكذلك بعد مقتل ابن عمه محمد بن قاسم الثقفى الذى كان قد أرسل من إيران إلى «الرى» فرده الحجاج إلى إيران وأمره بأن يتجهز لقيادة حملة لفتح «السند»[1].

عزم «الحجاج» على فتح إقليم «السند»، بعد أن استقرت أحوال الدولة الأموية، فأسند هذه المهمة إلى محمد بن القاسم وكان دون العشرين من عمره. وجهزه بما يكفل له النجاح من عدة وعتاد، وأمده بستة آلاف جندى من قبائل اليمن فى الشام، بالإضافة إلى ما كان معه من الجنود، فأصبح تحت قيادته نحو عشرين ألفًا فى تقدير بعض المؤرخين. اتخذ «محمد بن القاسم» من مقاطعة «مكران» - بلوشستان - قاعدة للفتح ونقطة انطلاق، فقسم جيشه نصفين،

1 ـ د. سعد محمد حذيفة الغامدى ـ الفتح الإسلامى لبلادوادى السند ص35.

أحدهما برى والآخر بحرى، ثم تحرك قاصداً مدينة «الديبل» ـ وهى تقع قريبًا من «كراتشى» الحالية فى «باكستان» ـ ، وفتح فى طريقه إليها «فنزبول»، و «أرمائيل»، ثم وافته السفن التى كانت تحمل الرجال والعتاد، فحاصر «الديبل» واستولى عليها بعد قتال دام ثلاثة أيام، وترك فيها حامية من أربعة آلاف رجل، وبنى لهم مسجداً. وكان لفتح المسلمين مدينة «الديبل» أثر كبير على أهل «السند»، فسارعوا يطلبون الصلح فصالحهم «محمد بن القاسم» ورفق بهم، ثم سار إلى «نيرون» ـ «حيدر آباد السند» حاليا ـ فتلقاه أهلها وصالحوه كذلك، وكان لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحًا أو عنوة، وتوج ذلك كله بالانتصار على «داهر» ملك «السند»، ومضى يستكمل فتحه، فاستولى على حصن «راود»، ثم «برهمان آباد»، و «الرو» و «بهرور»، ثم اجتاز نهر «بياس» وعبر إلى إقليم «الملتان»، فاستولى عليه بعد قتال شديد، وغنم كميات كبيرة من الذهب.

معركة «الراور Rawar»: حددت هذه المعركة مصير أراضى السند وغيرت مجرى حياة أهله من جميع النواحى وكانت قد جرت بالقرب من مدينة «الراور» الواقعة فى المسافة بين «برهمان آباد» و«نيرون» وبما أن تجمع قوات «داهر» كانت إلى الشرق من نهر «مهران» وهو السند حاليا، وكان لابد لجيوش المسلمين من العبور إليهم وفى هذا مجازفة كبيرة وخطورة على حياة المسلمين ومصيرهم فى أرض السند بأسرها حيث كان «داهر» قد أعد لهم كمائن على جانب الوادى من الشرق ليتخطفوا المسلمين فرادى وجماعات اثناء العبور ولكن الله سلم فقد كان لسياسة القائد وتخطيطه السليم ومانمت عنه نتائج العبور من حنكة عسكرية ومواهب قيادية نادرة الانتصار الحاسم على قوة «الهندوس». ولم تكن معركة «الراور» بأقل من معركة القادسية ضراوة وبسالة من جانب الخصمين المتحاربين من ناحية ولا من حيث النتائج التى تمخضت عنها المعركة من ناحية ثانية، فقد فتحت الباب على مصراعيه لفتح بلاد السند ودخول أهلها إلى الإسلام. فقد بسطت «الراور» بقيادة ابن القاسم بلاد السند (باكستان حاليا) ممهدة أمام الفتح الإسلامى

حـتى وصلت قواته إلى حدود «كشـمير». وبعد أن أخضـعت مدينة «الراور» سار ابن القـاسم باتجاه «بـرهمان آبـاد» وقام بتـعيين ابن لـلملك «داهـر» اسمه «نوبة» وكذلك وزيره «سـيساكر» وجعل مـحمد مقرى فى مـدينة «دهليلا». وعين الأول حاكما والثـانى وزيراً، وبعد فتح «برهـمان آباد» كان لابد من السـير شمالا لفتح عاصمة الهندوس الكبرى «الور Alor» وبعد حصارها استسلمت العاصمة ودخلها المسـلمون وبعدها اتجه القائـد ابن القاسم صوب عاصمة السـند العالية وهى مدينة «الملتـان» وضرب حصاراً حول قلـعتها المنيعـة لأكثر من شهرين دون الوصول إلى الـنيل منها حيث لقى المسلمون الأمرّين وعانـوا أشد المعاناة وأقساها وبعدها تمكن المسلمون من فتح المدينة ودخولها ثم توجه إلى الشمال الشرقى من مدينة «لاهور» الحالية[1]. وبيـنما يواصل «مـحمد بن القـاسم» فتوحاته؛ إذ جـاءته الأخبار بوفاة «الحجاج» سنده وعونه فى الفتح، فاغـتم لذلك غمّا شديداً، لكنه واصل فتوحاته حتى أتم فـتح بلاد «الـسنـد»، وجاءته قـبائل «المـيد» و«الجـات» و«الزط» تـقرع الأجـراس فرحة هـاتفة، مـرحبـة به، لأنهم عدُّوه مـحرّرهم من ظلم الـهندوس واسـتعبادهم. وفى هـذه الأثناء مـات الخليفـة «الوليد بن عـبدالملك» عام (96هـ الموافق 714م)، وتولى أخوه «سـليمان بن عبدالمـلك» منصب الخلافة، فعين على «الـعراق» «صالح بن عبدالرحمن»، وكان واحـداً من ألد خصوم «الحجاج»، فقرر الانتـقام منه على الرغم من وفاته عام (95هـ الموافق 713م) فى شخص ابن عمه «محمد بن القاسم»، فـعزله عن قيادة الجيش، ولم يكتف بذلك، بل أمر بالقبض علـيه وأمر بـأن يرسل إلى الـعراق مـكـبلا فى الأغلال ووضعه فى الـسجن مع خصـومه، وظل يعذبه حـتى مات. ومن العجـيب أن هذا البطل الـذى قتله أهله وعشيرته حزن عـليه أهل «السند» الـذين فتح بلادهم، لما رأوا فى عهده من عدل وسماحة وحرية، وصنعوا له التماثيل كما يروى «البلاذرى»[2].

---

1 ـ د. سعد محمد حذيفة الغامدى ـ المرجع الـسابق ص49.

2 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص30 ـ 33.

حلت تلك المأساة بفاتح السند، وكان عزل ابن القاسم من قيادة تلك الجبهة وهى فى ريعان شبابه لم يتجاوز العشرين قد أفقد المسلمين عامة وأسرة بنى أمية وعلى رأسهم حاكمها سلمان بن عبدالملك الذى عزله خاصة الشيء الكثير، فقد أضاع سليمان ما عمله ابن القاسم بعزله عن تلك الجبهة التى كانت من جبهات الجهاد فى سبيل نشر الدين الإسلامى وأضاع معه ثغر بلاد الهند والسند. لقد كان ابن القاسم قائداً صدق الله الجهاد فى سبيله فصدقه الله ووعده بالنصر، كان متميزاً فى خلقه وفى تعامله مع سكان المناطق المفتوحة وفى حنكته السياسية وفى إدارته الفذة وفى عسكريته النابغة، وفوق ذلك كله فى إخلاصه لمعتقده، أحب الناس الذين حوله فأحبوه وأخلصوا له، احترم سكان باكستان غاية الاحترام فأعطى كل ذى حق حقه وزيادة، فوفوا له وأخلصوا فى وفائهم له وبذلوا دماءهم دونه مقاتلين بين قومهم وأهليهم دونه، وإن الزائر إلى باكستان التى فتحها ابن القاسم فلا يذكرون اسمه مجردا بل يسبقونه بـ: سيدى أو مولاى عماد الدين محمد بن القاسم وتسمع على شفاة سكان باكستان ذكرى ابن القاسم الطيبة تعيش معهم يوميا فرحم الله ذلك المجاهد رحمة واسعة[1].

انتشار الإسلام فى المغرب العربى: وكانت هذه السياسة العربية عظيمة الأثر فى تاريخ البلاد، فقد حطمت الحواجز المصطنعة التى فرضها البيزنطيون بين سكان المناطق الداخلية والساحلية، وأدى ذلك إلى نهوض الشعب المغرب العربى فى المغرب وأخذه بأسباب الحضارة الإسلامية، ولم تعد البلاد شريطا ساحليا يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين، إنما أصبحت بلدة واحدة يسكنها شعب قوى متحضر. ولعل أهم هذه النتائج جميعها هى انتشار الإسلام فى البلاد بأسرع مما انتشر فى غيره من البلاد. فقد كان الإسلام فى هذه البلاد أكثر نجاحا وأسرع انتشارا، أسرع من انتشاره فى مصر رغم سهولة فتحها. فما كاد القرن الثانى

1 ـ د. سعد محمد حذيفة الغامدى ـ المرجع السابق ص51.

الهجرى يؤذن بالانتهاء حتى كان الإسلام قد استقر فى بلاد المغرب العربى، دخل المغاربة فيه واندمجوا فى الحياة الإسلامية، واكتسبت ثقافتهم الصبغة العربية الواضحة. ولعل ذلك يرجع إلى ظروف البلاد نفسها وإلى طبيعة المسيحية فيها وإلى طبيعة البلاد نفسها وطبيعة أهلها ثم إلى سياسة الدولة الأموية التى أتمت الفتح وأدخلت البلاد فى نطاق الدولة الإسلامية. وأن المسيحية لم تكن تتجاوز المدن الساحلية، لسبب واضح هو أن النفوذ الرومانى والبيزنطى لم يكن يتجاوز هذا النطاق. ظل النطاق الداخلى خارجا عن النفوذ البيزنطى من ناحية وخارجا عن نفوذ الكنيسة من ناحية اخرى. ولا ننكر أن بعض التأثيرات قد نفذت إلى بعض هذه النواحى الداخلية، غير أن السير توماس أرنولد يشك فى امتدادها إلى قبائل عرب البربر فى المناطق الداخلية لسبب واضح فى مخيلته هو أن هذه القبائل البدوية العربية البربرية لم تتشرب الحضارة المسيحية الرومانية، وكانت تقف من الدولة البيزنطية موقف العداء الصريح، وأنها كانت لاتفتأ تهدد مناطق النفوذ البيزنطى بالإغارات المستمرة[1].

فإذا كان هذا هو حال برقة وطرابلس وتونس والجزائر فما بالنا بالمغرب الأقصى بشعابه الجبلية وهضابه وطبيعته المعقدة. كانت الكثرة الكثيرة من أهل هذه المناطق الداخلية على الوثنية. وكذلك شأن غالبية عرب البربر فى المغرب. وهذه المسيحية محدودة الانتشار فى المغرب العربى كانت قد ضعف سلطانها بالتدريج فى أغلب المناطق التى كانت قد استقرت فيها، ففى برقة مثلا كادت تتلاشى قبيل الفتح الإسلامى، وقد نال من الكنيسة الرومانية ما لقيته فى ظل الوندال الآرايين قرابة قرن من الزمان اضطهدوا الأرثوذكس اضطهادا عنيفا وشردوا أساقفتهم وحرموا عليهم الجهر بإقامة شعائر الدين وأمعنوا فى تعذيب من أبى أن يدخل فى مذهبهم فلما عادت هذه البلاد إلى الدولة الرومانية وعقد مجمع قرطاجنة لم يحضره إلا نحو مائتان وسبعة عشر اسقفا، بعد أن كانت كنيسة إفريقية من أغنى الكنائس بالأساقفة والقسيسين. ولم تستطع المسيحية فى المغرب العربى ـ وهذا

---

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ نفس المرجع ص75.

حالها ـ أن تقف من المد الإسلامى وقفة على الأقل تدانى وقفة المسيحية فى مصر. فقد ناضلت كنيسة مصر البيزنطية واحتفظت برمقها على حين نجد كنيسة المغرب رغم تسامح العرب قد تلاشت تدريجيا، ففى عام 1053م مثلا لم يمثل هذه الكنيسة إلا خمسة أساقفة ثم ازدادت ضعفا خلال القرنين التاليين، وفى عام 1246م لم يبق إلا أسقف مراكش الزعيم الروحى الوحيد الذى كان يشرف على ما بقى من هذه الكنيسة القديمة، ثم اختفت تدريجيا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولم يبق من ذكراها إلا أطلال الكنائس المنتشرة فى هذا السهل الفسيح. وما دام المغاربة كان إقبالهم على المسيحية الرومانية والبيزنطية على هذا النحو الضئيل فمن الطبيعى أنهم لم يناضلوا من أجلها، ولم تستطع عقائدهم البدائية أن تنافس الإسلام، بل دخل فى هذا الدين من كان قد دخل فى المسيحية، وكان ضعف المسيحية على هذا النحو ثم قلة مقاومتها من الأسباب التى مكنت للإسلام أن ينتشر ومكنته من أن يعم البلاد كلها. وهناك حقيقة أخرى تفسر هذا الانتشار السريع، الذى صادفه فى بلاد المغرب العربى أبلغ من ضعف المسيحية نفسها، وهى أن أهل البلاد الأصليين كانوا فريقين: فريق ينزل السهل الساحلى الذى يقع بين الجبال والبحر، ثم ينتشر على طول الجبال الممتدة من الشرق إلى الغرب فى السفوح المزروعة والنواحى الخصبة المحيطة بجبال أوراس، ويمعنون انتشارا حتى مدينة طنجة، وهذا الفريق من عرب البربر يسمى فريق البرانس.

أما فى الجنوب حيث نشاهد سلسلة من الوديان العالية والهضاب المرتفعة والبيئات الرعوية أو شبه الرعوية التى تمتد امتدادا متصلا من طرابلس إلى المغرب الأقصى، فقد نزلت طائفة من القبائل البدوية العربية البربرية الكبرى، هذا الفريق البدوى العربى البربرى من سكان المغرب يسمى فريق «البتْر». كان المستقرون أكثر إقبالا على الحضارة الرومانية وأكثر تشربا لها وأوفر دخولا فى المسيحية، فكانوا بحكم تعلقهم بها أشد مقاومة للعرب وأبطأ دخولا فى الإسلام، بل كانوا هم عصب المقاومة للزحف العربى. أما البدو سكان المناطق الداخلية البعيدون عن نفوذ الاحتلال المسيحى الرومانى والبعيدون بالتالى عن تأثير المسيحية فقد كانوا أكثر عداء للرومان المحتل متمسكين بدينهم القديم.

وهؤلاء النـاس رأوا الفتح العربى يـقرر مصير المـغرب، فألقوا بـثقلهم معه وأيدوه من أول الأمـر. بل كانوا عدة العرب فى زحفـهم وطليعة جندهم. دلوهم علىٰ عـورات البلاد، وأعانـوهم فى نضالهم مع الـرومان، وأشهـر من أيد الفتح العربى من هذه القبائل البدويـة العربية البربرية قبيلـة لواتة ونفزاوة ونفوسة وقبيلة زناتة. وما دام هؤلاء قد أيدوا الـفتح العربى منذ البداية فـقد كانوا أسرع استجابة للإسلام ودخولا فيه. بدأ الإسلام يـنتشر بين هذه القبـائل من عرب البربر دفعهم إليه عداوتهم للروم المسيحيين المحتلين. ولم تستطع عقيدتهم الوثنية أن تصمد أمام الدين الإسلامى الوافد فى قوته وعنفـوانه. ولما انهارت المقاومة الـبيزنطية وانبسط الـنفوذ العربى عـلى البلاد كلهـا لم يشأ الفريق الآخـر من أهل المغرب العربى أن يتخلف عن الركب فبدأوا ـ بدورهم ـ يدخلون فى الإسلام أسوة بمن دخل فيه من البـدو عرب البربر. وثمة أسـباب تفسر سرعة انـتشار الإسلام فى المغرب، سرعة تقـبل الناس له وهو أن بعض هؤلاء الـعرب اتخذوا سياسـة كانت بعيدة الأثر فى انتشار الإسلام وفى إقبال أهل المغرب عليه. وهذا حسان بن النعمان محرر المغرب الـعربى من الاحتلال المـسيحى الأوروبى مـنح عرب البـربر الذين يـؤيدون الفتح ويؤازرونه حق المساواة الكـاملة مع العرب أو حق الرعوية العربية الكاملة. ووضـح أمام عـرب البربـر ما ينـطوى علـيه الإسلام من مساواة بـالفاتحـين العرب، ومن مكـاسب مادية ومعـنوية فيـكونون عدة الـعرب فى زحفهم المـقبل صوب المغرب الأقصى مع ما يتضح من هذا الـزحف من مغنم ومكاسب مـادية وفيرة. وتتضح سياسـة حسان هذه من روايـة المالكى. وهى تـهدف إلى إشراك عـرب البربر فى جيش الفتح، ومعنى هذا منحـهم حقهم المشروع من العطاء. ثم إذا به يسوى بين العرب القادمين والعرب المـقيمين من البربر فى الحرب ومـغانمها، لم يعتبر العرب حكامـا والبربر محكومين، إنما ساوى بـينهم فى الحقوق والواجبات وفى الاشتراك فى الحرب[1].

فهذا يخالف ما ألفوه من سياسة الاستعمار المسيحى الرومانى حيث إن أهل المغرب الـعربى مهما بلغت ثقافتهم ومكانـتهم من موالى الرومان لهم المرتبة الثانية

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص78.

فى المجتمع فإذا بهم اليوم يظفرون بالمساواة المطلقة. بل أمعن حسان فى سياسة التهدئة والترضى هذه فاعتبر المغرب العربى مفتوحا صلحا لا عنوة، وأقر عرب البربر على ما بيدهم من الأرض. إذن مخالفة العرب لا تفقدهم أرضهم ولا مراتبهم المادية. بل اتخذ حسان هنا سياسة كان لها أثر نفسى بعيد المدى فى دفع عرب البربر نحو الإسلام؛ ذلك أنه ميز عرب البربر على سائر أهل المغرب فاعتبر الروم الأفارقة من موالى العرب لايتساوون مع البربر لو أسلموا، واعتبروا الأرض التى كانت للروم مفتوحة عنوة فاستحلها العرب واعتبروا أهلها ومن وجدوه عليها موالى لهم يتصرفون فى شئونهم كما يريدون. فوجد عرب البربر الذين استبعدوا بالأمس أنفسهم أرفع شأنا من سادة الأمس الأفارقة والروم. وكانت النتيجة الملموسة لهذه السياسة هى اختفاء العنصر المسيحى الرومى واللاتينى من البلاد شيئا فشيئا، حتى انعدمت آثارهم من البلاد تقريبا، واختفت تبعا لذلك اللغات اليونانية واللاتينية والفينيقية التى كان يستعملها هؤلاء الروم والأفارقة، وأدت هذه السياسة إلى نهوض الشعب المغربى وأخذه بأسباب الحضارة الإسلامية. وامتدت سياسة التهدئة من تونس والجزائر إلى المغرب الأقصى على يد موسى بن نصير الذى تابع سياسة حسان فى المغرب الأقصى، فلم يكن قائدا فحسب إنما كان مصلحا وسياسيا فى نفس الوقت، قرب إليه عرب البربر وحببهم فى الحكومة الجديدة فولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب فى إدارة البلاد، فوجدوا أن انضمامهم للعرب ومحالفتهم قد يستمر عن مكاسب مادية جمة، فبدأوا يقبلون على الإسلام إقبالا عظيما. وكان نشر الإسلام يسير مع الفتح جنبا إلى جنب، لأن موسى أحب ألا يكون إسلام عرب البربر خوفا أو رهبة بل اقتناعا وحبا، فأخذ يفقههم فى الدين فينشئ المساجد فى البلاد التى فتحها، حتى لقد أنشأ مسجدا فى أغمات هيلانه فى أقصى بلاد المغرب. ونجحت سياسة موسى نجاحا بعيدا، فأصبح المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله طوع يمينه، وكما أشرك حسان عرب بربر المغرب فى جيش العرب كذلك فعل موسى أشرك عرب بربر المغرب الأقصى فى فتح الأندلس، وانضمت إليه جماعات البربر طمعا فى الغنم أو حبا فى الجهاد.

وحركة فتح إسبانيا كانت عظيمة الأثر فى انتشار الإسلام بن عرب البربر فقد كان هذا النصر السريع، الذى أحرزه العرب حافزا لمن تخلف من عرب البربر المسلمين إلى عبور البحر للاشتراك فى الحرب والمساهمة فى الغنم الوفير، ثم دافعا لمن بقى على دينه إلى الدخول فى الإسلام، حتى يتاح له الالتحاق بجند المسلمين، لذلك كان فتح إسبانيا معجلا بإسلام عرب البربر، فقد حاربوا مع العرب جنبا إلى جنب واحتكوا بهم وخالطوهم وأفادوا منهم فى الدين والثقافة.

ولم يتفرد الولاة بالاهتمام بأمور المغرب العربى على هذا النحو بل اهتم به الخلفاء، وكان اهتمامهم متمما لأعمال الولاة ودافعا للحركة الإسلامية إلى الأمام خصوصا الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذى كان يريد أن يزيد الإسلام انتشارا فى المغرب العربى وأن يثبته فى قلوب من دخل فيه حديثا. ولتحقيق هذا الغرض نراه يولى إسماعيل بن عبيد الله عام 100 هـ، ليدعو من بقى من عرب البربر إلى دين الإسلام، ولم يكن إسماعيل هذا عاملا على المغرب العربى فحسب بل داعية إلى الإسلام بالدعوة السلمية والحجة والإقناع، والمؤرخون يردون إليه الفضل فى إتمام ما بدأه أسلافه وفى تثبيت العقيدة فى نفوس مسلمى البربر. وأتبع عمر بن عبدالعزيز هذا بإرسال التابعين الذين انتشروا بين عرب البربر وأخذوا يعلمونهم أصول الدين ويرسون قواعده وأصوله، وأقام كثيرون منهم فى مدينة القيروان أو غيرها من المدن المغربية، وأقاموا المساجد وجعلوها مدارس للإسلام يقصدها عرب البربر من كافة أقاليمهم، وقد أخذ عن هؤلاء التابعين كثيرون من أهل البلاد، فإذا تعلم فريق من أهل البلاد الأصليين وقضوا بعض الوقت فى الدراسة فى القيروان عادوا إلى بلادهم لمتابعة الرسالة فيتولون وظائف الإمامة والقضاء ويعملون بدورهم على نشر الإسلام وثقافته العربية. ويمكننا أن نقول فى اطمئنان أن القرن الثانى للهجرة أظل بلاد المغرب، وقد أضحى قطرا إسلاميا ينفعل مع التفكير الإسلامى الذى شاع فى العصر الأموى، فإذا بالفرق الدينية التى ظهرت فى ذلك العصر مثل

الشيعة أو الخوارج تنتقل هى الأخرى إلى المغرب العربى بفرار بعض الدعاة حيث تصادف دعوتهم مرعى خصيبا بين القبائل وكان ظهور حركات الخوارج سريعا فى المغرب العربى واندلعت نيران ثورتهم عام 122هـ الموافق 739م. وهذا يدل على تفاعل عرب البربر كاملا مع الحياة الإسلامية، بل كان دعاة الشيعة وثوار الخوارج عاملا هاما فى نشر الإسلام بين أهل البلاد.[1]

توقف الفتوح (وبدء الاضمحلال)

إذا رجعنا إلى المؤرخين مثل المسعودى نرى أن يزيد الثانى (ابن عبدالملك 105 ـ 110هـ/ 720 ـ 724م) لم يشغف إلا بحب الجوارى الجميلات أما عن هشام (ابن عبدالملك 105 ـ 125هـ/ 724 ـ 743م) الذى كان خشنا فظ الطباع فإنه ضرب مثلا ـ قلده فيه من كان يحيط به من رجال حاشيته ـ من قسوة القلب وشدة البخل، وأما الوليد الثانى (ابن يزيد بن عبدالملك 125هـ/ 744م) فإنه أثار سخط الجميع بفجوره ونذالته. فيقال انه اتخذ القرآن هدفا لنباله، وعلى ذلك فإن موته الشنيعة ظهرت للناس كعقاب لهذا الفجور[2].

ورغم المساوئ التى تنسب إليهم، فإن الأسرة عرفت على عهدهم أياما عظيمة، ولو أنها كانت فى الحقيقة آخر الأيام العظيمة: فالاضمحلال كان قريبا. وكان هذا الاضمحلال نتيجة لصعوبات لم يكونوا المسئولين عنها فى كل الأوقات. لقد توقف توسع الإسلام الإقليمى لمدة من الوقت. ففى الغرب عبرت قوات الإسلام المنتصرة جبال البرانس وساحت فى الأرض الكبيرة. ودخلت مدينة نربونة فى عام 96هـ/ 715م، وفى عام (107هـ/ 725م) استسلمت مدينة كركسون (قرقشونة). وفى نفس السنة قامت جماعات الخيالة مصعدة فى وادى الرون وحتى إقليم برجنديا حيث دخلت مدينة «أوتان» وغنمتها. هذا، إلا أن المسلمين كانوا قد

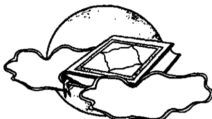
---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص79.
2 ـ سعد زغلول ـ المرجع السابق ص21.

قابلوا مقاومة صعبة فى الميادين المفتوحة، ففى عام 721م انهزموا قرب تولوز (طلوشة) على يدى «يود» دوق اكيتين (قطانيا). وفى أكتوبر عام 732م/ رمضان سنة 114هـ قام والى إسبانيا عبدالرحمن الغافقى بمغامرة بعيدة المدى نحو نهر اللوار (فى مقاطعة اللورين) وقابل شارل مارتل بين مدينتى تور (Tours) وبواتييه (Poitiors) وسقط فى ميدان القتال مع عدد كبير من جنوده فى المكان المسمى ببلاط الشهداء. ففى الغرب إذن بلغ الإسلام أقصى حدود توسعه، وبدأت المسيحية من حينها تقوم برد الفعل. وفى الشرق تحركت المسيحية للعمل أيضا. فحصار القسطنطينية الأخير انتهى بفصل يبعث على الشفقة. وفى نفس هذه السنة التى فشل فيها الحصار (717م/ 99هـ أيام سليمان بن عبدالملك) خرجت الامبراطورية البيزنطية من فترة أزمة طويلة واعتلى عرشها ليون الثالث الأيسورى الذى عرف بنشاطه، وبذلك يتغير توازن القوى إلى صالح بيزنطة، وبعد أن توقف نشاط بيزنطة العسكرى عاودته من جديد فى آسيا الصغرى وفى القوقاز. ففى صيف كل عام كانت تقوم الحملات تؤازرها البحرية فى أغلب الأوقات بالغارات على أراضى آسيا الصغرى الزراعية. ولكن العرب نظموا الدفاع عن هذه التخوم من الجهة الإسلامية (بالعواصم) إلا أنه فى عام (122هـ الموافق 740م) لقى ابن الخليفة هشام الذى كان قد توغل فى الأراضى البيزنطية (وهو معاوية والد عبدالرحن الداخل) هزيمة مروعة، إذ تشتتت مقدمة جيشه المكونة من 20 ألف رجل قرب مدينة (أفيون قارة حصار). هذه الكارثة أثبتت فشل تحقيق أطماع الأمويين فى التوسع من هذه الجهة، على الأقل على حساب بيزنطة.

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص25.

الفصل الرابع



الحياة الإدارية

- الإدارة الأموية.
- الأقسام الإدارية وموقعها وما تشتمل عليها.
  - الحجاز - اليمن - العراق - الجزيرة - الشام - مصر - إسبانيا
- الولاة فى العصر الأموى
  - الخلافة والوزارة
  - الدواوين
  - القضاء
  - الشرطة

الإدارة الأموية:

اتخذ معاوية مدينة دمشق مركزاً للخلافة الأموية، وحاط نفسه بأبهة الملوك وجلالهم، فأقام فى قصر الخضراء لصق الجامع، وجعل لنفسه سريراً على نحو ما كان لأباطرة الروم. وكان معاوية مجدداً فى نظم الحكم والإدارة، فعلى الرغم من إبقائه على النظام الإدارى القديم وعلى النظام النقدى المتبع فى عصر الخلافة الراشدة فإنه أول من اصطنع الموالى والنصارى فى المناصب، فكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومى، وعلى حرسه رجل من الموالى يقال له المختار وقيل أبو المخارق مالك وكان طبيبه بن أثال نصرانيًا ولاه على خراج حمص، واقتدى عماله على الأمصار به، فكان زياد بن أبيه أول من دون الدواوين ووضع النسخ للكتب، وأفرد كتاب الرسائل من العرب والموالى المتفصحين، وكان يقول: ينبغى أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج. ومعاوية أيضًا أول من وضع البريد فى الإسلام، تسهيلا لوصول أخبار الأقاليم إليه سريعًا، وأول من اتخذ ديوان الخاتم وولاه عبيدالله بن أوس الغسانى، وقيل ولاه عبدالله ابن محصن الحميرى، وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم وكتب له بذلك زياد، ففتح عمرو الكتاب، وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه، فقضاها عنه أخوه عبدالله بن الزبير، وعندئذ أنشأ معاوية ديوان الخاتم وحزم الكتب، ولم تكن تحزم من قبل. ومعاوية أيضًا أول من أذن فى تجريد الكعبة، وكانت كسوتها قبل ذلك تطرح عليها الكسوة فوق الأخرى، وهو أول من اتخذ الحرس، وأول من كانت له الصوافى فى جميع أقاليم الدولة الإسلامية، وهى الأموال التى كان يستصفيها لنفسه من جميع الولايات بعد استقطاع العطايا، ومن هذه الأموال أو الصفايا كانت صلاته وجوائزه. ومعاوية هو أول من أدخل المقصورة فى المسجد، وكان يدخلها عن طريق سرداب يصل بين قصر الخضراء والمقصورة، وكان لايدخل هذه المقصورة إلا ثقاته وحراسه. كذلك استحدثت المئذنة فى عهد معاوية وأصبحت عنصراً معماريًا من عناصر الجامع، ولم تكن كذلك فى مساجد الإسلام حتى ذلك الحين، وكان القوم يستخدمون الناقوس بجامع عمرو بن العاص وقت صلاة الفجر حتى سنة

53هـ (673م) فأمر معاوية مسلمة بن مخلد الأنصارى واليه على مصر بأن يبنى صوامع للأذان، فبنى مسلمة أربعة صوامع فى أركان جامع عمرو، وانتشرت الصوامع فى مساجد الإسلام بعد ذلك، وفى ذلك تقليد لصوامع كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق التى كانت تقوم فى الأركان على شكل أبراج مربعة الشكل. وذكر البلاذرى أن معاوية أراد أن يزيد كنيسة يوحنا بدمشق، فأبى النصارى ذلك، وعدل عن مشروعه. أما فيما يتعلق بالمبانى الحربية، فقد أبدى معاوية نشاطًا كبيرًا فى ترميم الحصون الساحلية، فرمم حصون عكا عندما أبحر منها إلى قبرص، كما رسم حصون صور، وأنشأ جبلة وكانت حصنا للروم عنه عندما فتح المسلمون حمص، وشحنها بالمرابطة، وأنشأ لجبلة حصنًا هارجًا من الحصن البيزنطى القديم، كذلك حصن أنطرطوس وكان حصنًا جلا عنه أهله، فبناها معاوية وأقطع بها القطائع، وكذلك فعل بمرقية وبلنياس. ولم يكتف بما قام به من منشآت دفاعية بقصد تأمين السواحل من خطر الغارات البيزنطية، فقد عمل على إعادة استيطان المدن التى خرج عنها البيزنطيون بعد الفتوحات الإسلامية، فنقل إلى أنطاكية فى عام 42هـ الموافق 662م جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصرين البصرة والكوفة، ونقل إلى سواحل الأردن قومًا من فرس بعلبك وحمص، فاستقروا فى صور وعكا فى عام 42هـ كما نقل فى سنتى 49 ـ 50هـ الموافق 669 ـ 670م إلى السواحل قومًا من البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكية[1] وفى عهد معاوية اتسعت الدولة الإسلامية، فاستولى المسلمون فى أواسط آسيا على هراة وكابل، كذلك غزا عبدالله بن سوار العبدى بلاد السند مما يلى خراسان عام 43هـ الموافق 663م، فغزا القيقان، وواصل المهلب بن أبى صفرة من بعده غزو السند عام 44هـ، وهاجم الإقليم الممتد ما بين الملتان وكابل.

شهدت بداية القرن الثامن الميلادى (الأول الهجرى) ذروة المجد التى بلغتها الخلافة الأموية، فالوليد (86 ـ 96/ 705 ـ 715) وسليمان (96 ـ 99/ 715 ـ 717)، وعمر بن عبد العزيز (99 ـ 101/ 717 ـ 720) شادوا أوسع دولة إسلامية

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص619.

عرفها التاريخ. هذا، ولو أنه ليست هناك دلائل على أن هؤلاء الخلفاء كان لهم فضل كبير فى اتساع الدولة. إذ أن نجاح عمالهم فى الأقطار البعيدة لم يكن - حسب ما يظهر - نتيجة لأعمالهم الشخصية.

كان الكتّاب يصفون الوليد كحاكم مستبد. ظالم، وسليمان كشَرِه أكُول، ولم يسلم من كل الأمويين تقريبا من تعريض هؤلاء الكتاب سوى عمر بن عبدالعزيز. فهو فى نظرهم قديس هذه الأسرة: فهم يعترفون له بأنه أمر بمنع لعنة الإمام علىّ عليه السلام على المنابر، كما كانت العادة فى عهود من سبقوه. هذه السياسة الجديدة غير المعادية لعلى والشيعة كانت كافية لأن تحقق مزايا كبيرة لعمر بن عبدالعزيز كخليفة: فهو نموذج للورع والعدل والحكمة (العقل) والتواضع. وارتقاؤه لعرش الخلافة إنما هو فجر سيادة الفضيلة، فهو يغير موظفى الحكومة ويعزل كل العمال الذين اعترف بهم أسلافه من الأمويين، ويضع مكانهم أنزه ما وجد من الرجال فى ذلك الحين. هؤلاء الأخيرون سلكوا مسلكا مشابها لمسلك الخليفة. والحقيقة أن معاونى الأسرة الأموية من كبار العمال لم يعملوا دائما على أن يحب الشعب أميره فحكم الحجاج فى العراق غرس بغض الشاميين فى هذه البلاد، هذا، ولو أن شدته التى لا تعرف الرحمة أنقذت وحدة الدولة[1].

تعنى الحضارة عند بعض الباحثين كل نشاط إنسانى فى الحياة، سواء أكان فكريًا يتمثل فى العلوم والفنون والآداب، وما ينتج عن ذلك من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية، ومن عادات وتقاليد وأخلاق. . . ، أم كان ماديًا ملموسًا، يتمثل فى البناء والتشييد والعمران، كبناء المدن والقرى وتخطيطهما، والتأنق فى بناء المساكن والمساجد، ودور التعليم والقلاع والحصون، كما تتمثل فى العناية بالأوضاع الاقتصادية للبلاد، كبناء السدود والخزانات لتخزين المياه واستخدامها فى الزراعة والصناعة، أو فى تعبيد الطرق وإقامة المصانع. وقد عرفت الحضارة الإسلامية فى العصر الأموى كل هذه الأنشطة، وهى وإن اشتركت مع غيرها من الحضارات الإنسانية فى بعض السمات، فإنها تتميز عنها بسمات خاصة

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص69.

بها؛ لأن الإسلام هو الذى أنشأها ورعاها وتمثلت فيها قيمه ومبادئه وسماحته ورحمته وآدابه. وهى كغيرها من الحضارات البشرية أخذت وأعطت وتعلمت من غيرها، وعلمت غيرها، وانفتحت على الحضارات كلها بما فيها من ثقافات وأفكار، شعارها: الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها. ولقد قامت الحضارة الإسلامية على دعامتين أساسيتين[1]:

* الدعامة الأولى:

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكان تأثيرهما فى نشوء الحضارة الإسلامية وارتقائها وتألقها من وجهين: - الأول: حثهما على العلم والتعلم والتفكر فى الكون وأسراره، وتسخيره لمنفعة الإنسان، وعدهما طلب العلم فريضة على كل مسلم، ودعوتهما إلى رفع شأن العلم والعلماء، والشواهد على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كثيرة، من ذلك:

قوله الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9] وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11] وقوله تعالى فى أول مانزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: 1 - 4] وقوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» [ابن ماجة] وقوله ﷺ أيضًا: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة» [رواه الحاكم] - الوجه الآخر: يتمثل فى العلوم الكثيرة التى انبثقت من القرآن والسنة كالتفسير وعلوم القرآن، والفقه والأصول، والحديث وعلومه، والمغازى والسير والتاريخ، واللغة العربية وآدابها وغير ذلك.

* الدعامة الثانية:

وهى دعامة لاينكر دورها فى ازدهار الحضارة الإسلامية، وتتمثل فى التراث

---

1 - د. عبدالعزيز محمد عبداللطيف - المرجع السابق ص61.

الحضارى الهائل، الذى ورثه المسلمون عن الأمم السـابقة فى البلاد التى فتحوها، كتراث الحـضارة الإغريقـية والفارسيـة والهندية والمصرية القديمة وكـان من حسن الطالع أن ذلك التـراث الحضـارى كان مـوجوداً فى المناطق التى شـملتهـا الدولة الأموية، فـحافظت عليه وصـانته من الضيـاع، وهو ما يحسـب للأمويين، فلولا يقظتهم وسـعة أفقهم لـضاع على الإنسانية كـثير من هذه الكنوز الحـضارية، التى أنتجها العقل البشرى فى القرون السابقة لظهور الإسلام، غير أن الاستفادة الكاملة جاءت فى العصر العباسى، حيـث بدأت ترجمة العلوم والفنون إلى اللغة العربية، وصححت أخطاؤها، ثم أضـاف إليها المسلمون من عبـقريتهم الخلاقة مـا شهد به علماء الغرب فى العصر الحديث.

الحكم الإسلامى حكم شورى: ينبغى قبل الدخول فى تفاصيل هذا الموضوع أن نبين مدى ثبـوت النص على الشورى فى المصادر الأصلية للتـشريع الإسلامى: القرآن والـسنة. لاشك أن القرآن الكريم ـ بالنسـبة للإنسـان المسلم ـ حجـة يجب العمل بما ورد فـيه من أحكام. وتتفق آراء المسلمين على أنه قـانون واجب الاتباع حيث إنه أنزل مـن عند الله تعالى ونُقل إليـهم عن ربهم بطريق قطعى لاشك فى صحته. نجد أن فى القرآن نصين واضحين فى آيتين شهيرتين:

أ ـ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران 159].

ب ـ ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى 38].

نجد فى الآية الأولى أمراً إلهـيًا للرسول ﷺ أن يشاور قـومه وذلك لتأليف القلوب وإشاعة المودة بينهم نـتيجة المشاورة وتعويد للمـسلمين على هذا النهج فى معالجة الأمور لأن فى الرسول ﷺ الأسوة الحسنة لهم، فإذا كان يلجأ إلى المشاورة

فهم أولى أن يأخذوا بها. ونجد في الآية الثانية النص على الشورى إحدى الصفات المميزة للمؤمنين، والمذكورة بين صفات أخرى يمتازون بها وواجبه فيهم (الصلاة والزكاة). يلاحظ كذلك أن الشورى كصفة ذكرت مباشرة بعد ذكر الصلاة للتأكيد على ضرورتها. هذا بالنسبة لثبوت النص على الشورى في القرآن. وأما ثبوت النص على الشورى في السنة فنقول ما يأتي: والسنة حجة على جميع المسلمين وأصل من أصول تشريعهم ودليل من الأدلة الشرعية التي يجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها. وهي (السنة) ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير. وتشتمل السنة على نوعين من الأحكام: **الأحكام البيانية** المبينة لما ورد في القرآن الكريم **والأحكام المؤسسة** التي وردت فيما لم يتزل به نص قرآني. أما بالنسبة لمبدأ الشورى فإن السنة الشريفة ليست مؤسسة له ابتداء بل جاءت مثبتة ومؤكدة لما ورد عنه في القرآن الكريم. بالنسبة للسنة الفعلية فلقد حفلت بممارسات الرسول ﷺ للشورى: غزوة بدر وغزوة أحد وغزوة الأحزاب وصلح الحديبية وبيعة الرضوان. أما بالنسبة للسنة القولية فقد روى عن الرسول ﷺ عدة أحاديث يأمر بالشورى على الأخذ بها ومن تلك: **«ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم»**. **«ماندم من استشار ولا خاب من استخار»**. **«ما شقي عبد بمشورة وما سعد باستغناء رأي»**. عن الإمام علي بن أبي طالب قال: سئل رسول الله ﷺ عن العزم فقال: **«مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم»**.

هل الشورى واجبة؟ بعد هذا كله لابد من البحث في مدى وجوب الشورى على ولي الأمر، أي هل يكون اللجوء إلى الشورى أمرا واجبا (فرضا) أم هو مندوب فحسب، فإذا كانت الشورى أمرا واجبا (فرضا) كان ولي الأمر ملزما أن يأخذ بها حيث إنه يرتكب إثما بتركها. أما إذا كانت مندوبة فإن لجوء ولي الأمر إليها يكون اختياريا لايأثم بتركها ولا يخطئ. في هذه القضية نجد أمامنا رأيين: رأي يقول بأن الأمر بالشورى للندب والثاني يقول بأنه للوجوب وسنعرض حجج كل رأي منهما ونبين ما نراه أقرب إلى الترجيح. يستند القائلون بأن الشورى

مندوبة إلى أن الرسول ﷺ إنما أمر بها تطييبًا لقلوب من اتبعه من المسلمين وتألفا لهم على دينهم وليـروا أنه يسمع منهم ويستعين بهم وإن كان الله عـز وجل قد أغناه بتدبيره له أموره وسياسته إياه وتقويمه أسبابه عنهم وقد ذهب إلى هذا الرأى من اعتبار الشورى مندوبة لا واجبة الإمام الشافعى رضى الله عنه حيث ورد عنه أن الأمر بالشورى هو للندب تطييبًا للقلوب. الرأى الثانى الذى يقول أصحابه إن الشورى واجبة لا مندوبة وهو فى رأينا الرأى الراجح يستند إلى الحجج والأدلة الآتية: [1]

لقد أمر الله تعالى بالشورى فى قوله سبحانه «وشاورهم فى الأمر» والأصل فى الأمر كما هو مقرر عند جمهور العلماء يكون للوجوب ما دام أمرا مطلقا غير مقيد ويؤكد وجوب الشـورى أيضا قوله تعالى فى سورة الشورى «وأمرهم شورى بينهم» بيانا لأوصاف الجماعة الإسلامية وخصائصها وفيه تقترن الشورى وهى عماد الدنيا بالصلاة عماد الدين كما تجيء واسطة العقد فى نظام الجماعة الإسلامية القائم على الإيمان بالله والتوكل عليه والاستجابة لأحكامه واجتناب الكبائر وإقامة الشعائر الإسلامية والاعتماد على الشورى والإنفاق فى سبيل الله ومصلحة الجماعة ورد اعتداء الباغين بمثله، ونحن إذا نظرنا فى كل ذلك لانجد فى الآية إلا واجبات مفروضة وملزمة للمسلمين. إذا كان بعض العلماء يذهب فى تفسير قوله تعالى «وشاورهم فى الأمر» إلى أن مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه إنما كانت تطييبًا لخواطرهم وتأليفا لقلوبهم لا للعمل بها ووجوبها نظرا لعدم حاجة الرسول ﷺ إلى الشورى والوحى يرعاه ويسدد رأيه وخطاه فإن هذا ليس معناه تعميم الحكم بالنسبة لغيره من الحكام لوجود الفارق الجوهرى بينه عليه السلام كنبى يوحى إليه وبين غيره من الحكام. ولذلك نجد الفقيه الحنفى الجصاص يقول إنه غير جائز أن يكون الأمر بالمشاورة على جهة تطييب نفوس الصحابة ورفع أقدارهم، كما يذكر بعض الفقهاء، لأنه لو كان معلوما عند المستشارين أنهم إذا استفرغوا جهدهم فى

---

1 ـ د. عبد الله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص78 وانظر د. المليجى ـ مبدأ الشورى فى الإسلام ص100 ـ القرطبى ج2 ص1493.

استنباط حكم ما شاوروا فيه وصواب الرأى فيما سئلوا عنه ثم لم يكن ذلك معمولا به ولا يتلقى بالقبول لم يكن فى ذلك تطييب نفوسهم بل فيه إيحاشهم وإعلامهم بأن آراءهم غير مقبولة ولا معمول بها. ثم إننا نجد أن جمهور الفقهاء والعلماء المحدثين يقولون بأن الشورى واجبة وليست مندوبة. وفى مقدمتهم الإمام محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا والأستاذ عبدالوهاب خلاف. يذكر السيد محمد رشيد رضا تفسيرا لقوله تعالى: «وشاورهم فى الأمر» دل على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب فى غزوة أحد وإن أخطأوا الرأى فيها فإن الخير كل الخير فى تربيتهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأى الرئيس وإن كان صوابا لما فى ذلك من النفع لهم فى مستقبل حكومتهم فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر والخطر على الأمة فى تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر. كما يذهب الأستاذ عبدالقادر عودة هذا المذهب ويؤكد أن الشورى لن يكون لها معنى إذا لم يؤخذ برأى الأكثرية. ولم يكن الخليفة - فى عهد الخلفاء الراشدين - يناقش مسائل الحكم فى جلساته المغلقة والمقصورة على حاشية وبطانة وإنما كانت جلسات الرأى والتشاور مفتوحة عادة، وتعقد فى المسجد ويحضرها من يشاء من المسلمين فيبدى رأيه بحرية وشجاعة لتكون الغلبة فى النهاية لأرجح الآراء المتقابلة، بالنظر لما يقوم عليه كل منها من حجج وأسانيد. طبعا من الضرورى التأكيد هنا أن التشاور كان يقتصر على الأحكام التنفيذية والمسائل التفصيلية التى لم يرد بشأنها نص قاطع فى الكتاب والسنة. وقد احترم الخلفاء الراشدون مبدأ الشورى وطبقوه. فكان الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذا عرضت عليه مسألة بحث عن حكمها فى القرآن، فإن لم يجد بحث فى سنة الرسول ﷺ فإن لم يجد جمع أهل الرأى للتشاور والبت فى القضية. وهكذا فعل الخلفاء عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين. ونظرا لثبوت حق الأمة فى المشاورة ولزومه على رئيس الدولة صرح الفقهاء بأن ترك هذا الحق من قبل رئيس الدولة موجب لعزله فى الإسلام. فقد جاء فى تفسير القرطبى: «قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لايستشير أهل العلم

والدين فعزله واجب» ولكن كيف تتم المشاورة؟ وكيف بالإمكان تنظيم الشورى الواجبة شرعا: نصا وروحا فى هذا العصر؟ الواقع أننا لانجد فى الشريعة نظاما محددا يؤدى إلى ذلك - مثل قضية حق الأمة فى انتخاب رئيس الدولة (الخليفة) - مما يدل على أن تنظيم هذا الأمر متروك لتقدير الأمة. وكما أن الانتخاب المباشر لأهل الحل والعقد (النواب) يجد له سندا فى قوله تعالى: «وأمرهم شورى بينهم»، فإن الانتخاب غير المباشر لرئيس الدولة يجد له سنده فى السوابق التاريخية الثابتة فى عصر الخلفاء الراشدين وهو خير العصور فهما وتطبيقا له. إذن على الدولة فى الإسلام أن تضع النظام اللازم لإجراء الانتخاب لكل من أهل الحل والعقد والخليفة وضرورة تمكين الأمة من ممارسة ذلك وضمان سلامة تلك الممارسة الشرعية، ومثل هذا الأمر ضرورى ولازم لإيجاد أهل الحل والعقد وإثبات وكالتهم عن الأمة بالتوكيل الصريح لأن التوكيل الضمنى - الذى كان يعتمد عليه أيام الخلافة الراشدة - يتعذر حصوله فى الوقت الحاضر. هذه هى بصورة عامة الملامح الأساسية للخلافة الراشدة. وقد أثبتنا النصوص المتعلقة بسياقها التاريخى علها تفيد فى تأكيد تلك الملامح. خلافة تقوم على المراضاة والاختيار دون أى إكراه أو إجبار، يجوز فيها وعليها التنازع بين جميع المسلمين دون احتكارات بيولوجية ووراثية للأمر، يرأسها خليفة مربوط بعقد مع الأمة لا ملك يؤمن بتفويض إلهى كما كان يفعل ملوك أوروبا فى القرون الوسطى، والبيعة العامة هى التى تضفى على الخلافة الشرعية وبغيرها لاتنعقد خلافة، كما أن المال العام ينبغى أن يصرف فى وجوه تحقق الصالح العام، ولا حق للخليفة فى المال العام أكثر من حق أى مسلم فيه، كما أن كل هذا النظام يقوم على الشورى التى بينا معناها ووجوبها الشرعى. بعد كل هذا ننتقل إلى الخلافة غير الراشدة، نتعرف أولا على بعض النصوص التى تعيننا فى فهم سياقها التاريخى ثم نتوصل إلى خلاصة بها. وتجدر هنا الإشارة إلى أننا اكتفينا بنصوص العهد الأموى لأنها - من زاوية دراستنا - لا تختلف بكثير عن نصوص العهد العباسى. وسنجد أنه من خلال هذه النصوص أن خلافتهم هدرت كل المعانى السامية التى قامت عليها الخلافة الراشدة وكيف تحولت

«الخلافة» إلى «ملك» وكيف تحول «الخليفة» إلى «ملك» ككسرى أو قيصر أعداء الدولة الإسلامية[1]. والتى جاء الإسلام لمحاربتهم وإرشادهم إلى عبادة الله وشريعة وأحكام الإسلام.

اتسعت الدولة الإسلامية فى عهد الأموى وامتدت حدودها شرقا من «الصين»، إلى «إسبانيا» غربًا، ومن بحر «قزوين» شمالا إلى «المحيط الهندى» جنوبًا، وأصبحت تتكون الأقاليم من الأقسام الإدارية الآتية:

الأقسام الإدارية وموقعها وماتشتمل عليها:

1 - الحجاز: ويشمل «مكة المكرمة» و«المدينة المنورة» و«الطائف»، وكان الوالى يقيم فى «المدينة». 2 - اليمن: وكانت فى معظم الأحيان ولاية مستقلة، يحكمها وال يعين من قبل الخليفة، وأحيانا أخرى كانت تضاف إلى والى «الحجاز» فيعين عليها واليا من قبله. 3 - العراق: وتشمل حدودها الإدارية كل ولايات الدولة الفارسية القديمة، وأقاليم «ما وراء النهر» و«السند»، وكان الأمويون فى أغلب الأحيان يجعلون «العراق» والشرق الإسلامى كله تحت إدارة وال واحد، يعين من قبله ولاة على بقية الأقاليم، وقد حدث ذلك فى عهد «معاوية بن أبى سفيان»؛ حيث عهد إلى «زياد بن أبى سفيان» بولاية «العراق» والمشرق، وفى عهد «عبدالملك ابن مروان» حيث ولى «الحجاج بن يوسف الثقفى» أمر المشرق كله. 4 - الجزيرة: وتشمل ولايات «الموصل» و«أرمينيا» ، و«أذربيجان». 5 - الشام؛ ولم يكن يعين لها وال؛ حيث كانت هى مقر الخلافة الأموية ، وكان الخليفة يقوم بهذا الدور. 6- مصر: وكان يتبعها «المغرب العربى»، ثم أصبحت ولاية مستقلة تقريبا، منذ تولاها «موسى بن نصير» (85هـ)، وعاصمتها «القيروان». 7 - «إسبانيا»: وكانت فى بداية الفتح الإسلامى لها تتبع ولاية «المغرب العربى»، ثم أصبحت ولاية مستقلة منذ خلافة «عمر بن عبدالعزيز». وكان الخلفاء الأمويون يعينون لكل ولاية

1 - د. عبدالله فهد النفيسى - نفس المرجع ص82 وانظر الحلو، د. ماجد راغب، «الاستفتاء الشعبى بين الأنظمة الوضعية والشريعة الإسلامية». ص110، وهو بحث غير منشور، القرطبى ج4، ص249.

من هذه الولايات واليًا من قبلهم، وهو بدوره يختار مساعديه وأعوانه، وكانوا يحرصون فيمن يقع عليه اختيارهم للإمارة أن يكون من المعروفين بالحزم وحسن السياسة والقدرة الإدارية، وأن يكون من الأسرة الأموية نفسها، أو من أكثر الرجال ولاء وإخلاصًا لها. وتمتع هؤلاء الولاة بسلطات واسعة، مكنتهم من التصرف بما يرونه محققًا لمصالح الدولة والمجتمع، وكانت هذه السياسة التى اتبعها الأمويون مع ولاتهم مختلفة عن سياسة الخلفاء الراشدين. حيث كانت سلطات ولاتهم مقيّدة، وحرصوا على الفصل بين السلطات السياسية والإدارية والعسكرية، وبين السلطات المالية والقضائية، بمعنى أنهم كانوا يعينون إلى جانب الوالى ـ الذى يسمى والى الحرب والصلاة ـ واليًا لبيت المال يسمى صاحب الخراج، وكان مسئولا أمام الخليفة مباشرة، حتى لا تمتد أيدى الولاة إلى أموال الدولة، كما كانوا يعينون القضاة للأقاليم بأنفسهم. أما فى العصر الأموى، فكان الولاة يشرفون غالبًا على الشئون المالية، ولاشك أن أسلوب الخلفاء الراشدين كان أسلم وأقوى حرصًا على المال العام. وإذا شئنا أن نستخدم التعبيرات العصرية فى مجال الإدارة قلنا إن إدارة الخلفاء الراشدين كانت مركزية، وكان ذلك مطلوبًا فى ذلك الوقت؛ حيث كانت الدولة فى مرحلة البناء، وكان الخلفاء الراشدون راغبين فى الاطلاع على كل شىء بأنفسهم، على حين كان طابع الإدارة الأموية لا مركزيًا، نظرًا لاتساع الدولة، وبُعد ما بين الولايات وعاصمة الخلافة فى «دمشق»، ولا يعنى هذا أن الولاة كانوا فى العصر الأموى يفعلون ما يشاؤون دون رقابة أو محاسبة من الخلفاء الذين لم يكونوا يترددون فى عزل أى وال مهما تكن درجة قرابته منهم إذا ثبت أنه أخل بواجبات وظيفته، أو لم يقم بما هو مكلف به على النحو الأكمل. وكانت دقة الأمويين فى اختيار ولاتهم هى التى مكنتهم من حكم هذه الدولة العملاقة وإدارتها وبسط الأمن والنظام فى ربوعها الممتدة الأطراف، التى ضمت شعوبًا مختلفة الأجناس واللغات والثقافات والعادات والتقاليد، ومن ثم كان صهر هذه الشعوب فى بوتقة واحدة، وإخضاعها لنظام واحد، لم يكن أمرًا سهلا فى وقت كانت فيه الخيل هى أسرع وسيلة للمواصلات. وكان نجاح الأمويين فى إدارة

الدولة الإسلامية بوساطة رجالهم - ومعظهم كانوا من أفذاذ الرجال - دليلا على عبقرية إدارية، وقدرة فائقة فى فن الحكم وإدارة البلاد، ومهارة فى سياسة الناس، لا يقلل من ذلك أخطاؤهم واتهامات ناقديهم.

الولاة فى العصر الأموى:

مرت البلاد التى أتم العرب فتحها، بفترة تسمى فترة الولاة أو عصر الولاة، وهذه التسمية فى الحقيقة تدل على وضع سياسى معين يسود هذه البلاد، فهى فترة التبعية المباشرة للخلافة العربية فى المدينة أو دمشق. ومظهر هذه التبعية عادة سلسلة من الولاة العرب يحكمون البلاد باسم الخلافة، لايتوارثون الحكم، قد تطول مدة حكمهم أو تقصر وفقا للظروف أو وفقا لمشيئة الخلفاء.. ومظهر هذه التبعية أن البلاد تطبق فيها سياسة عربية ربما لاتوضح فى عاصمة البلد المفتوح إنما ترسم فى حواضر الخلافة وترسل التعليمات إلى البلاد لتنفيذها، ويشترك فى هذا التنفيذ الولاة العرب جميعهم. بل هذه التسمية لها دلالتها فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام؛ لأن الفتح العربى لم يكن غاية إنما كان وسيلة لقهر المقاومة المسلحة للعدو توطئة لانتشار الدعوة إلى الإسلام. والولاة كان يجب أن يكونوا رسل إصلاح ودعاة إلى الإسلام قبل كل شىء، هذا واجبهم الأول، أما الحكم لذاته فأمر عارض، فعصر الولاة إذن هو عصر الدعوة إلى الإسلام ليس بالسيف؛ فقد أغمد السيف بانتهاء الفتح، إنما بالمسالمة والترغيب والقدوة الحسنة. وكان الولاة العرب فى جميع البلاد التى حكموها فى هذه الفترة دعاة إسلام قبل كل شىء، ونموذجا للحياة الإسلامية الجديدة. وعصر الولاة ليس له طابعه السياسى أو الدينى فحسب إنما كان له دوره الواضح فى تاريخ الحياة الثقافية بوجه خاص وتاريخ الحضارة بوجه عام.. فهو عصر الصراع السافر بين اللغة العربية لغة الثقافة والدين وبين اللغات التى يتحدث بها الناس ويكتبون بها إنتاجهم الثقافى[1].

---

1 - د. حسن احمد محمود - المرجع السابق ص57.

وهو صراع عادة ما يختلف شدة أو ضعفا بقدر ضعف لغات الشعوب أو قوتها، كما تختلف نتائجه باختلاف البلاد، وكانت اللغة العربية ذات الطابع التقليدى تستقر فى أعقاب الفتح حين يشرع العرب فى تعليم الفقه والحديث وتفسير القرآن، والثقافة فى هذه الفترة هى ثقافة الوافدين. يتوقف تأصلها على انتشار اللغة العربية وانتشار العقيدة الإسلامية. وفى عصر الولاة عادة ما تلتقى المثل الإسلامية فى الحياة والنهج الإسلامى فى الحضارة بالتيارات الفكرية والفنية الموجودة فى البلاد. تبقى التقاليد العربية متباعدة بعض الشيء ثم يحدث الاقتراب بالتدريج توطئة للمزج الحضارى الكامل، يتوقف هذا كله على نجاح الدعوة الإسلامية. وينتهى عصر الولاة بنتائج متماثلة فى جميع مظاهر الحياة السياسية والدينية والثقافية والفنية. تنتهى التبعية بالاستقلال الذاتى. ينتهى عصر الولاة ليبدأ عصر جديد هو عصر الإمارة ذات الاستقلال المحلى فى نطاق التبعية للخلافة. وتعتمد هذه الحركات الاستقلالية إلى حد كبير على هذه الشعوب التى خضعت للعرب ثم قلدت مثلهم وآمنت بدينهم وطالبت بحقها فى المساواة. وفى ميدان الدعوة إلى الإسلام ينتهى عصر الولاة بنجاح كبير للدعوة إلى الإسلام، وذلك بانتشار الإسلام بين أهل البلاد الأصليين، ويصبح المسلمون غالبية فى البلاد؛ لأن هذه الغالبية المسلمة هى السند الذى يعتمد عليه الأمراء فى دعوتهم الاستقلالية. وفى ميدان الثقافة تنجح اللغة العربية فى الانتشار وتصبح لغة العلم ولغة التخاطب فى الحياة اليومية، وتهمل اللغات القديمة لتندرس معالمها وتتلاشى بالتدريج، وتتأصل الثقافة فلم تعد ثقافة الوافدين من العرب إنما ثقافة أهل البلاد الذين أسلموا فتنشأ المدارس الإقليمية لتنافس مدارس العاصمة نفسها فى الإنتاج الثقافى. وفى ميدان الفن والحياة الاجتماعية ينتهى عصر الولاة بالاندماج الكامل بين التقاليد الوافدة والتيارات الموجودة، وينشأ لون من الحضارة الإسلامية صورته إسلامية وحقيقته محلية، وتصبح الحضارة الإسلامية كإصلاح عام بمثابة إطار كبير يجمع فى داخله صورا كثيرة لها لونها المحلى الواضح من ناحية ولونها الإسلامى من ناحية أخرى[1].

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ نفس المرجع ص58.

حفل العصر الأموى بالكثير من الأسماء اللامعة التى تألقت فى فن الحكم والإدارة، ومن أشهر تلك الأسماء: «عمرو بن العاص»، و «المغيرة بن شعبة»، و«عتبة بن أبى سفيان»، و«مروان بن الحكم»، و«مسلمة بن مخلد الأنصارى»، و«عقبة بن نافع»، و«عبدالعزيز بن مروان»، و«المهلب بن أبى صفرة» وأولاده، و«زهير بن قيس البلوى»، و«حسان بن النعمان الغسانى»، و«مسلمة بن عبدالملك»، و«قتيبة بن مسلم الباهلى»،و«محمد بن القاسم الثقفى»، و«موسى ابن نصير»، وابنه «عبدالعزيز»، و«طارق بن زياد»، و«قرة بن شريك»، و«عبد الحميد ابن عبد الرحمن»، و«الجراح بن عبد الله الحكمى»، و«عدى بن أرطأة»، و«السمح ابن مالك الخولانى»، كما برز «عمر بن هبيرة»، و«بشر بن صفوان»، و«العباس بن الوليد»، و«خالد بن عبدالله القسرى»، وأخوه «أسد بن عبدالله»، و«يوسف بن عمر الثقفى»، و«الجنيد بن عبدالرحمن»، و«أشرس بن عبدالله السلمى»، و«مروان ابن محمد بن مروان»، و«يزيد بن عمر بن هبيرة»، و«نصر بن سيار»[1].

الخلافة والوزارة:

تحول نظام الخلافة منذ قيام الدولة الأموية إلى ملك استبدادى وراثى على غرار ما كان معروفًا عند الفرس والروم، فتولى الخلافة من بنى أمية بنو حرب ثم بنو أبى العاص، وعدل الأمويون فى حكم الدولة من تطبيق نظام الخلافة الراشدة القائم على الشورى والمستند على الدين إلى نظام الملك القائم على التوريث والمستند على السياسة أولا، واستحالت الخلافة منذ ذلك الحين إلى ما يشبه نظام الملكية مع تمسك شكلى بفكرة البيعة التقليدية، والتزام بمعانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق، باستثناء الخلفاء الأمويين المتأخرين الذين استعملوا طبيعة الملك فى أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم، من ركوت الشهوات واللذات والمعاصى، ومن استخفاف بحق الرئاسة. أما الوزارة فقد وجدت فى العصر الأموى من حيث التسمية دون الاختصاص، فقد كان طبيعيًا بعد أن اتسعت

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص63.

رقعة الدولة العربية بفتوح الشام والعراق ومصر وفارس والمغرب وإسبانيا وانقلبت الخلافة إلى ملك، أن يحتك العرب بشعوب متحضرة لها أنظمة وإدارات متفوقة، وأن يفيدوا من هذه الأنظمة سيما ما يتعلق منها بالدواوين وبعض النظم الإدارية، فأخذوا عن الفرس نظام الدواوين، ثم اتخذوا الحاجب ليقوم مقام الخليفة فى بعض المهام الخلافية ويحجب الخليفة عن العامة ويغلق بابه دونهم، فلما استفحل الملك بعد ذلك، «ظهر المشاور والمعين فى أمور القبائل والعصائب واستئلافهم، وأطلق عليهم اسم الوزير» وبقى أمر الشؤون المالية فى الموالى والذميين، واتخذ للسجلات «كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر، فتفسد سياسته مع قومه، ولم يكن بمثابة الوزير لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذى هو الكلام»، فكان النظر للوزير عامًا فى أحوال التدبير والمفاوضات وسائر الأمور كالنظر فى ديوان الجند والعطاء.

اصطنع الخلفاء الأمويون أولى الرأى وقربوهم إليهم، وتلقب بعض هؤلاء بالوزراء أمثال زياد بن أبيه فى عهد معاوية، وروح بن زنباع الجذامى فى عهد عبدالملك بن مروان وعبد الحميد كاتب الخليفة مروان بن محمد، الذى قام مقام الوزير فى الدولة. ولكن لاينبغى أن نفهم هذا اللقب الوزارى بنفس المعنى الذى عرف به فى العصر العباسى، ذلك أن معظم وزراء بنى أمية كانوا مجرد كتاب قربهم الخلفاء إليهم واعتمدوا عليهم فى تصريف الأمور وفى المشورة والرأى. لذلك لايجوز من قبيل التشبه بالوزراء أن يطلق عليهم لقب وزراء، لأن وظيفة الوزير بالمفهوم الذى تحدد فى الدولة العباسية لم تكن من الوظائف المعروفة فى الدولة الأموية[1].

مخصصات رئيس دولة الإسلام: هل للخليفة فى دولة الإسلام مخصصات؟ وهل هذه المخصصات إن وجدت موجهة لتكفيه شخصيا وتعفه أم أنها لعشيرته وقبيلته وحاشيته ومهرجيه وغلمانه وجواريه كما حصل فى العهدين

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص676.

الأموى والعباسى وكما يحصل اليوم فى عهد ملوك الطوائف؟ لندع عمر بن الخطاب يتحدث في ذلك لا سواه فقد أخرج ابن سعد فى طبقاته كلمات الفاروق وهو يتحدث عن ذلك فيقول: «إنها حلتان: حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ وما أحج عليه وأعتمر من الظهر (الدواب) وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم» وها هو أبو بكر يسارع إلى السوق صبيحة يوم استخلافه، وعلى رأسه أثواب يريد أن يتجر فيها، وقد كاد يفعل، لولا أن منعه عمر وأبو عبيدة ليفرغ لأمور المسلمين، إذ قالا له: كيف تصنع هذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالى؟ قالوا: نفرض لك، ففرضوا له كل يوم شطر شاه. وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى بكر بن حفص قال: قال أبو بكر - لما احتضر - لعائشة رضى الله عنها: «يابنية، إنا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لنا ديناراً ولا درهمًا، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وأنه لم يبق عندنا من فىء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشى وهذا البعير الناضج وجرد هذه القطيفة. فإذا مت فابعثى بهن إلى عمر» فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر. فقال عمر: رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبت من جاء بعدك. وأخرج عن أبى أمامة بن سهيل بن حنيف قال: «مكث عمر زمانا لا يأكل من مال بيت المال شيئًا حتى دخلت عليه فى ذلك خصاصة، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم، فقال: قد شغلت نفسى بهذا الأمر فما يصلح لى فيه؟ فقال الإمام على كرم الله وجهه: غداء وعشاء يا أمير المؤمنين. فأخذ بذلك عمر» وأخرج ابن سعد عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب كان إذا احتاج - وهو خليفة أتى صاحب بيت المال (أبا عبيدة بن الجراح)، فاستقرضه، فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه، فيحتال له عمر وربما خرج عطاؤه فقضاه. وقد تعددت الروايات فى هذا الموضوع تضييقا وتوسيعا لكنها كلها متفقة بأن تحديد المخصصات للخليفة لايقوم به الخليفة نفسه، والأمر الثانى أن المخصصات له شخصيا ولايستلم من بيت المال مخصصات أحد من عائلته أكثر من أى أعطية لأى

مسلم من مستحقيها. والخليفة فرد من أفراد المسلمين له حق فى بيت مالهم كسائر الناس، فيأخذ منه ما يأخذه منه سائر الناس وله أجرة عمله فى بيت مال المسلمين لكنه لايتصرف فى بيت المال كيف شاء. ومع أن المسلمين كانوا قد فرضوا لكل من أبى بكر وعمر مقدارا من المال نظير تفرغه للقيام بمهام الخلافة، إلا أن كلا منهما كان يأخذ ما يحتاج إليه فعلا من هذا المقدار المفروض له ليسد ضروراته ويتورع عن أخذ مازاد عن حاجته، فيرد ما بقى من هذا المقدار الذى فرضه له المسلمون إلى بيت المال[1].

الاتجاه الجماعى لدولة الإسلام: هل مطلوب من دولة الإسلام - فى المحصلة النهائية - تحقيق مصلحة فردية أم مصلحة جماعية؟ لنكن أكثر وضوحا ونضع السؤال بالصيغة التالية: إذا تعارضت المصالح الخاصة فى دولة الإسلام مع المصالح العامة فأيهما أولى بالإهدار شرعا؟ نستطيع أن نتعرف على الإجابة الواضحة لهذا السؤال من خلال موقف الإسلام ودولته فى سنوات الخلافة الراشدة من ثلاث قضايا على سبيل المثال لا الحصر: أ - ديوان الأموال. ب - أرض الخراج. جـ - الموقف من الاحتكار والتسعير.

الدواوين:

رأينا فيما سبق أن عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام الديوان من خلفاء المسلمين، ولم يلبث نظام الديوان أن تعقد منذ عصر معاوية بن أبى سفيان، فظهر عدد من الدواوين، كل منها يختص بالنظر فى شأن من شؤون الدولة.

1 - **ديوان الجند:** وأول هذه الدواوين ديوان الجيش وقد سبق فى تنظيم عمر للفتوح، وهو نفس ديوان الجند أو ديوان العطاء.

2 - **ديوان الخراج والجبايات:** ويعتبر أهم الدواوين جميعًا لأنه يشرف على الشؤون المالية للدولة ويتولى تسجيل ما يرد عليها وما ينفق من الأموال فى الوجوه

1 - د. عبدالله فهد النفيسى - المرجع السابق ص68.

المختلفة، وقد اقتبسه عمر بن الخطاب من الإدارة الفارسية متبعًا فى ذلك مشورة الفيرزان، وكان ديوانا البصرة والكوفة: ديوان الجند والأعطية بالعربية، وديوان المال بالفارسية كما كان ديوانا الشام بالعربية والرومية وديوانا مصر بالعربية والقبطية أو اليونانية، يرجع السبب فى إبقاء الديوان على مثل ما كان عليه قبل الفتح العربى إلى قلة خبرة العرب بأمور الإدارة، وتفضيلهم ترك النظم الإدارية والمالية فى البلاد المفتوحة على ما كانت عليه دون تغيير أو تعديل فأقروها كما هى. وظل ديوان الخراج والجبايات فى عصر الدولة الأموية حتى أيام عبدالملك بن مروان، عندما استحال الأمر ملكًا، واستقرت دعائم الدولة العربية ورسخت قواعدها، «وانتقل القوم من عضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة الأمية إلى حدق الكتابة، وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتابة والحسبان، فأمر عبدالملك فى عام 78هـ الموافق 697م سليمان بن سعد والى الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية، فأكمله لسنة من يوم شروعه فيه، وكان يتولاه قبل ذلك سرجون بن منصور الرومى النصرانى. أما ديوان العراق، فقد أمر الحجاج كاتبه صالح بن عبدالرحمن البصرى مولى بنى مرة بن عبيدة، وكان يكتب بالعربية والفارسية التى تلقنها عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله، أن يتولاه بعد أن قتل زادان فروخ فى حرب ابن الأشعث، وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية فعرّبه. أما ديوان مصر فقد أمر عبدالله بن عبدالملك والى مصر من قبل أبيه عبدالملك بن مروان بنسخه بالعربية، وصرف عبدالله أثيناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص. وكان أول من نقل الكتابة من الفارسية إلى العربية بخراسان اسحاق بن طليق الكاتب من بنى نهشل فى عام 124هـ الموافق 741م فى خلافة هشام ونتج عن حركة التعريب انتشار اللغة العربية والخط العربى، ونشاط الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية، وأصبحت اللغة العربية على حد قول ابن خلدون لسانًا حضريًا فى جميع أمصار الإسلام[1].

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ص679.

وكـان الفلاحـون ينوؤون تحت وطأة الضـرائب وجـور الحكام فى العصـر الأموى، تدل على ذلك هذه الأبيات التى صاغها الشاعر كعب الأشقرى:[1]

كل يوم يحـوى قتـيبة نهباء ويزيد الأمـوال مـالا جديدا

بأهـلى قد ألبس التـاج حـتى شاب منه مفـارق كن سـودا

دوخ الصغد بالكـتائب حتى ترك الصـغد بالعـراء قعودا

فوليد يبـكى لفـقد أبيـه وأب موجـع يبكى الوليـدا

كلما حـل بلـدة أو أتـاهـا تركـت خـيله بها أخـدودا

ولكن ذلك التذمر استـمر فى العصر العباسى، وعـبر عنه أبو العلاء المعرى بمعنى آخر فى بيتين قالهما فى القرن الرابع الهجرى:

مُلّ المقـام فكـم أعـاشر أمـة أمرت بغيـر صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وكان ارتفاع الأسعار المستمـر يزيد من حالة التشكى لدى العامة. فكتب أبو العتاهية إلى الخليفة يشكو له الغلاء ويستعطفه للفقراء والمحتاجين. فقال:

من مـبلـغ عنى الإمـام نصـائحـا متـتـاليـة

إنى أرى الأسـعـار أسـعـــار الرعيـة غـاليـة

وأرى المكـاسـب نـزرة وأرى الضـرورة فـاشـيـة

3 ـ ديوان الرسائل والكتابة:

وهو مستـحدث فى زمن معاوية ولم يكن موجـوداً زمن الخلفاء الراشدين، ويقوم متـولى هذا الديوان بالإشراف على الرسائل الواردة من الولايات الإسـلامية أو الموجهـة من الخليفة إلى عمـاله، وكان القائم على هذا الديوان يختـار من أهل

1 ـ أبو طالب - المرجع السابق، ص39.

أنساب الخليفة ومن عظماء القبيلة، لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم. ثم تعقد هذا الديوان وتعددت اختصاصاته، وكثر عدد من يعملون فيه، فوجد كتاب رئيسيون يقومون بالإنشاء، وآخرون يساعدونهم فى التلخيص والتبييض، وأصبح لهذا الديوان محفوظات خاصة يتولى الإشراف عليها الخازن، فكانت أصول المراسلات ونسختها تنظم فى سجلات أو مغلفات خاصة يقال لها أضابير توضع عليها بطاقات تدل على محتوياتها ليسهل استخراجها والرجوع إليها.

4 ـ ديوان الخاتم:

من أكبر الدواوين فى الدولة الأموية، أنشأه معاوية بن أبى سفيان حتى لا تخرج التوقيعات بدون ختم فلا يعلم ما تحتويه من أسرار أحد غير الخليفة، فلا تتعرض هذه التوقيعات للتزوير والتعديل، ويرجع الطبرى السبب الذى دعا معاوية إلى إطلاق الختم على الكتب الخلافية أنه ـ أى معاوية ـ أمر لعمر بن الزبير عند زياد بن أبيه بالكوفة بمائة ألف، ففتح الكتاب، وصير المائة مائتين، ورفع زياد حسابه، فأنكرها معاوية، وطلب بها عمر وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبدالله، فاتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم من قبل، وأسند ديوان الخاتم إلى عبدالله بن محصن الحميرى وقيل ولاه عبدالله بن أوس الغسانى، وأصبح الديوان يضم عدداً من الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم، وكان الحزم يتم عن طريق لصق رأس الصحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب، وقد يجعل على مكان الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه، وهى لاتخرج عن ختم المكان الملصوق بخاتم منقوش قد غمس فى مذاق من الطين معد لذلك، أحمر اللون.

5 ـ ديوان البريد:

استحدثه معاوية كذلك وذلك عندما اتسع نطاق الدولة وأصبح من الضرورى نقل الرسائل فى سرعة متناهية لتسهيل الاتصال السريع بين الخليفة وبين

عمال الأقاليم. فكانوا يضعون مضمرات الخيل فى عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسًا مستريحًا، وكذلك يفعل فى المكان الآخر حتى يصل بسرعة.

الولاة فى المغرب العربى: تختلف أحوال بلاد المغرب فى عصر الولاة عن أحوال الأندلس بعض الشيء، لقد كانت ولاية المغرب تتطور بطيئا طيلة خمسين سنة حتى اكتمل الفتح، وكانت المغرب العربى (أو تونس) أول ولاية عربية فى البلاد، فقد أنشأ عقبة بن نافع القيروان ثم أصبحت تونس والجزائر ولاية عربية منذ عهد عبدالملك بن مروان، واستطاع موسى بن نصير بعد إتمام الفتح أن يوسع أفق هذه الولاية لتمتد من برقة فى المغرب الأدنى إلى المحيط الأطلسى فى المغرب الأقصى وامتد إلى أطراف الصحراء. وقد أثرت هذه الحقيقة فى وضع البلاد الإدارى والسياسى، فقد كانت أول ولاية أنشئت فى البلاد (وأقصد ولاية تونس فى المغرب الأدنى) تابعة لمصر رسميا، وكان الوالى الأموى فى الفسطاط يمتد سلطانه إلى القيروان. واستطاع معاوية بن أبى سفيان فى آخر أيامه أن يجعل للولاية كيانا إداريا مستقلا فجعلها تابعة للخلافة مباشرة، وظلت كذلك حتى أتم موسى الفتح وأصبح الوالى العربى فى القيروان يسيطر على هذه الرقعة الفسيحة من أرض المغرب. وقد أدى هذا كله إلى أن كان المغرب على صلة وثيقة جدا طوال عصر الولاة بمصر، كانت صلة إدارية وثقافية واجتماعية، القبائل العربية فى مصر كانت بعض بطونها تسير فى ركاب الفتح وتستقر إما فى القيروان أو فى غيرها من البلاد. وكانت الصلات العلمية وثيقة إلى أبعد الحدود بين مدرسة الفسطاط ومدرسة القيروان، وكانت مدرسة القيروان باستمرار تتأثر بالتيارات العلمية القادمة من مصر. وقد تركت هذه الصلة الوثيقة أثرها فى بلاد المغرب فى عصر الولاة وأصبحت بلاد المغرب على صلة وثيقة بالأندلس. كانت القاعدة البرية والبحرية التى وقفت خلف فتح إسبانيا حتى كتب له أن ينجح، وكانت القبائل العربية والمغربية تخرج من البلاد فى موجات متعاقبة تعبر مضيق جبل

طارق وتستقر على أرض إسبانيا لتضع أساس وحدة بشرية وثيقة بين المغرب وإسبانيا طوال عصر الولاة. ومن الغريب أنه كانت ثمة وحدة إدارية بين المغرب وإسبانيا في عصر الولاة وحتى جاء عبدالرحمن الداخل وكون الإمارة الأموية المستقلة هناك. لقد كان ولاة القيروان لهم سلطات أكبر على ولاية إسبانيا يديرون أمورها ويعالجون شئونها وينفذون سياسة الخلافة فيها. ورغم هذه الأهمية التي توفرت لولاية المغرب العربي، ورغم هذا الدور الهام الذى قامت به في تاريخ الغرب الإسلامى فإن الوثائق الخاصة بهذه الولاية غامضة إلى أبعد الحدود، وليست لدينا إلا نصوص مبتورة قصيرة متناثرة فيما كتبه بعض مؤرخى المغرب أو في سير صلحاء المغرب العربي وعلمائها وقضاتها، ونفس المبادئ التى طبقت فى العالم الإسلامى كله طبقت بالطبع فى بلاد المغرب مع اختلافات يسيرة نابعة من ظروف البلاد.[1]

الولاة فى إسبانيا: أتم عبدالعزيز بن موسى فتح البلاد كلها ثم اغتيل فى مسجد أشبيلية عام 95هـ / 716 ميلادية وولى جند إسبانيا أيوب بن حبيب اللخمى على البلاد فكان أول الولاة فى إسبانيا. وبولايته يبدأ عهد جديد فى تاريخ إسبانيا الإسلامية هو عهد الولاة الذى استمر حتى 138هـ/ 756م وهى السنة التى استطاع فيها عبدالرحمن بن معاوية الداخل أن يؤسس الإمارة الأموية، فهو إذن من أقصر عهود الولاة التى عرفها تاريخ الأمصار الإسلامية فهو لم يدم أكثر من أربعين سنة، على حين امتد عصر الولاة فى مصر مثلا حتى عام 254هـ الموافق 868م وقد تعاقب على حكم إسبانيا فى هذه الفترة عدد كبير من الولاة بعضهم تولى من قبل خلفاء المشرق مباشرة وبعضهم من قبل ولاة إفريقية وبعضهم اختاره الجند وأقرت الخلافة الاختيار. وهذه الفترة على قصرها فى غاية الأهمية ففيها وضع الأساس للكثير من المقومات التى قام عليها حكم المسلمين بل نشأت فيها أصول المتاعب والخلافات التى صاحبت الحكم الإسلامى إلى آخر العهد به.

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص73.

القضاء:

ظل القضاء فى عصر دولة بنى أمية بسيطًا كما كان فى عصر الخلفاء الراشدين، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التى تقيد بها القضاة قد ظهرت بعد، ولذلك كان القاضى يعتمد على الاجتهاد فى الأحكام مستعينًا فى ذلك بالكتاب والسنة والإجماع، وكان القضاة مستقلين فى آرائهم وأحكامهم، فلم تكن لميول الدولة أى أثر عليهم فى ذلك. وكان اختيار القضاة وتعيينهم يتم على يد الخليفة، ولكن بعض القضاة كان يختارهم الولاة بتفويض من الخليفة. وينقسم القضاء فى العصر الأموى إلى قضاء شرعى وقضاء مدنى، وكان القاضى الشرعى يستمد أحكامه القضائية من مصادر الشريعة الإسلامية: القرآن والسنة والإجماع أو القياس، أما القضاء المدنى فيتولاه المحتسب، وكثيراً ما جمع القضاة الشرعيون بين السلطتين الشرعية والمدنية. أما المشاكل التى يستعصى حلها على القاضى الشرعى فكان يفصل فيها قاضى المظالم، وتفوق سلطته القضائية سلطة القاضى والمحتسب، ولقد أفرد الأمويون للنظر فى المظالم ديوانًا خاصًا يرجع الفضل فى إنشائه إلى عبدالملك بن مروان. وكان عبدالملك إذا وقف منها على أمر مشكل أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه أبى إدريس الأزدى، فنفذ فيه أحكامه لرهبة التجارب من عبدالملك بن مروان، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبدالملك هو الآمر، وكان خلفاء بنى أمية يباشرون النظر فى المظالم بأنفسهم، ويعتبر عمر بن العزيز أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردها، وراعى السنن العادلة وأعادها، ورد مظالم بنى أمية على أهلها حتى قيل له وقد شدد عليهم فيها وأغلظ «إنا نخاف عليك من ردها العواقب»، فقال «كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وقيت»، . وكان يشترط فيمن يتولى القضاء سبعة شروط هى:

1 ـ أن يكون رجلا. 2 ـ وأن يكون عاقلا صحيح التمييز بعيداً عن السهو والغفلة. 3 ـ وأن يكون حراً. 4 ـ وأن يكون مسلمًا. 5 ـ وأن يكون عادلا، والعدالة أن يكون ظاهر الأمانة عفيفًا عن المحارم، متوقيًا المآثم، بعيداً عن الريب،

مأمونًا فى الرضا والغضب. 6 ـ وأن يكون سليمًا فى السمع والبصر ليصح بهما إثبات الحقوق ويفرق بين الطالب والمطلوب، ويميز المقر من المنكر ليتميز له الحق من الباطل. 7 ـ أن يكون عالمًا بالأحكام الشرعية، وعلمه بها يشتمل على علم بأصولها والارتياض بفروعها، وأصول الأحكام فى الشرع أربعة هى القرآن والسنة وتأويل السلف والقياس.

السكة:

رأينا فيما سبق أن عمر بن الخطاب أقر العملات الفارسية والبيزنطية مع إضافة بعض نقوش عربية مما يقتضيه الإسلام. وفى خلافة عثمان بن عفان ضربت دراهم نقشت عليها عبارة «الله أكبر»، ولما تولى معاوية الخلافة ضرب دنانير إسلامية عليها صورته متقلداً سيفه على نسق الدنانير البيزنطية، وعلى الرغم من أنه لم تصل إلينا أى دنانير من عهد معاوية إلا أنه وصلت إلينا بعض فلوس نحاسية ضربت فى إيليا بفلسطين، نقشت عيها صورة معاوية وهو أقرب ما يكون إلى صورة الأباطرة المنقوشة على الفلوس البيزنطية. ويذكر المقريزى أن عبدالله بن الزبير ضرب دراهم مدورة ونقش على الوجه «محمد رسول الله»، وعلى الظهر «أمر الله بالوفاء والعدل»، كما ضرب أخوه مصعب بالعراق دراهم مماثلة فى عام 70هـ الموافق 689م بأمر أخيه عبدالله على ضرب الأكاسرة، وكتب عليها فى أحد الوجهين: «بركة الله» وفى الآخر «اسم الله» ولم تعرف عند المسلمين عملة إسلامية خالصة إلا فى عصر الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان، الذى كان يرى أن ضرب العملات العربية الإسلامية ضرورة لازمة اقتضتها الظروف لتدعيم البناء الاقتصادى والسياسى القومى للدولة العربية، ومن الملاحظ أن عصر عبدالملك شهد ظاهرة جديدة هى صبغ الدولة بصبغة قومية عربية فى جميع الشؤون الإدارية والمالية، فإليه يرجع الفضل فى تعريب الدواوين وإليه يرجع الفضل أيضًا فى تعريب السكة الإسلامية، وكان ذلك ضرورة من ضرورات الحكم فى مرحلة

الاستقرار التى أعقبت مرحلة الفتوحات، ويبدو أيضًا أنه كان يسعى جاهداً إلى توحيد النظام النقدى الإسلامى فى سائر أنحاء الدولة العربية بعد أن تعددت العملات الخاصة التى أصدرها عبدالله بن الزبير فى الحجاز وأخوه مصعب فى العراق، وقطرى بن الفجاءة، ثم إن العملات بما تحمله من نقوش تتضمن اسم الخليفة أو الأمير الحاكم والمركز الذى سكت فيه تعبر عن سيادة الدولة العربية وتحررها من أى نفوذ أجنبى، وكان تداول عملات بيزنطية وفارسية، فى عصر بلغت فيه الدولة العربية ذروة تألقها السياسى والحضارى يتعارض مع تطبيق سياسة عربية فى كافة وجوه الحياة اقتصاديًا وسياسيًا. ولقد مر الإصلاح النقدى الذى قام به عبدالملك بن مروان بمرحلتين قبل أن تأخذ العملات الأموية صورتها الإسلامية الخالصة. ففى المرحلة الأولى ضربت الدنانير الذهبية على غرار الفلوس البيزنطية، فبتر أعلى الصليب من وجه العملة وظهر على شكل حرف T وأحيط هذا الصليب بعبارات التوحيد المنقوشة بالخط الكوفى. أما فى الوجه الآخر فقد أبقى على صورة هرقل وولديه قسطنطين وهو قليوناس. وفى المرحلة الثانية استبعد عبدالملك التأثيرات البيزنطية نهائيًا بأن نقش صورته هو مكان صورة هرقل وولديه، ثم أبقى العمود القائم على المدرج الذى يحمل الصليب فى العملات القديمة، وأصبح وجه الدينار يحمل صورة عبدالملك، وأصبح ظهره منقوشًا بكتابة تدور على حافة الدينار نصها: «بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ست وسبعين» وأصبح الصليب مجرد عمود قائم على أربع مدرجات. ولقد سبب ظهور صورة عبدالملك على ديناره احتجاج جماعة من الصحابة الذين أنكروا على عبدالملك تشبهه بالأباطرة كما أنكروا إظهار الصور التى ينهى عنها الشرع كما أثار صدور هذا الدينار وعليه صورة الخليفة رد فعل عند البيزنطيين الذين اعتبروا هذا الإصلاح النقدى الإسلامى ثورة على نظام النقد البيزنطى العالمى. ومع ذلك فقد كان دينار المرحلة الثانية تمهيداً لصدور الدينار الإسلامى الخالص فى عام 77هـ الموافق

696م وكان يتوسط الوجه العبارة الآتية: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» بينما كان يدور على الحافـة عبارة: «محمد رسـول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله»، أما الظهـر فقد كان يتوسطه: «الله أحـد الله الصمد لم يلد ولم يولد»، وكان يدور بالحافة «بسم الله ضرب هذا الدينار عام سبع وسبعين»[1].

النظم الإدارية فى المغرب العربى: وقد نظمت شئون المـغرب الإدارية طبقا للأسس التقليدية المعروفة فدونت الدواوين وعين العمال على نواحى الإدارة. وقد احتفظ العرب بأهل البلاد الأصليين فى وظائفهم التى كانوا قد تولوها من قبل مع اختلاف يسير عـما ألفناه فى مصر أو إسبانيا، فقد كان عـامل المغرب العربى أكثر العمـال العرب حرية فى التـصرف وإطلاقا فى اليـد، فقد أعطى سلطات واسعة ليدخل ما يراه من النظم الكفيلة باستقرار الأمور فكان النظام العربى فى المغرب فى الحقيقة نظاما يتطور وفقا للظروف. واتبـعت نفس التنظيمات العسكرية التى اتبعها الأمويون فى العالم الإسـلامى كله فأدخل عرب البربر إلى صمـيم الجيش العربى وفرضوا للمقاتلة العطاء من بيت المال ولم تختلف السـياسة الاقتصادية عن مألوف السياسة العربية من حـيث فرض الجزية أو الخراج أو ملكية الأرض مع تطور بسيط نابع من ظروف العرب ومن تقـاليد التحالف بين العـرب والبربر، ذلك أن العرب لم يعطوا البـربر مجرد حق حـيازة الأرض بل أعطوهم حق الملكيـة نظير ضـريبة العشور المقررة.

التنظيم الإدارى فى إسبـانيا: أبقى العرب لأهل البـلاد الأصليين شـرائعهم وقضاءهم بل عينوا لهم حكاما من أنفسـهم يديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصـلون فى الأحكام، فإن العـرب احتفظـوا بغالبيـة الرجال القـدامى من أهل البلاد، وهى نفس السـياسة العربية التى سـار عليها العرب فى جـميع البلاد، فى الوقت الذى احتفظوا لأنفسهم فيـه بوظائف السلطة العليا: وظيفة الوالى وصاحب

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ص680 ـ 685.

الشرطة وصاحب الخراج والبريد والقاضي. واحتفظ العرب بالتقسيم الإدارى للبلاد كما هو دون تغيير. قسمت إسبانيا فى ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط. وإن كان العرب قد أدخلوا بعض التقسيمات الإدارية الصغيرة تيسيرا لضبط الأمن وربط المال. . إلا أن المعاصرين للحكم العربى الأول لم يحسوا بتغيير يذكر فى حكومة البلاد. أبقى المسلمون للمسيحيين حريتهم الدينية كاملة مقابل دفع الجزية والخراج على ما تقضى به الشريعة الإسلامية وسووا بين المسيحيين كافة فى هذه الحقوق، وامتدت مظاهر هذا التسامح فشملت الممتلكات، فلم يمس المسلمون إلا ما كان ملكا لبيت لذريق وترك الباقى بيد من يزرعونه، وتركوا أحرارا ينظمون أمورهم على النحو الذى أرادوه ما داموا على الطاعة وظلوا يفصلون فى أقضيتهم وفقا للنظام القوطى. وظلت علاقة الناس بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه، بل ترك العرب للجماعات النصرانية نشاطها المدنى الذى كانت جارية عليه أيام القوط، ولم يعرض العرب فى كثير أو قليل لنظام البلديات الذى وجدوه فى البلاد وتركت المدن كما كانت حرة تنظم أمورها كما يريد أهلها. بل وضع المسلمون حدا للاضطهادات الدينية التى شاعت فى حياة البلاد فى الفترة الأخيرة من حكم القوط، وتركوا للمذاهب المختلفة الفرصة لتحيا فى غير ما خوف، المجادلة بالمنطق والرأى، أما التعذيب والإكراه فلم يعرف إلى قلوب العرب سبيلا. والمؤرخ أرنولد فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام» يذكر أنه لم يسمع بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد على الأقل فى هذا العصر الإسلامى الأول. وقد لقيت هذه السياسة تأييدا من أهل البلاد، فلم تشهد إسبانيا طوال القرن الثانى الهجرى ثورة واحدة على الحكم العربى، حتى لقد قيل إن الذين هاجروا إلى الأراضى الفرنسية خوفا من العرب تمنوا لو عادوا إلى أوطانهم مرة أخرى. ورجال الدين أنفسهم ومؤرخو الكنيسة يعترفون بهذه السياسة السمحة، فها هو القديس بونيفاس المعاصر يرى فى الحكم الإسلامى يد العدالة الإلهية التى اقتصت من القوط ومظالمهم. وقد امتدت سياسة التسامح إلى اليهود فنعموا بالحرية كاملة وفتحت أمامهم ميادين

الحياة الاقتصادية دون منافس، بل عهد الحكام العرب إليهم بالمهام الدبلوماسية وتولوا المناصب الإدارية والمالية وفازوا من العرب بمثل ما فاز به الأقباط فى مصر. والوثائق العربية المعاصرة تطلق على النصارى واليهود اسم أهل الذمة، ثم أصبح هذا الاسم يطلق على اليهود وحدهم، أما النصارى فقد اتخذوا أحيانا اسم العجم وأحيانا أخرى اسم المعاهدين نسبة إلى العهود التى أخذوها من الحكام العرب. ويذكر بروفنسال أنهم اتخذوا اسم المستعربين. ويعلق الدكتور حسين مؤنس على ذلك فيقول: إن اسم المستعربين ظهر فى العقود الجارية بين الناس ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى، كما ظهر فى الوثائق المسيحية المكتوبة باللاتينية أو الأسبانية فى نفس الوقت تقريبا، وأنها مما أطلق ملوك النصارى على نصارى إسبانيا الذين دخلوا فى طاعة المسلمين تميزا لهم عن رعاياهم، وكانت لهؤلاء المستعربين طقوسهم الدينية الخاصة ولهم رجال دين خاصين بهم يقيمون صلواتهم على أسلوب خاص، ويستخلص من هذا أن الاستعراب كان يسبق الإسلام فى بعض الأحيان أو فى أكثرها، وأن النصارى الأسبان اختلطوا بالمسلمين فتعلموا لغتهم وأسلوبهم فى الحياة وكان كثير منهم يجيدون اللغة العربية إجادة تامة[1].

الحسبة

«الحسبة» نظام إسلامى يقوم بالإشراف على المرافق العامة، ومنع أى انحراف، وعقاب المذنبين، ووظيفة دينية شبه قضائية، عرفها التاريخ الإسلامى من بدايته تقوم على فكرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104] والأصل فى هذا النظام الإسلامى هو قيام الناس جميعًا بهذا الواجب الذى هو من فروض الكفاية، لكن الدولة الإسلامية لم تدع ذلك الأمر للأفراد، خوفًا من حدوث فتن ومشاحنات، وإنما نظمته، وجعلته وظيفة خاصة،

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص63.

لها مسئول. يعاونه عدد كبير من الناس. ولا يعنى تنظيم الدولة لوظيفة «الحسبة» منع الأفراد من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل من واجبهم القيام بهذا، بشرط أن يكون القائم به عالمًا فقيهًا، وألا يؤدى أمره بالمعروف إلى المنكر، ونهيه عن المنكر إلى منكر أشد، وأن يكون عمله عن طريق النصيحة. ولما لم يكن من طبيعة الناس كلهم الاستجابة إلى النصح بالتى هى أحسن، فقد نشأت وظيفة «المحتسب»، واشترط فى شاغلها أن يكون من أهل الهيبة، ليضرب بقوة على أيدى العابثين بأمن المجتمع فى غذائه وصناعته وتجارته، وعلى من لا يراعى أصول الشريعة ومبادئها فى سلوكه، ويضايق الناس بأقواله وأفعاله. ولم يقتصر عمل «المحتسب» على ضبط سلوك العامة، ومراقبة أعمالهم، وإنما شمل كبار موظفى الدولة، لحملهم على أداء عملهم على أفضل ما يكون، ومنعهم من الفساد والتعدى على الناس وقبول الرشوة، وغير ذلك. وبدأ نظام «الحسبة» مع بداية الدولة الإسلامية، مثل غيره من النظم التى سبق الحديث عن بعضها، فقد ثبت فى الصحيح أن الرسول ﷺ كان أول من باشر عمل «المحتسب» بنفسه، مما يدل على أهميته، فروى «أبو هريرة» - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ مر على رجل يبيع القمح فى سوق «المدينة» وأمامه صبرة - كومة كبيرة - فأدخل فيها يده الشريفة، فأصابت بللا، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟». فقال: أصابته السماء يا رسول الله. فقال ﷺ: «أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟ من غشنا فليس منا» [صحيح مسلم]

وكان النبى ﷺ يعين من الصحابة من يقوم بهذا العمل ويراقب الأسواق لمنع الغش فى كل شىء، فكلف «عمر بن الخطاب» بمراقبة سوق «المدينة المنورة»، وعين «سعيد بن العاص» لمراقبة سوق «مكة» بعد فتحها. واستمر الخلفاء الراشدون يباشرون عمل «المحتسب» بأنفسهم أحيانًا، وينيبون غيرهم للقيام به فى أحيان أخرى، ولما اتسعت الدولة الإسلامية فى عصر «بنى أمية»، عجز الخلفاء عن القيام بعمل «المحتسب» بأنفسهم؛ لانشغالهم بمهام كثيرة سياسية وإدارية وعسكرية،

وخصصوا لهذا العمل من يقوم به، وأصبح نظام «الحسبة» ووظيفة «المحتسب» من أهم النظم الإسلامية التى تعمل على سلامة المجتمع، وتنقيته من كل المفاسد. وقد امتد عمل «المحتسب» إلى كل مجالات الحياة تقريبًا، وقد لخص «ابن خلدون» فى مقدمته اختصاصات «المحتسب» فقال: «ويبحث ـ المحتسب ـ عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل ـ لئلا تغرق السفينة بمن فيها ـ والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ـ أى المارة فى الطريق ـ والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ ـ أى المبالغة ـ فى ضربهم للصبيان المتعلمين، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك، ويرفع إليه، وليس له الحكم فى الدعاوى مطلقًا، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها، وفى المكاييل والموازين، وله أيضًا حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة، ولا إنفاذ حكم، وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها، وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء». وإذا نظرنا إلى عمل «المحتسب» الذى هدفه هو راحة الناس فى ضوء النظم الحكومية المعاصرة نجده موزعًا بين العديد من الوزارات والهيئات، مثل وزارة التموين، والصحة، والصناعة، والتعليم، والزراعة، والداخلية، والنيابة العامة، ومصلحة الدمغة، والموازين، والمرافق بمختلف أنواعها[1].

الشرطة

يعد جهاز «الشرطة» من أقدم الأجهزة فى الدولة الإسلامية، فقد عرف منذ عهد النبى ﷺ، وكان له «صاحب شرطة» ـ أى رئيس لها ـ فعن «أنس بن مالك» أنه قال: «كان قيس بن سعد بن عبادة من النبى ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص71 ـ 72.

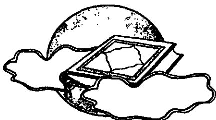
الأمير» [صحيح البخاري]. ومن الذين عـرفوا بالقيام بوظيفة الشرطي في «المدينة» في عهـد الرسول ﷺ: «سعد بن أبي وقـاص» و «بديل بن ورقاء»، «أوس بن ثابت بن عرابة»، و «رافع بن خـديج». واستمـر الخلفاء الراشدون في الاستـعانة ببعض الصـحابة للقيام بعـمل الشرطي؛ استـتبابًا للأمن، وحفظًا للنظام، وتعـقبًا للجناة والمفسـدين في الأرض، وتنفيذًا للأحكام والحدود التي يحكم بهـا القضاة.

وقد ازدادت أهميـة جهاز «الشرطة» في الدولة الأمـوية، نظرًا للظروف التي كانت تحيط بهـا، وكثـرة الخارجـين عليها والـثائرين ضدها، فـتوسـعت في استـخدام «الشرطة»، حـتى أصبح جهـازًا من أكبر أجـهزة الدولة، قـادرًا على حفظ الأمن وتطهير البلاد من عناصر الفساد والعبث بالنظام العام للمجتمع. وحرص الأمويون على اختـيار رجـال شرطتـهم من أهل الشرف والبـأس الشديد، والعـفة والمروءة والحزم، وأعطوا «صاحب الشرطة» الحرية التامة في اختيار معاونيه، ليؤدوا مهمتهم على الوجـه الأكمل، فـيروى عن «الحـجاج بن يوسف الثـقفي» والي «الـعراق» والمشرق الإسلامـي أنه قال: «دلوني على رجل للشرطة»، فقـيل له: «أي الرجال تريد؟» قال: «أريده دائم العبوس ـ أي جاد في مـلامحه ـ طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة ـ أي لا يخون ـ» فقـيل له: «عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي»، فأرسل إليه يستعمله على «الشرطة»، فقال: «لست أقبلها إلا أن تكفيني عيالك وولدك وحـاشيتك»، فقال «الحجـاج»: «يا غلام ناد في الناس: من طلب إليه منهم حاجـة فقد برئت منه الذمة». ويعلق «الشعبي» راوي هذا الخـبر بقوله: «فو الله مـا رأيت صاحب شـرطة قط مثله، كـان لايحبـس إلا في دين ـ أي من أجل مخالفة لتعليم الدين ـ وكان إذا أتي برجل قد نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حـتى تخرج من ظهره، وإذا أتـي بنباش حفـر له قبـرًا فدفنه فـيه، وإذا أتي برجل قاتل بحديدة أو شهر سـلاحًا قطع يده، وإذا أتي برجل قد أحرق على قوم منزلهم أحرقـه فكان ربما أقام أربعين ليلة لا يؤتى بأحد ـ لخـوف الناس منه لشدته وهيبته ـ فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة».

وبعد هذا الحديث الموجز عن النظم والإدارة فى العصر الأموى يمكن القول إن إدارة الأمويين للدولة الإسلامية كانت إدارة حسنة بصفة عامة، تقوم على أسس ثابتة، تبغى الصالح العام، وإشاعة الأمن والاستقرار فى الدولة المترامية الأطراف، وإن شاب ذلك بعض القصور والأخطاء، وحسب الأمويين أنهم لم يكفوا عن تطوير أجهزة الدولة ودواوينها التى كانت موجودة قبلهم، واستحدثوا غيرها حين دعت الضرورة إلى ذلك، وأنهم بذلوا جهداً فى التدقيق فى اختيار الولاة والعمال والموظفين، وأحسنوا مراقبتهم ومتابعتهم، ونجحوا فى ذلك إلى حد كبير[1].

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص72 ـ 73.

الفصل الخامس



الحياة الاجتماعية

- الحياة الاجتماعية فى الدولة الأموية.
- التركيبة السكانية للمجتمع الإسلامى.
- الأمازيغ البربر من العرب العاربة والقرطاجيين.
- طبقات المجتمع الإسلامى.
- النظام الاجتماعى فى الدولة الأموية.
- مظاهر الحياة الاجتماعية.
- مكانة المرأة فى المجتمع الإسلامى.
- حفلات الزواج.
- الرعاية الاجتماعية والسجون.

الحياة الاجتماعية في الدولة الأموية:

لم يكن منتظراً مع بداية حركة الفتوح الإسلامية أن يحدث تغيير سريع مفاجئ في أوضاع المجتمع الإسلامي، لأن المسلمين كانوا عندئذ قريبي عهد بالرسول ﷺ وتعاليمه. يحكى ابن خلدون أن العرب ملكوا فارس والروم «ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة. فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعًا. وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحًا. ومثل ذلك كثير». وعلى الرغم من الغنائم الضخمة التي أصابها العرب الأوائل في فتوحهم، إلا أن بساطة الإسلام وبساطة المنبت ظلت غالبة عليهم «فكان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفًا من الذهب أو نحوها، فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر، وهم مع ذلك على خشونة عيشهم. فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد. وكان علي يقول: يا صفراء! ويا بيضاء! غري غيري!! وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها للعرب لقلتها يومئذ. وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة، وإنما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها..».

حقيقة أننا نسمع عن قلة من الصحابة - عند اتساع الفتوح على أيام عثمان رضي الله عنه - اقتنوا الضياع والمال. ولكن ذلك تم داخل إطار الدين، ولم يكن فيما فعلوه خرق لتعاليم الإسلام، لأنه مال حلال، أتى عن طريق غنائم وفيوء أحلها الله. ثم إنهم أدوا ما وجب عليهم من زكاة، ولم يتصرفوا في مالهم بعتو وإسراف. وهكذا، فإن الثروة الكبيرة المفاجئة لم تفلح في تلك المرحلة في تغيير الملامح العامة الأساسية للمجتمع الإسلامي الوليد. غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلا بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. فالدولة الأموية التي قامت على أسس من السياسة والسيف اتخذت خطًا من شأنه أن يبتعد بالمجتمع الإسلامي تدريجيًا عن بساطته الأولى التي تحلى بها. ولا شك في أن نقل عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق بدلا من المدينة المنورة جعل الحكام الجدد من بني أمية

يبتعدون عن المسرح الأول للإسلام - بذكرياته ومثله وبساطته - وينغمسون في مجتمع ينطق كل أثر فيه بترف الروم وبذخهم والصبغة المادية التي اصطبغت بها حضارتهم. هذا إلى أن حركة الفتوح الإسلامية، بلغت ذروتها في العصر الأموي، وكان معنى اتساع الفتوح كثرة الغنائم والسبايا والرقيق وتدفق الجزء الأكبر من هذه المكاسب والأموال على عاصمة الأمويين في دمشق. فإذا أضفنا إلى ذلك اتساع الدولة الإسلامية، وانتشار الإسلام بين شعوب عديدة غير عربية، لها جذورها وأصولها، ودخلت الإسلام بتراثها وعاداتها وتقاليدها.. أدركنا ما حدث من تفاعل اجتماعي بعيد المدى بين العرب الفاتحين من ناحية، وتلك الشعوب من ناحية أخرى، وهو تفاعل تم قبل أي اعتبار في ظل ديانة نادت بأن المؤمنين إخوة، وبأن الناس جميعًا لآدم، وآدم من تراب[1].

وفي المسيرة الاجتماعية للدول والأمم والشعوب يبرز مبدأ عام يتحكم في توجيه تلك المسيرة، خلاصته أن الناس على دين ملوكهم، بمعنى أن المحكومين مولعون بمحاكاة حكامهم، وأن المؤثرات الاجتماعية تنتقل في المجتمع من أعلى إلى أسفل، ومن الطبقات العليا إلى ما دونها من طبقات. ولذا فإنه مهما يقال من أن التطور الذي شهده المجتمع الإسلامي في العصر الأموي كان تطوراً طبيعيًا، أملته الظروف الجديدة التي أحاطت بالدولة - من اتساع وثراء وتنوع في بنيتها العنصرية - إلا أننا لايمكن أن نعفي بعض الحكام في العصر الأموي من مسؤولية دفع عجلة ذلك التطور. ونقول بعض الحكام حتى نحتفظ للبعض الآخر من الخلفاء الصالحين - أمثال عمر بن عبدالعزيز - بمكانتهم السامية في التاريخ. والواقع أن المؤرخ المدقق لايستطيع أن ينكر أن المجتمع الإسلامي دخل مرحلة جديدة وتغيرت أوضاعه بسرعة بعد عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، إذ جاء خلف «ابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم». ومنذ وقت مبكر في العصر الأموي ظهرت مسحة قوية، من الترف أدت إلى تسرب تيار من الإسراف، بعيد عن روح

1 - د. سعيد عاشور ود. سعد زغلول - تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص253.

الإسلام ومبادئه. ولم يلبث أن أخذ الغناء يحل محل تلاوة الشعر، كما حلت مجالس الشراب محل مجالس الأدب. وفى هذا الاتجاه الجديد كان الناس يحاكون ما يجرى فى قصر الخلافة، مما جعل المؤرخين الأوائل ينتقدون بعض حكام بنى أمية نقداً مراً. من ذلك مايذكره المسعودى - صاحب كتاب مروج الذهب - من أن يزيد بن معاوية «كان صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب. وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق». أما سليمان بن عبدالملك فقد بالغ فى التفنن فى زينته وملبسه، حتى إنه فى يوم جمعة من ولايته لبس الفاخر من الثياب، وتعطر، وأمسك بالمرآة، وجسمع الجمعة، وخطب خطبته وقد أعجب بنفسه، فوقف على المنبر يردد «أنا الملك الشاب، السيد المهاب، الكريم الوهاب..».

ومثل هذا يقال عن يزيد بن عبدالملك بن مروان، وقصته معروفة مع سلامة القس التى شغف بها حبًا، ثم مع حبابة. أما هشام بن عبدالملك بن مروان فقد شغف بسباق الخيل «وأقام الحلبة» فاجتمع فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يعرف ذلك فى جاهلية أو إسلام...». وهكذا حتى كان الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان - فى أواخر العصر الأموى - فوصفته المصادر بأنه «صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس الملهين، وأظهر الشراب والملاهى والعزف...». هذا فى حين وصفه الطبرى بأنه «تمادى فى الشراب وطلب الملذات، فأفرط..» وكان بعض حكام بنى أمية لايظهرون للندماء، بل كان بينهم حجاب، حتى لايطلع الندماء على ما يفعله الحاكم إذا طرب، فقد تأخذه نشوة الطرب وهو سكران، فيقوم بحركات لايطلع عليها إلا خواص جواريه. هذا فى حين بالغ البعض الآخر - مثل يزيد بن عبدالملك - فى المجون بحضرة الندماء، وأذن لهم فى الكلام والضحك والهزل فى مجلسه. وانتقلت العدوى بوضوح إلى الناس والرعية فى عهد الوليد الثانى، فكلفوا بالموسيقى والغناء، وأسرفوا فى ذلك إسرافًا ملحوظًا،

فأنفقوا ببذخ على المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الحاكم الأموى يدعوهم إلى دمشق من أقصى البلاد. وكان للقيان دور ملحوظ فى تقدم الغناء فى العصر الأموى. ومن الآلات الموسيقية التى استعملها المغنون والموسيقيون فى ذلك العصر الصنج والطنبور والمزمار، وغيرها. وامتد هذا التيار تدريجيًا إلى كثير من أنحاء الدولة الإسلامية، فى المشرق والمغرب سواء. وقد وصف ابن عذارى المراكشى بعض حكام المسلمين فى المغرب وإسبانيا، بأنه «عهر الخلوات، صريع الشهوات، لهج بالفكاهات، كثير الكذب والعدوان، شنيع الفجور والعصيان..»[1].

حتى الحجاز أخذ يتأثر طفيفًا بالموجة الجديدة، فتعرضت الحياة فيه للتطور فى ذلك الدور. وإلى جانب المحدثين والفقهاء ظهر فى المجتمع المغنون والشعراء، وإلى جانب حياة العلم والزهد والتقوى، وجدت حياة المرح والمتعة. من ذلك مايذكره صاحب كتاب الأغانى من أن مكة والمدينة وضواحيهما امتلأت بالمغنين والمغنيات الذين كانوا يخرجون إلى الحج فيجتمع الناس لرؤيتهم. وصار فى مكة مذهب فى الغناء، وللمغنين فى المدينة مذهب، وبين الفريقين مفاخرة، يسر الناس لمشاهدتها. ومع الغناء كان التنادر والفكاهة الحلوة. ويقال إن أكثر المغنين فى قصور بنى أمية تخرجوا فى مدرسة الحجاز. ويعلل المرحوم الأستاذ أحمد أمين هذه الظاهرة برقة شعور أهل الحجاز من ناحية، ووجود أرستقراطية العرب ـ وهم العنصر الفاتح الذى حصل على خيرة الجوارى من ناحية ثانية؛ فضلا عما يقال من أن البدو إذا تحضروا ونالوا بسطة فى العيش أسرفوا فى اللهو من ناحية ثالثة. هذا مع ملاحظة أن الحياة فى الحجاز ظلت دائمًا ملتزمة بقدر من الاعتدال، بحيث لم تصل إلى حد الإسراف الذى وصلت إليه فى عاصمة الدولة دمشق. ونسمع عن بعض حركات وثورات قام بها بعض الصحابة فى الحجاز تعبيرا عن استيائهم من سلوك بعض خلفاء بنى أمية فى دمشق.

---

1 ـ د. سعيد عاشور. د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص255.

ومن ناحية أخرى، فإننا إذا قلنا إن تغييراً محدوداً أصاب الحياة الاجتماعية في الحجاز، فعلينا أن نذكر أن الإسلام كان دائمًا بعيدًا عن التزمت والحرمان والكبت، وأنه طالب المسلم بألا ينسى نصيبه من الدنيا، وأن يتمتع بكل ما خلقه الله له من ضروب المتعة، بشرط أن يلتزم بالحلال ويبتعد عما حرمه الله، وبشرط ألا يسرف حتى في متعته بالحلال، «إنه لا يحب المسرفين». وقد سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليها - عقب زوال الملك عنهم، «ما كان سبب زوال ملكك؟» فقال: «إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان نعقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا...». ولا يشفع لذلك الفريق من خلفاء بني أمية القول بأن الدولة الإسلامية بلغت في العصر الأموي أقصى اتساعها، وأن الفتوح الإسلامية - براً وبحراً - أدركت أقصى مداها شرقًا وغربًا. ذلك أن هذه الدفعة كانت في الواقع دفعة الإسلام لا دفعة الحكام. فالإسلام هو الذي دفع المسلمين إلى الجهاد، وكان من المتعذر على حركة الفتوح الإسلامية - التي بدأت في عهد الرسول ﷺ - أن تتوقف قبل أن تستنفد طاقتها، وتبلغ الدولة الإسلامية حدودها الطبيعية في المشرق والمغرب. وحسبنا أن نشير هنا إلى أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - ما كاد يبايع بالخلافة إلا وقف في المسلمين قائلا: «لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل». فالجهاد هنا عقيدة، وسياسة أمة، لا سياسة دولة[1].

نعالج في الحياة الاجتماعية عدة محاور أساسية هي: التركيبة السكانية وعناصرها الذين ضمتهم دار الإسلام؛ وفق معيار العرقية. والبناء الطبقي؛ من حيث تحديد طبقات المجتمع على أساس معيار الثروة. والفرق والطوائف والملل والنحل التي عاشت وتضافرت على تشييد صرح الحضارة الإسلامية، وهذا يعني الوقوف على الدين والمذهب كعاملين أساسيين في صياغة بنية الطوائف المذهبية والجماعات الدينية. والمدن والعمران تأسيسا على كون الحضارة الإسلامية حضارة مدنية ودراسة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية، كالمأكل والملبس والمسكن، فضلا

1 - د. سعيد عاشور - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص257.

عن العادات والتقاليد والأعياد والمواسم وما شابه. وأخيرا تحديد وضعية المرأة فى المجتمع العربى الإسلامى. وأن دراسة هذه البنيات المختلفة على أساس العرق والثروة والمذهب ونمط الحياة لاتعنى أن المجتمع الإسلامى كان مفككا. بل على العكس تبرز هذه الدراسة طابع التجانس الذى ميز المجتمع العربى الإسلامى بفضل العروبة والإسلام. هذا فضلا عن انصهار هذه الأصول المتباينة فى بوتقة الحضارة العربية الإسلامية وتضافرها جميعا على تأسيسها وازدهارها. وإليكم البيان.

التركيبة السكانية للمجتمع الإسلامى:

ضمت دار الإسلام نتيجة اتساعها عناصر شتى تنتمى إلى أصول إثنية متباينة مثل العرب والفرس والترك والسريان والقبط والبربر والقوط والزنج والصقالبة. وقد اعتنقت معظم هذه الشعوب والأمم دين الإسلام الذى كفل لمن بقى منها على دينه الحرية الكاملة فى العقيدة وحثها جميعا على العمل المشترك دون تعصب أو انحياز. ومن ناحية أخرى أسفر هذا التنوع الإثنى عن خصوبة أمدت الحضارة الإسلامية بدماء جديدة كفلت لها التطوير والاستمرارية والبقاء. وحسبنا أن سائر هذه العناصر شاركت فى التوجيه السياسى خلال حقب مختلفة دون أن تحتكره أمة من الأمم أو شعب من الشعوب. كما أن الإسلام انطوى على مبادئ إنسانية وأخلاق سامية تحض على التعارف والتواد والتفاعل من أجل ازدهار العمران، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. [الحجرات 13]. وقدشكل العرب فى صدر الإسلام القوة الأولى التى تبنت الدعوة الإسلامية ونشرتها عالميا بعد تأسيس امبراطورية واسعة. وقد شجب الرسول ﷺ العصبية كنزعة استعلائية شعوبية واعتبرها من «الجاهلية الأولى». وحسبنا أن العرب كانوا قبائل شتى متنافسة متشاحنة ما لبثت أن توحدت تحت لواء الإسلام. وإلى العرب يعزى الفضل فى تحقيق وحدة رابطة الدم بعد أن اختلطوا بشعوب البلاد المفتوحة على إثر هجراتهم واستقرارهم فى الأمصار. كما يعزى إليهم فضل تحقيق الوحدة السياسية والدفاع عنها عسكريا بعد أن آلت إليهم

مقاليد الحكم والإدارة. ناهيك عن دورهم فى التعريب اللغوى. بحيث أصبحت اللغة العربية هى لغة العلم والتخاطب. لذلك لم يخطئ بعض الدارسين حين اعتبروا «العرب مادة الإسلام». لكن العنصر العربى ما لبث أن فقد القيادة السياسية والدور العسكرى منذ أواخر العصر العباسى الأول حين ظهر دور الفرس فى الإدارة والترك فى الجيش بعد أن أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء. برغم ذلك ظل العرب يمارسون الحكم نظريا زمن العباسيين حتى سقوط الخلافة عام 636هـ. وذلك لأن الخلفاء العباسيين كانوا عربا. هذا فضلا عن نجاحهم فى تأسيس دويلات عربية ذات طابع جهادى ثغرى كما هو الحال بالنسبة لدويلات الحمدانيين وبنى مرداس وبنى عقيل فى أعالى الشام والجزيرة الفراتية. لكن غالبية العنصر العربى ما لبثت أن عادت إلى حالة البداوة الأولى فاشتغلوا بالرعى والزراعة، كما اشتغلوا بالارتزاق العسكرى وأحيانا بقطع الطرق. ولطالما أثاروا العراقيل فى وجه الدول الأعجمية التى تصدرت الحكم والنفوذ والسلطان. وفى كل الأحوال كان ابتعاد العرب عن الحكم والسياسة واختلاطهم بالشعوب الأخرى ذا أثر فعال فى إتمام عملية التعريب الإثنى واللغوى. ولم نعدم دورا ثقافيا لبعض العناصر العربية التى برزت فى النشاط الثقافى والفكرى من أمثال الخليل بن أحمد والكندى الفيلسوف[1].

أما الفرس فأمة متحضرة بشهادة صاعد الأندلسى الذى اعتبرهم فى كتابه «طبقات الأمم» معدن العلم وموئل النظم قبل الإسلام وبعده. وحسبنا أنهم أقاموا امبراطورية عالمية قبل الإسلام كانت تدين بالمانوية والزرادشتية. وبعد فتح بلادهم أقبل معظمهم على اعتناق الإسلام فعرفوا باسم «الموالى» شأنهم شأن غيرهم ممن اعتنقوا الإسلام من غير العرب. أما من بقى منهم على عقيدته الأولى فقد كفل لهم الإسلام حق «الرعوية والمواطنة» وأتاح لهم الإسهام فى بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية. وحسبنا أن ابن خلدون يذكر فى مقدمته أن «العجم هم حملة

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص125.

العلم فى الإسلام». وبالرغم من سياسة التفرقة العنصرية التى اتبعها الأمويون المتعصبون للعنصر العربى؛ فقد اعتمدوا على الفرس فى الشؤون الإدارية والمالية فضلا عن أعمال الجيش كبناء الحصون والقلاع وتأسيس المدن العسكرية.. إلخ. وقد أقبل الفرس فى العصر الأموى على اعتناق مذهب الشيعة وأسهموا بدور كبير فى ثورات وحركات المعارضة. كما كانوا جند الدعوة والثورة العباسية وبفضلهم وصل العباسيون إلى الخلافة عام 132هـ الموافق 749م. أما الأتراك؛ فكانوا قبائل بدوية رعوية تسكن سهوب آسيا الوسطى المعروفة باسم بلاد ما وراء النهر. وقد فتحت بلادهم فى العصر الأموى بفضل حملات قتيبة بن مسلم والمهلب بن أبى صفرة. لكنهم ما لبثوا أن ارتدوا عن الإسلام فى الغالب الأعم. ومن بقى منهم على الإسلام اشترك فى حركات المعارضة ضد الأمويين خاصة فى ثورات المرجئة.

الأمازيغ البربر من العرب العاربة القرطاجيين:

يقول المؤرخ الفرنسى «بييروسيه P. Rossi»: إن الموجات البشرية الخارجة من الجزيرة العربية هى التى عمرت الشمال الإفريقى وحوض المتوسط بشماله وجنوبه وذلك منذ بدء المرحلة الدافئة الثالثة، ويقول إن قرطاج لم تجلب سوى الخير للبربر، فقد علمتهم غرس الأشجار المثمرة وربتهم روحيا ودينيا، ومن الغريب أن هذا التأثير تعمق أكثر بعد تدمير قرطاج. لقد دمرت روما أسوار قرطاج لكنها فشلت فى تدمير تأثيرها فى نفوس البربر بل إنه كلما تأسس احتلال روما للمغرب كلما انتشرت وتعمقت فى نفوس البربر لغة قرطاج وعقائدها وهل يختلف الوضع الآن عنه آنذاك؟». لنلاحظ مغزى هذا السؤال الذى طرحه المؤرخ الفرنسى إنه يقول: إنه كلما تغلغل الاستعمار المسيحى الرومانى فى الأرض المغربية ازداد المغاربة تشبثا بالعربية والإسلام، وإنه يقول إن التاريخ يعيد نفسه وأنه يؤكد الأصل العربى للبربر من الحفريات والكتابات الأثرية التى اكتشفها علماء الآثار الفرنسيون والأوروبيون. ويقول مؤرخ فرنسى آخر هو «سانتاس P. cintas» يقول غوتييه إن

أوغستين عندما كان يسأل هؤلاء البربر فى دروسه الواعظة ماهو أصلكم؟ كانوا يجيبونه: نحن كنعانيون. ومعنى ذلك أن اللغة البونيقية (الفينيقية) كانت قبل الفتح الإسلامى تقوم بنفس الوظيفة التى صارت تقوم بها اللغة العربية بعد الفتح الإسلامى وأن دخول العربية جاء ليخلف البونيقية بأسلوب تطورى طبيعى من لغة عربية قديمة إلى لغة عربية حديثة طورت على يد الإسلام[1].

تشير جميع الدلائل أن البربر عرب فى أصولهم وأن اللغة البربرية لهجة من لهجات العربية القديمة وكل المتخصصين فى الدراسات أثبتوا أن البربرية واحدة من اللغات العربية القديمة، وكل المكتشفات الأثرية المتعلقة بالنقوش والكتابات القديمة تبين أن البربر أقرب إلى «الحميريين» وأن هجرات عديدة تمت من الجزيرة العربية وبالتحديد من اليمن فى زمن لايقل عن ثلاثين قرنا ق.م. وأن الفينيقيين اختلطوا بالبربر على طول السواحل فى المغرب العربى فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد. ولما كان البونيقيون عربا من بنى كنعان فقد اختلطوا بالبربر الذين هم عرب من العاربة القحطانية، ويؤكد المؤرخون أن مدينة «سوسة» بتونس بناها العرب القادمون من جنوب الجزيرة العربية قبل أربعة آلاف سنة وأعطوها اسم «حضرموت»[2]، وهى بلدة حضرموت التى جاءوا منها، وكما نجد إلى يومنا هذا لدى قبائل «ظفار» و«مهرة» وهى قبائل حضرمية فى اليمن وعمان تتحدث لهجة عربية قديمة ولكنها لاتكتب وهى قريبة جداً لنفس اللهجة البربرية إضافة إلى أسماء القرى والمناطق وكذلك لونهم وبشرتهم وشكلهم البيولوجى قريبا جداً إن لم يكن نفس ماهو لدى البربر ويمكن لأى زائر أن يشاهد هذا التقارب مما يؤكد بأن عرب حضرموت من اليمن قد هاجروا إلى المغرب العربى وحنينهم إلى وطنهم دفعهم إلى تسمية مدينة «حضرموت» فى سوسة نسبة إلى البلد الذى جاءوا منها، حيث إن الفينيقيين فى لبنان قد سموا بنفس مدينة «صور» فى عمان الموجودة حاليًا مما يؤكد على

---

1 ـ عثمان سعدى ـ الأمازيغ البربر عرب عاربة ص22.
2 ـ عثمان سعدى ـ نفس المرجع ص23.

الهجرات العربية القديمة من اليمن إلى العراق والشام ومصر والمغرب العربى الذى هو امتداد طبيعى لجغرافية الطبيعة مثلما كانت أوروبا امتداداً طبيعيًا لهجرات المجموعة الهندوأوروبية.

يقول محمد كاتى وهو من مدينة «تنبكتو» بمالى فى كتابه «طارق الفتاش» الذى ترجم إلى الفرنسية فى باريس عام 1913 إن القبائل الساكنة على ضفاف نهر «النيجر» حتى المحيط الأطلسى جاءوا من اليمن والذى يؤكد ارتباط البربرية بالحميرية أن وزن «أفعول» الذى تشتهر به البربرية هو وزن «حميرى» اشتهرت به هذه اللغة. ويلخص الكاتب الفرنسى فلوريا التطابق الكامل بين العرب والبربر فيما يلى: «أصل مشترك لغة واحدة عواطف واحدة، كل شيء يساهم فى ربطهما ربطا متينا». أما عن تسمية البربر فالنقوش الأثرية المكتشفة تشير إلى أن كلمة بربر وجدت فى اليمن، فجزيرة «بربرة» تابعة لليمن فى مضيق باب المندب، كما وجد اسم قبيلة البر مكتوبًا بالخط الصفائى، ويقول محمد شفيق من المغرب الأقصى وهو متعصب للبربرية: «كتب المؤرخون العرب وجزموا بأن البربر من أصل يمانى من العرب العاربة، وتكمن فكرة التأكيد اليوم على القرابة القديمة بين الأمازيغيين واليمانيين فى ثلاث قرائن. أولا: أن عددا لابأس به من أسماء الأماكن على الطريق الذى يمتد بين المغرب الكبير واليمن لها صيغ أمازيغية واضحة منها فى صعيد مصر «أبنو» أسيوط» و«أيخيم» و«تيما» فى جبل حوران فى الشام و«تيما» فى شمال السعودية، و«تاركما» و«أتبار» و«تيمرايين» فى السودان، و«أكسوم» بأسمرا و«أكولا» و«أكوؤدات» (اكوؤضاد) فى أرتريا، وجزيرة أنتوفاش فى اليمن، ثانيا: لقد عثرت على عدد من الألفاظ العربية التى قال بشأنها صاحب لسان العرب، أنها حميرية أو يمانية وهى ألفاظ لها وجود فى الأمازيغية إما بمدلولها الحميرى أو بمدلول معاكس (الأضداد) ثالثا: بين حروف «التيفيناغ» القديمة ومنها «التوارقية» وبين حروف الحميريين (الأبجدية الحميرية ـ المسند) شبه ملحوظ» [1].

---

1 ـ عثمان سعدى ـ نفس المرجع ص24.

توجد أسماء باليمن متطابقة مع أسماء لقبائل بربرية كالأشلوح: اسم قرية وقبيلة باليمن، والشلوح تجمع كبير للقبائل البربرية بالمغرب الأقصى، والأكنوس عشيرة من بين مهاجر باليمن ومكناسة بالمغرب، ومما يؤكد عروبة البربر أن المغرب العربى لم يحكم بالدولتين الأموية والعباسية فقد انفصل منذ وفاة عمر بن عبدالعزيز وحكم البربر المسلمون أنفسهم بأنفسهم منذ ذلك التاريخ من خلال أكثر من عشر أسر بربرية حكمت المغرب العربى حتى مجيء العثمانيين ولم يحدث أن قال حاكم واحد من هؤلاء إن المغرب بربرى وأن العربية لغة دخيلة ولابد من ترسيم البربرية بل عملوا كلهم على نشر العربية وتطويرها، بينما نجد الأتراك والفرس حكموا من الدولتين الأموية والعباسية أكثر من خمسة قرون وبمجرد سقوطهم عاد الفرس فرسًا بلغتهم والأتراك أتراكًا بلغتهم. وهل بقاء المغرب عربيا حتى الآن صدفة تاريخية؟ لايوجد ذلك فى التاريخ؟! كما يقول المؤرخ الفرنسى «غوتييه E.F.GATIER» يلاحظ أنه لايوجد كتاب واحد كُتب بالبربرية كما أنه لاتوجد كتابة حقيقية لها، بل لاتوجد لغة بربرية منظمة». أما عن الحروف التى تمتاز بها البربرية ولاتوجد بالعربية (لهجة قريش هى اللغة العربية الحالية) فإن الكثير منها موجود باللغة العربية اليمنية القديمة المفخمة التى توجد بالكتابة العربية اليمنية القديمة، فحرف X بخط المسند اليمنى هو هذه الزاى المفخمة، التى يقول عنها ابن منظور صاحب قاموس لسان العرب: «إنه حرف عربى قديم حذف من العربية الحديثة». ولازالت البربرية تحتفظ به، وهذا يدل على الأصل العربى للبربرية. كما أن الكاف المعطشة بالبربرية ليست غريبة عن العربية، فاختلاف نطق الكاف ليس غريبًا عن العربية التى تعتبر اللغة الوحيدة فى العالم التى ينطق فيها الكاف بعدة مخارج حروف وفقًا للهجات العربية كالكشكشة والشنشنة وغيرها. ويقول محمد شفيق «إن البربرية صورة مثبتة مجمدة من لغة قديمة تفرعت عنها اللغة العربية فى وقت ما وهذا يدعم وحدة اللغتين القديمة»[1].

---

1 ـ عثمان سعدى ـ نفس المرجع ص25.

ويقسم النسابة البربر إلى شعبين عظيمين، البرانس والبتر. والبرانس هم سكان المناطق الشمالية الساحلية؛ وهم أهل حضارة أطلق عليهم ابن خلدون اسم «أهل المدر». ومن أهم قبائلهم صنهاجة. أما البتر فهم بدو أطلق عليهم ابن خلدون «أهل الوبر». وتعد قبيلة زناتة أعظم قبائل البتر. والبربر أمة اشتهرت بعشق الحرية والفروسية. وهذا يفسر استماتتهم فى مواجهة الجيوش العربية فى العصر الأموى حتى إن ابن خلدون سماهم «الأمازيغ» أى المقاتلين الأشداء. وقد تم فتح بلاد المغرب على يد موسى بن نصير فى العقد الثامن من القرن الأول الهجرى. وإليهم يعزى الفضل فى فتح إسبانيا بقيادة طارق بن زياد. وقد استقرت قبائل من البربر فى إسبانيا ولعبت دورا موجها فى تأسيس إمارات إسلامية. واعتنق البربر مذهب مالك على صعيد الفقه، واتخذوه إيديولوجية ثورية ضد بنى أمية وبنى العباس. وقد نجحوا فى تأسيس عدة إمارات مستقلة مثل إمارة بورغواطة عام 127هـ الموافق 744م.

اهتم عبد الرحمن ابن خلدون بدراسة أجداد الطوارق من الصنهاجيين الذين ردهم إلى أصول عربية نزحت من جنوب الجزيرة العربية من حضرموت فى اليمن، ويؤكد ابن خلدون أن صنهاجة هم أجداد الطوارق الذين آثروا الصحراء على العمران وانتشروا فى أطراف الصحراء حتى وصلوا إلى إقليم السافانا جنوبا مثل مالى والنيجر، ويؤكد ابن خلدون بأن صنهاجة الذين نزحوا من جنوب الجزيرة العربية فى حضرموت من اليمن هم أجداد الطوارق وأن أحدا لم يعد يذكر شعب صنهاجة اليوم وإنما أصبح اسم الطوارق هو الاسم المقرون بالصحراء[1] ويقول ابن خلدون ما ذكره أكثر نسابة العرب من أن صنهاجة وكتامة تنتسبان إلى العرب ويقول إن نسّابة البربر يعتبرون أنفسهم أنهم من عرب «كلواتة» الذين ينتسبون إلى «حمير» و«هوارة» الذين ينتمون إلى قبيلة «الكندة» القوية من قبائل حضرموت فى اليمن[2].

1 ـ د. محمد السويدى ـ بدو الطوارق ـ ص73.

2 ـ إبراهيم بركات ـ المغرب عبر التاريخ ج1 ص20.

طبقات المجتمع الإسلامى: يدعو الإسلام إلى المساواة وعدم اتساع الهوة بين الطبقات؛ لكن الواقع التاريخى العيانى شهد تجاوزات حالت فى أغلب الأحيان دون تطبيق هذه المبادئ السامية، لذلك انقسم المجتمع إلى طبقات نتيجة الخلل فى توزيع الثروة. وهنا يظهر دور الأساس الاقتصادى فى تشكيل البناء الطبقى، وهو أمر يدحض مزاعم الدارسين الذين أخطأوا فهم مفهوم الطبقة حين ميزوا بين الطبقات على أساس العنصر، فزعموا بوجود طبقة العرب وطبقة الموالى. وبالمثل أخطأ من قسموا المجتمع الإسلامى إلى طبقات وفق معيار المهنة والحرفة؛ فقالوا بوجود طبقة «أهل السيف» وطبقة «أهل القلم».. إلخ. إلا أن بعض الجغرافيين القدامى كانوا أقرب إلى الحقيقة حين جعلوا الثروة معيارا فى التمييز بين الطبقات. من هؤلاء ابن الفقيه الذى قال «ينقسم المجتمع إلى أربع طبقات: ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة وعِلْية أنهضهم اليسار وأوساط ألحقهم بهم التأدب، أما الناس بعدهم فزبد وجفاء». نرجع أسباب صعوبة استقراء البناء الطبقى إلى عدة عوامل منها اتساع مجتمع دار الإسلام وتغير مجريات أحواله عبر تاريخ طويل؛ حيث تخلخل البناء الطبقى كثيرا ولم يتسم بالديمومة والثبات، ووقوع الدارسين المحدثين فى أخطاء تتعلق برصد الأحوال الاقتصادية وعدم اتفاقهم على حقائق ثابتة توضح أنماط الإنتاج السائدة والأنماط الأخرى الهامشية. وحسبنا أن بعض الدارسين ذهبوا إلى سيادة النمط الإقطاعى فى العالم الإسلامى، وآخرون قالوا بتواجد النمط الرأسمالى بينما قال فريق ثالث بسيادة نمط الإنتاج الخراجى، وتأسيسا على هذا الاختلاف فى تحديد أنماط الإنتاج، اشتبه الدارسون فى رصد الطبقات الاجتماعية وتبيان شرائحها رصدا دقيقا. الخلط بين الأيديولوجيا وبين الواقع المتطور. فلكون الإسلام يدعو إلى مجتمع الأخوة؛ ذهب بعض الدارسين الذين لم يخبروا حقيقة التاريخ الإسلامى إلى أن مجتمع «دار الإسلام» بلا طبقات. لم يكن هذا الخطأ إلا نتيجة عدم التمييز بين المثال والواقع، بين النظرية والتطبيق. والاستناد إلى نظريات مسبقة فى تأويل البناء الطبقى تأويلا معتسفا لا تنهض حقيقة الأوضاع العيانية التاريخية على صحته.

لذلك نهجوا منهج الانتقاء والاختيار للدلالة على صحة فرضياتهم المسبقة. والافتقار فى الأدب التاريخى الوسيط إلى دراسات رائدة، فى هذا المجال. إذ عول القدامى - بوجه عام - على رصد مظاهر الحياة الاجتماعية دون تعليلها وتأويلها. وبالمثل نهج المؤرخون المحدثون نفس النهج حين جاروا القدماء ولم يفطنوا إلى العلم النظرى وأهميته فى فهم الوقائع والأحداث التاريخية. محاكاة بعض الدارسين العرب تفسيرات المستشرقين للتاريخ الإسلامى تفسيرات غيبية وتيولوجية وإثنية وعنصرية من أجل تضبيب هذا التاريخ انطلاقا من أهداف استعمارية فى الغالب الأعم[1].

رصد البناء الطبقى انطلاقا من فهم تلك المحاذير السابقة والإشارة فى هذا الصدد إلى عدة حقائق هى: عدم تحديد الهرم الطبقى فى العالم الإسلامى تحديدا قاطعا نظرا لعدم قيام ثورة رأسمالية من شأنها حسم قضية تداخل الإنتاج وتكوين مجتمع طبقى واضح. وتداخل البنية الطبقية؛ نظرا لتعايش أنماط الإنتاج وتداخلها؛ الأمر الذى أفضى إلى تعدد الشرائح داخل الطبقة الواحدة، فضلا عن تداخل الطبقات فى بعضها البعض. واختلاف الخريطة الطبقية باختلاف مراحل التطور التاريخى. فكثيرا ما حدثت الخلخلة فى الهرم الاجتماعى بحيث صعدت طبقات وهبطت أخرى وفق اختلاف المعطيات السياسية والاقتصادية. وتأسيسا على ذلك يمكن أن نميز فى دراسة البنية الطبقية بين مرحلتين أساسيتين: الأولى مرحلة الصحوات البورجوازية والأخرى مراحل السيادة الإقطاعية. وذلك كالآتى:

الطبقة العليا: تشمل شرائح شتى من الحكام والوزراء والأمراء. أى تحوى السلطة الحاكمة التى كانت فى الدولة الأموية من العرب ثم من العصبيات الحاكمة بعد تجزئة «دار الإسلام» إلى ولايات مستقلة وسلطنات مستبدة. وكانت هذه الشريحة يغلب عليها الاستنارة والإصلاح فى عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية التى اصطلحنا على تسميتها بعصور الصحوة البورجوازية. ومن ثم

1 - د. محمود إسماعيل - المرجع السابق ص133.

أنجـزت إنجازات طيـبة على كـافـة الأصعـدة السيـاسـية والإدارية والاقـتصـادية والاجتماعية والثقافيـة. فقد استعانت هذه الحكومات بذوى الرأى والعلم والكفاءة والتقوى وشجعت العلوم والفنون والآداب. أما فى عـصور الإقطاعية فقد اتسمت حكوماتهـا بضيق الأفق وسطحـية الاعتقـاد الدينى والميل إلى الهوى، فـضلا عن خشونة الطبع الناتجة عن البـداوة. لذلك أفلست إداريا؛ حيث تمزقت وحدة العالم الإسلامى بسـبب تنافسهـا على السلطان وحيازتهـا الأرض واحتكاراتها الصناعـية والتجارية، هذا فـضلا عن إسرافها فى فـرض الجبايات والمغارم والمبالغـة فى حياة اللهو والتـرف. كذا إحياؤها الـنزعات العنصرية والنعـرات العرقية وإضـرام نيران الطائفيـة المذهبيـة. كما عـرفت بميلها إلى النصية فـحاربت العقل لصـالح النقل وأحلت الاتباع محل الإبداع.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الطبقـة شريحـة «الأشراف» من آل البـيت التى أغدق عليها الحكام فمنحوها الإقطاعات وأجروا عليها الرواتب شراءً لمسالمتها. ولا غرو فـقد أسست «نقابات الأشـراف» من الطالبيين والعـباسيين الذين عـرفوا بزى خاص وعـمائم خضـراء تمييزا لهم عن سـائر المسلمين. كـما كان لهم قـضاؤهم الخاص الـذى حيل بين نسـائهم وبين الزواج من غيـر آل البيت حـتى لا يمتـهن النسب الشريف. أما الكـتاب فيمثلون إحـدى شرائح هذه الطبقة بفضل تقـاضيهم الرواتب العالـية وحيـازتهم الضياع واحـتكار منصب الكتابـة الذى كان يورث فى أبنائهم. كما اشتغلوا بالتجارة عن طريق «الوكالة» وحازوا الأموال والجاه والشهرة. وبالمثل نعم قواد الجند بهذه الامتيـازات وازداد نفوذهم فى عهود الحكام الضعاف. فقـد تقاضوا الأعطيـات الثابتة وأقطعـوا الأرض فى عصور السلاطـين العسكريين ونافسوا الكتاب على المناصب وسـخروا الرعية للخدمة فى ضيـاعهم. كما اندرج «فقهاء الحكـام» مع هذه الطبقة كذلك، إذ تولوا مناصب القضاء والإفـتاء وتصدوا لتبرير السياسات الجائرة للحكام. كما تصدوا لحركات العوام ضد السلطة يرهبونهم باسم الدين. لذلك تقلبوا فى حياة الترف والبذخ فاقتنوا الأرض وحازوا الإنعامات

وغصت قصورهم بالجوارى والغلمان. كما أسهموا فى إذكاء الصراعات المذهبية والطائفية وحاربوا العلماء والفلاسفة وحجروا على الفكر الحر باسم النّصيّة[1].

الطبقة الوسطى: تتكون من كبار التجار ورؤساء الحرف فضلا عن المستنيرين من الفقهاء والمشتغلين بالعلم والأدب، كذا من الجهابذة والصيارفة. وعلى أكتاف الطبقة الوسطى قامت الحضارة العربية الإسلامية. وقد تراكم رأس المال فى أيدى أفراد هذه الطبقة التى كانت من وراء السياسات الإصلاحية للحكام المستنيرين. وإليهم يعزى الفضل فى النهضة العلمية والرخاء الاقتصادى والتجانس الاجتماعى. لكن هذه الطبقة لم تقم بواجبها التاريخى فى إنجاز تحول رأسمالى؛ وذلك لعدة أسباب: منها ارتباط مصالحها بمصالح الطبقة العليا الحاكمة، وفى ذلك يقول ابن خلدون «إن الدولة هى السوق الأعظم للتجارة». لذلك تخلت عن دورها فى قيادة طبقة العوام وانحازت فى غالب الأحيان للدولة. كما أن الكثير من أفراد هذه الطبقة كانوا من أهل الذمة؛ فلم يقدر لهم المنافسة على السلطة لمحاذير دينية. يضاف إلى ذلك اشتغال أفراد هذه الطبقة - غير المتجانسة - بحرف ترتبط فى رواجها أو كسادها بمدى قوة الدولة أو ضعفها. فقد تعاظمت - على سبيل المثال - إبان سيطرة العالم الإسلامى على تجارة العبور الدولية، لذلك حق لبعض الدارسين القول بأن «البرجوازية الإسلامية كانت مهجنة وضعيفة وعاجزة عن الاضطلاع بدور تاريخى». ولذلك حمّلها ابن خلدون مسؤولية «خراب العمران» حين آثرت حياة الدعة والترف ولم تسخر رؤوس أموالها فى مشروعات استثمارية بقدر ما وظفتها فى اقتناء الأرض وبناء القصور تاركة أمور التجارة «للوكلاء والحشم». أما رؤساء الحرف فكانوا عاجزين عن إنجاز «ثورة صناعية» نظرا لتضييق الدولة عليهم واحتكارها الصناعات الهامة. فضلا عن إرهاقهم بالمغارم والمكوس وتعرضهم للبطش والمصادرة والنهب إبان عصور تسلط الإقطاع العسكرى. لذلك انحصر دورهم فى الدفاع عن مصالحهم الخاصة بتشكيل «ميليشيات» من الفتيان والعيارين والشطار لمواجهة إغارات العسكر.

1 - محمود إسماعيل - نفس المرجع ص136.

انخرط العلماء والأدباء المستنيرون فى أحزاب المعارضة وعولوا على إذكاء الوعى وتحريض العوام. وكثيرا ما قادوا حركاتهم التى كان العسكر يقمعونها فى قسوة وعنف. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك فى مقدمته بما يغنى عن البيان. لذلك انصرفت هذه الشريحة إما إلى حياة العلم والزهد أو إلى امتهان الحرف. لكنها فى كل الأحوال كانت من وراء النهضة الثقافية التى أفرزت الفكر العقلانى والعلم التجريبى والأدب الراقى والفن الإسلامى. أما المشتغلون بأمور المال من الصيارفة والجهابذة فكانوا فى الغالب الأعم من «أهل الذمة» الذين يؤثرون السلامة والعافية. لذلك لم يكن لهم أدنى دور يذكر على صعيد الحضارة العربية الإسلامية. ذلك أن نشاطهم اقتصر على جمع المال وإقراضه بالربا، حتى إن الحكام كانوا يقترضون منهم فى أوقات الشدة. وغالبا ما صادروا أموالهم ونهبوها خاصة إبّان عصور الإقطاع العسكرى. لذلك لم تقم الطبقة الوسطى بذات الدور الذى اضطلعت به البورجوازية الأوروبية فى إنجاز ثورة رأسمالية بعد القضاء على الإقطاعية. وهذا يفسر قول «كلود كاهن» بأن «العالم الإسلامى كان خلوا من بورجوازية طموحة وقادرة على إنجاز تحول تاريخى». وهو أمر سوف نعرض له فيما بعد بالتفصيل[أ].

طبقة العامة: من الثابت أن هذه الطبقة هى التى قامت بعبء الإنتاج الزراعى والرعوى والصناعى والتجارى. ومع ذلك عزف المؤرخون عن التأريخ لها. فلم يرد لها ذكر فى الحوليات التاريخية اللهم إلا حين تنتشر الطواعين والمجاعات فتودى بمعظم أفرادها. كما تحامل عليها المؤرخون الرسميون؛ فنعتوا أفرادها بالسوقة والحرافيش والصعاليك وأهل المياه وما شابه من نعوت. لكننا - من حسن الحظ - نجد معلومات صافية عنهم فى كتب الأدب والرحلات التى تصف أحوالهم ومعاشهم وعاداتهم وتقاليدهم.. إلخ. وتمثل طبقة العامة معظم السكان فى «دار الإسلام». وهى تتكون من الأحرار والأرقاء. ومن أهم شرائح العامة، الفلاحون

أ - محمود إسماعيل - نفس المرجع ص138.

والحرفيون وصغار التجار والرعاة. أما الفلاحون فيسكنون فى الريف حيث القرى والمراكز والنواحى المعروفة فى مصر والشام وإسبانيا باسم «الكور» وفى فارس باسم «الرساتيق». وقد حاز بعض الفلاحين أنصبة محدودة من الأرض الزراعية فعُدُّوا لذلك من صغار الملاك. أما السواد الأعظم منهم فكانوا «مؤاجرين» أى يتقاضون أجرا عن قيمة عملهم. وقد تباينت أحوالهم من عصر إلى آخر. فقد ساءت إبان العصر الأموى تلك التى سادتها الإقطاعية. حيث أُثقلوا بالمغارم وسخروا للعمل فى ضياع كبار الملاك. وأرهِق صغار الملاك بالجبايات حتى اضطروا إلى هجرة أراضيهم والهرب إلى المدن. كما عانوا من شظف العيش حتى كانت المجاعات والأوبئة تحصدهم حصدا. لذلك قاموا بثورات اجتماعية ذات طابع فلاحى. كما اشتغلوا أحيانا بقطع الطرق واللصوصية. وكانوا يجندون فى سلك أحزاب المعارضة طمعا فى تحسين أحوالهم. كما تشكلت منهم جماعات «الصعاليك» الذين كانوا ينهبون أموال الأثرياء ويوزعونها بينهم بالتساوى. وكثيرا ما نجحوا فى إقامة كيانات معارضة للسلطة. وفيما يتعلق بالحرفيين؛ فكانوا يسكنون المدن حيث يمتهنون الحرف التقليدية كالحدادة والنجارة والبناء والجزارة والحياكة وما شابه. ومنهم من عمل بمصانع الدولة وفابريقات رؤساء الصناع. وقد تدهورت أحوالهم فى عصور الإقطاعية كذلك؛ حيث عانوا من البطالة والغلاء ونهب العسكر حوانيتهم وأسواقهم. كما تعرضوا لمزيد من المكوس والجبايات وأرهقوا بالمغارم والسخرة فى بعض الأحيان؛ لذلك اندرجوا فى جماعات «الفتوة» التى ناصبت السلطة العداء. كما اندرجوا فى أحزاب المعارضة شأنهم شأن الفلاحين. وكثيرا ما قاموا بثورات اجتماعية. وتنسحب نفس الظاهرة على صغار التجار الذين كانوا أيضا حرفيين فى نفس الوقت كما هو حال الرعاة إزاء الفلاحين[1].

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص138.

إحياء العصبية القبلية: عرفت الدولة الأموية بالانحراف عن الوجهة الإسلامية، أى وجهة المساواة بين الأجناس البشرية التى أوصى بها القرآن ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات ـ13] والنبى ﷺ (لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى). والواقع أن العصبية العربية التى اتسمت بها سياسة الدولة الأموية فى معظم عهودها، ترجع بداية ظهورها إلى عهد معاوية بن أبى سفيان نفسه، ففى الظروف التى أقام فيها دولته باسم «الخلافة» الإسلامية، لم يكن يؤمل أن تتوطد هذه الدولة فى أرض الإسلام كلها، إذ كان الصراع السياسى، فى الوقت الذى أعلن فيه الخلافة لنفسه، قد بلغ من الحدة مبلغا ينذر بهبوب العواصف فى وجه الدولة الناشئة هذه، ولم يكن يعتمد لمقاومة ما سيواجه من هذه العواصف سوى أهل الشام، مسلمين وغير مسلمين، وكانت الظواهر البادية على سطح الأحداث حينذاك تضع فى تصور معاوية عدة احتمالات كان أبرزها احتمال أن تبقى دولته محصورة فى معقلها الأول: بلاد الشام «كانت بلاد الشام يومئذ تشمل سورية، فلسطين، لبنان». هذه الظروف التى أحاطت بنشوء دولة معاوية، اضطرته أن يقف على صعيدين يبدو أول الأمر أنهما متناقضان دون أن يكون بينهما تناقض فى واقع الأمر: صعيد التحالف الوطيد مع السكان الأصليين، ولاسيما على صعيد التحالف الوطيد مع أقوى القبائل العربية التى يقطن أبرز فروعها وأقواها وأكبرها فى بلاد الشام، وهى القبائل القحطانية المنتمية إلى أحد القسمين الرئيسيين «اللذين يقسمان الشعب العربى كله من حيث الأصل القديم: قسم القحطانية أو الكلبية ذات المنشأ اليمنى (جنوب الجزيرة العربية)، وقسم العدنانية أو القيسية ذات المنشأ الحجازى (شمال الجزيرة). وقد كان عرب بلاد الشام فى الأغلب من اليمنيين الكلبيين فى عهود السيطرة البيزنطية على بلاد الشام. وحين حصل الفتح العربى، فى هذه المنطقة كان بين الفاتحين من ينتسبون إلى المنشأين الكبيرين القبائل اليمانية والحجازية، وكانت دوافع الفتح المشتركة بينهم جميعا تحول دون ظهور العصبيات والنزعات القديمة[1].

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ج1 ص470.

أما معاوية، بحكم انتمائه الأموى القرشى، كان من المفترض أن يأخذ بالعصبية الحجازية، لأن قريشًا حجازية. ولكن الرجل كان سياسيا حاذقا، فلم تكن تعنيه عصبية ما إلا بقدر ما تساعده أو لا تساعده فى دعم سياسته وتحقيق مطامحه السياسية. لذلك كان يسيرا عليه جدا أن يتحالف مع الكلبيين اليمنيين ضد الحجازيين، ليتخذ من هذا التحالف قوة تضمن له تأييد مختلف القوى ذات الشأن فى بلاد الشام. وقد شاء أن يوطد تحالفه مع الكلبيين بزواجه منهم، فتزوج «ميمونة» الكلبية، ثم زوج ولده منها يزيد، بإحدى نسائهم كذلك. حينذاك كانت بوادر انتعاش العصبية القبلية قد ظهرت من جديد فى أعقاب انفجار الصراع السياسى منذ مقتل عثمان، وبتأثير ما كان عليه اليمنيون فى بلاد الشام من أحوال مادية هى خير من أحوال الحجازيين فى سائر أماكنهم، وما كان لهذا الفرق بين هؤلاء وأولئك من إثارة التحاسد والتباغض بين الفريقين. لقد جاء تحالف معاوية مع اليمنيين عاملا جديدا فى إثارة الحجازيين. وقد شمل هذا التحالف المسلمين والمسيحيين من اليمنيين فى بلاد الشام. ومن ذلك الحين برزت العصبيات القبلية بين هذين القسمين من العرب كظاهرة سياسية منظمة أكثر منها ظاهرة بدوية عفوية. وكان يرمى معاوية من ذلك أن يجعل من العنصر العربى دعامة أساسية لطموحه الشخصى وطموح الأرستقراطية الأموية فى أن تمتد دولته الناشئة إلى سائر الأمصار التى كان العرب قد وطدوا فيها وجودهم، وكان اليمنيون والحجازيون معا موجودين فى معظم هذه الأمصار. فقد رأى معاوية أن تحالفه مع اليمنيين فى بلاد الشام سيتيح له كسب هذا القسم من العرب فى كل بلد يقيمون فيه، وأنه كلما اشتد الصراع القبلى بين قسمى العرب هذين، ازداد اليمنيون فى كل مكان تماسكا فى نصرة الحاكم الذى أصبح حلفا لهم، وأصبحت دولته الناشئة جزءا مهما من قوتهم ضد خصومهم الحجازيين أينما كانوا[1].

---

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ج1 ص471.

تحقق لمعاوية مـا كان يطمح إليه، وأخذت الدولة الأمـوية التى كان له فضل تأسيسـها، تخرج من مـعقلها الأول (بلاد الشـام) وتتوسع لتصـبح بعد قليل هى وحدها دولة العرب إلى نحو قرن (89 سنة) من الزمن. وكان اليمنيون دائما السند القوى لهـذه الدولة بالفعل، حـتى كانوا العوامل الحـاسمة التى منعـت عنها خطر الزوال عند موت معاوية الثانى بن يزيد، أى الحـفيد المباشر لمعاوية الأول المؤسس. فقد تعرضت دولة بنى أمية حينذاك لأزمة كادت تقضى عليها لولا مساندة اليمنيين لها. وذلك حـين قام عـبدالله بن الزبيـر بطلب الخلافـة لنفسـه وتبعـه فريق من المسلمين فى الحـجاز والعراق وانتـصر له الحجـازيون، فنشبت معـركة طاحنة بين القبائل اليمنية والحجازية فى مرج راهط قرب دمشق، واستبسل اليمنيون فى الدفاع عن دولة بنى أمية دفاعًا عن مصالحهم، حـتى هزموا خصومهم الحجازيين وأعادوا لهذه الدولة قوتها. ولكن نتائج هذه المـعركة نقلت الدولة الأموية من أيدى الأسرة المؤسسة، أسـرة معاوية (آل أبى سفيان)، إلى أيدى الأسـرة الأموية الأخرى (بنى الحكم). فقد اعتلى عرش الخلافة الأموية فى دمشق بعد معركة مرج راهط مباشرة مروان بن الحكم، واستمر هذا الفرع الأمـوى على رأس الدولة حتى نهايتها، ولم يحكمها من آل معاوية سوى ثلاثة: معاوية المؤسس، ويزيد ابنه، ومعاوية بن يزيد حفيده[1].

النظام الاجتماعى فى الدولة الأموية:

ظهر لنا، إذن، أن معاوية الأول اعتمد القبائل العربية، كقاعدة لحكمه. فهل هذا يعنى أن النظام الاجتماعى للدولة الأموية قام على أساس قبلى؟. أى هل عاد معاوية بالنظام الاجتماعى إلى وراء، إلى النظام القبلى الذى رأيناه يتفكك حتى فى العصـر الجاهلى. إن إعادة التـاريخ إلى وراء غير ممكـنة موضوعـيا، فكيف تمكن إعادته بإرادة ذاتية؟. لكن، حتى الإرادة الذاتية لم تكن موجودة عند معاوية. فهو مؤسس دولة. وهذا بذاته وضع متقدم تاريخـيا بالنسبة للوضع القبلى. ثم إن هذه الدولة نفسها التى أسسها كانت تحققا لضرورة تاريخية بعد نشوء التمايز الطبقى فى

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص472.

مجتمعها ذاك. وهذه الضرورة هي ما يلازم تكون الدولة من صفة الاستقرار وصفة التراكم اللتين هما في علاقة جدلية مع التطور الاجتماعي. وقد كانت شروط هذه الضرورة متوفرة في بلاد الشام حين فتحها العرب. وفي الوقت الذي كان فيه معاوية حاكما على هذه البلاد، كان قد مر زمن طويل على المنطقة منذ أخذ الاقتصاد الطبيعي فيها يتفكك ويتفسخ، وأخذت تحل محله روابط اقتصادية جديدة لا في بلاد الشام وحسب، بل في بلاد ما بين النهرين وغيرها من أنحاء هذه المنطقة في الشرق، وكانت قد نشأت فيها جميعا مراكز لاستقطاب عمليات التبادل المحلية أول الأمر، ثم المنطقية بتوسع متدرج. أي أن التطور التاريخي كان حينذاك قد قطع شوطا طويلا إلى نشوء نظام اجتماعي اقتصادي يتجاوز طابع الاقتصاد الطبيعي.

وفي عهد معاوية، أميرا ثم حاكمًا للدولة، كانت السمة البارزة لهذا النظام في المنطقة كلها امتدادا من العهود البيزنطية والساسانية، هي السمة الاقطاعية المتحصنة بطابعها العسكري. وقد رأينا في كلامنا السابق على عهد الخليفة الراشدي عثمان كيف تحول الحكام الأمويون الذين عينهم على الأمصار إلى مالكين للأرض بسرعة، بل تجاوزوا حدود موقفهم، كحكام وفدوا إلى هذه الأمصار لا بصفة كونهم فاتحين وحسب، بل حاملين إلى سكانها دعوة جديدة تغريهم بأنها دعوة تناهض ظلم الحكام السابقين. ورأينا كيف أدى تجاوزهم هذا الموقف إلى ثورة اجتماعية أدت إلى مصرع الخليفة نفسه. والواقع أن موقف هؤلاء الحكام العرب لم يكن موقفا ذاتيا فرديا، بل - إضافة إلى الموقف الاجتماعي الطبقي - كان في المسألة واضع موضوعي كذلك. نقصد أن الشكل التاريخي الخاص للعلاقات العسكرية الذى نشأ في بلاد الشام، كما نشأ في بلاد ما بين النهرين، قبل الفتح العربي - الإسلامي، كان هو السمة الغالبة للنظام الاجتماعي القائم في هذه البلاد. فلم يكن ممكنا إذن إلا أن يحدث هذا الشكل التاريخي أثره، بصورة موضوعية، في تكييف نظام الحكم العربي بعد الفتح وبعد الاستقرار الذى عرفته

بلاد الشام أثناء إمارة معاوية ثم مملكته. ثم كانت المصلحة الطبقية للحكام الأمويين أن يستفيدوا إلى أقصى الحدود من النظام الذى وجدوا له جذوره النامية وعلاقاته الإنتاجية الغالبة، وأن يندفعوا إلى تعميق أسس هذا النظام وترسيخها أكثر فأكثر. أما المصلحة الطبقية هذه فقد تكونت من أن معاوية وأسرته أصبح فى حيازتهم أراض واسعة كانت قبل الفتح العربى ـ ملكا لامبراطور بيزنطة وأرستقراطيتها، وكان من المفترض ـ حسب نظام الأراضى فى الإسلام ـ أن تكون ملكا عاما للدولة الإسلامية، ولكنها تحولت، تحت سلطة معاوية وأقربائه وبطانته، إلى ملكية خاصة استخدم الخبراء السوريين فى تنظيم زراعها وريها، حتى أصبح هو وأخص أقربائه وبطانته من أكبر المُلاّك العقاريين وتألفت منهم الأرستقراطية شبه الإقطاعية الجديدة بعد الفتح، فى حين كان العرب الآخرون مشغولين بأعمال الفتح فى مناطق بعيدة أو مرابطين فى المعسكرات لحماية الدولة من الانتفاضات أو لمحاربة الأحزاب المناوئة للأمويين فى العراق وغيرها. من هنا تكونت لدى العرب وقتئذ تقاليد فرضتها عليهم ظروف الفتح وظروف الصراع السياسى «الداخلى» هذه، ومن هذه التقاليد مثلا: احتقارهم للأعمال الزراعية والحرفية التى أوجبت تلك الظروف كلها أن يختص بها العبيد والسكان الأصليون. ونشأت بتأثير هذه التقاليد ـ إضافة إلى بقايا التقاليد القبلية ـ نزعة التعالى على غير العرب التى أخذت بها الدولة الأموية وظهرت، بتسميتها العناصر غير العربية بـ «الموالى»[1].

كان يعنى هذا التمييز، إذن، أن كل من ليس عربيا فى ظلال الدولة الأموية، يطلق عليه وصف «موالى». وقد كان هذا النوع من التمييز أحد العوامل التى قوضت دولة الأمويين قبل أن تكمل من عمرها قرنا زمنيا. والواقع أن معاوية مؤسس هذه الدولة لم يكن يريد أن يجعل هذه المسألة، مسألة التمييز، قاعدة أساسية للحكم الأموى حين ساعد فى أوائل عهده على إحياء العصبية القبلية، وإنما كان يستوحى فى ذلك الحين مصلحة مؤقتة دعته أن يستفيد من التخاصم

---

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص473.

اليمنى ـ الحجازى لتوطيد عرشه حين هو لايزال مهددا بهزات عنيفة بعد تغيير وجهة الخلافة عن مواقعها الراشدية. غير أن الحكام الأمويين الذين جلسوا بعده على هذا العرش قد أفرطوا فى إبراز العصبية العربية اليمنية والحجازية حتى أثاروا نقمة الفئات غير العربية من مواطنى دولتهم كما أثاروا فيها نزعة التعصب المضاد، وهذه النزعة نفسها هى التى كانت منشأ تلك الحركة التى ظهرت فى أواخر عهد الدولة الأموية واستمرت تتبلور فى عهد الدولة العباسية إلى أن أصبحت حركة معادية للشعب العربى ذاته، ولتاريخه وثقافته، بحيث دفعها العداء لكل ماهو عربى أن تخلق تيارا فكريا يحمل راية التشنيع بكل ما فى تاريخ العرب من أدب وفكر وقيم وتقاليد. نعنى بها حركة «الشعوبية» المعروفة. وينبغى أن نذكر بصدد النظام الاجتماعى فى العهد الأموى ما فعله معاوية فى أيام خلافته من تطوير عملى ملموس لمفهوم «الدولة» العربية الناشئة مكنها أن تصبح ظاهرة حضارية فى تاريخ العرب. فقد أسس لها «الدواوين» المختلفة التى نهضت بدور أولى لما يسمى فى عصرنا بالدوائر الحكومية أو الوزارات، كدواوين الضرائب والمكوس والحسابات وديوان الرسائل وديوان القضاء إلخ. غير أن سجلات بعض الدواوين هذه كانت تستخدم اللغات المحلية أول الأمر، كاللغة الفارسية فى إيران والعراق، واليونانية فى سورية، والقبطية فى مصر. وكذلك النقد المتداول بقى كما كان قبل الفتح العربى إلى عهد عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك، اللذين أحدثا إصلاحات مهمة فى تنظيم الدولة كإنشاء نقد خاص بها، وتوحيد نظم إدارة الدولة ومسح الأراضى وتسجيلها باللغة العربية، وإحلال هذه اللغة فى سائر أعمال الدولة ودواوينها محل اللغات المحلية السابقة. وقد ظهر الوجه الطبقى لمعنى الدولة فى عدة مظاهر، عدا السمة العامة للنظام الاجتماعى، التى قلنا إنها السمة شبه الإقطاعية. ومن هذه المظاهر: اعتماد الحكم الأموى ـ ولاسيما حكم معاوية ـ إبقاء الطبقة المسيطرة المحلية على سلطاتها السابقة، ومنها سلطة المحاكم وسلطة الشرطة. وحين عربت مؤسسات الدولة فى عهود الخلفاء المروانيين انتقلت هذه

السلطات إلى أيدى الفئات المقربة من الطبقة الحاكمة، أى أن الوجه الطبقى ظل محتفظا بطابعه وإن تغير الشكل. وهذا أمر طبيعى بالنسبة للطابع الطبقى للدولة ذاتها.

حاول بنو أمية فى أوائل حكمهم أن يقدموا للسكان الأصليين بعض المكاسب الجديدة، حين عدلوا فى إيران مثلا ما كان يعانيه أهلها فى نظامهم القديم من التفاوت الكبير فى الحقوق والواجبات بين الفئات العليا والفئات الاجتماعية الدنيا، وحين خففوا الضرائب عن الأقباط والسريان فى مصر وسورية وجعلوا دخولهم الإسلام أمرا اختياريا دون ضغط. غير أن كثيرا من العوامل الموضوعية والذاتية قد غيرت من خطة الخلفاء الأمويين هذه فى العقود الأخيرة من حكمهم، إذ استشرت عندهم أساليب معاملة الفئات الدنيا من السكان بالشدة والاعتباطية فى فرض الضرائب وفى جبايتها معا، وبدلوا التشريع الذى اتبع فى بداية عهد الفتح من إعفاء الذين يدخلون فى الإسلام من ضريبة «الجزية» والاكتفاء بأخذ الخراج ممن يملكون الأرض أو يستثمرونها، فإذا بهم يتقاضون من أمثال هؤلاء ضريبة مزدوجة: «الجزية» و«الخراج» كلتيهما. من هنا كثرت الانتفاضات فى عدة بلدان على الحكم الأموى، كما حدث فى آسيا الوسطى عام 73 للهجرة (728 للميلاد)، وفى الأعوام التى تلته من تمردات كادت تقضى لا على السلطة الأموية وحسب فى تلك المنطقة بل على الوجود العربى من الأساس. ونذكر فى موضوع النظام الاجتماعى هنا ما حصل فى العهد الأموى من تغير فى نظام الأراضى بالنسبة للعرب الفاتحين. فقد رأينا العرب فى بداية الفتح، خلال عهد الخلفاء الراشدين، ولاسيما عهد عمر، يعيشون فى عزلة عن السكان الأصليين يلتزمون المدن - المعسكرات التى أنشأوها للجيوش فى بادئ الأمر، ورأيناهم - لذلك - غير مشاركين فى عملية الإنتاج، وكان عمر متشددا فى منعهم من تملك الأراضى فى البلدان المفتوحة. ولكن، كل ذلك تغير فى العهد الأموى، إذ أبيح للجاليات العربية الوافدة مع جيوش الفتح أن تملك ما تشاء من الأراضى فى هذه البلدان.

وطبعـا لم يكن يستطيع التملك من هذه الجـاليات سـوى القادرين على التـملك والاستثـمار من ذوى الثراء أولا، ومن ذوى الانتماء العـائلى أو الحزبى إلى الحكم الأموى ثانيا. وفى المصادر التاريخية العربيـة الكبرى، كمؤلفات الطبرى والبلاذرى واليعقوبى، مـا يفيد أن الملكيات العقارية التى دخلت فـى حوزة العائلات الأموية وأنصارها أصبحت مـن السعة ووفرة المحصول بحيث تركـزت الثروات الكبرى فى أيدى طبقة عربيـة جديدة ومحدودة. وفى هذه المصادر التاريخيـة نفسها نرى طرق استثمار هـذه الملكيات الكبيرة أصبحت من القسوة فى أواخـر العهد الأموى على شغيلة الأرض من أهل البـلاد ومن الأسرى العبيد بحيث كـونت عائقا دون تطور القوى المنتجة؛ لما انتهت إليه حالة هـؤلاء الشغيلة من سوء العيش وفتك الأمراض الوبائية. وهذا مما زاد فى ضعف الدولـة الأموية أخيرا، أمام الانتفـاضات العديدة أولا، من فئات الـسكان الناقمين لأسبـاب اجتماعـية صرفة، وثانيـا من الخصوم السياسيين والحـزبيين لبنى أمية، وثالثا من العناصر غير العـربية التى كانت تحتفظ بالحقد العميق على الأمويين لاعتمادهم سياسة التمييز بين العرب و«الموالى»[1].

وأما من ناحية طبيعة السياسات الاجـتماعية والاقتصادية فى الدولة الراشدة فكانت تهدف لتحقيق القسط بين الناس كما علمنا القرآن: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى 15]، و﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد25]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الاعراف 29]. ولذلك نلاحظ أن طبيعة السياسات فى تلك الفترة قـد حققت بالفعل الكثيـر من العدل الاجتماعى والاقـتصادى. على عكس ذلك كان الحال فى الـدولة الأموية. فطبيعة الـسياسات الاجتـماعية والاقـتصادية كانت لا تتـحرى العدل بل ولا حـتى الشرعيـة خاصة إذا علـمنا أن ولاتهم كانوا يظلمون الناس فـى جباية الأموال بـالوسائل غيـر المشروعة وبإرهاقـهم بالضرائب الفادحة التى كانت تصب فى جيوبهم، وزادوا فى الخراج والجزية على حين كانت الزيادة تناقض العهد وفرضوا الضـرائب على الأرض الخراب، وفرضوا هدايا على

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص475.

الذميين وهذا كله يناقض الشريعة الإسلامية ويصطدم اصطداما مباشرا مع مقررات الشريعة الإسلامية فى العدل المطلق. ولا يختلف فى دراستنا من هذه الزاوية العباسيون الكسرويون عن الأمويين القيصريين بكثير[1].

التحالف بين العرب والبربر: وأعتقد أن السياسة التى طبقها العرب فى بلاد المغرب فى عصر الولاة كانت تقوم على أساس واضح ربما لم تجد له نظيرا فى الولايات الأخرى. كان أساسها توطيد صلات الأخوة والتعاون الوطيد بين العرب وبين البربر أهل البلاد إيمانا من جانب العرب بالنتائج التى تحققت بعد هذا التحالف التاريخى، فقد أنهى المقاومة البيزنطية وذلل العقبات أمام العرب وأخضع دولة القوط فى إسبانيا. ولتحقيق هذه السياسة أطلق العرب أيدى البربر الذين تعاونوا معهم فى أمور بلادهم يحكمون بأنفسهم، فقد قسم المغرب إلى خطط البربر واختصت كل قبيلة بخطة تتصرف فيها وتؤدى مالها وتكون مسئولة عنها، وهذا نظام يتفق مع طبيعة البلاد ونظام أهلها الاجتماعى، فلم تكن بالمغرب وقتذاك مزارع واسعة تتركها الحكومة فى يد أصحابها يزرعونها ويؤدون الأموال عنها، إنما كانت مناطق اختصت كل قبيلة بالنفوذ فيها. ومضى العرب فى سياسة التأليف بين العرب والبربر إلى أبعد الحدود وتمت المساواة بين العرب والبربر فى الغنيمة والفىء بل تساوى الطرفان فى الحقوق والواجبات. وقد أرضت هذه السياسة غرائز هذا الشعب المحارب القوى الأنوف، واستهداء بهذه السياسة اعتبر العرب أرض المغرب مفتوحة صلحا لا عنوة فأقروا البربر على ما بيدهم من الأرض، وتركوا هذه الأرض فى يد أصحابها يؤدون عنها المال للدولة، واعتبروا البربر أحرارا فى بلادهم. وقد كان هذا التحالف الوثيق هو الذى مكن الأمويين من أن يدبروا أمور المغرب حتى أواخر العهد الأموى فلما حاولوا أن ينتقصوا من هذه السياسة أو يغيروا منها انبعثت الثورات فى المغرب دفاعا عن الحق المكتسب واتخذت هذه الثورة مبادئ الخوارج متنفسا لها. وسيظل المغرب ثائرا على هذا

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص18.

النحو حتى ظهور الإمارة الإسلامية المستقلة فى المغرب. ويبدو أن العرب لم يمنحوا كل أهل المغرب هذه الحقوق الواسعة، إنما منحوها لمن تعاون معهم، وتركوا الباب مفتوحا أمام من يريد تأييد الحكم الإسلامي والظفر بنفس هذه الحقوق. وقد أدى ذلك إلى دخول أغلب القبائل المغربية فى طاعة العرب، لكن الروم والأفارقة كانوا قد نعموا بحرية العقيدة وفقا للتقاليد الإسلامية المرعية وتركت كنيسة المغرب لتصارع التيار الإسلامي الدافق فإن العرب لم يعتبروهم مساوين للبربر فى الحقوق والواجبات بل اعتبروهم موالى للعرب واعتبروا أرضهم مفتوحة عنوة فاستحلوها واعتبروا أهلها كما قلت موالى لهم. ولعل السبب فى ذلك هذه المقاومة العنيفة التى لقيها العرب من عناصر الروم والأفارقة المنتشرة فى المدن الساحلية. وقد حاول هؤلاء الثورة على الأمويين فتم إخضاعهم والقضاء عليهم[1].

تمصير إسبانيا: لدراسة هذه الناحية العامة يجب أن تعرف أن الحكم فى الإسلام ليس غاية إنما هو وسيلة لتحقيق أهداف معينة. . وسيلة لنشر الإسلام وتطبيق المثل الإسلامية، وعصر الولاة دائما هو ميدان هذه التجربة الهامة فى الحياة الإسلامية، تجربة تطبيق المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويتوقف بقاء الإسلام ونجاح الدعوة على سلوك هؤلاء الولاة ومطابقتهم ما بين المثالية والواقعية وكسب رضا الشعوب التى رضخت للحكم العربى ودخلت فى طاعة المسلمين. وتسمى هذه السياسة الإسلامية عادة باسم سياسة التمصير. وتمصير إسبانيا إذن معناه تحويله إلى مصر إسلامي يستهدى تعاليم الإسلام فى حياته وتقاليده ونظمه. وسياسة التمصير تقوم على أسس واضحة: أن يعامل الداخلون فى الإسلام معاملة قوامها الإخاء والمساواة والحرية وأن يأخذوا نصيبهم الطبيعى فى حكم البلاد والاشتراك فى الحياة السياسية. معاملة خاصة لأهل الذمة الذين دانوا للإسلام بالطاعة وارتبطوا بالحكم العربى باتفاقيات ومعاهدات تنظيم الجزية التى هى مقابل اضطلاع المسلمين بالدفاع عنهم وإبقائهم على أوضاعهم القديمة وتحفظ عليهم

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ المرجع السابق ص73.

دينهم وتصون حرمة أموالهم وتمنحهم قدرا كبيرا من الحريات المدنية والاجتماعية. وتطبيق مبادئ اقتصادية معينة نابعة من تعاليم الإسلام كنظرية الإسلام فى ملكية الأرض والتنظيم الإسلامى للخراج والعطاء والضرائب الأخرى ووجوه الإنفاق. وقد تتضمن هذه السياسة تنظيما إداريا معينا ومعاملة خاصة للولاة وتنظيمها للقضاء والجيش والإبقاء على بعض التنظيمات الإدارية. وقد ظهرت هذه التقاليد الإسلامية فى الحكم منذ فجر الدعوة إلى خارج بلاد العرب بعد تكوين الدولة العالمية الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب. يتبين هذا من دراسة السياسة الإسلامية فى مصر والشام والعراق وإيران، بل يستدل على هذه السياسة من المصادر المسيحية المعاصرة ومن أوراق البردى الإسلامية ومن المعاهدات أو عهود الصلح التى كتبها العرب مع المدن التى استسلمت لهم: مثل معاهدة مصر ومعاهدة بيت المقدس ومعاهدة الحيرة. ومعاهدة الإسكندرية، ونحن نريد أن نتأمل فى أخبار إسبانيا فى عصر الولاة هل طبق العرب فى البلاد نفس هذه المبادئ التى طبقت في الأمصار الأخرى[1].

معاهدة الفتح: يذكر المؤرخون أن العرب أثناء الفتح ارتبطوا بكل ناحية من نواحى إسبانيا بمعاهدة خاصة، وأن هذه المعاهدات اختلفت فيما بينها فى الصياغة وفى بعض التفاصيل وإن كانت قد اتفقت فى الروح والأسس. ومن حسن الحظ أنه بين أيدينا الآن معاهدة عبدالعزيز بن موسى مع تدمير حاكم شرق الأندلس، وقد احتفظت المراجع بنص هذا الصلح. أورد الضبى نصه العربى، وأورد الرازى صورة إسبانية منه وترجمه ميخائيل الغزيرى إلى اللاتينية وأثبته فى فهرسه المعروف للمخطوطات العربية فى الأسكوريال. وهذه المعاهدة تتفق مع الروح الإسلامية التى تجلت فى معاهدات الصلح التى عقدت زمن الراشدين ولأهميتها نورد نصها فيما يلى: بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالعزيز إلى تدمير ـ أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته أن لاينزع منه ملكا ولا أحدا من النصارى عن أملاكه وأنهم

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص60.

لايقتلون ولايسبون أولادهم ولا نساءهم ولايكرهون على دينهم ولاتحترق كنائسهم ما تعبد ومانصح، وأن الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن. وأنه لا يأوى لنا عدوا ولايخون لنا أمنا ولايكتم خبرا علمه وأن عليه وعلى أصحابه دينار كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط خل وقسط عسل وقسط زيت وعلى العبد نصف ذلك. كتب فى رجب عام 94هـ الموافق 712م شهد على ذلك عثمان بن أبى عبدة القرشى وحبيب بن عبيدة الفهرى وعبدالله بن ميسرة الفهمى. وقد تضمنت المعاهدة المبادئ الآتية: (أ) أن يحتفظ تدمير بسلطاته القديمة. (2) أن لايؤسر جنده ولايقتلون (3) أن لا يحال بين الأطفال وأمهاتهم. (4) أن تصان كنائسهم. (5) أن لايأووا عدوا. (6) أن يدفعوا الجزية والخراج. والواضح أن هذه المعاهدة لاتكاد تختلف فى روحها وفى ميدانها عن المعاهدات التى ألفناها فى الحكم العربى فى مصر وفى غيرها من البلاد. كما يبدو لنا من دراسة تاريخ الحكم الإسلامى فى إسبانيا فى عصر الولاة أن العرب مضوا إلى أبعد ما رسمته هذه المعاهدة فى تطبيق هذه السياسة وحسن معاملة أهل البلاد بنفس الروح التى عومل بها أهل مصر.

مظاهر الحياة الاجتماعية:

الغناء ما بين الرفض والقبول: لما كانت العربية أصلا لغة أهل البادية الذين لايجيدون الخط والتدوين، بل يعمدون إلى الحفظ والرواية لذلك وصفت بأنها مروية مسموعة أكثر منها لغة مدونة مرئية. ويتأكد ذلك باهتمام العرب قديمًا بالشعر الذى يسهل حفظه عن ظهر قلب، وكذلك الكلام المسجوع والمقفى، لما فيه من الوزن والإيقاع الهندسى الشكل الذى يجعله نظمًا رتيبًا، فلقد ترتب عليه أن أصبح الغناء من أول الفنون عند العرب. وبسبب هواية الشعر والولع بالسجع قيل فى الرجل العربى إنه يسمع الأشياء أكثر مما يراها. وعلى هذا الأساس فسر البعض عدم اهتمام العرب قديما بالفنون التشكيلية، من الرسم والنحت، من حيث إنهم فضلوا عليها الشعر والغناء والخط، وكلها فروع أو فنون (جمع فن) لشجرة اللغة

العربية الوارفة الظلال، الزاهية الألوان. وبظهور الإسلام وقف المتشددون من المسلمين ضد الغناء والموسيقى موقفًا معارضًا. وفى ذلك فسروا بعض الآيات القرآنية على أساس أن الغناء باطل فى أصله، كما رووا عن الرسول والصحابة ورجال الدولة الأوائل أقوالا فى عدم الترحيب بالغناء واللهو (الموسيقى) لسبب أو لآخر. وفى مقابل ذلك قام المتساهلون، من أنصار الغناء، ففسروا عدداً من الأحكام بما يقرر مبدأ الإباحة، كما وضحوا أن الغناء أصله الشعر الذى أجازه النبى واستمع إليه. والذى يفهم من أدب شعر الغزل والغناء، أن الجدل بين أنصار الغناء وخصومه كان ينتهى برجحان كفة الإباحة، وانتصار المؤيدين للغناء. والحقيقة أن الذى كان يقرر مصير فن الغناء والموسيقى هو الجمهور العريض من أهل السماع على طبقاتهم المختلفة، ممن وجدوا فى الصوت الحسن معينًا لهم على تحمل أعباء المعاش، ومعاناة أسباب الحياة. وهذا ماتنبه إليه النظريون من أصحاب الفكر والعقل ممن عرفوا بالتجربة، أن: «ليس من أحد كائنًا من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعجبه طنين رأسه». كما لاحظوا أيضا أن «أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان فاستراحت لها أنفسهم» (العقد الفريد، ج6 ص4). بسبب عظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأخذه بمجامع النفس، قالوا عن صناعة الغناء: إنها مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الركب (العقد، ج6 ص3). كما قالوا فى الغناء أيضًا: إنه يرق الذهن، ويلين العريكة، ويبهج النفس ويسرها، ويشجع القلب، ويسخى البخيل (مروج الذهب، ج4 ص222)[1].

قدّم بعض فلاسفة المسلمين فن الموسيقى على كل الفنون، من حيث تحقيق الفوائد المعنوية والعملية جميعًا. وهكذا قال الفارابى: إن الغاية القصوى من السماع ليست اللعب إذ إن اللعب ليس يطلب لذاته وإنما لينال به بعض الأشياء

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص402.

التى توصل إلى السعادة، وعن هذا الطريق يمكن أن يكون لأصناف اللعب، مثل الغناء والموسيقى، مدخل فى الإنسانية (الموسيقى الكبير، ص84 ـ 85). وعلى الجملة فقد أصبحت مقالة أفلاطون التى تنص على أن الموسيقى تغرس الفضائل فى النفوس مع الرياضة شعاراً يرفعه فلاسفة المسلمين (مرحبا، المرجع فى العلوم، ص176، عبدالجليل، الموسيقى فى المغرب ص43). وفى مجال المصالح النفعية نبهوا إلى أهمية الغناء بالنسبة للحيوان أيضًا. فالعرب عرفوا أن الإبل تنتشى بالحداء فتستريح إلى المسير وتجد الخطو، كما عرفوا أن البهائم تحن إلى الصوت الحسن وتعرف فضله، فالنحل: أطرب الحيوان إلى الغناء، والطير يمكن أن تستنزل أفراخها بالصوت الحسن (العقد، ج6 ص5). وفى الأصوات يقول الفارابى: إن منها ما يكون بمثابة الأدوية للجسم، وإن منها ما هو بمنزلة السموم، مثل الأصوات المهلكة أو المصمة. وعلى الجملة فإنه ليس أوقع فى القلب وآثر فى العقل وأصح للبدن من الصوت الحسن، وخاصة إذا كان من وجه حسن، بمعنى إضافة الجمال المرئى ـ الذى تمثله الفنون التشكيلية ـ إلى الجمال السمعى ممثلا فى الغناء والموسيقى والألحان (العقد، ج6 ص6). ومن المهم الإشارة إلى أن الغناء والموسيقى انتشرا فى مجالات كثيرة. فإلى جانب الغناء الفرحى كان هناك الشجنى والحزنى والعسكرى، وأخيراً الغناء الدينى حيث دخل الغناء فى مدارس الصوفية مع شعر الحب الإلهى والوجد، بعد أن قرأ الناس القرآن الكريم بطريقة التلحين[1].

كان عمر بن الخطاب يحرص كل الحرص على أن يلتزم العرب بعد الفتوحات حياتهم الأولى القائمة على الخشونة والتقشف والزهد خشية أن تجرفهم حياة المدينة فى تيارها، فقد ترتب على فتح الشام ومصر والعراق وفارس أن تمرد العرب على بداوتهم بتأثير البيئات الحضارية الجديدة ورغبتهم فى مجاراة أهل البلاد المفتوحة فى مذاهبهم وعاداتهم، فهموا بالخروج عن بداوتهم والاستمتاع بما أتت به

---

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص403.

الحياة الحضارية من ألوان الترف المباح الذى لا يتعارض مع أصول الإسلام وتعاليمه، ولكن عمر بن الخطاب نهاهم عن ذلك لتمسكه بزهده وإلزامه الفاتحين الاحتفاظ بخشونتهم التى جعلت منهم محاربين ذوى بأس، بأن فرض عليهم الإقامة فى معسكرات خارج المدن يعيشون فيها على النمط البدوى. ويذكر ابن الأثير أنه لما قدم إلى الجابية كان أول من لقيه يزيد وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها، وقال: «ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم! إياى تستقبلون فى هذا الزى وإنما شبعتم مذ سنتين! وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم». فقالوا: «يا أمير المؤمنين، إنها يلامقه، وإن علينا السلاح» قال: «فنعم إذن». على أن السياسة التقشفية التى التزمها عمر لم تلبث أن انتهت بانتهاء عصره، فلما استخلف عثمان لم يتشدد كما كان يفعل عمر، وإنما تساهل فى سياسته، فانطلق العرب إلى حياة الترف وحياة الدنيا، حرصوا على الاستمتاع بها فى الحدود المشروعة، وهنا تأنقوا فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم، واستبدلوا بدورهم القديمة الساذجة قصوراً منمقة الجدران موزونة الأبعاد. ثم تطورت الحياة الاجتماعية عند العرب فى العصر الأموى، «باتساع العيش والتفنن فى أحواله، فبلغوا الغاية فى ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثى، وكذلك أحوالهم فى أيام المباهاة والولائم وليالى الأعراس». ولقد أغرم العرب فى العصر الأموى بفنىّ الغناء والموسيقى بعد أن أثروا بسبب تدفق الأموال عليهم بعد الفتوحات، ولما كان الفراغ والجاه من مقومات حياة الترف فقد انصرفوا إلى سماع الغناء واقتناء الجوارى والقيان لملء فراغهم، وكان فن الغناء والموسيقى قد ارتقى فى هذا العصر عن طريق الأسرى الذين حملوا معهم من جملة ما حملوا موسيقاهم وفنونهم الغنائية، فكثر عدد الموالى المشتغلين بهذا الفن. ويعدد صاحب الأغانى أسماء ثلاثين مغنيا من الرجال وخمسين مغنية، وفى ذلك يقول ابن خلدون: «فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم، صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية

واستحلاء الفراغ. وافترق المغنون من الفرس والروم، فوقعوا إلى الحجاز، وصاروا موالى للعرب، وغنوا جميعًا بالعيدان والطنابير والمعازف والزمامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات، ولحنوا عليها أشعارهم. وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب خاثر مولى عبدالله بن جعفر، فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه، وصار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره»[1]

الشعر العربى وأولية الغناء فى الدولة الإسلامية، الحجى والرجز والحداء وتطورها: إن ما وصلتنا أخباره من الغناء العربى القديم كان بسيطًا ساذجًا يتفق مع بساطة البيئة العربية البدوية أصلا. هكذا قيل إن الحجى هو أقدم ما عرفه العرب من النثر المنظوم أو السجع، ومنه نشأت أقدم أوزان الشعر الشعبى وأسهلها، وهو الرجز. وكان الرجز أول ماتغنى به العرب على إيقاع مسيرة الجمل، بعيراً كان أم نجيبًا، أى بطيئًا كان أم سريعًا، وهو ما عرف بالحداء من بين فنون الغناء. وليس من الواضح إن كان الحداء، وهو اللون البدوى البسيط المرتبط بالسفر فى الصحراء، قد تغير عند القرشيين فى مكة حسبما عرف فى دار عبدالله ابن جدعان، بفضل مغنيتيه المعروفتين بالجرادتين أم لا. وذلك أنه إذا كان تشبيه المغنيتين المكيتين بجرادتى عاد يعنى التمسك بالتقاليد العربية القديمة، فإن من المعروف أن ابن جدعان كان ميالا إلى التمتع بمباهج الحياة على الطريقتين اليمنية والفارسية بخاصة، وهو ما يظهر فى اتخاذه الأطعمة الفارسية الرقيقة مثل الفالوذج الذى كان يصنعه له بعض مهرة الطباخين من الفرس. وبذلك اجتمعت فى دار ابن جدعان متعتا الطعام والغناء وتم التكامل بين لذتى الذوق والسمع عند المترفين من أهل مكة (تاريخ العرب قبل الإسلام للمؤلف، ص332، ص413).

وإلى جانب المناسبات المفرحة ارتبط الغناء العربى بالمناسبات الحزينة التى كانت تحيى بما يناسبها من الأقوال والألحان، مما كان يحدث فى الاحتفالات

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص689.

الأليمة، من: الجنائز والنعى والرثاء، وهو ما عـرف بالنواح. وبذلك امتزج الفرح بالترح فى مـجال السـماع، وفى ذلك قيل: «لم تمتلـئ دار قط فرحًا إلا امـتلأت حزنا» (البـيان والتبيـين للجاحظ، ج3 ص75). وعن هذا الطريق انقسم الطرب إلى شجن وحـزن. وفى ذلك قال يحيى البـرمكى: «الغناء ما أطربك فـأرقصك، وأبكاك فأشجاك» (مروج الذهب، ج4 ص223). ويؤيد ذلك ما قيل فى العود، وهو آلة الغناء بالامـتيـاز فى الإسلام، من أن أول من صنع العـود هو: لاتك بن قابيل، وأنه بكى به على ولده (العـقد الفريد، ج6 ص27). والمهم هو أن الغناء البسـيط الأول من الحجى والرجز والحداء تطور مع مـرور الوقت إلى طرز جديدة من الغناء، هى: النصب والسناد والهـزج (العقد، ج6 ص27). ولما كان النصب حسبما ينص قدامى الكتاب هو غناء الركبان والقينات، فإننا نفهم من ذلك أنه يعبر عن نوع الحداء القديم، البـسيط فى إيقاعه ونغمه. وأما الـهزج وهو الخفيف الذى يثير القلب ويهيج الحلم، فنرى أنـه طراز القيان الذى بدأت بغنائه الجرادتان فى دار ابن جدعان بمـكة، وأنه أول ما دخلت فيه الصنعـة من الغناء، وذلك أن طويسًا ـ تصغير طاووس، وهو معلم ابن سريج وغيره من أوائل المغنين فى صدر الإسلام ـ يوصف بأنه «أول من غنـى فى الإسلام»، ووُصف غـناؤه هذا بالغناء «الرقـيق»، وهو التعبـير القريب من مصطلح «الخفـيف» الذى يوصف به «الهزج». وبناء على ذلك يصبح السناد، وهو الثقـيل الترجيع الكثير النغمات بالنـسبة للنصب والهزج، بمثابة الغناء «المـتقن» المعروف بالمضـعف أى الكثير العـمل الذى يدخل فيـه الكلفة والصنعة. ومن الواضح أن نوع التثقـيل هذا لم يظهر إلا فى مرحلة متقـدمة، بعد ازدهار فن الغناء الإسلامى والموسيقى، ورقيهما درجات فى سلم التطور. وإذا كان ينسب إلى طويس أيضًا أنه رائد الغناء المتقن فى الحجـاز إلى جانب ابتداعه للهزج والرمل فالمقصود بالمتقن هو الحسن الصنعة بشكل عام، إذ من المتفق عليه أن تفوق طويس كان فى نوع الهـزج حتى ضرب به المثل، فقـيل: «أهزج من طويس». أما

عن الثقيل من الغناء فكان قصب السبق فيه لابن محرز الذى يوصف بأنه: «أحسن الناس غناء فى الثقيل» (الأغانى، ج4 ص219)[1].

العود والأثر الفارسى فى الغناء الحجازى: ما بين سائب خاثر وابن سريج:

ولقد كان الإتقان فى الغناء نتيجة طبيعية لاستخدام الآلات الموسيقية التى انتقلت من اللون الساذج إلى الطراز المركب. وكان الفضل الأول للعود الذى دخل إلى الحجاز عن طريق فارس، على أواخر أيام عثمان بن عفان حينما ظهر فى المدينة مغنيان من الفرس، هما: نشيط (الفارسى) وسائب خاثر، ويرجع الفضل فى اكتشافهما - كما نقول الآن - إلى عبدالله بن جعفر بن أبى طالب، ووالى الحجاز وقتئذ: عبدالله بن عامر الذى كانت لديه صنّاجات فى المدينة أخذ عنهن سائب خاثر. وفى سبيل تطوير الأغنية فى المدينة يرجع الفضل إلى سائب خاثر فى عمل العود الفارسى بمدينة الرسول، واتخاذه فى الإيقاع والغناء. وطار صيت سائب خاثر وكان عليه أن يلبى دعوة يزيد بن معاوية، ولى العهد فى دمشق، وأن يكتسب رضاء معاوية فلا يرى بمجالسته بأسًا. وهكذا قتل سائب خاثر يوم الحرة سنة 63هـ/ 683م (الأغانى، ج8 ص321، ص324)، بعد أن أرسى قواعد مدرسة الغناء الجديدة فى الحجاز بفضل من أخذ عنه من أعلام المغنين، مثل: ابن سريج المكى، وابن محرز وجميلة المدنية، ومعبد ومالك بن أبى السمح (الأغانى، ج1 ص251). والحقيقة أن ابن سريج، صاحب الشاعر عمر بن أبى ربيعة (ت حوالى 102هـ/ 719م)، يعتبر من رواد تلك المدرسة، ليس لغنائه فقط، بل بسبب مظهر المخنث العجيب الذى كان عليه، من حيث الملابس المصبغة، وجمة الشّعر المستعار، والقناع الذى يسلبه على وجهه. وإذا كان الدارج أن سائب خاثر هو أول من عمل العود الفارسى واتخذه فى الغناء بالمدينة، فإنه من المتعارف عليه أيضًا أن ابن سريج هو: «أول من ضرب بالعود الفارسى على الغناء العربى بمكة» وأنه كان أول من غنى الغناء المتقن بالحجاز بعد طويس (الأغانى، ج1 ص250،

1 - د. سعيد عاشور - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص405.

ص245). وهكذا لايكون ابن سريج تلميذاً فى الغناء لسائب خاثر المستعرب الفارسى فى المدينة، بل أستاذاً للغناء العربى المتطور فى مكة، لايقلل من ذلك تأثره بصناعة الغناء الفارسية فى المدينة. وهكذا قيل فى ابن سريج: «ما خلق الله تعالى بعد داود النبى (عليه السلام) أحسن صوتًا من ابن سريج، ولا صاغ الله - عز وجل - أحداً أحذق منه بالغناء»، كما قال فيه إبراهيم الموصلى: «كأنه خلق من كل قلب، فهو يغنى لكل إنسان مايشتهى» (الأغانى، ج1 ص251)[1].

الغناء الحزنى فى الحجاز: ابن سريج والغريض: ولقد زاد من شهرة ابن سريج اتجاهه نحو الغناء الحزنى ممثلا فى النواح. وكانت كارثة الحرة بالمدينة فرصة لكى يمارس ابن سريج هذا اللون الشجنى من الغناء. فلقد صعد إلى قمة جبل أبى قبيس فى مكة، وناح بشعر أصبح داخلا فى أغانيه، فاستحسن الناس ذلك منه، وكان «أول ما ندب به» (الأغانى، ج1ص254). المهم أن كارثة المدينة فى يوم الحرة والمناحة الكبرى التى أقيمت لها بمكة، بعد حوالى 3 (ثلاث) سنوات من مقاتل العلويين فى كربلاء، كانت مناسبة أثارت الشجن فى قلوب الطالبيين فانتهزوها لإحياء ذكرى يومهم الحزين. فهذا ما نراه فيما قامت به (السيدة) سكينة بنت الحسين إذ بعثت إلى ابن سريج فى مكة «بشعر امرته أن يصوغ فيه لحنًا» يناح به. ولقد أجاد ابن سريج فى هذا اللحن البكائى، فكان سببًا فى تقدمه عند أهل الحرمين على جميع ناحة الحجاز (الأغانى، ج1ص255). وكان من نتيجة ذلك أن طلبت سكينة من ابن سريج أن يعلم مملوكها عبدالملك الذى عرف «بالغريض» - أى الطرى اللين - فن النياحة ففعل. ولقد اشتهر الغريض بالنياحة إلى حد جعل ابن سريج يترك النوح ويعدل عنه إلى الغناء، فلم ينح بعد ذلك حتى وفاة حبابة جارية يزيد بن عبدالملك ثم يزيد بعدها (عام 105هـ/ 724م) (الأغانى، ج1 ص256). والمهم أن ابن سريج عندما ترك النوح للغريض، مال هو إلى الخفيف من الغناء كالأرمال وخاصة الأهزاج التى استخفها الناس، فأذاعت شهرته فى

---

1 - د. سعيد عاشور - د. سعد زغلول - نفس المرجع ص407.

الآفاق. ورغم تلك الشهرة العريضة والمدة الطويلة التى عاشها ابن سريج مغنيًا فى مكة، فإنه لم يعرف له إلا 68 (ثمانية وستين) صوتًا أى لحنًا أو دورًا (الأغانى، جا ص268). ومن بين هذه الأصوات يعد النقاد، صوت: «تشكى الكميت الجرى لما جهدته» من الأصوات القلائل التى جمعت كل ألحان الغناء فلم تبق نغمة إلا فيها (الأغانى، جا ص276). وبفضل ابن سريج الذى طالت حياته الفنية إلى أكثر من نصف قرن حتى نهاية القرن الأول الهجرى صارت مكة منافسة للمدينة كمركز هام للغناء والموسيقى، وخاصة بعد أن ظهر فى المدينة أحد الموهوبين فى الغناء وهو معبد الذى طال عمره إلى ما بعد وفاة ابن سريج.

معبد: مؤسس الغناء فى المدينة: فبينما كان ابن سريج هو مغنى مكة، كان معبد بن وهب مغنى المدينة بلا منازع. وأوجه الشبه بين الرجلين أنهما من الموالى، كسائر المغنين، أما ما يفرق بينهما، فهو ما يفرق بين مكة والمدينة كمدرستى غناء لكل منهما تقاليدها الخاصة، وإن كانتا ابنتى إقليم واحد هو الحجاز. فلقد تميزت مدرسة الغناء المكية التى يمثلها ابن سريج، ومن أتى بعده، بأنها مدرسة قريشية تحافظ على التقاليد العربية فيما يتعلق بالمظهر من ألوان الثياب الزاهية واستعمال الخضاب مما عرفه الشعراء وأصحابهم من أهل الغناء كعمر بن أبى ربيعة وابن سريج (الأغانى، جا ص258)، بينما تميزت مدرسة المدينة - عاصمة الإسلام العالمية - بأنها عربية ذات طابع إسلامى مميز بفضل التأثير الفارسى الذى سبقت الإشارة إليه. ولقد ظهرت ميول معبد الفنية منذ شبابه المبكر عندما كان يرعى الغنم لمواليه، ويختلف إلى نشيط الفارسى وكذلك إلى سائب خاثر، ويجتهد فى الأخذ عنهما. ولم يلبث الراعى الموهوب أن اشتهر بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت مما جعل ابن سريج يعترف له ولأهل المدينة بالتفوق فى دنيا السماع (الأغانى، جا ص44). والظاهر أن معبدًا بلغ الذروة فى الغناء بعد عام 80هـ/ 709م، أى على أواخر أيام ابن سريج، وذلك فى الوقت الذى كانت فتوح الإسلام فى شرق خراسان وبلاد ما وراء النهر على أشدها على يدى قتيبة

بن مسلم أيام الوليد بن عبدالملك، فذلك ما يفهم من «أصواته» (ألحانه) السبعة التى تعرف بمدائن معبد تشبيهًا لها بالمدن السبع التى فتحها قتيبة فى المشرق. وهكذا شهد له إبراهيم الموصلى، فقال: إنه «لم يكن فيمن غنى أحد أعلم بالغناء من معبد» (الأغانى، جـ1 ص39)، وهى شهادة لمدرسة المدينة بطبيعة الحال. وبلغت شهرة معبد إلى حد أن دارت حوله القصص الشعبية التى تهدف إلى الرفع من شأنه فوق مستوى من نازعوه سيادة الغناء، وفى ذلك قيل إن المكيين ـ وعلى رأسهم ابن سريج ـ انبهروا بغنائه عندما قدم إليهم، وأنهم قالوا له: «لأنت أحسن بأداء غنائنا منا» (الأغانى، جـ1 ص58 ـ 59). وفى تقييم غناء معبد قيل إنه «متين»، وذلك فى مقابل غناء ابن سريج الذى وصف بأنه «مخنث لين» أى خفيف (الأغانى، جـ1ص68). وتظهر طبقة معبد فى الغناء مما كان يوجهه له يزيد ابن عبدالملك (101 ـ 105هـ/ 719 ـ 724م) من عبارات الإطراء، مثل: «أحسنت والله يا مولاى، وأعد فداك أبى وأمى» (الأغانى، جـ1 ص68)[1]. وعندما توفى معبد فى دمشق، وهو ضيف على الوليد بن يزيد بن عبدالملك (125 ـ 126هـ/ 743 ـ 744م) قامت سلّامة القس، جارية يزيد برثائه فى شعر للأحوص ومن تلحينه هو نفسه، مما كان قد علمها إياه من أصوات الندب (الأغانى، جـ1 ص37). وبعد وفاة معبد استمرت المدرسة المدنية غنية بأعلامها ونجومها الذين تولوا حمل راية الغناء الحجازى إلى أن تتسلمها بغداد أيام الرشيد (170 ـ 193هـ/ 786 ـ 809م).

ابن محرز: ثالث الرواد، واستلهام الغناء الرومى: ويأتى بعد معبد وابن سريج المغنى ابن محرز الذى قد يجعله بعض النقاد أول الرواد الثلاثة فى الغناء الإسلامى بفضل لحنه: «أهاج هواك المنزل المتقادم؟» الذى قيل إنه يجمع كل نغمة لما فيه من الدور الكثير أى الصنعة الثقيلة (الأغانى، جـ1 ص8). والظاهر أنه كان لإقامته فى كل من الحرمين الشريفين، الفضل فى تمكينه من الجمع بين طريقتى الغناء الفارسى (المدنى) والعربى (المكى). وما هو أهم من ذلك أن ابن محرز انفرد

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص409.

بأنه عندما سار إلى دمشق تعلم ألحان الروم أيضًا وأخذ غناءهم. وكان ذلك مما ساعده على تطوير الغناء الإسلامى، إذ أسقط ما لم يستحسن من ألحان الروم «ومزج بعضها، وألف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب، فأتى بما لم يسمع بمثله». وهكذا نسب إلى ابن محرز ابتكار لحن الرمل الذى نقل إلى الغناء الفارسى أيام الرشيد، وبذلك أصبح التأثير والتأثر متبادلاً بين الغناء العربى ونظيره الفارسى (انظر الأغانى، ج1 ص378).

جميلة، وتأسيس أول مدرسة لتعليم الغناء فى المدينة: والحقيقة أنه إذا كان البعض قد شهد لمعبد - مغنى المدينة - بأنه لم يكن فيمن غنى أحد أعلم منه بالغناء، فقد شهد آخرون لجميلة، مولاة بنى سليم، ومغنية المدينة المعاصرة له، بأنها كانت «أعلم خلق الله بالغناء» (الأغانى، ج8 ص186)، فكأنهما على قدم المساواة. بل وهناك روايات منسوبة إلى معبد نفسه تنص على تفوق جميلة عليه، مثل: «أصل الغناء جميلة وفرعه نحن» (الأغانى ج8 ص186)، ولا بأس فى ذلك إذا عرفنا أنها تمثلت الغناء من سائب خاثر، جارهم (الأغانى، ج1 ص187). أما اللحن الذى أظهر أمرها، فهو ذلك الصوت الذى غنته فى شعر زهير، وهو : «نام الخلق فنوم العين تعذير». ومنذ ذلك الحين قصد الناس جميلة للسماع منها، مما جعلها تتحول إلى معلمة محترفة، تجلس لتعليم الجوارى، وتكسب لمولاتها من المال ما لم يخطر لهن على بال. فكان مجلس جميلة بمثابة أول مدرسة خاصة لتعليم الغناء بالأجر فى المدينة المنورة (انظر الأغانى، ج8 ص187). ومن بين من تعلم على يدى جميلة: سلامة القس، جارية يزيد بن عبدالملك، وحبابة، جارية يزيد أيضًا التى كانت تسمى «الغالية» (الأغانى، ج1 ص122)، إلى جانب كثيرات من القينات ممن لم يرتفع صيتهن إلى مستوى جاريتى يزيد. أما عمن أخذ عنها من الرجال فيذكر مالك بن أبى السمح الذى أدرك الدولة العباسية ومات فى خلافة المنصور (الأغانى، ج5 ص101). وهكذا كان لجميلة دور كبير فى حياة الغناء واللهو فى الحجاز، كما كان لتلميذتيها الشهيرتين فى تاريخ الدولة الأموية،

دورهما النشيط أيضًا، وذلك عن طريق المسابقات الدورية بين كبار المعاصرين، وخاصة ما كان يقام منها كمباريات بين مدرستى مكة والمدينة.

ازدهار الغناء فى كل من الحرمين الشريفين: والحقيقة أنه من الأمور المستغربة أن يزدهر الغناء والموسيقى فى كل من الحرمين الشريفين، رغم ما كانت تلقاه الفنون بعامة من معارضة الكثيرين من المسلمين المتشددين الذى أرادوا الحفاظ لمجتمع المدنية ومكة - على الأقل - بنقائه الأول. ولاشك أن ذلك الازدهار كان وثيق الصلة بمرحلة التطور التى أخذت تعانى منها الجماعة الإسلامية على أيام عثمان بن عفان، حيث تدفقت الأموال والذخائر على دار الخلافة (مدينة الرسول) وكبار الصحابة، الذين انتابتهم الرغبة فى التمتع بمباهج الحياة، وهو الأمر الذى لم يغب عن فطنة المسعودى (مروج الذهب، ج2 ص241). وإذا كان مركز الحكم والخلافة قد انتقل إلى الشام مع قيام الدولة الأموية فإن الحرمين الشريفين ظلا ينعمان بنوع من التفوق المعنوى على بقية الأمصار بفضل الحج والزيارة، مما ترتب عليه نوع من الازدهار الاقتصادى الذى تمتع به أهل الحرمين. ولما كان هؤلاء قد حرموا من امتيازاتهم السياسية والإدارية فإنهم قد اتجهوا نحو التمتع بمباهج الحياة وخاصة فى مجالات الغناء والموسيقى والجوارى من القيان. وهكذا لم يكن من الأمور المستغربة أن يكون الموسم والزيارة فرصة يستعرض فيها المغنون مواهبهم أمام طوائف الحجاج، وأن يكون رعاة الفن من كبار أبناء المهاجرين والأمصار إلى جانب بعض مشاهير الشعراء.

الغناء فى موسم الحج: عمر بن أبى ربيعة، وابن سريج فى الموسم: مهرجان الألوان: ومن أشهر الشعراء الذين كان لهم دور فى تنشيط الغناء فى العصر الأموى عمر بن أبى ربيعة (ت حوالى 102هـ/ 719م) الذى عرف بأنه شاعر الغزل الذى لايمدح إلا النساء، وأنه موكل بالجمال يتبعه أينما كان (الأغانى، ج1 ص74). ولهذا لم يكن من الغريب أن يختار بعض شعره مما لحنه المغنى

والموسيقى ابن سريج ليكون واحداً من ثلاثة «أصوات» لا تبقى نغمة فى الغناء إلا وهى فيها. وهكذا يمكن القول إن الرجلين كونا ثنائيًا فنيًا فى الشعر والغناء، وإنهما كان لا يجدان مكانًا لاستعراض مؤهلاتهما الفنية خيراً من موسم الحج حيث يكون أكبر حشد من المسلمين فى التجمع السنوى العظيم. ففى بعض المواسم ظهر الاثنان بشكل ملفت للنظر، فبينما امتطى عمر بن أبى ربيعة ظهر نجيب أصيل فوق سرج من الجلد المكسو بديباج الحرير الثقيل، وعليه الحلل اليمانية المبهرجة الألوان، ظهر ابن سريج وهو مخضب بالحناء على بعير مخضب أيضًا بالحناء. وأخذ الرجلان المتبرجان يلتقيان بالحجاج ويتعرضان للنساء. وكان ابن سريج يغنى على الطريق فيتوقف الناس بحسن غنائه للاستماع (الأغانى، ج1 ص258). وهنا كان يصيح من يشفق على فساد الموسم من الناس، فيقول: «يا صاحب الصوت أما تتقى الله! قد حبست الناس عن مناسكهم!» فيسكت قليلا حتى إذا مضوا رفع صوته فيقف آخرون. ولا بأس أن يكون عمر بن أبى ربيعة، وابن سريج، بتظاهرة مهرجان الألوان تلك، يمثلان تقاليد المغنين فى الحجاز وقتئذ، وكان معظمهم من المخنثين، وهو الأمر المعروف عن ابن سريج الذى كان يلبس المصبغات ويسدل جمة من الشعر المستعار على وجهه. وإن كانت عادة أهل اللهو من المغنين والموسيقيين من زَمّارين وعَزّافين وغيرهم لبس الثياب المصبغة (البيان والتبيين للجاحظ، ج3 ص51)[1].

جميلة فى موسم الحج: وتعتبر تظاهرة عمر بن أبى ربيعة وابن سريج الشعرية الغنائية فى موسم الحج بمكة عملا فرديًا إذا ما قيست بالرحلة الفنية التى قامت بها مغنية المدينة الشهيرة جميلة إلى مكة بهدف قضاء فريضة الحج. فما أن أعلنت جميلة عن نيتها فى الحج حتى قرر المغنون والمغنيات فى المدينة المشاركة فى ذلك الموسم، فكان مهرجانًا مدهشًا على طول الطريق ذهابًا وإيابًا بين المدينة ومكة. ولقد شارك فى الرحلة زهاء ثلاثين رجلا «تخايروا فى اتخاذ أنواع اللباس

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص413.

العجيب الظريف، وكذلك الهوادج والقباب». أما عن المغنيات من القيان اللائى خرجن معها مشيعات فقد بلغن حوالى خمسين قينة، وجه بهن مواليهن معها فأعطوهن النفقات وحملوهن على الإبل فى الهوادج». وإذا كان حج جميلة قد وصف بأنه جمع الخير كله، من حيث إنه لم يكن هناك ذكر للغناء من جانب الحاجّات القينات أثناء أداء المناسك، مثلما فعل ابن سريج، فإنه بعد عشرة أيام من رجوع جميلة من أداء مناسك الحج، أقامت حفل غناء عظيم فى منزلها بالمدينة، فغصت الدار بالأشراف من الرجال والنساء. ولقد شارك الكثير من المغنين والمغنيات فى حفل ختام الحج هذا، وكان الغزل والنسيب فى شعر عمر بن أبى ربيعة من موضوعات الأغنيات المطلوبة فى ذلك الحفل (الأغانى، ج8 ص209). وهكذا تأصل الغناء فى الحجاز عن طريق ذلك الربط المعنوى بين أهل الغناء وبين كل من الحرمين الشريفين، عن طريق اتخاذ الموسم مسرحًا للغناء أو مهرجانًا للألوان فى مكة، أو عن طريق مدرسة الجوارى المغنيات من القيان التى ازدهرت إلى ما لا مزيد عليه غير بعيد من الروضة الشريفة بالمدينة.

عمر بن عبدالعزيز هاويًا للغناء بالمدينة: ومن المعروف أن عمر بن عبدالعزيز كان متساهلا أثناء ولايته للمدينة (86 ـ 93هـ/ 705 ـ 712م) بالنسبة لأهل الطرب واللهو، كما كان يفعل مع خصوم الدولة السياسيين الذين كانوا يلجأون إلى المدينة. وهكذا يمكن أن نضع حج جميلة قبيل سنة 93هـ/ 712م أى قبيل عزله بقليل عن الولاية. وهكذا فلا بأس أن يكون عدم إنكار عمر بن عبدالعزيز للطرب ـ إن لم نقل حبه له ـ من الأسباب التى أدت إلى ذلك الانتشار الواسع لفن الغناء واللهو فى مدينة الرسول فى أواخر القرن الأول الهجرى. فعن عمر بن عبدالعزيز قيل إنه كان يطرب فى السماع طربًا بينًا ويستعيد الغناء وقد بلت دموعه لحيته (مروج الذهب، ج3 ص198 ـ 199). وأكثر من هذا فقد جعلته بعض الروايات أول محترف للغناء من أمراء الإسلام، وذلك لأنه كان «أول من دونت له صنعة منهم». وفى ذلك يذكرون له أثناء ولايته للحجاز سبعة ألحان صنعها وهو

يذكر سعاد فيها كلها، وإن كان الأمر موضوع شك (الأغاني، ج9 ص250 ـ 251). وبمجرد عزل عمر بن عبدالعزيز عن ولاية المدينة، تقدم الأعيان من أشراف قريش والأنصار يطلبون من الوالي الجديد، عثمان بن حيان المرى (93 ـ 96هـ/ 712 ـ 715م) تحريم الغناء، وغيره من أسباب الفساد. ولكن واحدًا من النبلاء من حفدة أبي بكر الصديق هو ابن عتيق تدخل لدى الوالي وأقنعه بعدم تلبية الطلب. وكانت وسيلته إلى ذلك إقناع المرى بالاستماع إلى صوت سلامة القس فيما كانت تجيده من قراءة القرآن والحداء ثم الغناء. وأُخذ الوالي الجديد بصوت القينة العجيبة فقال لها: «لا والله ما مثلك يخرج عن المدينة»، وشمل هذا الأمر جميع المغنيات (العقد، ج6 ص50). والحقيقة أننا لانقصد إلقاء تبعة انتشار الغناء في المدينة على عاتق عمر بن عبدالعزيز، بل نريد أن نحدد ذلك بعزله عن الولاية عقب حج جميلة، إذ المشهور أن الغناء ظهر على أيام يزيد بن عبدالملك بمكة والمدينة حيث استعملت الملاهي أي آلات الموسيقى (مروج الذهب، ج3 ص77)(1).

تجدد ازدهار الغناء أيام يزيد بن عبدالملك: سلامة وحبابة: والمهم أنه بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز، تجدد ازدهار الغناء في كل من الحجاز والشام بفضل رعاية يزيد بن عبدالملك (101 ـ 105هـ/ 719 ـ724م) الذي وهب نفسه للقيان وصرف جهده وماله في السماع، وورث تلك التركة الخفيفة ابنه الوليد (125 ـ 126هـ/ 743 ـ 744م) الذي خرج في ذلك عن كل الحدود. ولقد بدأ يزيد بن عبدالملك بشراء سلامة التي عرفت بسلامة القس بعد أن افتتن بها عبدالرحمن بن عمار، عابد مكة، الذي اشتهر بالقس لنُسُكه. أما عن امتلاكه لـ «حبابة» مولدة المدينة الجميلة الطيبة الصوت، فقد كان الهدف منه حل قيوده من ربق سلامة، فكانت النتيجة عكسية تمامًا إذ وقع في إسار القينتين جميعًا. وكانت خاتمة حبابة ويزيد هي خاتمة كبار شهداء الهوى، إذ ماتت حبابة في بعض متنزهات الأردن،

---

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص415.

وهى تغص بحبة عنب كان يلقمها إياها يزيد الذى لحق بها بعد حوالى خمسة عشر يومًا، ودفن إلى جانبها (الأغانى، ج15 ص144) وكان الإعلان عن وفاة يزيد بن عبدالملك عن طريق المناحة التى أقامتها سلامة، والتى ندبت فيها بشعر بعض الأنصار، وختمت ذلك وهى تنادى: وا أمير المؤمنيناه! فكان ذلك إعلانًا بوفاة يزيد فتداول الناس الخبر (الأغانى، ج8 ص 346).

الوليد بن يزيد يرث هواية والده للموسيقى والطرب:

ابن عائشة والغزيل وعمر الوادي: لقد عرف الوليد بإدمانه للغناء والطرب مما كان له أثره فى المجتمع حتى قيل إن شهوة الغناء انتشرت حتى غلبت على الخاص والعام. ومع أن مغنيه المفضل ابن عائشة أطربه كثيرًا، فإن الوليد بن يزيد جمع إلى هواية السماع هواية الغناء والموسيقى. ولقد تقدم فى الصناعة حتى أصبحت له أصوات مشهورة ألفها بنفسه. أما عن استخدامه الآلات الموسيقية مع الغناء، فكان يضرب بالعود، ويوقع بالطبل، ويمشى بالدف، وكل ذلك على مذهب أهل الحجاز حيث كانت أهزاج طويس هى المفضلة لديه. وإلى جانب ابن عائشة أحاط الوليد نفسه بعدد من مشاهير المغنين، مثل: الغزيل الذى كان مضحكًا، وعمر الوادى الذى كان مهندسًا فجمع الغناء إلى الهندسة، وأصبح مقربًا جدًا من الوليد. هذا كما غنى للوليد أيضًا اسماعيل بن الهربذ المكى الذى عُمِّر إلى آخر أيام الرشيد (حوالى 193هـ/ 809م)[1].

الطعام والشراب:

كانت حياة العرب بسيطة، وبخاصة فيما يتعلق بالطعام، ولم يتجاوز أغلب طعامهم صنفًا أو صنفين، وكان أفضل طعامهم اللحم مع الثريد، ولكن تغير الحال بعد الفتوحات الإسلامية، واتساع الدولة وكثرة الأموال، ومخالطتهم الشعوب فى البلاد المفتوحة، وكانت أكثر منهم مدنية فعرفوا ألوانًا من الطعام

---

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص416.

والشراب، واستخدموا أدوات للمائدة لم يكونوا يعرفونها من قبل فاستخدموا «الفوط» و «الملاعق» الخشبية والفخارية، التى كانت تأتيهم من «الصين»، وعرفوا «الموائد» الخشبية، وجلسوا على كراسى خشبية حولها، وكانوا من قبل يجلسون على الأرض ويأكلون بأيديهم، وكان من عادة الخلفاء والأمراء والأغنياء إقامة الولائم لإطعام الناس. وكان للأكل مع الخلفاء آداب خاصة، فوق الآداب العامة المعروفة للطعام، فكما يقول «الجاحظ»: «إن الأكل لم يكن للشبع وإنما للشرف، فعلى من يؤاكلهم أن يراعى ذلك وألا يكون شرهًا فى تناول الطعام».

الملابس:

توسع المجتمع فى العصر الأموى وتأنق فى الملابس والأزياء، فلبسوا الحرير والديباج والإستبرق، وبخاصة الشباب الذين كانوا يلبسون ملابس موشاة، وكانت الملابس تختلف من فئة إلى أخرى على قدر ثرائها ومراكزها الاجتماعية، فكانت ملابس الفقهاء تختلف عن ملابس الكتاب، والقواد تختلف ملابسهم عن ملابس الجند، وكان شيوخ القبائل ومن فى منزلتهم من علية القوم يرتدون الأقبية التى تصل إلى الركبتين، يعلوها جلباب فضفاض يتدلى إلى العقبين. وكانت عناية النساء بالملابس والأزياء أكثر من عناية الرجل، وتكونت ثيابهن من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة، وعند خروج المرأة إلى الشارع فإنها ترتدى عباءة تغطى جسمها وتلف رأسها بمنديل يربط حول الرقبة، مثل «الإيشارب» الذى تستعمله النساء فى الوقت الحاضر. وتوسع النساء فى استخدام الحلى والجواهر من اللآلئ واليواقيت والذهب وسائر أدوات التجميل. وإلى جانب التأنق فى الملابس أحب الناس أنواع الطيب وأكثروا منها، واستخدموا الحناء، وخضبوا بها لحاهم وأيديهم، وفعل الخلفاء ذلك.

مكانة المرأة فى المجتمع الإسلامى:

أما عن نصيب المرأة فى ذلك الدور ـ أعنى فى صدر الإسلام ـ فالملاحظ أن الإسلام حرر المرأة مما كانت تعانيه من امتهان، وأعطاها حقوقها كاملة فى مباشرة

حياتها الخاصة والعامة، وذلك داخل إطار من العفة والحياء يتفق وروح الإسلام وآدابه. وإذا كان القرآن الكريم قد نادى بأن الرجال قوامون على النساء، فإنه لم يترك هذه القوامة مطلقة، وإنما حددها بدرجة واحدة «ولهن مثل الذى عليهم بالمعروف وللرجال عليهم درجة». والهدف من هذا التفضيل المحدد صلاح المجتمع، وصلاح الأسرة، مراعاة طبيعة الرجل ومسؤولياته. ومنذ عهد الرسول ﷺ شاركت المرأة فى الحروب، ونهضت بدور يتفق وطبيعتها فى تضميد جروح مجاهدى المسلمين وحثهم على الجهاد. ومن المعروف أن النساء كانت لهن بيعة مثل بيعة الرجال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12] وفى عهد الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ اختلطت النساء بالجماهير لسماع خطب الخلفاء. ومع التطور الذى أصاب المجتمع الإسلامى فى العصر الأموى، أخذت الأميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن فى السباق. ويرجع اتخاذ الحريم إلى عهد الوليد الثانى الذى أدخل كثيراً من تقاليد وعادات الروم، وأكثر من اتخاذ الخصيان فى قصر الخلافة. وهكذا أخذت الحياة الاجتماعية، تتطور تدريجيًا نتيجة تفاعل مستمر بين بعض العناصر التى ألفها العرب منذ عصور ما قبل الإسلام من ناحية، وعناصر وضوابط بناءة انبثقت عن الإسلام وروحه وتعاليمه من ناحية أخرى، ثم بعض المؤثرات الأجنبية التى تطرقت إلى المجتمع الإسلامى من الحضارات التى استوعبتها الدولة الإسلامية، عند اتساعها، وبخاصة حضارتى الروم والفرس[1].

كانت للمرأة مكانة كبيرة وأثر واضح فى الحياة العامة، ومن أشهر النساء: «سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب»، وكانت من أعلم النساء وأظرفهن، وأحسنهن أخلاقًا، وتذكر المصادر التاريخية أن الشعراء كانوا يجتمعون عندها وكان

---

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص258.

لها ذوق رفيع فى نقد الشعر، ومما يذكر لها فى هذا المجال أنه اجتمع عندها يومًا «جرير»، و«الفرزدق»، و«كثير عزة» و «جميل بثينة»، وأنشدوا بين يديها أشعارهم، فنقدت شعر كل منهم، ثم أجازت كل واحد بألف دينار. وتقرن بسكينة فى هذا المجال «عائشة بنت طلحة»، وكانت نابغة فى الأدب والسخاء كأبيها «طلحة» الجواد، وقد تزوج «مصعب بن الزبير» حاكم «العراق» فى خلافة أخيه «عبدالله بن الزبير» (67 _ 72هـ) كلا من «سكينة» و «عائشة بنت طلحة»، بعد أن أمهر كل واحدة منهما مليون درهم. ومن ألمع النساء فى ذلك العصر: «أم البنين» زوج الخليفة «الوليد بن عبدالملك»، وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر، وكانت لها مكانة كبيرة عند زوجها «الوليد» وكان يستشيرها فى كثير من أمور الدولة. وقد كثرت الجوارى من سبايا الحروب فى البيوت، مما كان له أثره البالغ فى الحياة الاجتماعية، فقد نقلوا إلى البيت العربى عادات شعوبهم وتقاليدها فى الطعام والشراب والملبس. وكان الخلفاء يخرجون فى يوم العيد للصلاة فى موكب مهيب، يتقدمهم الجند، ويحيط بهم الأمراء وكبار رجال الدولة، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير، وتقام الزينات، وتسطع المشاعل والقناديل فى ليالى العيد، وكان لولاة الأقاليم مواكب تشبه مواكب الخلفاء.

حفلات الزواج:

تطورت حفلات الزواج فى العصر الأموى لتجارى ما أصبح عليه المجتمع من ترف وثراء، وبعد أن كانت فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين غاية فى البساطة والبعد عن التكلف، وبالغ الناس فى المهور، وقد سبق أن ذكر أن «مصعب بن الزبير» أمهر كلا من زوجتيه «سكينة بنت الحسين» و«عائشة بنت طلحة» مليون درهم. وكما بالغوا فى المهور بالغوا فى إقامة الولائم الحافلة بأطيب أنواع الطعام، وفى يوم الزفاف يلعب الفتيان بالرماح، ويتسابقون بالخيل، وتجلس النساء على النمارق ويتزين بالحلى والجواهر الثمينة. وتكون العروس فى أبهى صورة وأجمل زينة، يحيط بها أترابها، يغنين لها حتى تذهب إلى بيت زوجها.

وكانت تقام - أيضًا - حفلات لختان الأطفال، يحييها المغنون وأصحاب الفكاهة، وهذا كان يحدث فى بيوت الصحابة والتابعين، فيذكر «ابن قتيبة» فى «عيون الأخبار» أن «عبدالله بن عباس» - رضى الله عنهما - دعا بعض اللعابين فى حفل ختان بعض أولاده، فلعبوا بألعابهم، فأعطاهم أربعمائة درهم، كما أن تلميذه «عطاء بن أبى رباح» استدعى اثنين من كبار المغنين وهما «الغريض» و«ابن سريج» فى حفل ختان ولده، وكان الناس يقيمون الموائد الفاخرة المليئة بألوان الطعام فى هذه المناسبات[1].

الرعاية الاجتماعية والسجون:

وجاءت هذه الرعاية الطبية مصحوبة بإقامة مؤسسات لمداواة المرضى وعلاجهم وهى التى أطلق عليها اسم بيمارستانات. ويروى المقريزى أن أول دار أسست لمداواة المرضى فى الإسلام بناها فى دمشق الخليفة عبدالملك الأموى عام 88هـ، وجعل فيها الأطباء وأجرى عليهم الأرزاق. أما المجذومون والمصابون بأمراض معدية خطيرة، فقد أمروا بمغادرة المدن، وخصصت لهم أعطيات رعاية لهم، فى حين أعطى كل مقعد خادمًا يهتم بأمره، وكل ضرير قائدًا يسهر على راحته. (تاريخ ابن الفرات، عام 794هـ، العينى: عقد الجمان 664هـ).

وأخيرًا، فإنه مع اتساع الدولة الإسلامية، عرفت نوعًا من المنشآت الاجتماعية أطلق عليها اسم السجون، والمعروف فى اللغة أن السجن هو الحبس، وقد روى عن أبى هريرة أن الرسول ﷺ حبَسَ فى تهمة. والحبس الشرعى معناه تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه، وليس حجزه فى مكان ضيق. وكان هذا الحبس الشرعى يتم فى أول الأمر فى بيت أو مسجد، على أن يقوم الخصم - أو وكيله - بملازمة الشخص المحتجز، ولذا أسماه النبى ﷺ أسرًا. واستمر الأمر على ذلك فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، إذ لم يكن هناك محبس معد لحبس الخصوم، ولكن حدث عندما اتسعت الدولة فى عهد الخليفة

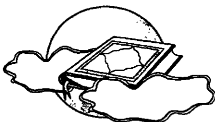
---

1 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - المرجع السابق ص 80 - 81.

عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وكثرت الرعية، أن ظهرت الحاجة إلى مبنى قائم بذاته، يستخدم سجنًا - يحتجز فيه من يراد حبسه. ولهذا الغرض ابتاع الخليفة من صنوان بن أمية دارًا بمكة بأربعة آلاف درهم. ولم يلبث أن تطور الأمر فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان، عندما ازداد خصوم الدولة، وتعددت مشاكلها، حتى قيل إنه أول من وضع السجن بمعناه المعروف، وخصص الحرس لحراسة المسجونين. وفى أول الأمر كانت هناك نزعة نحو الرأفة بالمسجونين ورعايتهم وتوفير أسباب الحياة الكريمة لهم داخل السجن، وعدم التطرف فى إيذائهم أو حرمانهم. من ذلك ما جاء فى كتاب العيون والحدائق من أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز كتب إلى عماله حوالى عام 100هـ/700م بالا يُغَلّ مسجون.

أما البدو فلهم حياتهم الخاصة التى فرضتها وشكّلتها ظروف البيئة والتى لم تتغير كثيرًا حتى اليوم. ولاشك فى أن أهل البادية يتمسكون بكثير من صفات المروءة والشهامة والشجاعة وغيرها من الصفات التى لم تفسدها حياة الحضر. وفى ظل الإسلام، تخلى أهل البادية تدريجيًا عن العادات غير الطيبة التى شابت حياتهم فى الجاهلية. ومع ذلك، فإن نسبة من الأعراب ظلوا يهددون طرق القوافل ويعتدون على المسافرين، حتى إن قوافل الحجاج لم تسلم أحيانًا من عبثهم.

الفصل السادس



الحياة الاقتصادية

- الأحوال الاقتصادية
- موارد الدولة
  - الزراعة والإنتاج الزراعى.
  - الإنتاج الحيوانى.
  - الصناعة.
  - صناعة الأسلحة.
  - التجارة.
  - الإصلاحات الاقتصادية فى إسبانيا.
- إنشاء المدن الجديدة
  - مدينة القيروان.
  - القصور الأموية.
  - المساجد.

الأحوال الاقتصادية

كثرت المصادر التى تحدثت عن الشئون الاقتصادية والمالية، مثل كتاب «الخراج» لأبى يوسف المتوفى عام (182هـ الموافق 798م)، وكتاب «الأموال» لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام (224هـ الموافق 838م)، غير أن هذه المصادر لاتقدم لنا إحصاءات عن دخل الدولة الإسلامية فى العصر الأموى، ولا شيئًا من ميزانياتها، وإنما هى أبحاث فقهية على وجه العموم، تبحث فى مسائل الغنائم والجزية والخراج وغير ذلك. ويمكن أن نكوِّن فكرة عن الأحوال الاقتصادية فى ذلك العصر، من خلال دراسة مستوى المعيشة التى كان يحياها الناس على اختلاف مستوياتهم، واحتفالاتهم فى مناسباتهم الاجتماعية، كالأعياد وحفلات الزواج والختان، ومن خلال الحركة العمرانية الكبيرة التى شهدها ذلك العصر، من بناء المدن والمساجد وتعبيد الطرق وغيرها من المنشآت، بالإضافة إلى الخدمات المجانية التى تقدمها الدولة للناس، كالعلاج وإعالة المحتاجين. وكل هذه المشروعات لم تكن لتقام إلا إذا كانت موارد الدولة المالية التى اتبعها «عمر بن عبدالعزيز» قضت على الفقر فى ربوع الدولة، إلى الحد الذى كان لايجد فيه عمال الصدقات فقراء يعطونهم منها، لأن الناس فى كفاية من الرزق، فأمر الخليفة أن يساعد من تلك الأموال من يريد الزواج من الشباب، ويعين من يبغى أداء فريضة الحج، وأن يشترى الأرقاء لتحريرهم.

● **موارد الدولة:** وتتمثل فى:

- **خراج الأرض المفتوحة:** ويأتى على رأس موارد الدولة فى العصر الأموى، وكانت تلك الأراضى مملوكة للدولة الإسلامية منذ الفتوحات الأولى فى عهد «عمر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ـ الذى اجتهد وقرر بعد استشارة كبار الصحابة عدم تقسيم الأرض المفتوحة على المجاهدين، وجعلها ملكًا للدولة، وأبقاها فى أيدى أهلها يزرعونها، مقابل إيجار يدفعونه للدولة، وهذا الإيجار أو الخراج تنفق منه الدولة على الجيش والموظفين، وتقيم المرافق التى يحتاج إليها.

وكان هذا اجتهاداً عظيمًا من «عمر»، لأنه أبقى الأرض في أيدى أصحابها، وهم من أهل الخبرة في فلاحتها، وضمن في الوقت نفسه مورداً ماليًا ضخمًا وثابتًا، ثم أقدم «عمر» على خطوة عظيمة الأهمية وذات دلالة كبيرة على فطنته الاقتصادية، فقد أمر بإعادة مساحة الأرض المفتوحة، وقسمها على حسب إنتاجيتها إلى ثلاثة أنواع، وفرض على كل نوع الخراج الذى يناسبه؛ لئلا يُظلم الفلاحون، وليبذلوا طاقتهم في تحسين الإنتاج.

- **غنائم الحرب:** وهى الأموال المنقولة من نقود وغيرها، وكانت بكميات كبيرة في ذلك الوقت، وكان خمسها يدخل بيت مال الدولة، على حين توزع الأربعة الأخماس على المجاهدين.

- **الجزية المفروضة على أهل الكتاب** ـ اليهود والنصارى ـ ومن فى حكمهم كالمجوس؛ حيث عاملهم المسلمون فيما يتعلق بالجزية معاملة أهل الكتاب، وقد قنن الفقهاء قيمة الجزية، بعد استقراء تطبيقات الخلفاء، فقدروها بثمانية وأربعين درهما للأغنياء، وأربعة وعشرين للمتوسطين، واثنى عشر للفقراء القادرين على الكسب، وأعفوا منها النساء والأطفال وكبار السن، ورجال الدين، والعاجزين عن الكسب، بل إن الفقراء العاجزين عن الكسب من أهل الكتاب فرض لهم عطاءٌ من بيت مال المسلمين.

- **الزكاة:** وتؤخذ من المسلمين، ومقاديرها معروفة فى كتب الفقه، وتؤدى للدولة التى عدتها مورداً من مواردها المالية، تنفق منه في الأوجه التى حددتها الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60]

- **ضرائب التجارة الداخلة إلى البلاد الإسلامية أو الخارجة منها أو العابرة:**

وكانت تمثل مورداً كبيراً من موارد الدولة؛ إذ كانت أهم الطرق التجارية وأعظمها تمر فى ذلك الوقت ببلاد إسلامية، من حدود «الصين» فى الشرق إلى

«إسبانيا» فى الغرب. وقد نظم المسلمون منذ وقت مبكر تحصيل هذه الضرائب، وهى المعروفة الآن برسوم الجمارك، ففرضوا على التجار المسلمين ربع عشر قيمة تجارتهم، وعلى التجار من أهل الذمة الذين هم من رعايا الدولة الإسلامية نصف العشر، وعلى التجار الكفار الذين هم من أهل الحرب العشر. ولايظنن أحد أن فى هذا تفريقًا بين التجار المسلمين ونظرائهم من أهل الذمة من رعايا الدولة؛ لأن التجار المسلمين يدفعون زكاة أموال تجارتهم كلها بعد دفع ضريبة ربع العشر، فى حين لا يدفع التجار من أهل الذمة شيئًا سوى نصف العشر المفروض على التجارة، فهم لايدفعون زكاة لأنها لا تفرض إلا على المسلمين.

- **الركاز:** وهو ما يستخرج من باطن الأرض كالذهب والفضة والنحاس، فإذا كان المستخرج من أرض مملوكة ملكية خاصة، فإن أصحابها يدفعون للدولة الخمس، لأن الفقهاء جعلوا ذلك النوع من الأموال مثل الغنائم، التى يخصص خمسها للدولة. أما إذا استخرجت هذه المعادن من أراضى الدولة، فإن ريعها يدخل بطبيعة الحال إلى بيت المال[1].

الزراعة:

يمتد العالم الإسلامى على رقعة شاسعة جعلت تضاريسه متنوعة ما بين جبال وهضاب وصحارى وسهول. كما تنوع مناخه وتعددت سلالات سكانه، الأمر الذى جعله ينطوى على مقدارات اقتصادية وبشرية هائلة. لذلك تنوع فيه النشاط الاقتصادى ما بين زراعة ورعى، تعدين وصناعة. فضلا عن التجارة التى ساعد عليها إشرافه على بحار ومحيطات متعددة أهلته للقيام بدور ريادى فى التجارة الدولية. ولا أقل من رصد هذا النشاط الاقتصادى مع إبراز عصور الازدهار وعصور الكساد وتعليل كل ذلك تعليلا علميًا موضوعيًا.

وضعية الأرض: تنوعت أشكال الملكية فى العالم الإسلامى بتنوع الجغرافيا

---

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص82 ـ 84.

الطبيعية واختلاف العصور التاريخية؛ حيث تعددت أشكال الملكية ما بين مشاعة وملكيات خاصة صغرى وكبرى وضياع وإقطاعات وأرض حبوس. كما تنوعت علاقات الإنتاج بتنوع قوى الإنتاج. لكن المشكلة الكبرى التى واجهت الباحثين هى تحديد النمط السائد والأنماط الهامشية. وفى هذا الصدد اختلف الدارسون ما بين قائل بوجود نمط إنتاج رأسمالى أو رأسمالوى، وقائل بسيادة النمط الإقطاعى، وثالث يؤكد سيادة رأسمالية الدولة، ورابع يقول بنمط خاص هو نمط الإنتاج الخراجى. ونعتقد أنه لا سبيل لحل تلك الإشكالية إلا باتباع المنهج التاريخى الذى يعول على رصد أشكال الملكية على امتداد أقاليم دار الإسلام وما استجد بصددها من تغيرات باختلاف العصور التاريخية، والخروج بأحكام عامة فى النهاية.

فيما يتعلق بوضعية الأرض قبل الإسلام؛ نلاحظ تعدد أشكال الملكية. ففى المناطق الزراعية جنوبى شبه الجزيرة حيث تسقط الأمطار الموسمية؛ وجدنا شكلا من أشكال الإقطاعية. إذ حازت القبائل الكبرى معظم الأراضى الخصبة وتركت الباقى للقبائل الأخرى نظير إتاوات جرى إقرارها بعد تأسيس دول اليمن وحضرموت مثل معين وسبأ وقتبان وحمير. على أن هذا النمط أخذ يتغير تحت تأثير المد البورجوازى التجارى؛ إذ تقلصت الإقطاعات لتحل محلها الملكيات الخاصة، أما فى وسط شبه الجزيرة؛ فقد سادت المشاعة حيث انعدمت الملكيات الخاصة، لتحل محلها مضارب القبائل التى هى أشبه ما تكون «بنظام الحمى». أى أن الأرض ملك للقبيلة ولسائر أفرادها حق الانتفاع. وفى بلاد الحجاز ظهرت الملكيات الكبرى «الضياع» التى حازها كبار التجار خاصة فى أراضى الطائف. وبالمثل تملك اليهود فى يثرب وواحات الشمال ـ مثل خيبر وفدك وتيماء ـ أنصبة من الأرض الزراعية تدخل فى إطار نظام الملكيات الخاصة. وبظهور الإسلام تغير الوضع. ذلك أنه رعزع النظم القديمة وأتى بنظام يجمع بين الرأسمالية والاشتراكية إن صح التعبير. فقد أقر نظام الملكية وشرع حق الإرث فى إطار عدم الاستغلال. ولدينا من الأحاديث النبوية الشريفة ما ينص على أن الأرض ملك لمن يزرعها ويفلحها. فى ذات الوقت أشاع الإسلام المراعى لسائر دواب المسلمين.

ولحرص الإسلام على إقرار العدالة الاجتماعية وتقريب الهوة بين الطبقات؛ كان الرسول ﷺ يوزع أراضى اليهود فى المدينة على من لا يملكون. لقد تجسدت الرؤية الإسلامية عمومًا فى أن الأرض ملك لله وحده وأن حق الانتفاع بها مكفول لسائر البشر مسلمين وغير مسلمين. وبعد اتساع الأراضى الزراعية عقب الفتوحات حدث تطور كبير فى وضعية الأرض. إذ أتاح الإسلام لأهل الذمة الذين فتحت بلادهم صلحًا تملك أراضيهم على أن يدفعوا خراجًا من إنتاجها لبيت المال. أما تلك التى فتحت عنوة فإنها بحكم الشرع توزع غنيمة على الفاتحين. لكن عمر بن الخطاب عدل عن ذلك وأوقفها لخدمة بيت المال؛ حتى لا تتكون طبقة إقطاعية تحوز الأرض وتورثها فى الأحقاب. أما الأراضى التى هجرها أصحابها فقد استصفيت لخدمة بيت المال أيضًا؛ لذلك عرفت باسم الصوافى. أما الأراضى الموات فقد أتاح الإسلام ملكيتها لمن يستصلحها[1].

وفى خلافة عثمان ظهرت بواكير الإقطاعات؛ حين أمر بأيلولة أراضى الصوافى إليه وإلى أصحابه وأسرته من بنى أمية. وبالمثل احتكر أراضى الحمى وجعلها حكرًا على بنى أمية، لذلك قيل إنه أول من حمى الحمى فى الإسلام. وقد استفحلت ظاهرة «الضياع» فى عصر بنى أمية. إذ حرص الأمويون على تكوين إقطاعات واسعة لهم ولقادتهم وولاتهم وعمالهم. وقد تم ذلك على حساب الملكيات الخاصة المعروفة باسم «الأراضى الخراجية». ذكر البلاذرى أن معاوية اقتنى ضياعًا بالبلقاء والطائف ووادى القرى وسواد العراق. كما حاز هشام ابن عبد الملك ضياعًا واسعة فى العراق والأردن وأرمينية. وعلى غرار حكام الأمويين تمكن الولاة من تكوين إقطاعات مماثلة. فنسمع أن أراضى الوالى خالد ابن عبد الملك القسرى بالعراق فاقت أراضى الخلفاء اتساعًا. وفى مصر والمغرب وإسبانيا جرى تطبيق نفس السياسة التى اتبعت فى الولايات الشرقية. إذ حاز الولاة والعمال والقواد والفقهاء ضياعًا واسعة على حساب الملكيات الصغرى. وقد

1 ـ محمود إسماعيل ـ المرجع السابق ص97.

ازدادت هذه الظاهرة تفاقمًا وفقا لنظام «الإلجاء» إذ كان أصحاب الملكيات الصغرى يلجأون إلى رجال الإدارة لحمايتهم من عسف الجباة نظير دمج أراضيهم فى أراضى الحماة حتى أصبحت هذه الملكيات الصغرى مفرغة من مضمونها من الناحية العملية كما يرى «كلود كاهن». حاول الخليفة عمر بن العزيز وضع حد لتعاظم الإقطاعية لكن إصلاحاته انتكست بعد وفاته. ومن المفيد أن نثبت نصا هامًا يوضح تطور وضعية الأرض منذ عهد الرسول حتى خلافة عمر بن العزيز الذى قال: «إن الله بعث محمدًا رحمة فترك لهم نهرا شربهم فيه سواء. ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولى عمر فعمل على عمل صاحبه. فلما ولى عثمان اشتق من ذلك النهر نهرًا. ثم ولى معاوية وعبدالملك وسليمان حتى أفضى الأمر إليَّ وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم» لكن عودة النهر الأعظم كان يتطلب ثورة على طبقة الإقطاعيين الجدد الذين تآمروا على حياة عمر بن عبدالعزيز. وليس أدل على تعاظم خطر هذه الطبقة من هجرة الفلاحين إلى المدن تاركين ما تبقى من أراضيهم دون زراعة. لكن الأمويين كانوا يرغمونهم قسرا على العودة إليها. ولكم عانوا من عسف الجباة خاصة بعد أن شرع بنو أمية «نظام الالتزام» أو «نظام التضمين». ويعنى أن يضمن أحد الأثرياء دفع الخراج إلى الدولة عن إقليم معين ثم يعود فيجمعه مضاعفًا من المزارعين. وقد أدى ذلك إلى حدوث ثورات ذات طابع فلاحى؛ أسماها البلاذرى بظاهرة «كسر الخراج»؛ وتعنى امتناع المزارعين عن دفع الخراج للدولة. وهو أمر أفضى إلى «خراب البلاد وهلاك العباد» على حد قول القاضى أبى يوسف[1].

الإنتاج الزراعى:

عرف العرب الزراعة من قديم، إذ احتوت شبه جزيرة العرب فيما احتوت عليه من صحارى شاسعة، بضعة أقاليم خصبة ذات مياه غزيرة، انتجت مختلف المحاصيل من أشجار وفواكه وخضر وزهور وورود. فاشتهرت اليمن «العربية

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص98.

السعيدة»، ببساتينها ومراعيها ومياهها المتدفقة، واشتهرت حضرموت ببخورها، وكذلك بأراضيها الزراعية الممتدة على طول بحر العرب وخاصة فى ظفار وشحر ووادى حضرموت ووادى دوعن هذا إلى جانب بعض المناطق الحجازية الخصبة مثل الطائف ويثرب، وجاء الإسلام، فأشادت آياته القرآنية الكريمة بأهمية الماء والأرض والزرع والتمر، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141] كذلك اهتمت الأحاديث النبوية الشريفة بأهمية الأرض وإحيائها وزراعتها، فيؤثر عن الرسول ﷺ أنه شجع كل من يحيى أرضًا ميتة على تملكها وذلك فى قوله ﷺ: «من أحيا أرضًا ميتة فهى له، فإن مات فهى لورثته، وله أن يبيعها إن شاء». وهكذا أحدث الإسلام ثورة زراعية شملت مختلف أنحاء الدولة.

يقع العالم الإسلامى بين خطوط عرض متقاربة ساعدت على وجود مساحات شاسعة قابلة للزراعة عن طريق مياه الأمطار أو الوديان والأنهار فضلا عن الواحات التى تقع فى مناطق صحراوية رعوية. لذلك تنوعت المحاصيل والمزروعات وتعددت النطاقات الهائلة الصالحة للرعى والإنتاج الحيوانى. ولم يعدم العالم الإسلامى مناطق صالحة لنمو الغابات فى المناطق المحاذية لبحر قزوين والبحر الأسود فضلا عن أعالى بلاد الشام وبعض نواحى إسبانيا. لذلك شكل الاقتصاد الزراعى الرعوى قوة الإنتاج الأساسية الثابتة والدائمة. ولن نعرض بالتفصيل للإنتاج الزراعى فى العالم الإسلامى، بقدر ما نعالج أساليب الرى وتقنيات الزراعة. كذا رصد سياسات الحكومات الزراعية التى أثرت فى الإنتاج الزراعى ازدهاراً أو انهياراً.

عنى العرب الفاتحون بالزراعة عناية عظيمة، واستفادوا فى ذلك من خبرات أبناء البلاد المفتوحة، فعندما تم تحرير «مصر» أمر «عمر بن الخطاب» واليه «عمرو ابن العاص» أن يسأل أهلها عن أفضل الطرق للنهوض بها وباقتصادها، فأخبر أن أفضل طريقة للنهوض بها هى الزراعة، لأنها المورد الرئيسى لاقتصاد البلاد، وهذا يتطلب العناية بالنيل والترع المتفرعة عنه، وكذلك فعل «عمر بن الخطاب» فى «العراق» و«الشام». وقد سار الأمويون على هذه السياسة، فاهتموا بنظام الرى وإقامة الجسور وشق الترع وتطهيرها موسميًّا، وبخاصة أن الدولة كان يجرى على أراضيها أعظم الأنهار وأكثرها طولا، من «نهر النيل» فى «مصر» إلى «دجلة» و«الفرات» وفروعهما فى «العراق»، إلى أنهار الشام الرئيسية: «بردى» و«العاصى» و«اليرموك»، إلى نهرى «جيحون» و«سيحون» فى بلاد «ما وراء النهر» إلى نهر «السند» وغيرها من الأنهار فى ما يعرف حاليا باكستان والهند وأفغانستان، إلى الأنهار العديدة فى «إسبانيا والمغرب العربى»، بالإضافة إلى رقعة واسعة من أخصب الأراضى. وقد عمل «الحجاج بن يوسف الثقفى» على إصلاح شئون الزراعة أثناء ولايته على «العراق» والمشرق، فأصلح كثيرًا من الأراضى التى لم تكن مزروعة، وأمر بعودة الفلاحين إلى قراهم، بعد أن رأى ما أصاب الزراعة من ضرر ونقص فى المحاصيل؛ نتيجة هجرتهم إلى المدن للعمل فى الأعمال الحرفية المتعلقة بالصناعة والتجارة. وهذه الخطوة التى أقدم عليها «الحجاج» لإصلاح الزراعة أساء الناس فهمها، وعدّوها من أخطائه؛ لأنه تدخل فى حرية الناس، لكنها عند النظر الصحيح خطوة إيجابية من حاكم يفهم واجبات وظيفته، فأقدم على حل مشكلة خطيرة لاتزال كثير من الحكومات المعاصرة عاجزة عن حلها. وقد اقتدى «خالد بن عبدالله القسرى» والى «العراق» فى عهد «هشام بن عبدالملك» (105 _ 125هـ) بما فعله «الحجاج» فى النهوض بالزراعة؛ فأصلح مساحات شاسعة فى منطقة المستنقعات، وزرعها وأضافها إلى الرقعة الزراعية.

سلكت الحكومة الإسلامية لإدارة الأقاليم الزراعية سياسة مالية مستنيرة، إذ اهتمت بأمور الزراعة والرى واستصلاح الأراضى ومساعدة الفلاحين، لأنها كانت

تدرك تماماً مدى العلاقة بين الازدهار الزراعى وبين ازدياد الوارد من خراج الأرض الذى يعتبر أهم مورد لبيت المال. حقيقة كان للتجارة دور مهم فى الحضارة الإسلامية والموارد المالية، ولكن الفلاح كان هو المنتج الأول، وكثيراً ما تحكم عمله فى بقاء دول أو زوالها. وفى هذا المعنى يقول الفقيه أبو الحسن الماوردى فى أحكامه السلطانية: «فأما المزارع فهى أصول المواد التى يقوم بها أود الملك، وتنتظم بها أحوال الرعايا، فصلاحها خصب وثراء، وفسادها جدب وخلاء». وعلى الرغم من قلة معلوماتنا عن الفلاحين كفئة اجتماعية لندرة المصادر التى تناولت مظاهر الحياة الريفية خارج المدن فى العصور الإسلامية، إلا أن الأمر الذى لاشك فيه هو أن الزراعة لعبت دوراً حاسماً فى حياة تلك العصور، إذ إنه لا يعقل أن يتم ازدهار الحضارة الإسلامية بدونها وهى التى أتت بالجزء الأكبر من ثروة الدولة (الخراج). ولقد كان للخليفة عمر بن الخطاب سياسة رشيدة حاسمة تجاه الأراضى الزراعية الجديدة التى تم فتحها من أيدى الفرس مثل أراضى سواد العراق الخصبة التى طالب الجنود اعتبارها غنيمة حرب وتوزيعها عليهم كلها بعد إخراج الخمس للدولة، وأن تعتبر ملكًا لهم، ولكن عمر بن الخطاب أبى عليهم ذلك وقرر أن تبقى هذه الأرض بدون تقسيم، وأن يستمر أصحابها فى زراعتها كما كانوا يفعلون فى الماضى، على أن يدفعوا ضرائب الأرض (الخراج) وضرائب الرأس (الجزية)، التى صار يخصص دخلها للمصلحة العامة للمسلمين[1].

ولم يكتف عمر بذلك بل أرسل بعد الفتح مباشرة وفوداً لمسح (أى قياس) هذه الأراضى الزراعية الجديدة لتنظيم ملكيتها وزراعتها من جهة، ولتقدير خراجها المفروض عليها من جهة أخرى، كما ألزم أهلها بمواصلة العناية بالقنوات والسدود والجسور، وتقديم المؤن مدة ثلاثة أيام للجنود الذين قد يمرون فى البلاد، وهو ما يعرف بحق الضيافة. واستمرت سياسة الحكومات الإسلامية المتتابعة أيام الراشدين، والأمويين، والعباسيين، تعمل على تشجيع المسلمين على الزراعة

1 ـ د. سعيد عاشور ـ ود. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص374.

بتوزيع الأراضى عليـهم، مثل أراضى الصوافى وهى كل أرض متـروكة أو ليست فى يد أحد، ومـثل الأراضى الخراب أو الموات أو أراضى المستنقعـات التى صارت ملكًا لمن يعمل على إحـيائها وزراعـتها. كذلك اهتم ولاة الأقـاليم بإصلاح طرق الرى لتأمين مرافقها ومنابع ثروتها، فـيؤثر عن عمرو بن العاص أنه استخدم آلاف العمال المصـريين فى إصلاح طرق الرى فى مصر صـيفًا وشتـاء وكذلك فعل ولاة العراق فى حفر شـبكة من الأنهار والقنوات فيما بين نهرى دجلة والفـرات بعضها قديم مجـدد، والبعض الآخر جديد مسـتحدث وأطلقوا عليـها اسم النواظم لأنها نظمت توزيع المياه فى سهول وادى الرافدين، ولاسيما الجزء الجنوبى منها المعروف بالسواد لخصوبة أرضه وكثرة أشجاره ونخيله. ويؤثر عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه حفر فـى هذه المنطقة الجنوبية بين الكوفة والبـصرة أنهاراً عديدة مـثل الصينى، والزابى، والنيل. ومن الطريف أن هذا النهر الأخير كان عرضه ثلاثين متراً ويأخذ مياهه من الفرات إلى دجلة فى منطقة تقع شمال بابل، وقد سماه بهذا الاسم تيمنًا بنهر النيل فى مصر.

تنوعت أساليب الرى والسقـاية بتنوع مصادر المياه. ففى المجتـمعات النهرية الفـيضـية تأصلت تقـنيات الرى الصناعى حـيث ابتكرت آلات رفع الميـاه بالدلاء والنواعير. كما شقت القنوات وشـيدت الجسور وعرف نظام الرى المغطى نقلا عن الفـرس. وجرى انتـشار هذا النظام فى الـغرب الإسـلامى حتى أطلق عليـه اسم «الأعمال الـفارسية». وقد اهتـم الأمويون والعباسـيون بهذه الأعمال خـاصة فى العراق والشام. واتبع الأمويون نظـام «السخرة»، بينما تبنى العباسيـون القيام بهذه المشروعات؛ فأسسوا دواوين للسقاية يشرف عليها مئات المهندسين ويعمل بها آلاف الفنيين والعمـال. وبالمثل تبنى الأمويون فى مصر والشام والمغرب العـربى وإسبانيا هذه المشروعات خاصة ما تعلق بصيانة القنوات المغطاة حتى لايتبخر منها الماء. كما شيـدت سدود وخزانات ومواجل لـلاحتفاظ بميـاه الأمطار وتوزيعها على الرقـعة الزراعية. وكان توزيع الماء رهينًا بإقرار النظام. ففى عصور القوة روعيت العدالة فى

توزيع المياه. وعلى العكس خربت مشروعات السقاية فى عصور الضعف والانهيار إبان حكم النظم العسكرية؛ «فسدت المشارب وبطلت المصالح» على حد تعبير المؤرخ مسكويه.

نرى من ضروريات البحث الموضوعى أن نعترف لمؤسس هذا العهد: معاوية، بأعمال أخرى تحسب فى جانب خدمة التطور والتقدم النسبى. من ذلك عنايته بتطور الاقتصاد الصناعى والزراعى فى بلاد الشام طوال أيام حكمه هناك. ففى المجال الزراعى عنى بتطوير وسائل الرى وإخصاب الأراضى واعتماده خبرة ذوى الاختصاص من السكان المحليين كما أشرنا من قبل. وفى المجال الصناعى عزز نظام الحماية الجمركية للصناعات المحلية بحيث ساعد بذلك على تطويرها أكثر فأكثر وجعلها ذات أثر ملحوظ فى موارد الدخل العام وفى تحسين الدخل التجارى ورفع مستوى الحرفيين فنيًا ومعاشيًا. وإنه لأمر مهم تاريخيًا أيضًا أنه فى عهد إمارة معاوية على الشام، وفى زمان الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، بدأ العرب بعناية خاصة من معاوية نفسه يبنون أول أسطول بحرى مستخدمين خبرة الاختصاصيين المحليين فى هذا المجال أيضًا، ومستعينين بخشب الأرز اللبنانى كما فعل الفينيقيون فى القديم. وقد استعمل هذا الأسطول أول مرة فى فتح العرب لجزيرة قبرص، ثم استعمل فى عهد معاوية نفسه بالحملة على القسطنطينية مرتين: الأولى عام 668 وقد فشلت الحملة هذه المرة، والثانية عام 673 وكانت ناجحة فى التغلب على الأسطول اليونانى ودخول خليج البوسفور والقرن الذهبى ومحاصرة القسطنطينية نحو خمس سنوات. على أن كل هذه الإصلاحات كانت تقتضيها طبيعة تطور القوى المنتجة فى المجالات الزراعية بالدرجة الأولى، ثم الصناعية - الحرفية ذات التقنية المتطورة. إن النظام الاجتماعى الذى أصبحت الدولة الأموية ممثلة له، كان شأنه - موضوعيًا - أن يتطور باتجاه تطور التجارة وخلق صناعة حرفية متقنة تجارى تطور الإمكانيات المتفتحة للنظام نفسه، أى للقوى المنتجة بالنسبة لصناعة أدوات إنتاج متطورة نسبيًا فى الزراعة والرى خصوصًا. إضافة إلى الإمكانيات المتفتحة لدى الطبقة الحاكمة وأصحاب الملكيات الكبيرة فى

الأرض وكبار التجار والقادة العسكريين، وإمكانيات التمتع بالمنتجات التقنية المتقدمة والغالية الأثمان، للاستهلاك والاقتناء. ذلك فضلا عن ضرورة تطور صناعة الأسلحة تلبية لحاجات الدولة المتوسعة باستمرار[1].

لذلك تنوع الإنتاج الزراعى وخاصة المحاصيل مثل القمح والشعير والأذرة باعتبارها غذاء السواد الأعظم من السكان. وأنتجت مصر الأرز بوفرة حتى كان يصدر منها إلى العراق. كما أُنتجت زراعات صناعية بكميات وفيرة منها القنب والكتان والقطن خاصة فى مصر والشام وعربستان واشتهرت مصر بزراعة نبات البردى من أجل صناعة الورق. أما قصب السكر فقد انتشرت زراعته فى جميع السهول الفيضية بالمناطق الحارة فى مصر والعراق والمغرب الأقصى وإسبانيا. واهتم المسلمون بزراعة النباتات العطرية خاصة فى إيران لصناعة العطور والأصبغة. ومن هذه النباتات البنفسج والورد والياسمين والنرجس والزعفران والنيلة والحناء. كما اشتهرت اليمن بالبخور. أما النباتات الزيتية كالزيتون فقد اشتهرت بلاد المغرب بإنتاجه على نطاق واسع. كما زرع السمسم وفول الصويا والبقول فى معظم أقاليم العالم الإسلامى. وانتشرت زراعة الخضروات فى البساتين المجاورة للمدن على وجه الخصوص. أما الغروس المثمرة، فكان أشهرها النخيل الذى كان يمثل فاكهة الفقراء ناهيك عن زراعة العنب من أجل صناعة الخمور والزبيب.

أما عن علاقات الإنتاج فى مجال الزراعة؛ فقد عرفت نظم كثيرة منها نظام المزارع الخاصة ذات المساحات الصغيرة التى كان أصحابها يقومون باستزراعها مباشرة. كما عرف نظام المزارعة بموجب عقد يقدم بمقتضاه المالك الأرض والبذور والحيوان والمعدات اللازمة فى حين يقدم المزارع عمله العضلى وأحيانًا جزءًا من الآلات المنقولة. ويتم اقتسام العائد حسب شروط التعاقد. وكان الزارع يتقاضى الخمس فى الغالب الأعم. وقد شاع هذا النظام فى بلاد المغرب. أما نظام المساقاة

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص470.

فيتم بناء على عقد يتصل بعمل السقاية ويتعلق بزرع يحتاج إلى الرى المنظم. كان المالك يقدم الآلات الرافعة والدواب ثم يوزع المحصول مناصفة بينه وبين المزارع الذى يقوم بسائر المهام الأخرى. أما نظام المغارسة فيتم وفق عقد يقدمه المالك بمقتضاه إلى شريكه أرضًا يقوم الأخير بغرسها. ويقسم العائد حسب شروط العقد. أما الإقطاعات الكبرى؛ فقد جرى العمل فيها على أساس تسخير العبيد فى أغلب الأحيان. ومعلوم أن الفقه الإسلامى قنن هذه النظم جميعًا. لكن اختلاف الفقهاء ومعطيات الواقع حالت دون التطبيق الصحيح للقواعد النظرية. إذ وجدنا فى كثير من الأحيان خروقا وتجاوزات فرغت القواعد الفقهية من مضمونها. على أن التجارب العملية أثبتت تقدمًا ملموسًا فى النشاط الزراعى فى العالم الإسلامى عما كان عليه الحال قبل الفتوح. ليس أدل على ذلك من التآليف فى مجال «الفلاحة» و«الريافة». ففضلا عن المعاجم اللغوية التى أحصت أسماء النبات والغروس؛ ألفت كتب بعينها فى الفلاحة. من أهمها ما كتبه ابن وحشية عن «علم الفلاحة النبطية» حيث مزج فيه بين الوصفات السحرية والطرق والأساليب الزراعية العلمية. كذلك كتاب البكرى المعنون «أعيان النبات والشجيرات الأندلسية» الذى أفاد منه ابن البيطار فى مؤلفاته. وبالمثل كتب الإدريسى كتابه «الجامع لصفات النبات وضروب أنواع المفردات من الأشجار والأثمار والأصول والأزهار». كما كتب ابن البصال ديوانًا من الشعر فى الفلاحة بعنوان «القصد والبيان». ففى عصر الراشدين ازدهرت الزراعة فى مصر والشام والعراق وإيران نتيجة الإصلاحات التى تبناها الخلفاء، وخاصة عمر بن الخطاب - والنظم والقواعد التى استنوها من أجل تحقيق العدالة خاصة ما تعلق منها «بنظام الخراج». وفى العصر الأموى تدهورت الزراعة نتيجة السياسة المشتطة التى عول عليها الأمويون وولاتهم. وما ترتب على ذلك من ثورات داخلية كثيرة مما أدى إلى تخريب المزارع. وحسبنا التنويه بأن الفلاحين كانوا يهجرون الأرض نتيجة عسف الجباة[1].

---

1 - محمود إسماعيل - المرجع السابق ص108.

الإنتاج الحيواني: احتوى العالم الإسلامي مناطق رعوية شاسعة كمنطقة السهوب الإستبسية في آسيا الوسطى والهضبة الإيرانية وبادية الشام وصحارى الجزيرة العربية والصحراء الكبرى في بلاد المغرب العربي. وكلها مناطق صالحة للرعي بكافة صوره وأشكاله. هذا فضلا عن المرتفعات الجبلية التي كانت مراعي مكثفة أنتجت المزيد من الثروة الحيوانية. وبالإضافة إلى ذلك كله شهدت المناطق الزراعية نشاطًا رعويا؛ إذ ارتبطت الحرفتان ارتباطًا وثيقًا. كانت سهوب آسيا الوسطى مرتعا للأبقار والأغنام والخيول. وشكلت الخيول بالذات المصدر الأساسي للثروة الحيوانية بالنسبة للقبائل التركية التي اعتمدت عليها في الحرب والفلاحة والنقل فضلا عن الغذاء في بعض الأحيان. كما مثل الرعي الحرفة الرئيسية لبدو شبه الجزيرة العربية، وعرف الجمل بأنه سفينة الصحراء. وقد حازت الخيول العربية شهرة عالمية وحسبنا أن القرآن الكريم كرمها حين ربطها بالجهاد والمشاغرة. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60] ولا غرو فقد أفاض الأدب العربي في ذكر محاسن الخيل التي شغف العرب بالاهتمام بأنسابها وخصائص أنواعها. وبالمثل اعتمد البدو من العرب العاربة من البربر في المغرب العربي على رعي الماشية والأغنام والبغال والحيوان. وليس أدل على ذلك مما كتبه ابن خلدون من فصول هامة في «مقدمته» عن حياة البداوة. ويحفل التراث العربي بمؤلفات خصصت لدراسة الحيوانات لعل من أهمها ما كتبه الجاحظ والدميري. ولم تكن تربية الحيوانات من أجل الغذاء فقط؛ بل اعتمد عليها البدو في مأكلهم ومشربهم ومسكنهم وملبسهم. هذا إلى جانب كونها الوسيلة الأساسية في نقل الأثقال والعمل الزراعي وإدارة الطواحين وغير ذلك من الأمور التي تحتاج إلى القوة العضلية. وإلى جانب تربية الحيوانات؛ خبر المسلمون تربية الدواجن التي اشتهرت بها سائر أقاليم العالم الإسلامي. كما ربيت دودة القز في إيران والشام وصقلية وإسبانيا لإنتاج الحرير. وبالمثل جرت تربية النحل من أجل الغذاء وإنتاج الشمع. واحترف سكان السواحل صيد الأسماك والإسفنج فضلا عن الأحجار الكريمة. وبرع المسلمون في إنتاج سلالات جديدة من الحيوان والطير عن طريق التهجين. كما ارتبط تقدم الطب البيطري بالترجمات عن اليونان

فضلا عن الخبرة المكتسبه. ويوجـه عام ازدهرت حرفة الرعى فى عصور النظم غير العسكرية وتدهورت فى ظل النظم العسكرية. ففى عهد الرشيد مثلا بلغ الإنتاج الحيوانى من الوفرة إلى حد أن الكبش كان يباع بدرهم. بينما خربت المراعى فى العصور التى عمتها الحروب الداخلية وتسلط الحكام. ولدينا مثل على ذلك ساقه ابن خلدون؛ فحـواه أن ثروة عرب البربر من الغنـم أوشكت على الانقراض إبان عصـر بنى أمية. لأنهم كانوا يأمـرون ولانهم ببقر بطون الشياه لاستخـراج الجزة العسلية من سخالها. صفوة القول أن العالم الإسلامى الذى شكلت البوادى معظم مساحته اعتمد على الرعى اعتماداً كبيراً باعتباره حرفة دائمة وقارّة[1].

الصناعة:

حض الإسلام على العـمل، وأكد على حرمته، وجعل من الإنتاج عـبادة وتقربًا إلى الله بل جـهاداً فى سبيله. قـال تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، فالمقـصود هنا القوة فى الحـرب والقوة فى العمل والإنتـاج. وفى الأثر: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عـملا أن يتقنه». ولقـد اعتمـد العرب فى حياتـهم بالدرجة الاولى على أعمـال التجارة والنقل وتربيـة الماشية، كـما اشتـهروا ببعض الصناعـات المحلية كالمنسـوجات والجلـود والأسلحة وعلى الأخص فى اليـمن وحضـرموت وعـمان والبحريـن والطائف والمدينة المنورة. ومع اتصال الفتوحـات العربية شرقًـا وغربًا، وانتشـار الإسلام بين الموالى أو أهالى البلاد المفـتوحة، واختـلاط العرب بهم عن طريق الجوار أو المصاهرة، نشـأت الشعوب الإسلامية والعـربية التى حافظت على تراثها الحضارى القديم فى مـيادين الزراعة والصناعة، وعملت على تطويره، لأن طبيعة التطور الحضارى تحتم استفادة الخلف من تراث السلف. ويضاف إلى هؤلاء المسلمـين من العـرب والموالى، أهل الذمـة من الصناع وأصـحاب الحـرف الذين استوطنوا البـلاد الإسلامية، مستـفيدين من الحماية التى تقـدمها لهم الدولة. ولم

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص109.

يكن عليهم إلا أن يعترفوا بسيادتها ويطيعوا نظمها، ويدفعوا الضرائب لها. والواقع أن الحكومات الإسلامية بصفة عامة، كفلت لعمالها من أرباب الحرف والصناعات حرية واسعة فى ممارسة أعمالهم، ولم تتدخل إلا فى بعض الصناعات المحدودة التى كان يتطلب ممارستها الحصول على إذن خاص مثل إنشاء الحمامات، وصنع الأسلحة، وسك النقود، وتركيب الأدوية، والعمل فى دور الطراز، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أسباب تتعلق بالمصلحة العامة أو الأمن العام. وارتقت الصناعة بتوالى الأجيال ووفرة المواد الخام النباتية والمعدنية، واتصال العمران فى المدن الإسلامية. على أنها ظلت مع ذلك فى مستوى الصانع اليدوى، وبقيت السلع تصنع فى البيوت أو المحال والحوانيت. وقد تطلب هذا العمل اليدوى من العامل أن يبدى مهارة وحذقًا وصبراً مما أعطى إنتاجه، رغم قلته، صفة الإتقان وطابع الطلاوة.. ولهذا كانت حالة العامل الاقتصادية متواضعة، وتكفى لضروريات عيشه فقط منطبقًا عليه القول المأثور «صناعة فى اليد أمان من الفقر وأمان من الغنى»، واعتبر أهل الحرف فى عداد العامة أو الطبقة الدنيا من المجتمع الإسلامى. ولهذا كله، كانت الصناعة وأربابها موضع عطف وتقدير عدد من الكتاب والمفكرين المسلمين الذين أفردوا لها الرسائل والفصول فى مؤلفاتهم[1].

ازدهرت فى العصر الأموى الصناعات الحربية التى تحتاج إليها الجيوش من سيوف ودروع ورماح وحراب، وأنشئت الترسانات البحرية اللازمة لصناعة السفن فى مدن الساحل، كالإسكندرية و«دمياط» و«رشيد» فى «مصر»، و«عكا»، «صور» و «صيدا» و «بيروت» فى «الشام»، وازدهرت كذلك الصناعات الخشبية اللازمة لأعمال بناء البيوت والمساجد والمستشفيات، وأثاث المنازل، وصناعات الخزف والأدوات المنزلية. وعرف العصر الأموى صناعات النسيج، وكانت أكثر الصناعات ازدهاراً فى «مصر» و«الشام» و«العراق» و«فارس» وبلاد «ما وراء النهر»، وكانت تصنع من الصوف والقطن والكتان والحرير، بالإضافة إلى صناعات المواد الغذائية

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص318.

القائمة علـى الإنتاج الزراعى والحيوانى، وصناعـات الجلود. وأقام الأمويون دوراً لسك النقود؛ الدنانير الذهبية والدراهم الفضية فى عهد «عبد الملك بن مروان» وما تلاه، وهذه الصناعة صعبة لأنها تحتـاج إلى استخراج الذهب والفـضة من باطن الأرض، بعد استخلاصهما مما هو ممزوج بهما من رمال ومعادن أخرى، ثم صهره وتشكيله حسب الحاجة وإذا كانت الصناعات فى عصر الأمويين بسيطة، ولا تقارن بما وصلت إليه فى الوقت الحـاضر، فإنها كانت كـافية ووافية بمتطلبـات الحياة فى زمانها.

إذا كانـت الزراعة والرعى تشكلان أسـاس النشاط الاقـتصـادى فى الريف والبوادى؛ فإن الصناعـة تعد عماد الاقتـصاد فى المدن. ولما كانت الصناعة تعـتمد على التعدين؛ وجب أن نعرض للثروة المعدنية فى العـالم الإسلامى؛ وتبيان كيفية استـغلالها، وإلى أى مدى أسـهمت فى النشاط الصنـاعى. على الرغم من اتساع «دار الإسلام» فإن الكثير من أقاليمها افـتقدت إلى الثروة المعدنية كما هو الحال فى مصـر وبلاد الشرق الأدنى. ومع ذلك فـإن المعادن التى اسـتخرجت مـن الأقاليم الأخرى كانت وفيرة إلى حد تغطية احتياجات العالم الإسلامى برمته. وقد استلزم استـثمار المناجم قـوة بشرية لها وزنـها خاصـة من المأجورين الأحرار والفـلاحين المجاورين لمناطق التعدين فضلا عن الأرقـاء. وكان الاستغلال يجرب على أساس مبدأ الحريـة الاقتصادية أحيانًا. إذ أتيح لجـماعات من اليهود والمسلميـن استخراج المعادن مـن باطن الأرض على أن يقدمـوا للدولة خمس الإنتـاج. كما احـتكرت الدولة فى أحيـان أخرى استـغلال مناجمـها عن طريق العهـدة. واكتسب عـمال المناجم خبرة فى حفر الآبـار العميقة بحثا عن المعادن كمـا هو الحال بالنسبة لمناجم الزئبق فى إسبانيا. كما خبروا تقنية إنشاء الأنفاق الأفقية فضلا عن مهارة الغوص لاستخراج الأحـجار الكريمة من أعماق البحار. ومع ذلك انعـدم وجود مؤلفات تسجل هذه الخـبرات والمهارات كـتلك التى ألفت فى الفلاحة والسـوائم. أما عن أهم المعادن التى استخرجت من إيران وآسيـا الصغرى وبلاد النوبة والمغرب العربى

وإسبانيا؛ فهى النحاس والذهب والفضة والحديد والرصاص. وتوافرت الأحجار الكريمة فى شرقى إيران والهند. كما وجدت أملاح معدنية متنوعة فى معظم أقاليم العالم الإسلامى وبخاصة ملح الطعام. كذلك جرى استخراج النفط من شواطئ بحر قزوين لاستخدامه فى الإنارة والأغراض العسكرية. أما الذهب فقد توافر فى بلاد النوبة فضلا عن السودان الغربى حيث استورده التجار المغاربة. وحرصت الدولة على استثمار الشب والنطرون اللازمين للصباغة والاستعمالات الأخرى. ولاغرو فقد كان الشب من أهم سلع التجارة الدولية. أما جنوب شبه الجزيرة العربية فى اليمن وحضرموت فقد اشتهر بإنتاج الذهب والأحجار الكريمة. ونجحت المغرب فى استثمار مناجم الفضة والحديد والرصاص. كما أنتجت إسبانيا الفضة والنحاس والحديد والقصدير وملح الطعام. واستثمرت محاجر البناء خاصة فى إسبانيا التى اشتهرت بصناعة الرخام. أما الفحم الحجرى فقد ندر استغلاله واستعيض عنه بفحم الخشب. واشتهر الخليج العربى بمصايد اللؤلؤ. كما اشتهرت شواطئ تونس والبحر الأحمر والمحيط الهندى بالمرجان. خلاصة القول أن الإنتاج المعدنى الذى تطور بدافع الصناعة قد حقق ازدهاراً لاشك فيه إبان النظم المستنيرة. وعلى العكس خربت المناجم وتقاعس المسلمون عن استغلالها إبان سيطرة النظم الإقطاعية. أفاد العرب من خبرة أهل البلاد المفتوحة فى قيام صناعات متعددة. فإليهم يعزى الفضل فى وضع أصول صناعات تحويلية وتعدينية وغيرها نظراً لانشغال العرب بالحكم والإدارة والحرب. وقد كرم الإسلام العمل اليدوى من أجل التكسب إلى حد تفضيله على العبادة. قال تعالى: ﴿**وقل عملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾ وفى عصر الراشدين تبنت الخلافة رعاية الصناعات الحربية والبحرية مفيدةً من خبرات أهل الشام ومصر. أما الصناعات التى تخدم الحياة اليومية من ملبس ومأكل ومسكن فقد تركت حرة. واستمر الحال على هذا المنوال طوال العصر الأموى. وإن أضيفت خبرات وتقنيات جديدة بعد توسع المسلمين شرقًا وغربًا[1].

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ المرجع السابق ص112.

صناعة الأسلحة: استخدم المسلمون جميع أنواع الأسلحة المعروفة فى العصر الوسيط. استخدموا السيوف والرماح والنشاب أى السهام ذات النصول المثلثة، كما استخدموا أقواس اليد والرجل، وأقواس اللولب التى تشد بواسطة لولب، وأقواس الركاب التى تشد من ركاب الخيل. كذلك استخدموا ما يسمى باللتوت وهى أعمدة ذات رؤوس حديدية مستطيلة ومضرسة، والدبابيس وهى تشبه اللتوت إلا أن رؤوسها مدورة ومضرسة، والطبر أو الطبرزين وهى الفأس، والدرق اللمطية لاتقاء ضربات العدو وسهامه، وهى مغطاة بجلد اللمط وهو حيوان يعيش فى الصحراء. كذلك لبسوا الخوذات أو البيضات الحديدية لحماية رؤوسهم كما لبسوا الجواشن التى تحمى صدورهم، والدروع المسبلة ذات المغافر الملثمة التى تغطى جميع أجزاء الجسم. هذا، وكان الحصان يعتبر سلاحًا هامًا من أسلحة الجيش، ولذا اهتموا بتربيته وإعداده وتدريبه، كما اهتموا بسلامته وتغطية جسمه بدروع فولاذية أو جلدية تسمى التجافيف. ويشير العذرى على سبيل المثال إلى أن ساحل تدمير (مرسيه) بشرق إسبانيا، كان مركزًا لتربية الخيل حتى إنه كان يخرج ألف فرس من كل ألوان الخيل فى كل عام. كذلك استخدم المسلمون أسلحة الحصار الثقيلة مثل المنجنيقات المدمرة للحصون والدبابات والكباش لنقب الحوائط والأسوار. كل هذه الأسلحة صنعها المسلمون فى بلادهم الممتدة شرقًا وغربًا، معتمدين فى ذلك على ما لديهم من مواد خام وأيد صناعية ماهرة. وقد أمدتنا الكتب الجغرافية والمعاجم اللغوية، بمادة غزيرة عن المعادن المختلفة ولا سيما مناجم الحديد التى كانت منتشرة فى فرغانة، وكابل، وكرمان، وأذربيجان، وأرمينية، ولبنان والشام، وصقلية، والمغرب العربى وإسبانيا. هذا إلى جانب الحديد المستورد من الهند وسيلان وروسيا وبيزنطة، وعلى أساس هذه الخامات الحديدية، قامت صناعة الأسلحة التى اشتهرت باسم أماكن صنعها فى العالم الإسلامى مثل:

السيوف الفارسية، والسيوف اليمنية، والسيوف الشامية كالمشرفية والدمشقية. ومثل الرماح الخطية التى كانت تصنع فى الخط بين البحرين وعمان على الخليج العربى. كذلك كان الفولاذ الإسبانى مشهوراً بجودته فى أنحاء العالم، ومن أهم مراكز صناعته: طليطلة، وغرناطة وإشبيلية ومرسية والمريه، حيث كانت تصنع السيوف والدروع والخوذات وغيرها من الآلات الحربية[1].

التجارة:

كان العرب قبل ظهور الإسلام وسيطًا تجاريًا مهما بين الشرق والغرب؛ حيث كانت التجارة القادمة من الشرق وبخاصة من «الهند» و«الصين» تمر ببلاد العرب عبر طريقين رئيسين: **الطريق الأول**: يمر بعدن فى جنوبى غرب «اليمن» على مدخل «البحر الأحمر» الجنوبى، حيث تأتى السفن، بعضها يواصل سيره فى البحر الأحمر إلى «ميناء القلزم ـ السويس» فى «مصر»، ثم تفرغ حمولتها، وتنقل البضائع بالقوافل إلى الموانئ المصرية على «البحر المتوسط»، وبخاصة «ميناء الإسكندرية»، ثم تشحن فى السفن بحراً مرة أخرى إلى «أوروبا»، وبعضها الآخر يفرغ حمولته فى «عدن»، ثم تحملها القوافل برا عبر الساحل الغربى لشبه الجزيرة العربية، المطل على «البحر الأحمر»، وتمر بمكة المكرمة، التى كانت مركزاً تجاريًا مهمًا، وبعضها يواصل سيره إلى «ميناء غزة» فى «فلسطين». ـ **والطريق الآخر**: يمر عبر «الخليج العربى»، حيث تواصل السفن سيرها وتفرغ حمولتها فى أقصى شماله، حيث «ميناء الأيلة» غربى «البصرة» الحالية فى «العراق»، ثم تنقل البضائع على القوافل براً عابرة «العراق» إلى «الشام»؛ حيث تفرغ حمولتها فى موانيه مثل «عكا» و«صور» و«صيدا» و«بيروت» و«اللاذقية» و«أنطاكية»، ثم تشحن بحراً إلى «أوروبا». وقامت التجارة فى أغلبها على جلب الحرير من «الصين»، والتوابل والبخور من «الهند» وكانت هذه المواد مطلوبة على نطاق واسع فى «أوروبا»، وكان العرب يقومون بدور فعال ونشط فى عملية التجارة هذه، واستفادوا منها

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص350.

فائدة كبيرة، بل إن بعضهم مثل عرب «الحجاز» وبصفة خاصة «قريش» كانت حياتهم الاقتصادية تقوم على التجارة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى سورة قريش، فقال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾

وفى العصر الأموى لم يعد العرب وسيطًا تجاريًا، لنقل البضائع بين الشرق والغرب، وإنما أصبحوا سادة الموقف كله، بعد امتلاكهم الطرق التجارية البحرية والبرية، من «الصين» إلى «إسبانيا»، فبالإضافة إلى ما سبق الحديث عنه بسط المسلمون سيادتهم على الطريق الذى يبدأ من شمالى الصين، ثم يجتاز هضاب وسط آسيا وسهولها - بلاد «ما وراء النهر» - ثم يتفرع إلى عدة طرق، تنتهى كلها إلى موانئ «البحر الأسود» و«البحر المتوسط»، ويمر معظمها فى الأراضى الإسلامية، ثم تنقل التجارة إلى «أوروبا الشرقية» والجنوبية، أما «أوروبا الغربية» و«المغرب العربى» و«إسبانيا»، فكانت معظم تجارتها تأتى من الطريق الأول عبر الموانئ المصرية. وقد سيطر المسلمون على النشاط التجارى كله فى تلك الرقعة الواسعة من الأرض وأصبحت بلادهم تصدر البضائع والمنتجات إلى بلاد الشرق والغرب. فتصدر إلى «الصين» المنسوجات الصوفية والقطنية والكتانية، والبُسُط، والمصنوعات المعدنية، وخام الحديد، وسبائك الذهب والفضة، كما كانوا يستوردون منها الحرير. ولم تقتصر الأرباح المالية التى كانت تجنيها الدولة الأموية على مجرد التبادل التجارى، بل كانت تحصل على أموال طائلة من التجارة العابرة على هيئة رسوم جمركية، كما خلقت هذه العملية التجارية الواسعة فرص عمل لعشرات الآلاف من الناس، وبخاصة فى مدن الموانئ على سواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية، مثل «عدن» و«حضرموت»، و«صحار» و«هرمز»، و«البحرين»، و«القطيف» ، و«سيراف»، و«البصرة»؛ فازدهرت هذه المدن ازدهارًا كبيرًا، كما ازدهرت الموانئ الأخرى المطلة على «البحر الأحمر»، كميناء «جدة» و«السويس»،

أو المطلة على «البحر المتوسط» من «أنطاكية» شمالا حتى «غزة» جنوبًا، وكذلك موانيه الجنوبية فى «مصر» و«المغرب العربى»، مثل «دمياط» و«الإسكندرية» و«طرابلس الغرب» و«تونس». وقد ساعد على ازدهار تلك الحركة التجارية العالمية اهتمام الدولة الأموية بإنشاء الطرق، وتعبيدها وتأمينها، فكانت القوافل تسير فى طرق آمنة، تنتشر على جوانبها الفنادق والاستراحات والأسواق[1].

الإصلاحات الاقتصادية فى إسبانيا: الحكم الإسلامى فى إسبانيا لم يكن مجرد ثورة دينية فصلت أهل البلاد عن ماضيهم البغيض، إنما تضمن انقلابًا اقتصاديًا بعيد الأثر، فقد أدى إلى تخفيف الضرائب وتبسيطها فهى لم تعد ضريبة الجزية والخراج والعشور كما طبقت المثل الاشتراكية في جباية الضرائب وفرضها. فى ميدان الجزية طبق الولاة العرب فى إسبانيا أحكام الإسلام، فلم تزد على دينارين ولم يقل مقدارها عن 12درهمًا، وكانت تتراوح قلة أو كثرة حسب مقدرة الشخص المالية، وهى قد فرضت على الرجال القادرين على حمل السلاح، وأُعفى منها النساء والأطفال والمقعدون والمساكين والمرضى، وتذكر لنا الوثائق أن مقدار الجزية كان يجبى على اثنى عشر قسطًا، بمعنى أن رقيق الحال كان يدفع درهمًا فى الشهر. أما عن الخراج وملكية الأرض، فقد لوحظ أن الأرض كانت على نوعين: **النوع الأول**، الأراضى التى استولت عليها الدولة، أرض الكنيسة أو التى تركها أصحابها وفروا من البلاد، هذه الأرض كانت نظريًا ملك الدولة، ولكن الدولة لم تكن تحتفظ إلا بخمسها فقط والباقى توزعه على الجند أو على المهاجرين من العرب والبربر. وكانت أراضى الولايات الشمالية تخصص للبربر وأراضى الولايات الجنوبية كانت تخصص للعرب، ولم يكن هؤلاء فى الحقيقة يحتفظون إلا بملكيتها الاسمية فقد تركوها لفلاحيها الأصليين نظير شطر من المحصول لا يتجاوز الثلثين فى بعض الأحيان أو الثلاثة أخماس فى بعض الأحيان

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ـ ص86 ـ 88.

الأخرى. أما **النوع الثانى** فهى الأراضى التى تركت لأصحابها الأصليين، وكانت غالبية الأرض، وكان ملاكها هؤلاء يؤدون عنها الخراج فقط الذى كان يتوقف على قدرة الأرض على الإنتاج ولم يكن يتجاوز عشر المحصول. وكان الخراج يفرض بالتساوى على من يحوز الأرض مهما كان دينه أو لونه يتساوى فى ذلك المسلم والذمى، فكأن العرب قد قاموا بتحرير جمهور الزراع من الإقطاعية القديمة، وتملكوا الأرض للمرة الأولى فى حياتهم وأصبح لهم حق التصرف فيها بنقل الحيازة عن طريق البيع والشراء. وكان هذا فى الحياة الاقتصادية انقلابًا بعيد المدى. قضى على الإقطاعية ودعمت الطبقة الوسطى وارتفع شأن الطبقة المعدومة، وكان هذا مقدمة لاستقرار اجتماعى يصل إلى القمة بعد عصر الولاة، وتنفرد إسبانيا دون أوربا المعاصرة بمظاهر الرخاء والثراء والاستقرار[1].

تضمن الحكم الإسلامى إخراج شطر كبير من الشعب الإسبانى من ظلمة اليأس والعبودية إلى الحرية والمعاملة الإنسانية الكريمة، ونقصد بهم الرقيق، فمن بقى على دينه منهم عومل معاملة سائر أهل الذمة وخفف من أعبائه بالصورة التى عرضنا لها، وصار لهم حق الحيازة والزراعة نظير جزء من المحصول، أما الذين اختاروا الدخول فى الإسلام فقد دخلوا الحياة الإسلامية من بابها الواسع وظفروا بحقوق لم تخطر للمعاصرين على بال. على أن الأمر الذى نريد أن نعرفه هو أثر السياسة الدينية والاقتصادية فى نفوس أهل البلاد الذين دانوا للحكم العربى وما أدى إليه ذلك من انتشار الإسلام فى إسبانيا؟ كان الحكم الإسلامى فى الحقيقة نعمة ورخاء على الإسبان. حطم الإقطاعية المستبدة وخلص الناس من طغيان الكنيسة الكاثوليكية، خفف عبء الضرائب عن الطبقات الوسطى والفقيرة وحرر الرقيق وأباح لهم زراعة الأرض وملكيتها، أو بمعنى آخر كان الحكم الإسلامى فى حياة هؤلاء الناس تطوراً له ما وراءه وليس من شك فى رضا المسيحيين من أهل

---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص65.

البلاد عن هذا النظام الجديد اعترفوا فى صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم القوط، وقد سبق أن قلنا إنه لم تحدث ثورة مسيحية واحدة على المسلمين طوال عصر الولاة، بل حتى القساوسة الذين كان من المتوقع أن يكونوا أشد الناس سخطًا على الوضع الجديد لم يكونوا شديدى التألم من حكم العرب، كما يدل على ذلك التاريخ المنسوب إلى آيزيدور الباجى القسيس الذى كتب بقرطبة عام 754م والذى لم يعرض للحكم العربى بالنقد الشديد. كانت هذه السياسة أعظم وسيلة إلى الإسلام بل كانت أبلغ وأكثر فعالية من المعارك والقتال، إن الإسلام يرجع الفضل فى انتشاره على نطاق واسع إلى هذه السياسة الحكيمة وحدها، واعترف المستشرقون بأن العرب لم يرغموا أحداً على الدخول فى دينهم. كانت طبقة العبيد الأسبان أكثر الطبقات استجابة لهذا الحكم الجديد الذى حررها وأخذ بيدها، هذا فضلا عن أن حظها من المسيحية كان قليلا. بل جاوز الإسلام أفراد هذه الطبقة إلى الطبقة الوسطى الذين بدأوا يدخلون فى الإسلام عن إيمان وعقيدة وحماس، بل نجد أفراداً من طبقة كبار الملاك يعتنقون الإسلام ويقبلون عليه، وكان ارتباط كثيرين من العرب والبربر بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد يشد أزر الحركة الإسلامية ويقويها. ويبدو أن الحركة الإسلامية فى إسبانيا كانت تسير بخطا واسعة، فهذا ابن عذارى وابن القوطية يؤكدان أن انتشار الإسلام وقوته فى إسبانيا تم فى أول ولاية السمح بن مالك عام 100هـ (719م). ولعلنا نذكر كيف أن عهد عمر بن عبدالعزيز كان عهد نجاح الدعوة الإسلامية فى جميع الأمصار الإسلامية، وفى آخر عهد الولاة، وعند دخول عبدالرحمن بن معاوية يبدو لنا أن إسبانيا بلد إسلامى استبحر فيه الدين واستقرت قواعده ورسخت أقدامه. ولما بدأ أهل البلاد يدخلون فى الإسلام أطلق العرب على من أسلم منهم اسم المسالمة أو الأسالمة، ثم أطلق على أولادهم الذين نشأوا على الإسلام اسم المولدين، واستمرت هذه التسمية تطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ثم تلاشت

بسبب اختلاط الناس وتحول أهل المملكة الإسلامية فى إسبانيا إلى إسبان دون تمييز(1).

- **الطراز:** تخلى العرب بعد الفتوحات عن ثيابهم الخشنة من الجبب الصوفية المرقعة بالأديم، والأقبية الطويلة المربوطة فى وسطها بالزنانير، والصابرات التى يرتدونها فوق الأقبية، وأقبلوا على التأنق فى اللباس، وتظاهروا بمظاهر الأبهة والفخامة، فازدهرت صناعة النسيج فى أنحاء الدولة العربية، وعرفت مصانع النسيج بدور الطراز، والطراز كلمة فارسية الأصل معناها التطريز وعمل المدبج أو الشريط الكتانى الذى ينسج فى لحمة الثوب وسداه، ثم تطورت كلمة الطراز فأصبحت تعنى المصنع الحكومى الذى تصنع فيه الثياب، ومن المعروف أن من أبهة الملك وفخامة السلطان ومذاهب الدول حسبما يذكر ابن خلدون أن ترسم أسماء الملوك أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم، «تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب ألحاما وأسدادا بخيط الذهب، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع فى تقدير ذلك، ووضعه فى صناعة نسجهم، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنوية بلابسها من السلطان فمن دونه أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته». وهكذا اقتبس خلفاء الدولة الأموية الطراز من دولتى الروم والفرس، ولم يجروا أى تغيير جوهرى على صناعة النسيج السابقة على الإسلام، وقنعوا بإدخال الكتابة العربية التى تشير إلى أسمائهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى الفأل أو السجلات. وكانت الدور المعدة لنسج الأثواب الخلافية فى قصورهم تسمى دور الطراز الخاصة، تمييزاً عن دور الطراز العامة التى تتولى صناعة ثياب الرعية، وكان يتولى النظر على هذه الدور قائم يسمى صاحب الطراز ينظر فى أمور الصباغ والأنواع والحاكة الذين يعدون الحلل والبرود وغيرها، وفى إجراء أرزاق العمل

---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص66.

وكانت مصر قبل الإسلام مشهورة بصناعة النسيج، وكان الأقباط يحملون لواء هذه الصناعة مدة طويلة لدرجة أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم «قباطى» نسبة إلى أقباط مصر، ولذلك عمد العرب إلى الإفادة من هذه الشهرة في كسوة الكعبة، ومنح الخلع، وأدى ذلك إلى نهوضهم بهذه الصناعة ودفعها خطوات كبيرة إلى الأمام، وشاع في عصر سليمان بن عبدالملك نوع من الترف والتأنق في الزى بتوجيه من الخليفة، فقد فرض على رجاله وأهل بيته وخدمه ارتداء المَوَشّى لشدة ولوعه بهذا النوع من النسيج الذى تدخل في لحمته وسداه خيوط الذهب، ويعرف أيضًا بالمقصب، وفى أيامه عمل الوشى الجيد باليمن والكوفة والإسكندرية، ولبس الناس جميعًا الوشى جبابًا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس، وذكر المسعودى أنه «كان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا في الوشى، وكذلك عماله وأصحابه ومن فى داره، وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه على المنبر، وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه إلا فى الوشى، حتى الطباخ، فإنه كان يدخل إليه فى صدره وشى وعلى رأسه طويلة وشى، وأمر أن يكفن فى الوشى المثقله»، كذلك شاع لبس الطيلسان بين فئات مختلفة من الناس، وكان أول من لبسه فى الإسلام من العرب عبدالله بن عامر بن كريز (ت59هـ) أو جبير بن مطعم (ت54)، وكان عمر بن عبدالعزيز يصلى فى جبة طيالسة ليس عليه إزار[1].

شهد العصر الأموى نهضة عمرانية كبرى، استفاد فيها المسلمون من التراث، ومن الطرز المعمارية التى وجدوها فى البلاد المفتوحة سواء أكانت فارسية أو بيزنطية أو مصرية، وطبعوه بطابع عربى إسلامى، ووضعوا بذور فن معمارى متميز عن غيره من الفنون المعمارية الأخرى وساعدهم على ذلك الثراء الذى كانت تتمتع به الدولة. واستطاع بنو أمية بفضل سياستهم العربية أن يسيروا بالعرب فى طريق القوة والمنعة، وأن يصونوا تراث العرب من الضياع من حيث الاحتفاظ

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص687.

بالروح الإسلامية، ومن حيث اتساع رقعة الدولة، ومن حيث تعضيد الحركة العلمية، كذلك برهن العرب فى عصر الدولة الأموية بنشاطهم العمرانى على أنهم من الشعوب المتحضرة الكبرى، فقد احترموا تراث الماضين، واهتموا بالتعمير السلمى، وأحاطوا رجال الفن والصناعات فى البلاد المفتوحة بالرعاية والتقدير، فأسبغوا عليهم حمايتهم، واصطنعوهم فى أعمالهم الفنية. وكان لاختيار دمشق مركزًا للخلافة الأموية أثره الكبيرة فى تأثرهم ببعض الطرز الفنية التى كانت تسود بلاد الشام، حيث كانت تزدهر مدارس الفن الهلنستى والبيزنطى المتأثر ببعض أساليب الفن الساسانى بحكم الجوار، وشاهد المسلمون العمائر المسيحية الرائعة فى الشام من قصور وكنائس وبازيليكات ومعموديات وأضرحة، فكان من الطبيعى أن يتأثروا بأساليبها عندما بدأوا يقيمون لأنفسهم منشآت دينية ومدنية وحربية، تضارع فى عظمتها منشآت البيزنطيين، ولم يأنف العرب أن يتتلمذوا على أيدى أرباب الحرف والفنانين من السوريين والقبط والفرس وغيرهم، ولهذا كان الفن المعمارى والفنون الصناعية الإسلامية فى العصر الأموى تعتمد أساسًا على التقاليد الفنية المحلية[1].

* **إنشاء المدن الجديدة:** أنشأ الأمويون عددًا من المدن فى المشرق والمغرب، ولا يزال معظمها قائما معروفًا حتى الآن، فأنشأ «عقبة بن نافع» فى عهد «معاوية ابن أبى سفيان» (41 ـ 60هـ الموافق 661 ـ 679م) مدينة «القيروان» فى «تونس»، وقد أصبحت عاصمة المغرب العربى كله فى العصر الأموى، ومركزًا من أعظم المراكز الحضارية الإسلامية.

مدينة قيروان: إنشاء مدينة القيروان كان من أهم الأحداث فى تاريخ الفتح الإسلامى وفى تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية وأصبحت مقرًا للولاة والعمال وقبلة المغرب العربى وكعبة الحضارة ومعقل الإسلام. فقد وفد إليها كثير من الصحابة وأقاموا بها يفقهون الناس ويبصرونهم بشؤون دينهم، كما دفن بها كثير ممن استشهد منهم، ويُعتبر إنشاؤها بدء تاريخ الحضارة الإسلامية فى المغرب، فإلى

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ـ ص703.

جانب الجيش والبعوث التى تخرج منها للفتح كـان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا فى المغـرب العربى يعلمـون العـربية وينشـرون الإسلام بل إن الدور الذى لعـبتـه مدرسـة القيـروان فى إدخال عرب العـاربة من «الأمازيغ البـربر» لايقل عن الدور الذى لعبه القـواد الفاتحون، ورغم أنه لم تتح لعقبة بن نافع مـؤسس القيروان إتمام ما بدأ وتنفيذ السياسة الحكيمة التى وضعهـا، غير أن سياسته هذه أصبحت دستوراً لمن أعقبه من القواد الفاتحين لأنها أكثـر السياسات ملاءمة لأحوال المغرب العربى، فخليفته أبو المهـاجر دينار يزحف من المناطق الداخلية ويطوق باب المغرب الأوسط ويصطنع سياسة التحـبب إلى قبائل المغرب العربية ومسالمتها وترغـيبها فى الدخول إلى الإسلام، كـما وضحت الأهميـة القصوى للقـيروان فى عهد زهيـر بن قيس البلوى حينمـا ارتد عرب العاربة من «الأمـازيغ البربر» ولولا القيـروان وأهميتـها الاستراتيـجية لطرد العرب نهائيًـا من المغرب العربى وضاعت الجهـود الشاقة التى بذلت من قبل[1]. وفى عهد «عـبدالملك بن مروان» (65 _ 86هـ الموافق 684 - 705م) أنشأ أخـوه «عبـدالعزيز بن مـروان» والى «مصر» مـدينة «حلوان» جنوبى «الفسطاط»، وأنشأ «حسان بن النعمان الغسانى» مدينة «تونس»، وأنشأ الحجاج بن يوسف الثـقفى» مدينة «واسـط» فى «العراق» بين «البـصرة» و «الكوفة»، ومـدينة «قم» فى منطقة الجبال فى بلاد فارس، بين «ساوة» و «أصـفهان». وأنشأ «سليمان ابن عبدالملك» فى عهـد أخيه «الوليد» (86 _ 96هـ الموافق 705 - 714م) مدينة «الرملة»، كمـا أنشأ الخليفة «هشام بـن عبدالملك» (105 _ 125هـ الموافق 723 - 742م) مدينة «الرصافة» بالقرب من «الرقـة» فى «العراق» وأنشأ «الحكم بن عوانة الكلبى» مدينة «المحفوظة» فى «السند»، و«عمر بن محمد بن القاسم الثقفى» مدينة «المنصورة» فى «السند» أيضًـا. حرص الأمويون على الاستـمتاع بالحيـاة الدنيوية، والتظاهر بمظاهر الترف والأبهة والفـخامة، فاهتموا بإنشاء القـصور المنمقة والمزينة بالزخارف النباتية والهندسية والصور والتماثيل دون أى تحرج، وتدلنا الآثار الأموية الباقيـة من القصور الخلافيـة على تجاوز الأمويين استـخدام الزخرفة إلى استـعمال

---

1 _ د. حسن أحمد محمود _ المرجع السابق ص25.

التصوير فى القصور والحمامات. ويتجلى فى بناء القصور الأموية فى البادية ميل الأمويين الأصيل إلى الفن، وانجذابهم نحو البادية حيث التمتع بهدوء الصحراء التى عاش فيها آباؤهم قبل عصر الفتوحات، وحن إليها أبناؤهم، ولا شك أن البادية هى التى نبعت منها ملكات العرب الفكرية، ونعنى بها ملكات الحس والشعور والخيال.

القصور الأموية:

تمثل القصور الريفية التى بناها الأمويون فى بادية الشام الفن الإسلامى فى شكله المدنى أى غير الدينى. والحقيقة أن الأمويين بإقامتهم فى تلك القصور كانوا يحيون تقليداً عرفه الغساسنة من قبل. ولابأس إذن أن تكون تلك القصور قد جمعت فى مجال الفن ما بين التقاليد الرومانية والعربية. ومن أهم ما وصلت إلينا معرفته من مبانى الأمويين فى البادية: قصر عمرة الذى ينسب إلى الوليد بن عبدالملك (86 ـ 596/ 705 ـ 715م)، وقصر الحير وخربة المفجر التى تنسب إلى هشام بن عبدالملك (105 ـ 125هـ الموافق 723 - 742م)، وقصر المشتى الذى ينسب بناؤه إلى الوليد بن يزيد (125 ـ 126هـ الموافق 742 - 743م)، ثم قصر الأخيضر وإن تراوح تاريخ بنائه ما بين أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى. أما عن القصور فى الأمصار، من: مصر والمغرب فلم يصل إلينا ما يدل عليها، بينما بقيت بعض معالم قصر قرطبة إلى جانب أطلال مدينة الزهراء. والملاحظ هو أن الخطة العامة للقصور الأموية تتمثل فى الفناء المركزى الذى يحيط به البوائك على الأعمدة إلى ارتفاع طابقين. والشكل الخارجى عبارة عن مربع يميل إلى الاستطالة من الحيطان المحصنة فى الزوايا بأبراج ثقيلة، وسلسلة من الأبراج نصف الدائرية على طول الجوانب. وفى منتصف أحد الحيطان ينفتح المدخل فى شكل بوابة عريضة مرتفعة إلى أعلى الطابقين، والدور الأسفل مخصص لحاشية الأمير، أما الدور الأعلى فللمعيشة وقاعة الاستقبال التى عادة ما تكون فوق المدخل. وتلك القصور تشابه القصور الرومانية فى عناصر بنائها، من: الحمامات والحيطان والعقود والحنيات والبوابات، باستثناء الكسوة الزخرفية من

الجص المنقوش فـهى شرقية إيرانيـة أصلا (جروبه، ص14). هذا، كما أن جـميع تلك القصور لاتخلو من المسجد[1].

كشـفت الحفريات الأثرية منذ نهـاية القرن الماضى ومطلع القـرن الحالى عن العديد من القصور التى بناها الخلفاء الأمويون؛ وبخاصة فى صحراء الشام، لأنهم كانوا يحبون البادية ويحنون إليها، استـمتاعًا بالهواء الطلق، وطلبًا للراحة والهدوء من عناء العمل السياسى والإدارى. ومن القصور التى اكتشفت أخيرًا «قصر عمرة» الذى اكتشفه «موزيل» عام (1898م)، ويقع على نحو خمسين ميلا شرقى «عمان» عاصمة «الأردن» حـاليا. ويرجح الباحثون أن هذا القصر بنى لـلخليفة «الوليد بن عبدالملك»، وهـو يتكون من قسمين رئيـسيين، هما: قاعـة الاستقبـال، والحمام الساخن. أما قاعة الاستقبال فهى بناء مستطيل تغطيه ثلاث أقبية نصف أسطوانية، يفصلها عن بعـضها عقدان عـرضيان، وهذا الطراز المعمـارى، طراز فارسى أخذه المسلمـون من «إيران»، وتوجد فى نهـاية القبـو الأوسط لقاعـة الاستـقبال حـنية العرش، وهى مـغطاة بقبـو نصف أسطوانى، أقل ارتفاعـًا من سقف أقـبية قـاعة الاستقبـال، وتحلى حنية العرش بصورة الخليفة وهو جـالس على عرشه، ويكتنف الحنية من جهتيـها غرفتان لتغيير الملابس. ويقع القـسم الثانى وهو الحمام الساخن إلى يسار قاعة الاستقبال، ويتكون من ثـلاث غرف رئيسية؛ الغرفة الباردة ويدخل إليها من قاعة الاستقبال، ويغطيها قبو نصف أسطوانى محوره عمودى على محور قاعة الاسـتقبال، ويليها الغـرفة الدافئة، وهى مغطاة بقـبو متقاطع، يليهـا الغرفة السـاخنة، وهى مغطاة بقبة نصف كروية مـحمولة على أربعة مثلثات كروية، وهذا القصر مبنى من الحجـر الجيرى الأحمر، وتغطى الأقبية طبـقة سميكة من البلاط، كما تغطى الأرضيــة ببلاطات من الرخام، تجرى بأسفلها مواسيـر البخار الساخن، وهى تشبه حمامات «روما».

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص503.

ومن اللافت للنظر الصور التي وجدت على جدران ذلك القصر، ومن أهمها: صورة الخليفة وهو جالس على عرشه، ويحف به شخصان، وفوقه مظلة محمولة على عمودين حلزونيين، وتوجد على عقد المظلة كتابة كوفية تطرق إليها التلف. وصورة أخرى لستة أشخاص، اشتهرت بأنها تمثل صور أعداء الإسلام. والصور الست في صفين، كل ثلاث في صف، ويلبسون ملابس فاخرة، وفوق رؤوس أربعة منهم وجدت كتابة بالعربية واليونانية، لا تزال باقية، وهم من اليسار إلى اليمين «قيصر الروم» في الصف الأول، ويليه «روذيق» ملك «القوط» الإسباني في الصف الخلفي، والثالث في الصف الأول هو «كسرى فارس»، والرابع في الصف الخلفي فوقه كلمة «النجاشي». وقد استنتج الباحثون من هذه الصورة، ومن ترتيب وضع الملوك فيها أن الذين في الصف الأول هما «كسرى» و «قيصر» من ملوك الإمبراطوريات الكبيرة، أما اللذان في الصف الخلفي فهما من ملوك الدول الصغيرة، كما استنتجوا أن تكون الصورة الخامسة لملك «الصين»، والسادسة لأحد ملوك الترك، وهؤلاء هم الذين فتح المسلمون بلادهم في العصر الأموي، أو فرضوا عليها سيادتهم. ومن القصور التي اكتشفت أيضًا القصر المسمى بقصر «خربة»، الذي ينسب إلى الخليفة «هشام بن عبدالملك»، ويقع على بعد ثلاثة أميال شمالي مدينة «أريحا» في «فلسطين» وكان قصراً شتويًا زينت جدرانه بصور ورسوم آدمية وحيوانية، كما وجد اسم الخليفة «هشام بن عبدالملك» مسجلا على أحد الجدران، وصورة فتاة تحمل باقة من الورد، ولوحة تمثل فتيات يرقصن وقد صبغن شفاههن وأظافر أيديهم وأرجلهن بصبغة ذات لون قرمزي، بالإضافة إلى رسوم نباتية تحمل شجرة يحيط بها من اليمين صورة أسد ينقض على غزال، ومن اليسار غزالان بين أزهار، وكلها ملونة بألوان زاهية.

ومن القصور التي اكتشفت عام (1840م) «قصر المشتى»، وينسب إلى الخليفة «الوليد بن يزيد بن عبدالملك» (125 ـ 126هـ الموافق 742 - 743م)، وهو قصر صحراوي غير تام البناء، وقد تهدم معظمه، ونقلت أهم زخارفه التي كانت محفورة في الحجر الجيري في الواجهة الجنوبية إلى «برلين»، مهداة من

السلطان العثماني «عبدالحميد» إلى الإمبراطور الألماني «غليون الثاني»، وقد وضعت في «متحف برلين» منذ عام (1093م). والقصر عبارة عن بناء مستطيل مساحته نحو (144) متراً مربعًا، وحائطه الخارجي تكتنفه أبراج نصف دائرية، ويقع المدخل في وسط واجهته الجنوبية، والقصر مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام رئيسية، تتجه من الشمال إلى الجنوب، والمباني الداخلية مبنية من الطوب، والمدخل يكتنفه برجان على شكل نصف منحني، ويتكون شكل الواجهة الجنوبية من عدة مثلثات معتدلة ومقلوبة، بحيث تظهر في مجموعها على شكل خط منكسر، وفي وسط كل مثلث وردة، وبأسفلها في المثلثات المعتدلة موضوعات زخرفية متنوعة، بعضها يمثل حيوانين متقابلين يفصلهما إناء، وبالأرضية زخارف نباتية جميلة محفورة على الحجر، ويلي المدخل ردهة توصل إلى فناء مربع التخطيط، مساحته (14) متراً مربعًا، ويكتنف ردهة المدخل من جهتيها حجرات مكونة من طابقين، كما توجد غرفة مستطيلة إلى يمين المدخل، في حائطها الجنوبي محراب، استنتج الباحثون أنها كانت مسجد القصر أو مصلاه.

ويلي الفناء الأول فناء كبير مساحته (57) متراً مربعًا، يليه الجناح الملكي، ويتكون من قاعة تؤدي بدورها إلى قاعة العرش، وهي مكونة من ثلاث حنيات نصف دائرية، ويكتنفها من جهتيها بيوت مكونة من زوجين من الغرف، وتوجد حول قاعة العرش أربع مجموعات من هذه البيوت.

وهذه القصور المكتشفة تدل على تقدم فن العمارة في عهد الدولة الأموية، وتأثره بالطرز المعمارية الفارسية والبيزنطية، وعلى الثراء الذي كانت عليه الدولة، مما مكن خلفاءها من بناء تلك القصور الباذخة، ومعظمها لم يكن للسكنى الدائمة، وإنما كانت مشاتٍ ومصايف للإقامة الموسمية المؤقتة[1].

المساجد:

أما عن المسجد بصفته النموذج الأول للعمارة الإسلامية الدينية، الذي نشأ تلقائيًا حسب متطلبات فريضة الصلاة، فإن البعض يرجع تخطيط ذلك النوع من

1 ـ د. عبدالشافي محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص91 ـ 93.

المساجد ذات الصحن الأوسط الذى تكتنفه البوائك بأعمدتها وعقودها إلى تخطيط الدار السكنية القديمة ذات الفناء الأوسط المكشوف، الذى تحيط به الغرف من جوانبه الأربعة (كونل، ص16، وقارن الألفي، ص54). ودون الاعتراض على ذلك نحب التأكيد على أن الفكرة الأساسية لتخطيط المسجد نابعة من الوظيفة الأولى لأول مسجد إسلامى بناه الرسول فى المدينة وهى تتلخص فى حماية المصلين وخاصة من وهج الشمس عن طريق بناء سقيفة أو صُفّة محمولة على أعمدة من الجذوع تتقدم الفناء المكشوف الذى انفتحت عليه مساكن النبى. فكأن الجامع الأول فى المدينة كان يجمع ما بين المسكن وبيت الصلاة فى السقيفة أو الظلة، وكذلك مكان الاجتماعات العامة فى الفناء المكشوف أو الصحن. ولما كان تخطيط القصور الأموية فى بادية الشام، وهى التى واكبت بناء المساجد الكبرى فى القدس ودمشق، قد تم على أساس الفناء المركزى المكشوف الذى تدور حوله وحدات المسكن الكبير، من: قاعات الاستقبال وقاعات العرش، والحمامات والمسجد ومساكل أهل الدار والخدم والحشم، ولما كانت هذه القصور تجديداً لما كان فى المنطقة من قصور قديمة، مثل: قصور وهياكل الرصافة التى كان قد بناها المنذر الغسانى فى موضع ضريح القديس سرجيوس (حتى، ج1 ص326) أو من قلاع وحصون مثل: قصر الأخيضر، فلا بأس أن يكون ذلك مما دعا إلى القول ببناء المساجد الإسلامية الأولى سواء فى الحجاز أو فى الأمصار على أساس تخطيط الدار السكنية القديمة ذات الفناء الأوسط. ولما كان المسجد النبوى الأول قد تطور مع مرور الوقت إلى أن تكاملت عناصره عندما أعيد بناؤه حوالى عام 87هـ/706م، على عهد الوليد بن عبدالملك، فاتخذ له المحراب فى منتصف جدار القبلة، والميضأة فى وسط الصحن، كما أقيمت له المآذن على نسق مآذن المسجد الأقصى وجامع دمشق، فقد قيل إن المساجد الأولى تطورت على أساس البازيليكات (أى الكنائس) المسيحية التى تم تحويل بعضها فى بلاد الشام إلى مساجد. وفى ذلك التطور قيل: إن ساحة الكنيسة تحورت إلى صحن الجامع، وأن

حنية الهيكل تحولت إلى المحراب، وأن برج الناقوس أصبح المئذنة (كونل، ص16؛ وقارن الألفى، ص54). ومع سلامة المقارنة فإن المهم فى أمور العمارة ليس الشكل الخاص بالعنصر المعمارى بل الوظيفة التى يقوم بها، إذ الحقيقة أن عمليات النقل والاقتباس فى تاريخ الحضارات لاتحدث تلقائيًا لمجرد التقليد بل تتم تبعًا لحاجات يتطلب الأمر إشباعها[1].

ازدهرت حركة بناء المساجد فى عهد الأمويين ازدهارًا كبيرًا، فوسعوا المساجد التى كانت موجودة من قبل، كالمسجد الحرام فى «مكة المكرمة»، و«المسجد النبوى» فى «المدينة المنورة»، و«جامع عمرو بن العاص» فى «الفسطاط»، و«المسجد الكبير» فى «صنعاء» باليمن، كما أقاموا العديد من المساجد الجديدة، من أشهرها: «مسجد قبة الصخرة» الذى أنشأه «عبدالملك بن مروان» فى «القدس»، و«المسجد الأقصى» الذى أنشأه ابنه «الوليد» و«المسجد الأموى» الكبير فى «دمشق» الذى أنشأه «الوليد» أيضًا.

- **المسجد الحرام:** كانت «الكعبة المشرفة» فى عهد النبى ﷺ وخلفائه الراشدين على البناء نفسه الذى أقامته «قريش» بعد السيل؛ الذى دمر «الكعبة» قبل بعثة النبى ﷺ، واستمرت على ذلك إلى أن هدمت أثناء خلافة «عبدالله بن الزبير» (64 ـ 73هـ الموافق 683 - 692م)، فقام ببنائها من جديد على قواعد «إبراهيم» ـ عليه السلام ـ وأدخل فيها حجر «إسماعيل»، واستشهد على ذلك بحديث النبى ﷺ الذى خاطب فيه «عائشة» بقوله: «لولا أن قومك حديثو عهد بشرك أو بجاهلية لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا وزدت فيها من الحجر ستة أذرع..». [مسند الإمام أحمد]. وبعد مقتل «ابن الزبير» وانتهاء دولته عام (73هـ الموافق 692م) هدم الأمويون «الكعبة» وأعادوا بناءها على ما كانت عليه قبل زيادة «ابن الزبير» وكانت مساحة «المسجد

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص457.

الحرام» نفسه فضاء ولم يكن له جدران فى عهد النبى ﷺ و «أبى بكر الصديق»، فلما كثر الناس فى عهد «عمر بن الخطاب» اشترى الدور المجاورة للبيت الحرام، وهدمها وأضافها إلى مساحته، وأقام له جدرانًا دون قامة الرجل، وكذلك فعل «عثمان بن عفان» و«عبد الله بن الزبير». واستمر هذا الوضع حتى كان عهد «الوليد بن عبد الملك» (86 ـ 96هـ الموافق 705 - 714م)، فزاد فى مساحته، وبنى سوره على عمد من الرخام، ووضع صفائح من الذهب على باب «الكعبة».

- **المسجد النبوى فى المدينة المنورة:** ظل مسجد رسول الله ﷺ على حالته التى بنى عليها حتى عهد «عمر بن الخطاب»، الذى زاد فى مساحته، وأطال جدرانه، ثم أضاف «عثمان بن عفان» إليه مساحات جديدة لكثرة المصلين، وضيقه بهم، وبناه من الحجارة وجعل له عمداً من الحجارة، وسقفًا من الساج. وظل المسجد كذلك إلى عهد «الوليد بن عبدالملك»، فأمر ابن عمه «عمر بن عبدالعزيز» واليه على «المدينة» (87 ـ 93هـ الموافق 705 - 711م) بهدمه وإعادة بنائه وتوسعته، فأدخل فيه حجرات النبى ﷺ.

وعنى «الوليد» بإعادة بناء المسجد عناية عظيمة، فأرسل إلى «عمر بن عبدالعزيز» أموالا كثيرة لهذا الغرض، وثمانين عاملا من عمال البناء من الشام وقبط «مصر»، وكميات كبيرة من الرخام والفسيفساء، وقد عهد «عمر» بالإشراف على البناء إلى واحد من كبار التابعين هو «صالح بن كيسان». وقد بنى أساس المسجد من الحجارة، وجعلت عمده من الحجارة المحشوة بالحديد والرصاص، وأقيمت له المآذن، وفتحت له عدة أبواب، منها «باب جبريل» عليه السلام، و«باب النساء». واستمر العمل فى البناء نحو ثلاث سنوات، وفى عام (90هـ الموافق 708م) زار الخليفة «الوليد» «المدينة» ليطمئن على سير العمل فى المسجد بنفسه، وقد أعجب بالبناء، وبما عليه من روعة تليق بمسجد رسول الله ﷺ، وقسم أموالا كثيرة على أهل المدينة احتفاء بهذه المناسبة، وخطب فيهم الجمعة من فوق منبر النبى ﷺ.

- **مسجد قبة الصخرة:** أمر «عبدالملك بن مروان» سنة (72هـ الموافق 691م) ببناء مسجد فوق الصخرة التى عرج الرسول ﷺ من فوقها ليلة الإسراء والمعراج.

- **المسجد الأقصى:** وقد بناه «الوليد بن عبدالملك» بالقرب من ساحة «مسجد قبة الصخرة»، وزينه بالفسيفساء والرخام، واحتفل ببنائه كاحتفاله بالمسجد الحرام بمكة المكرمة ومسجد الرسول ﷺ فى «المدينة المنورة». ويعرف المسجد الأقصى عند بعض الكتاب باسم مسجد عمر، رغم ما هو معروف تاريخيًا من أنه من بناء عبدالملك بن مروان، وكذلك قبة الصخرة. ولقد بناه عبدالملك فى موضع كنيسة قديمة واستخدم أنقاض الكنيسة فى البناء، مما دعا الباحثين المحدثين إلى اعتبار الأقصى من الطراز الكنسى البازيليكى مثل جامع دمشق. والأقصى يحتل مستطيلا فى جنوب الحرم الشريف يمتد أفقيًا فى اتجاه الجنوب على طول جدار القبلة إلى حوالى مائتى متر. أما عمقه (فى اتجاه الشمال) فهو حوالى سبعين[1].

- **المسجد الأموى فى دمشق:** يعد «المسجد الأموى» من أعظم المساجد التى أنشئت فى العصر الأموى، بناه «الوليد بن عبدالملك»، وبذل فيه جهدًا كبيرًا، ولم يبخل عليه بالأموال، فجاء شامخًا عظيمًا. أصل مكان المسجد كان معبدًا وثنيا فى عهد الرومان. ثم تحول إلى كنيسة فى العهد المسيحى، ثم فتحت «دمشق» فى عهد «عمر بن الخطاب» صلحًا، واقتسم المسلمون بناء على ذلك الصلح كل شىء فى المدينة مع أهلها، فقسمت الكنيسة، وجعل المسلمون نصفها مسجدًا، وبقى النصف الآخر كنيسة تقام فيها شعائر أهلها، وكان هذا آية من آيات السماحة؛ حيث لم يجد المسلمون غضاضة أن يتجاور المسجد والكنيسة، فضلا عن كونهما فى بناء واحد. وظل الأمر كذلك حتى عهد «الوليد»، الذى تفاوض مع المسيحيين، وعوضهم عن نصيبهم مساحة كبيرة من الأرض يقيمون عليها

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص491.

كنيسة كبيرة مستقلة، وهدم البناء القديم كله وأقام عليه المسجد، الذى جاء مستطيل الشكل، له ثلاث مداخل، وأربع مآذن، وجعل فى وسطه صحنًا مكشوفًا، تحيط به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة، وغطيت أرضيته بالرخام، وكذلك جدرانه إلى ارتفاع قامة الإنسان، وفوق الرخام زخاف من الفسيفساء المذهبة، وجعل سقفه من الرصاص، وبه ستمائة سلسلة من الذهب تتدلى منها قناديل للإنارة. وقد عنى الخليفة ببناء المسجد عناية واضحة، فأشرف على بنائه بنفسه، وأنفق عليه أموالا طائلة، بلغت خمسة ملايين دينار، تعرض بسببها للانتقاد، فأجاب بأنه يريد أن يكون المسجد الذى هو أعظم رمز للإسلام لائقًا بدولته الكبيرة، واستمر العمل فى المسجد تسع سنوات (87 ـ 96هـ الموافق 705 - 714م)، عمل فيه نحو عشرة آلاف عامل، حتى جاء المسجد آية من آيات فن العمارة الإسلامى، حتى ليذكر «ياقوت الحموى» أن الناس كانوا يعدونه من عجائب الدنيا. وعندما آلت الخلافة إلى «عمر بن عبدالعزيز» رأى أن الخليفة «الوليد» بالغ فى الإنفاق على بناء المسجد. وهم بنزع سلاسل الذهب وبيعها، ووضع ثمنها فى بيت المال، ولما علم أهل «دمشق» بعزمه اشتد عليهم الأمر وكرهوه، وهم الذين كانوا قد انتقدوا «الوليد» من قبل، ولكن قبل أن ينفذ «عمر» ما عزم عليه جاء إلى «دمشق» وفد رسمى من قبل إمبراطور الروم، لبحث العلاقة بين الدولتين، فزار ذلك الوفد «المسجد الأموى» وكان معهم قسيس فلما دخلوا المسجد أغمى عليه فحملوه إلى دار الضيافة، فسأله رفاقه بعد أن أفاق عما حدث له، فقال: كنا نتحدث أن بقاء دولتهم لن يطول، فلما رأيت ذلك البناء الشامخ حصل لى هم وغم، وأدركت أن بقاءهم سيطول، فحدث لى ما رأيتم، وكان يسمع ذلك الحوار أحد المسلمين العارفين باليونانية التى كانوا يتحاورون بها، فنقل ذلك إلى «عمر بن عبدالعزيز» فقال: إذا كان المسجد قد أغاظهم إلى هذا الحد، فلن أنزع منه شيئًا، بل زاده جمالا وروعة وبهاء، فأمر بترصيع محرابه بالجواهر الثمينة، وعلق له قناديل من ذهب وفضة.

- **العناية بالطرق:** اهتمت الدولة الأموية اهتمامًا كبيراً بإنشاء الطرق، لربط أجزائها التى امتدت من «الصين» إلى «إسبانيا»، وهى مسافة تبلغ (12) الف كليو متر من الشرق إلى الغرب، ولتيسير الاتصال ببعضها ولتحقيق كثير من الأغراض، منها ما هو عسكرى لتيسير حركة الجيوش، ومنها ما هو اقتصادى لتيسير حركة التجارة، ومنها ما هو إدارى لتسهيل وصول الأخبار عن طريق رجال البريد، ومنها ما هو دينى لتسهيل وصول حجاج بيت الله الحرام من كل أنحاء الدولة إلى «مكة المكرمة»، لأداء فريضة الحج، وإلى «المدينة المنورة» لزيارة مسجد النبى ﷺ. وقد قسم الأمويون الطرق التى تربط العاصمة «دمشق» بعواصم الولايات - كـ«الفسطاط» و«القيروان» و«قرطبة» و«الكوفة» و «البصرة» و«خراسان»، و«ما وراء النهر» إلى مسافات صغيرة محددة، وجعلوا لها علامات تحمل أرقامًا، ليعرف المسافرون المسافات بين المدن والأقاليم، وهى مثل العلامات الإرشادية المستخدمة الآن فى الطرق الإقليمية والدولية، وعمرت الطرق بالخانات والاستراحات، ليستريح الناس من وعثاء السفر، فوق ما كانت تتمتع به من أمن وأمان، وكان الناس يسافرون عبر هذه الطرق، ويتنقلون بين مدن الشرق والغرب دون تصريح مرور أو جواز سفر، فالدولة كلها على امتداد حدودها وطنهم، فى أى مكان منه يستطيع الإنسان أن يسكن ويتزوج ويتاجر، دون مضايقة أو طلب إقامة[1].

اقتصاد المغرب فى العهد الأموى:

بدأت تبرز معالم التحول الجذرى الذى عرفته الحياة الاقتصادية فى المجتمع الإسلامى، منذ عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان، وتبلورت مع اتساع نطاق الفتوحات الإسلامية، وتحول العالم الإسلامى إلى مركز رئيسى للدورة التجارية العالمية، وأدى ذلك إلى ازدهار فئات اجتماعية، ولا سيما فئتى أصحاب الملكيات العقارية الضخمة والتجار، فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع

1 - د. السيد عبدالعزيز سالم - المرجع السابق ص689.

المغربي في العصر الأموي. ومن المعروف أن بروز حركات المعارضة السياسية - الدينية مرتبطة وثيق الارتباط بذلك التحول، فمن القضايا المتصلة بالتحول المذكور نوع التغيير الذي تم في ميدان الملكية العقارية في العصر الاموي، وتنظيم شؤون الخراج، وأساليب جمع أنواع الجباية، ولكن الأخبار حول هذه المسائل نادرة. قد يتساءل المرء هنا قائلا: ألا يمكن قياس وضع الملكية العقارية في المغرب في العهد الأموي بوضعية أراضي السواد في العراق، أو أراضي بلاد الشام أو مصر؟

بدأت الدولة الأموية بتطبيق التنظيمات الاقتصادية التي كانت قد طبقتها في مصر، ولا سيما بعد انتقال عبد الله بن الحبحاب أمير عليه قادمًا من مصر بعد أن قام بتطبيقها هناك، ولا بد أنها ستطبق في مصر، وهذه التنظيمات هي مسح جديد كامل لجميع الأراضي وتحديد أنواعها بدقة من أجل تعيين ضريبة جديدة لكل نوع منها، فكان من نتيجة ذلك أن الضريبة ازدادت عما كانت عليه سابقا بنسبة 20٪ في مصر ولا مفر من تحقيق ذلك في المغرب العربي[1]، لذلك فقد بادر عبد الله ابن الحبحاب فور وصوله إلى المغرب الأقصى إلى تقسيمه إلى قسمين السوس الأدنى ويضم طنجة وما والاها، والسوس الأقصى وما يتبع له في الجنوب[2].

وقد يقبل المرء ذلك بالنسبة للأراضي التي كانت بيد طبقة النبلاء البيزنطيين، ولا سيما في المغرب الأدنى، ولكننا نعتقد أن الوضع يختلف في المغربين: الأوسط والأقصى، وهي المنطقة التي عرفت بكثافتها السكانية، وبسيطرة القبائل الكبرى عليها، وعرفت أيضًا بأهمية الملكية المشاعة فيها. إن النصوص ذات المحتوى الاقتصادي التي تشير إلى الغنائم، وإلى الهدايا التي كان يرسل بها ولاة المغرب إلى دمشق نادرة، أما مبالغ الجباية من خراج وجزية وصدقات، ومدى انتظام إرسالها إلى بيت المال في عاصمة الخلافة فإننا لا نعرف عنها شيئًا، أو نكاد. إن

1 ـ د. علي أحمد ـ تاريخ المغرب العربي الإسلامي ـ ص65.
2 ـ د. علي أحمد ـ نفس المرجع ص65.

جمع الأموال وإرسالها لم يتم بصفة منتظمة، فمن المعروف أن أحداث المغرب لم تنته بانتهاء ولاية موسى بن نصير (86 – 96هـ)، وفتح الأندلس، بل اشتد أمرها إثر بدايات انتفاضات الخوارج عام 122هـ، وسترى أن ذلك لم يحدث صدفة، بل جاء تعبيراً عن معارضة لسياسة معينة سلكها ولاة بنى أمية فى المغرب، ولا سيما فى ميدان السياسة الجبائية. وتعتمد السياسة المالية للدولة الأموية على تنظيم سياسى عسكرى، وإدارى دعامته سلطة الولاة فى أجزاء الخلافة، وهى سلطة تستند إلى قوة عسكرية تتألف نواتها – فى أكثر الأحايين – من جند الشام، ولا سيما فى فترة الاضطرابات، ولما تتأزم الأوضاع، وتصبح مهددة لسلطة بنى أمية فإنهم يجندون من عشيرتهم، ثم من سائر المغرب، وقد حدث ذلك بالخصوص فى المغرب أيام حركات الخوارج، فلما قدم كلثوم بن عياض القشيرى عام123هـ لملاقاة جيش خالد بن حميد الزناتى على ضفاف وادى سبو، كان يقود جيشًا يتألف من ثلاثين ألفًا «قال ابن القطان: فيهم عشرة آلاف من صلب بنى أمية، وعشرون ألفًا من سائر العرب»، وتعتمد فى نفس الوقت على الصراع القبلى، ولا سيما الصراع بين اليمانية والحجازية، وقد اشتهر الأمويون بإذكاء ناره واستغلاله لفائدة حكمهم. كان الولاة يتمتعون بنفوذ كبير فى ولاياتهم، فهم المسؤولون عن الشؤون السياسية والعسكرية والإدارية والمالية، ويعينون بدورهم قادة للجيش وعمالا ينوبون عنهم فى مناطق تابعة لولايتهم، وقد يعين الخليفة عاملا على الخراج يرجع بالنظر إليه مباشرة، ولم يقع الفصل فى المغرب بين والى الحرب أو الصلاة ووالى الخراج، كما حدث ذلك فى مصر[1].

ويبلغ نفوذهم فى بعض الحالات شأنًا يتجاوز فيه الأمر السلطة المطلقة لخدمة النظام الأموى فيصل إلى كسب عدد كبير من الأنصار والموالى وجمع ثروة ضخمة تثير حنق الخلفاء أنفسهم، وتبعث فى نفوسهم الغيرة. ويمكن هنا أن نذكر مثالين، مثال خالد بن عبد الله القسرى عامل العراق (105 – 120هـ)، ومثال موسى بن

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص15.

نصير عامل المغرب والأندلس، فقد جمع الأول ثروة ضخمة، ولا سيما من دخل الأراضى الزراعية الشاسعة التى أصبح يملكها بالعراق، وأطلق يد عماله فى المناطق التى ترجع إليه بالنظر شرقى العراق وأصبح إنتاجه يزاحم غلات ضيعات هشام بن عبد الملك فى الأسواق، فقد اضطر الخليفة أن يكتب إليه قائلا: «لا تبيعن من الغلات شيئًا حتى تباع غلات أمير المؤمنين»، ولما ختن طارق بن أبى زياد خليفة خالد بن عبد الله القسرى بالكوفة ولده أهدى إليه «ألف وصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب». أما نفوذ موسى بن نصير أيام ولايته للمغرب والأندلس فقد تجاوز جمع ثروة كبرى من الغنائم لم يدخل المشرق قبلها أعظم وأنفس، وقد تسببت هذه الثروة بعد نكبته فى تتبع أسرته وأنصاره بالمغرب، وتغريمهم مبالغ ضخمة طائلة ليصل إلى بعث قوة سياسية فى بلاد المغرب تعتمد على آلاف من الموالى والخدم، ولعل هذا الحزب السياسى من الموالى والأنصار الذى ركز أسسه فى بلاد المغرب هو الذى أثار خوف الخليفة الجديد فى دمشق، وغضبه، وأدى فى النهاية إلى نكبته، ومطاردة أسرته وأنصاره ببلاد المغرب والأندلس. يخبرنا ابن عذارى عن أهمية هذه القوة قائلا: (ثم إن يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى، فقال له: «يا أبا عبد الرحمن، فى كم كنت تعتد أنت وأهل بيتك من الموالى والخدام؟ أتكونون فى ألف؟» فقال: «نعم وألف ألف إلى منقطع النفس!» قال: «فلم ألقيت بنفسك إلى التهلكة؟ أفلا أقمت فى قرار عزك، وموضع سلطانك؟» فقال: «والله! لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافى شيئًا، ولكنى آثرت الله - عز وجل - ورسوله ولم أر الخروج عن الطاعة». إن الأمثلة كثيرة حول النفوذ الكبير الذى كان يتمتع به الولاة الأمويون فى مناطقهم، وقد كانت ولاية بلاد المغرب من الولايات الحساسة نظراً للصعوبات الكبرى التى واجهت الفتح الإسلامى للمغرب، ولما اتسم به من هياكل اجتماعية، ومعطيات ديمغرافية خاصة دعامتها الأولى العصبية القبلية، وما يتصل بها من ميزات معينة. فقد عين الأمويون خلال فترة الفتح (27 - 96هـ) لإدارة شئون المغرب قادة مشهورين فى تاريخ الدولة الإسلامية مثل عقبة بن نافع، وحسان بن النعمان الغسانى، وموسى

ابن نصير، ثم تعاقب الولاة الأمويون على القيروان فبلغ عددهم تسعة فى الحقبة الممتدة من 96هـ إلى استقلال عبد الرحمن بن حبيب الفهرى عن مركز الخلافة عام 127هـ. هؤلاء الولاة هم: محمد بن يزيد القرشى (96 - 100هـ)، إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر (100 - 102هـ)، يزيد بن أبى مسلم (102 - 102هـ)، محمد بن أوس الأنصارى (102 - 102هـ)، بشر بن صفوان الكلبى (103 - 109هـ)، عبيدة بن عبد الرحمن السلمى (110 - 114هـ)، عبيد الله بن الحبحاب (116 - 123هـ)، كلثوم بن عياض القشيرى (123 - 124هـ) حنظلة بن صفوان (124 - 127هـ)[1].

ونلمس فى تتبعنا لتراجم هؤلاء الولاة أنهم مشهورون بولائهم للأمويين، وقد تولى الكثير منهم مناصب عليا قبل تسميتهم فى المغرب. وكان بعض الخلفاء الأمويون يعطون أهمية لتسمية ولاة من أصل قرشى، فلما ثار سكان القيروان على يزيد بن أبى مسلم وقتلوه، سموا مكانه محمد بن أوس الأنصارى، وأرسلوا خالد ابن أبى عمران لإعلام الخليفة «قال خالد بن أبى عمران: ودعانى يزيد خاليًا فقال أى رجل محمد بن أوس فقلت رجل من أهل الدين والفضل معروف بالفقه قال فما كان بها قرشى قلت بلى المغيرة بن أبى بردة قال قد عرفته فما له لم يقم قلت أبى ذلك وأحب العزلة فسكت». فقد كان يزيد بن أبى مسلم أحد تلامذة الحجاج، فعمل لديه كاتبًا، ثم سماه صاحب شرطة، وشغل بشر بن صفوان منصب والى مصر قبل تعيينه واليًا على بلاد المغرب، أما عبيدة بن عبد الرحمن السلمى فهو «ابن أخى أبى الأعور السلمى صاحب خيل معاوية بصفين»، وكان عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث، حجاريًا بالولاء، إذ كان مولى لبنى سلول، ويتحدث عنه ابن عذارى قائلا: «وكان رئيسًا نبيلا، وأميرًا جليلاً، بارعًا فى الفصاحة والخطابة، حافظًا لأيام العرب وأشعارها ووقائعها»، وتقلب فى وظائف إدارية مختلفة إلى أن سمى عاملا على خراج مصر عام 109هـ، وكان كلثوم بن

1 - د. الحبيب الجنحانى - المرجع السابق - ص17.

عياض القشيرى شيخًا من أعيان الحجازية الخلص، وتولى منصب صاحب الشرطة بعاصمة الخلافة الأموية دمشق، ثم عين هشام بن عبد الملك بعده على بلاد المغرب حنظلة بن صفوان الكلبى والى مصر. إن اختيار ولاة المغرب من بين مشاهير القادة والموظفين يقيم الدليل على ما لمحنا إليه من أهمية هذه الولاية فى سياسة مركز الخلافة، وهى الأهمية التى نلمسها فى تسمية أمراء الجيوش فى مرحلة الفتح. ويتساءل المرء هنا عن السياسة التى اتبعها هؤلاء الولاة فى المغرب؟

إدن إدارتهم لشئون المغرب لا تختلف عن الأساليب التى استعملها ولاة بنى أمية فى بقية أجزاء العالم الإسلامى، فقد ارتكبوا أخطاء فادحة كانت لها نتائج خطيرة فى حياة المغرب، وقد كان رد الفعل فى المغرب تجاه هذه الأخطاء سريعًا وعنيفًا، ولا سيما فى المناطق الريفية لما تمتاز به من هياكل قبلية، شأنها فى ذلك شأن منطقة الجزيرة العربية.

ويبلغ تعسف الإدارة الأموية لشئون بلاد المغرب درجة قصوى أيام ولاية تلميذ الحجاج يزيد بن أبى مسلم الذى حاول تطبيق السياسة التى اتبعها معلمه فى العراق، يتحدث الطبرى عن سبب قتله فيقول: «وكان سبب ذلك أنه كان - فيما ذكر - عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج بن يوسف فى أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار، ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم، بالعراق ممن ردهم إلى قراهم ورساتيقهم ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم، فلما عزم على ذلك تآمروا فى أمره، فأجمع رأيهم - فيما ذكر - على قتله فقتلوه»، ويورد ابن عذارى رواية أخرى فى سبب قتله، ولكن الروايتين تشيران إلى أن السكان الأصليين هم الذين ثاروا ضد سياسته التعسفية، ودبروا خطة التخلص منه، وحرصوا فى نفس الوقت أن يخبروا الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك بأن ذلك لا يعنى أبدًا خلع الأيدى من الطاعة، وإنما هو رد فعل ضد سلوك معين يتنافى مع أبسط مبادئ الإسلام: «إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة، ولكن يزيد بن أبى مسلم سامنا ما لا يرضى الله والمسلمون، فقتلناه، وأعدنا

عاملك»، أما الفترة الثانية التى اشتد فيها تعسف السياسة الأموية فهى أيام ولاية عبيد الله بن الحبحاب، وسنرى مدى الظلم والإرهاق الذى بلغته السياسة الجبائية بصفة خاصة. وقد اشتهرت فترة قصيرة فى تاريخ ولاة بنى أمية بالمغرب بحسن السياسة، وتطبيق مبادئ الإسلام، وهى فترة خلافة عمر بن عبد العزيز فقد قام بعزل محمد بن يزيد القرشى، وسمى مكانه إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر عام 100هـ على حربها، وخراجها، وصدقاتها، «وكان حسن السيرة، فأسلم عرب العاربة البربر فى أيامه جميعهم»، ونلاحظ من جديد أن صدى سياسية الولاة يبرز فى صفوف عرب العاربة بصفة خاصة، ولكننا نجد أكثر من إشارة إلى ردود فعل صادرة عن السكان العرب تجاه سلوك معين يبدو فى تصرف الولاة الجدد، ويمس هذا السلوك قادة مشهورين بين الأسر العربية التى استقرت بالمغرب[1].

ولنحاول الآن التعرف إلى مميزات السياسة المالية للإدارة الأموية فى المغرب رابطين إياها بذلك التحول الجذرى الذى بدأت تبرز معالمه فى المجتمع العربى الإسلامى منذ نهاية خلافة عثمان، وهو تحول جاء نتيجة حتمية لظروف موضوعية، وخضع لدينامية جديدة هى دينامية العالم الإسلامى الجديد الذى بدأ يحل عمرانيًا واقتصاديًا محل قوتين اقتصاديتين من قوى العالم القديم: القوة البيزنطية، والقوة الساسانية. لخص المعارضون للسياسة العثمانية يومئذ مظاهر التحول الاقتصادى والاجتماعى فى جملة ردوا بها عليه فى محاولته تبرير موقفه، وهو محاصر فى داره من طرف الثوار «لأنك غيرت وبدلت»، ولكن ماذا غيّر الخليفة الثالث؟ يخبرنا ابن قتيبة قائلا: «وذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب النبى ﷺ، فكتبوا كتابًا ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله ﷺ، وسنة صاحبيه، وما كان من هبته خمس إفريقية لمروان، وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين، وما كان من تطاوله فى البنيان حتى عدوا سبع دور

---

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص21.

بناها بالمدينة: داراً لنائلة وداراً لعائشة، وغيرهما من أهله وبناته، وبنيان مروان القصور بذى خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ولرسوله، وما كان من إنشائه العمل والولايات فى أهله، وبنى عمه من بنى أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول، ولا تجربة لهم بالأمور، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح، وهو أمير عليها، سكران أربع ركعات، ثم قال لهم: إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم، وتعطيله إقامة الحد عليه، وتأخيره ذلك عنه، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم، واستغنى برأيه عن رأيهم، وما كان من الحمى الذى حمى حول المدينة، وما كان من إدارة القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبى ﷺ، ثم لا يغزون ولا يذبون، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس، وإنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران.

نلاحظ من خلال نص ابن قتيبة أن أهم مظاهر التحول الجديد الذى أنكره الناس على عثمان ما يتصل منه بالملكية، ومظاهر الثراء لدى فئة اجتماعية جديدة سماها طه حسين «طبقة الأرستقراطية العليا ذات المولد والثراء الضخم والسلطان الواسع». وقد كان لهذا التحول الاقتصادى والاجتماعى الذى تبلور مع مرور الزمن تأثيره فى المجتمع المغربى، فمن المعروف فى ميدان الملكية العقارية أن الأمويين كانوا يهبون أراضى الصوافى (القطائع)، وأسندت فى المشرق أراضى الموات إلى أفراد الأسرة الحاكمة، وإلى أنصارها، وإلى رجال الخلافة بعنوان «القطائع»، وأقام المالكون الجدد فى الأمصار، وتركوا الفلاحين القدامى يخدمون الأرض وكانوا يتعهدون مقابل هذا الإسناد بإحيائها، وجمع الضرائب، وتسليمها للجباة، ثم أصبحت مع مرور الزمن ملكًا يتصرفون فيه بالبيع والشراء، وبرزت فئة جديدة من كبار الملاكين الزراعيين، وقد اشترى العرب المسلمون كثيراً من أراضى الخراج التى كان يملكها غير المسلمين، وأصبحت تؤدى العشر فقط. ومن المعروف أن تطور الملكية الزراعية واتساعها لفائدة فئة جديدة أدى إلى تضاؤل دخل الدولة

الأموية من الجباية على الأرض، وهو مورد أساسى مع الجزية، وهذا التطور هو الذى يكمن وراء التفكير فى توظيف ضرائب جديدة - بعد انتهاء غنائم الفتوحات - غير شرعية، وما آل إليه الأمر من ردود فعل السكان ومناصرة حركات المعارضة[1].

إن معلوماتنا عن نظام القطائع تتعلق بالمشرق، لا سيما بأراضى العراق، وبلاد الشام، ولكن لا شك أن هذا النظام قد عرفه المغرب الأدنى من بلاد المغرب فى العصر الأموى، فقد وزعت أراضى النبلاء البيزنطيين على العشائر والأسر العربية تشجيعًا لها على الاستقرار، ولكنه يبدو أن قضية التحول فى نظام الملكية العقارية فى المغرب لم تكن لها أهمية تذكر فى العصر الأموى. أما القضايا التى تشير إليها النصوص حول السياسة الاقتصادية والمالية للإدارة الأموية فى المغرب فهى[2]:

أولا - أهمية الغنائم والهدايا التى يرسل بها الولاة إلى المشرق بعد انتهاء مرحلة الفتح، ورجوع موسى بن نصير من الأندلس والمغرب بثروة ضخمة، «وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل المغرب الأدنى، فيبعثون لهم البربريات السنيات»، وأصبح الولاة يتسابقون فى كسب ود حكام دمشق بإرسال الهدايا والطرائف، واستعملوا شتى الأساليب لجمعها من السكان. يحدثنا ابن عبد الحكم عن هدايا عبيدة بن عبد الرحمن القيسى إلى هشام بن عبد الملك قائلا: «وكان فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة سبع مائة جارية، وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية».

ثانيا - السبى، فلما انتهت مرحلة الفتح، وإرسال آلاف السبايا من المغرب إلى مركز الخلافة، واعتنق عرب العاربة البربر الإسلام التجأ الولاة إلى طرق تعسفية لضمان السبى، وإرساله إلى المشرق. إننا نميل إلى الاعتقاد بأن عبيد الله

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص21.
2 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص25.

ابن الحبحاب قد جهز حملات عسكرية إلى مناطق نائية من بلاد المغرب لجلب السبى، وإرساله إلى دمشق، فقد بعث قائده العسكرى حبيب بن أبى عبدة غازيًا إلى السوس الأقصى ليعود بسبى كبير، لأن المصادر تشير إلى أن ابن الحبحاب منى خلفاء المشرق بالكثير لما أفضى الأمر إليه، «وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف، وسوء السيرة، فحينئذ عدت عرب العارية البربر على عاملهم، فقتلوه، وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب».

إن الحقيقة التى راسل بها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور قائلا: «إن المغرب اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبى منها» حقيقة قديمة تعبر عن وضع يعود إلى نهاية القرن الأول الهجرى، وقد تجاهل الولاة الأمويون هذه الحقيقة طيلة ربع قرن، واتبعوا شتى الأساليب لمواصلة مد المشرق بهدايا المغرب، وسبيه.

ثالثا - وبلغت هذه السياسة التعسفية للإدارة الأموية ذروتها القصوى بسن سياسة تخميس عرب العاربة البربر لضمان مورد قار وثرى لبضاعة ثمينة من بضائع العصر: الرقيق، وقد أصبحت الحاجة إليه ملحة نتيجة التطور الاقتصادى والاجتماعى الذى أشرنا إليه، يقول ابن عذارى: «ثم إن عمر بن عبد الله المرادى عامل طنجة وما والاها، أساء السيرة، وتعدى الصدقات والعشر، وأراد تخميس عرب العاربة البربر، ورغم أنهم من المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام، فكان فعله الذميم هذا سببًا لنقض البلاد، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل فى العباد نعوذ بالله من الظلم الذى هو وبال على أهله». إن هذه السياسة تدل على مدى النفوذ الذى كان يتمتع به الولاة فى مناطقهم، وقد كان واسعًا فى الميدان المالى، فكانوا يستعملون أموال بيت المال لكسب الأنصار، كما كانوا يتذرعون بمقاومة المعارضين السياسيين لاتباع طريقة التغريم واستئصال الأموال، وهو من مظاهر السياسة المالية فى حياة الخلافة الأموية فى المشرق والمغرب.

إن تصرف العمال فى أموال المسلمين يعكس نظرة بنى أمية إلى الشئون المالية، وقد بدأت تبرز هذه النظرة الجديدة منذ نهاية خلافة عثمان، فنجد عبيدة بن هلال الخارجى يخطب عام 64هـ محللا نقاط الضعف، وسوء التصرف أيام عثمان، فيقول: «... ثم أخذ فيء الله الذى أفاءه عليهم فقسمه بين فساق قريش، ومجان العرب». إننا نستطيع أن نؤكد فى هذا السياق أن نفوذ ولاة المغرب فى الميدان المالى كان كبيراً فتجاوز جمع الهدايا، واستنباط أساليب ضمان السبى، ليبلغ الميدان الجبائى بسن ضريبة متنافية مع المبادئ الإسلامية مثل ضريبة التخميس، وميدان ضرب العملة.

أما فى ميدان السياسة الجبائية فمن المعروف أن هذه القضية أصبحت تمثل سمة برزة فى سياسة الخلافة الأموية بصفة عامة، فبعد أن توقف تدفق الغنائم على مركز الخلافة بتوقف الفتوحات، وذلك فى نفس الفترة التى ازدادت فيها تكاليف بناء جهاز الدولة الجديدة، ولا سيما تكاليف الجند، بدأ البحث عن موارد مالية جديدة بسن نظام جبائى مرهق يعتمد أساسًا على الخراج والجزية. وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يدخل إصلاحًا جذريًا على النظام المالى للدولة الأموية، ولكن هذا الإصلاح لم يؤت أكله، فقد كانت خلافته قصيرة، ثم سرعان ما تراجع الخلفاء بعده عن النظام المالى الجديد الذى حاول وضع أسسه، فقد أخذ يزيد بن عبد الملك «أهل السغد الذين دخلوا الإسلام بأداء الجزية بعد أن كان عمر ابن عبد العزيز قد وعدهم بأن يسقطها عنهم، وفعل مثل ذلك مع عرب العاربة البربر يزيد بن أبى مسلم عامله على المغرب الأدنى». فهل يمكن - بعد التعرف إلى ملامح هذه السياسة المالية - تفسير حركات المعارضة، والانتفاضات المسلحة ضد الخلافة الأموية بدون بحث الأسباب الاقتصادية، وهى أسباب قد دعمت المعارضة الدينية والاجتماعية كما ألمحنا إلى ذلك أكثر من مرة. قد يلاحظ المرء قائلا: إن بعض النصوص تشير إلى محاولة الخلفاء الأمويين التحرى فى قبول أموال الجباية القادمة من المغرب، ولكن هذه النصوص نفسها تكشف عن عدم

احترام الأصول الشرعية فى جمع أموال الجباية، وينقل لنا مؤلف «أخبار مجموعة» نصًا ثمينًا فى هذا الميدان، حيث يقول: «. . . وذلك أن الخلفاء كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه فأتى وفد المغرب بخراجها، وذلك أنها لم تكن يومئذ ثغرًا، فكان ما فضل بعد أعطيات الأجناد وفرائض الناس ينقل إلى الخليفة فلما وفدوا بخراج المغرب في زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا فحلف الثمانية، ونكل إسماعيل بن عبيد الله مولى بنى مخزوم، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولانى فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما، ثم ضمهما إلى نفسه فاختبر منهما صلاحًا وفضلاً، فلما ولى عمر ولى إسماعيل المغرب، وولى السمح بن مالك الأندلس وأمره أن يخمس أرضها، ويخرج منها ما كان عنوة خمسًا لله من أرضها وعقارها، ويقر القرى فى يدى غنامها بعد أن يأخذ الخمس»[1].

إن رفض رجلين من أعضاء الوفد عرفا بأمانتهما أداء اليمين يثبت أن أموال الجباية المنقولة قد استعملت فى جمعها أساليب غير شرعية. أما تعيين الرجلين على ولايتى المغرب والأندلس فيما بعد فهو يندرج ضمن خطة الإصلاح المالى الذى حاول عمر بن عبد العزيز إدخاله على الهياكل الاقتصادية للخلافة الأموية، ولكننا نعرف أن هذه المحاولة لم تنجح، واشتد عبء النظام الجبائى الأموى على المسلمين فى المشرق والمغرب، ولا سيما أيام خلافة هشام بن عبد الملك. ويتساءل المرء فى هذا السياق عن نتائج هذه السياسة الجبائية والمالية بصفة عامة.

إن هذه النتائج معروفة نسبيًا، فقد كانت من العوامل الحاسمة فى اندلاع حركات المعارضة هنا وهناك ضد السياسة الأموية، وفى سقوط الخلافة فى خاتمة

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص29.

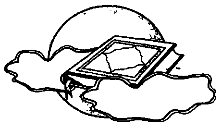
المطاف، ولكننا نريد أن نؤكد من جديد أن انتفاضات الخوارج فى بلاد المغرب تعبر عن معارضة ضد سياسة اقتصادية واجتماعية معينة، فقد اكتسبت خطورة كبرى ضمن حركات المعارضة الأخرى، حيث التحمت الدعوة الدينية، شعار المعارضة السياسية والاجتماعية، بالعصبية القبلية، ولكنها لا تختلف كثيراً عن انتفاضات أخرى اندلعت ضد أخطاء السياسة الأموية، فقد تزعم المختار بن أبى عبيد حركة معارضة فى الكوفة عام 66هـ اعتمدت أساسًا على مناصرة الموالى، وقد التفوا حولها أملا فى التخلص من جور الإدارة الأموية، وقد عبر أشراف الكوفة عن سبب مناهضتهم لحركة المختار قائلين: «. . . ولقد أدنى موالينا، فحملهم على الدواب، وأعطاهم، وأطعمهم فيئنا، ولقد عصتنا عبيدنا»، وقالوا له: «عمدت إلى موالينا، وهم فىء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعًا فأعتقنا رقابهم، نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا»، وكانوا يشكون من وثوب عبيدهم ومواليهم عليهم، وقبل سنة من انتفاضة الخوارج بمنطقة طنجة بزعامة ميسرة السقاء اندلعت فى الكوفة عام 121هـ حركة معارضة مسلحة بقيادة زيد بن على، وكانت بيعته التى يبايع عليها الناس: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفىء بين أهله بالسواء، ورد الظالمين، وإقفال المجمر، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا»، وفى نفس المدة ثار أهل السغد ضد جور السياسة الأموية، وكلما قمع جند الشام انتفاضة حاول الولاة الانتقام من السكان فاشتد حنق الناس، خطب يوسف بن عمر بعد هزيمة زيد بن على عام 122هـ فى الكوفة قائلا: «. . . أبشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان، لا عطاء لكم عندنا ولا رزق، ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم، وأحرمكم أموالكم، أما والله ما علوت منبرى إلا أسمعتكم ما تكرهون عليه، فإنكم أهل بغى وخلاف، ما منكم إلا من حارب الله ورسوله، إلا حكيم بن شريك المحاربى، ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لى فيكم، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم»، فإذا كان هذا الكلام يوجه إلى سكان مدينة إسلامية مثل

الكوفة، فيمكن أن نتصور معاملة العمال الأمويين للمعارضين لسياستهم فى مناطق نائية مثل بلاد المغرب.

ولم تمض سوى بضع سنوات على حركات الخوارج فى المغرب، وثورة أهل السغد، وانتفاضة سكان الجوفة بزعامة زيد بن على حتى اندلعت حركة أخرى فى المدينة نفسها عام 130هـ بقيادة أبى حمزة الخارجى. فلا يمكن - إذن - فهم حركات الخوارج فى المغرب ضد أخطاء الإدارة الأموية، ولا سيما فى الميدان الجبائى إذا عزلت عن حركات المعارضة الأخرى فى بقية مناطق العالم الإسلامى عصرئذ، ومنها الجزيرة العربية نفسها. إن هذه الرؤية الشمولية هى التى تدحض ذلك الاتجاه الذى يذهب أصحابه إلى التركيز على مقاومة عرب العاربة البربر للحكم العربى فى تفسيرهم لانتفاضات الخوارج فى المغرب. ركزنا على خطأ هذا التفسير الذى لم يلفت النظر، ولم يثر الاستغراب طيلة نصف قرن، وما يزال البعض يتمسك به رغم النصوص الواضحة المفندة، ولعل أثمن نص، وأدقه فى تفسير ثورات عرب العاربة البربر الخوارج ضد السياسة الأموية فى المغرب هو وثيقة الشكوى التى سلمها وفدهم فى دمشق إلى الأبرش الكلبى بعد أن رفض هشام بن عبد الملك استقبالهم[1].

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص32.

الفصل السابع



الحياة الفكرية

- الفكر العربى - الإسلامى.
- العلوم الدينية.
- الإمام الحسين عليه السلام علمه وفصاحته وبلاغته.
- مذهب الشيعة.
- مذهب الخوارج.
- علم الحديث.
- علم الفقه.
- علم التاريخ.
- الثقافة العربية فى المغرب.
- الثقافة العربية فى إسبانيا.

بينما كان الصراع السياسى يسير فى مجراه الذى رأينا، كان هناك صراع من نوع آخر يسير فى المجرى نفسه، ولكن على نحو شبه مستقل يتخذ شكل صراع فكرى متصل بأمر التشريع الإسلامى أول الأمر. وهذا الصراع الفكرى التشريعى يتميز تميزاً ظاهراً بأنه عميق الارتباط بخصائص البيئات الاجتماعية العربية - الإسلامية المختلفة هنا وهناك. إن هذا النوع من صراع الآراء فى مسألة التشريع، سيدخل عاملا فى جملة العوامل المحركة لمعركة الفكر العربى - الإسلامى التى ستنكشف عن نشأة البحوث الكلامية، أى نشأة التفكير الفلسفى فى القضايا الجديدة المثارة أمام المفكرين. ومسألة الاجتهاد بالرأى فى قضايا التشريع. كانت المتنفس الوحيد، فى أوائل عهد الإسلام، لحركة الفكر العربى، والواقع أن الاجتهاد بالرأى كان متبعًا حتى فى عهد النبى، ثم اتبع فى عهد الخلفاء الراشدين، لا سيما عمر بن الخطاب. والعامل الأكبر فى كون عمر قد برز فى هذا المنحى الاجتهادى فى التشريع، هو عامل موضوعى، بالإضافة إلى العامل الشخصى النابع من المرونة الذهنية والعملية التى كان يتمتع بها عمر. لقد واجه العرب بفتوحاتهم، خلال عشرين سنة من خلافة عمر، ظروفًا جديدة، هى ظروف البلدان المفتوحة. وبذلك وجدوا أمامهم أوضاعًا وقضايا ومشكلات لم تمر بحياتهم فى ظروف شبه الجزيرة العربية، فكان عليهم أن يستخدموا التشريع الإسلامى بمرونة حاذقة لمواجهة تلك الأوضاع والقضايا والمشكلات بتشريعات لم تكن لديهم من قبل، ولم يكونوا يحتاجون إليها. ذلك هو العامل الموضوعى. لقد وجد العرب الفاتحون أن عليهم معالجة قضايا مالية، وإدارية وتنظيمية، وعسكرية جديدة، واجتماعية، وقضائية تتعلق بأنواع من الخصومات لم يعرفوها فى مجتمعهم البسيط، وبأنواع من الأحوال الشخصية جديدة عليهم. فهل كان فى المصدَرْين الأساسيين للتشريع الإسلامى: القرآن، والسنة، نصوص مفصلة جاهزة تنطبق على هذه الأمور كلها؟ طبعًا، لايمكن لأى تشريع: إلهيًا كان أم وضعيًا،

أن يشتمل على نصوص وتفاصيل لكل ما تجيء به الحياة من جديد دائما. إذن، لم يكن من سبيل، لتطبيق التشريع الإسلامى على هذه الشؤون الجديدة، سوى استعمال الرأى و «الاجتهاد»؛ لذلك لجأ العرب القائمون على شؤون البلدان المفتوحة إلى هذا المنبع الجديد للتشريع، فاستخدموه استخدامًا واسعًا بالفعل. وأن كتب التاريخ العربى، والمؤلفات الفقهية الكثيرة، تعرض لنا نماذج لاتحصى من الاجتهادات التشريعية القائمة على النظر العقلى المستمد من قواعد الشريعة. من هنا نشأت، خلال الممارسة العملية لهذا الأصل التشريعى، مدرسة قائمة بذاتها دعيت مدرسة «أهل الرأى». وقد ظهرت بصفتها «المدرسية» المتميزة بمميزات معينة منذ أواسط القرن الأول للهجرة، واتسع تأثيرها بين أوساط الفقهاء والقضاة فى النصف الأول من القرن الثانى للهجرة. ومن مميزاتها هذه:

أولا، أنها لم تكن تكتفى باستنتاج الحكم التشريعى للحادثة الواقعية الحية المعروضة أمام ذوى الرأى، بل كانت ـ مع ذلك ـ تفترض حوادث لم تقع لكى تجد لكل افتراض ذهنى حكمه الاجتهادى الخاص.

ثانيا ـ لم يكن يعنى بعض ممثليها أن يبحث عن الحديث الوارد عن النبى قبل أن تستخدم الرأى، بل كان بين أتباع هذه المدرسة من يرفض الأخذ بالحديث النبوى حتى حين يجد بين يديه الحديث المطابق للحادثة المعروضة. وذلك استنادًا إلى ما أصبح شائعًا، بعد مرور زمن بعد النبى، من الشك فى صحة رواية أحاديثه على السنة الرواة. «وقد نسب البغدادى القول بإنكار العمل بالحديث إلى الخوارج فى كتابه «أصول الدين»[1].

رافقت مدرسة «أهل الرأى» هذه ظاهرة تلفت النظر، هى كونها أكثر انتشارًا ورسوخًا فى العراق حينذاك. وتعليل هذه الظاهرة ـ كما يضعه أحمد أمين ـ **أولا**: أن أشهر رجالها عبدالله بن مسعود، ثم أبا حنيفة، وجدا فى العراق، فأشاعا ميلهما إلى الرأى وإعمال القياس. **ثانيا**: ما ذكره ابن خلدون من أن أهل «الحجاز

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص532. وانظر: فجر الإسلام: ط8، ص242.

أكثر رواية للحديث من أهل العراق، لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة، ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم الجهاد الأكبر. ثالثا: «أن العراق قطر ممدن.. قد تأثر إلى درجة كبيرة بالمدينة الفارسية واليونانية. والمدينة تضع تحت عين الشرع جزئيات كثيرة تحتاج إلى التشريع لايقاس بها القطر البدوى وما فى حكمه. فإذا انضم إلى ذلك ما وصل إليهم من الحديث أنتج ذلك، لا محالة، إعمال الرأى». وهذا السبب الثالث أن الصراع الفكرى فى هذه المسألة تميز بارتباطه العميق بخصائص البيئات الاجتماعية العربية ـ الإسلامية المختلفة هنا وهناك. قامت هذه المدرسة رداً على مدرسة أهل الرأى، فكانت الطرف المناقض لها. أصحاب مدرسة الحديث ينكرون العمل بالرأى، فإذا عرضت لهم واقعة تحتاج إلى بيان تشريعى لم يجدوه فى القرآن، بحثوا عن حديث نبوى ينطبق عليها، فإن لم يجدوا هذا الحديث وقفوا ولم يقولوا شيئًا بشأن هذه الواقعة. فإذا كانت مدرسة أهل الرأى قد نشأت وتوطدت وانتشرت فى العراق للأسباب الثلاثة المتقدمة، فإن مدرسة أهل الحديث نشأت وتوطدت وانتشرت فى الحجاز للأسباب نفسها معكوسة. أى لأن أشهر رجالها، أمثال الإمام مالك عاشوا فى الحجاز وعايشوا النبى فى حياته هناك أولا، ولأن الحديث كان فى الحجاز أكثر منه فى العراق، ثانيًا: ولأن الحجاز «قطر بدوى» غير متأثر كثيراً «بالمدينة الفارسية واليونانية»، ثالثا: وإذا كانت مدرسة أهل الرأى تستخدم الافتراض الذهنى للواقعات، ثم تستخرج لها التشريعات التى يصل إليها إعمال الرأى، فإن مدرسة أهل الحديث تنفر نفوراً شديداً من افتراض الواقعة، وترفض الإجابة عن سؤال إلا إذا كان يتعلق بواقعة حدثت بالفعل، لا مفترضة.

لقد اشتد الصراع بين هذين الاتجاهين المتعاكسين فى نطاق التشريع أول الأمر، وظل يشتد حتى خرج إلى نطاقه الأوسع متطوراً إلى صراع فكرى شامل. فإذا بنا نجد كلا من الاتجاهين يتخذ موقفًا فى المعركة الفكرية الكبرى، فيما بعد، يتفق مع موقفه فى المعركة التشريعية. فأهل الرأى فى المجال التشريعى يظهر منهم فى المجال الفكرى رجال أمثال الحسن البصرى الذى انطلقت من حلقته فى مسجد

البصرة تلك المدرسة ذات النزعة العقلية المعروفة. نعنى بها المدرسة المعتزلة. أما أهل الحديث فقد انتقلوا إلى المعركة الفكرية بموقفهم المحافظ الذى عرفوا به فى المعركة التشريعية، وظهر من مدرستهم السابقة رجال أمثال أحمد بن حنبل خاصموا مبادئ المعتزلة مخاصمة شديدة. نقول هنا بإجمال: إن الثقافة التى جاءت نتاج العلاقة العضوية - الجدلية بين الحياة العربية والحياة الإسلامية، بين الفكر العربى والفكر الإسلامى، بين اللغة والفكر الذى تعبر عنه اللغة، هى ثقافة عربية - إسلامية، لا انقسام فيها بين ما هو عربى خالص وما هو إسلامى خالص وما هو عربى - إسلامى متداخل، ولا انقسام فيها بين ما هو نتاج مثقفين ومفكرين ذوى أصول عربية وبين مثقفين ومفكرين إسلاميين ذوى أصول غير عربية. إنهم جميعًا سواء. لأنهم جميعًا انطلقوا فى تفكيرهم كله من منطق اللغة العربية، أى منطقها اللغوى والبيانى والفكرى، ولأنهم جميعًا انطلقوا أيضًا فى ممارساتهم الثقافية، بأوسع مجالاتها، من قضايا معينة لمجتمع معين ومن مشكلات اجتماعية وسياسية وفكرية هى مشكلات هذا المجتمع نفسه الذى يعيشون جميعًا فى إطاره، ويستمدون نظرتهم إلى العالم من خلال واقعه التاريخى ونمط علاقاته الاجتماعية[1].

إن نشأة هذه العلوم العربية - الإسلامية كانت تعبيراً عن حاجات ذلك التطور العام إلى شكل من تنظيم المعرفة يتجاوب مع حاجات التنظيم الاقتصادى والاجتماعى والإدارى والمالى، الذى كانت الدولة قد بدأته، بقدر ما يتجاوب مع حاجات اتساع الفتح العربى - الإسلامى وشموله عدداً من البلدان والشعوب التى واجهت ضرورة الانسجام مع لغة الفاتحين والتكلم بها وتفهم دلالاتها اللغوية والتعبيرية وفق أصول وقواعد منظمة على صورة ما من التنظيم. ذلك فضلا عن ان تكلم ألسنة غير عربية بلغة العرب، واختلاط العرب مع أهل هذه الألسنة، كشف بعد قليل من الزمن أن هذه اللغة ستفقد كثيراً من صفائها وأصالتها حتى لدى أبنائها الذين ابتعدوا فى بيئاتهم الجغرافية والاجتماعية الجديدة عن البيئة

1 - حسين مروة - نفس المرجع ص539.

العربية الأصلية. وذلك سيؤدى - من وجهة نظر إسلامية - إلى ابتعاد المسلمين، حتى العرب منهم، عن إمكان فهمهم تعاليم الإسلام الاعتقادية والتشريعية من منابعها الوحيدة: اللغة، والقرآن، والسنة. ذلك مع كون هذه المنابع تتمتع بنسق من البيان يعد أرقى أساليب اللغة العربية بيانا وتركيبا وتأليفا، فضلا عن مضامينها المشتملة على مفاهيم ميتافيزيقية ومعرفية وتشريعية صيغت فى القرآن صياغة ذات طابع فنى إيحائى غير مباشر، أو صيغت بصورة مكثفة أحيانًا تحمل كثيراً من احتمالات المعانى والمقاصد. يضاف إلى ذلك كله أن نصوص القرآن والحديث لم تكن مكتوبة فى البداية، وما كتب منها لم يكن شائعًا إلا بين عدد محدود من الصحابة، وإنما كانت هذه النصوص محفوظة مروية على ألسنة من سمعوها من النبى ﷺ، وهؤلاء تفرقوا فى البلدان مع جيوش الفتح، وبعضهم قتل فى حروب الفتح، وآخرون أخذوا يموتون واحدا بعد واحد متفرقين فى الأمصار. كل هذه العوامل مجتمعة ومتكاملة اقتضت نشوء تلك العوامل، لضبط قواعد اللغة أولا (النحو) وتنظيم معرفة أسرارها التعبيرية البلاغية ثانيًا، ثم تفسير البيان القرآنى، وكشف مقاصده التعليمية والاعتقادية والتشريعية، فى ضوء تلك المعرفة المنظمة، ثم جمع الحديث النبوى وتصحيح رواياته وتمييز رواته بعضهم من بعض ودراسة سيرة كل منهم لمعرفة مدى صدقه فى رواية الحديث، أو مدى اتصاله بالنبى فى حياته... إلخ. كانت نشأة هذه العلوم فى وقت مبكر من عصر صدر الإسلام مبعث نشاط ثقافى حيوى ساعد الحركة الفكرية الصاعدة مع حركة الصراع السياسى على أن تجد لديها مادة ثقافية على شىء من التصنيف والتنظيم، وإن يكن تصنيفا أوليا وتنظيمًا بدائيًا لم تكتمل لهما عناصر التأليف العلمى المتخصص، وهى عناصر لا تكتمل إلا فى ظروف تقدم المعرفة واتساع جوانبها وبروز الحاجة إلى تصنيفها على أساس وحدة الموضوع وتناسق المواد المتصلة بهذا الموضوع. فضلا عن أن تجارب العلوم الجديدة كانت فى ذلك الوقت المبكر من عصر صدر الإسلام لاتزال ضئيلة يصعب تصنيفها. ولذلك بقيت «العلوم العربية» التى نتحدث عنها متشابكة بعضها مع بعض، لا حدود واضحة بين كل منها والآخر إلى عهد ازدهار

الثقافة العربية ـ الإسلامية فى أواخر القرن الثانى للهجرة أى فى العصر العباسى الأول. ولهذا السبب نفسه نرى القضايا الفكرية المعبرة عن قضايا الصراع السياسى لم تتخذ شكل علم معين، له عناصر التأليف العلمى ومنهجيته إلا فى هذا العهد الأخير. ونقصد هنا ـ بالتحديد ـ تلك القضايا التى تكون منها علم الكلام فيما بعد. فإن الجدل الذى أثير منذ أوائل العهد الأموى فى مسائل الخلافة، ومرتكب الكبيرة، ومفهوم الإيمان، ثم فى مسائل القدر ومسؤولية الفعل الإنسانى، ثم المسائل الميتافيزيقية المتعلقة بصفات الله ـ نقول: إن الجدل الذى أثير منذ ذلك الوقت فى هذه المسائل كلها، بقيت مواده الفكرية مبعثرة مشتتة لاتنتظمها وحدة تأليفية تجعل منها علما مستقلا، له موضوعه المستقل ومنهجه العقلى المستقل، إلا فى وقت متأخر، هو الوقت الذى أصبح فيه التفكير الفلسفى القاعدة والمنطلق للفكر العربى ـ الإسلامى فى مجالات نشاطه كلها، وذلك هو العصر العباسى الذى عرف بعصر المأمون.

إن هذه العلوم ما تكونت وصارت محور نشاط واسع وأخذت طريقها نحو التطور والتكامل، حتى كانت طلائع التفكير الفلسفى قد دخلت الحياة الفكرية العربية من مختلف جهاتها، فإذا بهذه العلوم نفسها تتأثر تأثرًا واضحًا وملموسًا بنزعة التفكير الفلسفى، وإذا بنا نرى حتى علم النحو العربى وعلم اللغة يدخلهما تيار هذه النزعة، بحيث نجد مباحثهما تتخذ وجهة عقلية ومنطقية، وبالرغم من أنهما علمان يعتمدان بالأصل طريقة النقل والسماع عن أدب الجاهلية لضبط الخصائص الفيلولوجية والغراماطيقية للغة العرب. إننا نجد فى مدرسة البصرة النحوية اتجاهًا قويًا إلى استخدام القياس المنطقى. وليس بعيدًا عن الواقع تعليل دى بور لهذه الظاهرة بتأثير المذاهب الفلسفية التى ظهرت فى البصرة قبل ظهورها فى غيرها.

تتصل حركة التدوين تاريخيًا ومنطقيًا بحركة نشأة «العلوم العربية» التى نتحدث عنها. وحركة التدوين هذه تشغل مكانًا عظيمًا فى تاريخ تطور الفكر العربى ـ الإسلامى جملة وتفصيلا. وهى تعنى ذلك العمل التاريخى الذى بدئ به

عهد كتابة المعارف الأدبية والدينية والعلمية وأخبار العرب، بعد أن كانت هذه المعارف تحكى وتروى بالسماع دون القراءة. إن التدوين بهذا المعنى غير التأليف، بل هو الانتقال من عهد المعارف المنقولة شفهيًا إلى عهدها مسجلة بالكتابة. فمتى بدأ هذا العهد بالتحديد؟ هناك من يرى بين المؤرخين أنه بدأ فى منتصف القرن الثانى للهجرة، أى فى النصف الثانى للقرن الثامن الميلادى. وهذا رأى مخالف للواقع التاريخى لأن هناك ما يدل على أن تدوين القرآن والحديث النبوى حدث فى العهد الأول للإسلام. فإن ابن النديم صاحب «الفهرست» يروى أن عبيدا بن شرية الجرهمى دوّن أيام معاوية «كتاب الأمثال» و«كتاب الملوك وأخبار الماضين»، وأن صحارا العبدى، وهو من الخوارج، دون فى عهد معاوية أيضا كتابًا باسم «كتاب الأمثال» كذلك. ويروى ابن النديم فى مكان آخر من «الفهرست» أنه كان من مدينة الحديثة رجل يدعى محمداً بن الحسين، يجمع الكتب، وأن له خزانة كتب تحتوى على الكتب العربية فى النحو واللغة والأدب، وأنه - أى ابن النديم - رأى بين هذه الكتب مصحفًا بخط خالد بن الهياج صاحب الإمام على بن أبى طالب ﷺ، ورأى فيها شيئًا من خط الإمام الحسن والحسين ابنى الإمام علىّ عليهم السلام، ورأى عنده أمانات وعهوداً بخط على نفسه وبخط غيره من كتّاب النبى ومن خطوط العلماء فى النحو واللغة مثل أبى عمرو بن العلاء وأبى عمرو الشيبانى. وفى كتاب «الطبقات الكبرى» يروى ابن سعد أن هشاما بن عروة بن الزبير قال: «أحرق أبى يوم الحرة كتب فقه كانت له. فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندى أحب إلى من أن يكون لى مثل أهلى ومالى». ويصف لنا «الأصفهانى، أبو الفرج» صورة طريفة نرى فيها عبدالحكم بن عمرو بن عبدالله بن صفوان الجمحى - وهو من رجال العصر الأموى قد جعل من أحد البيوت ما يشبه النوادى العامة فى عصرنا، إذ وضع فيه أدوات شطرنج ونرد (طاولة الزهر)، «ودفاتر فيها من كل علم، وجعل فى الجدار أوتادا، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها، ثم جر دفترا فقرأه، أو بعض ما يلعب به فلعب». ذلك يدل أنه كانت هناك يومئذ دفاتر مكتوبة وموضوعة بأيدى الناس للقراءة منذ وقت سابق. ثم إن ابن خلكان أيضا يتحدث عن ابن شهاب الزهرى فيقول إنه «كان إذا جلس فى بيته

وضع كتبه حوله، فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوما: والله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر». والمعروف أن ابن شهاب مات عام 124 هـ ـ 741م. وهذا يدل على أن كتابة الكتب كانت أمراً شائعًا فى العصر الأموى، منذ زمن. ويؤكد ابن خلكان ذلك ثانية حين يقول عن عمرو بن العلاء، الذى ولد سنة سبعين للهجرة (698م): «كانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتًا له إلى قريب من السقف». كل هذه الواقعات التاريخية تنبئ، بوضوح، أن حركة التدوين كانت مساوقة لحركة النشاط الثقافى عند نشوء العلوم العربية، ولحركة التفكير التى جاءت فى بدايتها انعكاسا للصراع السياسى المحتدم منذ بداية العهد الأموى. وطبيعى، إذن، أن تكون حركة التدوين هذه عاملا مساعدا كذلك لحركة التفاعل الثقافى بين العرب وشعوب الدولة العربية الواسعة كى تعطى ثمارها فى عملية تطور الفكر العربى ـ الإسلامى، بقدر ما كانت عاملا مهما فى نشر التفكير المعتزلى العقلى الذى أخذ ينشط فى مجرى الحركتين السابقتين ذاتيهما[1].

كانت مراكز النشاط الثقافى، وما يحتويه من نشاط فكرى خاص، عرضة للانتقال والتبدل بين عهد وعهد حسب تطور حياة العربى السياسية وما يتبع ذلك من تبدل العواصم، وحسب تأثر الفكر العربى ـ الإسلامى بالتراث القديم لهذا البلد أو ذاك من البلدان التى شملتها الدولة العربية ـ الإسلامية. لذلك اختلفت مراكز الحياة الفكرية فى صدر الإسلام عنها فى العصر العباسى، كما حصل هذا الاختلاف فى العهود العباسية ذاتها إلى عهد ملوك الطوائف، فعهد الاستعمار المسيحى الصليبى، فعهد الغزو المغولى، حتى العهد الذى سمى بـ «عهد الانحطاط». أما فى عصر الإسلام ومنه العصر الأموى، الذى لانزال نتحدث فى إطاره، فقد كان أهم مراكز النشاط الفكرى: مكة والمدينة فى الحجاز، البصرة والكوفة فى العراق، دمشق فى بلاد الشام، الفسطاط (القاهرة الآن) فى مصر. أما

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص542. وانظر: أبو الفرج الأصفهانى: الأغانى، جـ4، ص52 (دار الحياة، بيروت 1957). ابن خلكان: تاريخه، جـ1، ص550.

مكة والمدينة، فقد ازدهرت فيهما علوم: الفقه، والحديث، والتاريخ. ذلك بأنهما منبع الإسلام، ومنهما نشطت الدعوة للدين الجديد بكل وسيلة من وسائله التعليمية. وقد بقيتا مركزين لدعوة النبى، وللخلافة الراشدية، عدا خلافة الإمام علىّ ﷺ إذ جعل الكوفة مركزًا له. أما البصرة والكوفة فقد نشأتا بعد استيلاء العرب على العراق فى خلافة عمر بن الخطاب، وسريعًا ما تحولت كل منهما إلى مركز حيوى لنشاط الحركة الثقافية بأرفع أشكالها حينذاك، وفيهما تجمعت خبرات أهل الحجاز العملية ومعارفهم الإسلامية المستفادة من معايشتهم الإسلام منذ نشأته، وقد جاءوا الكوفة والبصرة مهاجرين بعد الفتح، بالإضافة إلى خبرات أهل العراق الحضرية بما توارثوه أو عايشوه من الميراث الحضارى لمدنيات بابل وفارس وآشور، وتأثرت «الحيرة» بهذه المدنيات، وبما تسرب إليهم من دراسات الفلسفة اليونانية فى بعض الأديرة المسيحية بالشمال أو فى بعض المدارس الفارسية. وتلاقت هذه الخبرات مع مواهب الخصب الذى تميزت به بلاد ما بين النهرين وساعد على التطور العمرانى والإنتاجى المتسارع. وقد ظهر تنافس حاد بين البصرة والكوفة، بعد قليل من ظهور النشاط الثقافى فيهما. وكان هذا التنافس أحد عوامل الازدهار الفكرى فى كل منهما، ثم نشأ من هذا التنافس انقسام المدارس الفكرية بين مدرسة بصرية ومدرسة كوفية بحيث تميزت كل واحدة منهما بطابع خاص فى طريقة التفكير بمسائل الفقه والنحو والأدب، ثم المسائل الكلامية فيما بعد.

ظلت البصرة والكوفة من أهم مراكز الفكر العربى بضعة أجيال حتى بعد أن ظهرت بغداد عاصمة أولى للثقافة العربية دون منازع. بدليل ما نرى من آثارهما فى تاريخ تطور الفكر العربى التى كانت عميقة وقوية إلى حد أنهما كانتا منطلقا لأكثر المذاهب الفكرية جراءة وتحررًا كمذهب المعتزلة مثلا، ومنطلقا لحركات اجتماعية تدعمها منطلقات فكرية كحركة القرامطة و «إخوان الصفا». ويبدو أن الظروف التى وضعت البصرة والكوفة فى موضع المعارضة السياسية منذ احتدام الصراع العلوى ـ الأموى، مع وجود كثير من الموالى فيهما، وهم من أشد

المعارضين للأمويين بحكم كون الأمويين حاملى راية تلك النزعة القائلة بسيادة العنصر العربى - يبدو أن هذه الظروف ربما كان لها أثر فى ظهور تلك المذاهب الفكرية والحركات الاجتماعية فى هاتين المدينتين الثقافيتين، وأما دمشق فقد احتلت مكانتها المرموقة منذ أصبحت مركزاً للخلافة الأموية، وصارت مقصداً للعلماء والأدباء من أنحاء الدولة العربية كافة، ولكن لم تبلغ بتأثيرها الثقافى منزلة البصرة والكوفة، لأن الخصومات السياسية صرفت أكثر جهد الأمويين عن الاهتمام بتنمية الحركة العلمية فى عاصمتهم إلى الاهتمام بالأدب والأدباء، ولاسيما الشعراء، متخذين منهم وسيلة تأييد لسياستهم وهجوم على خصومهم السياسيين من الأنصار والعلويين والخوارج. غير أن هذا لايعنى أن دمشق قد فرغت من الحركة العلمية. بل لقد نشطت فيها مناقشات جادة فى بعض المسائل التى كان يثيرها الاحتكاك هناك بين الإسلام والمسيحية. ولكن هذه المناقشات لم تكن تتجاوز نطاق الجو «الرسمى» السائد فى العاصمة الأموية. فإن قضية القدر ومسؤولية الفعل الإنسانى من حيث الجبر أو الاختيار، مثلا، ما كان يمكن لدمشق أن تكون بعيدة عن البحث فيها حين كانت هى القضية الأولى التى يدور عليها الجدل الفكرى فى مدارس العراق والحجاز جميعًا. ولكن المسألة هنا هى مسألة الاتجاه فى مثل هذه القضية. وقد كان اتجاه دمشق، فى ذلك، هو اتجاه السلطة الأموية نفسه، أى تأييد القول بسلب الإنسان حرية الاختيار فى أفعاله. كيف كان الحكام الأمويون يحاربون نزعة الاختيار بشدة، ولماذا يحاربونها. وأما مدينة الفسطاط فقد ظلت، منذ فتح مصر عام 20هـ/ 640م) فى خلافة عمر بن الخطاب حتى آخر عهد الدولة الأموية، مركزاً علميا غلب عليه العلوم الدينية الصرفة، ولاسيما الحديث والفقه. فلم تبرز الحركة العلمية فيها إلا مرتبطة بالعلوم الإسلامية والمذاهب الفقهية[1].

ازدهرت الحركة الفكرية فى العصر الأموى وشملت مجالات العلوم الدينية واللغوية، والتاريخ والجغرافيا، والعلوم العقلية كالفلسفة والفلك والرياضيات

1 - حسين مروة - نفس المرجع ص544.

والعلوم الطبيعية، ووجد فى العصر الأموى الباحثون فى فروع المعرفة المختلفة، بعضهم من اليهود أو النصارى الذين تحولوا إلى الإسلام وتعربوا، وكتبوا بالعربية، والبعض الآخر من العرب، وفيما يلى عرض موجز لهذه النشاطات الفكرية المتعددة:

العلوم الدينية: هى أول ماعرفه العرب من العلوم، فالمعروف أن الصحابة تفرقوا فى الأمصار الإسلامية، وشارك الكثير منهم فى الفتوحات، فتأسست المدارس الدينية فى الأمصار الإسلامية وكان أساسها القرآن والحديث والفقه، فكانت بداية التأليف العلمى عند العرب وثيقة الصلة بهذه المصادر، وكانت مراكز هذه الحركة المدينة والفسطاط والبصرة والكوفة ودمشق، ومن أشهر علمائها عبدالله ابن عمرو بن العاص فى الفسطاط (ت65هـ الموافق 684م)، ويزيد بن أبى حبيب (ت128هـ الموافق 745م) فى الفسطاط أيضًا، وأخذ عنه عبدالله بن لهيعة والليث ابن سعد من أعظم علماء الحديث والفقه فى مصر الإسلامية. وكان من أهم العلوم الدينية علم القراءات الذى يعتبر أساس علوم التفسير، ويتناول هذا العلم أساليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والنقاط، ومن أئمة القراءات فى المدينة نافع بن عبدالرحمن بن أبى نعيم المدنى، وفى مكة عبدالله بن كثير مولى عمرو بن علقمة الكنانى (ت120هـ الموافق 737م)، وقيل إنه من أبناء فارس الذين بعثهم كسرى فى السفن إلى اليمن فطردوا الأحباش، وفى الكوفة عاصم بن أبى النجود (ت128هـ الموافق 745م) مولى بنى جذيمة بن ملك بن نصر، وفى دمشق عبدالله ابن عامر اليحصى (ت118هـ الموافق 736م). ومن العلوم الدينية علم تفسير القرآن، وقد نشأ التفسير فى عصر النبى ﷺ أول شارح للقرآن الكريم، ثم تولى صحابته هذه المهمة من بعده، باعتبارهم الواقفين على أسراره، المهتدين بهدى النبى ﷺ، ومن أشهر المفسرين من الصحابة عبدالله بن عباس.

علوم اللغة: على الرغم من غلبة الأمية والبداوة على العرب فى جاهليتهم، فقد كانت لغتهم الفصحى هى كل ما حملوه معهم مع الإسلام من

الجزيرة العربية إلى الأمصار، واللغــة العربية هى التى نزل بها القرآن الكريم، وهى اللغة التى سُجلت بها روائع الشعر العربى القديم الذى يتضمن من السمو الفكرى والذوق الفنى والإبداع ما يعـبر عن سعة أفـق العرب ونضوجهم العـقلى وخصب خيـالهم وحساسـيتهـم، وقد اضطر العرب بعـد اختلاطهم فـى بلاد الشام بالروم والسريان، وفى مصر بالقبط، وفى العـراق وفارس بالعجم، وفى المغرب بالبربر، وبعد أن دخل كثيـر من هذه الشعوب فى الإسلام، إلى وضع قواعد للـغة العربية لتحـميها من اللحن والخـطأ، فظهرت مدرسة النحـويين فى البصرة ويرأسـها أبو الأسود الدؤلى الذى اطلع على نحو السريان. وظهـرت بعض علوم اللغة كالنحو والصرف والعـروض فى العصر الأموى، وكـان الناس قبل ظهور الإسـلام وبعده بفترة حتى عـهد «الإمام على بن أبى طالب ﷺ» يتحـدثون بلغة عربية، سليـمة الأداء، فصيحة النطق، بالفطرة والسليقـة اللغوية، دون أن يعرفوا نحواً أو صرفًا، غير أن الأمر اختـلف بعد دخول كثير من أبناء البلاد المفتـوحة فى الإسلام؛ حيث بدأ ظهور الخطأ واللحن فى اللغــة، ومن ثم ظهرت الحاجـة إلى علم لضبط النطق السليم للكلمات العربية.

. نشأة علم النحو: يعد أمير المؤمنين «الإمام على بن أبى طالب ﷺ» أول من أشار بوضع قواعد علم النحو، حيث كلف أحد ولاته وكتابه وهو «أبو الأسود الدؤلى» المتوفى عام (69هـ الموافق 688م) بوضع قواعد علم النحو، ويروى «أبو الأسود» نفسه أنه دخل على أمـير المؤمنين «الإمام على بن أبى طالب ﷺ» فوجد فى يده رقعـة، فسأله عنهـا، فقال: إنـى تأملت كلام العرب فـوجدته قد فـسد، فأردت أن أضع شيئًا يرجعون إليه. وألقى الرقعة إلى «أبى الأسود»، فوجد مكتوبًا فيها: الـكلام كله اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسـمى، والفعل ما أُنبئ به ـ حيث يدل على الحـدث وزمانه ـ والحرف ما أفاد مـعنى. ثم قال «الإمام علىّ ﷺ» لأبى الأسـود: انح هذا النحو وأضف إلـيه مـا وقع لك، فقـال «أبو الأسود»: فوضـعت باب العطف والنعت، ثم بابى التعجب والاستـفهام، إلى أن وصلت إلى باب: إن وأخواتها ماخلا لكن، فلما عرضتها على «الإمام علىّ ﷺ»

أمرني بضم لكن إليهـا، وكنت كلما وضعت بابًا من أبواب النحو عرضتـه عليه، إلى أن حصلت مـا فيه الكفاية، فقـال «الإمام عليّ ﷺ»: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت، ومن هنا ظهر علم النحو[1].

وعن أبي الأسـود الدؤلي أخذ جـماعـة من دارسي النحو منهم يحـيى بن يعمر، وعنبسة بن مـعدان، وميمون الأقرن، وعيسى بن عـمر الثقفي، وكان هذا الأخير من مـقدمي غويٍّ البصـرة، وعنهم أخذ الخليل بن أحمد، وأصـدر كتاب المكمل. ومن تلاميذ الـدؤلي يونس بن حبيب (ت183هـ الموافق 799م) مولى بني ليث بن بكر، وقـيل إنه أعجـمي الأصل، وكان أعلم الناس بتـصاريف النـحو. كذلك استحدثـت الشريعة الإسلامية والنظم السياسـية والإدارية في الدولة العربية ألفاظًا ومصطلحات لم يكن للعرب عـهد بها من قبل، وازدادت هذه المصطلحات بما نقله المسلمـون عن اليـونانية والفـارسيـة في مختـلف مـيادين العلوم كـالطب والرياضة والفلسفة والكيميـاء، وأدى ذلك إلى البحث في مفردات اللغة من حيث معانيها وأصـولها واشتقاقاتها، فظهرت المعـاجم العربية، وأول من وفق في جمع أول معجم في اللغة العـربية الخليل بن أحمد الأزدي (ت170هـ الموافق 786م)، وذكروا أنه كان غاية في اسـتخراج مسائل النحو وتصـحيح القياس، وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعـار العرب، وصنف الخليل كتابه المشهور المسمى العين، كما صنف كـتبًا أخرى منها كتاب النغم وكتاب الـعروض وكتاب الشواهد وكتاب النقط والشكل وكتاب فائت العين وكتاب الإيقاع[2].

. الشعـر الأمـوي: اهتم الأمويون بلغـة العرب بعد اختـلاطهم بالأعاجم، فوضعوا لها القـواعد، ووضعوا لشعرهم الأقيسة، كمـا جاب العلماء البادية لجمع مفردات اللغة من أفواه البدو الخلص، فجمع كثير من الشعر القديم، ووضع الخليل ابن أحمد قاموسًا للغة وأنشأ علم العروض لوزن الشعر، فنهض الشعر في العصر الأموي، واتخـذ الشعر الأموي اتجـاهات جديدة لم تكن معروفـة عند العرب في

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص695.
2 ـ د. عبدالشافي محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص104.

الجاهلية، فظهر شـعر الغزل، ومن أشهر شعراء هذا اللون عـمر بن أبى ربيعة فى الحجـاز، الذى يمثل الغـزل غيـر البرىء لبـثينة، وجـميل عزة الذى يمـثل الحب البرىء، وظهر الشعر السياسى، ونتيجة للسياسة الحزبية للدولة الأموية، واتخاذهم الشعر وسيلة للدعاية، وهو النوع المعروف بالشـعر الحزبى، وجد شعراء أبلوا بلاء حسنًا، منهم عبيد الله بن قيس الرقـيات من الزبيريين، والكميت بن زيد الأسدى من شعراء الشيعة، كما وجد شـعراء يمثلون السياسة الأموية، نذكر منهم الفرزدق شاعـر عبدالملك بن مـروان، والوليد، وسليمان ويـزيد، وجرير شاعر الحـجاج، والأخطل شاعر معاوية وخلفائه. كذلك وجد شعراء يمثلون الصراع بين العصبيتين الحجازية واليـمنية، وسجل هؤلاء المفاخرات العصـبية، ومن شعراء قبـائل الحجاز الكميت، ومن شعراء قبائل اليمن القحطانية دعبل الخزاعى.

الإمام الحسين عليه السلام علمه وفصاحته وبلاغته: تربى الإمام الحسين رضى الله عنه بين يدى رسول الله ﷺ أفـصح من نطق بالضاد، وأميـر المؤمنين الإمام على عليه السلام الذى كان كلامـه أبلغ كلام بعد كلام الرسول ﷺ وفـاطمة الزهراء التى تفرغ عن لسان أبيها ﷺ، فلا غرو إن كان أفـصح الفصحاء وأبلغ البلغاء. وهو بلاشك قد تعلم فى صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية وكانت عنده ملكة للخطابة ممتـازة، كان يخطـب يوم عاشوراء وقـد اشتـد الخطب وعظم البلاء وضـاق الأمر وترادفت الأهوال، فلم يزعزعه ذلك ولا اضطراب ولا تـغير، وخطب فى جمـوع أهل الكوفة بجنان قوى وقلب ثابت ولســان طلق ينحدر منه الكلام كالسيل فلم يسمع متكلم قط قبله ولابعده أبلغ فى منطق منه وهو الذى قال فيه عدوه وخصمه فى ذلك اليوم: «ويلكم كلموه فإنه ابن أبيه والله لو وقف فيكم هكذا يومًا جديدًا لما انقطع ولما حصـر». ومن كلامه المرتجل قوله فى توديع أبى ذر وقد أخرجه عثمان من المدينة بعـد أن أخرجه معاوية من الشام: «يا عماه، إن الله قادر أن يغـير مـا قد ترى، والله كل يوم هو فى شـأن، وقد منعك القـوم دنياهم ومنعتهم دينك، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم، فاسأل الله الصبر

والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع فإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لايقدم رزقًا والجزع لايؤخر أجلا».

ويقول معاوية بن أبى سفيان واصفا الإمام الحسين عليه السلام:

«إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير فتلك حلقة أبى عبدالله مؤتزراً إلى أنصاف ساقيه». ثم استمع إلى الإمام الحسين عليه السلام يرد على نافع بن الأزرق «رأس الخوارج الأزارقة» عندما قال للإمام الحسين عليه السلام «صف إلهك الذى تعبده». فرد عليه الإمام الحسين عليه السلام: «يا نافع من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر فى الالتباس مائلا إذا كبا عن المنهاج، ظاعنا بالاعوجاج، ضالا عن السبيل قائلا غير الجميل. يا ابن الأزرق أصف إلهى بما وصف به نفسه لايدرك بالحواس ولايقاس بالناس قريب غير ملتصق وبعيد غير مستقصى، يوحد ولايبغض، معروف بالآيات موصوف بالعلامات، لا إله إلا هو الكبير المتعال» فبكى ابن الأزرق وقال: «ما أحسن كلامك». فقال له الإمام الحسين عليه السلام: بلغنى أنك تشهد على أبى وعلى أخى بالكفر وعلى. قال ابن الأزرق: أما والله يا حسين، لئن كان ذلك لقد كنتم منار الإسلام ونجوم الأحكام. فقال الإمام الحسين عليه السلام: إنى سائلك عن مسألة؟ فقال: سل. فسأله عن قوله تعالى: (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) فقال ابن الأزرق: من حفظ فى الغلامين، فقال أبوهما. فقال الإمام الحسين عليه السلام: «أبوهما خير أم رسول الله؟» فقال ابن الأزرق: قد أنبأ الله تعالى عنكم أنكم قوم خصمون. ومن دعائه بالكعبة الشريفة «إلهى نعمتنى فلم تجدنى شاكراً وأبليتنى فلم تجدنى صابراً فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ولا أدمت الشدة بترك الصبر، إلهى ما يكون من الكريم إلا الكرم». وقال: إن قوم عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قومًا عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قومًا عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار وهى أفضل العبادة. وقال لابنه الإمام على بن الحسين عليهما السلام: أى بنى إياك وظلم من لايجد عليك ناصراً إلا الله عز وجل[1].

1 ـ توفيق أبو علم ـ المرجع السابق ص437.

وسأله رجل عن معنى قول الله تعالى: «وأما بنعمة ربك فحدث» قال: أمره أن يحدثه بما أنعم الله به عليه فى دينه. وقال: البخيل من بخل بالسلام، وقال من حاول أمرا بمعصية كان أفوت لما يرجـو وأسرع لمجيء ما يحذر. وقال: إذا سمعت أحدًا يتناول أعراض الناس فـاجتهد ألا يعرفك فإن أشقى الأعـراض به معارفه. وقال عليه السـلام: لاتكلف ما لاتطيق ولاتتعرض لما لا تـدرك ولاتعد بما لاتقدر عليه ولاتنفق إلا بقدر ما تستفيد ولاتطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت، ولاتفرح إلا بما نلت من طاعة الله تعالى ولاتتناول إلا ما رأيت نفسك أهلا له. ومن كلامه فى الحرب التى اختار الله له بها ما عنده فى خطبة ألقاها بعد أن حمد وصلى قال: «قد نزل من الأمر ما ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كـصبابة الإناء وإلا خسيس عـسيس كالمرعى الوبيل ،ـ ترون الحق لايعمل به والباطل لايتناهى عنه ليرغب المؤمن فى لقاء الله عز وجل وإنى لا أرى الموت إلا سعادة ولا أرى الحياة مع الظالمين إلا جرمًا».

وقد أثر عن الإمـام الحسين ﷺ قوله الشـعر فى الحكم والمناسبـات، وقد وردت بذلك عدة روايات وهى متـضافرة على نسبتهـا إليه وصدورها منه، ولو أنه عليه السلام راض نفـسه على نظم الشعر لكان له منه الكثـير الرصين، ومن ذلك قوله:

أغن عن المخلـوق بالخـالق تـغـن عن الكاذب والصـادق
واسترزق الرحمن من فضله فليـس غـير الله مـن رازق
ومن ظـن أن النـاس يغـنونـه فليس بالـرحـمـن بالـواثق
أو ظن أن المال من كـسبـه زلـت به النعـلان مـن خـالق

ومن شعره ما يذكر به زوجته وابنته:

لعـمـرك أننى لأحب دارا تـكون بهـا سكينـة والرباب[1]

1 ـ والرباب التى ذكرت فى البيـتين السابقين خطبهـا أشراف قريش بعد مقـتله فكانت السيدة الوفية التى قالت (ما كنت لاتخذ حما بعد رسول الله ﷺ) وقد بقيت سنة لايظلها سقف حتى ماتت.

أحبهما وأبذل كل مالي ولـيس لعاتب عندي عتاب
فلست لهم وإن غابوا مضيعًا حياتي أو يغيبني التراب

ومن شعره الحكيم ما قصد به العبرة وسلامة الفطرة والوجهة إلى رب الأرباب الكريم الوهاب، قال:

إذا ما عضك الدهر فلا تجنح إلى الخلق
ولا تسأل سوى الله تعالى قاسم الرزق
فلو عشت وطوفت من الغرب إلى الشرق
لما صادفت من يقدر أن يسعد أو يشقي

وقد زار الإمام الحسين ﷺ مقابر المدينة بالبقيع فتذكر الموت والبلى وما آلت إليه سكان القبور أهل الدثور فأخذته العبرة فقال:

ناديت سكان القبور فأسكتوا فأجابني عن الصمت ترب الحشا
قالت أتدري ما صنعت بساكني مزقت لحمهم وخرقت الكسا
وحشوت أعينهم ترابًا بعدما كانت تأذى باليسير من القذى
أما العظام فإنني مزقتها حتى تباينت المفاصل والشوى
قطعت ذا من ذا ومن هذا كذا فتركتها مما يطوف بها البلى

وقد لقيه الفرزدق بعد ما رجع من الحج فسلم عليه وقال يا ابن رسول الله كيف تركن إلى أهل الكوفة وهم الذين قتلوا ابن عمك مسلم بن عقيل وشيعته، فاستعبر الإمام الحسين ﷺ باكيا ثم قال: رحم الله مسلما فقد صار إلى روح من الله وريحانه وتحياته ورضوانه أما إنه قد قضى ما عليه وبقى ما علينا، وأنشأ يقول:

فإن تكن الدنيا تعد نفيسة فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ بالسيف أفضل
وإن تكن الأرزاق قسما مقدراً فقلة حرص المرء فى السعى أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها فما بال متروك به المرء يبخل

وقال يصف الناس حوله وفساد دخلتهم وشرورهم ودغل طويتهم وبغيهم:

ذهـــب الـــذين أحـــبـــهم   وبقـيـت فـيــمن لا أحـبـه
فــيـــمن أراه يســــبني   ظهـــر المغـيـب ولا أسـبـه
يـبـغى فسـادى مـا اسـتطا   ع وأمـــــره ممــــا أربـــه
حنقـا يــدب لـى الضـرا   ء وذاك ممــــا لا أدبـــه
ويـرى ذباب الـشـــر من   حـــولى يطـــن ولايذبـه
وإذا خـبـا وغـر الصـدو   ر فــلا يزال بـــه يشـبـه
أفـــلا يعــيـــج بعـــقـله   أفــلا يثـوب إلـيــه لبــه
أفـــلا يـرى مــن فـــعله   مــا قــد يـسـور إليه غـبـه
حسـبى بـربى كـــافيـا   ما أختـشى والبـغى حسـبه
ولقـل من يـــبـغى عليـــه   فـــمـــا كـــفـــاه الله ربه

أما حذقه في الفقه واللغة وتمكنه من الغريب فيها والإحاطة بخفاياها، فقد روى عنه الكثير، فكانت الأعراب تفد من البادية لاختباره ومطارحاته فإذا به وقد صدع بما يشدهم ويبهرهم، فقيل إن إعرابيا دخل المسجد الحرام فوقف على الإمام الحسن عليه السلام وحوله حلقه فقال لبعض جلساء الإمام الحسن عليه السلام من هذا الرجل، فقال له هذا الإمام الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام فقال الأعرابى إياه أردت بلغنى أنهم يتكلمون فيعربون فى كلامهم وإنى قطعت بوادى وقفارا وأودية وجبالا وجئت لأطارحه الكلام وأساله عن عويص العربية. فقال له جليس الإمام الحسن عليه السلام: إن كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب وأومأ إلى الإمام الحسين عليه السلام فوقف عليه وسلم فرد عليه السلام، ثم قال: ما حاجتك يا أعرابى فقال إنى جئتك من الهرقل والجعلل والأيتم والهمهم، فتبسم الإمام الحسين عليه السلام، وقال يا أعرابى لقد تكلمت بكلام ما يفعله إلا العالمون، فأجابه الأعرابى: وأقول أكثر من هذا فهل أنت مجيبى على قدر كلامى، ثم اذن له الإمام الحسين عليه السلام فأنشد أبياتًا منها[1]:

---

1 ـ توفيق أبو علم ـ نفس المرجع ص441.

هفا قلبي إلى اللهو وقد ودع شرخيه
وقد كان أنيقا عصر تجراري ذيليه
عيالات ولذات فياسقيا لعصريه
فلما عمم الشيب من الرأس نطاقيه
وأمسى قد عناني منه تجديد خضابيه
تسليت عن اللهو وألقيت قناعيه
وفي الدهر أعاجيب لمن يلبس حاليه
فلو يعمل ذو رأي أصيل فيه رأييه
لألفى عبرة منه له في كسر عصريه

فقال له الإمام الحسين ﷺ يا أعرابي قد قلت فاسمع مني وأنشد الحسين ارتجالا لوقته:

فما رسم شجاني قد محت آيات رسميه
سفور درجت ذيلين في بوغاء قاعيه
هتوف مرجف تترى على تلبيد ثوبيه
وولاج من المزن دنا نوء سماكيه
أتى مشعنجر الورق يجود من خلاليه
وقد أحمد برقاه فلا ذم لبرقيه
وقد جلل رعداه فلا ذم لرعديه
ثجيج الرعد ثجاج إذا أرخى نطاقيه
فأضحى دارسا قفراً لبينونة أهليه

فقال الأعرابي لما سمعها: ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلامًا وأذرب لسانا ولا أفصح منه منطقًا ـ فقال له الإمام الحسن ﷺ يا أعرابي:

غـــلام كـــرم الرحـــمن بالتطهـــير جـــديه
كـــساه القمـــر القمـــقـــا م نـــور ســـنائـــيه

إلى أن يقول:

وقـــد أرضيـــت من شعـــرى وقـــومـــت عـــروضـــيه

فلما سمع الأعرابى ذلك، قال: بارك الله عليكما مثلكما تحله الرجال حزا كما الله خيراً وانصرف، وكان الإمام قد فسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم والجعلل وهو قصار النمل والأينم وهو بعض النبات والهمهم وهو القليب القرير الماء، وفى هذه الكلمات أوصاف البلاد التى جاء منها وإشارة إليها. تبين مما قلته أن الإمام الحسين عليه السلام أجاب الأعرابى بداهة بما هو أعوص من قوله وأغرب من بيانه وأبيات بعدد أبياته وهى أرصن وأمتن وهى آية على تمكن الإمام الحسين ﷺ من اللغة واستحضاره لغريبها وخبرته بعويصها مما كان درجا إلى وفود الشعراء إليه ليسترفدوه ولينالوا عطاءه، ولابدع فهو من هامة الشرف وعزين الكرم من عظم قدرهم وعظمت آثارهم، وكم من شاعر رماه بآماله ونزع إليه برجائه فاصطنع إليه معروفه وبوأه من أياديه مبوأ صدق فاختصه برفده وآثر ببره، وقد لامه أخوه الإمام الحسن ﷺ فى تتابع بره وكثرة أعطياته فكتب إليه: خير المال ما وقى به العرض. وهو عليه السلام موفور الكرامة عرضه سليم فى غير حاجة إلى ما يوفيه، فإن الله عز وجل وقاه وطهره، يغمر قاصده بنواله ويعم رافده بنوافله رغبة منه فى الصنيعة وإسعافه لراجيه، فما خاب عنده أمل طالب وما كذب فيه ظن راغب فالمسترفدون يأوون منه إلى ركن منيع وينزلون عنده فى جناب مريع. وقال من قصيدة طويلة هذا أولها:

إذا استنصر المرء امرءا لايدا له فناصره والخاذلون سواء
أنا ابن الذى قد تعلمون مكانه وليس على الحق المبين طماء
أليس رسول الله جدى ووالدى أنا البدر إن خلى النجوم خفاء

ألم ينزل القرآن خلف بيوتنا صباحًا ومن بعد الصباح مساء
ينازعني والله بيني وبينه يزيد وليس الأمر حيث يشاء
فيا نصحاء الله أنتم ولاته وأنتم على أديانه أمناء
بأى كتاب أم بأية سنة تناولها عن أهلها البعداء

ولما أحاطت به جموع ابن زياد وقتلوا من قتلوا من أصحابه ومنعوهم الماء، وكان له ولد صغير فجاءه سهم فقتله فزمله الإمام الحسين عليه السلام وحفر له بسيفه وصلى عليه ودفنه وقال:

غدر القوم وقد ما رغبوا عن ثواب الله رب الثقلين
قتلوا قدما عليا وابنه حسن الخير كريم الأبوين
حسداً منهم وقالوا أقبلوا نقتل الآن جميعًا للحسين
خيرة الله من الخلق أبى ثم أمى فأنا ابن الخيرتين
فضة قد صيغت من ذهب فأنا الفضة وابن الذهبين
من له جد كجدى فى الورى أو كشيخى فأنا ابن القمرين
فاطم الزهراء أمى وأبى قاصم الكفر ببدر وحنين
وله فى يوم أحد وقعة شفت الغل بفض العسكرين
ثم بالأحزاب والفتح معا كان فيها حتف أهل الوثنين

وللإمام الحسين عليه السلام عظات وعبر وآداب وحكم آية على ما تأدب به من أدب جده وما ورثه من بلاغة أبيه ولقد كان عليه السلام يقول: «شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء والقسوة على الضعفاء والبخل عن الإعطاء» وقال صاحب الحاجة لم يكرم وجهه عند سؤالك فأكرم وجهك عند رده»، ولقد قال رضى الله عنه فى اليوم الذى استشهد فيه بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «يا عباد الله اتقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر، فإن الدنيا لو بقيت لأحد أو بقى عليها أحد لكانت الأنبياء أحق بالبقاء، وأولى بالرضاء وأرضى بالقضاء على أن الله تعالى

خلق الدنيا للبلاء، وخلق أهلهـا للفناء فجديدها بال ونعيمها مـضمحل وسرورها مكفهر، والمنزل تلعـة والدار قلعة فتزودوا فإن خير الزاد التـقوى واتقوا الله لعلكم تفلحون». وخطب مـرة عليه السلام فقال: «إن الحلم زينة والـوفاء مروءة والصلة نعمة والاستكبـار صلف، والعجلة سفه، والسفه ضـعف، والغلو ورطة ومجالسة أهل الدناءة شر ومجالسة أهل الفـسوق ريبة» أما فصاحته وسرعة بديهـته فمضرب الأمثـال: ويروى أنه دخل على معاويـة ذات يوم فقال له مـعاوية مداعـبًا: «يا أبا عبـدالله إن فى بنى هاشم غلمة وهم مـن أجل ذلك يكثرون من الزواج، فـأجابه الإمام الحـسين ﷺ مبتـسمًا: إن الغلمة الـتى نراها فى رجال بنى هاشم هى فى نساء بنى أمية. كما يروى أنه لما سمع باشتـداد العلة على معاوية قصد إلى عيادته فلما علم مـعاوية بمقـدمه قال: «اعطرونى والبـسونى أحسن ثيـابى وأسندونى إلى وسائدى وأجلسونى على فراشى» فـفعلوا ثم أذن للإمام الحسين ﷺ فدخل وقال كيف حال أمير المؤمنين[1].

فأجابه معاوية:

وتجلدى للشـامتـين أريهمـو   أنى لريب الدهر لا أتضعـضع

فرد الإمام الحسين ﷺ على الفور:

وإذا المنيـة أنشبت أظفـارها   ألفـيت كل تميمـــة لاتـنـفـع

فبكى معاوية وقال: هذا لسان النبوة.

مذهب الشيعة:

لايمكن الفصـل بين الموقف والنظرية. فالموقف فى أى أمـر أو رأى أو اتجاه ليس شيـئا يستـحق الاهتمام ان لم يكن له سند من فكر نظـرى أو قاعدة مبـدئية ينطلق منها. ويقال من الجانب الآخر: الأخذ بنـظرية معينة فى مسألة ما هو بذاته موقف، وإلا فهـو نوع من التجريد المطلق القـائم فى الفراغ.. أى أن بين الموقف

---

1 ـ توفيق ابو علم ـ نفس المرجع ص445.

والنظرية علاقة جدلية. وهذه العلاقة تؤكد عدم إمكان الفصل بينهما. لكن طبيعة البحث والإيضاح تقتضى منا، هنا، هذا الفصل الشكلى بين الأمرين.

نشأ التشيع، من حيث هو موقف فى الإسلام، مع نشوء مسألة الخلافة فور موت صاحب الدعوة الإسلامية. ثم جعل هذا الموقف يتبلور ويتفاعل مع أحداث الحياة العربية - الإسلامية، حتى نشأت وتفرعت عنه مواقف سياسية، وفكرية: كلامية وفلسفية، تألفت منها مذاهب وفرق شيعية متعددة، بعضها تضاءل مع الزمن، وبعضها تحول إلى موقف آخر يختلف عن منطلقه الأساسى، وبعضها نما وتصلب واتسعت قاعدته ولايزال محتفظًا بوجوده وأرضه ومنطلقه. ومهما اختلفت فرق الشيعة، فى التاريخ من حيث المبدأ والاجتهاد. ومن حيث المحافظة على الارتباط بالأصول الإسلامية أو الانقطاع عن هذه الأصول، فإن هناك أمراً مشتركًا بينها فى الأغلب، هو الموقف من «شخص» الإمام على بن أبى طالب ﷺ. وهذا الموقف كثيراً ما كان يتخذ - عن قصد أو عن غير قصد، من قريب أو من بعيد - تعبيرا غير مباشر عن موقف سياسى أو طبقى تجاه هؤلاء الحكام أو أولئك من حكام دولة الخلافة الإسلامية، أموية أو عباسية. أو غيرها. وقد انطبع الموقف السياسى أو الطبقى - غالبا - بطابع المعارضة. وكثيرا ما كانت المعارضة هذه تصطبغ بالدم والعنف، إما فى معارك وانتفاضات دموية، وإما فى شكل اضطهادات سياسية تصل بالشدة والبطش أحيانًا إلى أن تكون مجازر بشرية رهيبة، كالانتفاضات الشيعية الأولى على الأمويين. وقد تواصلت أحداث المعارضة السياسية الشيعية للحكم القائم فى معظم العهود العباسية، كما تواصلت الاضطهادات السياسية للشيعة فى مختلف مراحل التاريخ السياسى العربى - الإسلامى حتى نهاية عهد الدولة العثمانية فى مطلع القرن العشرين. ولم يكن يتغير الموقف الشيعى المعارض إلى الموقف المؤيد إلا فى الفترات التاريخية التى يظهر فيها حكام شيعيون هنا وهناك. كالدولة البويهية فى إيران، وإمارة سيف الدولة الحمدانى فى حلب أثناء القرن الرابع الهجرى (العاشر)، وكالدولة الفاطمية فى المغرب ومصر فى القرن الرابع نفسه، وفى الفترات التى اتفق أن حصلت فيها

مهادنة الشيعة لبعض الخلفاء (المأمون العباسى). وهنا نلحظ ظاهرة شيعية جديرة بالاهتمام، هى أن الموقف السياسى المعارض كثيرا ما كان يتخذ طابعًا، أو بُعداً اجتماعيا. بمعنى ان المعارضة لاتكون لشكل الحكم وأشخاص الحاكمين بقدر كونها معارضة، من حيث الجوهر، لأساليب الحكم المتبعة تجاه الطبقات والفئات الاجتماعية المستضعفة، وغير بعيد أن يكون وراء هذا الموقف كون عامة الشيعة أنفسهم ممن يكابدون الاضطهاد الاجتماعى تبعًا لاضطهادهم السياسى من حيث هم جزء عضوى من الطبقات والفئات الاجتماعية ذاتها التى تعانى الاضطهاد من الطبقات المسيطرة[1].

من العسير تحديد النظرية الشيعية تحديداً مطلقًا وشاملا. لأن الشيعة افترقت منذ موت الإمام الرابع على بن الحسين ﷺ الملقب بزين العابدين، وهو الذى نجا من مجزرة كربلاء التى استشهد فيها أبوه الإمام الحسين بن على عليهما السلام - افترقت الشيعة منذ ذاك فرقا بدأت بثلاث: الإمامية (أتباع الإمام محمد الباقر بن زين العابدين)، والزيدية (أتباع الإمام زيد بن على زين العابدين)، والكيسانية (أتباع محمد بن الحنفية وهو ابن الإمام على بن أبى طالب ﷺ مباشرة، ونسب إلى أمه: الحنفية). ثم أخذت الفرق الشيعية، منذ ظهور الطلائع الأولى للتفكير الكلامى - الفلسفى، تتشعب وتتعدد. وذلك تبعا لما كان يدخل على النظرية الشيعية من أفكار جديدة تتحرك وتتموج فى ذلك المجرى الفكرى الذى بدأ يتكون أولا من البحث فى مشكلة القدر ومسؤولية الفعل الإنسانى وعلاقته بالفعل الإلهى، ومن الصلة بين بحث هذه المشكلة ذاتها والصراع السياسى الحزبى حول مسألة الخلافة - والخلافة الأموية بالأخص - ثم بدأ يتبلور - ثانيا - خلال نهوض الحركة الكلامية - الفلسفية النامية الصاعدة. ولكن، مهما يكن عسيرا تحديد النظرية الشيعية بصورة مطلقة وشاملة بسبب مما تقدم. فإنه ليس عسيراً أن تحدد الأصول الأولى لهذه النظرية، أو القاعدة التى انطلقت منها وقامت عليها الأبنية المتعددة لمختلف النظريات الشيعية: المذهبية والفكرية. فإن الشيعة، على اختلاف فرقهم ومذاهبهم، ينطلقون نظريًا من القول بأن الإمام على بن أبى طالب ﷺ هو

1 - حسين مروة - المرجع السابق ص494.

الشـخص الأول في المسـلمـين الذي له حق السلطة، بـعـد النبي ﷺ. وأن هذه السلطة حق إلهي وليست حقا للناس في اختيار من يصلح لقيادتها. لأن الله وحده يعرف أين تكون مصلحـة البشر، وكيف يكون خيـر دنياهم وآخرتهم. لذلك كله اعتبر الشيعة أن الإمامة ركن من الأركان الأساسية للإسلام، أي من أصول العقيدة الإسلاميـة. ذلك هو الأصل وتلك هي القاعدة الراسخـة للنظرية الشيعية، مـهما كان الرأي بعد ذلك في شكل هذه السلطة وطابعـها، الروحي والزمني. وبعد هذا يختلف الشيـعة كثيراً: فهناك الشيـعة المعتدلون، وهناك الشيعـة المتطرفون في فهم السلطة التي يضـفونها على شخـص الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهؤلاء هم المعروفـون في التاريخ الإسلامي بـ «الغـلاة»، لأنهم يغالون في نظريتـهم إلى حد إضفاء صفـات الألوهية على شخص الإمام عليّ عليه السلام. ويتفق المسلمون، الشـيعة المعتدلون والسنة، على خروج هؤلاء الغلاة على أصول العقيدة الإسلامية إطلاقا، وإن كان المؤرخـون يطلقون اسم الشيـعة على كل فرقة تتـصل نظريتها، أسـاسا، بشخص الإمام عليّ عليه السلام. في حين أن الإماميـة والاثنى عشرية والزيدية من فرق الشيعـة تتنصل من نسبة التشيع إلى تلك الفـرق المتطرفة، وهم يسندون رأيهم في إنكار التطرف والمغالاة إلى عقيدتهم الإسلامـية القائمة على وحدانية الله وأنه ليس بجسم وليس كمثله شيء في الكائنات، وعلى نبـوة رسول الله محمد ﷺ، وعلى القول بالقيامة والبعث في عـالم الآخرة، هذا أولا. ثم هم يستندون ثانيا إلى قول للإمام علي عليه السلام في إحدى خطبه: «سيهلك فيّ صـنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق. وخير الناس حالا النمط الأوسط فالزموه». ويروى الشيعـة هذا القول بصيغة أخرى عن الإمام عليّ عليه السلام، تقول: «هلك فيّ اثنان: محب غالٍ، ومبغض غالٍ» وبالمعنى نفسه قال الإمام الشيعي الرابع، علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «يا أيها الناس، أحبونا حب الإسلام، فـما برح حبكم حتى صـار علينا عاراً». رواية ابن تيميـة: منهاج السنة، جـ2، ص123.

الشيعة المعتدلون: أما النظرية الكاملة للفرق المعتدلة من الشيعة، فتقوم - أولا - على الأصول الأولى لعقيدة الإسلام. وتقوم - ثانيا - على القول بأن الحق بالخلافة بعد النبى مباشرة للإمام على بن أبى طالب ﷺ ثم لأولاده بالتتابع، وهو حق إلهى يختار له الله من يشاء من أعلم الناس وأفضلهم خلقا ودينا، ولذلك يجب أن يكون هناك نص من الله على من يختاره لهذا الحق على لسان نبيه محمد. أما القول بأن عليا نفسه هو الذى اختاره الله، فيستدلون عليه بنوعين من الدليل، يسمون الأول الدليل العقلى، ويسمون الثانى الدليل النقلى أو النص. أما الدليل (العقلى) فهو: أولا: أن الإمام يجب أن يكون معصوما عن الخطأ كالنبى، ليكون أهلا لحمل أمانة العقيدة والشريعة بعد النبى. ثم تقول الشيعة إنه لم يكن عند موت النبى معصومًا غير «الإمام علىّ ﷺ» بالإجماع. فيجب إذن أن يكون هو الإمام ولفظ «الإمام» يحمل المفهوم الإلهى للخليفة عند الشيعة. أما لفظ «الخليفة» فيحمل مفهوم سلطة «الأمة» فى مصطلح جمهور أهل السنة، ولاسيما الأشاعرة. ثانيا: أن شرط الإمام كونه لم تصدر عنه معصية، وبما أن عليا لم يعبد الأصنام قبل الإسلام قط، فقد تعين أن يكون هو الإمام. ثالثا: إنه يجب فى الإمام أن يكون أفضل علما من غيره فى زمانه، وقد كان «الإمام علىّ ﷺ» كذلك، فوجب إذن أن يكون الإمام دون غيره. غير أن هذه الأمور الثلاثة التى جعلها الشيعة دليلهم العقلى يدفعها أهل السنة بأنه ليس هناك من برهان على اشتراط العصمة فى الإمام، ولا على اشتراط عدم الإتيان بالمعصية من قبل، ولا على اشتراط ان يكون أعلم أهل زمانه، بل يكفى أن يكون ذا مؤهلات كافية للقيام بمهمات الخلافة، وأن أهل الحل والعقد هم الذين يختارونه. وأما الدليل الآخر للشيعة على إمامة «على ﷺ»، وهو النص، فقد جاء عندهم متعدد الوجوه. فهناك الحديث المعروف بـ «حديث الغدير»، أو «حديث الموالاة» وهو الذى نطق به النبى حين وقف، أثناء عودته من مكة إلى «المدينة» بعد أن حج حجته الأخيرة، فى مكان من الطريق يدعى «غدير خم» وكان معه جمع من الصحابة، فقام فيهم خطيبا، وقال فى جملة ما قال: «الست أولى منكم بأنفسكم؟» فأجابوا: اللهم، نعم. وحينئذ أخذ بيد على. ثم قال: «اللهم! من كنت مولاه فعلى مولاه. اللهم

وال من والاه. وعـاد من عـاداه، وانصر من نصـره واخـذل من خـذله». فقـام الصحابة يهنئون عليا، وبينهم عمـر بن الخطاب. وقال له عمر نفسه: «بخ بخ لك يا على، فقد أصبحت مولاى مولى كل مـؤمن ومؤمنة». تروى كتب الشيعة كلها هذا الحديث، كمـا يرويه كثير من كـتب السنة، بصيغ متعـددة، مع المحافظة على مضمـونه، وبالرغم من أن أهل السنة لا ينكرون هذا الحديث بل ويعتـرفون به فى جميع كتب الأحاديث الصـحيحة، يختلف تفسيره عندهم عما يفـسره به الشيعة. والاختـلاف يقع على لفظ «المولى» الوارد فيـه، وهذا اللفظ هو المستند فى حـجة الشيعـة. فهو يفسرونه بمعنى «الولاية» أى الحكم والسلطان، أو الإمـامة. فى حين يفسر أهل السنة معنى «الولاء» بمعنى الحب والمودة.

العلوية المتطرفة: يضع الشـهرسـتانى تعـريفا أولـيا للنظريات الدينيـة ـ الفلسفية التى دخلت عقيـدة الشيعة فى الإمام على بن أبى طالب ﷺ، فخرجت بفريق منهـم عن هذه العقيـدة التى حددنا أصولهـا الأولية فـيما تقـدم، وتحولت العـقيـدة عن حدودها تلـك إلى الغلو (التطرف) من حـيث نظرتها إلى شـخص «الإمام علىّ ﷺ» والأئمة من أولاده. يقول الشهرستانى: «الغالية هـم الذين غلوا فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية (البشرية) وحكموا فيهم بأحكام الإلهية. فـربما شبهوا واحـدا منهم بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلـق (البشر)،وهم على طرفى الغلو والتـقصـير. وإنما تشـبيـهاتهم من مـذاهب الحلولية، ومـذاهب التناسخية (انتقال الأرواح من كائن إلى كائن آخر)، ومذاهب اليهود والمسيحية، إذ اليهود شـبهت الخالق بالخلق والمسيـحية شبهت الخـالق بالخلق. ويرجع ابن حديد نشأة التطرف والغلو فى النظرية الشيعية إلى مـوطنها التاريخى وظروفها الحضارية. فإن ابن أبى الحـديد حين عقـد تلك المقارنة بين الحـجاز والعراق، وذكـر الفروق بينهـمـا، إنما قصـد الكشف عن أثر الظـروف البدوية فى الحـجـاز وأثر الظروف الحضـرية فى العراق، المستمـدة من تاريخ هذا القطر قديمـا ومن علاقته بحـضارة الفرس فى عصر ما قبل الفتح العـربى ـ الإسلامى. وإذ فسرنا ذلك بلغتنا المعاصرة

كان معناه ان أذهان أهل العراق كانت مؤهلة للأخذ بالفكر الميتافيزيقى المركب إلى حدما، وكانت أذهان أهل الحجاز أبعد عن تقبل الفكر الأكثر تعقيداً وتركيباً. هذا ما قصد إليه ابن أبى الحديد فى الأغـلب. لكن، بالرغم من موافقتنا على الطريقة فى التفسير، لا نوافق على مضمون هذا التفسير؛ لأن النظرية المتطرفة لبعض فرق الشيعة إذا كانت قد بدأت فى الكوفة فإنها سرعان ما انتشرت فى «المدينة»، ثم فى كثيـر من مناطق الجزيرة، وفى اليمن خصـوصا. إضافة إلى أن الأفكار الفلسـفية الهندية والفارسية كانت لها ظلال فى الجزيرة حتى أيام الجاهلية.

الكيسانية: يطلق اسم «الكيسانية» على أول فرقة مغالية (متطرفة) من فرق غلاة الشيـعة. وهذا الاسم يعنى نسبـة «الكيسانية» إلى مـولى للإمام على بن أبى طالب ﷺ اسمه «كـيسان»، كان تلميـذاً بعد الإمام علىّ ﷺ لولده محمد بن الحنفية. وأصحاب كيسان هم من الموالى أيـضاً، وهـم الذين قالوا بإمامة محمد بن الحنفيـة منتقلة إليه من ابن أخيـه الإمام على بن الحسـين زين العابدين ﷺ. أما النظرية التى انتهت إليهـا هذه الطائفة بعد قليل من الزمن، فقد ابتعـدت كثيراً عن أصول التـشيع الأولى، إذ بالغت فى إضفـاء الصفات الخـارجة عن حدود طبيـعة البشـر على شخص مـحمد بن الحـنفية، فنسـبت إليه العلم الغـيبى بما كـان وما سـيكون، وقالت بأن الدين هـو طاعة رجل يحـيط بالعلوم كلهـا ويعرف أسـرار التأويل والأسرار البـاطنية الخفية. ثم قـالت بخلود ابن الحنفية ورجعـته إلى عالم الأرض بعد مماته. ويلفت الانتبـاه من أمر هذه الطائفة ظاهرتان جديرتان بتـعميق النظر فيهما: **الظاهرة الأولى**، ظهور عقيـدتها، لاسيما عقـيدة الخلود والرجعة، على أيدى «مـوالى» الكوفـة بالدرجة الأولى. فـإنه ـ بالاضـافة إلى نسـبـتهـا لـ «كيسان»، وهو من الموالى كما تقدم ـ بـرز بعده أصحاب أبى عمرة الذى قتل فى ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى ضد الأمويين قاتلى الإمام الحسين بن على عليهما السلام. وأصـحابه هؤلاء من موالى الكوفـة أنفسهم. أى من هذه الفئـة المعدودة يومئذ فى أسفل القاعدة البشـرية للمجتمع الأموى. وهؤلاء بالذات ـ أى أصحاب

أبى عمرة - أول من قال برجعة ابن الحنفية بعد مقتل صاحبهم أبى عمرة. والأمر الذى يلفت النظر هنا أنهم قالوا بذلك بعد أن كان إمامهم ابن الحنفية قد هادن عبدالملك بن مروان الخليفة الأموى، وكاتبه، ثم بايعه بالخلافة. وكان من قبل قد بايع يزيد بن معاوية. ولكن بالرغم من أنهم غضبوا لمهادنته الأمويين الذين قاتلوهم تحت راية المختار الثقفى، (وكان المختار هذا قد جعل مكانتهم الاجتماعية فى مستوى العرب دون تمييز) وبالرغم من أنهم وجدوا فى تلك المهادنة تخليا من إمامهم ابن الحنفية عن قضيتهم وقضيته هو وأهل بيته - بالرغم من كل ذلك، لم يتخلوا هم عن عقيدتهم فيه، بل ازدادوا غلوا، فاعتقدوا أنه أذنب بذلك، فعاقبه الله بأن غيبه فى غار مظلم من جبل رضوى، وقبل غيبته جعل أمر الإمامة إلى ابنه أبى هاشم، فأصبح هذا عندهم الإمام الصامت بعد غيبة الإمام الناطق (ابن الحنفية). ثم لم يوص أبوهاشم لأحد بعده بالإمامة. لأن الله سيعيد الإمامة إلى محمد بن الحنفية عند رجعته حين تنتهى مدة عقوبته. وهم يقولون بهذا الصدد - كما يروى أبوخلف القمى - أنهم «لا يعرفون حجة من غيرة، ولاحقا من شبهة، ولايقينا من خبرة. حتى يبعث الله الإمام العالم، محمدا المكنى بأبى القاسم (ابن الحنفية نفسه) على رغم الراغم، والدهر المتفاقم. فيملك الأرض جميعًا، ويقطعها من حماية قطعًا». ماذا يمكن أن نستنتج من قصة هؤلاء الموالى ومن عقيدتهم هذه؟[1]. إن عناصر القصة كلها وما ارتبط بها من عقيدة الرجعة يمكن أن تسمح لنا باستنتاج مسألة مهمة. هى أن موالى الكوفة أصحاب كيسان وأصحاب أبى عمرة، حين انخراطهم فى ثورة المختار الذى ألغى فكرة انحطاط منزلتهم الاجتماعية عن منزلة العرب، وأقر فكرة المساواة بينهم وبين العرب، كانوا يقاتلون فى ظاهر الأمر دفاعا عن حق أبناء على بالإمامة، ولكن هذا الأمر الظاهر كان - فى الواقع - تعبيراً عن وعى اجتماعى خفى يدعوهم - من حيث لايدركون إدراكا

---

1 - حسين مروة - نفس المرجع ص501 - وانظر أبو خلف القمى (300هـ): «كتاب المقالات والفرق»، ص22 - 23.

مباشراً - إلى الدفاع عن قضيتهم هم، بوصف كونهم فئة مضطهدة محتقرة يحتملون أنواع الاضطهاد والاحتقار فى دولة بنى أمية، وفى ظل العصبية العربية التى استغلها تجار الكوفة وأغنياؤها المتحدرون من أسلافهم الأقربين تجار مكة وأغنيائها قبل الإسلام. لقد وجد هؤلاء الموالى فى أبناء الإمام علىّ ﷺ وأنصارهم، وفى طبيعة المعارضة للحكم الأموى التى يحمل رايتها حزب العلويين - وجدوا فى ذلك خشبة الإنقاذ لهم مما يعانون من اضطهاد واحتقار. وقد عزز المختار هذا الأمل فى وعيهم الاجتماعى الخفى الذى ظهر فى شكله الغيبى، حين تبعوا دعوة صاحبهم «كيسان»، ثم صاحبهم «أبى عمرة» إلى إمامة ابن الحنفية. غير أن صدمة من اليأس أصابتهم، بعد ذلك، فى قضيتهم الكامنة وراء إيمانهم بالدعوة «الكيسانية»، ووراء اندفاعهم إلى القتال فى سبيل هذه الدعوة. فقد رأوا أولا قيادتهم العسكرية تنهار بمصرع المختار نفسه، ثم مصرع أبى عمرة، ورأوا ثانيا قيادتهم الروحية تتخلى عن القضية بمهادنة إمامهم ابن الحنفية لصاحب الحكم الأموى عبدالملك بن مروان. وبذلك كله رأوا الأمل القائم فى كهف من كهوف وعيهم الاجتماعى الغامض يهتز ويتضعضع ويكاد ينسحق تحت وطأة هاتين الصدمتين. وهنا رفض وعيهم الاجتماعى الانسحاق، فلجأ إلى نفق روحى غيبى ينسرب فيه هربا من مطاردة الشعور باليأس القاتل، وكان الاعتقاد بالرجعة، رجعة ابن الحنفية، متطهراً من خطيئة المهادنة للأمويين الظالمين - هو ذلك النفق الروحى الغيبى الذى لجأ إليه موالى الكوفة الكيسانية. أليسوا يجدون فى نفقهم هذا عزاء عما يلقون من الاضطهاد الأموى واحتقار عرب الكوفة من تجار وملاكين وحاكمين مسيطرين على أقواتهم وأبدانهم وإنسانيتهم؟. أليس من أطيب العزاء لهم أن يكونوا موعودين بأن سوف «يبعث الله الإمام العالم، محمد المكنى بأبى القاسم، على رغم الراغم والدهر المتفاقم، فيملك الأرض جميعًا، ويقطعها من حماية قطعًا»؟..

أما الظاهرة الثانية من الظاهرتين اللتين تثيران الاهتمام فى حركة الكيسانية، فهى ما يلفت الطبرى نظرنا إليه، بقوله: «إن هند بنت المتكلفة الناعطية (نسبة إلى

«ناعط» وهوحصن على قمة جبل فى اليمن) كـان يجتمع إليها كل غال (متطرف) من الشيعـة، فيتحـدث فى بيتها وفى بيت ليلى بـنت قمامة المزنية». فـإن الطبرى يشير هنا إلى هذه الفرقة ذاتها (الكيسانية) من فرق الشيعة الغلاة. ذلك لأن هاتين المرأتين معروفتان تاريخيًا بتأثرهما بالعقيدة الكيسانية، ثم بتأثيرهما على بعض نساء الكوفة وعلى فريق من رجـالها الذين برزوا دعاة للكيسانية أمـثال عبدالله بن نوف الذى يخبرنا الطـبرى نفسه أنه ـ أى ابن نوف ـ خرج من بيت هند الـناعطية حين خرج لقـتال مصعب بن الزبيـر. وقد وصف الجاحظ هاتين المرأتين بكونهـما «من النساك والزهاد» ويبدو لنا أن تأثر نساء الكوفة بالدعوة الكيسانية نشأ أول الأمر عن تأثر عاطفى بمصرع الإمـام الحسين بن على عليهما السلام وأهـل بيته فى كربلاء. ثم لما اقتـرنت حركة الثأر لدم الإمـام الحسين ﷺ. بعد قليل من الزمن، بحركة الموالى الكيسـانية، تحول هـذا التأثر العاطفى إلى العـقيدة التى ارتـبطت بشخص محمد بن الحنفية بن على، وأخى الإمام الحسين ﷺ شهيد كربلاء. ذلك مجمل الصورة عن الكيسانية من حيث هى أول فرقة شيعية ظهرت بالغلو والتطرف. وكنا أجملنا قبلها صورة عن الشيعة المعتدلة الأكثر أصالة فى التشيع. أما الفرق الأخرى فقد ظهر معظمها فى زمن متأخر عن الزمن الذى نبحث الآن فى إطاره.

مسألة المعرفة عند الشيعة:

لعلنا فيمـا عرضناه حتى الآن من نظرية الشيـعة، معتدليـن ومتطرفين، فى مسألة الإمامة قد أتيح لنا، فى ضوئه، أن نكتشف بسهولة طبيعة مسألة المعرفة عند مختلف فرقاء الشيعة. فقد يكون واضحًا من قول الشيعة الإمامية، والاثنى عشرية خصوصًـا، بكون الإمامة حـقا إلهيا، وكون سـلطتها سلطة إلهيـة وليست سلطة الأمة. ثم من قـولهم بعصمة الإمـام واشتراطهم أن يكون الإمـام أعلم أهل زمانه إطلاقـا ـ قد يكون واضـحًا من كل ذلك أن المعـرفة، مـعرفة الله وأسـرار الكون والخليقة والروح، ومعـرفة الشريعة التى هى قانون الله للناس، مرجـعها النبى فى حياته، ثم مـرجعها الإمام بعد النبـى. فكل إمام فى زمانه هو المرجع لإدراك هذه

المعرفة. ولا مرجع غيره لأنه المخبر عن النبى، والنبى مخبر عن الوحى الإلهى. وإذا كان للعقل من حق فى هذا المجال فهو حق مقيد بحدود الكشف عما يؤيد المعارف الإلهية أو يبرهن عليها. وليس له أن يعارضها، لأنه عاجز أن يبلغ مبلغها من إدراك الحقائق الكونية وأسرار الوجود فضلا عن أسرار ميتافيزيقا الكون والوجود. وهنا نرى أن المعرفة مرتبطة بالإيمان الدينى، تابعة له، وخاضعة لمعطياته لا تستطيع أن تتصرف إلا فى حدوده. وإذا كان الشيعة المعتدلون قالوا بالاجتهاد بالرأى فى مجال التشريع الإسلامى، ولم يغلقوا باب الاجتهاد قط فى تاريخهم كله، ولايزالون يعملون به، بالرغم من ان المذاهب الفقهية الأربعة الرئيسية لأهل السنة قد أغلقت باب الاجتهاد هذا منذ نحو القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ـ نقول: إذا كان الشيعة المعتدلون قد عملوا، طوال تاريخهم حتى اليوم، بالاجتهاد فى مسائل التشريع الإسلامى، فإن هذا لايغير شيئًا من طبيعة نظريتهم الإلهية فى المعرفة. لأن هذا الاجتهاد مقيد بالحالات التى لا يوجد فيها نص صريح من القرآن، ولا من النبى، ولا من أحد الأئمة الاثنى عشر، ثم لا يوجد فيها كذلك اجماع من علمائهم. وهذا الإجماع يعنى ـ إذا وجد ـ أن رأى الإمام المعصوم الثانى عشر محمد بن الحسن الغائب المنتظر، موجود بين الآراء التى تحقق بها الإجماع. ففى هذه الحالات ـ حين لا دليل من الكتاب (القرآن)، ولا من الحديث، ولا من الإجماع ـ يأتى دور «الدليل الرابع»: العقل. وهذا الدليل الأخير يعتمد على المرتكزات العقلية التى تقررها المبادئ الأولية للعقل الاجتماعى العام، وهى المسماة بالعرف العام. وهذه المبادئ نظمها علماء الشريعة الإسلامية (الفقهاء) تنظيمًا عقلانيا جعل منها علما خاصًا مستقلا سمى بعلم «أصول الفقه». وليس هذا العلم مختصًا بالشيعة، فهو معتمد أيضا عند فقهاء السنة مع اختلاف جزئى. ينحصر هذا الخلاف فى أن ما هو عند الشيعة دليل العقل يقابله عند السنة دليل القياس[1].

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص504.

علم أصول الفقه:

لاشك أن علم «أصول الفقه» قد أدى دوره فى مسألة المعرفة على نحو عقلانى متميز، معتمدا المبادئ الأولية للعقل الاجتماعى بالأقل. فإنه بهذا النحو من العقلانية نظم حركة التشريع الإسلامى وفق قواعد وأصول لها ميزة العلم، وأتاح للشريعة الإسلامية أن تدخل فى سياق التطور الذى كان ينتظم كل جوانب النشاط الاجتماعى للمجتمع العربى ـ الإسلامى خلال عصر ازدهاره التاريخى المعروف. وقد تميز علم أصول الفقه كذلك بالخروج على شكلية المنطق الأرسطى من حيث إن استنتاجاته تنطلق من الواقعات الجزئية الحية لا من العمليات الذهنية التجريدية والافتراضية. لكن طبيعة مسألة المعرفة، التى حصرت المعرفة الإيمانية والشرعية بالمصدر الإلهى. قد ضيقت نطاق نشاط العقل حتى فى الأمور التشريعية، وجعلت عملية الاجتهاد فى هذه الأمور عملية محدودة جداً، وأنشأت فى عقول الفقهاء طبيعة الحذر الشديد من استخدام العقل فى تطوير الشريعة وتجديدها مع تطور الحياة وتجددها. وقد حاول المعتزلة محاولة جزئية حين فسحوا العقل أن تكون أكثر حرية فى هذا المجال، فقالوا مثلا بمبدأ الاستصحاب العقلى، بمعنى أنه يجوز للعقل أن يحكم فى بعض الأشياء مستقلا، وأن يبقى حكمه قائما فى أجزاء لاحقة من الزمن استصحابا للأجزاء الزمنية السابقة (أى استمرارا) إلى أن يأتى الدليل السمعى (أى النص المنقول بالسماع عن المصدر الإلهى). ولكن المذاهب المخالفة للمعتزلة عارضت هذه المحاولة. نرى، مثلا، القاضى أبا الطيب يقول، بعد ان يذكر قانون الاستصحاب العقلى عند المعتزلة: «.. وهذا لاخلاف فيه بين أهل السنة فى أنه لايجوز العمل به، لأنه لا حكم للعقل فى الشرعيات». أن الكلام فى موضوع «أصول الفقه» ينطبق على السنة والشيعة بدرجة واحدة. غير أنه، رغم الأساس العقلانى لهذا العلم، ينبغى رؤية كون المبادئ العقلية التى يرجع إليها فى عملية استنباط الأحكام الشرعية لاتتجاوز حدود المرتكزات الأولية فى العقل الاجتماعى العام. فهى لم تبلغ منزلة المبادئ العقلية المركبة التى لها صفة

المفاهيم بمعناها الفلسفى، والتى تفسح للعقل مجال التفكير بنوع من الاستقلالية والإبداع. ولعل الاختلاط الذى حدث، فى عصر المتكلمين المتأخرين، بين علم أصول الفقه وعلم الكلام، هو الذى حمل مصطفى عبدالرازق أن يجعل «الفلسفة الإسلامية» شاملة علم أصول الفقه. وهذا واضح من الحجة التى أخذ بها تدليلا على كون هذا العلم جزءاً من «الفلسفة الإسلامية». وحجته هذه أن «مباحث أصول الفقه تكاد تكون فى جملتها من جنس المباحث التى يتناولها علم أصول العقائد الذى هو علم الكلام. بل إنك لترى فى كتب أصول الفقه أبحاثًا يسمونها «مبادئ كلامية» هى من مباحث علم الكلام».

والواقع أن هذه الظاهرة التى يشير إليها عبدالرازق، أى ظاهرة التشابك بين العلمين، لا تكفى حجة على صحة وضع علم أصول الفقه فى سلك «الفلسفة الإسلامية» إلا إذا توسعنا فى مفهوم الفلسفة وفى موضوعها إلى الحد الذى كان عليه القدماء حين كانت الفلسفة «علم العلوم». فإن التشابك هذا كان ظاهرة عامة لا يختص بها علم أصول الفقه، بل نستطيع أن نراها واضحة فى مختلف العلوم العربية والإسلامية إبان ازدهار علم الكلام والمنطق.. حتى علم النحو العربى دخلته عناصر كلامية ومنطقية تظهر فى طريقة التعليل لكثير من قواعده، فى حين أن قواعد النحو لاتحتاج إلى تعليل ما دامت لاتخرج عن كونها تسجيلا وتنظيمًا لما يستخلص من تتبع لغة التعبير وأسلوب وطريقة تركيبه والتغيرات الصوتية التى تحدث فيه عند اختلاف المعانى واختلاف الأغراض التعبيرية. فهل يصح أن نسلك علم النحو فى الفلسفة لمجرد أن نرى أهل هذا العلم فى الماضى يستخدمون التعليلات الكلامية فى شرح قواعده وضوابطه؟ نقول ذلك دون أن ننكر أن علم أصول الفقه ـ كما قلنا سابقا ـ يتميز بمنهجية عقلانية عالية، ولكنه يبقى فى حدود منطقه الأصولى المرتبط بمفاهيم التشريع الإسلامى بما لهذه المفاهيم من علاقة بالمصدر الإلهى للمعرفة. ولكن، علينا أن نعترف بأن ظاهرة التشابك بين مختلف فروع الثقافة العربية فى ذلك العصر، وبين البحوث الكلامية العقلية، كانت بذاتها

ظاهرة إيجابية تحمل فى أعماقها إحدى خصائص الفكر العربى القائمة على وحدة جوانب الفكر، دون التفريق بين الجانب التأملى والجانب المرتبط غالبا بالتجربة والممارسة(ا).

مذهب الخوارج:

ترتبط نشأة الخوارج ـ بمسألة الخلاف الذى نشب بين الإمام على بن أبى طالب ﷺ ومعاوية بعد مقتل الخليفة الراشدى عثمان، والذى تحول إلى نزاع مسلح فى معركة صفين، إذ انتهت هذه الحرب بخدعة التحكيم المعروفة، وانحسرت عن خلع أحد الحكمين، (أبى موسى الأشعرى) صاحبه الإمام على بن أبى طالب ﷺ وإقرار الحكم الثانى (عمرو بن العاص) صاحبه معاوية على تولى الخلافة. «وكان من أمر الحكمين: أن الخوارج حملوه ـ أى عليا ـ على التحكيم أولا. وكان يريد أن يبعث عبدالله بن عباس.. فما رضى الخوارج بذلك، وقالوا هو منك. وحملوه على بعث أبى موسى الأشعرى على أن يحكم بكتاب الله.. فجرى الأمر على خلاف ما رضى به. فلما لم يرض الإمام علىّ ﷺ بذلك خرجت الخوارج عليه، وقالوا: لم حكمت الرجال. لاحكَم إلا الله» هكذا يلخص الشهرستانى نشأة الخوارج ويفسر تسميتهم بـ (الخوارج) فإن «كل من خرج على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا». كان أول شعار أعلنه الخوارج بعد حادث «التحكيم»، هو قولهم: «الحكم لله لا للرجال». وهذا كان أول عنصر يبرز أساسًا للعناصر الأخرى التى ستتكون منها نظريتهم. «الحق حق الله»، فليس لأحد إذن أن يتصرف به، أو يجعل أحدا من الرجال حكما يحكم به على هواه. هذا هو أساس نظرية الخوارج. وقد بنوا على هذا الأساس ذاته كل موقف نظرى وعملى اتخذوه، منذ انفصالهم عن جيش الإمام علىّ ﷺ فى «صفين» تجاه كل فريق ومذهب فى الإسلام. وتحت راية هذا الشعار ذهبوا إلى «النهروان» يقاتلون عليا بالسيف.

ا ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص506.

تطبيقًا لهذا المبدأ الأساسى قالوا إنه ليس لنبى إذا وضع لامته أمرًا أن ينكص على عقبيه. وما دام الإمام علىّ ﷺ قد قبل التحكيم فى حق وضعه النبى فهو إذن قد نكص على عقبيه. ولقد جادلهم الإمام علىّ ﷺ فى هذا الأمر، لكن لم يصغوا إلى حجته، وحكموا بكفره هو وعثمان ومعاوية وكل من شارك فى حرب الجمل وكل من رضى بالتحكيم فى صفين، وأعلنوا توبتهم عن خطيئتهم إذ رضوا بالتحكيم، ورفعوا شعار القتال لكل «كافر». وبالرغم من انهزامهم فى معركة «النهروان» أمام جيش على، لم يثنوا عن القتال. ولم يتورعوا أن يعهدوا إلى رجلين منهم أن يقتل أحدهما الإمام على بن أبى طالب ﷺ وأن يقتل الآخر معاوية، فنجح أولهما (عبدالرحمن بن ملجم)، وأخفق الثانى. ولما فرغوا من أمر الإمام علىّ ﷺ انصرفوا لمحاربة الأمويين.

على ماذا استند الخوارج إذ قالوا بكفر على ومعاوية، وبوجوب قتالهما؟

هنا يبرز العنصر الثانى من عناصر نظريتهم، وهو أيضًا يقع فى الأساس من هذه النظرية. هو مفهومهم للإيمان. فقد تفردوا فى تفسيرهم الإيمان، دون سائر المسلمين. فقد كان الإيمان، منذ عهد النبى ﷺ حتى ذلك الوقت، يعنى أولا الاعتقاد الداخلى، ثم الإقرار به نطقا باللسان. لكن الخوارج زادوا فى هذا المفهوم عنصرًا آخر، هو العمل الخارجى العضوى. فليس يكفى أن يضمر المرء اعتقاده ليكون مؤمنا، بل لابد أن يتطابق الاعتقاد والعمل. ومهما يكن الاعتقاد صادقًا وراسخًا، فصاحبه ليس مؤمنًا حتى يكتمل له عنصر العمل المطابق لهذا الاعتقاد. فكل إنسان هو عندهم: إما مؤمن، وإما كافر، وليس هناك حالة ثالثة. بهذا يصل منطق الخوارج إلى نهايته الحتمية: من لم يعمل وفق اعتقاده، فهو كمن يخالف اعتقاده، ومن لا اعتقاد صحيحًا له: كافر. انسياقا مع هذا المنطق حكم الخوارج على أنفسهم بوجوب الجهاد، أى العمل وفق اعتقادهم، وإلا فليسوا بمؤمنين، أى هم كافرون.. وهكذا انساقوا مع هذا المنطق أيضا فى قتالهم كل من يعتقدون فيه الخروج على مفهوم الإيمان هذا. وذلك ينطبق على معاوية بحكم كونه خرج على خليفة المسلمين الإمام على بن أبى طالب ﷺ قبل قبوله التحكيم. وينطبق ذلك أيضا على سائر خلفاء بنى أمية وكل من يعمل تحت إمرتهم من الحكام والولاة

والموظفين والدعاة لهم لمخالفتهم جميعًا، مخالفة عملية، مضمون عهد النبى إلى الإمام علىّ عليه السلام بالخلافة، الذى هو «حق الله، لاحق الرجال». ثم طبقوه على الخلفاء العباسيين. وقد أدى هذا المنطق نفسه إلى القول بأن مرتكب الكبيرة، كالقتل مثلا، كافر. من هنا، كان تاريخ الخوارج دمويا يأخذ بالعنف، ولايقبل المهادنة ولا المصالحة مع أى من مخالفيهم نظريًا أو عمليًا.

«**التلازم بين النظرية والتطبيق**»: ذلك هو قوام مذهب الخوارج. وربما كان لهذه النظرة وجهها الإيجابى مبدئيًا. ولكنهم بالغوا بها كثيرا، حتى أوغلوا بسفك الدماء، وخرجوا بذلك عن خط الغاية، واستعبدتهم الوسيلة، فلم يروا غيرها، احتجبت عنهم الرؤية الحقيقية، رؤية ما هو أبعد وأولى من الوسيلة. ثم إنهم قد حصروا الوسيلة نفسها فى شكل واحد أوحد، هو العنف الدموى. وهذا خطأ آخر وقع به الخوارج وأصروا عليه حتى استعبدهم أيضا، وحجب أو كاد يحجب عن كثير من الباحثين رؤية ما تضمنته نظريتهم والمبادئ الإيجابية التى قامت عليها أو التى أضافوها إلى النظرية خلال حركتهم. وهذه المبادئ ذاتها هى التى وجدت استجابة لها عند معاصرى حركتهم فى أوائل ظهورها على مسرح الأحداث[1].

الحركة العلمية: كانت الحركة العلمية بمختلف اتجاهاتها فى العصر الأموى امتدادًا للحركة العلمية التى بدأت منذ عهد النبى ﷺ، ونمت فى عهد الخلفاء الراشدين، وأخذت العلوم تتمايز عن بعضها، ويصبح لكل منها مدارسه ورجاله، بعد أن كانت العلوم ممتزجة بعضها فى بعض، فالرسول ﷺ كان يعلّم المسلمين أمور دينهم ودنياهم، ويفسر لهم ما أبهم عليهم من القرآن الكريم، وبعد وفاته أصبح أصحابه المعلمين للتابعين. ولم يكن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على درجة واحدة من العلم والفقه، بل كانوا متفاوتين فى ذلك، ولعل أفضل ما صور تباين الصحابة فى درجات العلم قول «مسروق» وهو أحد التابعين: «جالست أصحاب محمد ﷺ، فوجدتهم كالإخاذ ـ غدير الماء ـ فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص511.

نزل به أهل الأرض صدروهم» أى لرواهم جميعًا. وقد اشتهر عدد من كبار الصحابة بالعلم دون غيرهم كالخلفاء الراشدين، وأم المؤمنين «عائشة»، و«ابن عباس»، و«ابن مسعود» ، و«زيد بن ثابت الأنصارى»، و«أبى الدرداء» و«أبى هريرة»، و«معاذ بن جبل» رضوان الله عليهم جميعًا، غير أن هؤلاء الصحابة بقى بعضهم فى «المدينة المنورة» و«مكة المكرمة»، وتفرق بعضهم الآخر فى الأمصار المفتوحة، ولم يكن الواحد منهم يعلم علمًا واحدًا، وإنما يتكلم فى علوم كثيرة، وربما تحدث فى جلسة واحدة فى الفقه والحديث والتفسير والمغازى، والأدب شعره ونثره. وكانت المراكز الرئيسية للحركة العلمية عندئذ هى المساجد، ثم نشأت المكاتب لتحفيظ الصبيان القرآن الكريم، وتعليمهم مبادئ العلوم الإسلامية، ثم بدأت العلوم يمتاز بعضها عن بعض، وعرف رجال بالتفسير وآخرون بالحديث، واختص غيرهم بالفقه، ولا يعنى هذا أن المفسر أو الفقيه لا يعرف غير ما تخصص فيه من العلم واشتهر به، وإنما يوضع الرجل بين رجال العلم الذى برز فيه وأصبح حجة وإمامًا، فالإمام «مالك بن أنس» اشتهر بالفقه وصار صاحب مذهب فقهى معروف، لكنه من رجال الحديث الكبار، ويعرف التفسير؛ فلو لم يكن كذلك ما استطاع أن يضع القواعد الفقهية ويستنبط الأحكام من أدلتها التفصيلية، لأن الفقه يقوم على الاستنباط من القرآن والسنة.

ثم خطت الحركة العلمية خطوة كبيرة فى ذلك الوقت، ببدء حركة تدوين العلوم، ولم يكن المسلمون يفعلون ذلك من قبل، وإنما اعتمد الصحابة على الذاكرة فى الحفظ، والذين أثر عنهم أنهم دونوا بعض أحاديث الرسول ﷺ من الصحابة عدد قليل، كأبى هريرة و«عبدالله بن عمرو بن العاص»، الذى سمح له النبى ﷺ بتدوين أحاديثه، فدونها فى صحيفة كان يقول عنها: الصادقة، ويفخر أن ليس بين الرسول وبينه فيها أحد. ومنذ منتصف القرن الأول للهجرة تقريبًا بدأت حركة التدوين بداية متواضعة، فيروى أن «معاوية بن أبى سفيان» أمر بتدوين ما يرويه له فى مجلسه «عبيد بن شرية» من تواريخ ملوك «اليمن» القدامى

وغيرهم، وكان «معاوية» مولعًا بمعرفة تواريخ الأمم السابقة، وأن «عبدالعزيز بن مروان» والى «مصر» (65 ـ 85هـ الموافق 684 - 704م) أرسل إلى «كثير بن مرة الحضرمى» أن يكتب له ما سمع من أصحاب رسول الله ﷺ إلا أحاديث «أبى هريرة» فإنها موجودة عنده. ثم جاءت الخطوة الحاسمة فى التدوين، حين أمر «عمر بن عبدالعزيز» أثناء خلافته (99 ـ 101هـ الموافق 717-719م) «أبا بكر بن حزم» والى «المدنية» أن يدون أحاديث رسول الله ﷺ خوفًا من ضياع العلم وذهاب العلماء، ثم تتابعت حركة التدوين، فدون «ابن شهاب الزهرى» و«يزيد بن أبى حبيب المصرى» وغيرهما، وانتقل التدوين إلى العلوم الأخرى، فدون الفقه والتفسير وغيرهما. وشجع الخلفاء الأمويون الحركة العلمية بصفة عامة، وحركة التدوين بصفة خاصة، وبدأ فى عصرهم ظهور طبقة المعلمين، لأن الخلفاء أنفسهم كانوا مهتمين بتعليم أولادهم، وبخاصة العلوم الإسلامية، فاختاروا لهذه المهمة أصلح المعلمين الذين كانوا يسمون أيضًا بالمؤدبين، ولم تكن مهمتهم تعليمية فحسب، بل كانت تربوية أيضًا. ومن أشهر هؤلاء المعلمين: «دغفل بن حنظلة الشيبانى»، واختاره «معاوية بن أبى سفيان» لتعليم ابنه «يزيد» وتهذيبه، و«الضحاك ابن مزاحم» و«عامر بن شراحيل الشعبى»، و«ابن أبى المهاجر»، وهؤلاء الثلاثة من كبار التابعين، واختارهم «عبدالملك بن مروان» لتعليم أولاده وتأديبهم. وقد حذا أشراف الناس والأغنياء حذو الخلفاء فى تعليم أولادهم على أيدى مربين ومؤدبين، مما أعطى دفعة للحركة العلمية فى ذلك العصر. وعلى الرغم من ضياع المدونات والمؤلفات التى كتبت فى العصر الأموى، فإن معظم محتوياتها وصلت إلينا فى المؤلفات الكثيرة التى ألفت فى العصر العباسى، فمرويات «الطبرى» عن غزوات الرسول ﷺ، وسيرته أخذها ممن رواها عن كتاب المغازى والسيرة الأوائل الذين ضاعت مؤلفاتهم، كأبان بن عثمان بن عفان، و«عروة بن الزبير» وغيرهما[1].

1 ـ د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف ـ المرجع السابق ـ ص 98 ـ 100.

علم التفسير: هو العلم الذى يبحث فى بيان معانى آيات القرآن وأسلوبه وبيانه، إلى غير ذلك مما حفلت به كتب التفسير من مصطلحات هذا العلم؛ كالمجمل والمفصل، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول. ومع كون الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أقدر الناس على فهم القرآن الكريم. فإنهم اختلفوا فى فهمه على حسب اختلاف قدراتهم العقلية، واشتهر منهم بالتفسير وفهم القرآن الكريم: الخلفاء الراشدون، و«ابن مسعود»، و«ابن عباس»، و«أبى بن كعب»، و«زيد بن ثابت» وعن هؤلاء وغيرهم تلقى التابعون، وعلى رأسهم: «مجاهد بن جبير»، و«عطاء بن أبى رباح»، و«عكرمة مولى ابن عباس»، و«سعيد بن جبير»، و«سعيد بن المسيب»، و«الحسن البصرى»، و«محمد بن سيرين»، وبعض هؤلاء ألفوا كتبًا فى التفسير، لكنها ضاعت ولم تصل إلينا، كما ضاعت كتب التفسير التى ألفت بعد عصر التابعين، ومنها ما نسب إلى «سفيان بن عيينة» و«وكيع بن الجراح»، و«عبدالرزاق» وكثير منهم. والخلاصة أنه لم يصل إلينا كتاب فى التفسير يرجع إلى العصر الأموى، وأول كتاب فى التفسير وصل إلى أيدى الناس هو كتاب «معانى القرآن» للفراء المتوفى عام (207هـ الموافق 822م) ثم توالت بعده مطولات كتب التفسير، لعل من أشهرها تفسير الإمام «الطبرى» المتوفى سنة (310هـ الموافق 922م)، المعروف باسم «جامع البيان عن تأويل آى القرآن».

علم الحديث:

نرى كيف أخذت تبرز ظاهرة تحول الصراع السياسى الذى احتدم بين الأحزاب والمذاهب الإسلامية المختلفة، إلى صراع فكرى. إن أبرز ما بدأت تتضح به هذه الظاهرة فى مجرى ذلك الصراع السياسى ـ المذهبى، هو تبلور الانقسام فى مجال التشريع الإسلامى إلى مدرستين رئيسيتين: مدرسة الرأى، ومدرسة الحديث. فقد تبلور هذا الانقسام بالفعل وأخذ يتطور على نحو شبه مستقل عن المعركة السياسية منذ بدأ التشريع الإسلامى يواجه أوضاعا جديدة فى حياة العرب والمسلمين بعد انتشار حركة الفتح وامتدادها إلى أقطار تختلف أشكال علاقاتها

الاجتماعية عما ألفه الفاتحون العرب فى بيئاتهم داخل الجزيرة عند ظهور الشريعة الإسلامية. ذلك مضافا إلى ما استلزمته الفتوحات من قيام دولة إسلامية بتنظيمات جديدة. فإن هذا التغير وضع أمام التشريع الإسلامى مهمة استيعاب القضايا المستجدة وإنشاء الأحكام الجديدة المطابقة لها مع الاحتفاظ بروح قواعده العامة. وقد أظهرت هذه المواجهة التاريخية مدى ضرورة التطور التشريعى وفقا لتطور الحياة. وهنا كان من الطبيعى أن تختلف المواقف من تطور التشريع باختلاف المواقف من التطور نفسه بمفهومه الأعم. ودائما كان الناس، فى كل عصر وكل مجتمع، ينقسمون، وفقا لمواقعهم الاجتماعية، حيال مقتضيات التطور إلى محافظين ومجددين. على هذا الأساس بالذات حدث الانقسام بين المشتغلين بأمور التشريع إلى محافظين ومجددين، أولئك يرفضون من الأحكام ما لم يرد به نص من القرآن أو السنة، هؤلاء يستخدمون اجتهاد الرأى فى استنباط أحكام جديدة لم يرد بها نص من هذين المصدرين التشريعيين الرئيسين، لأن موضوعاتها لم تكن موجودة فى حياة وأهل البيئة العربية عند ظهور الشريعة الإسلامية فيها، أى أنهم استخدموا منطق العقل إلى جانب منطق القواعد العامة للشريعة. ومن هذا الانقسام نشأت مدرستان فى التشريع: سميت الأولى مدرسة «أهل الرأى» وسميت الثانية مدرسة «أهل الحديث». كان الخليفة الراشدى الثانى، عمر بن الخطاب، فى جانب أهل الرأى عمليا فى عهد خلافته، إذ اجتهد اجتهادات شخصية عدة كانت النواة الأولى لنظرية مدرسة الرأى التى بدأت تتميز منذ أواسط القرن الأول الهجرى بكونها تعتمد الاجتهاد فى التشريع أكثر من اعتمادها الحديث بعد أن شاع الشك بصحة رواية معظم الأحاديث عن النبى. فكان لهذا الموقف تجاه الحديث النبوى عند أهل الرأى رد فعل مناقض له عند جماعة المدرسة الأخرى المحافظين، إذ بالغ بعضهم لا فى إنكار العمل بالرأى والاجتهاد وحسب، بل بالغ كذلك حتى فى طريقة استعمال الحديث إلى حد أن بعضهم جعل الحديث مقدمًا على النصوص القرآنية. ولكن مدرسة الرأى وجدت أنصاراً كثيرين فى الأقطار البعيدة عن القطر الذى ظهر فيه الإسلام، وهو الحجاز. لقد تطور هذا الانقسام إلى

انقسام فى المواقف الفكرية من مختلف القضايا التى وضعتها حركة تطور المجتمع العربى - الإسلامى، فإذا بنا نرى كثيرا من أهل الرأى ينحازون إلى جانب الفكرة التى نشأت عن النظر فى مسألة القضاء والقدر، وهى فكرة حرية اختيار الإنسان فى أفعاله التى عُرف الآخذون بها، فى ما بعد، باسم «القدريين»، ونرى كثيراً من أتباع مدرسة الحديث ينحازون إلى جانب الفكرة المقابلة لها، وهى فكرة إنكار هذه الحرية وإثبات كون أفعال الإنسان كلها: خيرها وشرها، من الله، أى كون الإنسان خاضعًا فى أفعاله لقضاء الله وقدره، وقد عرف أهل هذه الفكرة، فى ما بعد أيضًا، باسم «الجبرية» أو «المجبرة». هكذا انتقل كل فريق من المحافظين والمتقدمين فى المعركة التشريعية، إلى الجبهة الملائمة لاتجاهه فى المعركة الفكرية الأخرى الجديدة[أ].

إن تطور المجتمع العربى - الإسلامى فى عصر صدر الإسلام، الذى يشمل عصر الراشدين وعصر الأمويين، قد اقتضى نشوء حركة ثقافية وضعت القواعد الضرورية الأساسية لتنظيم المعارف المرتبطة بمختلف الظاهرات الإسلامية من حيث لغة القرآن والحديث وأسلوبهما البيانى ومضامينهما التشريعية والتوجيهية والإيمانية، ومن حيث حركة الإسلام فى دعوته وفتوحاته ورجاله وعلاقة هذه الحركة بالحياة العربية قبل الإسلام: لغة، وأدبا، وتاريخًا، وعادات وتقاليد. وكان الإسلام هو المنطلق الأول المباشر لهذه الحركة الثقافية الواسعة، فلما وضعت القواعد الأساسية لتنظيم تلك المعارف بدافع من ارتباطها بالإسلام، أصبحت هذه القواعد نفسها منطلقا لنشوء نهضة ثقافية تنمو فى داخلها فروع من المعرفة يستقل بعضها عن بعض استقلالا نسبيا حتى كاد كل فرع منها يتخذ مجرى لنفسه غير المجرى الذى يتخذه الفرع الآخر، وإن كانت مجاريها جميعًا قد تتلاقى هنا، وقد تتوازى هناك، وقد تتقاطع هنالك، وقد تتشابك معا فى مجرى عام إلى مدى معين ثم تتفارق فى مجاريها الخاصة. وفى كل حال كان بعضها يأخذ من بعض

أ - حسين مروة - المرجع السابق ص616.

مادة واستشهاداً أو أسلوبًا أو تعليمًا، غير أن ذلك كله لم يكن يغير من الطابع الاستقلالي النسبي لكل فرع بذاته. ولكن هذا النوع من الاستقلال لم تبرز ملامحه بوضوح إلا في أواخر القرن الثاني الهجري. على هذا الوجه نشأت العلوم المسماه بـ «العلوم العربية»: اللغة، والبلاغة، والتاريخ، والسيرة، والتفسير، والحديث، وعلم الرجال (رواة الحديث النبوي)، ثم علوم الشعر (العروض والقوافي، وطبقات الشعراء والموازنة بينهم، ورواية الشعر وشروحه. .إلخ).

والملحوظ في تاريخ نشأة هذه العلوم وفي تاريخ تطورها أن ارتباطها الأول بالإسلام، من حيث هو دين وحسب، أخذ يتبلور شيئًا فشيئًا إلى ارتباط بالإسلام من حيث هو شكل نظام في الحياة العامة. وأن نشوء هذه العلوم كان حلقة مهمة في تسلسل حركة التطور الشاملة، إذ كان تعبيرا عن حاجات هذا التطور إلى شكل من أشكال تنظيم المعرفة يتجاوب مع حاجات التنظيم الاقتصادي والاجتماعي والإداري والمالي الجديد الذي بدأ يبرز في الدولة الأموية، بقدر ما يتجاوب أيضا مع حاجات اتساع الفتوح العربية وشمولها عدداً من البلدان التي كان لابد لها من الانسجام مع لغة الفاتحين ودلالاتها اللغوية والبلاغية والتشريعية. وقد وضع تطور المجتمع، وتطور حركة الثقافة، قضايا فكرية جديدة أمام الناس ولاسيما المشتغلين في مجالات المعرفة، بعضها يتخذ أشكالا دينية إيمانية، وبعضها يتخذ أشكالا نظرية تقترب من أشكال النظر الفلسفي. وكانت حركة التفاعل الاجتماعي والثقافي بين العرب والشعوب الأخرى والثقافات القديمة تغذي هذه القضايا الجديدة بعناصر فكرية جديدة وخبرات عملية جديدة، كما كان النظام الاجتماعي وشكله السياسي أيام الأمويين يعمق ارتباط هذه القضايا بأصولها الاجتماعية داخل هذا النظام. وكانت حركة نقل الثقافات القديمة إلى العربية تتقدم تدريجيًا ثم تدخل عنصرا جوهريًا في نسيج الحركة الثقافة العربية. وكان قد سبق هذه الحركة ما سمي تاريخيًا بـ «حركة التدوين» التي نقلت العملية الثقافية من مرحلة الحكاية والرواية والسماع إلى مرحلة الكتابة والتأليف والقراءة. وهذه الحركة ساعدت

عملية التفاعل الثقافى بين العرب والشعوب الأخرى، وعملية تلقيح العلوم العربية الفنية ذات الطابع الشكلى فى الغالب بعلوم جديدة ذات طابع مضمونى واتجاه عقلى تجريدى أو علمى تجريبى. أما مراكز هذا التحرك الثقافى والعلمى، فلم تكن ثابتة، بل متبدلة تنتقل بين المدن والعواصم وفقا لتبدلات مراكز الصراع السياسى نفسه. فقد كانت مكة والمدينة فى الحجاز، وكانت البصرة والكوفة فى العراق قبل نشوء بغداد، وكانت دمشق فى بلاد الشام، وكانت الفسطاط (القاهرة اليوم) فى مصر. ولكن دور البصرة والكوفة ظل الدور المركزى الثانى زمنا طويلا، حتى حين كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية، وحتى حين أصبحت بغداد عاصمة الخلافة العباسية ومصدر الحركة الثقافية كلها[1].

الحديث فى اللغة: مطلق الكلام، وفى الاصطلاح: هو كلام النبى ﷺ، الذى هو المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم. وقد حرص الصحابة على حفظ كل ما يسمعونه من النبى ﷺ، وكانوا يسألونه ليبين لهم ما غمض عليهم فهمه من القرآن، وهذا من وظائفه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 44] وقد أمرهم الله تعالى باتباع النبى فى كل ما يقول أو يفعل، لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: 7] وحذرهم من مخالفته ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63] وسار المسلمون على نهج الرسول ﷺ، وتلقفوا كل ما يتلفظ به، يحفظونه عن ظهر قلب ويعملون به، وكان الحديث هو أول العلوم التى اشتغلوا بها، لكنهم لم يدونوه فى حياة النبى ﷺ، ويروى أنه هو نفسه نهاهم عن ذلك، لئلا يختلط بالقرآن، فقال: «لاتكتبوا عنى، فمن كتب عنى غير القرآن فليمحه» [صحيح مسلم]، بالإضافة إلى أن الصحابة أنفسهم كانوا يتحرجون من الإكثار من رواية الحديث، تهيبًا وخوفًا من الخطأ والنسيان.

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص618.

. تدوين الحديث: ظلت أحاديث رسول الله ﷺ يتناقلها العلماء مشافهة جيلا بعد جيل، حتى نهاية القرن الأول الهجرى، وإن دون بعض الناس أحاديث رسول الله كعبد الله بن عمرو الذى أذن له النبى بكتابة الحديث فى حياته، وما رواه البخارى من أن «أبا شاه اليمنى»، التمس من رسول الله ﷺ أن يكتب شيئًا من خطبته عام الفتح، فقال: «اكتبوا لأبى شاه»، ثم أمر الخليفة «عمر بن عبدالعزيز» بتدوين الحديث خوفًا من ضياعه بموت العلماء الذين يحفظونه، فكتب إلى «أبى بكر بن حزم» وإلى «المدينة» وغيره من ولاة الأقاليم، وطلب منهم جمع أحاديث النبى ﷺ وتدوينها، ومن ثم بدأ المسلمون يقبلون على ذلك، وبمضى الزمن تضاعفت جهود العلماء فى هذا الميدان، ومن أشهر الرجال الذين اشتغلوا بجمع الحديث وروايته وتدوينه فى العصر الأموى: «محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى» المتوفى عام (124هـ الموافق 741م)، و«ابن جريج المكى» المتوفى عام (150هـ الموافق 767م)، و«ابن إسحاق» المتوفى عام (151هـ الموافق 768م)، و«معمر بن راشد اليمنى» المتوفى عام (153هـ الموافق 770م)، و«سفيان الثورى» المتوفى عام (161هـ الموافق 777م)، و«مالك بن أنس» المتوفى عام (179هـ الموافق 795م)، غير أن هؤلاء كلهم عدا «ابن شهاب الزهرى» عاشوا صدر حياتهم فى العصر الأموى وآخرها فى العصر العباسى، لكن الخطات الحاسمة فى تدوين الحديث، ووضع المنهج العلمى الدقيق لتوثيقه، وقبول روايته، وتصنيفه إلى صحيح وحسن وضعيف، ووضع علومه، وقواعد الجرح والتعديل - أى نقد رجال السند - جاء فى القرن الثالث الهجرى، بظهور أئمة الحديث كـ «البخارى» و«مسلم»، و«الترمذى»، و«النسائى»، و«أبى داود» وغيرهم، وذلك فى العصر العباسى.

علم الفقه:

وهو من أجلّ العلوم الإسلامية فهو يعرف المسلم كيف يعبد ربه، بما افترضه عليه من صيام وصلاة وزكاة وحج، وينظم معاملات المسلمين ويقننها فى البيع والشراء والتجارة والزراعة وسائر شئون حياتهم. ويعد الفقهاء من أكثر علماء الإسلام أثرًا فى حياة المسلمين، لقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»

[مسند الإمام أحمد]. وكان النبى ﷺ يعلم الصحابة ويفقههم فى أمور دينهم، ثم تولى بعده الصحابة تلك المهمة، وبخاصة بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، ثم اتسع نطاق علم الفقه نتيجة لزيادة المشكلات والقضايا التى تحتاج إلى فتاوى وحلول، وأصبح له علماء متخصصون، لهم قدرة على استنباط الأحكام الفقهية من الكتاب والسنة، وعلى الاجتهاد لإيجاد أحكام للقضايا التى لم يرد لها نص فى كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، لأن النصوص متناهية، فى حين أن المشكلات والقضايا غير متناهية ومتجددة، ولابد لها من حلول، فالشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ومعنى الصلاحية أن يكون لها حل للمشكلات وإجابة عن كل الأسئلة، وقد اجتهد الفقهاء فى هذا الميدان، واختلفت اجتهاداتهم طبقًا لفهمهم من الكتاب والسنة، ونتيجة لذلك ظهرت المذاهب الفقهية المعروفة، وتراكم تراث فقهى هائل، أخذ يتزايد بمرور الزمان.

وفى العصر الأموى ظهر إمامان جليلان من أئمة الفقة الكبار، هما «أبو حنيفة النعمان» و«مالك بن أنس». أما أولهما فقد ولد فى «الكوفة» عام (80هـ الموافق 699م) فى خلافة «عبد الملك بن مروان»، وتوفى عام (150هـ الموافق 767م) فى خلافة «أبى جعفر المنصور العباسى»، أى أنه عاش أغلب حياته فى العصر الأموى. وهو من أصل فارسى، تلقى الفقه على كثير من كبار العلماء، منهم «أبوجعفر الصادق»، و«إبراهيم النخعى»، و«عامر بن شراحبيل الشعبى»، و«الأعمش»، و«قتادة»، وغيرهم، واشتهر باجتهاده، وقوة حجته، وحسن منطقه، ودقته فى استنباط الأحكام، وهو صاحب المذهب الحنفى المعروف، الذى ألف فيه ونشره بين الناس تلاميذه العظام، من أبرزهم «أبو يوسف» المتوفى عام (182هـ الموافق 798م) قاضى القضاة فى عهد الخليفة «هارون الرشيد»، و«محمد بن الحسن الشيبانى» المتوفى عام (189هـ الموافق 804م). وقد انتشر المذهب الحنفى فى «مصر» و«العراق» وأواسط آسيا وغيرها. وأما الآخر فقد ولد فى «المدينة المنورة» عام (93هـ الموافق 711م) فى عهد «الوليد بن عبدالملك»، وتوفى عام

(179هـ الموافق 795م) فى عهد «هارون الرشيد»، أى أنه عاش نحو نصف عمره فى العصر الأموى، وأكثر من نصفه الآخر فى العصر العباسى. نشأ «مالك بن أنس» وتفقه وروى الحديث فى «المدينة» وترك كتابًا عظيمًا هو «الموطأ»، الذى يجمع بين الفقه والحديث، والإمام «مالك» صاحب المذهب المالكى المعروف الذى انتشر فى «مصر» و «المغرب العربى». وقد عاصر هذين الإمامين الجليلين عدد آخر لايقل عنهما علمًا وفقها، مثل: «الأوزاعى» إمام أهل الشام المتوفى عام (157هـ الموافق 773م)، و«الليث بن سعد» إمام أهل «مصر»، المتوفى عام (175هـ الموافق 791م)، غير أن مذهب هذين الإمامين الجليلين اندثر بعدهما؛ لأنهما لم يجدوا تلاميذ يواصلون نشر مذهبهما[1].

علم التاريخ:

قامت الدراسات التاريخية بادئ ذى بدء على دراسة سيرة الرسول وأخبار الغزوات ومن أسهم فيها من الصحابة، وأخبار هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة ثم إلى يثرب، ولذلك كانت مكة والمدينة المركز الرئيسى لنشاط هذه الحركة التاريخية. وكان المؤرخون الأُوَل من المسلمين يعتمدون على الروايات الشفوية شأنهم فى ذلك شأن رواة الحديث، فكان كل جيل منهم يستمد أخباره من الجيل السابق، وكان الخبر التاريخى يستمد من السماع عند الحفاظ الموثوق بهم وهو ما يعرف بالأسانيد، التى اعتبرت وقتئذ وسيلة للإجماع على صحة الخبر، وهى نفس الوسية التى اتبعها المحدثون فى روايتهم للحديث، مما يدل على أن التاريخ العربى عند نشأته سلك نفس الطريقة التى سلكها الحديث، فكان الخبر التاريخى على هذا النحو يتألف من عنصرين: رواة الخبر على التتابع وهو ما يعرف بالسند أو الإسناد ثم نص الخبر ويسمى المتن. وأقدم الكتب التاريخية التى تجمع بين الحديث والتاريخ كتب المغازى والسيرة، فقد دفع اهتمام المسلمين بأقوال الرسول وأفعاله للاهتداء بها والاعتماد عليها فى التشريع الإسلامى، وفى النظم الإدارية، الكتّاب إلى التصنيف فى سيرة الرسول وفى مغازيه ومغازى الصحابة، وكان من الطبيعى

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ـ ص105.

أن تتألق هذه الحركة فى المدينة باعتبارها دار الرسول ودار السنة التى عاش فيها الصحابة وسمعوا أحاديث الرسول، وورووها بدورهم إلى التابعين. وينقسم مؤرخو السيرة والمغازى فى مدرسة المدينة ومكة إلى ثلاث طبقات، فبرز فى الطبقة الأولى منهم: أبان بن عثمان بن عفان (ت105هـ الموافق 723م) وعروة بن الزبير (ت92هـ الموافق 710م) الذى مكنه نسبه من أن يروى الكثير من الأخبار والأحاديث عن النبى ﷺ، فروى منها عن أبيه الزبير، وعن أمه أسماء وعن خالته عائشة أم المؤمنين، وعن عروة أخذ ابنه هشام وابن شهاب الزهرى. ومن رجال الطبقة الثانية عبدالله بن أبى بكر بن حزم الأنصارى (ت135هـ الموافق 752م) وعاصم بن عمرو بن قتادة الأنصارى (ت120هـ الموافق 737م) الذى عهد إليه عمر بن عبدالعزيز بالجلوس فى جامع دمشق ليحدث الناس عن مغازى رسول الله وعن مناقب الصحابة، وعليه اعتمد كل من المؤرخين ابن اسحق والواقدى، وأخيراً ابن شهاب الزهرى (ت124هـ الموافق 752م) أعظم مؤرخى المغازى والسيرة الذى يرجع إليه الفضل فى توضيح السيرة وفى تأسيس المدرسة التاريخية فى المدينة. ومن رجال الطبقة الثالثة محمد بن إسحاق (ت52هـ الموافق 769م) أشهر تلاميذ الزهرى وأصله فارسى، وإليه تنسب أقدم كتب السيرة التى وصلت إلينا، ومحمد ابن عمر الواقدى مولى بنى هاشم (ت 207هـ الموافق 822م) الذى فاق ابن اسحق فى دقته فى المادة وفى الأسلوب مع زيادة فى العناية بالتاريخ، وفى تحقيق تواريخ الأحداث وتوضيح الإطار الجغرافى المتصل بالمواقع. وظهرت فى العصر الأموى أيضًا مدرسة أخرى للتاريخ فى البصرة والكوفة، تميزت بتناول الموضوعات الخاصة بالمعارك والفتوح الإسلامية ودراسة الأنساب،نتيجة طبيعية للصراع الحزبى وللإقليمية وللقبلية، وفى نفس الوقت وجد فى هذه المدرسة كتاب للسيرة والمغازى، نذكر منهم معمر بن راشد اليمانى البصرى (150هـ الموافق 767م). ومن أشهر كتاب التاريخ والأخباريين من أصحاب هذه المدرسة، أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدى (ت 157هـ الموافق 773م)، الذى عنى بكتابة الأحداث التاريخية العامة فى الإسلام، كالردة والفتوح ومواقع الجمل وصفين، ومقتل الإمام الحسين عليه السلام، وعن الأزارقة الخوارج، وذلك بجانب اهتمامه

بالأنساب، ومنهم أيضا سيف بن عمر الكوفى الأسدى (ت180هـ الموافق 796م) الذى اتسمت أخباره فى الفتوحات وخاصة ما كان منها متعلقًا بالعراق بميول واضحة المعالم لقبيلته وتعصب ظاهر لها، ومنهم عوانة بن الحكم الكوفى (ت147هـ الموافق 764م) وكان على دراية كبيرة بالأخبار والفتوح مع علم بالشعر والأنساب. ونلاحظ أن اهتمام العرب بأنسابهم فى الجاهلية وضح بوجه خاص عقب الفتوحات الأولى وذلك عندما أنشأ عمر بن الخطاب الديوان وبدأ بالعباس عم النبى ثم بآل البيت ثم ببنى هاشم ثم بمن بعدهم طبقة بعد طبقة مراعيًا فى ذلك الاعتبار الدينى والقبلى فى آن واحد. وزاد اهتمام الأمويين بالأنساب، ووضعت لهذا الغرض سجلات بها، واشتدت العناية بالأنساب أيضًا منذ أواخر العصر الأموى عندما قامت الخصومات القبلية ونشأت الشعوبية، وأخذ الشعوبيون من الموالى يفتشون عن مثالب العرب فى الوقت الذى كانت القبائل تبحث عن مفاخرها، ومن أشهر نسّابة العراق محمد بن السائب الكلبى (ت 146هـ الموافق 763م) وكان من علماء الكوفة الذين اهتموا بدراسة الأنساب. أما بالنسبة للتاريخ العربى القديم الذى يتناول أخبار العرب فى الجاهلية الأولى أو الجاهلية القريبة من الإسلام فقد تم تدوينه فى عصر الدولة الأموية عندما ثبتت دعائم الدولة العربية، وبدأ العرب يعنون بأخبارهم القديمة، فشهد القرنان الأول والثانى للهجرة اهتماما خاصا بدراسة أخبار العرب القديمة.

ومن المؤرخين الذين اشتغلوا برواية أخبار العرب قبل الإسلام[1]:

1 ـ عبيد بن شرية الجرهمى، وكان قصاصًا إخباريًا برز فى بلاط معاوية بن أبى سفيان، وذكروا أنه ألف لمعاوية «كتاب الملوك وأخبار الماضين» الذى طبع فى ذيل كتاب التيجان فى ملوك حمير، وكتاب ابن شرية يتضمن كثيراً من أخبار العرب فى الجاهلية، كما يشتمل على كثير من الأشعار التى وضعت على لسان عاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة، ويغلب على هذه الأخبار الطابع القصصى المتأثر بالإسرائيليات. وعاش عبيد بن شرية إلى أيام عبدالملك بن مروان.

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ـ ص698.

2 ـ وهب بن منبة (ت110هـ الموافق 728م)، وكـان يمنيًا من أهل ذمـار، ومن الكتب المنسوبة إليه «كتـاب الملوك المتوّجة من حمير وأخبـارهم وقصصهم». ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبى.

علم الكلام:

لا ينحصــر الفكر الفلسفى فى المـصادر الخارجـية: اليونانيـة، والفارسـية، والهندية، والمسيحية، بل هناك أصـول وجذور اجتماعية وسياسيـة ودينية إسلامية فى داخل حركـة المجتمع العـربى ـ الإسلامى كان لها تأثيـر داخلى، مباشـر حينا وغير مباشر حينا، فى أساس هذا التحرر الفكرى فى العقائد الإيمانية. ولكن دون أن يعنى ذلك إنكار الأثر الكبير لتلك المصادر الخارجية المشار إليها، بل الذى نعنيه ـ بالتحديد ـ هو أن تأثيـر المصادر الخارجية قـد خضع لعملية انصهـار كانت تجرى ضمن حـركة الصراع الداخلى فى ذلك المجـتمع، سواء اتخـذ هذا الصراع شكلا دينيا مذهبيا، أم شكلا اجـتماعيا وسياسيا. فـقد كان ذلك كله يتحول فى النصف الثانى من القرن الهجـرى الأول إلى أنواع من الصراع الفكرى الذى يخيل لمن يراه رؤية سطحية وجانبية أنه قائم بصورة مستقلة ومنعزلة عما كان يجرى بالفعل داخل ذلك المجتمـع وفقا لقوانين تطوره التـاريخى الخاص يومئذ. هذا التـحول الفكرى كانت تنصب فيه مختلف مجارى التحول هذا تقريبا، هى قضية الموقف من القضاء والقدر وعـلاقته بأفعـال الإنسان وبمسؤوليـته عن هذه الأفعال. وقـد اتخذت هذه القضية صيغة تاريخية ذات دلالة ملحوظة، إذ سـميت بقضية الجبر والاختيار. فإن الصراع فيهـا كان يدور على هذا السؤال: هل الإنسان مجبر على أفعـاله أم مختار فيها؟. . أو هل للإنســان حرية الإرادة والاختيار فى ما يفـعل من خير أو شر، أم هو خاضع فى كل ذلك لإرادة الله المطلقـة، أى أن القضاء والقدر: خـيره وشره، من الله؟. لقد وصف البـاحثون المتـأخرون هذه القضـية بأنها الـتى حركت الفكر العربى كله فى ذلك العصر. وهو وصف ينطبق على الواقع التاريخى انطباقا كليا، لأنها منذ ظهرت على الصـعيد الفكرى فى العهود الأولى من حـياة الدولة الأموية

في المشرق، أصبحت هي القطب المركزى لكل انقسام فكرى، أو مذهبى دينى، أو اجتماعى وسياسى[1].

ظهرت فى العصر الأموى بعض حركات فلسفية دينية كالجبرية والقدرية والمعتزلة. فالجبرية يقولون بأن إرادة الله مطلقة وقدرته تضع حداً لإرادة الإنسان، والإنسان على هذا النحو مجبر لا اختيار له ولا قدرة، وأن الله يخلق فى الإنسان الأعمال والأفعال ولا قدرة للإنسان على تبديلها. وأول من قال بالجبرية جهم بن صفوان فسمى أتباعه بالجهمية. وقد نفى الجبرية صفات الله لأن صفات الله بشرية والبشر خلق. أما القدرية فقد جاءت حركتهم كرد فعل لحركة الجبرية، ومذهب القدرية هو أن الإنسان يملك القدرة والإرادة عن تصرفاته، ودعمت القدرية آراءها بآيات من القرآن الكريم، وكانت القدرية تعارض بنى أمية لأنها تعتبر أن للفرد حرية الاختيار. أما المعتزلة فهى أعظم مدارس الفكر والكلام فى الإسلام، وظهرت في بداية القرن الثانى الهجرى فى البصرة، ويرجع أصل هذه التسمية إلى واصل بن عطاء الذى اعتزل حلقة أستاذه الحسن البصرى بمسجد البصرة، لاختلافه معه فى الرأى. وتتلخص آراء المعتزلة فى القول بعدم تكفير مرتكب الكبائر واعتباره فى منزلة بين المنزلتين، أى بين المؤمن والكافر. وقالوا بالقدرة أى أن الله لا يخلق أفعال الناس وإنما هم يخلقون أفعالهم، وأنهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون، على عكس ما قال به خصومهم من الفقهاء الذين تغالوا فى سلب الإنسان قدرته وحريته فى التصرف. وقال المعتزلة بسلطان العقل وقدرته على معرفة القبيح من الحسن، ودعاهم إلى القول بهذا المبدأ ما رأوه من جمود بعض الفقهاء ووقوفهم عند النصوص. كذلك قال المعتزلة بالتوحيد فنفوا أن تكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته، بل إن الله عالم وقادر، وحى وسميع وبصير بذاته، وربما دعاهم إلى هذا القول ما شاع فى عصرهم من ذهاب قوم إلى تجسيم الله تعالى وإثبات صفات له كصفات

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق 619.

المخلوقات، وقد استند المعتزلة فى آرائهم على قوله تعالى: **«ليس كمثله شيء»** وقوله تعالى: **«سبحان ربك رب العزة عما يصفون»** وقد اضطهد خلفاء بنى أمية المعتزلة، ولكن بعض الخلفاء ذهبوا مذهبهم مثل يزيد الناقص بن الوليد، ومروان ابن الحكم الذى لقب بالجعدى لأخذه القول بالقدر على الجعد بن درهم المعتزلى[1].

كانت هذه مسألة فكرية ترتبط بمسؤولية فعل الإنسان، فى ما بين النصف الأول والنصف الثانى للقرن الهجرى الأول، استنادا إلى مصادر ومراجع ثقة فى تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية. ولكن الكلام على المسألة على صعيد دينى محض كان يتردد قبل ذلك الزمن، وكان الناس عامة يسألون عنها الخلفاء الراشدين وبعض الصحابة مستفسرين عن مدى حكم القضاء والقدر فى أفعال الإنسان وتصرفاته. إنها لم تنشأ بصورة ذاتية من قبل أولئك المفكرين الثلاثة الذين اشتهروا بالدفاع عن حرية اختيار الإنسان فى أفعاله وبنفيهم تحكم القضاء والقدر فى إرادته، وقتلوا قتلا سياسيًا فى سبيل فكرتهم هذه، وهم: معبد الجهنى، وغيلان الدمشقى، وعمرو المقصوص. وإنما المسألة كانت قائمة بصورة موضوعية يتحدث بها الناس، ويسألون عنها وتخامرهم الحيرة فى تفسيرها وحلها حلا يستجيب لعقولهم ولمشاعرهم الإيمانية معا. ولكن فضل هؤلاء الدعاة الثلاثة لفكرة حرية الإرادة أنهم عبروا عن هذه المشكلة القائمة موضوعيًا بأول صيغة فكرية لها مع أستاذهم الحسن البصرى، وأنهم أخذوا الجانب الإيجابى منها، وأنهم كانوا من الجرأة والإخلاص لفكرتهم على درجة عالية بلغت درجة الاستشهاد فى سبيلها. وأن مسألة القدر هذه لم تظهر فى المجتمع الأموى بوصفها ظاهرة فكرية وحسب، منعزلة عن الظاهرات الاجتماعية والسياسية الصارخة فى ذلك المجتمع، وإنها ـ لذلك ـ لم تظهر بتأثير عوامل فكرية أو فلسفية أو دينية خارجية واردة من ثقافات اليونان أو الفرس أو اللاهوت المسيحى، وإنما هذه العوامل ساعدت فى بلورة الصياغات الفكرية الأولى للمسألة.

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ـ ص700.

رأينا خلف هذه العلاقة بين الحركة «القدرية» من حيث هى ظاهرة فكرية وبين الواقع الاجتماعى والسياسى فى زمنها، منشأ «أيديولوجيا» لهذه الحركة فى هذا الصدد، ظاهرة قرآنية تستدعى الانتباه، وهى أن معظم آيات القرآن المكية هى التى نجد فيها القول بحرية إرادة الإنسان فى أفعالها، وأن الآيات التى نجد فيها القول بالجبر هى الآيات الصادرة معظمها فى المدينة بعد حادث الهجرة النبوية. وقد حاولنا أن نستخلص دلالة هذه الظاهرة القرآنية. رأينا «دى بور» (De Boer) يعللها فى كتابه «تاريخ الفلسفة فى الإسلام» بتقلب الظروف التى عاش فيها النبى، وباختلاف أحواله النفسية، ورأينا مثل هذا التعليل وارداً عند المستشرق هـ. غريم (H. Gremme) فى كتابه عن حياة محمد وتعاليمه. ولكننا رأينا فى ذلك تعليلا ذاتيا لا يأخذ بالحسبان الظروف الواقعية الموضوعية فى نشوء الظاهرات الاجتماعية التاريخية. غير أن باحثا عربيا إسلاميًا معاصراً، هو عبدالهادى أبو ريدة، يرجع هذه الظاهرة القرآنية، فى تعليقاته على كتاب «دى بور» السابق الذكر، إلى كون الاتجاه العام فى الآيات المكية كان يرمى إلى هدم الروح الجبرية الاستسلامية التى سرت إلى العرب عن جاهليتهم، وتدل عليها أشعارهم وآيات القرآن نفسها. ولكن هذا التعليل، بالرغم من منهجيته الواقعية الصحيحة، لم يتعرض لتفسير الروح الجبرية الظاهرة فى الآيات «المدنية» الصادرة بعد هجرة الإسلام إلى المدينة[1].

إن العودة إلى الروح الجبرية بعد الهجرة كانت تعبيرا عن حاجة الإسلام فى مرحلة الهجرة إلى وضع «أيديولوجيته» العملية، فى مجال العقيدة والتشريع، فى الوقت الذى أصبح فيه متمكنا من وجود واستقراره، وأصبح مهتما بدفع حركته إلى علاقات جديدة تطبيقية تنظر إلى الآتى، لا إلى الماضى. ولذا رأينا النبى فى عهد الهجرة، ورأينا الخلفاء الراشدين من بعده، يعلنون رفضهم لكل جدل فى أمور العقيدة، وفى مسألة القدر بخاصة، ويدعون إلى التسليم الإيمانى المطلق

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص622.

بنصوص القرآن جملة وتفصيلا. وقد وردت هذه الدعوة فى القرآن الكريم نفسه. ولكن ظروف الصراع الاجتماعى والسياسى الذى اتخذ اشكالا مذهبية دينية فى أواخر عهد الراشدين واحتدم احتداما شديداً منذ قيام الدولة الأموية، قد فجرت حركة عارمة من الجدل فى كل أمر كان باب الجدل فيه مغلقا من قبل. وكانت مشكلة القدر فى طليعة الأمور التى تفجر الجدل حولها بقوة. ذلك لأن الحكم الأموى استغل الروح الجبرية الظاهرة فى بعض نصوص القرآن استغلالا مثيراً، ليدعم بها قوته وسلطانه على الفئات الاجتماعية المستضعفة التى ظهر التفاوت الطبقى كبيراً جداً بينها وبين الطبقة الحاكمة وأعوانها من الإقطاعيين وكبار التجار وذوى الامتيازات الضخمة من قادة جيوش الفتح المرابطين فى هذا القطر وذاك. فقد كان الحكام الأمويون، فى هذه الظروف، محتاجين أن يرسخوا فى نفوس الناس وأذهانهم فكرة الجبر، ليضفوا على حكمهم صفة القضاء والقدر من الله، أى صفة التأييد المفروض على المسلمين بقضاء الله وقدره. لقد كان طبيعيا أن اشتداد الظلم الاجتماعى حرك التساؤلات القديمة من جديد فى مسألة القدر، ولكنها هذه المرة كانت تساؤلات ذات مضمون احتجاجى أكثر من كونها ذات مضمون يحمل طابع الحيرة والقلق التأمليين كما كان الأمر فى زمن الخلفاء الراشدين. من هنا لم يكن مصادفة أن الحركة «القدرية» المناهضة لفكرة الجبر ظهرت فى بيئة البصرة ذاتها حيث تعيش جماعات غفيرة من شغيلة الأرض وصغار الحرفيين، وحيث يستغل هذه الجماعات الغفيرة أسوأ استغلال جماعات من كبار الإقطاعيين وكبار التجار ورؤساء القبائل النازحين من الجزيرة مع جيوش الفتح الاولى. مضافًا إلى ذلك أن الحركة الثقافية الناشطة فى البصرة يومئذ كان زمامها بأيدى مفكرين ينحدرون من فئة الموالى، وهى الفئة التى كان يعدها الأمويون فى المرتبة الدنيا من المجتمع الإسلامى، بل يعدونها فى مرتبة العبيد. والحسن البصرى الذى ظهرت الحركة القدرية بشكلها الفكرى فى حلقته الدراسية

بمساجد البصرة، هو نفسه كان معدوداً من الموالى. أما سبب تسمية أصحاب فكرة الاختيار بـ«القدريين» بالرغم من أن هذا الاسم يعنى عكس الفكرة، فهو سبب يرجع إلى قصد من خصوم الفكرة ان يشوهوا مضمون الحركة التى قامت عليها، وأن يطبقوا على أصحابها الحديث المنسوب إلى النبى القائل: «القدرية مجوس هذه الأمة».

كان لابد لنا ـ وقد درسنا حركة «القدرية» ـ أن ندرس الحركة المقابلة لها التى حملت فكرة الجبر وبشرت بها ودافعت عنها. وقد غلب على أصحاب الفكرة الجبرية، تاريخيًا، اسم «الجهمية» نسبة إلى جهم بن صفوان الذى تزعم الحركة عند بداية ظهورها فى بلدة ترمذ من بلاد فارس. كان للحركة الجبرية أو «الجهمية» فى تاريخ تطور الفكر العربى نحو النظر العقلى والفلسفى أثر ملحوظ لا يقل عن الأثر الذى أحدثته الحركة «القدرية»، بالرغم مما تنطوى عليه فكرة الجبر من مضمون «أيديولوجى» سلبى. فإن الجبريين قد اعتمدوا النظر العقلى أيضا «كالقدريين» فى شرح فكرتهم والدفاع عنها، لأنهم جميعًا يرتبطون ببنية فكرية واحدة، إسلامية. لذلك صح لنا القول أنهم شاركوا مشاركة فعالة فى وضع الأسس الأولى للحركة العقلية فى مجرى تاريخ تطور الفكر العربى نحو الفلسفة.

تتحدد نظرية جهم بن صفوان فى الجبر، كما نقلها عنه الشهرستانى، فى أن الإنسان لايقدر على شىء، ولايوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبر فى أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله الأفعال فيه (فى الإنسان) على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات، وتنسب إليه (إلى الإنسان) الأفعال مجازا (لاحقيقة) كما تنسب إلى الجمادات. ولا ينكر جهم أن الإنسان يتميز من الجمادات بما ينسب إليه من إرادة واختيار، ولكنه يقول إنه «لا فعل لأحد فى الحقيقة إلا لله وحده، وإنه هو الفاعل». وبهذا تصبح ميزة الإرادة والاختيار فى الإنسان معطلة، لا شأن لها ولا أثر، فإرادته إذن آلية ليس فيها معنى الإرادة حقيقة. ولكن، بالرغم مما نرى فى نظرية جهم هذه من جبرية سلبية مطلقة، نرى

فى مواقفه فى المسائل الأخرى انتصاراً للعقل فى عصره. إذ يستخدم فى تلك المسائل طريقة التفكير الفلسفى، ويشق فى معالجتها الطريق العقلى أمام من يأتى بعده من المفكرين العقليين كالمعتزلة والمتكلمين. هذه أول المسائل التى قلنا إن جهما انتصر فيها للعقل. فهو هنا يقدم رأى العقل على ظاهر نصوص القرآن، إذ أنكر أن تكون لله صفات غير ذاته، خلافا لظواهر تلك النصوص، منطلقًا من مبدأ عدم تشبيه الله بالإنسان الذى تتعدد فيه الصفات. ولكنه يلجأ إلى التفسير العقلى وإلى التعامل مع المفاهيم، فى مقابل «المشبهة» الذين لم يستطيعوا تصور الألوهية على صعيد المفاهيم والمعانى، فجعلوها صورة ملموسة مجسدة. وجريا منه فى سياق نفى الصفات قال بكون القرآن مخلوقًا، وليس هو كلامًا إلهيا أزليا. إذن، لقد سبق جهم المعتزلة فى مسألتى الصفات وخلق القرآن. وفى هذه المسألة أيضا أحدث جهم رأيا جديداً جريئا، إذ أنكر خلود العالم الأخروى، على خلاف ما تقول ظواهر نصوص القرآن. فهو يقول بأن حركات أهل الخلدين (الجنة والنار) تنقطع، وأن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما. بانيا رأيه هذا على نظرة فلسفية تقول بعدم تصور الحركات غير متناهية أزلا وأبدا، أى أن الحركة عنده غير أزلية ولا أبدية. وتطبيقًا لنظرته فى الحركة على العالم الأخروى الذى يقيسه ـ كما نرى ـ على العالم المادى، يلجأ إلى القول بأن الله لم يخلق الجنة بعد، وأن جنة آدم التى ذكرتها الكتب الدينية قد خلقها الله ثم أفناها. وهذه مسألة أخرى يسبق فيها جهم من يأتى بعده من المعتزلة والمتكلمين ونظرته هنا أكثر ظهوراً فى اعتماده العقل دليلا لاكتشاف ما فى الأشياء والأفعال ومختلف ظاهرات الوجود والمعانى من حسن أو قبح، ومن صلاح أو فساد. وبناء على قدرة العقل أن يدرك حسن الأشياء وقبحها بذاته قبل أن تأتى الشرائع الإلهية، قال جهم بـ «إيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع». أى أن العقل يوجب على الناس معرفة الله قبل ورود الشريعة بذلك. وبهذا القول تكون «نظرية» المعرفة عند جهم غير مرتبطة بالمصدر الإلهى، بل بالعقل قبل كل شىء. وفى هذا جانب تقدمى جدير بالعناية. فضلا عن الجانب التقدمى الآخر الكامن فى قوله بوجود الحسن والقبح فى الأشياء

موضوعيا، أى وجـود خصائصها الجوهرية وجوداً موضـوعيًا لايتوقف على وجود الشريعة الإلهية[1].

ينفى جهم هنا إمكان رؤية الله فى العـالم الأخروى، خلافا لرأى السلـفيين الذين يستندون إلى نصوص قرآنية، كما يستندون إلى معادلة عقلية منطقية تقول إن كل موجود تمكن رؤيتـه، وكل ما لاتمكن رؤيته لا يثبت وجـوده، وما دام قد ثبت وجود الله فـقد ثبت إمكان رؤيتـه. قلنا إن هذه معادلة عـقلية، لأنهـا تقوم على مقدمـات عقلية، وهى ذات شكل منطقى على طريقـة المنطق الصورى الأرسطى. ويبدو لنا من هذه الطريقة فى الاستـدلال على الرأى أن طريقة النظر العقلى المنظم تنظيـمًا منطقيًـا قد بدأت منذ ذاك تفـرض نفسـها حـتى على جمـاعة السلفـيين المحافظين (نذكر هذه المـلاحظة هنا على سبيل الاستطراد لما لهـا من دلالة تاريخية مهمة فى هذا المجال). لقد خالف جهم رأى السلفيين هذا، ونفى إمكان رؤية الله إطلاقا، لا فى العـالم الدنيوى ولا العالـم الأخروى، وفقا لرأيـه السابق فى نفى الصفات عـن الله ونفى تشبيهـه بالمخلوقات. ورد على معادلة السلفـيين ـ ومنهم الأشاعـرة ـ بأن مقـدماتهـا لاتنطبق على الله، لأن الله «ليس شـيئًا»، فـلا يدخل بالمقدمـة القائلة «إن كل مـوجود تمكن رؤيتـه». فالموجـود «شىء». ورغم الاتجاه الميتافيزيقى فى رأى جهنم نجد فيـه النظرة «التجريدية» إلى حقيقة الله، وهى شكل أعلى فى سلم الوعى النظرى أى أنه هنا أقـرب إلى النظر الفلسفى من السلفـيين. وهنا نقول أيضا إن جهما سبق المعـتزلة والأشاعرة فى بحث هذه المسألة على نحو ما بحـثها المعـتزلة بعده. فهـو ينفى أن علم الله أزلى، خلافـا لما تقول به ظواهر النصوص القرآنية، بل هو علم حادث. وبما أنه لا يستطيع أن ينفى العلم عن الله، فقـد «فلسف» المشكلة حتى انتهى إلى نتـيجة تقـول: إن علم الله ليس له محل، وليس علما كـليا شامـلا، وإنما هو علم بالجزئيات، فـهو مـتعدد إذن بقـدر تعدد الجزئيات. وبهـذه النتيجة يكون جـهم قد وضع أساسا للخـلاف الذى حدث بعد

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص625.

ذلك عند المتكلمين من المعتزلة والأشاعـرة فى مسألة: هل يعلم الله الكليات فقط أم الجزئيـات فقط، أم كليهـما؟. والمهم هنا أن نرى الطريقة التى وضع بهـا جهم هذه المشكلة، والطريقة التى حاول بهـا حل المشكلة. وقد تبين لنا عند بحث رأيه أن هذا المفكر الجـبرى قـد اعتـمد طـريقة المنهج العـقلى على نحـو من التفكيـر الفلسفى، ولاسـيما كونه اسـتخدم «المفاهيم» و«المقـولات» المنطقية والفلسفـية فى معالجته الموضوع. جـاء جهم بصيغة جديدة لمفهوم الإيمان، بعد صيـغتين سابقتين متواليتين: أولاهما، الصيغة السلفية القائلة بأن الإيمان هو الاعتقاد بالله ورسله ثم نطق اللسان بـهذا الاعتـقاد، والثانيـة صيغـة الخوارج التى أضـافت إلى عنصرى الاعتقاد والنطق: عنصر العـمل بمستلزمات الاعتقاد. أما صيغـة جهم الجديدة فقد اعتبرناها تطويراً لمفهوم الإيمان بمعناه الإسـلامى. إذ اقتصر فيه على عنصر واحد، هو: المعرفة. يقصـد معرفة الله ورسله وشرائعه. وما عـدا ذلك ليس من مقومات الإيمان فى رأيه. ومـعنى هذا أنه: «من أوتى المعرفـة ثم جحدها بلسـانه لم يكفر بجحده، لأن العلم والمعرفـة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن» (الشـهرستانى: الملل والنحل، جـ1/ ص 80). ثم مـعنى هذا ـ عند جهم ـ أن الإيمـان لايتجـزأ إلى اعتقاد، وقول، وعمل، وأن ليس أحد أفـضل من أحد فى إيمانه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد، إذ المعارف لا تتفـاضل (عن الشهرستانى: الملل جـ1 ص80). فإذا كان هذا هو الإيمان، فما مفهوم الكفر عنده إذن؟. هو يقول: «إن الكفر خـصلة واحدة، وبالقلب يكون، وهو الجـهل بالله» (عن الأشعـرى أيضا: مقالات جـ1 ص128). فإذا كانت المعرفة هى الإيمـان، فأى نوع من المعرفة يعنى جهم؟ نحن نذكر أنه يعتمد المعرفة العـقلية دليلا أول إلى الله قبل الشرع، فالمعرفة التى يعنيها فى مفهوم الإيمان إذن هى المعرفة العقلية. ومن هنا نرى أننا نواجه عند جهم طريقة جـديدة فى التفكير تضع الفكر العـربى ـ الإسلامى، فى تلك المرحلة من تاريخ تطوره، أمام بداءة المنعطف الذى سيـؤدى به إلى منهج المتكلمين العقلى الذى كان تمهيداً لظهور المرحلة الفلسفية[1].

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص627.

الثقافة العربية فى المغرب العربى:

وقد شهد نفس هذا العصر تطوراً مماثلا صحب انتشار الإسلام وهو انتشار اللغة العربية، ويخيل للمتأمل أن اللغة العربية كانت أوسع انتشاراً فى بلاد المغرب العربى منها فى مصر، لأن العربية وجدت فى مصر لغات عريقة ذات أصالة وحضارة مثل اللغة اليونانية أو الإغريقية بتقاليدها العريقة وماضيها المشرق، وهى لم تكن لغة الثقافة وحدها بل اتخذت تعبيراً دينيا فأصبحت لغة الكنيسة الأرثوذكسية والتمسك بها يحمل فى مفهوم المصرى معنى دينيا إلى جانب لغة الوثائق والمصطلح الديوانى والثقافة الإغريقية وهى لغة المحتل المسيحى البيزنطى لمصر منذ فترة طويلة. أما فى بلاد المغرب العربى فإن الإغريقية أو اللاتينية لم تكن واسعة الانتشار، بل كانت لغة الحكومة ولغة سكان المناطق الساحلية، أما غالبية عرب العاربة من البربر فكانت أبعد من أن تتأثر بهذه اللغة ما دامت قد بقيت بعيدة عن التأثر بالحضارة الرومانية، لأنهم كانوا لا يحبون ثقافة المستعمر المسيحى الرومانى أو البيزنطى وكانوا يفضلون ثقافة إخوتهم الفينيقيين من عرب قرطاجنة أو القرطاجيين. وكما أقبل عرب العاربة من البربر على الإسلام أقبلوا على اللغة العربية ووجدوا فيها أداة طيعة تمكنهم من التفاهم فيما بينهم، إضافة إلى أنهم اعتبروا العودة إلى الجذور الأصلية، فقد تعددت لهجاتهم وكانت اللغة العربية لغة مكتوبة يستطيعون عن طريقها أن يسجلوا تراثهم. وكان إقبالهم على اللغة العربية شديداً يدل على ذلك ما ترويه كتب الطبقات من رحيل الكثيرين منهم فى القرن الثانى الهجرى إلى الشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة، وظهرت خلال هذا القرن فئات تكتب بالعربية وتؤلف بها. وبدراسة ما ورد من تراجم فى كتب طبقات فقهاء المغرب نجد الرواية تتسلسل إلى رعيل أول من أهل البلاد الأصليين الذين برعوا فى ثقافة العرب وفهموها حق الفهم، وفى نفس الوقت الذى انتشر

فيه الإسلام واللغة العربية كانت الثقافة العربية الوافدة إلى مدارس القيروان وغيرها من مدن المغرب العربى تسير فى طريقها المرسوم نحو التفوق والازدهار[1].

الثقافة العربية فى إسبانيا:

ولكى تكتمل لنا صورة هذا العصر، عصر الولاة، بقيت كلمة موجزة عن تاريخ الثقافة العربية فى البلاد فى هذا العصر. المعروف أن عصور الولاة لها طابعها الخاص فى التاريخ الثقافى، فهى الفترة التى تختلط فيها أو تلتقى الثقافة العربية بالثقافة القديمة، الفترة التى يكون فيها الإسلام فى بدايته الأولى نحو الانتشار واللغة العربية فى طريقها نحو الانتشار أيضا، وغالبا ما يرتبط الإسلام بانتشار اللغة العربية. إذن عصر الولاة فى إسبانيا لايختلف فى طبعه عن عصور الولاة الأخرى، وإن كان أقصر عصور الولاة زمنا، ومع هذا فقد حدثت فيه نفس الظواهر التى حدثت فى الأقطار الأخرى، بدأت اللغة العربية باعتبارها وسيلة للتعبير الثقافى فى الانتشار، ولكن انتشارها كان بطيئا وكان يتمشى مع الحركة الإسلامية عامة ولم ينتشر الإسلام على نطاق واسع إلا منذ عصر الإمارة. كما بدأت الثقافة العربية تستقر فى البلاد،وتلمح فى كتب الطبقات الأندلسية وفوداً من القراء والمحدثين والفقهاء والنحاة تفد إلى البلاد وتقيم فيها، لكننا لم نسمع أن ثمة ثقافة عربية أندلسية قد بدأت تتميز فى ذلك العصر. أما الذين استقروا من المسلمين، لم تكن حياتهم مواتية لشئون الدين والفكر، فقد شغلوا لما وقع بينهم من مخاصمات ومنازعات، ثم إن الفاتحين كانوا من المحاربين وهذا وحده يكفى لتعليل انصرافهم عن الآداب وشئون الفكر. أما أهل البلاد الذين دخلوا فى الإسلام وارتبطوا بالفاتحين العرب بروابط المصاهرة لم يكونوا فى حاجة كبيرة إلى شىء ذى بال من الثقافة العربية لأن الدخول فى الإسلام لم يكن يتطلب منهم إلا مجرد النطق بالشهادتين[2].

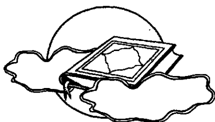
---

1 ـ د. حسين أحمد محمود ـ المرجع السابق ص71.
2 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص80.

- الكيمياء والطب:

وعنى بنو أمية بالكيميـاء والطب، وأول من اهتم بهذا العلم وبإخراج كتب القدماء فى الصنعة خالـد بن يزيد بن معاوية، الذى أخذ هذا العلم على يد راهب سكندرى يقـال له مريانوس الراهب. وخـالد بن يزيد هذا نزل بمصـر منذ خلافـة مروان بن الحكم، فقـد سار معه عندمـا خرج مروان على رأس حملتـه إلى مصر للاستيلاء علـيها فى عام 65هـ الموافق 684م. وفى الطب نبغ عدد من النصارى منهم ابن أثال، طبيب معاوية وكان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، وتيادوق طبيب الحجاج، وابن سرجويه اليهودى الفارسى طبيب مروان بن الحكم، وقد ترجم هذا الأخير كتابًا فى الطب من السريانيـة إلى العربية، هو كتاب أهون بن أعين القس، وأبو الحكم النصـرانى، طبـيب معـاوية، وابن أبجـر السكندرى طبـيب عمـر بن العزيز.

الفصل الثامن



المعارضة العلوية وثورة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام

- مصطلح الشيعة.
- الإسلام والخروج على الحاكم.
- ثورة الحسين الإسلامية الكبرى.
- مذبحة كربلاء لأبناء رسول الله محمد ﷺ.
- نتائج مجزرة كربلاء.

مصطلح الشيعة

تعنى كلمة «الشيعة»: الأهل والأتباع والأنصار، كما فى قوله - تعالى - فى معرض حديثه عن «موسى» ﷺ : ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: 15] وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، بعضهم لبعض، غير أن هذه الكلمة أصبحت علمًا على أنصار « الإمام على بن أبى طالب» ؓ - وذريته من بعده، فإذا قيل: إن فلانا من الشيعة، عُرف أنه منهم، أو قيل: فى مذهب الشيعة كذا، أى عندهم. وقد نشأ التشيع بسيطا فى أول الأمر ثم تطور بمضى الزمن، وأصبح مذهبًا دينيا وسياسيا، كما كان أتباعه فرقة واحدة، شأنهم فى ذلك شأن الخوارج، ثم لم يلبثوا أن تفرعوا إلى فرق، مثل «الإمامية الاثنى عشرية»، و«الزيدية» و«الإسماعيلية». ويخالف رأى الشيعة فى الخلافة جمهور الأمة الإسلامية التى ترى أن الخلافة أمر من الأمور العامة، يفوض للأمة أمر البت فى شأنها، وتختار من تراه الأصلح لدينها ودنياها لتولى منصب الخلافة، أما هم فيرون أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى الأمة، بل هى ركن من أركان الإسلام، لا يجوز للنبى ﷺ إغفاله، ولا تفويض الأمة فيه، بل يجب عليه تعيين الإمام للأمة بعده، وأن الإمام لابد أن يكون معصومًا من الكبائر والصغائر، وأن النبى ﷺ فعل ذلك، وعين «الإمام على بن أبى طالب» ؓ [1].

نقصد بـ «الشيعة» أولئك المسلمين الذين صار هذا المصطلح يطلق عليهم فى التاريخ، دون جدال، لتشيعهم (تحزبهم) للإمام على بن أبى طالب بوصفه صاحب الحق الشرعى (الالهى) بالخلافة بعد النبى مباشرة، ثم للمنحدرين من صلبه عموديا بالتسلسل المعروف. إن الشيعة الذين ينطبق عليهم هذا المفهوم، كانت لهم عدة انتفاضات وثورات فى تاريخ الصراع السياسى والمذهبى «والإيديولوجى»، منذ انتهاء عهد الراشدين وقيام الحكم الأموى حتى انتهائه. لكننا نريد هنا - بتحديد - أول ثورة للشيعة فى وجه السلطة الأموية. بعد مقتل «الإمام علىّ ؑ» فى

1 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - المرجع السابق ص37.

الكوفة بيد أحد الخوارج ونجاة معاوية من القتل الذى كان مكلفا به شخص آخر من الخوارج، كان يـرجو معاوية أن يستخلص الخلافة لنفسه بالمداورة السياسية بدل الحرب، وقد تحقق له ذلك حين جرت المصالحة بينه وبين الإمام الحسن بن على عليهما السلام الذى كان مفترضا أن يتولى الخلافة بعد أبيه طبقا لمعتقد الشيعة. قامت هذه المصالحة على أن يتنازل الإمام الحسن عليه السلام عن حقه بالخلافة لمعاوية شرط أن تكون له ـ أى للحسن ـ بعد معاوية. ولكن هذا قبل الشرط وهو يفكر بالأمر الذى كان قد اختطه لنفسه واعتزم التحضير له. نعنى به إنشاء دولة أموية وراثية تمضى وراثة عرشها فى من يأتى بعده من صلبه واحدا بعد واحد. غير أنه كان يريد تجنب العواصف التى ربما هزت عرشه هو بالذات، فبايع الإمام الحسن عليه السلام على شرطه ذاك مكرها. «ولكن معاوية لم يكن ليهدأ له بال والإمام الحسن عليه السلام حى، وبيعته له قائمة». ولعله أضمر فى نفسه أن يتحلل من شرطه بطريقة ما، ليخلو له الطريق نحو تنفيذ الخطة المقررة لديه. وأن معاوية تخلص من الشرط فعلا بقتله الإمام الحسن عليه السلام مسموما عام 49هـ ـ 669م. وبذلك اطمأن معاوية إلى مصير خطته بعد موت الإمام الثانى للشيعة، فقد وجد بذلك خلاصا من بيعته له، ولم يبق فى طريقه إلى نصب ولده يزيد وليا للعهد يرث عرشه من بعده سوى ما كان يخشى أن يحدث من استنكار كبار الصحابة الباقين قيد الحياة يومذاك واستنكار الكثرة الغالبة من الرأى العام العربى ـ الإسلامى لهذا الأمر، لأنه بحد ذاته أمر جديد غريب فى الإسلام، ولأن يزيد نفسه غير لائق لهذا المنصب فى نظر المسلمين. ولكن معاوية كان من قوة السيطرة على الأمور بحيث يملك الجرأة على تحقيقه دون مبالاة لهذه المواجهة المحتملة. كان معاوية من الجراءة فى مواجهة الرأى العام العربى ـ الإسلامى بحيث أقدم على قتل فريق من كبار صحابة النبى، أمثال حجر بن عدى وأصحابه، دون مبالاة أيضا، بل لقد تباهى بذلك وهو فى نشوة انتصار وشماتة أثناء لقاء له مع الإمام الحسين بن على عليه السلام. وبمثل هذه الجراءة أعلن ابنه يزيد وليا لعهده، فكان أول ولى عهد فى الإسلام وهذه بدعة وسابقة

خطيرة فى النظام السياسى والشريعة الإسلامية، وهى بداية الانحراف عن طريق الخلفاء الراشدين، ومنذ ذاك أصبح توريث منصب الخلافة تقليدا اتبعه سائر الخلفاء الأمويين والعباسيين وغيرهم حتى عهد الانقلاب العثمانى بالأستانة (استانبول) فى مطلع القرن العشرين (1908م)، سوى فترات تاريخية معدودة[1].

الإسلام والخروج على الحاكم

يقول الدكتور عبدالله النفيسى:[2]

تدور فى الأوساط الإسلامية نقاشات كثيرة حول مدى شرعية الخروج على الحكام، وبعض الذين يتصدرون العمل الإسلامى نلاحظ عليهم حماسًا مضاداً لكل فكرة تؤيد الخروج على الحكام. أكثر من ذلك فهم قد غلوا فى موقفهم واتهموا كل من لايرى رأيهم بالغباء وقلة الفقه والخروج عن الملة فى كتابات لبعضهم. ونحن ننصحهم ـ والدين النصيحة ـ بالابتعاد عن هذا الغلو ونطالبهم ـ كإخوة فى الله ـ أن يتقوا الله ويحذروه وألا يحسنوا الظن كثيراً بأنفسهم ويسيئوا الظن كثيرا بإيمان غيرهم. وإذا اختلفنا فى هذه القضية فليكن الخلاف رفيعًا. نحن نقف فى هذه القضية مع الذين يقولون بالخروج على الأنظمة الحاكمة فى أرض الإسلام. ونقف هذا الموقف استناداً إلى دليلين: الشرعى والعقلى.

الدليل الشرعى: يقول جل القائل فى كتابه الكريم:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: 44) ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة: 48) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: 65) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ (الجاثية: 18) ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة: 49) ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ (المائدة: 50) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾

---

1 ـ حسين مروة ـ النزعة المادية فى الفلسفة العربية ـ الإسلامية ص478.

2 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص141.

(النساء: 105) وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«سيلى أموركم من بعدى رجال يعرّفونكم ماتنكرون وينكرون عليكم ماتعرفون، فمن أدرك ذلك منكم فلا طاعة لمن عصى الله عز وجل»** رواه الحاكم والطبرانى وهو صحيح. وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ويحدثون البدع. قلت: فكيف أصنع؟ قال: تسألنى يا ابن أم عبد كيف تصنع؟ لا طاعة لمن عصى الله»**. رواه الطبرانى فى الكبير وهو حديث صحيح. وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها فمن أدرك ذلك منهم فلا يكونن عريفًا ولاشرطيًا ولا جانبيًا ولا خازنًا»** رواه ابن ماجة وسنده صحيح. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا فكان من خطبته أن قال: **«ألا إنى أوشك أن أدعى فأجيب فيليكم عمال من بعدى يقولون ما يعلمون ويعملون بما يعرفون وطاعة أولئك طاعة، فتلبثون كذلك دهرًا ثم يليكم عمال من بعدهم يقولون ما لا يعلمون ويعملون ما لا يعرفون فمن ناصحهم ووازرهم وشد على أعضادهم فأولئك قد هلكوا وأهلكوا، خالطوهم بأجسادكم وزايلوهم بأعمالهم واشهدوا على المحسن بأنه محسن وعلى المسيء بأنه مسيء»** رواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الزهد الكبير وهو حديث صحيح. هذه مجموعة من أشهر النصوص التى وردت حول قضية الخروج على الحاكم ولأهل العلم فيها وجوه كثيرة. لكن قبل استعراض آراء الأئمة حول هذه القضية يجب علينا أن نوضح بعض النقاط الضرورية:

هذه النصوص التى ذكرنا إنما جاءت لتخاطب الواقع المسلم، واجتهادات الأئمة حولها إنما بنيت على أساس أنها - أى النصوص - إنما جاءت لتخاطب الواقع المسلم. وأن الحكام الذين كانوا يعاصرون الأئمة كانوا يحكمون بما أنزل الله

وأن أصحاب الآراء التى كانت توصف بالتطرف والتى كانت تنادى - آنذاك - بالخروج على حكام ذلك الزمان كانوا من أهل السنة والجماعة والمعتزلة والخوارج. فلم يكن يتصور الفقهاء وجود حاكم لايحكم بما أنزل الله بالصورة الكلية والشمولية. لم يكن يتصور الفقهاء وجود حاكم يتنكر لشرع الله ويتآمر على الإسلام وينكل بالمسلمين ويوالى أعداء الله. يقول ابن كثير فى معرض تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: 50) «ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من الشريعة كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات. فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه فى قليل أو كثير». يعلق الشيخ عبدالعزيز بن باز على كلام ابن كثير هذا فى كتاب: «فتح المجيد» ص406 فيقول: «ومثل هذا وشر منه من اتخذ كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها فى الدماء والفروج والأموال ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله ولاينفعه أى اسم تسمى به ولا أى عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها». قال شيخ الإسلام ابن تيمية لما سئل عن قتال التتار مع تمسكهم بالشهادتين ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام، قال: «كل طائفة ممتنعة عن الالتزام بشرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم، فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه (كالصلاة) كما قاتل أبو بكر والصحابة مانعى الزكاة وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم. فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء أو الخمر أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم أو عن التزام جهاد الكفار أو غير ذلك من التزام

واجبـات الدين ومحرمـاته التى لا عذر لأحد فى جـحودها أو تركهـا والتى يكفر الواحد بجحودها فـإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كـانت مقرة بها وهذا مما لا أعلم فيـه خلافًـا بين العلماء. وهؤلاء عند المحـققين ليـسوا بمنزلة البـغاة بل هم خارجون عن الإسلام».

قال القاضى عياض «فلو طرأ عليه «أى الخليفة» كفر أو تغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طـاعته ووجب على المسلمين القيـام عليه وخلعه ونصب إمـام عادل» وهكذا نرى أنه ليس هنـاك أى تناقض بين آراء العلماء حـول مسألـة الخروج على النظام الحاكم فى حالة إعـراضه عن شرع الله فالكل مـجمع على ذلك كما نقل ابن تيمية هذا الإجماع وأشار إليه عندما قال: وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء. هناك بعض الناس يسيئون فهم بعض الأحاديث لرسول الله ﷺ فمـثلا قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكـفر بما يعبـد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل» قال القاضى عياض حول ذلك: «اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان وإن المراد بذلك مشركو العـرب وأهل الأوثان، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحـيد فلا يكتفى فى عصمتـه بقول لا إله إلا الله إذ كان يقولها فى كفره». لقـد أجمع العلماء على أن من قال لا إله إلا الله ولم يعـتقد مـعناها، أو اعتقد مـعناها ولم يعمل بمقتـضاها يجب أن يقـاتل حتى يعـمل بما دلت عليه من النفى والإثـبات. يقول رسـول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصـلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا منى دماءهم وأمـوالهم إلا بحقها وحسـابهم على الله». قال النووى فى تعليـقه على الحديث: «فـيه وجوب قـتال مانعى الزكاة أو الصلاة أو غيرها من واجبـات الإسلام قليلا أو كثيرًا». ويقول ابن تيمـية: «اخـتلف العلمـاء فى الطائفة الممـتنعة إذا أصـرت على ترك بعض السنن كركـعتى الفـجر أو الأذان أو الإقـامة عند من لا يقـول بوجوبها ونـحو ذلك من

الشعائر، فهل تقاتل الطائفة الممتنعة على تركها أم لا؟ أما الواجبات أو المحرمات المذكورة ونحوها فلا خلاف في القتال عليها وثبتت عن النبي ﷺ بما استقر عليه إجماع الصحابة من قتال الصديق لمانعي الزكاة وقتال الإمام عليّ عليه السلام للخوارج وكذلك ثبت عن النبي ﷺ من عشرة أوجه الحديث عن الخوارج والأمر بقتالهم وأخبر أنهم شر الخلق والخليقة مع قوله «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم» فعلم أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال، فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله، وحتى لاتكون فتنة، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب». والذين يرون عدم الخروج على الأنظمة الحاكمة يستدلون خطأً ببعض الأحاديث لرسول الله ﷺ. فمثلا هناك حديث يقول: [1]

«من رأى من أمير شيئًا يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية». هذا الحديث يطرح أمامنا عدة أسئلة: من هو الأمير المقصود في هذا الحديث؟ ما هي نوعية الكره؟ ما هي حدود الصبر؟ وأي جماعة تلك المقصودة في الحديث؟ هل هي الجماعة الكبرى أم الصغرى؟ من البديهي أن الأمير الذي ذكره الحديث هو الأمير المسلم، فهذا هو المعنى الذي يتماشى مع طبيعة الشرع، فمن ثم يجب على المسلم أن يطيعه لأنه ـ أي الأمير ـ متقيد بالشرع خاضع لأمره، لكن قد يرى المسلم منه مايكره أي بعض السلوكيات الخاطئة من قبل الأمير كحال الأمراء الأمويين والعباسيين هذا مبرراً شرعيًا للخروج عليه. ومن هنا فإن الصبر المعنى بالحديث هو الوسيلة لمحاصرة هذا الكره الذي ذكرنا مواصفاته، الكره الذي لاتتجاوز حدوده الفرد إلى حدود الجماعة. وعلى ضوء هذا الفهم يتبين لنا خطأ الذين يحاولون تطبيق هذا الحديث على الأنظمة الحاكمة التي تجثم فوق صدور المسلمين. والذين يرون عدم الخروج على الأنظمة الحاكمة يستدلون بحديث لست مطمئنًا لصحته يقول: «شرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم قلنا: يارسول الله أفلا ننابذهم؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة».

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسي ـ نفس المرجع ص145.

وحتى لو كان الحديث صحيحًا فلا نفهمه بالصورة التى يحاولون من خلالها عرضه. يقولون، قال رسول الله ﷺ «ما أقاموا الصلاة» ويعتقدون أن المقصود هو أنه ما دام الحاكم يصلى ولايمنع من الصلاة فلا يجوز الخروج عليه. وهذا فهم قاصر وغير صحيح ولا يلتقى مع أقوال جمهور العلماء وبالأخص ابن تيمية فى أقواله التى دوناها فى الصفحات السابقة. فالتتار كانوا يقيمون الصلاة بل منهم من كان فقيهًا متعبدًا ومع ذلك جعل قتالهم واجبًا لإيمانهم بالياسق. والمقصود بالمنابذة ـ التى ورد ذكرها فى الحديث ـ هو نقض البيعة التى أعطاها الناس لهؤلاء الحكام والخروج عليهم. يقول سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء». أى أعلمهم بنقض العهد الذى بينك وبينهم. وفى الحديث إشارة واضحة إلى أن هناك بيعة أعطيت لهؤلاء الأمراء كى يقوموا بأمر المسلمين حسب كتاب الله وسنة رسوله، فالبيعة ـ ويجب أن تكون عن رضا واختيار لا عن إكراه وإجبار ـ هى الوسيلة الشرعية فى الإسلام لتولى السلطة السياسية ومادامت هناك بيعة بين الحاكم والمحكوم فمعنى ذلك أن الحاكم يجب أن يطاع لأن البيعة إلزام للحاكم بالتقيد بشرع الله وإلزام للمحكوم بطاعة هذا الحاكم فى حدود هذا الشرع. ومن هنا فإن الأمراء الذين طلب الصحابة منابذتهم والخروج عليهم كانوا يحكمون بما أنزل الله لكن سلوكهم الشخصى لايرضى المحكومين وأفعالهم تبيح لعنهم من قبل الناس ومن ثم هم يلعنون الناس كما يلعنونهم. وعلى ضوء هذا الفهم يتبين لنا أن المقصود بقول الرسول ﷺ (ما أقاموا الصلاة) ليس هو مجرد إقامة الصلاة فى حد ذاتها، وإنما لأن الواجب على الأمير المسلم أن يقيم فى الناس الصلاة ويخطب فيهم الجمعة، فهذا العمل صورة من صور الممارسة الشرعية لمسؤولياته فى الإسلام ومادام يقوم بهذا العمل وهذا يعنى أيضًا تقيده والتزامه بشرع الله لأجل ذلك لاتجوز منابذته، وليس المقصود ـ كما يفهم البعض ـ أنه مادام الحاكم يصلى ولايمنع الناس من الصلاة فلا يجوز الخروج عليه وإن لم يكن يلتزم شرع الله، فهذا الفهم يخالف مخالفة صريحة ما كان عليه

الصحابة وأجمعوا عليه وكذلك ما أجمع عليه الفقهاء، وهل يعقل أن يكون المقصود بالحديث هو الحاكم الذى يقيم الصلاة فقط دون بقية أحكام الشرع؟ إن محاولة تطبيق هذا الحديث على حكام اليوم هى محاولة لدعم الباطل على حساب الإسلام، فحكام اليوم وأنظمة هذا العالم المترامى المسمى مجازاً بالإسلامى لم يصلوا إلى الحكم بالطريق الشرعى (البيعة) بل فرضوا أنفسهم على المسلمين بقوة الحديد والمال ودعم القوى الكافرة المتربصة بالإسلام ودعاته الحقيقيين. ومن هنا ينقطع الطريق أمام دعاة الضلالة الذين يحاولون ترقيع الجاهلية بأحكام الإسلام وإلباس هذه الأنظمة الكافرة ثوب الإمامة العادلة. لقد استحلت هذه الأنظمة ما حرم الله فى كل قرار تصدره وفى كل خطوة تخطوها فهى ـ كما نلاحظ ـ لاتقوم على بيعة وقد عطلت حق الأمة فى الشورى ومراقبة الحاكم وتسديده وترشيده وعزله وأخذت تتوسع فى إباحة المحظورات الشرعية بل تيسر السبل والوسائل كى تنتشر هذه المحظورات وتسود الواقع، والاستحلال كفر بإجماع الأمة لا يخالف فى ذلك أحد وبالإضافة إلى ذلك استباحت دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، فهل هناك براهين على الكفر الصريح أكثر من ذلك، إن حكام اليوم كفروا بما أنزل الله وأعرضوا عنه مهما لبسوا من أزياء الإسلام وهم يوالون أعداء الله وينصرونهم على جماهير الإسلام والمسلمين وينشرون الفساد فى الأرض ويقتلون الذين يأمرون بالقسط والعدل بين الناس. والجماهير ـ لهفى عليها ـ استسلمت لهذه الأوضاع المنحرفة ودانت لها حتى صبغت تصوراتها وسلوكها وأخلاقها بصبغة الكفر، فأصبحت توالى الحكام وتهتف لهم وتتقرب منهم وتنصرهم وتدعمهم على حساب الإسلام وهى أولا وآخرا لاتدرى ماذا يراد بها؟ وأصبحت لاتحمل من الإسلام سوى اسمه. فهل هناك كفر أكثر بواحًا من هذا؟.

ويتابع الدكتور عبد الله النفيسى قوله:[1]

الدليل العقلى: إن المتأمل فى واقع هذه الأنظمة الحاكمة اليوم فى أرض

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص151.

الإسلام تتكشف له حقيقة هامة: وهى أن هذه الأنظمة لم تتسلم زمام الأمور فى بلاد المسلمين اعتباطًا. هذه الأنظمة هى امتداد طبيعى للاستعمار الغربى الكافر، وإذا كان من الواجب الشرعى علينا أن نقاتل القوى الاستعمارية الغربية الكافرة حتى يكون الدين كله لله، فمن البديهى أن نقاتل هذه الأنظمة التى تعتبر الجبهة الأمامية لهذه القوى الغربية الاستعمارية الكافرة. ومن المؤسف أن تتخوف بعض الأوساط الإسلامية من الأساليب «الثورية» فى التغيير. وإذا كانت «الثورة» - كمصطلح - هى العلم الذى يوضع فى الممارسة والتطبيق من أجل تغيير المجتمع تغييراً جذريًا شاملا - كالتغيير الذى أسسه وكرسه رسول الله ﷺ - والانتقال بالمجتمع من مرحلة معينة إلى أخرى متقدمة على صعيد تحقيق العدالة الاجتماعية؛ إذا كانت «الثورة» - كمصطلح - تعنى ذلك وهى كما نعلم تعنيه، فليست الثورة إذن غريبة علينا كمسلمين ولسنا كمسلمين - أيضا - غرباء على الثورة. وإذا كانت الثورة تقف مع مجموع الأمة، وإذا كان مجموع الأمة يقف مع الثورة. فإنها لاشك ثورة حق لأن المصطفى ﷺ أكد أن الأمة لاتجتمع على ضلالة. وإذا كانت الثورة تنحاز انحيازاً تامًا لمصالح الأمة، ومطالبها، وللمستضعفين فيها، والجائعين المعذبين، فإنها لاشك ثورة حق، لأن الهدف الأساسى من رسالات السماء إلى الأرض كان ومازال: تحقيق العدل والقسط وتحطيم الظلم والظالمين، يقول جل القائل ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد25]. ولم تكن هجرة المصطفى ﷺ فراراً وهروبًا، بل كانت فعلا إيجابيًا فى طريق الثورة على المجتمع الظالم والقرية الظالمة والتحضير لها والتحريض عليها. والذين لايهجرون المجتمع الظالم لتغييره، والذين يأتلفون مع الظلمة هم ظالمون لأنفسهم وهو أشد أنواع الظلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء: 97).

ذلك أن كونهم مستضعفين فى الأرض لايعفيهم من مسؤولية التغيير للظلم لأن منطقهم الاستسلامى هذا يعاكس إرادة الله سبحانه، تلك الإرادة التى صاغها القرآن الكريم فى آية واحدة: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: 5). فإرادة الله أن تكون القيادة والإمامة للمستضعفين فى الأرض من أمة محمد ﷺ. وأن تكون لهم وراثة ما فى حوزة أوطانهم من ثروات وعلوم وإمكانيات. وإن الدعوة إلى الله وتوحيده ليست ولم تكن فى أى يوم من أيامها منفصلة عن قضايا الأمة وأوضاعها وهمومها وتطلعاتها إلى العدل والكرامة والحرية والارتفاع. لقد كان الأنبياء - صلوات الله عليهم - يدعون أممهم إلى العقيدة (التوحيد) لكن ينبغى التأكيد هنا أنهم كانوا يربطون هذه الدعوة بالمسائل والقضايا التى تهم أممهم. فدعوة شعيب - عليه السلام - ارتبطت بمشكلة اقتصادية ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ (هود: 84) ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء: 16 - 17) ودعوة لوط - عليه السلام - ارتبطت بمشكلة اجتماعية: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (الشعراء 160 - 167). نلاحظ أن دعوة شعيب كانت موجهة ضد جشع التجار وضد أشكال الدناءة التجارية التى كانت شائعة فيهم ومازالت شائعة فى كثير من المجتمعات العصرية التجارية. نقص فى المكيال والميزان. ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (المطففين: 1 - 3). كان هذا أمراً شائعًا فى مدين - قوم شعيب - رغم أنهم - أى هذه الطبقة من التجار - كانوا دومًا فى ازدهار «إنى أراكم بخير» يعنى بثروة وسعة فى الرزق تغنيكم عن

الدناءة وبخس حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل. فدعوة شعيب - إذن - لم تكن دعوة مجردة إنما جاءت باسم الله لتحارب واقعا اقتصاديا يقوم على الاستغلال والدناءة والابتزاز. ودعوة موسى كانت موجهة ضد الطاغوت والتسلط والعجرفة التاريخية التي كان يمثلها فرعون وما أكثر فراعنة عصرنا هذا. كان فرعون يستبيح كل الناس وكل الأرواح وكل النساء وكل الأطفال حتى قال يومًا «أنا ربكم الأعلى» ويأتي إليه موسى - رسولا من الله - ويقول له : أرسل معنا بني إسرائيل لأن بني إسرائيل كانوا ضحايا طغيان وجبروت فرعون. طلب منه - باسم الله - أن يرفع يده عن بني اسرائيل ويخلي سبيلهم بأمر من الله. الموقف فيه مواجهة للطاغية وكل أشكال الطغيان السياسي. ودعوة لوط كانت مرتبطة بواقع اجتماعي منحل سقط سقوطًا ذريعًا، جاء لوط باسم الله ليهاجمه ويعلن المفاصلة معه. وهكذا يقف أنبياء الله ورسله صفًا معارضًا للجشع التجاري والطغيان السياسي والتحلل الاجتماعي، وهي كما نلاحظ أخطر قضايا عصرنا هذا وبالأخص في العالم الإسلامي. «إن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العقل، وأسفر صبحه بأي طريق كان؛ فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق أسباب ووسائل لاتراد لذواتها وإنما المراد غاياتها التي هي المقاصد، ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها ولن تجد طريقًا من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعية وسبيل للدلالة عليها. وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟»[1].

1 - د. عبدالله فهد النفيسي - نفس المرجع ص153.

تجاوز الصحابة، الاهتمامات الاجتماعية والثقافية، بينما كان التجمع السكانى الأبرز فى الحجاز (أى الأنصار) الذين كان لهم دورهم الطليعى فى تكوين الدولة الإسلامية يعانون القهر والفقر. وفى ضوء هذا الواقع، كان أهل الحجاز يتوقون إلى الخروج من هذه الدائرة الضيقة، ويجدون فى غياب معاوية، فرصة للعودة إلى الحياة الطبيعية والتعبير عن الرفض لأمور لم يجرؤوا على البوح بها خلال العهد الصارم. ولكن يبدو أن زعماء المعارضة فى «المدينة» أو بعضهم، على الرغم من الحصار السياسى المحكم، لم يعدموا نشاطات واجتماعات كانت تتم فى إطار من الكتمان والتمويه. وكان ثمة قاسم مشترك، قد وحد الموقف المرحلى للمعارضة الحجازية، هو إرجاء التحرك العلنى إلى وقت تتوفر فيه المعطيات الإيجابية، أو بمعنى آخر إلى ما بعد معاوية، الشخصية المؤسسة وغير العادية، والقابض بكلتا يديه على السلطة، ومعه رجاله الأقوياء و«استخباراته» الراصدة. ولقد عبر عن هذا الواقع، أحد زعماء هذه المعارضة، وهو الإمام الحسين بن على عليه السلام سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام، فى معرض الرد على سليمان بن صرد الخزاعى (من كبار شيعة الكوفة) بقوله: «ليكن كل رجل منكم حلسًا من أحلاس بيته، ما دام معاوية حيًا، فإنها بيعة كنت والله لها كارهًا، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم). وهكذا فإن غياب معاوية كان مؤشراً للانفجار المرتقب، ذلك الذى تقادته المعارضة فى عهده، بعد إدراكها الثمن الباهظ والمكلف له بينما نجح مؤسس الدولة الأموية فى منعه أو تجميده، ولكن دون أن يستطيع ضمان هذا الأمر بعد رحيله، مجسداً هذه الهواجس فى وصيته الشهيرة السالفة الذكر.

مات معاوية عام 680 للميلاد، فتولى يزيد الملك بحكم كونه ولى العهد كما فرضه والده. كان الناقمون على ذلك كثيرين، ولكن أول معارضة لخلافة يزيد ظهرت من شيعة الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فى الكوفة بعد أن علموا رفض إمامهم الثالث الإمام الحسين بن على سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام فى مكة مبايعة يزيد بالخلافة، فأرسل هؤلاء إلى الإمام الحسين عليه السلام وفودا تدعوه باسمهم

إلى الشخوص نحو الكوفة ليقود انتفاضتهم على يزيد وعلى الخلافة الأموية ذاتها. وقد استجاب الإمام الحسين عليه السلام لهذه الدعوة وأراد الخروج من مكة إلى الكوفة، فنهاه عبد الله بن عباس، وهو من كبار صحابة النبى ومن أبناء عمومة الإمام على ابن أبى طالب عليه السلام والد الإمام الحسين عليه السلام. قال ابن عباس للحسين: «اشخص إلى اليمن، فإنها فى عزلة، ولك فيها أنصار وإخوان، فأقم به وبث دعاتك». ولكن الإمام الحسين عليه السلام رأى أن مقاومة يزيد والعرش الأموى أمر يجب أن ينهض به ما دام قد اجتمع له العنصر البشرى اللازم فى أهل الكوفة. وحين بلغ الإمام الحسين عليه السلام أرض العراق قاصدا الكوفة جاءه أن كثيرا من أنصاره الذين دعوه للمقاومة مؤكدين له عزمهم على الخروج تحت لوائه، قد ضعفوا عن تنفيذ وعدهم، لما واجههم به والى الكوفة عبيد الله بن زياد الموالى للأمويين، من إرهاب وتهديد للبعض ومن إغراء ورشاوى للآخرين. كان موقف الإمام الحسين عليه السلام هنا حرجا، فهو الآن بين أن يعود إلى الحجاز فيتهم بالضعف والنكوص عن أمر يراه واجبا عليه، وبين أن يمضى لقتال جيش يزيد فيغامر بالنساء والأطفال الذين جاء بهم وبالقلة القليلة من أنصاره الذين صحبوه إلى غايته. ولكنه فضل الإقدام على الإحجام، ومضى فى سبيله حتى التقى جيش الأمويين فى كربلاء، وكانت تلك المعركة المثيرة المؤثرة التى انتهت بمقتل سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره وبعض ولده، وبأسر الأطفال والنساء من أهله. (عام 61هـ/ 680م). هذه الثورة الإسلامية الأولى بوجه أول حاكم أموى بالوراثة، قد تبدو بحد ذاتها، وبهذا السرد البسيط لها، حادثة عادية ليس من شأنها أن تذكر فى مجال الكلام على الحركات التاريخية ذات التأثير فى مجرى تطور تاريخ الفكر. ولكن هذا التبسيط للمسألة بعيد جدا عن الواقع التاريخى. ذلك لأن هذا الواقع نفسه يثبت، بما لايدع مجالا للشك، أن هذه الثورة الإسلامية لاتحدد تاريخيا بتلك المعركة السريعة وبنتائجها المباشرة، أى بذلك الانتصار الساحق الذى أحرزه جيش الأمويين فى معركة كربلاء (العراق) على تلك الجماعة القليلة (300 مقاتل) من أنصار سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الإمام الحسين بن على عليهما السلام، فى ساعات قليلة. إنما الذى يحدد هذه الثورة العلوية هو امتدادها الزمنى بعد معركة

اليوم العاشر من شهر محرم عام 61هـ ومصرع قائدها سبط رسول الله محمد ﷺ، وتحددها أيضا أبعادها السياسية والفكرية الممتدة عمقا واتساعا على مدى المرحلة التى نتحدث عنها. ليس يأتى أثر هذه الثورة، بكل عمقه وحركيته، من طابعها المأسوى، بل ينبغى للرؤية المعاصرة، غير المنفعلة بسخونة الحادث فى وقته، أن تخترق ظلال هذا الطابع المأسوى لتصل إلى العوامل الأقل إثارة وسخونة، إن رؤية يتوفر لها هذا الشرط تكتشف العوامل التالية[1]

العامل الأول:علينا أن نرى، بإمعان، أن مسألة تحويل معاوية لنظام الخلافة من واجهته «الشورية» الراشدية إلى نظام الحكم الفردى الوراثى الملكى، لم تكن بالمسألة اليسيرة بحيث يمكن فرضها يومئذ دون حساب للمعارضة الإسلامية فى صفوف واسعة من الرأى العام الإسلامى. وإذا كان معاوية قد استطاع بفضل استخدام العنف والقوة المفرطة من جانب واستخدام المناورات السياسية وبذل المال لشراء الذمم من جانب، أن يجرى هذا التحويل دون أن تواجهه العاصفة أثناء حياته، فليس يعنى ذلك أن العاصفة لم تكن تحتمل فى دخائل المجتمع العربى - الإسلامى بانتظار أن تجد ما يدفعها إلى سطح الأحداث. نقصد أن جماهير من العرب والمسلمين، ومنهم كبار الصحابة وتابعوهم، لم يكن هينا عليهم أن يتقبلوا هذا الفعل من معاوية بالرضا والتأييد، كما كان يبدو الأمر فى الظاهر هنا أو هناك. بل نستطيع القول إن أجيالا مرت بعد ذلك من رجال الدين الإسلامى والمؤرخين والباحثين الإسلاميين، ظلوا حتى العصر الحاضر ينظرون إلى فعلة معاوية هذه نظرة إنكار، أو - بالأقل - نظرة مشوبة بعدم الرضا الحقيقى. يروى المقرى أن أحد فقهاء المسلمين المتأخرين جدا عن عصر الأمويين سئل عن سبب كون ملوك المسلمين لايسيرون على الطريق الصحيح ولا يبالون «عهدا ولا حرمة»، فأجاب: «ذلك لأن الملك ليس فى شريعتنا، ولم يجعل فى شرعنا إلا الخلفاء، فكان أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ، وإن لم يستخلفه نصا، لكن فهم الناس ذلك

---

1 - حسين مروة - المرجع السابق ص480.

فهما، وأجمعوا على تسميته بذلك. ثم استخلف أبو بكر عمر فخرج بها عن سبيل الملك الذى يرثه الولد عن الوالد، إلى سبيل الخلافة الذى هو النظر والاختيار، ونص فى ذلك على عهده، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان. فإخراج عمر لها عن بنيه إلى الشورى دليل على أنها ليست ملكا. ثم تعيّن الإمام عليّ ﷺ بعد ذلك «بالانتخاب والاختيار الشعبى» إذ لم يبق مثله، فبايعه من آثر الحق على الهوى واصطفى الآخرة على الدنيا. ثم الإمام الحسن ﷺ كذلك. ثم كان معاوية أول من حول الخلافة ملكا والخشونة لينا ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم، فجعلها (أى الخلافة) ميراثا، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها. ألا ترى أن عمر بن عبدالعزيز ـ رضى الله عنه ـ كان خليفة لا ملكا. فلم يسلك طريق الاستقامة قط إلا خليفة». نرى فى هذا الكلام من فقيه متأخر جدا عن عصر الأمويين أن فعلة معاوية بقيت تحز حزا عميقا فى نفوس المسلمين على مدى الأجيال. فإن كلام هذا الفقيه، كما هو واضح، ينضح بالمرارة المثيرة مما صنع معاوية بأمر الخلافة حين تحول بها إلى ملك وراثى، رغم مرور الأجيال الطوال. فكيف يكون شأن المسلمين إذن فى معاوية نفسه[1].

نجد من الأحداث التاريخية التى أقامت الدليل فى وضوح على أن الكسروية التى عناها عمر حسب تفسير ابن خلدون كسروية معاوية وهى «ما كان عليه أهل فارس فى ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغى، وسلوك سبله، والغفلة عن الله» هى التى اتضحت معالمها بعد رفض معاوية مبايعة الإمام على كرم الله وجهه، ووقف الحزب الأموى يقاومه بالسلاح، مدافعًا عن امتيازات الملك الجديد، كما تثبت ذلك مختلف الروايات القديمة، وكما يدعمه اتهام عمر لمعاوية بالكيد والخدعة فى جوابه على ما أعابه عليه. حدث أبو محمد الأموى، قال: «خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، فرأى معاوية فى موكب يتلقاه، وراح إليه فى موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح فى موكب وتغدو فى مثله، وبلغنى أنك تصبح فى منزلك، وذوو الحاجات ببابك! قال: يا أمير المؤمنين، إن العدو بها قريب منا،

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص481.

ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرنى بما شئت أصر إليه، قال: ويحك! ما ناظرتك فى أمر أعيب عليك فيه إلا تركتنى ما أدرى آمرك أم أنهاك!»[1].

ومن المعروف أن معاوية أول من اتخذ الحرس فى الإسلام، وكان أول من اتخذ ديوان الخاتم، ولم يخف تمرغه فى شؤون الدنيا، واعتزازه بالملك، فقد حدث عبدالله بن مسعدة بن حكمة الفزارى، قال: «انتقل معاوية من بعض كور الشام إلى بعض عمله، فنزل منزلا بالشام، فبسط له على ظهر إجّار مشرف على الطرق، فأذن لى، فقعدت معه، فمرت القطرات والرحائل والجوارى والخيول، فقال: يا ابن مسعدة، رحم الله أبا بكر! لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، وأما عمر - أو قال: ابن حنتمة - فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه، وأما نحن فتمرغنا فيها، ثم كأنه ندم فقال: والله إنه لملك آتانا الله إياه»، وروى عن عبدالملك بن عمير، قال: «أغلظ رجل لمعاوية فأكثر، فقيل له: أتحلم عن هذا؟ فقال: إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا»، وهو أول من اتخذ مجالس الغناء، وأنفق على المغنين - ولو كانوا فجرة - من أموال المسلمين[2]. هذه بعض مظاهر الملك الأموى الجديد، وقد أصبحت المحافظة عليه، وما يوفره لأهله ولأنصاره من جميع مظاهر الامتيازات تبرر جميع الوسائل مهما بلغت من العسف، والبشاعة، ومهما تناقضت مع مبادئ الدعوة الإسلامية، وقيمها، فهذا معاوية يوصى - وهو على فراش الموت - ابنه يزيد فى ولاية العهد له قائلا: «وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربًا إربًا»![3].

1 - الطبرى - ج5 ص331.
2 - د. الحبيب الجنحانى - المرجع السابق.
3 - د. الحبيب الجنحانى - نفس المرجع.

العامل الثانى: نضيف إلى ما تقدم كـون يزيد ذاته هو الذى قضت المصادفة أن يكون أول وريث لعرش مـعاوية وفقا لنظـامه الوراثى الجديد. فقـد لعبت هذه المصادفة دورا ملموسا فى ترسيخ جذور النقـمة الواسعة على ما أحدثه معاوية من تحويل لنظام الخلافـة، وفى أن يكون لانتفاضة الشيـعة تلك مع استشهـاد الحسين وهو يقاتل جيش يزيد امتدادها فى الزمن وفى الحـياة العامة وفى الحركات الفكرية معا. ذلك أن اختيار يزيد بعينه لتنفيذ عملية التحويل أول مرة، قد وضع فى أيدى الناقمين عـلى مبدأ «العملية» حـجة قوية تدعم نقمـتهم، وسلاحا عـمليا لمحاربة «المبدأ» نفسه. إذ لم يبق الأمـر محصورا فى نطاق الاعتراض الشـيعى بأن الخلافة حق «إلهى لعلى» وأبنائه، بل تجـاوزه إلى نطاق أهل السنة الذين يرون أن الخـلافة حق للمسلمين يختارون له من يجدونه الأصلح للاضطلاع بمهماته الخطيرة. ويزيد ابن معـاوية لم يكن له شيء من مؤهلات «الأصلح». فـهو ـ أولا ـ فـتى مطعون بسلوكه وسيرته، وهو ـ ثانيا ـ معروف بعبثه حتى بمبادئ الشريعة وشعائرها. وهو ـ ثالثا ـ يجهل طرق التصرف بالشـؤون العامة للدولة، وأن بينه وبين المهمات التى ولى أمرها لحاجـزا سميكا من العزلة المطلقـة ومن الانشغال بلهوه اليـومى التافه. وينبغى أن نضيف نـحن أمرا ـ رابعا ـ لعله لم يكن فى متناول الوعى الاجـتماعى يومئذ بـعد، ولكنه جزء من الواقع الموضوعى لايتـوقف وجوده على وعى الناس له. نعنى به أن يزيد كـان يحمل فى شخـصيـته وفى سلوكه الـذى ذكرناه ظاهرة نموذجية لما كـان عليه فتيان الطبـقة الارستقراطية الجـديدة من غطرسة على الناس ومن انغمـاس فى أسبـاب الترف المادى المبتـذل يبعـد بهم عن كل ما كـان يشغل جماهير الناس يومئذ من هموم الحيـاة الواقعية الجدية ومشكلاتها. فلا بد أن يكون لهذا الأمر أثر فى دخائل النفوس، وإن لم يكن قد تبلور وعيا اجتماعيا محدداً[1].

العامل الثالث: هو أن العاملين السابقين قد دفعا المسلمين ـ بعد مصرع سبط رسول الله مـحمد ﷺ الإمـام الحسـين بن على عليهمـا السـلام بالأخص ـ أكـثر فأكثر، إلى شيء من المقارنة السلبية، سـواء بعقولهم أم بمحض مشاعرهم. مقارنة

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص481.

رجل برجل: رجل كيزيد تلك شخصيته، ورجل كالحسين يعرفون له من الصلة بالنبى (وهو ابن بنت محمد فاطمة الزهراء)، ومن الانتساب لعلى بن أبى طالب أبيه، وهو الخليفة الراشدى الذى ينظر إليه المسلمون جميعًا نظرة تكريم وتقدير عاليين، ثم من المزايا الشخصية المفضلة التى يتحلى بها سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام، ثم من المصير المأساوى الذى أقدم عليه بشجاعة هائلة دفاعا عن حق يعتقده ـ أقول: إنهم يعرفون للحسين من هذه الخصائص ما جعلهم يخرجون من المقارنة بكثير من الأسى العميق لا للمصير الفاجع الذى لقيه سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام وحسب، بل كذلك أولا لإقدام جيش منسوب إلى الخلافة الأموية على قتله، وثانيا للصورة المؤثرة التى حدث بها الحادث، وثالثا للخلافة الإسلامية نفسها أن تتحول هكذا إلى أيدى سفاكى المجزرة الدموية والتطهير العرقى «افتتحوا» عهدهم الجديد هذا «الافتتاح» الرهيب الذى يقول عنه باحث معاصر من أتباع المذهب الأشعرى، بعيد عن الأثر بالانفعال الشيعى، بأنه حادث لم ير له المسلمون مثيلا، وأن المسلمين جميعا قد لعنوا يزيد بسبب مذبحة عام 61هـ: بل يقول هذا الباحث الأشعرى المعاصر أن مقتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام كان «أكبر حادث فى تاريخ الإسلام السياسى والروحى» بتأثير العوامل الثلاثة السابقة وأمثالها مجتمعة، أخذت الثورة الإسلامية الشيعية هذه طريقها إلى الامتداد فى الزمن، فظهرت حينا بصورة ثورات دموية بدأت بثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى بعد ثورة التوابين التى كانت تعبيرا مباشرا وعنيفا عن ندم أهل الكوفة لتخلفهم عن نصرة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام فى حربه لجيش يزيد، كما كانت تعبيرا غير مباشر عن أثر تلك العوامل التى أوردناها، فى نفوس المسلمين ثم ظهرت الثورة الإسلامية الشيعية هذه حينا آخر فى صورة حركات فكرية دينية[1].

وفى المقابل لم يكن خليفته يزيد ـ حسب الروايات أو معظمها ـ فى مستوى المهمة الكبيرة، بعد أن تجلى ذلك فى أسلوبه العقيم وقراره الارتجالى أمام الأزمات

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص482.

الخطيرة، تلك التى عصفت بعهده منذ أيامه الأولى. ويبدو أن يزيد الذى أظهرته الروايات، مقترنًا بالترف والمجون، ومستغرقًا حتى العبث فى حياته الخاصة، كان ضحية شخصيته الضعيفة والمترددة، العاجزة عن ملء فراغ كبير تركه معاوية فى السلطة التى تسلمها ومعها ميرات ثقيل من المشاكل، كان راكدًا فى عهد والده القوى، لاسيما مشكلة الحكم نفسه الذى لم يكن قد حسم بعد تمامًا أو اتخذ «الشرعية» المطلوبة[1].

ولعل الفشل الذى لاحق يزيدًا فى التصدى للموجة الواسعة التى استهدفت حكمه، قد ترك تأثيره الواضح فى معرض التقويم لشخصيته التى ظلت حبيسة هذا التقزم، بالمقارنة مع شخصية سلفه القوية. بالإضافة إلى ذلك، فإن جرأته، التى بلغت حدود التهور، فى القضاء على الحركات المناوئة، وضربه الرموز الإسلامية بمنتهى العنف، حين رأى فى هذه السياسة مدخلا إلى إثبات حضوره السلطوى، كان حائلا دون تغير تلك الصورة القاتمة للخليفة الأموى الثانى على مر العصور. وفى الوقت نفسه، فإن المعارضة التى رفضت بصورة قاطعة مبدأ الحكم الوراثى، لم تعطه الفرصة لترسيخ أقدامه فى السلطة، إذ سارعت زعامتها الحجازية إلى الطعن بشرعيته وعدم الاعتراف بخلافته، بعد أن أخذت فى الانسحاب، واحدًا وراء الآخر إلى مكة تعبيرًا عن هذا الموقف، وتفاديا لاستنزاف قوتها قبل الأوان، فى معركة جانبية مع ممثلى الخليفة الجديد فى «المدينة»، حيث كانت لديهم الأوامر الحازمة، بأخذ البيعة طوعًا أو كرهًا من أبناء الصحابة. فقد اتخذت الحاضرة الأولى للإسلام المبادرة إلى اتخاذ موقف علنى، على الرغم من المراقبة الشديدة، ذلك الموقف الذى عبر عنه اعتكاف أبناء الصحابة فى مكة التى كانت لها حصانتها الدينية، فضلا عن الجغرافية، مما كان يشجع على اتخاذها منطلق التحرك السياسى المضاد، منذ التجاء الزبير وطلحة وعائشة إليها، فى أعقاب مقتل عثمان والبيعة لعلى. أما الثغرة الثانية، التى كان متوقعًا أن تهب منها المتاعب على عهد يزيد، فقد كانت فى العراق، حيث الأسباب أكثر تشجيعًا على السلبية، والأحداث

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ص183.

اتخذت منحى، تجاوز الرفض والاحتجاج إلى الثورة الإسلامية الشعبية المسلحة. وعلى الرغم من ابتعاد الولايتين، إحداهما عن الأخرى، فقد كان ثمة تكامل فى الموقف السياسى للحجاز والعراق، انطلاقًا من بضعة قواسم مشتركة، جعلت من توحيده ضرورة ماسة. فالولاية الأولى، المفرغة من طاقاتها فى العهد السابق والمنكفئة على هامش الحياة السياسية، كانت لديها القدرة مع ذلك على استنهاض جمهور المعارضة، حيث كان اثنان من زعمائه على الأقل فى موقع الرفض المطلق للبيعة، وهم: سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على عليهما السلام وعبدالله بن الزبير، والثانية، كانت من خلال تكوينها السكانى والاقتصادى، أكثر احتواء للمعارضة الشعبية المهيأة للثورة، لاسيما حركة التشيع فى الكوفة. على أن بين الثغرتين، ثغرة ثالثة، ولكن لغير مصلحة المعارضة، كان معاوية قد أحسن استغلالها، جعلت من الحجاز قيادة من دون جماهير، ومن العراق جماهير من غير قيادة، بحيث كان يكمن فى هذه المفارقة، سر الاختلال الذى رافق المحاولات العديدة للقضاء على الحكم الأموى فى ذلك الوقت[1].

ثورة الحسين الإسلامية الكبرى

ثانى السبطين سيدى شباب أهل الجنة وريحانتى المصطفى، وأحد الخمسة أصحاب العباس وسيد الشهداء. أبوه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وأمه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

ولن ترى فى العلا أما كفاطمة   ولن ترى كعلى فى الفخار أبا

ولد رضى الله عنه فى المدينة فى الخامس من شعبان سنة أربع من الهجرة. تقول أسماء بنت عميس: بعد حول من مولد الحسن ولدت السيدة الزهراء الحسين، فجاءنى النبى ﷺ، فقال: يا أسماء هاتى ابنى، فدفعته إلى رسول الله محمد ﷺ فى خرقة بيضاء فاستبشر به وأذن فى أذنه اليمنى وأقام فى اليسرى، ثم وضعه فى حجره وبكى. قالت أسماء: فقلت : فداك أبى وأمى مم بكاؤك؟ قال: على ابنى هذا. قلت: إنه ولد الساعة. قال: يا أسماء تقتله الفئة الباغية لا أنالهم

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص184.

الله شفاعتى. ثم قال: يا أسماء لاتخبرى فاطمة بهذا فإنها قريبة عهد بولادته. ثم قال لعلى: أى شيء سميت ابنى؟ قال: ما كنت لأسبقك باسمه يارسول الله وقد كنت أحب أن اسميه حربا. فقال الرسول: سمه حسينا، وهو اسم لم يكن لأحد قبله. وأن جبريل عليه السلام هبط، وقال: يا محمد، العلى القدير يقرئك السلام ويقول على منك بمنزلة هارون من موسى ولانبى بعدك سم ابنك باسم ابن هارون. قال وما اسم ابن هارون؟ قال: شبسبر. قال لسانى عربى يا جبريل. قال سمه حسينا. وروت أم الفضل بنت العباس رضى الله عنهما قالت: «دخلت على رسول الله ﷺ، فقلت يارسول الله رأيت البارحة حلما منكرا، قال: وماهو، قالت: رأيت كأن قطعة من جسدك قطعت فوضعت فى حجرى، فقال رسول الله ﷺ، خيرا رأيت، تلد فاطمة غلاما يكون فى حجرك فولدت فاطمة الحسين، قالت فكان فى حجرى كما قال رسول الله ﷺ، فدخلت به فوضعته فى حجره ثم حانت منى التفاته فإذا عينا الرسول ﷺ تدمعان فقلت بأبى أنت وأمى يارسول الله مايبكيك، قال جاء جبريل عليه السلام فأخبرنى ان أمتى ستقتل ابنى هذا. وعن أم سلمة أنها قالت: «كان جبريل عليه السلام عند النبى ﷺ والحسين معى فغفلت عنه فذهب إلى النبى ﷺ فأخذه الرسول وجعله على فخذه، فقال له جبريل عليه السلام، أتحبه يا محمد، قال نعم، قال: أما إن أمتك ستقتله وإن شئت لأريتك تربة الأرض التى يقتل بها ثم بسط جناحه إلى الأرض وأراه أرضا يقال لها كربلاء، تربتها حمراء. وفى رواية: أن عبدالله بن عمر كان جالسا عند الكعبة مع زملاء له من المؤمنين فإذا به يلمح الإمام الحسين قادما على بيت الله، فقال ابن عمر لجلسائه «أتدرون من أحب أهل الأرض إلى أهل السماء اليوم، قالوا: لا، فقال ابن عمر: هذا القادم على بيت الله» وأشار إلى الإمام الحسين وكان يجالس القوم عراف من عراف البادية، فقال: «إذن فويل له من أهل الأرض، قالوا: ولماذا؟ قال: لأن موضعه فى السماء»، إنه لما كان اليوم السابع سماه حسينا وعق عنه بكبش وأمر أمه أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره فضة كما فعلت بأخيه الحسن فامتثلت ما أمرها به. وقيل إن الحسين لم يرضع من الزهراء ولا من غيرها

بل كان النبى ﷺ يضع إبهامه فى فيه فيمص منه ما يكفيه من اللبن ليومين أو ثلاثة فنبتت لحما للحسين من لحم الرسول ﷺ. يشبه الحسن فى مظهره البدنى رسول الله ﷺ، والحسين يشبه أباه عليا ويظهر أن هذا الشبه الجسدى كان معه أخلاق ممن يشبه، فالحسن أخذ من رسول الله جانب الحلم والعقل والصبر، والحسين أخذ من أبيه البأس والقوة والشجاعة والإقدام والمجاهرة. إن الإمام الحسن عندما جاءه أمر الخلافة وبايعه أهل الشرف من المسلمين ورأى أن الفتنة مستحكمة وأنها شديدة عالج الأمر كما رأينا بالصبر واضعا نصب عينه سلامة المسلمين وعدم إراقة الدم فاتفق مع معاوية وتنازل عن الخلافة، وقيل إن الإمام الحسين لم يوافق أخاه فى ذلك، فهنا كان عقل النبى، وهنا كان بأس على. وكانت السيدة الزهراء أشد ميلا إلى الحسين لتوافق نزعتهما إذ إنه كان صلب العود شديدا فى حقه، جريئا مقداما، وحدث أن كان الحسن والحسين يصطرعان، فكان رسول الله ﷺ يقول: (ويها ياحسين)، فقالت فاطمة: (يارسول الله لم تقول ويها يا حسين) فقال رسول الله ﷺ (إن جبريل عليه السلام يقول ويها ياحسين) [وويها كلمة إغراء وتحريض]، فسرى عن فاطمة رضى الله عنها وابتسمت حين عرفت ذلك. كنيته أبو عبدالله أما ألقابه فكثيرة منها: الرشيد، الطيب، الزكى والوفى، السيد، المبارك، السبط، والتابع لمرضات الله وأشهرها الزكى وأعلاها رتبة ما لقبه به ﷺ فى قوله عنه وعن أخيه «إنهما سيدا شباب أهل الجنة»، وكذلك السبط فإنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: حسين سبط من الأسباط أى أمة من الأمم[1].

عن أبى هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين هذا على عاتقه، وهذا على عاتقه وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى انتهى إلينا، فقال له رجل يارسول الله إنك تحبهما، فقال من أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى. وعن عبدالله بن مسعود قال: كان رسول الله ﷺ إذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره فأرادوا أن يمنعوهما فلما قضى الصلاة ضمهما إليه وقال: من

1 ـ توفيق أبو علم ـ أهل البيت ص419.

أحبني فليحب هذين. وعن الحسن بن أسامة بن زيد بن حارثة: أخبرني أبي أسامة. قال طرقت رسول الله ﷺ ذات ليلة لبعض الحاجة فخرج النبي ﷺ وهو مشتمل على شيء لا أدرى ما هو فلما فرغت من حاجتي قلت ما هذا الذي أنت مشتمل عليه فكشف فإذا حسن وحسين على ركبتيه فقال هذان ابناى وابنا بنتى اللهم تعلم أنى أحبهما فأحبهما، اللهم تعلم أنى أحبها فأحبها. وعن الحسين بن على قال: سمعت جدى رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يحيى حياتى ويموت ميتتى ويدخل الجنة التى وعدنى ربى فليتول علىّ بن أبى طالب وذريته الطاهرين أئمة الهدى ومصابيح الدجى من بعده، فإنهم لن يخرجوك من باب الهدى إلى باب الضلالة». وعن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله ﷺ تحشر ابنتى فاطمة يوم القيامة ومعها ثياب مصبوغة بدم فتتعلق بقائمة من قوائم العرش فتقول يا عدل ياجبار احكم بينى وبين قاتل ولدى، قال رسول الله ﷺ فيحكم الله لابنتى ورب الكعبة. قال الرسول ﷺ: «بى أنذرتم ثم بعلى بن أبى طالب اهتديتم وقرأ (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)، وبالحسن أعطيتم الإحسان وبالحسين تسعدون وبه تشقون، ألا وإن الحسين باب من أبواب الجنة من عانده حرم الله عليه رائحة الجنة» وعن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، وفى لفظ إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسين». وعن أبى هريرة قال: «رأيت رسول الله ﷺ يمتص لعاب الحسين كما يمتص الرجل التمرة». وعن زيد بن زياد قال: «خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة فمر على بيت فاطمة فسمع حسينًا يبكى فقال: «ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى». وروى أحمد أن بلالا أبطأ عن صلاة الصبح، فقال له النبى ﷺ، ما حبسك؟ قال: مررت بفاطمة وهى تطحن والصبى يبكى فقلت إن شئت كفيتك الرحى، وإن شئت كفيتك الصبى، فقالت أنا أرفق بابنى منك فذاك يارسول الله الذى حبسنى عنك.

خرج الرسول ﷺ فى ليلة لصلاة العشاء وهو حامل الحسين رضى الله عنه، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة، قال راوى الحديث: فرفعت

رأسى فإذا الصبى على ظهر رسول الله وهو ساجد، فرجعت إلى سجودى فلما قضى الصلاة، قيل يارسول الله: إنك سجدت بين ظهرى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك، قال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله». وعن أبى الزبير، عن جابر، قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يمشى على أربع وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول: «نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما» ومر الرسول عليهما وهما يلعبان، فطأطأ لهما عنقه وحملهما، وقال: «نعم المطية مطيتهما ونعم الراكبان هما». ويقول الرسول ﷺ: «أحشر أنا والأنبياء فى صعيد واحد، فينادى معاشر الأنبياء، تفاخروا بالأولاد فأفتخر بولدى الحسن والحسين». وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ آخذاً بيد الحسين بن على وهو يقول: «أيها الناس هذا حسين بن على فاعرفوه، فوالذى نفسى بيده لجد الحسين أكرم على الله من جد يوسف بن يعقوب، هذا الحسين جده فى الجنة، وأبوه فى الجنة وأمه فى الجنة، وعمه فى الجنة، وعمته فى الجنة، وخاله فى الجنة، وخالته فى الجنة، وأخوه فى الجنة، وهو فى الجنة».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ وإذا بفاطمة رضى الله عنها قد أقبلت تبكى، فقال لها النبى ﷺ: «مايبكيك؟ لا أبكى الله لك عينًا»: يا أبت، إن الحسن والحسين قد ذهبا منذ اليوم ولم أعلم أين ذهبا، وإن عليًا مشى على الدالية منذ خمسة أيام ليسقى البستان، وقد استوحشت لهما، قال ﷺ لها: «لاتبكين، فإن خالقهما ألطف بهما منى ومنك» ثم قال: «يا أبا بكر، اذهب فاطلبهما، وأنت ياسلمان» ولم يزل يوجه حتى مضت طائفة فى طلبهما، فرجعوا ولم يصيبوهما فاغتم النبى ﷺ، ثم قام ووقف على باب المسجد وقال: «إلهى بحق إبراهيم خليلك وبحق آدم صفوتك، إن كان قرتا عينى فى بر، أو بحر، أو سهل، أو جبل فاحفظهما وسلمهما لأمهما فاطمة سيدة نساء العالمين» فنزل الأمين جبريل وقال: «السلام عليك يارسول الله، الحق يقرئك السلام ويقول

لك: لاتحزن ولاتغتم، الغلامان هما الفاضلان فى الدنيا والآخرة وهما سيدا شباب أهل الجنة، وإنهما فى حديقة بنى النجار، وقد وكلت بهما ملكا يحفظهما، إن قاما أو قعدا أو ناما أو استيقظا» ففرح النبى ﷺ فقام ومعه صحابته حتى دخل الحديقة فوجدهما نائمين، فجثا النبى ﷺ على ركبتيه وانكب عليهما يقبلهما، ويقول: «حبيبى، حبيبى» حتى استيقظا فحملهما النبى ﷺ على كتفيه، الحسن على عاتقه الأيمن والحسين على عاتقه الأيسر، وكان يقول كلما قبلهما: «من أحبكما فقد أحبنى، ومن أبغضكما فقد أبغضنى» فقال أبو بكر رضى الله عنه: «أعطنى أحمل أحدهما يارسول الله» قال: «نعم المطى مطيهما، ونعم الراكبان هما» ولم يزل النبى ﷺ سائراً حتى دخل المسجد وبعث بهما إلى ابنته فأخذتهما الروحة والهزة وتولاها السرور والحبور. وعن أم أيمن، قالت: جاءت فاطمة إلى النبى ﷺ، فقالت يارسول الله أنحلهما، قال: «نحلت هذا الكبير المهابة والحلم، ونحلت هذا الصغير المحبة والرضا»، وبفضل هذه النحلة السنبوية ترى الناس فى كل قرن مجمعين على محبته منكبين على التقرب من حضرته[1].

يظهر فى قانون الوراثة بأنها على صنفين وراثة تاريخية ووراثة تأثرية أو انفعالية ونعنى بالأولى انتقال الصفات النفسية التى للأجداد إلى المولود وبالثانية انتقال أنواع الشعور التى تتأثر بها الأم إلى الجنين. هذا الصنف من الوراثة ثابت الأثر وهو قانون طبيعى تخضع له جميع قوى الإنسان ومداركه المادية والعقلية والأدبية وما يسمى اليوم بالجينات الوراثية فقد اكتشفته الهندسة الوراثية، فقد مال آل هاشم منذ أقدم التاريخ إلى التدين والتخصص بالشؤون الدينية فكانوا يشرفون على المناسبك فى الجاهلية ويتولون أعمالها بين أيدى الناس، وكان لهم بحكم هذا التخصص تربية خاصة تتصل اتصالا وثيقًا بإبداع الضمير الدينى وإزكاء الشعور ذى اللون التألهى، وبالفعل نرى أكثر رجالاتهم فى الجاهلية يضفو عليهم شعور من هذا القبيل، فهاشم وعبدالمطلب وأبو طالب ثلاثتهم على لون واحد من الأخذ

---

1 ـ توفيق ابو علم ـ نفس المرجع ص432.

الدينى والانتزاع الاجتماعى، وقد كملت الوراثة الدينية برسول الله محمد ﷺ إذ كان مظهراً للضمير الدينى على أتم أشكاله وأكمل أوضاعه، فالحسين كان إذاً غنيا ما فى ذلك شك بما تراكب فى دمه من الوراثات الدينية المتصلة على طول حبل النسل الممدود فى أعماق الماضى البعيد، ولقد كان لهذه الوراثة بواد ظاهرة فى كل تصرفات الحسين الخاصة والعامة مما يضفى من أحاسيس تنزع بصاحبها إلى المحافظة والتمسك بأهداب المثل وإيقاع الجهود بسبيل صيانتها[1].

نعلم أن السيدة فاطمة وضعت الحسين ولها من العمر عشرون عامًا وهى لاتفتأ جاهدة على أعمال التقوى فمن ناحية أثر الوراثة التأثرية ففى العام الثالث للهجرة كان فيها الحسين جنينا وقعت غزوة أحد وهذه أحدثت أبلغ الأسى وأعمقه فى النفوس عامة ونشرت على الوجوه نوعا من الكآبة ومسحتها بسحابة قاتمة بسبب ما أصاب المسلمين والنبى أصيب بعمه حمزة (رضي الله عنه) وجزعت السيدة فاطمة من نتائج هذه الغزوة وأدركها الأسى العميق والحزن المرير، ومعنى هذا أن الانفعالات التى تأثرت بها ورثتها لجنينها وهى اخذ النفى بأعمال البر والتعلق بحبائل التقوى، وغلبة الشعور بنوع من الأسى، فقد كانت هذه الظاهرة واضحة عند الحسين فى حياته ولذا نراه قليل المرح قليل العبث كثير التفكير بمستقبل الإسلام والأمة الإسلامية، ولاشك أن السيدة فاطمة قد ملك مشاعرها للانتقام من أعداء أبيها وهذا الشعور ورثه الحسين وشاءت الظروف أن يكون أعداء جده رسول الله ﷺ الذين وتروه فى أحد كفار قريش وزعيمهم أبو سفيان الأموى، هم أعداء الحسين يوم استقبل الأمويين معاوية وابنه يزيد بالكفاح وقد وتروه أيضا، فالحسين كان مثقلا بمتارك الوراثة التأثرية والتاريخية الدينية وهو من بين هاتين الوراثتين كانت له سيرته الخاصة ينزل منه منزلة الطبع لايجور ولا يحول وساعدته لون التربية فى الطفولة ومشاهد الرجولة ومروره بعدة ثورات لها خطرها كالثورة على عثمان وثورة الخوارج على أبيه وثورة أهل المدينة فهذه الوراثة وما اقترن بها من

1 ـ عبدالله العلايلى ـ نفس المرجع ص290.

التربية والمشاهدات أعدت منه رجلا كبيراً خليقا بأن يقوم بتطبيق أفكار الإصلاح الشامل التى أعدها جده العظيم رسول البشرية محمد ﷺ ووالده الإمام على رضي الله عنه[1].

حفل رسول الله ﷺ بمولوده الحسين، ثم انصرف إليه يمارس فيه عمل الإنسان الكامل حتى إذا تركه ترك فيه إنسانية رفيعة على الشكل الذى وضع الله تصميمه فى القرآن، فالنبى ﷺ كان يحاول أن يفرغ ما انطوت عليه نفسه الكبيرة من مكنونات إفراغًا فى روح الفتى الحسين بأسلوب كما تشاء الطفولة يجمع بين طراوتها وبين جد المعنى الكبير الذى يعده له وكان يعمل على أن ينقضى فى رقعة نفس الفتى الحسين ما اجتمع فى رقعة نفسه وإنما استوى فى نفسه (ﷺ) الإنسانية المثالية الأتم للحق والإيمان، فالمربت النبوى أخرج اثنين فقط كان أحدهما مثالا لكلمة الحق الهادئة وكان الآخر مثالا لتلك الكلمة أيضا ولاتجلو طبيعة الإنسان إلا صرخة الحق المدوية، وأراد النبى (ﷺ) أن يشيع الغرض التربوى فى نفس الفتى الحسين وكذلك الإمام على (رضي الله عنه) من بعده الذى ما فتئ يمده بالمعنوية المتدفقة، فادبيات الإسلام ومثالياته عادت فى نفس الأب من الصنف اللاإرادى، فالنبى (ﷺ) كذلك أراد سبطه فبارك طفولته وأخذه بضرب من التهذيب العميق الذى كانت له نتائج مثلى. فالحسين (رضي الله عنه) عايش جده إلى ما بعد السادسة من عمره ولاريب فى أنها سن تسمح لصاحبها بأن ينقل إلى دخيلة نفسه كثيراً من مشاهداته يساعده على ذلك الخلو النفسى وهذه المشاهدات تركت فى نفسه آثاراً لها شأنها ولها خطرها. وإذا نظرنا إلى أن النبى (ﷺ) علقه وأخاه حتى عدهما ريحانته وقفنا على مقدار ما زودهما به النبى (ﷺ) من آيات تربيته العالية وما أغدق به عليهما من هبات نفسه الكبيرة. والظاهرة البادية فى تربية النبى التى كانت لاتخفى حتى كأنها المدار التربوى هى الأخلاق والأخلاق قبل كل شىء فهى عامل تقدم وبقاء. وقد عنيت فاطمة بالحسين ببث المثل الإسلامية الاعتقادية لتشيع فى نفسه

---

1 ـ عبدالله العلايلى ـ الإمام الحسين ـ ص280.

فكرة الفضيلة على أتم معانيها وأصح أوضاعها فالسيدة فاطمة أنمت فى نفسه فكرة الخير والحب المطلق والواجب ومدت فى جوانحه وخوالجه أفكار الفضائل العليا بأن وجهت المبادئ الأدبية فى طبيعته الوليدة من أن تكون هى نقطة دائرتها إلى الله الذى هو فكرة يشترك فيها الجميع[1].

أخلاق الحسين: كان ملء العين والقلب من خلق وخلق وفى أدب وسيرة وكانت فيه مشابهة من جده وأبيه إلا أنه كان فى شدته أقرب إلى أبيه. وقد كان الغالب على الحسن الحلم والأناة كالرسول ﷺ، وعلى الحسين الشدة، كالإمام والده، وكان كثير الصوم والصلاة والحج، وحج الحسين بن على عليهما السلام خمسًا وعشرين حجة ماشيًا على قدميه وكان يجالس المساكين ويقرأ: (إن الله لايحب المتكبرين)، ومر على صبيان معهم كسرة، فسألوه أن يأكل معهم فأكل ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم بعض ما أقدر عليه. وروى أن أعرابيًا من البادية قصد الحسين عليه السلام، وكان جالسًا فى مسجد الرسول ﷺ فسلم عليه، فرد عليه السلام وقال: «يا أعرابى فيم قصدتنا» قال: قصدتك فى دية مسلمة إلى أهلها، قال: «أقصدت أحدًا قبلى» قال عتبة بن أبى سفيان فأعطانى خمسين دينارًا فرددتها عليه، وقلت: لأقصدن من هو خير منك وأكرم، فقال عتبة: ومن هو خير منى وأكرم لا أم لك، فقلت: إما الحسن بن على، وإما عبدالله بن جعفر. وقد أتيتك بدءًا لتقيم بها عمود ظهرى وتردنى إلى أهلى. فقال الحسين: «والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، وتجلى بالعظمة ما فى ملك ابن بنت نبيك إلا متنا دينار فأعطه إياها يا غلام، وإنى أسائلك عن ثلاث خصال إن أنت أجبتنى عنها أتممتها خمسمائة دينار، وإن لم تجبنى ألحقتك فيمن كان قبلى. فقال الأعرابى: أكل ذلك احتياجًا إلى علمى، أنتم أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة. فقال الحسين: لا، ولكن سمعت جدى رسول الله ﷺ يقول «أعطوا المعروف بقدر المعرفة»؟ فقال الأعرابى: فسل، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فقال الحسين: ما

---

1 ـ عبدالله العلايلى ـ نفس المرجع ص285.

النجاة من الهلكة؟ فقال: التوكل على الله. فقال: أى الأعمال أفضل؟ قال: الثقة بالله. قال: أى شىء خير للعبد فى حياته؟ قال علم معه حلم. قال: فإن خانه ذلك؟ قال: مال يزينه سخاء وسعة. فقال: فإن أخطأه ذلك؟ قال: الموت والفناء خير له من الحياة والبقاء. وناوله الحسن خاتمه وقال: بعه بمائة دينار، وناوله سيفه وقال: بعه بمائتى دينار، واذهب فقد أتممت لك خمسمائة دينار. فقال الأعرابى:

طربت وما هاج لى معبق ... وما بى سقام ولا موبق
ولكن طربت لآل الرسول ... ففاجأنى الشعر والمنطق
فأنت الهمام وبدر الظلام ... ومعطى الأنام إذا أملقوا
أبوك الذى فاز بالمكرمات ... فقصر عن وصفه السبق
وأنت سبقت إلى الطيبات ... فأنت الجواد وما نلحق
بكم فتح الله باب الهدى ... وباب الضلال بكم مغلق

وجاءه رجل من الأنصار يريد أن يسأله حاجة فقال يا أخا الأنصار صن وجهك عن ذلة المسألة وارفع حاجتك فى رقعة فإنى آت فيها ما هو سارك إن شاء الله، فكتب يا أبا عبد الله إن لفلان على خمسمائة دينار، وقد ألح بى فكلمه أن ينظرنى إلى ميسرة، فلما قرأ الحسين رضى الله عنه الرقعة دخل إلى منزله فأخرج صرة فيها ألف دينار وقال له: «أما خمسمائة فاقض بها دينك، وأما خمسمائة فاستعن بها على دهرك ولاترفع حاجتك إلا إلى ثلاثة إلى ذى دين أو مروءة أو حسب، فأما ذو الدين فيصون دينه، وأما ذو المروءة فإنه يستحى لمروءته، وأما ذو الحسب فيعلم أنك لم تكرم وجهك أن تبذله فى حاجتك فهو يصون وجهك أن يردك بغير قضاء حاجتك». ولما أخرج مروان بن الحكم الأموى الفرزدق من المدينة أتى الفرزدق الحسين رضى الله عنه فأعطاه الحسين أربعمائه دينار، فقيل له إنه شاعر فاسق فقال إن خير مالك ما وقيت به عرضك، وقد أثاب رسول الله ﷺ كعب بن زهير وقال فى العباس بن مرداس اقطعوا لسانه عنى. وروى ابن عساكر

فى تاريخ دمشق أن سائلا خرج يتخطى أزقة المدينة حتى أتى باب الحسين فقرع الباب وأنشأ يقول: [1]

لم يخب اليوم من رجاك ومن — حرك من خلف بابك الحلقة

فأنت ذو الجود أنت معدنه — أبوك قد كان قاتل الفسقة

وكان الحسين واقفًا يصلى فخفف من صلاته وخرج إلى الأعرابى فرأى عليه أثر ضر وفاقة فرجع ونادى بقنبر فأجابه: لبيك يا ابن رسول الله ﷺ، قال ما تبقى معك من نفقتنا؟ قال مائتا درهم أمرتنى بتفريقها فى أهل بيتك، فقال هاتها فقد أتى من هو أحق بها منهم فأخذها وخرج يدفعها إلى الأعرابى وأنشأ يقول:

خذها فإنى إليك معتذر — واعلم بأنى عليك ذو شفقه

لو كان فى سيرنا عصا تمد إذن — كانت سمانا عليك مندفقه

لكن ريب الزمان ذو نكد — والكف منا قليلة النفقه

فأخذها الأعرابى وولى وهو يقول:

مطهرون نقيات جيوبهم — تجرى الصلاة عليهم أينما ذكروا

وأنتم أنتم الأعلمون عندكم — علم الكتاب وما جاءت به السور

وجاءه رجل من العرب أخنى عليه الدهر يستجديه بقوله:

لم يبق عندى ما يباع ويشترى — يكفيك ظاهر منظرى عن مخبرى

إلا بقية ماء وجه صنته — عن أن يباع ونعم أنت المشترى

فأعطاه رضى الله عنه ما بيده وقال

عاجلتنا فأتاك عاجل برنا — نزرًا ولو أمهلتنا لم نقتر

فخذ القليل وكن كأنك لم تكن — بعت المصون وأننا لم نشتر

---

1 ـ عبدالله العلايلى ـ نفس المرجع ص289.

جاء رجل إلى أخيه الحسن يستعين به في حاجته فاعتذر باعتكافه فذهب إليه فقضى حاجته، وقال: لقضاء حاجة في الله عز وجل أحب إلى من اعتكافي شهرا. ويقول في ذلك: «اعلموا أن من نعم الله عليكم حوائج الناس إليكم فلا تملوا من تلك النعم فتعود نقمًا واعلموا أن المعروف يكسب حمداً ويعقب أجراً فلو رأيتم المعروف رجلا لرأيتموه رجلا جميلا يسر الناظرين، ولو رأيتم اللؤم رجلا لرأيتموه رجلا قبيح المنظر تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار»[1]

تواضعه وزهده: كان الإمام الحسين سيداً زاهداً ورعا صالحا ناصحا حسن الخلق، ذهب ذات يوم مع أصحابه إلى بستانه وكان في ذلك البستان غلام له، اسمه صافي، فلما قرب من البستان رأى الغلام قاعداً يأكل خبزاً، فنظر الحسين إليه وجلس عند نخلة مستتراً لايراه، فكان يرفع الرغيف فيرمي بنصفه إلى الكلب ويأكل نصفه الآخر، فتعجب الحسين من فعل الغلام، فلما فرغ من أكله قال: «الحمد لله رب العالمين، اللهم اغفر لي واغفر لسيدي وبارك له كما باركت على أبويه برحمتك يا أرحم الراحمين». فقام الحسين، وقال: ياصافي!! فقام الغلام فزعًا، وقال: يا سيدي وسيد المؤمنين، إني ما رأيتك فاعف عني فقال الحسين: اجعلني في حل ياصافي لأني دخلت بستانك بغير إذنك. فقال صافي: بفضلك ياسيدي وكرمك وسؤددك تقول هذا.

فقال الحسين: رأيتك ترمي بنصف الرغيف للكلب وتأكل النصف الآخر فما معنى ذلك؟ فقال الغلام: إن هذا الكلب ينظر إلى حين آكل فأستحي منه يا سيدي لنظره إلي، وهذا كلبك يحرس بستانك من الأعداء فأنا عبدك وهذا كلبك فأكلنا رزقك معا. فبكى الحسين وقال: أنت عتيق الله وقد وهبت لك ألفي دينار بطيبة من قلبي. ومر الحسين رضى الله عنه بمساكين وهم يأكلون كسراً على كساء فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فجلس معهم وقال: لولا أنه صدقة لأكلت معكم،

1 ـ توفيق أبو علم ـ المرجع السابق ص442.

ثم قال قوموا إلى منـزلى فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهـم. ومر عليه السلام بمساكـين يأكلون فى الصفـة، فقالوا الـغذاء فنزل وقال إن الله لايحب المـتكبرين فتغذى، ثم قال لهم قد أجبتكم فـأجيبونى قالوا نعم فمضى بهم إلى منزله، وقال للرباب أخرجى ما كنت تدخرين»[1].

عبادته وعاداته: الإمام الحسين رضى الله عنه، رجل متعبد، طيب القلب، نقى الضمير فاضلا، كثير الصـوم والصلاة والحج والصدقة وفعل الخير، وقد كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة. وقد روى ابن عـبد ربه فى العقد الفريد: قيل لعلى بن الحـسين: ما كـان أقل ولد أبيك، قـال: العجب كيف ولـدت له، كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة فمتى كان يتفرغ للنساء.

أما عاداته فى معيشته فكان ملاكها: لطف الحس وجمال الذوق والقصد فى تناول كل مباح. وروى أنس بـن مالك أنه كان عنده، فدخلت عليـه جارية بيدها طاقة من ريحان فحـيته بها. فقال لها: «أنت حرّة لوجـه الله تعالى». فسأله أنس متعجبًا: «جـارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقـها؟». قال: كذلك أدبنا الله، قال الله سبحانه وتعالى: (**وإذا حيـيتم بتحيـة فحيوا بأحـسن منها أو ردوها**) وكان أحسن منها عـتقـها. وجنى بعض مـواليه جناية توجب التـأديب، فأمر بتـأديبه فـقال يا مولاى: قـال الله تعالى: (**والكاظمـين الغيظ**). قـال عليه السـلام: «خلوا عنه كظمت غيظى». فـقال: (**والعافـين عن الناس**). قال عليـه السلام: «قد عـفوت عنك». فقال: (**والله يحب المحسنين**). قال: «أنت حر لوجه الله تعالى» وأجازه بجائزة سنية[2].

أهل بيته: أما أهل بيته من أبنائه وأخوته وبنى أخيه وبنى عمه، فكانوا خيرة أهل الأرض وفاء وإباء وشجاعة وإقدامًـا، وعلو همم وشرف نفوس وكرم طباع، أبوا أن يفارقوه وقـد أذن لهم؛ وفدوه بنفوسهم وبذلوا دونه مهـجهم، وقالوا له لما

1 ـ توفيق أبو علم ـ نفس المرجع ص446.
2 ـ توفيق أبو علم ـ نفس المرجع ص451.

أذن لهم بالانصراف: ولم نفعل ذلك لبقى بعدك لا أرانا الله ذلك أبدًا، ولما قال لبنى عقيل: حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم، اذهبوا قد أذنت لكم.

لم يقم الشيعة بأى ثورة ضد «معاوية بن أبى سفيان»، طوال مدة خلافته (41 ـ 60هـ)، وإنما اندلعت أول ثوراتهم بقيادة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين بن على عليهما السلام» فى خلافة «يزيد بن معاوية»، بعد أن رفض «الإمام الحسين ﷺ» بيعة «يزيد»، وكان قد رفض من قبل تعيينه وليا للعهد فى زمن ابيه[1].

ولم تكن شيعة أهل البيت مقصورة على الكوفة ولكنها كانت منتشرة فى آفاق البلاد، تقل فى بعضها وتكثر فى بعضها الآخر. وكانت أمزجتها تختلف فى المعارضة باختلاف كثرتها وقلتها، وباختلاف سياسة الولاة لها، فكانت تتفق قبل كل شىء على أن ولاية معاوية شر ليس من احتماله بدّ، حتى تتهيأ الفرصة للتخلص منه، إما باستراحة الأبرار وحسن استعدادهم للخروج وقدرتهم عليه، وإما بموت الفجار وعودة الأمر شورى بين المسلمين. وكانت الشيعة تنشط أشد النشاط فى نشر الدعوة للإمام من أهل البيت بحيث يؤول الأمر إليه، حين يستشار المسلمون فى أمر خلافتهم، فكانوا يدعون إلى إمامهم فى السلم، يلينون فى هذه الدعوة ويشتدون، حسبما يكون لهم من الأمزجة وما يتاح لهم من الفرص والظروف. وكان الإمام الحسن ﷺ نفسه وفيًا لمعاوية ببيعته، حفيظًا له على عهده، مستعينًا به إن احتاج إلى المعونة مهما يكن نوعها، ولكنه على ذلك كان معارضًا ولم يكن يستخف معارضته، وإنما كان يظهر منها ما يشاء فى المدينة حيث كان يقيم، وفى مكة حين كان يُلم بها أثناء الموسم. وكانت الفرص تواتيه أحسن المواتاة وأيسرها. فهو كان عذب الروح حلو الحديث كريم المعاشرة حسن الألفة محببًا إلى الناس، يحبه أترابه من شباب قريش والأنصار لهذه الخصال، ويحبه الشيوخ من أصحاب النبى لهذه الخصال ولمكانه من النبى، ويحبه عامة الناس لكل هذا ولسخائه وجوده وإعطائه المال حين يسأل وحين لايسأل. وكان يصبح فيصلى

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص37.

الصبح ويجلس فى مكانه، حتى إذا ارتفعت الشمس طاف بأمهات المؤمنين زائراً لهن متحدثًا إليهن، يبرُّهن ويبررنه، ويهدى إليهن ويهدين إليه، ثم يفرغ لبعض شأنه. فإذا صُلِّيت الظهر جلس للناس فى المسجد فأطال الجلوس يسمع منهم ويقول لهم، يعلّم من احتاج منهم إلى العلم، ويؤدب من احتاج منهم إلى الأدب، ويسمع من شيوخ الصحابة من يفيده علمًا وأدبًا. وكان فى أثناء هذا كله إذا ذكر السلطان أو ذكر السلطان عنده يعرف الخير وينكر الشر فى أرق لفظ وأعذبه. ولكنه كان يشتد حتى يبلغ القسوة إن ذكر أبوه بغير مايحب، أو لقى من بغى أباه الغوائل أو سعى إليه بمكروه. وكان بعد هذا كله يحسن كما أحسن الله إليه، ولاينسى نصيبه من الدنيا. فكان، فيما اتفق المؤرخون والرواة عليه، مزواجًا مطلاقًا، حتى أنكر أبوه عليه ذلك، ونهى الناس عن تزويجه، فلم ينتهوا وكابروا أباه فى ذلك مداعبين له. كانوا يرون فى الإصهار إلى سبط النبى وابن أمير المؤمنين شرفًا أى شرف[1].

وكان معاوية رفيقًا بالحسن أعظم الرفق، واصلا له أحسن الصلة. ولكن معارضة الإمام الحسن ﷺ كانت تبلغه، فيعاتبه فيها لينًا حينًا وشديداً حينًا. ولكن مكان الإمام الحسن ﷺ من معاوية لم يكن محببًا إليه، فقد كان معاوية رجلا بعيد النظر، لم يكد يطمئن إلى الخلافة ويرى أنها قد اطمأنت إليه، حتى فكر فى أن يجعلها تراثًا بعده لآل أبى سفيان، وكان يفكر فى ابنه يزيد دائمًا، فيرى أن الإمام الحسن ﷺ هو الحائل بينه وبين ما يريد من ذلك، فهو قد تعجل الصلح مع الإمام الحسن ﷺ فعرض عليه ولاية الأمر من بعده. ومن الحق أن الإمام الحسن ﷺ لم يقبل منه ذلك، وإنما اشترط عليه أن تكون الخلافة بعده شورى بين المسلمين، يختارون لها من أحبوا. وكان الإمام الحسن ﷺ فى أكبر الظن يرى أن المسلمين لن يعدلوا به بعد وفاة معاوية أحداً. وكانت الشيعة تؤمن بذلك أشد الإيمان، وتدعو له فتلح فى الدعاء. توفى الإمام الحسن ﷺ عام

---

1 ـ طه حسين ـ على وبنوه ص192.

خمسين للهجرة. وإن معاوية قد دس إليه من سمه ليخلو له ولابنه وجه الخلافة. ومؤرخو أهل السنة مع ذلك يتحدثون بأن الإمام الحسن عليه السلام نفسه قال لبعض عائديه في مرضه الأخير: «لقد سقيت السم مرات، ولكنى لم أسق قط سمًا أشد على من هذا الذى سقيته هذه المرة. ولقد لفظت آنفًا قطعة من كبدى». ويتحدثون كذلك بأن أخاه الإمام الحسين عليه السلام سأله عمن سقاه السم، فأبى أن ينبئه به مخافة أن يقتص منه. يئس الإمام الحسن عليه السلام من الحياة وكره أن يلقى الله وقد اقتص له. فآثر أن يكل هذا القصاص إلى الله عز وجل. وأن جعدة بنت الأشعث بن قيس زوج الإمام الحسن عليه السلام هى التى اختارها معاوية لتدس السم للحسن فى بعض شرابه أو طعامه، ورشاها فى ذلك بمائة ألف دينار. وأنه وعدها بأن يتخدها لنفسه زوجًا. فلما مات الإمام الحسن عليه السلام وفى لها معاوية بالمال وكره أن يتزوجها، مخافة أن تفعل به مافعلت بالحسن. وذهب بها أصحابها إلى ما عرف من كيد الأشعث بن قيس لعلى فأرادوا أن تكون ابنته هى التى كادت للحسن حتى أوردته الموت. عرف الموت بالسم فى أيام معاوية على نحو غريب مريب. مات الأشتر مسمومًا فى طريقه إلى ولاية مصر، فخلصت مصر لمعاوية وقال معاوية وعمرو: «إن لله لجندًا من عسل». ومات عبدالرحمن بن خالد بن الوليد مسمومًا بحمص فى خبر طويل. ومات الحسن بين هذين الرجلين مسمومًا، وخلصت الخلافة لمعاوية وابنه يزيد. وما ينبغى أن يذكر أمر الإمام الحسين بن على عليهما السلام، فإن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن قد نصب نفسه للبيعة ولم يكن إمامًا للمسلمين، ولم يكن معاوية قد صالحه ولا وعده ولا شرط له. ومع ذلك فقد هم معاوية أن ينحى الإمام الحسين عليه السلام عن مكانه شيئًا لتخلص له الطريق من ابنى فاطمة وسبطى النبى. فقال ذات يوم لعبد الله بن عباس ممازحًا وهو يريد الجد: «أنت سيد قومك بعد الحسن»، ولكن عبدالله بن عباس لم ينخدع له وإنما أجابه فى صرامة: «أما وأبو عبدالله حى فلا». ومع ذلك فلم يتردد معاوية ـ فى أن يبايع بولاية العهد لابنه يزيد، وأكره الإمام الحسن عليه السلام كما أكره غيره من شباب المهاجرين على أن يسكتوا عن هذه البيعة، التى كانوا ينكرونها فى أنفسهم أشد

الإنكار. ومهما يكن من شيء فقد صارت رياسة الشيعة إلى الإمام أبى عبدالله الحسين بن على عليه السلام، بعد وفاة أخيه[1].

«وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبة، فإن معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص، فبلغه ذلك فقال: الرأى أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتى للولاية. فسار إلى معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم اكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبدا. ومضى حتى دخل على يزيد وقال له: إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبى ﷺ وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنما بقى أبناؤهم وأنت من افضلهم واحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال: أو ترى ذلك يتم؟ قال: نعم. فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة، فأحضر المغيرة وقال له مايقول يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفى يزيد منك خلف، فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولاتكون فتنة. قال: ومن لى بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك. قال: فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق إليه فى ذلك وترى ونرى، فودعه ورجع إلى أصحابه فقالوا: مه؟ قال: لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليهم فتقا لا يرتق أبدا. وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنه شيعه لبنى أمية أمر يزيد، فأجابوا له بيعة، وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة، وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها. فقال معاوية: لاتعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم. ثم قال لموسى: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفا. قال: لقد هان عليهم دينهم»[2].

---

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص194.

2 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص86 وانظر: ابن الاثير ج3 ص503 ـ 504 الطبرى ج6 ـ ص168.

«ثم كتب معاوية بعد ذلك إلى مروان بن الحكم: إنى قد كبرت سنى ودق عظمى، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدى، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى، وكرهت أن أقطع أمرا دون مشورة من عندك، فاعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك. فقام مروان فى الناس فأخبرهم به، فقال الناس: أصاب ووفق، وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأعاد إليه الجواب بذكر يزيد، فقام مروان فيهم وقال: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل. وقد استخلف ابنه يزيد بعده. فقام عبدالرحمن بن أبى بكر فقال: «كذبت والله يامروان وكذب معاوية ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل». «ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهرى، لما اجتمع الوفود عنده: إنى متكلم فإذا سكت فكن أنت الذى تدعو إلى بيعة يزيد وتحثنى عليها. فلما جلس معاوية للناس تكلم، فعظم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر، ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض ببيعته، فعارضه الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين إنه لابد للناس من وال بعدك وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيرا فى العاقبة والأيام عوج رواجع والله كل يوم فى شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين، فى حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت وهو من أفضلنا علما وحلما وأبعدنا رأيا فوله عهدك واجعله لنا علما بعدك ومفزعا نلجأ إليه ونسكن فى ظله. وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو من ذلك ثم قام يزيد بن المقنع العذرى فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال معاوية: اجلس فأنت سيد الخطباء. وتكلم من حضر من الوفود. فقال معاوية للأحنف: ما تقول يا أبابحر؟ فقال: نخافكم إن صدقنا، ونخاف الله إن كذبنا وأنت أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه،

فإن كنت تعلمــه لله تعالى وللأمة رضى فلا تشـاور فيه، وان كنت تعلم فيـه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا».

فأحـضر الإمام الحـسين بن على عليـهما السـلام، عبدالرحـمن بن أبى بكر وابن الزبير» وقال: قـد علمتم سيرتى وصلتى لأرحامكم وحـملى ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه لايعارضكم فى شىء من ذلك. فـسكتوا فقال: ألا تجيبون؟ مرتين. ثم أقبل على ابن الزبير، فقال: هات لعـمرى إنك خطيبهم. فقال: نعم: نخيرك بين ثلاث خصال. قال: اعـرضهن. قال: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر. قال معاوية: ماصنعوا؟ قال: قبض رسول الله ﷺ، ولم يستـخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فـيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختـلاف. قالوا: صدقت، فاصنع كما صنع أبو بكر فـإنه عهد إلى رجل من قاصية قـريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه، وإن شـئت فاصنع كما صنع عمر، جعل الأمـر شورى فى ستة نفر ليس فيـهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه.

قال معـاوية: هل عندك غير هذا؟ قـال: لا. ثم قال: فأنتم؟ قالوا: قـولنا قوله. قال: فـإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم، إنه قد أعـذر من أنذر، إنى كنت أخطب فيكم فيـقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس فـأحمل ذلك وأصفح، وإنى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على أحـدكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمة غـيرها حـتى يسبقـها إلى رأسـه، فلا يبقـين رجل إلا على نفســه، ثم دعا صاحب حرســه بحضرتهم فـقال: أقم على راس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحـد سـيف، فـإن ذهب رجل منهم يرد عـلى كلمـة بتـصـديق أو تكذيب فليضرباه بسيفـهما. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبـر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلميـن وخيارهم لا يبت أمر دونهم ولايقض إلا عن مـشورتهم، وأنهم قـد رضوا وبايعـوا ليزيد، فـبايعـوا على اسم الله! فبـايع

الناس، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر، ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة، فلقى الناس أولئك النفر فقالوا لهم: زعمتم أنكم لاتبايعون فلم أرضيتم وأعطيتم وبايعتم؟ قالوا والله ما فعلنا فقالوا: ما منعكم أن تردوا على الرجل؟ قالوا: كادنا وخفنا القتل»[1].

«بويع يزيد بالخلافة بعد موت أبيه ولم يكن ليزيد همة إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب إلى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان وكان على المدينة يخبره بموت معاوية، وكتابا آخر صغيرا فيه: أما بعد فخذ حسينا ابن على وعبدالله ابن عمر وابن الزبير بالبيعة أخذا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام». ولو أن معاوية كان أكثر اهتمامًا بسلطان الإسلام منه بسلطان بنى أمية، لوفر على الإسلام وعلى المسلمين كثيراً من المخاطر والمهالك التى أفضى إليها حرصه على ذلك السلطان والملك. لقد جشمه ذلك الحرص ما كان يعود عليه نفسه بالغرم الأكيد. وإنا لنذكر - مثلا - تشجيعه النزعة القبلية بإيثاره فى العطاء وفى المكانة بعض القبائل على بعضها الآخر، فهو يغدق على «القبائل اليمانية» ويميزهم فى العطاء. ويجعل لهم كيانًا عسكريًا قائمًا بذاته، ثم لايلبث أمرهم أن يعلو ويتفاقم، حتى راحوا يمنون عليه بما هو فيه من سلطان، ويقولون: لولا نحن ما كان معاوية. نرى أن الحلم الذى لم يعرف فى التاريخ بمثل ما عرف به نرى هذا الحلم وهو أبرز خلائقه ومميزاته لايغنى عنه شيئًا فى درء صفة القسوة والقتل عن عصره وحكمه، فمصرع «حجر بن عدى» وأصحابه بأمر معاوية وعلى مقربة من قصره بالشام بغير جريرة ولا ذنب، حدث يجلل سلطان معاوية بالسوء، لقد كان حادثًا بشعًا، حتى لقد ندم هو نفسه على اقترافه، وبقى إلى آخر عمره غصة تفزعه وتضنيه، ثم وصيته إلى ولده يزيد أن «إذا خرج عليك عبد الله بن الزبير فظفرت به فقطعه إربًا

---

1 - د. عبدالله فهد النفيسى - نفس المرجع ص89 وانظر ابن الاثير ج4 - الطبرى ج6 ص188.

.. إربًا»!! ثم قسوة ولاته، واستعلاؤهم على المسلمين بصورة تثير غيظ الحليم.!!

وفى مصر ـ مثلا ـ لنحفظ ونذكر خطبة أخيه عتبة بن أبى سفيان الذى ولاه أمرها بعد موت «عمرو بن العاص» إذ استهل حكمه وولايته بأن جمع أهل مصر الطيبين الودعاء، وقام فيهم خطيبًا بهذه القوارع: «يا حاملى الأم أنف ركب بين أعين.. !! إنى إنما قلّمت أظفارى عنكم؛ ليلين محسنا لكم، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على السلطان، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت أدواءكم، وإلا فالسيف من ورائكم، يا أهل مصر، قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم. وقد وليكم من إذا قال فعل. فإن أبيتم درأكم بيده، فإن أبيتم درأكم بسيفه. إن البيعة شائعة. لنا عليكم السمع، ولكم علينا العدل».

كانت مجزرة كربلاء سببا مباشرًا فى ضياع الملك من بيت معاوية وذريته إلى الأبد بعد أربع سنوات من وفاته، ثم انتقال هذا الملك إلى بطن آخر من بطون بنى أمية، أولئك هم بنو مروان. لقد اهتزت أعطاف «معاوية» بالإمارة والملك، أربعين عامًا كاملة، عشرين عامًا، أميرًا، وعشرين عامًا، ملكًا، أفما كان يكفيه ذلك، ثم يترك الأمر من بعده لاختيار المسلمين، ليكون فى ذلك على الأقل وفاء بالعهد الذى أبرمه مع سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسن عليه السلام» والذى كان أهم شروطه للتنازل له عن الخلافة ..؟؟ إن ذلك لم يحدث، ولقد قرر معاوية بتدبير منه، أو بإيحاء من بعض مشيريه، أو بهما معًا، أن يستبقى السلطان فى بيته وأسرته، واختار لذلك أبعد الناس عن الصلاحية للأمر ولده «يزيد». فحين أحسَّ خمود صحته. ودنو نهايته، شرع على عجل يفرض ـ يزيد ـ على الناس ويهيئ له مكانه وبدأ بالمدينة حيث كان بها نفر جليل من بقية الصحابة ولم يكد واليه عليها وقريبه فى نفس الوقت ـ مروان بن الحكم ـ يعرض الأمر على المسلمين الذين احتشدوا فى المسجد الكبير، حتى جابهته معارضة رهيبة. لقد وقف «عبدالرحمن ابن أبى بكر» يقول لمروان: «والله، ما الخيار أردتم لأمة محمد. ولكنكم تريدون

أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل، قام هرقل..» وتلاه «الحسين» فرفض فى كلمات قواطع هذا العبث بمصاير الإسلام والمسلمين وتلاه «عبدالله بن الزبير» فدمدم على مروان وعلى معاوية بكلمات كألسنة اللهب..!![1].

الاختلاف كان بين الأخوين الإمام الحسن والحسين عليهما السلام فى الطبع والمزاج والسيرة شديداً، وكان الإمام الحسن عليه السلام صاحب أناة ورفق، كرّها إليه الحرب وسفك الدماء وحملاه على أن يؤثر السلم ويترك خلافة تكلفه مثل ما كلفت أباه من أهوال الحرب. وكان الإمام الحسين عليه السلام كأبيه صارمًا فى الحق لايحب الرفق ولا الهوادة ولا التسامح فيما لاينبغى التسامح فيه. كره صلح أخيه وهم أن يعارض، فأنذره أخوه بأن يشده فى الحديد حتى يتم الصلح. وكان الإمام الحسين عليه السلام يعيب الصلح لأنه إنكار لسيرة أبيه. ثم لم يكن الإمام الحسين عليه السلام مزواجًا مطلاقًا، ولم يكن ميسراً على نفسه فى أمر الدنيا، ولا متبسطًا فى الحديث، ولا متحببًا إلى الناس، وإنما كان صارمًا على نفسه صارمًا على غيره، يتجرع مرارة الصبر على ما لايحب، رأى الوفاء لأخيه حقًا عليه فوفى له وأطاعه كما أطاع أباه من قبله. وفى أثناء هذه السنين، التى قضاها فى المدينة بعد صلح أخيه، كان يتحرق تشوقًا إلى الفرصة التى تتيح له استئناف الجهاد من حيث تركه أبوه. وقد أتيحت له هذه الفرصة شيئًا ما حين صارت إليه رياسة الشيعة. لأن الفرصة لم تتح له كاملة، فقد أصبح سيد قومه ورئيس حزبه، ولكنه بايع معاوية وما كان له أن ينقض بيعته أو ينحرف عما أعطى على نفسه من العهد والميثاق. وكان الإمام الحسين عليه السلام صاحب فطنة، حسن النظر فى الأمور، رأى الدولة منقادة لمعاوية قد ضبطت له أمصارها، وعرف هو كيف يسوس الناس بالحلم والرفق والسخاء، وكيف يولى فى الأمصار من يسوسون أهلها بالقسوة الصارمة والخوف المخيف، فلم يحاول الخروج حين أتيحت له الفرصة بما كان من نقض معاوية لما بايع الناس عليه، من الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله. وقد نقض معاوية

1 ـ خالد محمد خالد ـ أبناء الرسول فى كربلاء ص66.

هذه البيعة ما فى ذلك شك، ونقضها مرتين: إحداهما حين استخلف يزيد، وجعل الخلافة وراثة ينقلها لابنه كما ينقل إليه ماله، مع أن أمر الخلافة ليس ملكًا خاصًا للخليفة، وإنما هو ملك عام لجماعة المسلمين. وكان إسراف معاوية فى أموال المسلمين وتوليته الجبابرة على الأمصار، وإسراف أولئك الجبابرة فى أموال الناس ودمائهم، كل ذلك كان نقضًا منه للبيعة التى أعطاها للناس، تبرئ ذمة الإمام الحسين ﷺ لو أراد الخروج. وقد همت عائشة نفسها أن تخرج بعد قتل من قتل معاوية من أهل الكوفة، ولكنها أشفقت أن تثير فتنة عقيمًا كالتى أثارتها حين خرجت مع صاحبيها مطالبة بدم عثمان، فكفت نفسها عن الخروج. وقد رأى الإمام الحسين ﷺ أن الأمر لايستقيم له إن هم بالثورة فصبر نفسه على ما تكره. ولكنه غير سياسة أخيه التى ساس بها الحزب، فأطلق لسانه فى معاوية وولاته حتى أنذره معاوية، ثم أغرى حزبه بالاشتداد فى الحق والإنكار على الأمراء ففعلوا. وكانت الكوفة خاصة مركز المعارضة العنيفة لمعاوية وعامله زياد ونلاحظ أن آثار هاتين السياستين ظاهرة أشد الظهور، فلم يؤذ الشيعة فى أنفسهم ولا فى أموالهم ما عاش الإمام الحسن ﷺ، كانوا يعارضون فى لين وينكرون فى رفق، وكان معاوية وولاته يسمعون منهم ويكفون عنهم، وربما استصلحوهم بالقول والعمل. فلما صار أمر الشيعة إلى الإمام الحسين ﷺ عنفت المعارضة وكادت تصبح ثورة فى الكوفة، فلقيها معاوية وولاته بالشدة بل بالإسراف فى الشدة، حتى تجاوزوا فى قمعها كل حد معقول. وكانت سياسة الإمام الحسين ﷺ مقوية للشيعة ومضعفة لها فى وقت واحد. كانت مضعفة لها لأنها جرّت على كثير من أنصار أهل البيت محنًا قاسية. وكانت مقوية لها لأنها جعلت الشيعة مضطهدين أشد اضطهاد وأقساه. وليس شىء من سياسة الناس يروج للآراء ويغرى الناس باتباعها كالاضطهاد الذى يعطف القلوب على الذين تلم بهم المحن، وتصب عليهم الكوارث، وتبسط عليهم يد السلطان، والذى يصرف القلوب عن هذا السلطان الذى يدفع إلى الظلم ويمعن فيه، ويرهق الناس من أمرهم عسراً. ولذلك عظم أمر الشيعة فى الأعوام العشرة الأخيرة من حكم معاوية. وانتشرت دعوتهم أيَّ انتشار فى شرق الدولة الإسلامية وفى جنوب بلاد العرب. ومات

معاوية حين مات وكثير من الناس وعامة أهل العراق بنوع خاص يرون بغض بنى أمية وحب أهل البيت لأنفسهم دينًا[1].

أبلغ أمر المعارضة إلى معاوية، فلم يحمله ذلك على إعادة النظر فى قراره. بل دفعه إلى الإيغال فى سرعة إنجازه. فأرسل إلى ولاته الآخرين على بقية الأمصار، آمرًا إياهم أن يسوقوا الوفود إلى الشام كى تبايع ليزيد. وشهدت الشام مهزلة البيعة ومأساتها على نطاق واسع، بعد أن أدى الذهب والسيف دورهما فى حمل الناس على المبايعة. ولكن موقف «المدينة» ظل يؤرقه، فقرر السفر بشخصه إليها. وهناك حاول إقناع زعماء المعارضة ـ عبدالله بن الزبير، والإمام الحسين بن على عليه السلام، وعبدالله بن عمر. فلما أعيته الحيلة لجأ إلى القوة فى مظاهرة مسلحة عجيبة، !! لكن الزعماء الثلاثة صمدوا، ولم يتحرك منهم لسان ببيعة، وأمام مناورة الموت التى فاجأهم بها معاوية، لاذوا بالصمت، فاستغل هو صمتهم وأذاع فى الناس أنهم مبايعون..

حيث إنه أقام على رؤوسهم شُرَطًا حين خطب الناس، وتقدم إلى هؤلاء الشرط فى أن يضربوا عنق أيهم كذّبه فيما يقول. ثم خطب الناس فذكر بيعة يزيد بولاية العهد، وأن الناس أجمعوا على قبول ما اختار لهم. وأن هؤلاء النفر من أعلام قريش وسادتها قد دخلوا فيما دخل الناس فيه. فبايع الناس وانصرف هؤلاء النفر يحلفون لمن لامهم ما بايعوا ولا قبلوا. وأن معاوية قد استكره هؤلاء النفر على الصمت بعد أن لم يستطع أن يستكرههم على البيعة. وهو بعد ذلك لم يؤامر الأمة فيمن اختار لخلافتها على أى نحو من المؤامرة، وإنما شاور قومًا من خاصته والطامعين فيه، فكلهم أغراه بذلك وحببه إليه. ولم يستطع أحد من خاصة الناس ولا من عامتهم أن ينكر على معاوية مما أراد شيئًا. وكذلك استقر فى الإسلام لأول مرة هذا الملك الذى يقوم على البأس والبطش والخوف، والذى يرثه الأبناء عن الآباء، وأصبحت الأمة كأنها ملك لصاحب السلطان ينقله إلى من أحب من

1ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص194.

أبنائه، كما ينقل إليه ما يملك من سائل المال وجامده. وقد تم ذلك سنة ست وخمسين للهجرة، أى قبل أن ينتصف القرن على وفاة رسول الله ﷺ. ورحم الله الحسن البصرى فقد كان يقول فيما روى الطبرى: «أربع خصال كن فى معاوية، لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب الطنابير؛ وادعاؤه زياداً (ابن أبيه أى ابن الفراش لأبى سفيان)، وقد قال رسول الله ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر؛ وقتله حُجر، ويل له من حُجر وأصحاب حُجر! ويل له من حُجر وأصحاب حُجر!». وقد استحدث معاوية فى المسلمين بدعة جديدة طالما أنكروها من قبل، وهى توريث الملك. وكانت عاقبة هذه البدعة وبالا على المسلمين أى وبال، فما أكثر ما استحل الملوك من المحارم، وما أكثر ما سفكوا من الدماء، وأهدروا من الحقوق، وضحوا بمصالح الأمة فى سبيل ولاية العهد. وما أكثر ما كاد بعض الأمراء من أبناء الملوك لبعض فى سبيل هذا التراث الذى لم يبحه لهم كتاب ولا سنة، ولا عرف مألوف من صالحى المسلمين. وإنما القول فى معاوية وملكه قول رجل من خيار الصحابة اعتزل الفتنة، ولم يشارك فيها من قريب أو بعيد، وهو سعد بن أبى وقاص رحمه الله. فقد تحدث البلاذرى عن رواته أنه دخل على معاوية فقال: السلام عليك أيها الملك. فضحك معاوية وقال: ما كان عليك يا أبا إسحاق رحمك الله لو قلت: يا أمير المؤمنين. فقال: أتقولها جذلان ضاحكًا؟ والله ما أحب أنى وليتها بما وليتها به»[1].

برر معاوية أخذه البيعة ليزيد بحرصه على عدم نشوب الخلاف والصراع من جديد بين المسلمين. وإنه لتبرير يدينه أكثر مما يشفع له . . !! فلماذا خشى الصراع والفتنة إذا هو لم ينقل الملك إلى يزيد . . ولم يخشهما إذا هو وسد الأمر لغير أهله وسلم قيادة الدولة المسلمة إلى أكثر العالمين بعداً عن الصلاحية لها، وهو

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص227.

يزيد. .؟؟!! إن هذه النظرة تكشف بوضوح عن أن معاوية كان ينظر إلى الأمر على أنه سلطان بنى أمية، أكثر مما هو سلطان الإسلام وسلطان المسلمين. .!! ووضع المسألة على هذا النحو - وهو وضع غير صحيح - يجعل المقاومة أمراً محتوماً وقدراً مقدوراً. ولقد بدأت المقاومة بامتناع «الإمام الحسين ﷺ، وابن الزبير، وابن عمر، وابن أبى بكر» بالمدينة عن البيعة. وبدأت بالتذمر الكالح الذى ملأ صفوف الجماهير فى كل مكان. والذى ارتفع به الصوت داخل الأمويين أنفسهم الذين كانوا يشمئزون من يزيد، ويرون بين رجالهم من هو أحق وأجدر، كذلك شاع على ألسنة الذين بايعوا من عامة الناس مكرهين. ذلك أن «يزيد» كان شاباً عابثاً لاهيا، والتاريخ يصوره دائماً بين بطانته، وهى بطانة سوء. يلهون، ويشربون، ويعربدون. وحتى حين أراد أبوه أن يضفى على سيرته بعض التصون والوقار، فأرسله إلى مكة حاجًا، ولم يغنه ذلك شيئًا، فقد اصطحب يزيد معه لهوه وعبثه وبطانته. .!! ويزيد، قبل هذا، وبعد هذا، تنقصه كل مقومات الرجل المناسب للمكان المناسب، فهو مفلس إفلاساً تاماً من كل ما كان لأبيه من دهاء، وشخصية، وذكاء ومقدرة. . !! ففيم استخلافه. .؟ وبأى رشد وأى ضمير. يفرض واحد هذا شأنه على الإسلام وعلى المسلمين.؟؟ ثم أين عهده مع «الإمام الحسن ﷺ» على أن يترك الأمر بعده شورى. حيث يختار الناس من يرتضون. .؟! لكن معاوية فعلها. . وفى العام الستين للهجرة مات، لينتقل الأمر من بعده إلى يزيد. وبدأ يزيد عهده بإنفاذ الوصية التى تركها له أبوه قبيل وفاته[1]:

«إنى لا أخاف عليك سوى أربعة رجال: الحسين بن على . . وعبدالله بن عمر . . وعبدالرحمن بن أبى بكر . . وعبدالله بن الزبير. فأما الحسين بن على؛ فإن أهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه إليهم؛ فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه. وأما عبدالله بن عمر، فرجل قد وقذته العبادة، ولا يريد الخلافة إلا أن تأتيه عفواً. وأما عبدالرحمن بن أبى بكر، فليس له عند الناس ما يجعله يطمح إلى طلبها، أو يحاول التماسها إلا أن تأتيه عفواً. وأما الذى سيجثم لك جثوم الأسد،

1 - خالد محمد خالد - المرجع السابق ص69.

ويراوغك روغان الثعلب، حتى إذا أمكنته فرصة وثب عليك؛ فذلك هو عبدالله ابن الزبير، فإن فعل وظفرت به فقطعه إربًا إربًا، إلا أن يلتمس منك صلحًا . . فإن فعل فاقبل منه، واحقن دماء قومك بجهدك، وكف عاديتهم بنوالك، وتغمدهم بحلمك» ترى، هل كان معاوية يعرف لابنه هذا جهداً، أو نوالا، أو حلمًا يعالج به الأمور؟؟

نشأ يزيد نشأة تغاير هذه النشأة أشد المغايرة. ولد فى الشام فى قصر إمارة كثر فيه الترف وكثر فيه الرقيق. وورث عن أمه شيئًا من بداوة كَلْب وغلظتها، وعن أبيه شيئًا من ذكاء قريش ودهائها وسعة حيلتها وحبها للمال والتسلط، وتهالكها على اللذة حين تتاح لها الوسائل إليها. فشب فتى من فتيان قريش لم يعرف خشونة ولا شظفًا، ولم يتكلف لحياته اكتسابًا، ولم يعرف فى أثنائها شقاء ولا عناء، ولم يبذل جهداً إلا فى سبيل ما يرضيه ويلهيه. فكانت سيرته حين ولى أمر المسلمين مناقضة لسيرة أبيه أشد المناقضة، ثم مناقضة بعد ذلك لسنة النبى وخلفائه الراشدين أشد المناقضة أيضًا. كان قبل ولايته لعهد أبيه مسرفًا على نفسه فى طلب اللذة والعكوف عليها والاستهتار بها، حتى كثر حديث الناس فيه، وحتى أشار زياد عليه أن يتحفظ ويحتاط، وأشار على أبيه أن يأخذه بسيرة أرشد من سيرته ومذهب فى الحياة يلائم ما كان يرشحه له من ولاية العهد والنهوض بعده بأمر هذه الدولة الضخمة. فأخذه أبوه بشىء من الحزم وأغزاه بلاد الروم، وتتبع سيرته على نحو ما، ولكنه لم يبلغ من تأديبه وتقويمه ما أحب، كان مشغولا عنه بسياسة الدولة، وكان الفتى مشغولا عن أبيه بسياسة شهواته الجامحة. وقد مات أبوه وهو عنه بعيد، حتى احتاج الضحاك بن قيس إلى أن يقوم مقامه، فيعلن موت معاوية إلى الناس ونهوض ابنه يزيد بالأمر من بعده. فقد جلس يزيد حيث كان يجلس أبوه من قبل، وسيق الناس إليه يبايعونه ملكًا، بعد أن بايعوه من قبل أميراً. ثم أقبل الفتى فتلقى دولة عريضة غنية معقدة السياسة، لم يبذل فى تشييدها جهداً، ولم يحتمل فى تأييدها مشقة ولا عناء. وقد أقبل على الملك دون أن ينصرف إليه عن لذاته أو يقلع عما كان عاكفًا عليه من العبث واللهو والمجون.

أقبل علـى الملك واثقًا بأن الدنيـا قد أذعنت له، وبأن أمـوره ستجـرى على طريق سواء. ولم ينس إلا شيئًا واحدًا، وهو الجـهد العنيف الذى بذله أبوه لتسـتقيم له هذه الدنيا وليمهد ملكها لابنه. ولم يكن يزيد يحتمل أن يلتوى عليه أحد بطاعة، وإنما كان يرى أن طاعته حق على الناس جميـعًا، فمن التوى بها عليه فليس عنده إلا السيف. وقـد عرفت أمـر أولئك النفر الذين أكـرههم معاويـة إكراهًا على أن يسكتوا عن بيـعته بولاية العـهد، حين لم يستطع أن يـحملهم على قبولهـا. وقد كانوا أربعة، مـات منهم واحد قبل معاوية، وهو عـبدالرحمن بن أبى بكر، وبقى منهم ثلاثة فى المدينة[1].

اهتز كيـانه فزعًا، تحت ضغط مـشاعره الوجلة لوجود الإمـام الحسين ﷺ وابن الزبير وابن أبى بكر وابن عـمر بالمدينة، فكتب على الفـور إلى عامله هناك ـ الوليد بن عتبـة بن أبى سفيان ـ بهذا الأمر الحاسم: «.. أما بعـد، فخذ حسينا، وعبـدالله بن عمر، وعبـدالله بن الزبير، وعبـدالرحمن بن أبى بكر بالبيعـة أخذا شديدا، ليس فيـه رخصة حتى يبايعـوا، والسلام». واستنجد الوليد بمشـورة قريبه مروان. وكان مروان واليًا على المدينة من قبل، ثم سخط قـرار معاوية أخذه البيعة ليزيد، إذ كـان يرى نفسـه بحكم سنه ومشـيخته فى بنى أميـة أحق بها وأولى. ولخص مروان مشـورته للوليد فى هذه الكلمات السود: «أمـا ابن عمر، وابن أبى بكر، فلا أراهما يريان القتال. ولكن عليك بالحـسين وعبد الله بن الزبير؛ فابعث إليهما فإن بايعا، وإلا فاضرب أعناقهـما قبل أن يذيع فى الناس نبأ معاوية؛ فيثب كل واحـد منهمـا فى ناحية».. !! هكذا، وبكل يسر واسـتهـتار يطوح مـروان بالرقاب!! اضـرب أعناقهـما.. ! هذا هو نهج الذين اغتـصبوا حق المـسلمين فى خلافـتهم، وأرادوا أن يجعلوه وقفًـا على أنفسهم وعلى ذراريهم حـتى آخر طفل فيهم وآخر رضيع!! ومروان هذا، الذى يشـير بقطع الرقاب، هو الذى سينقل إليه الملك بعد أربعة أعوام من ملك يزيد. وهو الذى سيظل الملك فى عقبه حتى يجيء العباسيون بعد عشرات مـن السنين، لا نرى فيها وفى كل أولئك الحاكمين من هو

---

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص237.

للقداسة أهل سوى «عمر بن عبدالعزيز» رضى الله عنه وأرضاه، هذا الخليفة العادل الذى سيضج من مظالم قومه وعائلته، ويبرأ إلى الله منها!! ونعود إلى الوليد بن عتبة والى المدينة، فنراه يرسل فى طلب «الإمام الحسين ﷺ، وابن الزبير». وفى طريقهما إليه يسأل ابن الزبير الإمام الحسين ﷺ: ترى فى أى أمر بعث إلينا هذه الساعة؟ ويجيبه الإمام الحسين ﷺ: أحسب أن معاوية قد مات، وقد بعث إلينا للبيعة، ويعودان أدراجهما دون أن يواصلا السير إلى الوليد. فأما «عبدالله بن الزبير» فقط انتظر مجىء الليل، ثم حمل متاعه، وركب راحلته، وسافر إلى مكة. وأما الإمام الحسين ﷺ، فيأخذ نفراً من أتباعه، ويسير بهم إلى الوليد فى دار الإمارة، ويأمرهم أن ينتظروه خارج الدار، فإن سمعوا حواراً غاضبا بينه وبين الأمير اقتحموا الدار ليكونوا بجانب الإمام الحسين ﷺ إذا أريد به السوء. بيد أن الوليد فى هذا الموقف كان خيراً من ألف من طراز مروان. ذلك أنه لم يكد يُنهى إلى «الإمام الحسين ﷺ» نبأ وفاة معاوية، داعيًا إياه إلى بيعة يزيد، حتى قال له «الإمام الحسين ﷺ» رضى الله عنه: «إن مثلى لايعطى بيعته سراً، فاجمع الناس ليبايعوا، وأبايع على ملأ». ولا نستبعد أن يكون الوليد، قد أدرك ما فى كلمات الإمام الحسين ﷺ من مناورة شريفة، آثر أن يتغافل عنها، حتى لايلوث يديه بجريمة العدوان الذى أشار به مروان بن الحكم الأموى. لذلك نراه، حين أصبح الصباح فى اليوم التالى على نبذ مشورته.. نراه يقول يومها لمروان بن الحكم الأموى: «أتشير على بقتل الإمام الحسين بن فاطمة، بنت رسول الله؟؟ والله، إن الذى يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله»!!

ضرب إباءُ الإمام الحسين ﷺ للضيم ومقاومته للظلم واستهانته القتل فى سبيل الحق الأمثال وسارت به الركبان وملئت به المؤلفات وخطبت به الخطباء ونظمته الشعراء، وكان قدوة لكل أبىّ ومثالا يحتذيه كل ذى نفس عالية وهمة سامية ومنوالا ينسج عليه أهل الإباء فى كل عصر وزمان وطريقا يسلكه كل من أبت نفسه الرضا بالدنية وتحمل الذل والخنوع للظلم. وقد أتى الإمام الحسين عليه السلام فى ذلك بما حير العقول وأذهل الألباب وأدهش النفوس وملأ القلوب وأعيا

الأمم عن أن يشاركه مشارك فيه وأعجز العالم أن يشابهه أحد فى ذلك أو يضاهيه وأعجب به أهل كل عصر وبقى ذكره خالدا ما بقى الدهر، أبى أن يبايع يزيد بن معاوية وقال لمروان: «وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد» ولأخيه محمد بن الحنفية «والله لو لم يكن فى الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية» فى حين أنه لو بايعه لنال من الدنيا الحظ الأوفر والنصيب الأوفى ولكان معظما محترمًا عنده مرعى الجانب محفوظ المقام لا يرد له طلب ولا تخالف له إرادة لما كان يعلمه يزيد من مكانته بين المسلمين وما كان يتخوفه من مخالفته له وما سبق من تحذير أبيه معاوية له من الإمام الحسين ﷺ فكان يبذل فى إرضائه كل رخيص وغال، ولكنه أبى الانقياد له قائلا: «إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم ويزيد رجل قاتل النفس المحترمة ومثلى لا يبايع مثله» فخرج من المدينة بأهل بيته وعياله وأولاده، ملازما للطريق الأعظم لايحيد عنه، فقال له أهل بيته: لو تنكبته كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب، فأبت نفسه أن يظهر خوفا أو عجزا وقال: «والله لا أفارقه حتى يقضى الله ما هو قاض» قال له الحر: اذكر الله فى نفسك فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن، أجابه الإمام الحسين ﷺ مظهرا له استهانة الموت فى سبيل الحق ونيل العز فقاله له: «أفبالموت تخوفنى وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونى، وسأقول كما قال أخو الأوس وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فخوفه ابن عمه وقال أين تذهب فإنك مقتول، فقال:

سأمضى وما بالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى حقًا وجاهد مسلما
أقدم نفسى لا أريد بقاءها ... لتلقى خميسًا فى الوغى وعرمرما
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم ... كفى بك ذلا أن تعيش فترغما

يقول الإمام الحسين رضى الله عنه: ليس شأنى شأن من يخاف الموت، ما أهون الموت على سبيل نيل العز وإحياء الحق، ليس الموت فى سبيل العز إلا حياة خالدة، وليست الحياة مع الذل إلا الموت الذى لا حياة معه: أفبالموت تخوفنى؟! هيهات طاش سهمك وخاب ظنك لست أخاف الموت، إن نفسى لأكبر من ذلك

وهمى لأعلى من أن أحمل الضيم خوفا من الموت، وهل تقدرون على أكثر من قتلى مرحبًا بالقتل فى سبيل الله ولكنكم لاتقدرون على هدم مجدى ومحو عزى وشرفى فإذًا لا أبالى بالقتل. وهو القائل: «موت فى عز خير من حياة فى ذل» وكان يحمل يوم الطف وهو يقول:

الموت خير من ركوب العار والعار أولى من دخول النار

والله من هذا وذا جارى

رحل الإمام الحسين ﷺ إلى مكة، ذلك البلد الحرام الذى يلتمس الناس فيه الأمن والملاذ. واصطحب معه أختيه «السيدة زينب، والسيدة أم كلثوم» وإخوته «أبو بكر، والعباس، وجعفر» وأولاد أخيه «الحسن» وجميع من كان بالمدينة من أهل بيته، عدا أخاه، «محمد بن الحنفية» الذى آثر البقاء بالمدينة. وكان قد سبقه إلى مكة كما ذكرنا، عبدالله بن الزبير، كذلك كان قد سبق إليها حبر الأمة «عبدالله بن عباس». واستقر الحسين وآله فى مكة وأقبل أهلها بل وأقبلت الوفود من خارجها على ابن بنت رسول الله تلتمس منه الحكمة والهدى والنور. ولقد كانت مكة آنئذ أنسب مكان يدبر فيه «الإمام الحسين ﷺ» خواطره وتفكيره حول القضية الجليلة التى تشغله، والوضع الخطير الذى حاق بالمسلمين، فهنا، وفى قديم الزمان، كان هاشم، وعبد شمس، أخوان وُلدا لعبد مناف، ومن هاشم، جاء النبى، وعلىّ، وبنو هاشم أجمعون. ومن عبد شمس، جاء أمية، وأبو سفيان، ومعاوية، ويزيد، وبنو أمية كافة. وهنا، كان هاشم يملأ مكة والجزيرة براً ومجداً وكرمًا، فهو الذى يطعم الحجيج، ويحمى الذمار، ويرسل قوافله إلى الشام وإلى اليمن لتعود موقرة بالخير والرزق للناس، حتى قال فيه شعراء قريش يومئذ:

عمرو الذى هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

بينما عبد شـمس مزمع أسفار دائمًا لايحمل تجاه قومـه ما يجب من تبعات وهنا، شهـدت مكة ذات يوم أروع منجزاتها الأخلاقـية والسياسـية يوم أقرت كل قبائلها «حلف الفضول». . ذلك الحلف الذى كان مضمونه وفحواه أن ترد الحقوق إلى أهلها، وألا ينتصر ظالم على مظلوم، وأن يضحى المشـتركون فيه بحياتهم إذا تعرضت العـدالة لخطر . . ومن عجب أن كل قـبائل قـريش وبطونها، اشـتركت يومئذ فى هذا الحلف مـا عدا بنو عبد نوفل، وبنو عبـد شمس آباء الأمويين وهنا يستطيع «الإمام الحسين ﷺ» أن يمد بصره فيرى الدار التى عـاش فيها وبزغ منها جده العظيم «محمـد رسول الله» هاتفًا بكلمة الله، حاملا معـوله الرشيد فى وجه وثنية الحجر، ووثنية البشر. ويستطيع أن يمد بصره؛ فيرى «زمزم» التى حفرها جده «المطلب» امتثالا لرؤيا صادقة، والتى كانت لقريش حياة وريًا، وصارت للمسلمين تراثًا ومنسكًا. ويستطيع أن يمـد بصره فيرى الدور التى خرج منهـا مهديون أبرار، آمنوا بالرسـول وآزروه فى دعوته ووحـدته، وفى مقدمـتهـا دار أبى بكر، ثم يرى الدور التى خرج منها أولئك الذين سخروا من دعـوته، واضطهدوا أهله وصحبه، وفى مقـدمتها دار أبى سـفيان. وهنا، يسـتطيع أن يرى ويسمع الأصداء الصـادقة الباهرة لصوت جده «أبى طالب» وهو يقول للرسول: «يا ابن أخى، ادع إلى سبيل ربك ما شئت، فو الله لا أسلمك إليهم أبدًا» ثم يقف إلى جـواره كالطود مضحيًا براحته، وأمنه ومكانته بين قومه كمـا يسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جدته «خديجة» وهى تقول للرسـول: «والله لا يخزيك الله أبدًا». ثم تنهض إلى جواره فى وجه قريش واضعة كل ثروتها وجاهها فى خدمة الدين الحق الجديد وهنا يسمع الإمام الحـسين ﷺ بكل سمـعه وقلبه كلمـات جده الرسول الكريم التى تركـها للتاريخ الإنسانى بأسره قدوة ونبراسًا وهدى: «والله، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر، ماتركـته حتى يقضيه الله، أو أهلك دونه» أجل هنا سيسمع الإمام الحسين ﷺ صداها ويتراءى له المشهد، فينفجر فى نفسه بأسها، ونضالها، وتقاها[1].

1ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص73.

ولسوف يسأل نفسه: ما هذا الأمر الذى رفض جده النبى أن يتخلى عنه ولو أوتى ملك الشمس والقمر وما بينهما ويجيبه قلبه: إنه كلمة الله ودينه ويعود يسأل نفسه: وأين دين الله اليوم، ومن الذى يحمل لواءه..؟؟ ويجيبه الواقع: إن دين الله اليوم فى محنة، إنه يتحول إلى ملك عضوض وإن الذى يحمل لواءه اليوم طاغية عربيد اسمه، يزيد. يعود يسأل نفسه: وما المصير. ويجيبه وعيه ورشده: المصير عودة الجاهلية وسيادة الوثنية، ودنو ساعة هذه الأمة حيث يرجع كل ما بنت وشادت ترابًا فى تراب. ألم يقل جدك الرسول عليه السلام. «إذا وسد الأمر لغير أهله، فانتظر الساعة» فها هو ذا قد وسد لغير أهله بل لشر أهله. ويعود سائلا نفسه: وما واجبى الآن؟ ويجيبه ضميره: المقاومة. الآن، وأبدا حتى يفوز الحق، أو تهلك دونه. على هذا النحو، لابد أن يكون «الإمام الحسين ﷺ» قد أدار خواطره وتفكيره، وفى رأينا أن كل حوافز الثورة على هذا الضلال كانت كامنة فى وعيه ووجدانه، وكانت وليدة إدراكه السديد لحق الذين عليه واستعداده للتضحية فى سبيله. وليست نتيجة لموقف أهل الكوفة الذين أرسلوا إليه كتبهم ووفودهم يدعونه إليها ليبايعوه، وليسيروا تحت لوائه إلى مقاومة يزيد. أجل، ما كان «الإمام الحسين ﷺ» ليدع دين الله ودنيا الناس العوبة فى يد يزيد بل كان سيبشر بالمقاومة، ويخلق ظروفها المواتية، ثم يضرب ضربته العادلة. وسواء دعاه أهل الكوفة أم لم يدعوه؛ فلقد كان يهتدى إلى مسئولياته بنور إيمانه وبصوت ضميره، وليس بتحريض قوة خارجية. ولقد عرفنا رأيه القديم فى صلح أخيه مع معاوية، إذ كان يعارض هذا الصلح، معلنًا أن آل أبى سفيان لا عهد لهم ولا أمان. فإذا كان هذا رأيه والخليفة بالأمس معاوية، فكيف يكون إذن، والمستخلف اليوم يزيد؟ ثم إن خروجه من المدينة إلى مكة، ورفضه البيعة ليزيد يشكلان إعلانًا لمبدأ المقاومة. فهو يعلم أن يزيد لن يتركه حتى يبايع، وهو لن يبايع أبدًا، وإذن ستكون المجابهة بينهما أمرًا محتومًا. ثم إن للحسين طبيعة جياشة ثائرة، يربطها بالحق ولاء وثيق وعجيب. وتستمد من فضائل الدين العالية، ومن تراث حسبه العريق زادًا لايفنى من الصمود والمثابرة. ولن يجد فى كيانه ذرة تصبر على رؤية يزيد بن

معاوية يجلس حيث جلس من قبل أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، إن ذلك يعنى ضياع مقدسات عزيزة وغالية. وإذا كانت الطبول تدق فى دمشق، معلنة قيام خلافة كاذبة لحفيد أبى سفيان. فلابد أن يجد الإسلام من يدفع عنه الكارثة ولابد أن يجد المسلمون من يدرأ عنهم الطوفان[1].

تلك هى القضية تمامًا وهذه حقيقتها التى تجلت أمام الإمام الحسين عليه السلام كفلق الصباح كما أنها ليست طموحًا شخصيًا، يحتاج إلى موازنة بين فرص النجاح واحتمالات الإخفاق. إنها قضية الحق وحده، حق دين، وحق أمة، وحق دولة، وحق مصير، فإما أن ينتصر هذا الحق، أو فليمت الأبرار دونه. ومن لقيادة الأبرار فى هذا المجال، كأبى عبدالله الحسين، خير ابن لخير آباء، وأكرم وارث لبيت التضحية والبذل والفداء. إن ملايين المسلمين فى كل العصور والأزمان، يصلون عليه فى صلواتهم آناء الليل وأطراف النهار أليس كل مسلم كان أو سيكون، يختم صلاته قائلا: السلام عليك أيها النبى، ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد» وأليس «الحسين» من أولئك الآل أليس هو درتهم الفريدة والمجيدة. إذن، فإن لهؤلاء الذين يصلون عليه عبر الزمان والأجيال حقًا عظيمًا سيقتضيه تضحيات عظيمة. ومتى تكون التضحية، إذا لم تكن اليوم، ودين المسلمين يتحول إلى «مزرعة أموية»، وأمجادهم العظيمة يستولى عليها مخلوق عابث، ومصايرهم الكبرى تمسك بها أيدى وصوليين جباة، وجلادين طغاة. هكذا لم يكن للحسين بد من أن يقاوم، حتى لو لم يدعه من العراق داع، ولم يأته من الكوفة كتاب، كل ما صنعته وفود الكوفة وكتبها إليه. أنها عجلت خروجه. وهنا، لابد أن ننفى عن تفكيرنا وهمًا ردده كثيرون، هو أن الإمام «الحسين» رضى الله عنه ذهب ضحية خدعة لم يحسن تدبرها، أو ضحية أنصار لم يحسن تقدير إخلاصهم وثباتهم. كلا، إن «الإمام الحسين عليه السلام» إنما ذهب شهيد إيمان قرر مختاراً ومشتاقًا أن يكون شهيده وقربانه.

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص75.

كانت الفئات المؤيدة للاتجاه الإسلامي في الكوفة، قد قطعت مرحلة جدية في العملية التنظيمية والتعبوية، تلك التي اندرجت في الأربعينيات، تحت اسم التشيع الذي استمد قضيته وحتى اسمه، من مناصرة الإمام عليّ عليه السلام وتأييد حقه في السلطة، كونه جسد برأيهم هذا الاتجاه تنظيراً وممارسة. وكان أول اجتماع علني، يعقد في منزل سليمان بن صرد، أحد رواد الحركة الشيعية، وذلك منذ انتقال الحكم إلى البيت الأموي. وكان السبب المباشر لهذا الاجتماع، مرتبطًا بخروج الإمام الحسين عليه السلام إلى مكة، احتجاجا على إلزام السلطة له بالبيعة للخليفة الجديد، في وقت بدت الظروف مواتية لرفض الحكم الوراثي. بالإضافة إلى ذلك، فإن معطيات جديدة، شجعت الكوفة على المضي في السلبية، متمثلة بانفلات الوضع السياسي في العراق، وخروج أبناء الصحابة من «المدينة»، وبروز الإمام الحسين عليه السلام في أعقاب الصدام مع والي يزيد، ومعه شروط الدور القيادي ومؤهلاته، انطلاقًا من مواقفه الحازمة المعروفة، في مواجهة السلطة الأموية رأى الإمام الحسين عليه السلام في معاهدة الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية، ورفض الموافقة على بيعة يزيد بولايته العهد وبالخلافة. وهكذا انتهى أركان الحركة الشيعية في الكوفة، إلى قرار بدعوة الإمام الحسين عليه السلام للعراق، من أجل قيادة الثورة التي قطعت شوطًا من النضج، جاء في النتيجة محصلا للمرحلة السرية وجهودها المكثفة، كإطار وحيد للنضال السياسي في العهد السابق. وما لبث الرسل أن توافدوا على مكة، لإبلاغ الإمام الحسين عليه السلام بموقف الحركة في الكوفة، في وقت كان الأخير منكبًا على دراسة القرار الصعب. فالبقاء في مكة لم يكن سوى تدبير مرحلي، لأن السلطة الأموية لن تدعه في مأمن من ملاحقتها، قبل انتزاع بيعته والاعتراف بخلافة يزيد، دون أن يعني الخيار الآخر في هذه الحالة سوى الثورة، أي الخيار الكوفي نفسه. وإذا كان القرار النهائي قد أصبح أمراً لا مجال للبحث فيه، فإن الإمام الحسين عليه السلام على الرغم من ذلك، لم يتخل عن رصانته التقليدية، التي جعلته حريصًا على استكمال دراسته للموقف السياسي العام في العراق، وليس في الكوفة وحدها، وذلك قبل الإقدام على تنفيذ مشروعه انطلاقًا من هذه الأخيرة. في ضوء هذه الحقيقة، قرر إرسال اثنين من معاونيه: الأول،

هو مسلم بن عقيل إلى الكوفة، والثانى (سليمان) ـ يعتقد أنه مرافق أو مولى له ـ إلى البصـرة. وإذًا يضيع الأخير فى زحـمة التطورات المثيرة، وينتـهى مصلوبًا فى ساحة قـصر الإمارة، تلاحق الأحداث مـوفده الأموى. ولقد أجرى مـوفد الإمام الحسين ﷺ منذ وصوله، سلسلة من الاجتماعـات واللقاءات فى الكوفة، متخذًا منزل المختار بن أبـى عبيد الثقـفى (من زعماء الحركة الشـيعية)، مـركز اتصالاته المكثفة التى انتهت إلى تكوين صورة إيـجابية عن الوضع العام فى المدينة، وإرسال تقرير عن ذلك إلى مكة. غـير أن «عيون» السلطة لم تكن مـغلقة، على الرغم مما حل بها من خسائر وتراجـعات فى العراق، حيث كانت تتابع عن كـثب مهمة ابن عقيل، علـى الرغم من السرية الشديدة التى أحيطت بهـا، وتجنب الوالى الأموى حينذاك، النعمان بن بشير الأنصـارى، التصدى لموفد الإمام الحسين ﷺ والقبض عليـه، ما أدى إلى رفع الأمـر للخليـفـة، منبهـة إلى خطورة الوضع فى الكوفـة ومتهمة النعمان بالعجز.

فعندمـا جاءته كتب أهل الكوفة تدعـوه إلى القدوم عليهم لمبايعـته، ولدفع العار الـذى لحق الأمة باستـخلاف يزيد، لم يسـارع بامتطاء راحلـته، بل رأى أن يبعث إليهم مبعوثًا فطنًا وأمينًا يرى الموقف هناك علـى طبيعته، ثم يوافيه بالأنباء. واختار للمهـمة ابن عمه «مسلم بن عقـيل بن أبى طالب» وحمله إلى الكوفة هذه الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من الحـسين بن على، إلى من يبلغه كتابى هذا، من أوليائه وشيعته بالكوفة. سلام الله عليكم.. أما بعد، فقد أتتنى كتبكم، وفهـمت ما ذكرتم من محـبتكم، ورغبتكم فى قـدومى إليكم. وإنى باعث إليكم بأخى وابن عمرى وثقتى من أهلى «مسلم بن عقيل» ليعلم لى كنه أمركم، ويكتب إلى بما يتبـين من جمـعكم فإن يك أمركم عـلى ما جاءتنى به كـتبكم وأخـبرتنى رسلكم أسرعت الـقدوم إليكم إن شاء الله تعـالى» ومضى «مسـلم» إلى الكوفة، ولـم يكد يستـقر بها حتى سارع الناس إلـيه يبايعونه على السـير تحت لواء «الإمام الحسين ﷺ» مهـما تكن التضـحيات. وسـارع جواسيس يزيد إلى «النعـمان بن

بشير» والى الكوفة وحاكمهـا يطلعونه على مايدور ويجرى. وكان «النعمان» رضى الله عنه صحابيًـا جليلا، فردًّ جواسيس يزيد خائبـين، إذ قال لهم. «إنى لا أقاتل إلا من يقاتلنى، ولا أثِبُ إلا على من يثب على، ولا آخـذ بالظنة أحدًا». وأجابه أحدهم قـائلا: (هذا رأى المستضـعفين)، فزجـره النعمان قـائلا: «لأن أكون من المستضعفين فى طاعة الله، خير من أن أكون من الجبارين فى معصيته». وانصرفوا من حضـرة النعمـان يائسين، ليكتبـوا إلى سيـدهم يزيد، يخبرونـه أن «مسلم بن عقيل» اسـتولى على أفئدة الناس، وأن «النـعمان بن بشير» لايحـرك ساكنا. وفى دمشق اجتمع يزيد مع مستـشاريه. وكان أبرزهم ذلك الذى يسمى «سرجون» ترى بم يشير مجوسى كسرجون؟ أشار بعزل «النعمان بن بشير» وتولية عبد الله بن زياد والى البصرة، واليًا على الكوفة أيضًا. ولم يكن عجبًا أن يقع اختيار سرجون على ابن زياد بالذات، ذلك أن «مـرجـانـة» أم ابن زياد، كـانت هى الأخـرى جـارية مجـوسيـة! وابن زياد هذا، من أحط وأشـقى من حملت الأرض على ظهـرها، لايفوق ولعـه بالقتل وسفك الدماء، سـوى ولعه بالقتل وسـفك الدماء. فى نفس الوقت، كان الإمـام الحسين ﷺ، قد أرسل مولاه «سـليمان» إلى البصـرة حاملا هذه الرسالة إلى نفر من زعـمائها: «بسم الله الرحمن الرحـيم. . من الحسين بن على، إلى مالك بن مسـمع، والأحنف بن قيس، ومسعود بن عـمرو، وقيس بن الهيثم، والمنذر بن الجارود . . سلام الله عليكم. أما بعد؛ فإنى أدعوكم إلى إحياء معالـم الحق، وإماتة البدعة والبـاطل؛ فإن تجيبـوا تهتدوا سبل الرشـاد» إن رسالة «الحسين» إلى أهل البصرة، تريـنا كيف كان يعرف مسئوليته ويمـضى معها، فأهل البصرة لم يكتبوا إليه ولم يدعوه إلى بـلدهم كما فعل أهل الكوفة، ومع هذا فهو يكتب إليـهم ويُعدّهم للمجـابهة المحـتومة ـ ذلك أنه قـرر أن ينهض بتبـعات دينه وأمته، كان قراره هذا آتيًا من أعماق روحه وضميره، وليس من حركة أهل الكوفة ودعوتهم إياه.

لم يكد مبـعوثه «سليمـان» يصل البصرة، ويسلم رسـالته لزعمائهـا، حتى سارع أحـدهم وهو المنذر بن الجـارود إلى ابن زياد حيث أفـشى له سرها وأطلـعه

عليهـا. وألقى ابن زياد القبض على «رسول الحـسين» وفى وحشيـة تليق به، قام بقتله وصلبـه، ثم تهيأ للسفر إلـى الكوفة، ليباشر مـهمته المجـرمة هناك.! وقبل رحيله، دعا أهل البصرة إلى اجتماع عام خطبهم فيه فقال:

«يا أهل البصرة .. إن أمـير المؤمنين يزيد!! قد ولانى مع البـصرة الكوفة، وإنى سـائر إليهـا. وقد خـلفت عليكم أخى عثمـان بن زياد. فإياكم والخـلاف والإرجاف. فـوالله لئن بلغنى عن أحـد أنه خالف أو أرجف، فـلأقتلنه ووليـه، ولآخذن الأدنى بالأقصى. والبـرىء بالمذنب، حتى تستقيـموا ـ أنا ابن زياد. وقد أعذر من أنذر» هكذا تحدث إلى النـاس بالبصرة حديث الطاغيـة. على أن التجربة تعلمنـا أنه ليس هناك أجبن من الـطغـاة. وأن مـا يتظاهرون بـه من بأس شـرس وشجاعـة زائفة؛ إنما يستمدونها مما يمـسكون بأيديهم من سلطان. فابن زياد هذا، بكل طغيانه، وقسوته، وإجرامه، يخاف أن يدخل الكوفة سافراً منظوراً، فيدخلها متنكرا، ومخفيًا سحنته ووجـهه وراء لثام وقناع. ومن المفارقات الباسمة، أن أهل الكوفة الذين كـانوا ينتظرون مقدم «الإمام الحـسين عليه السلام» على شوق، لم يكادوا يرون قافلة ابن زياد، حتى حسبوها موكب «الإمام الحسين عليه السلام» فراحوا يفسحون له الطريق هاتفين: «مرحبًا بابن رسول الله .. قدمت خير مقدم» ولئن كانت هذه الحفاوة بالإمام الحسين عليه السلام قد ملأت نفس ابن زياد مرارة وحقداً، إلا أنها ألقت على قلبه الجـبان كـثيراً من الأمن، إذ اطمـأن إلى أنهم لم يعرفـوه، وبالتالى لن يصلوا إليه بسوء. وحين بلغ دار الإمارة، واحتمى بشرطتها وحرسها، راح ينصب شباكه ليقتنص رسول الحسين وابن عمه «مسلم بن عقيل» الذى كان يمارس نشاطه الجليل فى همة موفقه وناجحة. كان عـزل «النعمان بن بشير» عن الكوفة، وتولية ابن زياد مكانه نذيراً رهيبًـا لمسلم بن عقيل. فبـعد أن كان يجتمع بـالناس فى غير تحرج ولا تخوف راح يغيـر مقره، فينتقل إلى دار أخرى، ويحـيط نشاطه بكتمان كبـير. كانت الدار الجديدة التى انتـقل إليها هى دار «هانئ بن عـروة» من أشراف مذحج كبـرى قبائل اليمن ومن صـفوة أهل الكوفة وأشرافـهم. وكان ابن زياد قد اصطحب مـعه من البـصرة بعض صـفوتهـا وزعمـائها، ومن بينهم «شـريك بن

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص83.

الأعور». وكان «شريك» شيعيًا يكتم إيمانه وولاءه، كذلك كان صديقًا لـ «هانئ ابن عروة» الذى يتخفى «مسلم بن عقيل» فى داره. ورغب «هانئ» إلى صديقه «شريك» أن ينزل عليه ضيفًا فى داره فقبل دعوته، حيث التقى فيها بمسلم بن عقيل فبارك جهوده وجهاده وحثّه على المثابرة. وهنا نلتقى بصورة من عظمة آل البيت وأخلاقهم وشرفهم فى النضال والقتال. ذلك أن «شريك بن الأعور» مرض، وخف ابن زياد لعيادته حيث هو فى دار هانئ بن مذحج. ورآها «شريك» نفسه فرصة سانحة للإجهاز عليه والتخلص منه. فاتفق مع «مسلم بن عقيل» أن يفاجئ ابن زياد عندما يجيء إليه، ويضربه بسيفه ضربة تريح منه البلاد والعباد. ولكن ابن زياد جاء، وجلس، وطالت جلسته، ثم غادر الدار دون أن يناله سوء[1].

بعيد انصرافه عاتب «شريك» «مسلمًا» وسأله: لماذا لم تنجز ما اتفقنا عليه وتتقرب إلى الله بقتله..؟ فأجابه «مسلم»: «لقد منعنى من ذلك أمران: أولهما، كراهية هانئ أن يقتل فى داره. وثانيهما: أن رسول الله ﷺ نهانا عن الغيلة، وقال: لايفتك مؤمن». هذا هو الخلق الشريف الذى يناضل به أهل البيت الكرام. أما «مسلم» فقد واصل أخذ البيعة سرًا حتى بايعه ثمانية عشر ألفًا. وآنئذ، وأمام تلك الأعداد الكثيرة من الأنصار والمبايعين، أرسل «مسلم» «الإمام الحسين» يبشره بما تم، ويدعوه للقدوم. وآنئذ أيضًا، كان ابن زياد قد جن جنونه لإخفاقه فى القبض على «مسلم» وفشل شرطته فى معرفة مكانه، هنالك لجأ إلى حيله الخبيثة، فاختار واحدًا من مواليه، واسمه ـ معقل التميمى ـ وأعطاه صرة بها ثلاثة آلاف درهم، وأمره أن يجوب خلال الكوفة، مجردًا من نفسه شخصًا غير شخصه، زاعما ومتظاهرًا بأنه واحد من شيعة «الإمام الحسين عليه السلام» يريد أن يأخذ مكانه بين صفوف أنصاره، ويريد أن يسهم بما معه من مال فى شراء سلاح لأولئك الأنصار!! وبعد طول تطواف، وطول تعسس، اهتدى الجاسوس إلى ضالته المنشودة، فقد تعرف إلى رجل صالح من أصحاب «مسلم» قاده أخيرًا إلى مكانه ومقره. وأتقن الخبيث دوره حتى خدعوا به جميعًا، وأصبح أثيرًا لديهم، يزور

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص84.

«مسلمـا» كل يوم حيث يقضى معـه النهار كله، ثم يقضى الليل بأجمـعه مع ابن زياد، ناقلا إليه الأخـبار والأسرار. وحين تمكن ابن زياد من قنصه الثمين، أرسل فى طلب «هانئ» وفاجـأه قائلا: «إيه يا هانئ بن عروة. ما هذه الأمـور التى تحاك فى دارك لأميـر المؤمنين(!!)، جـئت بمسلم بن عقـيل وأدخلته دارك وجـمعت له السلاح والرجـال وظننت أن ذلك يخـفى على». كان المفـاجأة أليمـة الوقع على هانئ، فـرأى أن يخادع ابن زياد بالإنكار ريثـما يستـعـد لمجابهـته التى أصـبحت فوريتهـا محتومة لكن ابن زياد أذهـله بمفاجأته الثانية، فـدعا جاسوسه ـ معقلا ـ الذى انتصب أمام «هانئ» كليل الشـتاء طويلا باردًا وسأله ابن زياد: أتعرف هذا!! وأسقط فى يد «هانئ» وأدرك كل شىء وسـرعان ما سيطرت رجـولته على الموقف فى لحظة، وصاح بابن زياد:

«أجل أعرفـه وإن «مسلمًـا» فى دارى وهو ضيفى، ولن أسـلمه أبدًا» وجن جنون الطاغـية، فنادى جـلاديه وأمرهم أن ينزلوا به كل عـذاب دون القتل حـتى لايستـريح بالموت. وتناوشه المجـرمون، يكسـرون أنفه، ويمـزقون لحم وجـهه، ويهشمون عظامه، وهو صابر محتـسب. ولما شفى ابن زياد نفسه المظلمة بتعذيبه، أمرهـم أن يخرجوا به إلى السـوق ويضربوا عنقه. وطار خبر مصرعه واستشهاده إلى «مسلم بن عقيل» فجمع رجاله وأنصاره، وسار بهم إلى قصر الإمارة حيث ضربوا حوله حـصارًا رهيـبًا. لماذا لم يضرب «مـسلم» ضربتـه من فوره؟ لماذا لم يقـتحم القصر على ابن زياد، وقد كان معه ساعتئذ من الأنصار المسلحين أضعاف أضعاف الحرس الذين يحـرسون الطاغية؟؟ لماذا لم يسـتغل تلك الثورة العارمـة التى كانت تشتعل فى أنفس الناس نقمة وغضـبًا لمقتل «هانئ بن عروة»؟؟ هنا، ينجو ابن زياد مرة أخـرى من قتل مـحقق بسـبب أناة «مسلم» وفـضائله. فـ «مـسلم» يعلم أن «الإمام الحسين» إنما أرسله ليأخذ له البـيعة ولم يأذن له بقتال وهو حريص على أن يلتزم الحدود التى رسمها له ابن عمه وقائده وهكذا قضى اليوم كله مكتفيًا بالحصار الذى ضربه وأحكـمه بينما قـضى ابن زياد ومن معـه فى القصر يومـهم فى نسج الشباك وإعمال الحـيلة، فأوعز إلى بعض زعماء الكوفة وأشرافهـا الممالئين ليزيد،

والذين كانوا معه داخل القصر، على أن يطلوا على المحاصرين ساعة الغروب، ويخبروهم أن جيش الشام فى طريقه إلى الكوفة سيصلها غداً أو بعد غد، وسيحيل أحياءها قتلى، ودورها ترابًا، ففعلوا ما أمرهم به ابن زياد، وأتقنوا عملية بث الرعب فى القلوب، ثم نصحوا الثوار أن ينصرفوا على أن تعالج الأمور فيما بعد، بالتفاهم والمفاوضة. وانصرف الثوار ـ بعضهم صرفه الفرع، وبعضهم صرفه احتمال الوصول إلى تفاهم يحقن الدماء وبذلك لم يثبتوا ولم يكد الليل يتقدم حتى كانوا قد تفرقوا عن الفتى وتركوه وحيداً يهيم فى سكك المدينة يلتمس داراً ينفق فيها بقية الليل. وفى الصباح انبثت شرطة ابن زياد فى طول الكوفة وعرضها باحثين عن «مسلم بن عقيل» حتى عثروا عليه فى إحدى الدور، فقاومهم وحده بسيفه وعزمه، ولكن دون جدوى وحمل إلى الطاغية، حيث وقف أمامه صامتًا ورافضًا أن يلقى عليه السلام. وسأله ابن زياد: أتراك ترجو الحياة والبقاء؟ فأجابه «مسلم»: «إذا كنت تريد قتلى، فدعنى أوص إلى بعض الذين هنا من قومى»[1].

أجل، لم تشغله حياته، إنما تشغله حياة ابن عمه «الحسين» الذى أرسل إليه من قبل يدعوه للقدوم وهو الآن فى طريقه إلى الكوفة! كما تشغله ديون اقترضها منذ قدومه، حيث أسهم بها فى شراء العتاد والسلاح. وأجابه ابن زياد إلى طلبه، فأمر ـ عمر بن سعد ـ أن يستمع لوصيته وأوصاه «مسلم» فقال: «إن على بالكوفة دينًا اقترضته، فإذا قتلت فبع سيفى ودرعى، وخذ من غلتى بالمدينة حتى تقضيه عنى، وإنى قد أرسلت إلى «الحسين» أخبره أن الناس ينتظرونه، وأدعوه للقدوم، ولا أراه إلا مقبلا. فابعث إليه من يرده ويخبره أن أهل الكوفة لا عهد لهم» ثم أسلمه الطاغية لجلاديه، فضربوا عنقه، ثم رموا رأسه الكريم من حالق إلى قارعة الطريق، وأتبعوا الرأس الجسد ثم انصرفوا إلى لهوهم ومرحهم، فقد كانت الليلة ليلة العيد. وفى الصباح صلى «ابن مرجانة» فى المسجد الجامع صلاة عيد الأضحى. ثم أمر برأس «مسلم بن عقيل» ورأس «هانئ بن عروة» فغرسا فى أسنة الرماح ثم أرسلهما إلى الشام، هدية لمن يدعوه أمير المؤمنين!!

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص87.

وكانت تلك أول تجربة لكفاءة يزيد السياسية التى بدت محدودة إلى حد كبير، بعد أن سارع إلى عزل واليه «الأنصارى» المعتدل، وتكليف عبيدالله بن زياد الذى ينتمى إلى فئة، إن لم نقل أسرة، لا تتورع حينذاك عن استخدام كافة الوسائل حتى غير المشروعة فى خدمة السلطة، محافظة على مواقع نفوذها لدى الأخيرة. وقد يرى البعض أن تعيين والى البصرة الحديدى، الذى ورث الكثير من صفات أبيه فى هذا المجال، كان مبعثه خوف الخليفة الجديد على نظامه، مما دفعه إلى توسل العنف والشدة تحقيقًا لهذا الهدف الذى تتسوغ دونه كافة الطرق، مقبولة كانت أو غير مقبولة، ولكن يزيد على الرغم من قصور نظره فى معالجة هذه المشكلة، وحاجته إلى القليل من مرونة أبيه، فإن المجابهة بدت حينذاك حتمية للسلطة والمعارضة معًا، فقد حان وقتها بالنسبة للأخيرة ولكن دون ان تكون مرتهنة فقط لـ «ضعف» الخليفة الجديد، بينما كانت ضرورية للأولى، لإثبات وجودها أو شىء منه، فى أعقاب الفتور الإسلامى الذى استقبلت به، وإن كان بالإمكان تخفيف نتائجها وذلك لمصلحة السلطة نفسها، ثم اللجوء إلى وسائل أقل دموية إزاء محاولات المعارضة فى الكوفة والمدينة ومكة[1].

وهكذا، فى الوقت الذى تحرك فيه الإمام الحسين عليه السلام نحو العراق، معتمدًا على تقرير مسلم بن عقيل الإيجابى، كانت الكوفة تشهد انقلابًا مضادًا ـ إذا جاز التعبير ـ للثورة، بقيادة عبدالله بن زياد. وإذا بالمعطيات تتحول لمصلحة السلطة، بعيدَ عمليات عنف تركت بصماتها على حركة التشيع التى فقدت تلاحمها الشديد، بعد إعدام اثنين من قادتها الكبارـ مسلم بن عقيل (موفد الحسين) وهانى ابن عروة المرادى من قبائل مذحج اليمنية (من زعماء الكوفة) ـ أول ضحيتين فى الثورة التى أجهضت فى المهد. فى الوقت الذى كان رأس «مسلم وهانى» يقطعان الفيافى من صاحب العراق ابن زياد، إلى شام يزيد، كان «الإمام الحسين عليه السلام» يقطع طريقه من مكانه إلى الكوفة، دون أن يعلم بعد، ما وقع بها من أهوال.

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ص186.

وكان قبل خروجه قد صمد لمعارضة عاتية من بعض أهله وأصحابه الذين خشوا عليه عواقب الخروج.

فهذا «عبدالله بن عباس» رضى الله عنه، يجرى معه حواراً طويلا يتوسل إليه خلاله كى يبقى حيث هو. يقول له «ابن عباس»: «يا ابن عم، إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبين لى ما أنت صانع؟» فيجيبه «الحسين»: «إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين إن شاء الله تعالى». ويعود «ابن عباس» ليقول له: «إن كانوا قد دعوك إليهم بعد أن عزلوا أميرهم، ونفوا عدوهم، ووطأوا أكناف بلادهم، فسر إليهم، وإن لم يكونوا فعلوا، فإنهم إذن يدعونك لفتنة وقتال، وإن أهل الكوفة لا عهد لهم، وإنى أخشى عليك الهلاك. أقم بهذا البلد حيث أنت، وإذا كنت لابد خارجًا، فاذهب إلى اليمن، فإن به حصونًا وشعابًا، ولأبيك به شيعة» ويزداد «الإمام الحسين ﷺ» تصميمًا ويقول: «يا ابن عم، إنى لأعلم أنك ناصح مشفق، ولكنى قد عزمت على المسير» وتضيق الأرض بابن عباس، وتحتدم أعصابه ويقول للحسين: «لولا أن يزرى الناس بى وبك، لشبثت يدى فى رأسك، فلا أدعك تذهب ولكن إذا كنت لابد سائرًا، فلا تسر بأولادك ونسائك؛ فإنى أخشى أن تقتل وهم ينظرون إليك. وهذا «عبدالله بن عمر» لايعلم بمسيرته إلا بعد خروجه، فيمتطى ظهر راحلته، ويقطع الطريق وراءه وثبًا، حتى يلحق به على بعد ثلاثة أيام من مكة. ويسأله: أين تريد؟؟ فيجيبه: الكوفة، هذه كتب أهلها وبيعتهم، وإنى ذاهب إليهم. فيقول له ابن عمر: «إنى محدثك حديثًا. إن جبريل أتى النبى ﷺ، فخيره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا، وإنك بضعة من رسول الله، والله ما يليها أحد منكم أبدًا، وما صرفها الله عنكم، إلا للذى هو خير لكم». ولكن «الإمام الحسين ﷺ» لاينقص عزمه، فيضمه «ابن عمر» إلى صدره ويقبله ويقول وهو يبكى: «أستودعك الله من قتيل» كذلك كان «أبو سعيد الخدرى» صاحب رسول الله قد حاول ثنيه عن عزمه قبل

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص90.

خروجه من مكة، وجلس يقول له: «لقد سمعت أباك يقول وأنا معه بالكوفة: والله لقد مللتهم وأبغضتهم، فما لهم ثبات على أمر، ولا صبر على السيف، ومن فاز بهم، فاز بالسهم الأخيب»!! كل تلك المحاولات الحريصة على سلامته وحياته، لم تلن له قناة، ولم توهن له عزمًا!

وصل كتاب مسلم إلى الإمام الحسين ﷺ بمكة، فجعل يتأهب للمسير إلى الكوفة، وجعل الناس يلحون عليه فى ألا يفعل. يخوفونه بأس يزيد وبطش ابن زياد وغدر أهل الكوفة، ونصح له ابن عباس فى أن يمضى إلى اليمن فيقيم فى شعب من شعابها بعيدًا عن يد السلطان وقريبًا من شيعته هناك. ونصح له عبد الله ابن جعفر، ورفق به عامل يزيد على مكة سعيد بن العاصى، فأرسل فى إثره من يلح عليه فى الرجوع إلى مكة، ويؤمنه على نفسه وماله وأهل بيته ويرغبه فى الصلات، ولكن الإمام الحسين ﷺ مضى لوجهه ولم يمض وحده، وإنما احتمل معه أهل بيته، وفيهم النساء والصبيان. ولم يسمع لمشورة ابن عباس الذى أشار عليه إن لم يجد بدًا من المسير أن يترك أهل بيته وادعين آمنين، وأن يدعوهم إليه إن استقامت له الأمور، ولكنه أبى. وما أراه أبى عنادًا أو ركوبًا لرأسه، وإنما كان يعلم أن يزيد سيأخذه بالبيعة أخذًا عنيفًا، فإن بايع غش نفسه وخان ضميره وخالف عن دينه، لأنه كان يرى بيعة يزيد إثمًا، وإن لم يبايع صنع به يزيد ما يشاء. ولم يكن الإمام الحسين ﷺ مخطئًا فيما قدر، فهو قد عرف ما كان من غضب يزيد على ابن الزبير حين امتنع عن البيعة. وأقسم ألا يرضى حتى يحمل إليه ابن الزبير فى جامعة يقاد إليه كما يقاد الأسير. ولم يخطئ الإمام الحسين ﷺ حين أبى أن يترك أهل بيته بالحجاز، فلم يكن يأمن أن يأخذهم يزيد بمسيره هو إلى العراق منابذًا للسلطان[1].

ذلك أن القضية التى خرج البطل حاملا لواءها، لم تكن قضية شخصية تتعلق بحق له فى الخلافة، أو ترجع إلى عداوة شخصية يضمرها ليزيد، كما أنها لم تكن قضية طموح يستحوذ على صاحبه ويدفعه إلى المغامرة التى يستوى فيها

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص193.

احتمال الربح والخسران. كانت القضية أجلّ، وأسمى، وأعظم. كانت قضية الإسلام ومصيره، والمسلمين ومصيرهم وإذا صمت المسلمون جميعهم تجاه هذا الباطل الذى أنكره البعض بلسانه، وينكره الجميع بقلوبهم، فمعنى ذلك، أن الإسلام قد كف عن إنجاب الرجال. معناه أن المسلمين قد فقدوا أهلية الانتماء لهذا الدين العظيم ومعناه أيضًا، أن مصير الإسلام والمسلمين معًا، قد أمسى معلقًا بالقوة الباطشة، فمن غلب، ركب. ولم يعد للقرآن، ولا للحقيقة سلطان. هذه هى القضية فى روع الحسين وبهذا المنطق أصر على الخروج. ومعنى آخر نبيل، أفصح عنه فى حواره مع ابن عباس حين كان يلح عليه أن يبقى فى مكة، فقال له: «إنى أخاف أن تستباح مكة بسببى» إنه برفضه مبايعة يزيد، وبتصميمه على مقاومته، يرى المجابهة أمرًا محتومًا ولم يرد لهذه المجابهة أن تقع فى البلد الحرام، فهو على بينة من سفالة خصومه، وهو يعلم أنهم لن يتورعوا عن هدم المسجد ذاته والكعبة ذاتها إذا اضطرهم القتال لذلك ثم إن أهل الكوفة قد دعوه، ووثقت دعوتهم بكتاب ابن عمه «مسلم بن عقيل» فقد صار لزامًا عليه وفق اقتناعه بعدالة قضيته أن يسارع إلى تلك الجبهة التى أعدت نفسها لمناصرته والمقاومة معه. ولكن، ماذا عساه يصنع، حين يعلم أن ابن عمه قتل . . وأن الذين بايعوه قد لاذو بالفرار . .؟ لن يصنع شيئًا سوى المضى مع عزيمته وعزمه، ذلك أنه لم يخرج ليحرز نصراً مضمونًا، بل خرج ليؤكد حق الإسلام فى حماية نفسه من الضلال والإفك، وليكفر فى تضحية مجيدة عن خطيئة الصمت التى اقترفها الناس طائعين، أو مكرهين وليكن بعد ذلك ما يكون!! إن الذى يعنيه من ناحية الجوهر، هو أن يؤدى ما رآه واجبًا مقدسًا عليه نحو دينه ونحو الحق. والذى يعنيه من ناحية الشكل، ألا تدور المعركة بينه وبين يزيد فى مكة فيكون سببًا فى استباحة حرمتها وقداستها. «لأن أقتل فى أى مكان من الأرض، أحب إلى من أن أقتل هنا، فيستباح البلد الحرام بسببى» وهكذا طاف بالبيت الحرام، مؤديًا له التحية التى لم يكن يدرى أنها تحية الوداع!! ثم تصدر القافلة التى انتظمت أهله المباركين من زوجات، وأخوات، وإخوة وأبناء عم، وأبناء إخوة، كما انتظمت نفرًا من أنصاره

وصحبه واثنين من بنى عبدالله بن جعفر. ولقد اصطحب معه من أهله كل هذا الجمع؛ لأنهم ـ غالبًا ـ تشبثوا بالرحيل معه، ولأنهم وفق التدبير الذى كان مرسومًا، سيقيمون فى البيوت التى ستعد لهم فى الكوفة، قريبين منه وتحت عينيه ورعايته، ولأنه أخيراً ـ وربما كان هذا أهم دواعى اصطحابهم معه ـ خشى حين يشتبك مع يزيد فى قتال، أن ينتقم منه فى شخص أهله هؤلاء من زوجات وإخوة وأخوات. فيهاجم مكة؛ ويستبيحها بسببهم، الأمر الذى كان «الإمام الحسين عليه السلام» يخشاه دائمًا ويتوقاه..!! ومضى البطل إلى غايته[1].

أخذت النذر تلقاه على طول طريقه، ففى أول الطريق لقيه الفرزدق الشاعر قادمًا من الكوفة. وسأله «الإمام الحسين عليه السلام»: «كيف تركت الناس من ورائك»؟ فأجابه الفرزدق: «تركتهم، قلوبهم معك.. وسيوفهم مع بنى أمية». إنه نذير من رجل له بالأمور فطنة وبصر، لكن البطل العظيم لايزيد على أن يتلو الآية الكريمة: (لله الأمر من قبل ومن بعد) ويمضى فى طريقه وبعد أيام يلقاه «عبدالله ابن مطيع» قادمًا هو الآخر من العراق، فلا يكاد يرى «الإمام الحسين عليه السلام» حتى يتعلق بثيابه صارخًا وراجيًا أن يعود. قائلا له: «أناشدك الله ألا تذهب للكوفة، فوالله لئن أتيتها لتقتلن». فما يزيد على أن يتلو الآية الكريمة: (قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا) ويستأنف السير مع قدره وقدره، وبعد مرحلة أخرى من الطريق يلقاه رجل من بنى أسد، قادم من الكوفة أيضا، فيسأله «الإمام» عن أخبارها. فيجيبه الرجل: لقد قتل (مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة)..!! نبأ يهد الجبال ولكن، من هو بإيمانه أقوى من الجبال، ماذا تكون ردود فعل هذا النبأ الرهيب لديه..؟ أرسل بصره فى الأفق البعيد، ثم قال: «إنا لله، وإنا إليه راجعون، عند الله نحتسب أنفسنا ولا خير فى العيش بعد هؤلاء»..!!

مصرع «مسلم وهانئ» كان كافيًا لصرف «الإمام الحسين عليه السلام» عن غايته، لو أنه كان فى موقفه وخروجه إنما يستمد شجاعته وجسارته من مساندة أهل الكوفة له، وليس من إيمانه واقتناعه وضميره. فمعنى قتل «مسلم وهانئ»، أن الجبهة

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص92.

كلها قد انهارت، وأن أهل الكوفة ـ على أحسن الظنون بهم ـ قد باتوا عاجزين عما كانوا قد جندوا أنفسهم له. وهذا كاف لكى يلوى «الإمام الحسين ﷺ» زمام قافلته ويعود. لكن تصميمه الوثيق يقوده، وقدره العظيم كان يناديه. سار ـ رضى الله عنه ـ يقطع الصحارى المتلظية، مجتازاً فى مشقة وكبد، أغوارها ونجودها، معانيًا لفحها الضارب كريح السموم، حتى بلغ مكانًا يدعى «بطن الرمة»، فحط رحاله، وضرب خيامه ليستريح ومن معه، ثم كتب لأهل الكوفة كتابًا يخبرهم أنه فى الطريق إليهم، وأعطى الكتاب واحداً من أصحابه هو: «قيس بن مسهر الصيداوى» وأمره أن يسبقه به إلى الكوفة. ومضى «قيس» لسبيله، بيد أنه لم يكد يبلغ القادسية حتى لقيته قوات ابن زياد، فاعتقلته وصحبته معها إلى الكوفة. وهنا نرى مشهداً بطلا، لرجل بطل!! فقد أمره ابن زياد أن يشرف على الناس من شرفة قصره، ويلعن «الإمام الحسين ﷺ»، ويعلن على الملأ أنه ـ حاشاه ثم حاشاه ـ كذاب وابن كذاب!! وتظاهر «قيس» بالطاعة، وصعد مع الحرس إلى حيث أراد ابن مرجانة ثم ألقى على الجموع التى جمعوها وحشدوها نظرة وابتسامة ثم صاح:

«أيا الناس إن «الحسين بن على» من خير خلق الله، فأجيبوه وانصروه وإن الكذاب ابن الكذاب، هو عبيد الله بن زياد؛ فالعنوه والعنوا أباه»!!

هل تستطيع كل فصاحة البشر، أن تعلق على هذا الموقف بثناء، أو إطراء، أو تمجيد!! كلا فلنلق نظرة مزدرية على ابن زياد ولد مرجانة؛ لنرى ما أنزل به موقف «قيس» العظيم من خزى وإذلال وسعار. لقد جن كالكلب المسعور، وراح يلعن ويرجم شياطينه لأنهم أمهلوه حيًا حتى اكمل عبارته القاصمة. ثم أمرهم أن يلقوا به حيًا من أعلى سور القصر، فقذف به، حيث اندقت عظامه، وغربت حياته. لم يعلم «الإمام الحسين ﷺ» بمصير «قيس» بعد ولقد استأنف سيره ومسراه حتى انتهى إلى مكان يدعى ـ زرود ـ وهناك أبصر فسطاطًا مضروبًا. فسأل عنه فعلم أنه لـ «زهير بن القين» فأرسل «الإمام الحسين ﷺ» فى طلبه، فتثاقل أول الأمر، ثم ذهب إلى لقائه ضجراً وحين التقيا، أسر «الإمام الحسين ﷺ» إليه

حديثًـا، لم يكد الرجل يسمعــه حتى تهلل وجهــه، وامتلأ غبطة وبشــرا ثم سارع فنقل فسطاطه إلى جوار فسطاط «الإمام الحسين ﷺ» وقال لمن كان معه من أهله: «من أحب منكم أن يتبعنى، وإلا فإنه آخر العــهد بيننا» ثم التفت إلى زوجته وقال لها: «أما أنت، فــالحقى بأهلك؛ فإنى لا أحب أن يصيبك بسببــى سوء» وانصرف أقرباؤه عائدين إلى موطنــهم، مصطحبين معهم زوجتــه. ترى ماذا قال له «الإمام الحسين ﷺ» حين ناجاه؟!(1).

هل وعده بمنصب، أو مغنم. . ؟؟ لو كان ذلك، مــا سرح زوجته، ولا قال للذين كانوا مــعه مودعًــا إياهم: «إنه آخر العهــد بيننا» ثم بأى مغنم يعــده «الإمام الحسين ﷺ» وقد جــاءته الأنباء بمقــتل رسله، وشــراسة عدوه؟؟ إنه حــدثه عن قضيــته العادلة، ثم ختم حــديثه معه قــائلا: تلك هى القضية، فــفيم إبطاؤك عن الجنة؟ وتابعت القافلة سيــرها، كاسبة هذا النصير الجديد، ومــنتظمة رجالا آخرين كان ينضــمون إليهــا خلال عبــورها بقراهم وخيــامهم عبر الــطريق الطويل. وبعد مسيرتهم من جديد، أبصروا فارسًــا يثير النقع، ويطوى الأرض. لقد كان رسول ـ عمــر بن سعد ـ الذى أوصاه «مــسلم بن عقيل» ـ قــبل مقتله بأن يرسل للحــسين يخبــره بما حدث، وينصحه بالرجــوع. لم يبق فى الأمر إذن شك ولا ريب. ولم يدر فى خاطر الإمام الحسين ﷺ أدنى تردد، بل انتضى عزمه وواصل سيره. كل ما هنالك، أنه أعــفى أولئك الذين تطوعوا لنصرته من رجــال القبائل التى مــر بها خلال سفــره. لقد انضموا إليه على أمــل النصر. أما الآن فالأمل فى الاستــشهاد وحده ومضى فى صحبة أهله، وخاصته، والنصير الجديد «زهير بن القين».

وكان الإمام الحــسين ﷺ حينذاك، مــا يزال متابعًا طريقــه ومعه مجــموعة صغــيرة، هى عائلته وبعض خلــصائه، دون معرفــة بمتغيرات الأمــور. ثم جاءت الصدمة التى وضعــته على أخبار المحنة، بعد أن نقل إليه عــبدالله بن مطيع ـ وكان قادمًــا بالمصادفة من العــراق ـ الصورة القاتمة للــوضع المستجــد فى الكوفة. ولكن الإمام الحسين ﷺ، كان ما يزال قادرًا على الاختيــار الصعب، وربما أكثر إصرارًا

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص95.

من مكة، حين اتخـذ قراره الحاسم والنهـائى بمتابعـة الطريق إلى العراق، دون أن تحمله على التـراجع أو الوهن أخبار «الانقلاب» الأمـوى فى الكوفة. ولعله راهن حينذاك على آخـر أوراقه، فى محـاولته الاقتـراب من الكوفة والاتصال بقـاعدته ومـادة الثورة، أو لعله كـان على ريبة مـن جرأة السلطة فى حـرق نفسـها حتى الانتـحار، لـلحيلولـة دون بلوغه الكـوفة، تلك المعـادلة التى وصلـت إلى قمـة الاختـلال، عندما خـرق الحكم الأموى فى عهـد يزيد، البديهـيات من شـروطها وقواعدها العامة. ومن هذا المنطلق، توالت الأحداث على الجـبهة الأموية كما هو مرسوم لها، بعد أن حزم عبيـدالله بن زياد أمره لاستكمال الفصل الثانى والمثير من القضية التى انتهت عـمليًا دون أن تتم فصولها، لكنها كرمز، ظلت مـتوهجة عبر عشرات القرون. ذلك أن الوالى الأموى، كان حريصًا على تحدى سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام والوقوف فى طريقه، منتدبًا إحدى الفرق الصغيرة بقيادة الحر بن يزيد التميمى لمراقبة تحركاته، وسرعان ما أعقبها بفرقة أخرى كبيرة، اختار لقيادتهـا ابن أحد الصحابة التاريخيين، وهو عمـر بن سعد بن أبى وقاص، ومعها أوامر مشددة بحسم الأمور فى كربلاء، حيث عسكر الإمام الحسين عليه السلام مع جماعـته، وقد حاول ابن سعـد ـ حسب الروايات ـ التخلص من المهمـة الثقيلة، ولكن دون نتيجـة، لاسيما وأنه سمى لوقت قريب واليًـا على «الرى»، مما وضعه ذلك فى مأزق الاختيار بين الولاية والمهمة. وبعد نحو أسبوع من المفاوضات، كان القائد الأموى قد اتخذ قراره بتنفيذ أوامر السلطة فى الكوفة، والإمام الحسين عليه السلام بدوره رفض شرط ابن زياد الأخير، بـ «المثول» لديه فى قصر الإمارة. وفى العاشر من محرم من عـام إحدى وستين للهـجرة، حدث ما كان مـتوقعًا دون مـفاجآت تذكر، سـوى التحـاق الحر بن يزيد، قائد الـفرقة الأولى، بقـافلة الإمام الحـسين عليه السلام، بعد أن تهيب الموقف الخطير، تلك القافلة التى اخـتارت نهايتها البطولية فى كربلاء. وهكذا فإن آخر فـصول الثورة الكوفية التى أعدت ليقـودها الإمام الحسين عليه السلام، أبرز شخصيات البيت الهاشمى وسبط رسول الله محمد ﷺ حينذاك، تحول إلى مأسـاة دموية، اضطربت لهـا ضمائر المسلمـين واهتزت أركـان النظام الأموى ومعه الخليفة نفسه الذى حاول مسح يديه من المجزرة وإلصاقها بابن زياد.

مذبحة كربلاء لأبناء رسول الله محمد (ﷺ):

فرض ابن زياد، حول الكوفة حصاراً محكمًا، فلا يخرج من أهلها أحد، مخافة أن ينضموا لموكب البطل القادم إلى الكوفة. ولم يأذن لأحد من أهلها بالخروج إلا إذا كان ذاهبًا للحج، شريطة ألا يكون يحب «الإمام الحسين عليه السلام» أو التشيع له. وفى نفس الوقت، أطلق من وراء مشارفها وحدودها البعيدة طلائعه وسراياه، آمراً إياها أن تتربص بقافلة «الإمام الحسين عليه السلام». فإذا التقت بها إحداها احتجزتها حيث هى، ثم أرسلت بالخبر لابن زياد. وعند إحدى القرى الرابضة على حدود العراق، التقى ركب «الإمام» بإحدى تلك الطلائع. كانت تضم ألف فارس، تحت إمرة «الحر بن يزيد التميمى». ولم يكن «الإمام الحسين عليه السلام» يراهم قادمين نحوه، يتصببون عرقًا من وقدة الحر وقد تيبست شفاههم من الظمأ، حتى أمر فتيانه أن يستقبلوهم بالماء، فشربوا حتى رووا، ثم جلسوا فى ظلال خيولهم، وأذن مؤذن لصلاة الظهر، فسأل «الإمام الحسين عليه السلام» الحر بن يزيد: (اتصلى بأصحابك وأصلى بأصحابى)..؟ وأجابه الحر قائلا: «بل نصلى جميعًا بصلاتك» ومضى الوقت بعد الصلاة فى حديث وتحاور. ثم صلوا العصر حين جاء موعده. واستأنفوا بعد الصلاة الحوار قال «الإمام الحسين عليه السلام» لهم: «إنى لم آتكم حتى اتتنى كتبكم، وقدمَت علىَّ رسُلُكم، فإن أعطيتمونى ما أطمئن إليه من عهد وميثاق دخلت معكم مصركم، وإن تكن الأخرى انصرفت عنكم». لكن ـ الحر بن يزيد ـ أنبأ «الإمام الحسين عليه السلام» رضى الله عنه أنه لايدرى من الأمر شيئًا، وأنه كلف من أمير الكوفة والبصرة ـ عبيد الله بن زياد ـ بمهمة محددة، هى انتظار ركب «الإمام الحسين عليه السلام» حين يجىء، ثم قيادته إلى ابن زياد بالكوفة .. ابن زياد بالكوفة؟!! يا لهوان الدنيا حين يمسك بتقاليدها السفلة، وتهيض فيها أقدار الكرام.

قال سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام: «الموت أدنى إليك مما تريد»!! ثم أمر أصحابه، فحملوا متاعهم، وركبوا رواحلهم، ثم تقدمهم فى المسير منصرفًا عن الكوفة، مغيراً اتجاهه. لكن «الحر بن يزيد» أمر فرسانه فقطعوا

عليهم الطريق. وصاح به الإمام الحسين ﷺ: ماذا تريد؟ قال الحر: أن تصحبنى إلى ابن زياد. قال سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ: إذن والله لاأتبعك. وأجابه الحر: إذن والله لا أدعك. وصاح سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ: إنها الحرب إذن.!! وهنا لانت عريكة الحر بن يزيد فقال «إنى والله لا أريد قتالكم ولم أومر به، وإنى لأرجو أن يرزقنى الله فيك العافية، ولا أبتلى بشىء من أمرك. ولقد أمرت إن أنا لقيتك ألا أفارقك حتى أخبر الأمير ابن زياد، فإن رأيت فاتخذ طريقًا لاتدخلك الكوفة ولا تردك عنها حتى يأتينا رأى الأمير». ومضى ركب «الإمام الحسين ﷺ» يضرب فى تلك الرقعة من الأرض، يتيامن مرة، ويتياسر أخرى. وفرسان ابن زياد بقيادة الحر التميمى يذودون الركب عن البادية كلما همَّ أن يدلف إليها ويدفعونه تجاه الكوفة فى رفق. ولم يكد الركب يبلغ «نينوى» تلك القرية التى قيل إنها كانت موطن النبى «يونس» عليه السلام، حتى تراءى لهم من النقع المثار، راكب يغذ السير ويطوى الرمال. ولبثوا مكانهم ينتظرون، فإذا هو رسول ابن زياد للحر بن يزيد يحمل إليه كتابًا يقول فيه: «أما بعد، فشدد على «الحسين» فى المكان الذى يوافيك عنده كتابى، ولاتنزله إلا بالعراء، فى غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولى ألا يفارقك حتى تأتينى بإنفاذ أمرى، والسلام». وتلا ـ الحر التميمى ـ الكتاب، ثم ناوله «الحسين» فتلاه، وأراد الحسين أن يستأنف سيره متجهًا صوب مسيل ماء، فمنعه ـ الحر التميمى ـ الذى كانت تحاصره نظرات الرقيب الوافد من عند ابن زياد، وغير سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين ﷺ» اتجاهه، وسار بركبه والفرسان عن جانبيه. ولكن إلى أين؟ لقد خشى الحر أن تفلت الفرصة منه، فتصدى للركب السائر، وأصر على النزول حيث انتهت خطواته ونزل الركب من فوق رواحله. وألقى الإمام الحسين ﷺ بصره على الفضاء الموحش حوله فى كربلاء. وكربلاء فى طرف البرية عند الكوفة واشتقاقه من الكربلة رخاوة فى القدمين، يقال: جاء يمشى مكربلا أى كأنه يمشى فى طين، فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا الموضع رخوة فسميت بذلك. ويقال كربلت الحنطة إذا هززتها ونقيتها، فيجوز على هذا أن تكون هذه الأرض منقاة من الحصى والدغل فسميت بذلك. والكربل: اسم نبت

الحماض. وقد روى أن الإمـام الحسين عليه السلام لما انتهى إلى هذه الأرض قال لبعض أصحابه: ماتسمى هذه القـرية؟ وأشار إلى العقر. فقالوا له: اسمهـا العقر، فقال الإمام الحسين عليه السلام: نعوذ بالله من العقر (من عقر الفرس والناقة وغيرهما، حصد قوائمها بالسـيف) ثم قال: فما اسم هذه الأرض التى نحن فيـها؟ قالوا: كربلاء. فقال: «أرض كرب وبلاء» وأراد الخروج منها فمنع[1].

فاختفى تفاؤله وراء إحســاسٍ بالجزع، وتذكَّر ذلك اليوم الذى تحدثنا عنه من قبل، يوم كان «الإمام علىّ عليه السلام» فى طريقه إلى «صفين» فوقف على نفس المكان، وقال: «هنا، محط رحالهم، ومهـراق دمائهم» تذكر «الإمام الحسين عليه السلام» المشهد كله، فقـد كان يومـئذ مع أبيـه وذاب الوجود من حوله فى لحظـات تأمل حارة، صاهرة كربلاء ها هى ذى بين نـبوءة الأمس، وواقع اليوم، ومصيـر الغد: أى سر للقدر، ينشره ويطويه، يظهره ويخفيه وأية حكمـة إلهية، تقود حياتنا بين مطالعها ومـغاربهـا مذعنة لقـدرها الحكيم، وتقـديرها العليم!! لقـد راح البطل يستـعيـد بخواطره ذلك اليـوم، وتلك الواقعة، وتلك النبوءة!! وراح يهـز رأسه المضىء فى حركة متأملة، كمن أدرك الحكمة وطالع المصير..

خطب الإمام الحـسين عليه السلام خطبة وجـيزة ذات معنى عـميق حينمـا قال مما قال: «الناس عـبيد الدنيا، والديـن لعق على ألسنتهم، يحوطونه مـا درت عليهم معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء، قلَّ الديانون..» ثم حمد الله وأثنى عليه. وصلى على النبى وآله وخطب قائلا: «أمـا بعد: فقد نزل بنا من الأمـر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيـرت وتنكرت وأدبر معروفها: فلم يبق منها إلا صبـابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحق لايعمل به، وأن الباطل لايتناهى عنه، ليرغب المؤمن فى لقاء الله محقًّا. فإنى لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برمًـا» ويعد هذا الخـطاب، أول خطاب ألقاه الإمـام فى كربلاء. أمـا رجاله فـمن المؤمنين المخلصين البـواسل، ليس فيـهم مَصلحى نفـعى واحد قط.

1 ـ محمد رضا ـ الحسن والحسين سبطا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ـ ص135.

فنزول كـربلاء كان إيذانًا بالتـخلص من جمـيع عشـاق الدنيا. لذا، فـإن أسلوب الخطاب هذا، وما سبقـه من الكلمات المذكورة وصيغها، جـاءت تخاطب العقول والقلوب المؤمنة، متـعاملة مع روح المعانى السـامية التى يعـشقها المؤمن ـ النصـير الحسينى ـ ويضحى متفانيًا فـى جنبها . . فكلماته عليه السلام تهز القلوب، وترن فى الآذان: فنحن عترة نبيك ـ كما ناجى الرحمن ـ والناس عبيد الدنيا. وأن الدنيا قد تغيـرت وتنكرت وأدبر معروفها. وأن الحق لايعـمل به والباطل لايتناهى عنه، وليرغب المؤمن الحـقيقى فى لقـاء الله على حقه، لاسـيما والإمـام القائد لا يرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برمًا. تـلك العبارات الصادقة التى خرجت من الصميم الحسـينى، لتدخل قلوب أنصاره الذين ما فتئـوا معه منذ انطلقوا، أو التحقـوا، أو انضموا. كلمات دخلت قلوب الأنصـار ذلك اليوم، وتدخل قلوب أنصاره فى كل عـصر ومصر، إلى اليـوم، حيث يرددها أتباعـه وأنصاره وشيعـته ويتغنون بها وهم يستمدون منها القوة العارمة والعطاء السخى. ونهض أنصاره بعد إنهاء الإمـام خطبتـه، ليعـقبـوا، وليؤكـدوا له ما هم عليـه. وكان أولهم كـلامًا وأسبقهم قولاً النصير المقدام زهير البجلى الذى حمد الله وأثنى عليه ثم قال:[1]

«قد سمـعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقالتك، والله لو كـانت الدنيا لنا باقية، وكنا فـيها مخلدين، إلا أن فـراقها فى نصرك ومواسـاتك، لآثرنا النهوض معك على الإقامة فـيها» فدعا له الإمام وجزاه خـيرا، ثم عقب بعد ذلك الخطاب مجاهد آخر، قام برير بن خضير الهمدانى فقال:

«والله يا ابن رسول الله، لقد مـن الله بك علينا أن نقاتل بين يديك وتقطع فيك أعضـاؤنا. ثم يكون جدك شفيـعنا يوم القيامة» فكل من زهيـر البجلى وبرير

---

1 ـ محـمد على عابدين ـ التـسير الذاتى لأنصار الحـسين ص205 وانظر تاريخ الطبرى ج4 ص305 وعن أبى جعفر الطبرى: فإن ذلك حدث بمنطقة ذى حسم. وانظر ذخائر العقبى لمحب الدين الطبـرى ص149ـ150 واللهـوف لابن طاووس ص30 بتـفـاوت لفظى فى النص.

الهمداني على أتم الاستعداد للفداء وأكمله من أجل الإمام الحسين ﷺ ورسالة الحسين والله غالب على أمره. ثم عقب النصير البطل نافع بن هلال الجملي بقوله المطول نسبيًا: «يا ابن رسول الله، أنت تعلم أن جدك رسول الله لم يقدر أن يشرب الناس محبته، ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحب. وقد كان منهم منافقون يعدونه بالنصر، ويضمرون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل، ويخلفونه بأمر من الحنظل، حتى قبضه الله إليه. وإن أباك عليا رحمة الله عليه قد كان في مثل ذلك. إلا قوم قد أجمعوا على نصره وقاتلوا معه الناكثين والقاسطين والمارقين حتى أتاه أجله، فمضى إلى رحمة الله ورضوانه. وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة، فمن نكث عهده، وخلع بيعته فلن يضر إلا نفسه والله مغن عنه. فسر بنا راشداً معافى، مشرقًا شئت أو مغربًا، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا وإنا على نياتنا وبصائرنا، نوالي من والاك ونعادي من عاداك.» وهكذا. فتلك نماذج رفيعة عظيمة من منطق رجال الركب الحسيني وإنها لمجرد نماذج إذ لم نحظ بنصوص كلمات باقي عمالقة كربلاء إلا أن لمحة تقول: «وتكلم أكثر أصحاب الإمام بمثل هذا الكلام، وقد شكرهم الإمام على هذا الإخلاص والتفاني في سبيل الله» ثم تحرك موكب المجاهدين الثابتين حتى بلغوا الساحة الموعودة والميدان المعلوم في السماء كما صار معلومًا في الأرض، إنه المكان المكنون في ضمير الغيب، هو كربلاء التحرير، كربلاء البطولة، كربلاء الابن والنبل والعظمة، فقد قال الإمام عليّ ﷺ ما سبق أن أوردناه «ها هنا محط رحالنا ومقتل رجالنا هاهنا» أجل هناك سترتفع منائر عمالقة التحرير. هناك مثوى شوامخ الحرية. هناك مراقد الذين جسدوا المثل، وكتبوا الإسلام بمداد دمائهم. فكل من حط الرحال في كربلاء كان مرابطًا لله، صابراً محتسبًا، ممن أخلص ووفى بعهده، فضلا عمن التحق بالجبهة الحسينية خلال الأيام الأخيرة في أعقاب أحلك الظروف وأخطرها

---

1 ـ محمد علي عابدين ـ نفس المرجع ص206 وانظر: بحار الأنوار ج44 ص382 ـ 383 ـ حياة الإمام الحسين ج3 ص100.

وأقساها وارتسمت أمام خاطره بحروف كبار آية القرآن العظيم: **﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم. وليبتلى الله ما فى صدوركم، وليمحص ما فى قلوبكم. والله عليم بذات الصدور﴾**. ونهض فى قوة وطمأنينة، وراح يشارك صحبه فى شد الخيام، فقد آن للعقيلات والأخوات أن يسترحن، بعد ما أضناهن لغوب السفر، ومشقة الطريق وراح وهو يعمل، يردد فى حبور وتهلل آية الله فى كتابه: **﴿إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾**[1].

كان اليوم، غرة المحرم والعام، الواحد والستين للهجرة والمكان، كربلاء، على مقربة من نهر الفرات وقبل أن نبلغ اليوم العاشر من المحرم، يوم الواقعة الرهيبة، والمهيبة. يوم الآلام، والمجد، يوم الفاجعة، والبطولة، يوم المأساة، والعظمة. قبل أن نبلغ هذا اليوم، علينا أن نتابع الأحداث التى سبقته، وكانت جزءاً من صميمه. إن ابن زياد فى الكوفة يعمل ليل نهار فى إعداد ضربته الآثمة المجرمة التى تلهث وراءها روحه المظلمة المسعورة. وها هو ذاك، يختار قواده للمعركة، ويحشد المقاتلين. وحين يرى الناس يهربون من الانضمام لجيشه. يلجأ إلى طريقته فى معالجة العصيان، فيجمع أهل الكوفة أمام قصره. ثم يأتى بأحد المضربين عن الاشتراك فى جيشه فيأمر بضرب عنقه، ثم يلقى برأسه ليتدحرج على الأرض أمام الناس الذين يفزعهم المشهد، فيقبلون على طاعته كارهين ومكرهين. وتذكرّ ابن زياد أن لديه جيشًا مجهزاً، قوامه أربعة آلاف فارس، كان قد أعده تحت قيادة ـ عمر بن سعد ـ لمجابهة ثورة الديلم فى أرض همذان. كما كان قد عين ـ عمر بن سعد بن أبى وقاص ـ هذا واليا على الرى، فدعاه إليه وأمره أن يخرج بجيشه إلى كربلاء.

واعتذر عمر بن سعد، فراراً من أن تتلوث نفسه ويداه بجريمة لايطيقها ضمير به مسكة من رشاد. لكن الطاغية هدده بحرمانه من الولاية التى كان يطمح

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص100.

إليها وبعزله عن الجيش كله، فضعفت مقاومة عمر بن سعد بن أبي وقاص وغاب رشده، وقبل القيام بالمهمة البشعة، وسار بجيشه إلى كربلاء. وكان مستشار ابن زياد لهذه الحملة الباغية، مسخ شائه الخَلْق والخُلُق، اسمه شِمْر بن ذى الجون. رجل مدخول الإسلام، انشقت عنه الأرض بغتة فى الأيام الأولى لفتنة الخوارج الذين ناصبوا الإمام عليًا العداء. فأدلى معهم بدلوه، عاملا لحساب نفسه الخبيثة، أو لحساب قوة خفية شريرة. ومن تلك الأيام، وهو يكيد للإسلام، ويخرب فى صفوفه متخفيًا وراء ذلك القناع المشبوه ـ قناع انتمائه للخوارج وتسلله بمبادئهم إلى أغراضه المنكرة وأغراض القوى التى يعمل لحسابها. ولقد نفث فى روع ابن زياد أن هذه فرصة عمره، إذا استطاع أن يجهز على «الإمام الحسين» ويقدم رأسه هدية لسيده يزيد. نحن الآن فى اليوم الثانى من المحرم وقد وافى كربلاء ـ عمر بن سعد ـ فى جيشه المكون من أربعة آلاف فارس، كما ذكرنا من قبل. ولقد عسكر هناك على مقربة من معسكر «الإمام الحسين» الذى لايزيد عن اثنين وسبعين من أهله وأنصاره وابتدأ عمر بن سعد، مهمته باختيار أحد رجاله، واسمه قرة بن سفيان الحنظلى، آمرًا إياه أن يذهب إلى الإمام «الحسين» رضى الله عنه، فيسأله: لماذا جاء؟ وأجابه «البطل»: «إن أهل هذا المصر ـ يعنى الكوفة ـ كتبوا إلىَّ يذكرون أنهم لا إمام لهم، ويسألوننى القدوم عليهم، فجئت إليهم وفى الطريق علمت نكوصهم، فأردت الرجوع، فمنعنى الحر بن يزيد، وسار بى إلى هذا المكان». وفرح عمر بن سعد، بهذه الإجابة التى أثلجت صدره إذ رأى فيها بادرة لإمكان الوصول إلى حل سلمى ينجيه من خوض قتال يتمنى ألا يطوق عنقه بأوزاره الثقال. فبادر بالكتابة إلى طاغية الكوفة، الذى أجابه على الفور بكتاب يقول فيه، «قد بلغنى كتابك، فاعرض على الإمام الحسين عليه السلام البيعة ليزيد؛ فإذا بايع ومن معه فأخبرنى وسيأتيك رأيى». وعرض ابن سعد كتاب الطاغية على «الإمام الحسين عليه السلام» فكان جوابه «لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبدًا. وإن يكن الموت فمرحبًا به». ويرسل عمر إلى أميره برد «الإمام الحسين عليه السلام» فيكتب ابن زياد إليه: «امنع الحسين وأصحابه الماء، وحل بينهم وبينه حتى لايذوقوا منه حسوة، كما فعلوا بالتقى عثمان بن عفان» يا للفجار حين يتوقحون ترى هل سأل ابن زياد

نفسه: أين كان يوم منع «عثمان» الماء وأين كان «سبطى رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسن والحسين وأبوهما الإمام». أما هو، فكان جيفة تتنقل فى مراتع الإثم. وأما «الإمام»، ومعذرة إلى الله عن هذه المقابلة التى نلجأ إليها مضطرين. نقول: أما «الإمام» فقد كان يحمل قربة الماء على كاهله، ويخوض بها بين الثوار مقتحمًا صفوفهم، متحديًا حصارهم. يذودهم ويذودونه، ويدفعهم ويدفعونه، حتى سقطت عمامته من فوق رأسه، وحتى أنفذ الماء إلى الخليفة الظمآن!!

وكانت الرقابة التى فرضت قد بلغت أوجها، فلا يتمكن فرد من الخروج من الكوفة لنصرة الإمام الحسين عليه السلام، أو يتسلل من بين صفوف الكتائب الهائلة، ليلحق بجبهة الجهاد وعمالقة الرسالة. بيد أن الذى لايتمكن من ذلك إنما هو ضعيف الإرادة خائر العزيمة متردد النية، وهو من الكوفيين المتخاذلين بينما التابع لأهل بيت الرسالة المحمدية، والشيعى الحقيقى يرى نفسه على أتم الاستعداد وأعظمه لبلوغ النصرة الحسينية بشتى الأساليب والوسائل لتحقيق مسؤوليته. وسوف نلمح إلى أولئك الذين سحقوا جميع القوانين الحكومية، والأحكام العرفية التى أعلنتها السلطات، واتصلوا بالقيادة الحسينية وانضموا إلى صفوف أنصارها ولم يفارقوا ما وطنوا أنفسهم له وعليه، حتى فارقت أرواحهم أجسادهم[1]. نشير إلى عدد ممن اندفعوا ذاتيًا والتحقوا، منهم البطل (أبو ثمامة الصائدى) قد بلغ الركب قبل نزوله بكربلاء، وكذلك المجاهد (عمر بن جندب الحضرمى) والمجاهد (جندب بن حجير الخولانى) وكذلك هو شأن بعض من التحق (كأبى الشعثاء الكندى) وأنه التحق قبيل لقاء الحر، بدلالة الرواية التى تنص على حضور الكندى عندما وصل رسول ابن زياد للحر فأمره بأن يجعجع بالركب، وقد قام الكندى بتوبيخ ذلك الرسول، وهدده بنار جهنم[1].

وهناك أفراد من ذوى الإيمان الكبير، قد تحركوا فى غمرة الظروف الرهيبة من الكوفة إلى كربلاء رأسًا، وبعزيمة الحسينيين الأفذاذ، وكان من أبرز أولئك

1 ـ محمد على عابدين ـ المرجع السابق ص214 ـ وانظر: وسيلة الدارين ص98 ـ 176 ـ 114 وذكرت اسمائهم فى كتاب (أنصار الحسين) ص89 ـ 87 ـ 64.

الأفذاذ، العقائدى العالم تلميذ الإمام على سلام الله عليه، زعيم بنى أسد: (حبيب بن مظاهر الأسدى) وقد قيل بأن غلامًا كان معه قد رفض البقاء، وأكد لحبيب عشقه للمضى بنيته الخالصة لجهاد أهل الانحراف، وليكون مع الإمام القائد سبط الرسول الأعظم. كما أنه انطلق غير هذين، عدد من أهل البصائر من الأنصار البواسل مثنى وفرادى، منهم:(قاسط بن زهير التغلبى) وأخوه: (كردوس) و(كنانة بن عتيق التغلبى) ثم: (مسلم بن كثير الأعرج) و(حنظلة بن أسعد الشبامى) و(جبلة بن على الشيبانى). و(سالم بن عمرو مولى بنى المدينة الكلبى). و(سوار بن منعم بن جابس الهمدانى)، و(عمر بن عبدالله الجندعى) و(عبدالرحمن الأرحبى)، و(يزيد بن الحصين المشرقى)، و(أنيس بن معقل الأصبحى)، والغفاريان: (عبدالله وعبدالرحمن) وغيرهم ممن التحق من الكوفة حالما سمع بنزول الإمام سلام الله عليه فى صحراء كربلاء وكان كل منهم منفردًا أو مع نصير ثان، وندر أن كانوا ثلاثة. ولقد كانت الظروف من العسرة والضيق بحيث لم يتمكن رجالات الإخلاص من الكوفيين أولئك، ومن شيعة آل الرسول، أن يقوموا باتفاق للخروج بشكل جماعى[1].

وأما «الإمام الحسين وأخوه الحسن» فقد كانا هناك بأمر من أبيهما، يحرسان الخليفة عثمان بن عفان ويذودان عنه عوادى الثوار. ولقد جرحا، وسال منهما الدم، ورغم ما بذلاه من طاقة وجهد؛ فإنهما لم ينجوا بعد استشهاد «عثمان» رضى الله عنه من لوم أبيهما الشديد، بل ولطمهما بيديه، وهو يصرخ فيهما: «لماذا لم تموتا دونه». والآن، يزعم هذا الغر الكذوب أنه يثأر لعثمان، ولايتورع عن اتخاذ ذكراه وسيلة دنيئة يبرر بها وحشيته وحرمان أبناء الرسول فى تلك الأرض القائظة من شربة ماء. وعاد الحوار بين «الإمام الحسين عليه السلام» وعمر بن سعد، فاستمسك «الإمام الحسين عليه السلام» بموقفه فى رفض مبايعة يزيد. يقول «عقبة ابن سمعان» وهو أحد اثنين من أصحاب «الإمام الحسين عليه السلام» خلصا من المعركة:

---

1 ـ محمد على عابدين ـ نفس المرجع ص215.

«صحبت «الإمام الحسين ﷺ» من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، وسمعت جميع أحاديثه حتى يوم مقتله فو الله ما زاد على أن قال لهم: دعونى أرجع إلى البلد الذى أقبلت منه، أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة؛ حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس، فلم يفعلوا». (1)

ولا مناص هنا من التساؤل عن القوى المساندة لنظام الملك الجديد فى دمشق؟ إنه من الصعب تحديد هذه القوى تحديداً دقيقًا، ولاسيما تحديد موقعها الاجتماعى والطبقى، ولكن بعض الإشارات الواردة فى النصوص التى وصلتنا تسمح بالقول بأن الفئات الاجتماعية التى ارتبطت مصالحها السياسية والاقتصادية بالنظام السياسى الجديد فى دمشق هى التى دعمت الاتجاه الذى تزعمه معاوية، وقاومت أنصار التيار الثانى الذى تزعمه الإمام على، ثم ابنه الإمام الحسين رضى الله عنهما، فهذا سليمان بن صرد يقول: إن قتلة الإمام الحسين ﷺ هم أشراف الكوفة، وقد صور الموقف فى الكوفة بدقة مجمع بن عبدالله العائذى، وهو أحد النفر الأربعة الذين جاؤوا إلى الإمام الحسين رحمه الله حين سألهم: أخبرونى خبر الناس وراءكم، فقال له مجمع: «أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم، يستمال ودهم، ويستخلص به نصيحتهم، فهم إلب واحد عليك، وأما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك». وأبادر إلى القول هنا بأن موقف أشراف الكوفة، والفئات المتنفذة سياسيًا واقتصاديًا فى الأمصار الأخرى لم تكن مؤيدة عن اقتناع بشرعية حكم معاوية، أو يزيد، وإنما دفاعًا عن المصالح والامتيازات، ومن أبلغ الأمثلة على ذلك موقف عمر بن سعد ابن أبى وقاص قائد الجيش الأموى يوم كربلاء وخاصة الحوار الذى دار بينه وبين الإمام الحسين رحمة الله عليه، وقد نقل روايته أبو مخنف عن أبى جناب عن هانئ بن ثبيت الحضرمى، وكان قد شهد قتل الإمام الحسين ﷺ، تقول هذه الرواية إن الإمام الحسين رضى الله عنه توجه إلى عمر بن سعد قائلا: «اخرج

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص106.

معى إلى يزيد بن معـاوية وندع العسكرين، قال عمـر: إذن تهدم دارى، قال: أنا أبنيـها لك، قـال: إذن تؤخذ ضـياعى، قـال: إذن أعطيك خيـراً منها من مـالى بالحجاز. قال: فتكره ذلك عمر، قال: فتحدث الناس بذلك، وشاع فيهم من غير أن يكونوا سمعوا من ذلك شيئًا ولا علموه»[1].

تسيل دموع عمـر بن سعد على خديه ولحيته حـين يسمع السيدة زينب ابنة فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ رحمـة الله عليهما تقول له: «أيقتل أبو عبدالله وأنت تنظر إليـه!»، ولكن ذلك لايمنعه أن ينتـدب بعد حين عـشرة من فـرسانه ليدوسوا بخيـولهم جثة الإمام الحسين رضى الله عنه!! فقـد كان سبط رسول الله محمد ﷺ الإمـام الحسين عليه السلام يمثل ـ إذن ـ التـيار الذى تزعمه أبوه رحـمة الله عليه فى صـفين، وبقى مخلصًـا له، وهو الدفاع عن مبـادئ الدعوة الإسلامـية، ومقاومة جميع مظاهر الزيغ والانحراف، ومقـاومة كل المحاولات لتحويل مؤسسة الخلافة إلى كسروية، وكان سبط رسـول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام يمثل ضمانًا لعدم انتهاك حرمة الإسلام، وحرمة قريش والعرب عامة، وخشى كثير من المسلمين من انتـهاك حرمة الإسـلام بعد مقـتل الإمام الحسين عليـه السلام، وأن يلحق الذل بالمسلمين وهو ما حدث فعلا، فقـد انتهكت حرمة الحرمين الشريفين، وأصبح المسلمون يكرهون ليس علـى البيعة ليزيد بالخلافـة فحسب، بل على أنهم خول له»! فلا غرابة ـ إذن ـ أن نجـد فى صفوف التيار الذى يمثـله الإمام الحسين عليه السلام عدداً كـبيراً من الشخـصيات الإسـلامية التى عرفت بتـمسكها الشـديد بقيم الدعوة الإسـلامية الجـديدة، ومقاومتـها لكل مظاهر الظلم والانحـراف، وعرفت بورعها ونسكهـا، فلما حاول زياد بن أبيه أن يزور شهـادة شريح بن هانئ الحارثى ضد حجر بن عدى كتب إلى معـاوية يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله معاوية أمـير المؤمنين من شريح بن هانئ أما بعد، فـإنه بلغنى أن زياداً كتب إليك بشهـادتى على حجر بن عـدى، وأن شهادتى عـلى حجر أنه ممن يقـيم الصلاة،

---

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ص168.

ويؤتى الزكـاة، ويديم الحج والعمرة، ويأمـر بالمعروف، وينهى عن المـنكر، حرام الدين والمال، فإن شئت فـاقتله، وإن شئت فدعه». إن هذه الصـفات ليست نادرة فى صفوف أنصار الإمام الحسين رحمة الله عليه وعلى آله وأصحابه[1].

طالما كان الباطل بهذه الصفة وبهذه المثابة، فإن سبيله الوحيد لبقائه واستمرار دوام وجـوده هو الإغراء والإرهاب، أى أسلوب إثارة الأطمـاع، وتهـييج النزعـة النفعية، وأسلوب إثارة الفزع والخوف والهلع. أما أن يستعمل أسلوبًا مغايرًا لذينك الأسلوبين فأمر لايضمن حياته لفترة وإلى حين. فالقسر والجبر والإكراه، والإغراء بتقديم الأمـوال، أو التهديد بالسجن والـسيف، كلها قوام وجود الكـيان المنحرف والفاشل بنفس الوقت. وقد عمد آل أبى سفـيان إلى جملة أساليب كان أبرزها ما ذكرناه. وحـسبنا الإشارة إلى الكيفـية التى تجمع فيـها أعداء الإمام الحـسين ﷺ ريحانة حبيب الله ﷺ، دون أن نتناول بالتـخصيص الشخصيات التى اسـتخدمها الحكم الأموى لتنفيذ الجريمة التاريخية بحق الله ورسوله، وإنما نشير إلى عموم جرفهم التيار الأموى بآلة الإغراء، واكتسحتهم الموجات الجاهلية بسيف الإرهاب. فى الكوفة، كما فى كل إقليم آخر عدد من الوجهاء البارزين الذين كانوا يسمونهم آنذاك الأشراف. ومن هؤلاء عـدد انتهازى وصـولى مصلحى، حتى إن مـراسلته للإمام الحـسين عليه الـسـلام كانت انسيـاقًا مع جو المراسلـة وأملا فى الحظوة عند الإمام فـيما لو حكم البلاد، وحـبًا بالدنيا ومـا تدره من عطاء رخيص لايلبث أن يفنى ويزول، فهؤلاء البشر كان من الـسـهل عليهم أن يتخلوا عن عهودهم المكتوبة فى الرسائل قبل أيام، طالما نالوا ما يحبون من الدنيا واستلموه نقدًا من يد ابن زياد الذى قدم لهم الرشاوى وأشبع المطامع، حيث عنـى بهم نظرًا لتأثيرهم على عموم الجمهـور، تلك الزمرة من الخونة المرتزقة المأجـورة هى التى ذكرها المؤمنون الذين استقبلوا الإمام فى الطريق وكان معهم الطرمـاح الطائى فيما أخبروا الإمام قائلين: «أما أشـراف الناس فقـد أعظمت رشوتهم، وملئت غـرائرهم، ويستـمال ودهم. ويستـخلص به نصيحـتهم، فهم إلب واحـد عليك، وأما سائر الناس بعـد، فإن

---

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ نفس المرجع ص168.

أفئدتهم تهوى إليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك». لاغرو، فتلك طبيعة السياسة الأموية، وصاحبها الذى سنها «معاوية بن أبى سفيان» كان من (حلمه) ودهائه وإنفاقه أنه يشترى الأديان والضمائر بأموال بيت المال الإسلامى وكأنه خزانة ورثها عن أبيه، وهذا خلفه يزيد يكتب إلى زياد وقت الأزمة بدعم عمليات الإحباط بالدراهم والدنانير فيهرج ابن زياد قائلا بعد مدحه لمعاوية:[1]

«إن يزيد ابنه المتقيل (أى المتشبه) له السالك لمناهجه المحتذى لمثاله، قد زادكم مأة مأة فى أعطياتكم».

ويهش ابن زياد لهذه الرسالة وهذه الأساليب الخادعة المضللة فيأمر بجمع الناس فى رحبة مسجد الكوفة الأعظم، ويحشرهم حشراً ويخطب قائلا: «أيها الناس، إنكم بلوتم آل أبى سفيان فوجدتموهم كما تحبون. وهذا أمير المؤمنين يزيد قد عرفتموه حسن السيرة محمود الطريقة محسنًا إلى الرعية، يعطى العطاء فى حقه. وقد أمنت السبل على عهده، وكذلك كان أبوه معاوية فى عصره، وهذا ابنه يزيد يكرم العباد ويغنيهم بالأموال وقد زادكم فى أرزاقكم مائة مائة، وأمرنى أن أوفرها عليكم، وأخرجكم إلى حرب عدوه الحسين فاستمعوا له وأطيعوا» وبالرغم من كل هذا فإن الجميع، جميع جمهور الكوفة، سوف لاينخرطون بمجرد الإغراء بالدراهم، لذا كان لابد من استخدام أسلوب أشد روعة وألما ووقعًا على قلوب الضعفاء، وهو الدفع بقوة الجبر والقسروالإكراه. فقد هدد ابن زياد وأربد وأرعد، ثم وعد بالسيف القاطع للرؤوس جزاءً لكل من يتخلف عن الخروج لحرب الإمام الحسين، وقد أمر مرتزقته بالمناداة فى شوارع الكوفة وسككها وأزقتها بهذا النداء: «ألا برئت الذمة ممن وجد فى الكوفة ولم يخرج لحرب الحسين!..» ويصادق على هذا سجاياه وسياسته بالقبض والقتل على الظنة والتهمة بلا محاكمة وبلا إلقاء نظرة على القضية، لذا فقد قبض جلاوزته على رجل من أهل الشام،

1 ـ محمد على عابدين ـ المرجع السابق ص208 وانظر: تاريخ الطبرى، ج4 ص236 وابن الاثير جـ3 ص281 ـ انساب الاشراف، ج3 ص178.

وصل الكوفة طالبًا لدين له من رجـل كوفى وقيل ميراث له، فسـأله ابن زياد عما جاء به ولم لا يحارب الإمام الحسين ﷺ، فقال بأنه دائن جاء لـيتقاضى الدين، لكن ابن زياد اغتنمه فـريسة سائغة، إذ أمر بقتله: «اقـتلوه ففى قتله تأديب لمن لم يخرج بعد» وقتل فعلا ثم ألقى رأسه.

وهكذا تمكن من إسناد قيادات مـتعددة دعمًا لعمر بـن سعد بن أبى وقاص الذى أرسله كأول قـائد يحارب الإمام الحسـين عليه السلام، ثم تـتـابعت الكتائب العسكرية، كمـا أصدر أوامره إلى كل عريف ومنكب ـ وهم شخصـيات توظفهم الحكومة وفى مسؤولية كل واحد منهم عدد من الناس أوقات الحرب والسلم ـ جاء فيـها: «فلا يبقـين رجل من العرفاء والمناكب والتـجار والسكان إلا خرج فـعسكر معى (بمنطقة النخيلة) فأيما رجل بصـرناه بعد يومنا هذا متخلفًا عن المعسكر برئت منه الذمة» وشاع هذا الإنذار بين صفوف الكوفيين المتخاذلين، على لسان مجموعة من عملاء الحكم الأمـوى ومرتزقته، مثل مـحمد بن الأشعث، وكثيـر بن شهاب الحارثى، والقعقاع بن سويد بن عبدالرحـمن المنقرى. وأسماء بن خارجة وغيرهم ممن أخذ يتجول ويطوف آمراً الناس بطاعـة الحكم الفاسد اللاشرعى، ومحذراً من مغبة العصيان، ثم لحق أولئك العـملاء بالمعسكر الأموى فى النخيلة حيث كان ابن زياد يوجه وينظم الصفـوف ويقسم الكتائب ويبعث بها إلى عمـر بن سعد بن أبى وقاص. بينمـا كان الناس يخشـون ارتكاب تلك الجريمة الشـنعاء بحق الله وحق سيد المرسلين فـقد كان عبد الله بن يسار يحث ببطولة على ضـرب الأموية ونصرة ابن رسـول الله. فـقـد كـان ابن يسـار هذا يخـذل الناس عن مـناصـرة الحكم اللامشـروع، فطورد واختفى، وأخـيراً قبض عـليه ومضى ضـحية الكلمـة الحرة والقضية العادلة حيث قتل فى السبـخة ـ محلة كوفية. وفى النخيلة حيث ابن زياد كان يهيـمن على الأوضاع، كانت ثمة محـاولة لاغتياله وقتله وإنهـاء المفاسد. إذ تربص به البطل الإسلامى (عمار بن أبى سـلامة الدالانى) ولكن ابن زياد كان قد أحاط نفسه بكثـير من الجلاوزة والحرس والقوات الخاصة، وكثف حـواليه السيوف

والرماح بما لا مجال لبطل ولا فرصة لمجاهد من أن ينال منه، ولما تحير عمار الدالانى ويئس من اغتيال إمام الكفر والفساد عطف واتجه نحو كربلاء لينضم فى جبهة الحسينيين، ثم كان من شهداء الثورة العملاقة. تلك لمحة عن أسلوب العنف والإرهاب الذى سير العدو فيه قطعان جيشه لحرب سيد شباب أهل الجنة سلام الله عليه. ولكن على الرغم من أسلوبى الإغراء والإكراه فقد أخفق الحكم فى إخضاع كل الجمهور تمامًا، بل كان من يتظاهر بالخضوع لايلبث أن يراه البعض متسللا قد اختار الرجوع[1].

كانت بواعث أولئك السائرين كلها خسيسة ورخيصة، الأمر الذى يفت بعضدهم ويثبطهم ويجعل بعضهم يفكر بالرجوع والتهرب بطريقة ما، كما حاول الكثير ذلك وتوسلوا بعدة طرق للامتناع عن حرب سبط سيد الرسل، وجدير بالذكر أن أولئك ليسوا من شيعة أهل البيت الرسالى وإنما كانوا يندفعون بالضمير والوجدان وخشية نهاية العواقب ومحاكمة الرحمن، فالموالى لأهل بيت الرسول محمد ﷺ لايهرب أبدًا، بل لابد أن يصل ويتصل بالحسين وأنصاره، فالتهرب ذاك، لم يكن من كتائب الضلال فحسب، بل من نصرة الإمام، حيث كان الذين يتسللون لواذًا من ها هنا وها هنا، يقومون بذلك فرديًا وجماعيًا، حتى كانت الكتيبة الواحدة التى تبلغ الألف جندى تصل إلى الساحة بكربلاء، قد هبط عدد أفرادها إلى النصف أو أقل منه. ويقول البلاذرى: أن القائد يبعث على ألف مقاتل لايصل إلى كربلاء إلا ومعه «ثلاث مائة أو أربع مائة أو أقل من ذلك. فهم يفرون كراهة منهم لهذا الوجه. لقد كانوا على يقين لايخامره أدنى شك بضلالة هذه الحرب وأنهم إنما يحاربون الله ورسوله، ويقاتلون من أمروا بمودته وطاعته.». فبداهة، كان البون شاسعًا بين أنصار القضية المشروعة وبين حشود أنصار القضية اللامشروعة فلا قياس بينهم بوجه من الوجوه. وقد حفل التاريخ الإسلامى بصور عديدة لمن خرجوا واستشهدوا عن رضى وقناعة، ولكن الفارق كبير بين ذوى الحوافز العقائدية والدوافع الذاتية الكامنة «وبين أن يخرج جندى طاعة لأوامر

1 ـ محمد على عابدين ـ نفس المرجع ص211 وانظر: انساب الأشراف ج3 ص179.

الرؤساء، خوفًا من بطشهم ودعمًا للشر وسعيًا وراء مصلحة خاصة أو نفوذ مطلوب، واعتمادًا على وفرة فى العدد والعدة، وأملا فى نصر رخيص يحقق به إذلال البشر وإهدار كرامتهم وقيد حريتهم.» «شتان بين خروج من أجل تثبيت دين الله ونشر العدل والرخاء والحرية والسعادة. وخروج من أجل القتل والتدمير والحرق ونشر المظالم ودفع الإنسانية إلى مواطن الذلة والمسكنة». ولقد وصلت أخبار الإنسلال والتهرب اللذين ذكرناهما إلى ابن زياد، فقام بتنظيم للحد من ذلك الخطر، لاسيما وأن الذين يتهربون لا تنظيم لهم يحفزهم، فتنظيم العدو سينجح مؤكدًا[1].

تم ضبط الحدود وأحكمت السيطرة على الكتائب، وتم إقفال مداخل الكوفة والهيمنة على كل الجيش الذى كان يصل تحت القيادات للانضمام إلى القيادة العامة الأموية العليا لحرب الإمام الحسين عليه السلام، حيث يترأسها عمر بن سعد بن أبى وقاص فقد وضع العدو حدًا لمن يتهرب، وربما تمكن من معرفة وإرجاع من هربوا حينما عادوا إلى بيوتهم فى الكوفة. وهكذا!! كانت كلها حياة ظلم وجور وعنف وإرهاب وطمع. فمنطق الدنانير ولغة السياط، والتعامل بالخوف، كله ساد يومذاك حتى سيطر، كأمر لا مناص منه وحال صعبة لا محيد عنها. وحسبنا الإشارة إلى أن الحاكم الأموى فى الكوفة نفسه، ابن زياد، والقائد الأعلى للجيش نفسه، ابن سعد، قد كانا أسرى أساليب الإغراء والإرهاب فضلا عن مشاهير عملائهما. فمعروف أن ابن زياد نفسه كان يصله تهديد رهيب إذا ما تهاون فى قتل الإمام، فقد كان يكتب له والى مكة ـ عمرو بن سعيد الأشدق الأموى ـ فيقول برسالته: «أما بعد، فقد توجه إليك الحسين، وفى مثلها تعتق أو تكون عبدًا تسترق كما تسترق العبيد!». ومعروف ما أغرى به ابن زياد قائده ابن سعد حيث (ملك الرى) وسلطان جرجان، حياة كلها إرهاب وإغراء وأناس كلهم أسرى ذلك الشر وخطرات الشيطان، ونزعات إبليس، من الجندى إلى قائد الكتيبة إلى القائد

---

1 ـ محمد على عابدين نفس المرجع ص213 وانظر: حياة الإمام الحسين ج3 ص118 ـ الاستراتيجية العسكرية الإسلامية، لمحمد فرج ص103.

العسكرى الأعلى فالأمير الوالى، أحدهم يغرى الآخر، وبعضهم يهدد البعض ويرهبه «وكذلك نولى بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون».

رفض الإمام الحسين ﷺ الذهاب إلى الكوفة للقاء ابن زياد ثم رفض طلب ابن زياد، بأن يبايع يزيد وها هو ذا الهول يحيط به وهو صامد، يرفض الإذعان لعصابة البغى والإثم فى عزة المتقين، وإباء الأكرمين. وضاق صدر ابن زياد بصمود البطل، ففزع إلى مستشاره الزنيم شمر بن ذى الجون، فأشار عليه أن يقسو على - عمر بن سعد - فى خطابه، ويأمره أن يجىء بالحسين ومن معه إلى الكوفة عنوة، فإن أبوا، قاتلهم حتى الموت. ويلمح شمر، الممتلئ بقذارة النفس وخبث الطوية يلمح فى ذلك الحوار الدائر بين «الإمام الحسين ﷺ» وعمر بن سعد بادرة قد تفضى إلى مهادنة أو تفاهم - الأمر الذى لايشبع نهمه الخبيث إلى التقويض والتخريب اللذين يعمل لهما منذ زعم الإسلام وادعاه. هناك هداه تفكيره الخبيث إلى أن ينتقل بنفسه إلى أرض القتال، ليتولى إضرام النار، إذا هى لم تضرم نفسها وليصل بالمعركة بعد شبوبها إلى الغرض الذى يريد وهكذا اقترح على ابن زياد أن يحمل كتابه بنفسه إلى قائد جيشه عمر بن سعد، ويبقى هناك عينًا لابن زياد ورقيبا، ومقاتلا أيضا. واشترك مع أميره الطاغية فى صياغة كتابه إلى ابن سعد، ثم هرول به إلى كربلاء.

جاء رفض ابن زياد المرجانية على ماعرض عليه الإمام الحسين عليه السلام فأبى إلا أن ينزل على حكمه وكتب بذلك إلى عمر بن سعد بن أبى وقاص وأرسل الكتاب مع شمر وقال له أقرئه الكتاب وانظر مايصنع فإن نهض لقتال الإمام الحسين عليه السلام فأقم معه رقيبا عليه حتى يفرغ من أمره وإن أبى أو تثاقل فاضرب عنقه وكن أمير الجيش. «من عبدالله بن زياد أمير الكوفة والبصرة، إلى عمر بن سعد، فإنى لم أبعثك إلى «الحسين» لتكف عنه، ولا لتكون له عندى شفيعًا. ادع «الحسين» إلى ما أمرتك، فإن نزل وأصحابه على الحكم مستسلمين، فابعث بهم إلىّ. وإن أبوا، فازحف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم. وبعد أن يقتل «الحسين» أوطئ الخيل صدره وظهره، فإن مضيت لأمرنا، جزيناك جزاء السامع

المطيع، وإن أبيت فاعتزل جندنا، وخل بين شمر بن ذى الجوشن والعسكر والسلام». لم يكد عمر بن سعد، يتلو خطاب أميره حتى أدرك ما وراءه من كيد ابن ذى الجوشن حتى نهض لقتال الإمام الحسين عليه السلام. وقال له: «لقد أفسدت علينا أمرا كنا نرجو صلاحه، والله لن يستسلم الحسين أبداً». فأجابه شمر: «امض لأمر أميرك وقاتل، أو فخل بينى وبين الجند» ومرة أخرى، غلب ابن سعد على دينه، واستسلم لأطماعه وهواه، فرضى أن يبقى قائداً لحملة رجيمة، وجيش ظلوم!! وضحت النوايا إذن، أمام «الحسين». إنهم يريدون إذلاله، أو يريدون حياته. أما المذلة؛ فالممات دونها وأما حياته، فليس هو أول من يجود بها فى سبيل الحق من آل بيته العظيم، ولن يكون آخر من يجود بالحياة منهم. الصعب فى الأمر، أنهم لايريدون أن يقاتلوا قتال الشرفاء، بل ولا قتال الآدميين!! إنهم لايقنعون بمواجهته فى أربعة آلاف فارس، بينما كل الذين معه من أهل وصحب، اثنان وسبعون لاغير. أجل، إنهم لايقنعون بتفوقهم العددى الساحق، فيحولون فى صغار ولؤم، بينه وبين الماء، وهم يرون مَن وراءه فى الخيام من سيدات، وأطفال، ومرضى!!

لقد حاصروا الطريق إلى شريعة الماء بخمسمائة فارس، وجفت القرب التى كان أخوه «العباس بن على» قد ملأها من قبل عنوة، وقبل أن يضرى حولها الحصار. ولقد يصبر سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» ويصبر رجاله على الظمأ إلى حين، ولكن الأطفال والنسوة الذين لم يعد يطاق مشهدهم وهم يترنحون تحت وطأة الظمأ القاتل!! ماذا يصنع البطل لهم. ترى هل أسف على خروجه من مكة إلى حيث هو الآن؟ إن المؤمنين لا يأسفون على خطر، ولايجزعون من قدر. ولعله قد أسف لشىء واحد، هو أنه لم يستمع لنصح ابن عمه «عبدالله بن عباس» ألا يصحب معه الحرائر والأبناء. ومع هذا، فلله الأمر من قبل ومن بعد!! ولسوف يصبر على واجبه، ويعانق مصيره بما عرف عن بيته الكريم من رضا وثبات وولاء. هكذا وقف ابن الرسول الأكرم، وقف ابن «على»

البطل، و«فاطمة» الزهراء الموقف اللائق به، والمقدور له. كان يستطيع أن يخادعهم، والحرب خدعة. بل كان من حقه لو شاء أن يبايع بلسانه، حتى إذا عاد بأهله إلى مكة واطمأن على سلامتهم، خلى البيعة وألقى بها إلى التراب، وله من دينه فى مثل ذلك رخصة سجلها القرآن فى بعض آياته فقال: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) لكنه سليل بيت، ليس من طرازه سواه. وابن رجال لايركبون الرخص، بل يعانقون العزائم!! إن عاقبة المعركة الواضحة مقروءة، فاثنان وسبعون، لن يهزموا، بل يفلتوا من أربعة آلاف فارس ضربوا حول القلة الصامدة أبشع حصار، إنه لا أمل فى النصر. ولكن، أى نصر هذا الذى لا أمل فيه؟ النصر العسكرى فى معركة غير متكافئة؟؟ ليكن ذلك، فأين النصر الآخر، الأعظم، والأكرم، والأبقى؟ النصر الذى يتحقق ويتمثل فى بذل الحياة من أجل الواجب، وفى إعطاء القدوة بروعة الثبات، وفى إضاءة ضمير الحياة بجلال التضحية. هذا النصر، هل فقد «الإمام الحسين ﷺ» الأمل فيه؟؟ لا بل لقد تجسدت فيه كل آماله وآمال الذين معه، ومن ثم تشبث وتشبثوا به فى وله عظيم، وراح يقاتل ويقاتلون فى سبيله على نحو يجل عن النظير. وإننا لنظلم يوم كربلاء ظلمًا كبيرًا، حين نظنه مأساة لا غير، وفاجعة لا أكثر، ونتخذه مناسبة لاجترار الأحزان والآلام. لا، ثم لا، يا رجال. إنه مأساة وفاجعة إذا نظرنا إلى الشكل الخارجى للمعركة، فرأينا السفلة الأدعياء ينتصرون، ورأينا الوحشية المجرمة تفتك بأبناء رسول الله محمد ﷺ لكن يوم كربلاء ليس مأساة وفاجعة، إذا نفذنا ببصائرنا إلى جوهره النضير، فرأينا عظمة الثبات، وروعة البطولة، وعزة الإيمان، وجلال التضحية، فى مهرجان للحق، هيهات أن يكون له نظير.

نحن الآن مع اليوم التاسع من المحرم، وقد ولى نهاره، ودلف ليل جديد. ولقد أخذ جيش ابن زياد يتحرك للوثوب. ورأى الحسين تحركاتهم. وتذكر واجبًا لابد من أدائه قبل أن يبدأ القتال هنالك أرسل إلى قائدهم عمر بن سعد بن أبى وقاص طالبًا إرجاء القتال إلى غد وأجابه ابن سعد إلى ما طلب، ولعله ظن أن وراء هذه الرغبة فى الإرجاء عزمًا على طلب التسليم وعلى بيعة يزيد. ترى، لماذا

طلب «البطل» إرجاء القتال؟ هل ليدير خواطره من جديد حول موقفه؟ هل اقترب اليأس من عزمه، فأراد أن يفكر مع نفسه فى البحث عن مخرج يُوَقِّيه وأصحابه ما ينتظرهم من هول؟ كلا لم يكن لشيء كهذا أى وجود فى روع البطل، ولا فى تفكيره. فهو قد وطن نفسه على الموت من أولى ساعات المؤامرة التى بدأت مع طلائع جيش ابن زياد. وهو لايعرف خياراً، بين أمرين، ثانيهما خذلان الحق وبيعة يزيد. إن أمامه طريقًا واحداً، ليس لمثله أن يسلك فى هذه القضية سواه، ذلكم هو سبيل التضحية بالحياة، ولو أمكن؛ فبألف حياة. إنما طلب إرجاء القتال إلى الغد؛ لأنه عظيم جد عظيم، ليس لعظمة نفسه منتهى، وليس لنبل روحه حدود. انظروا عندما استبانت له نتيجة المعركة. أراد أن يدفع حياته وحدها زلفى لها وقربانًا. لم يشأ أن يدفع لسيوف البغى حياة أنصاره الخمسين، ومعهم الأشبال والرجال من أهله وأبنائه بعد أن تغير الموقف بالنسبة لهم[1].

ورغم ذلك الموقف، بل تلك المواقف البطولية العقائدية، فقد خص الإمام أحد أنصاره على انفراد بالإذن بالانسحاب، ولكنه أعرب عن عزمه على النصرة بشكل لاتراجع فيه، وهذه الحالة تكشف بدورها عن أصالة كل فرد على حدة فى عقيدته ومبدئيته، والرواية كما يلى: خرج الإمام الحسين من خيمته ليلا وأخذ يتفقد المنطقة وساحة الحرب الميدانية ويرى ما ينبغى اتخاذه من إجراء مناسب. ولاحظ نافع بن هلال الجملى خروج الإمام وحده، فأخذ يسير خلفه. فالتفت الإمام وسأل عمن خلفه فصرح نافع باسمه. «نعم جعلت فداك يا ابن رسول الله» فقال له الإمام: «نافع ما أخرجك فى هذا الليل؟» فرد بقوله: «سيدى أزعجنى خروجك ليلا إلى جهة هذا الباغى.» فقال الإمام: «خرجت أتفقد هذه التلعات مخافة أن تكون مكمنًا لهجوم الخيل على مخيمنا يوم يحملون وتحملون..» ثم رجع الإمام وهو قابض على يسار نافع يقول: «هى هى والله، وعد لا خلف فيه» أى المنطقة ذاتها التى ستكون مثوى أجسادنا وضحايا القضية الكبرى، والليلة الموعودة المعهودة

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص111.

من رسول الله ﷺ. ثم التفت بعد ذلك لـنافع وأذن له بالانصراف والنجاة وحده في هذا الليل، وكلمــه منفرداً بقوله: «يا نافع ألا تسلك بيــن هذين الجبلين؟ وانج بنفسك» فتصلب البطل واعـتد بقوة قائلا: «سيدي، إذن ثكلت نافعًـا أمه إن سيفي بألف وفرسي بمثله. فـو الله الذي من على بك في هذا المكان لن أفارقك أبا عـبد الله، حتى يكلأ عن فري وجدي». لقد كلمــه بمعزل عن الآخرين، وخصه بمفرده بالإذن كيلا يقال مثلا: إن بعض الأنصار يخجل من بعض. فهذا وحده وله فرصة سانحة، ولا يدري به أحـد لكن هذا النصير لايقل عن أولئك إيمـانًا وصبراً على الرزايا والجهـاد. ولقد صادقـوا على ما قالوه ومـا أكدوه، وما عـبروا عنه بألسنة لاتعرف التلكؤ ولا الكذب ولا الخداع[1]: «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدلوا تبديلا».

ثمة أفراد من الأنصار يملـكون العذر المستساغ لو انصرفوا وانسـحبوا، وقد أعذر الإمـام بعضـهم. ولكنهم رابطوا وجـاهدوا حتى الرمق الأخـير بحـوافزهم محض العـقائدية الذاتية الجليلة، في حيــن كان بعض الناس يختلق لنفسـه العذر حتى لو لم يملكه، كأولئك الذين حكى عنهم القرآن الـكريم ممن تذرعوا ليتخلفوا فقالوا: «إن بيوتنا عورة!». فيما يلـي مرور سريع بالمعذورين الذي سحقوا الأعذار وأهملوها: بشير بن عمـرو الحضرمي: أو بشر من أهل حضرمـوت اليمن، قبيلة قحـطانية، وهو في عـداد كندة ـ القبـيلة اليمنيـة المعروفـة ـ جاء من الكوفـة بين صفوف الكتـائب الأموية ثم مال ومعـه أحد أولاده إلى جهة الإمام الحـسين عليه السلام بشـجاعة وجرأة وجدارة فـائقة. قد سمع خطاب الإمـام الآنف وكان ممن وطن نفسه على عدم الانسـحاب أبداً. لكن خبراً ما بلغه، ومـفاده أن ولده عمرو قد أسـره الديلم بمدينة الري. فلم يفت ذلك بعضـده أو يثبط من عـزمه، ورفض

1 ـ محمد علي عابدين ـ المرجع السابق ص233 وانظر: الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين ص132 ـ 133 والمجالس الفاخرة، للسيد شرف الدين ص92. وقيل بأن اسمه (محمد بن بشير الحضرمي) برواية ابن طاووس في اللهوف ص36.

الانصياع لرغبة إنقاذ ولده حتى سُمع يقول: «عند الله أحتسبه ونفسى، ما كنت أحب أن يؤسر وأن أبقى بعده!.» والحقيقة أن كرهه للحياة لا كرهًا لأسر ولده كما يتخيل البعض، فكلمته تلك مُمعنة بالإيحاء إلى كونه موطنًا نفسه على الجهاد. شأنه فى قوله شأن «خيثمة بن سعد» فى قوله للرسول الأعظم ﷺ. حينما طلب الإسهام بالجهاد مرة أخرى بقصد نيل الشهادة التى أفلتت منه ببدر ورزقها أحد أولاده، فقال: «والله يارسول الله أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته فى الجنة» وهذا لايعنى أنه لم يجاهد من أجل الفكر والمبدأ وإحقاق الحق، وإنما ذكر ولده تأكيداً لتصميمه على القتال فى سبيل الله. لقد سمع الإمام قضية بشير الحضرمى هذا، فأذن له بحكم عذره الكبير، فقال: «رحمك الله، أنت فى حل من بيعتى فاذهب واعمل فى فكاك ابنك» فتصلب بشير وأكد حتمية نصرته مهما بلغت حراجة الموقف، فقال[1]:

«أكلتنى إذن السباع حيًا إن أنا فارقتك، وأسأل عنك الركبان وأخذلك مع قلة الأعوان! لايكون هذا أبدًا يا أبا عبدالله».

إن ولده الذى كان معه وهو (محمد) سلمه الإمام أثوابًا ثمينة جدًا وأمره بفك أسر أخيه. وإن ابن بشير الحضرمى هذا ممن استشهد بكربلاء. أى أنه لم يذهب لإطلاق سراح أخيه خشية فوات أوان الجهاد بين يدى الإمام الحسين عليه السلام. ولقد نلاحظ شدة ارتباط بشير بالقضية الحسينية العادلة، ومدى تفانيه للحق الحسينى وحبه لشخص الإمام القائد بالذات، خصوصًا حين تخيل كونه يذهب لإرجاع ولده وفى الطريق يظل يسأل من يصادفهم بلهفة عارمة وشوق مؤلم ممض عن خبر الإمام الحسين عليه السلام فلا يحصل على اطمئنان أبدًا، ولا يخبره أى راكب يصادفه بحقيقة الأمر، إذن فلن يترك موقفه أبدا «وأسأل عنك الركبان!.» فالموت أحب إليه من ذلك الخذلان «أكلتنى إذن السباع حيًا».

---

1 ـ محمد على عابدين ـ نفس المرجع ـ ص234 وانظر: اللهوف لابن طاووس، ص36، وأعيان الشيعة، ج4 ق1 ص209 ـ وسيلة الدارين ص110.

أرسل ابن مسعـود النهشلى، وهو أحد أقطاب البصرة التـابعين لآل الرسول ومن الشيعة المخلصـين، بكتاب إلى الإمام الحسين عليه السـلام يبدو منه أنه يشير فيه إلى تهيئـته مع جماعة من البصريين لنصرته. وقـد حمل الرسالة (الحجاج بن زيد السعـدى) وصحبه (قـعنب بن عمرو النمـرى) ووصلا كربلاء. وبينمـا هما يطلعان على الوضع إذ أصر كل منهما على أن لايـعود لإرجاع الخبر، فى حين أن الرجوع بالخبر عـذر مستساغ، فلا بد للرسول من إتمام مهـمته بأن يرجع بالجواب وينقل ما اطلع عليه. بيد أنهما بقيا ولم يرجـعا قط، كيلا يفوتهما الجهاد بين يدى الإمام الحـسين سـلام الله عليه. وكان يرابط عـدد من موالى آل الرسـول وموالى بعض الأنصـار، وهو بحكم صفـتهم يملكون عـذراً بالانصراف والانسـحاب بلا حرج. بل لقـد أذن الإمام لهم ولكنهم جميـعا أبوا إلا انتهاج نهـج سادات الأمة وأئمة الحق[1].

وخرج أنصار الإمام الحسين ﷺ معه على حساب أن الكوفة فى انتظارهم، ليبدأوا منها وبها مقاومة مشروعة، يدحضون بها ضلال حاكم الشام، ويدرأون بها عن الإسلام خـبث بنى أمية. لكنهم فـوجئوا بالكـوفة تنتظرهم بوجه آخـر كالح وعبوس. فرسل «الإمام الحسين ﷺ» صرعوا، واستشهدوا والألوف التى أعطت بيعـتها لمسلم بن عـقيل، تبددت واخـتفت كالجرذان وبـدلا من أن يجد البطل فى استـقباله كتـائب الحق من شيعـته وأنصاره، وجـد عصابات البـغى تنتظره بالغدر والمنايا. إذن، الموقف قد تغير بالنسبـة للذين معه من أهل وأنصار وإن لم يكن قد تغيـر بالنسبة له، ولما وطن عليه إرادته، وعـزمه، وضميـره. وهكذا طلب إرجاء القتال، ليجعل أهله وأصـحابه فى حل من كل التزاماتهم تجاهه[2]!! جمع الإمام الحسين عليه السـلام أصحابه بعدما رجع عمر بـن سعد بن أبى وقاص وذلك عند

---

1 ـ محمد على عابدين ـ نفس المرجع ص335.

2 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص112.

قرب الماء. قال الإمام على زيد العابدين: فدنوت منه لأسمع وانا مريض فسمعت أبى وهو يقول لأصحابه: أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء اللهم إنى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين وجعلت لنا أسماعًا وأبصاراً وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين.

أما بعد، فإنى لا أعرف أصحابًا خيراً من أصحابى، ولا أهل بيت أموّ، وأوصل من أهل بيتى، فجزاكم الله خيراً؛ فقد بررتم وأعنتم وإنكم لتعلمون أن القوم لا يريدون غيرى، وإن يومى معهم غد، وإنى قد أذنت لكم جميعًا، فانطلقوا فى غير حرج. ليس عليكم منى ذمام. هذا هو الليل قد غشيكم، فانطلقوا فى سواده قبل أن يطلع النهار، وانجوا بأنفسكم». من لمثل هذا الموقف المعجز، مثل ابن «على»، وحفيد «رسول الله محمد ﷺ» من، يارجال وهو لم يقلها لأهله وصحبه استدراراً لعطفهم؛ فماذا يغنى عطفهم فى هذا المقام إنما كان يعنى تمامًا كل كلمة قالها، كان يعنى تمامًا ألا يحملهم مسئولية الموقف الذى اختاره، والهول الذى قرر أن يواجهه فى استبسال. ترى، هل يتقبل الأهل والأنصار رأيه هذا، وتوجيهه؟ كلا، ولماذا؟ لأن العظمة، ولأن البطولة كانتا فى ذلك اليوم على موعد مع هؤلاء الأبرار جميعًا فتيانًا وكهولا؛ لتحققها بهم أروع مشاهدهما، وأسمى أمجادهما. من أجل ذلك، لم يكد البطل يفرغ من كلماته، حتى تحولوا جميعًا إلى أسود تزأر بالكلمات، وتشرق بالدموع. صاح أخوه لأبيه «العباس بن على»: «معاذ الله والشهر الحرام، وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟ نقول: تركنا سيدنا وابن سيدنا غرضًا للنبال، ودريئة للرماح، وحرزاً للسباع، وفررنا عنه رغبة فى الحياة؟ معاذ الله، معاذ الله، بل نحيا بحياتك، ونموت معك» وصاح بمثل ذلك «بنو عقيل» و «بنو جعفر» وتقدم ابنه «على بن الحسين» فتى لم تجاوز سنه التاسعة عشر. وسأل أباه. «ألسنا على الحق يا أباه؟؟» قال الحسين «بلى، والذى أنفسنا بيده» فصاح فتاه العظيم: «إذن، والله لانبالى».

ومن أصحابه وأنصاره، قام «زهير بن القين» يزأر وينادى: «والله، لوددت أن اقتل ثم أبعث ثم أقتل ثم أبعث هكذا ألف مرة، أكون فيها ردئًا عن حياتك وحياة هؤلاء الفتيان من آل بيتك» وتلاه «مسلم بن عوسجة الأسدى»: «أنحن نتخلى عنك، ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك؟؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى، وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمة بيدى ولو لم يكن لى سلاح، لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك»!! وقال سعيد بن عبدالله الحنفى: والله لانخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله محمد ﷺ فيك والله لو علمت أنى أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ثم أذرى يفعل ذلك بى سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامى دونك فكيف لا أفعل ذلك! إنما هى قتلة واحدة ثم هى الكرامة التى لا انقضاء لها أبدًا[1].

وقام آخر، وآخر، وآخر، هبوا جميعًا يعطون أمجد بيعة فى تاريخ التضحية والفداء، بيعة على موت محقق، فليس هناك لما دون الموت أدنى احتمال! وإن العظمة والبطولة أرادتا أن تجعلا من ذلك اليوم مهرجانًا وعيدًا. لقد ارتفع الأبطال جميعًا إلى مستوى الموقف المجيد، الذى سيجعلون منه درسًا لأجيال الدنيا كلها فى الولاء الباهر للحق، وفى التضحية الشاهقة من أجله، وهاهم أولاء، يعودون لمضاربهم وخيامهم، يتهيأون للقاء الغد بالصلاة والابتهال ويشحذ سيوفهم، وبرى سهامهم، وصقل رماحهم. ومن طريف ما حدث فى ليلتهم تلك، أن «نافع بن هلال البجلى» رضى الله عنه وعنهم أجمعين، قضى شطر ليله فى كتابة اسمه على سهام نبله، إمعانًا فى طلب المثوبة والأجر، وإمعانًا فى السخرية من الخطر، وإمعانًا فى الترحيب بالموت. وقال الإمام على زين العابدين عليه السلام انى جالس فى تلك العشية التى قتل أبى صبيحتها وعمتى زينب عندى تمرضنى، إذ اعتزل أبى بأصحابه فى خباء له، وعنده حوى مولى أبى ذر الغفارى وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبى يقول:

---

1 ـ سلامة قاقيش ـ وقفة مع الإمام الحسين شهيد الحرية، ص61.

يادهـر أف لـك من خليـل كـم لك بالإشـراق والأصـيل
من صـاحب أو طـالب قـتـيل والدهـر لايقنع بالبـديل
وإنمـا الأمـر إلى الجـلـيـل وكل حي سـالك السـبـيل

قال: فـأعادها مـرتين أو ثلاثا حتى فهـمتـها، فعـرفت ما أراد، فخـنقتني عبـرتي، فرددت دمعي ولزمت السكـون، فعلمت أن البلاء قـد نزل، فأما عـمتي فإنها سمـعت، وهي امرأة، وفي النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفـسها أن وثبت تجر ثوبها، وإنهـا لحاسرة حتى انتهت إليه، فـقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحيـاة! اليوم ماتت فاطمـة أمي وعلي أبي وحسن أخي، ياخليفـة الماضي، وثمال الباقي، قـال: فنظر إليها الحسين عليه السـلام فقال: يا أخـيه، لايذهبن حلمك الشـيطان، قالت: بأبي أنت وأمي يا أبـا عبـدالله! استـقتلت نفـسي فداك، فـرد غصته، وترقرقت عينه، وقال: لو ترك القطا ليلا لنام، قالت: يا ويلتي، أفتغصب نفسك اغتصابا، فذلك أقـرح لقلبي، وأشد على نفسي! ولطمت وجهها، وأهوت إلى جيبهـا وشقته، وخرت مغـشيا عليها، فقـام إليها الحسين فصب علـى وجهها الماء، وقـال لها: يا أخـيه، اتقِ الله وتـعزى بعـزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهـل السماء لايبـقون، وأن كل شيء، هالك إلا وجـه الله، الذي خلق الأرض بقدرته، ويبـعث الخلق فيعـودون، وهو فرد وحده، أبي خـير مني، وأمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولهم ولكل مـسلم برسول الله أسوة، قال: فعزاها بهذا ونحوه، وقال لها: يا أخـية، إني أقسم عليك فأبري قسمي، لاتشقي علي جيبا، ولاتخمشي علـيّ وجها، ولاتدعي علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت، قال: ثم جاء بها حتى أجلسها عندي، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيـوتهم من بعض، وأن يدخلوا الأطناب بعـضهـا في بعض، وأن يكونوا هم بين البيوت إلا الوجه الذي يأتيهم منه عدوهم[1].

---

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص63.

فلمـا أمـسى الإمـام الحـسين ﷺ وأصـحـابه قـاموا الليـل كله يصلون ويستغـفرون، ويدعون ويتضرعـون وخيل الأعداء تمر حولهم تحرسـهم، والحسين عليه السـلام يقرأ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران ـ 178 ـ 179] وعبأ الحـسين أصحابه، وصلى بهم صلاة الغداة، وكان معه اثنان وثلاثون فارسـا وأربعون راجلا، وجعلوا البيوت فى ظهورهم، وأمـر بحطب وقصب كان من وراء البـيوت أن يحرق بالنار مخـافة أن يأتوهم من ورائهم. . وكان الحسين عليه السلام أتى بقصب وحطب إلى مكان من ورائهم منخفض كأنه ساقية، فحـفروه فى ساعة من الليل، فجعلوه كالخندق، ثم ألقوا فيـه ذلك الحطب والقصب، وقالوا: إذا عـدوا علينا فقاتلونا ألقينا فـيه النار كيلا نؤتى من ورائنا، وقاتلنا القوم من وجه واحد. ففعلوا، وكان لهم نافعا.

لما خرج عمـر بن سعد بالناس كان على ربع أهل المدينة يومئـذ عبدالله بن زهير بن سليم الأزدى وعلى ربع مذحج واسد عبـدالرحمن بن أبى سبرة الجعفى، وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشـعث بن قيس، وعلى ربع تميم وهمدان الحر ابن يزيد الرياحى، فشهد هؤلاء كلهم مـقتل الإمام الحسين ﷺ إلا الحر بن يزيد فإنه عدل إلى الحـسين، وقتل معـه، وجعل عمر على مـيمنته عمـرو بن الحجاج الزبيدى، وعلى مـيسرته شمر بن ذى الجـون بن شرحبيل بن الأعـور بن عمر بن معاوية ـ وهو الضـباب بن كلاب ـ وعلى الخيل عزرة بن قـيس الأحمسى، وعلى الرجال شبث بن ربعى الرياحى، وأعطى الراية ذويداً مولاه.

عن غلام لعبد الرحمن بن عبد ربه الأنصارى، قال: كنت مع مولاى، فلما حضر الناس وأقبلـوا إلى الإمام الحسين ﷺ، أمر الحسين بفـسطاط فضرب، ثم أمـر بمسك فمـيث فى جفنه عظـيمـة أو صحـفة، قـال: ثم دخل الحســين ذلك الفسطاط فتطلى بالنورة، قـال: ومولاى عبدالرحمن بن عبدربـه وبرير بن حضير الهمـدانى على باب الفسطاط تحتك مناكـبهما، فـازدحما أيهـما يطلى على أثره،

فجعل برير يهازل عبدالرحمن فقال له عبد الرحمن: دعنا فو الله ما هذه بساعة باطل، فقال له برير: والله لقد علم قومى أنى ما أحببت الباطل شابا ولا كهلا، ولكن والله إنى لمستبشر بما نحن لاقون، والله إن بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم، ولوددت أنهم قد مالوا علينا بأسيافهم. قال: فلما فرغ الحسين دخلنا فاطلينا، قال: ثم إن الحسين ركب دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه، قال: فاقتتل أصحابه بين يديه قتالا شديدا، فلما رأيت القوم قد صرعوا أفلت وتركتهم. لما صبحت الخيل الحسين رفع يديه فقال: اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منى إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولى كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة[1].

يقول الضحاك المشرقى، لما أقبلوا نحونا فنظروا إلى النار تُضرم فى الحطب والقصب الذى كنا ألهبنا فيه النار من ورائنا لئلا يأتونا من خلفنا، إذ أقبل إلينا منهم رجل يركض على فرس كامل الأداة، فلم يكلمنا حتى مر على أبياتنا، فنظر إلى أبياتنا فإذا هو لايرى إلا حطبا تلتهب النار فيه، فقفل راجعا، فنادى بأعلى صوته: ياحسين، استعجلت النار فى الدنيا قبل يوم القيامة! فقال الحسين: من هذا؟ كأنه شمر بن ذى الجون! فقالوا، نعم أصلحك الله! هو هو، فقال «يا ابن راعية المعزى، أنت أولى بها صليا»، فقال له مسلم بن عوسجة: يا ابن رسول الله، جعلت فداك! ألا أرميه بسهم! فإنه قد أمكننى، وليس يسقط منى سهم، فالفاسق من أعظم الجبارين، فقال له الحسين: لاترمه، فإنى أكره أن أبدأهم، وكان مع الحسين فرس له يدعى «لاحقا» حمل عليه ابنه عليا بن الحسين، قال: فلما دنا منه القوم عاد براحلته فركبها، ثم نادى بأعلى صوته دعاء يسمع جل الناس: أيها الناس، اسمعوا قولى، ولاتعجلونى حتى أعظكم بما لحق لكم على،

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص65.

وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذرى، وصدقتم قولى، واعطيتمونى النصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم على سبيل، وإن لم تقبلوا منى العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ [يونس 71]، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف 196].

فلما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين، وبكى بناته فارتفعت أصواتهن، فأرسل إليهن أخاه العباس بن على وعليا ابنه وقال لهما: أسكتاهن، فلعمرى ليكثرن بكاؤهن، فلما ذهبا ليسكتاهن قال: لايبعد ابن عباس، قال فظننا أنه إنما قالها حين سمع بكاءهن، لأنه قد كان نهاه أن يخرج بهن، فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلى على محمد ﷺ وعلى ملائكته وأنبيائه، فذكر من ذلك ما الله أعلم وما لايحصى ذكره، قال: فو الله ما سمعت متكلما قط قبله ولابعده، أبلغ فى منطق منه، ثم قال: أما بعد، فانسبونى فانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا، هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى؟ ألست ابن بنت نبيكم (ﷺ) وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه! أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبى! أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمى! أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم: أن رسول الله (ﷺ) قال لى ولأخى: «هذان سيدا شباب أهل الجنة»! فإن صدقتمونى بما أقول ـ وهو الحق ـ فو الله ماتعمدت كذبا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضربه من اختلقه، وإن كذبتمونى فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبدالله الأنصارى، أو أبا سعيد الخدرى، أو سهل بن سعد الساعدى، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لى ولأخى. أفما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى! فقال له شمر بن ذى الجوشن، هو يعبد الله على حرف إن كان يدرى ما يقول! فقال له حبيب بن مظاهر: والله إنى لأراك تعبد الله على سبعين حرفا، وأنا أشهد أنك

صادق ما تدرى مايقول، قد طبع الله على قلبك، ثم قال لهم الحسين: فو الله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبى غيرى منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة. أخبرونى، أتطلبونى بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة! قال: فأخذوا لايكلمونه، قال: ويايزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلى أن قد أينعت الثمار، واخضر الجناب، وطمت الجمام[1]، وإنما تقدم على جند لك مجند، فأقبل! قالوا له: «لم نفعل»، فقال: «سبحان الله! بلى والله، لقد فعلتم»، ثم قال: «أيها الناس، إذ كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم إلى مأمنى من الأرض»، قال: فقال له قيس بن الأشعث: «أولا تنزل على حكم بنى عمك، فإنهم لن يروك إلا ماتحب، ولن يصل إليكم منهم مكروه؟» فقال الحسين: «أنت أخو أخيك، أتريد ان يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل، لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد. عباد الله، إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب، قال: ثم إنه أناخ راحلته، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها، وأقبلوا يزحفون نحوه[2].

قال أبو مخنف: فحدثنى على بن حنظلة بن أسعد الشامى، عن رجل من قومه شهد مقتل الإمام الحسين ﷺ حين قتل يقال له كثير بن عبدالله الشعبى، قال: لما زحفنا قبل الإمام الحسين ﷺ خرج إلينا زهير بن قين على فرس له ذنوب[3] شاك فى السلاح، فقال: يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار! إن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر مانحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية

1 ـ طم الماء: علا وغمر. والجمام: جمع جمة، وهو المكان يجتمع فيه الماء.
2 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص68.
3 ـ فرس ذنوب : وافر شعر الذنب.

عبيد الله بن زياد، فإنكم لاتدركون منهما إلا بسوء عمر سلطانهم كله ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدى وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه» وقال فسبوه، وأثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلما»، فقال لهم: «عباد الله، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية، فلعمرى أن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين»، قال: فرماه شمر بن ذى الجون بسهم وقال «اسكت أسكت الله نامتك، أبرمتنا بكثرة كلامك! فقال له زهير: يا ابن البوال على عقبيه، ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم، فقال له شمر: «إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة»، قال: «أفبالموت تخوفنى! فوالله للموت معه أحب إلى من الخلد معكم»، قال: ثم أقبل على النا س رافعا صوته، فقال: عباد الله لايغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهه، فوالله لاتنال شفاعة محمد ﷺ قوما أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم»، قال: فناداه رجل فقال له: «إن أبا عبدالله يقول لك: أقبل فلعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ فى الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لونفع النصح والإبلاغ[1].

طلع الصباح، وأقبل اليوم المشهود، العاشر من المحرم، بدأ البطل يومه المجيد بصلاة الفجر، أم فيها أهله وصحبه وطلعت الشمس على سبعين، أو اثنين وسبعين بطلا فى جانب وأربعة آلاف ذئب فى الجانب الآخر. ووقف «الإمام الحسين عليه السلام» يعبئ رجاله فجعل «زهير بن القين» على الميمنة و«حبيب بن مظهر» على الميسرة، وأعطى الراية أخاه «العباس بن على» وتقدم شباب آل البيت،

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص69.

ليأخذوا مكانهم فى الصف الأول فدفعهم عنه الأنصار قائلين: «معاذ الله أن تموتوا ونحن أحياء، نشهد مصارعكم. بل نحن أولا، ثم تجيئون على الأثر». وهكذا وقفوا فى الصف الثانى وراء القائد والأنصار. وفى الجانب الآخر وقف ـ عمر بن سعد بن أبى وقاص يعبئ جيشه، وينظم ميمنته وميسرته. ياويحهم ألا يخجلون؟! أربعة آلاف، لاثنين وسبعين! وفى سبيل ماذا؟. فى سبيل باطل يرونه رأى العين، وفى سبيل أكذوبة صغيرة اسمها ـ يزيد ، وجريمة منكرة، اسمها ابن زياد. ومن عجب أنهم كما يحدثنا التاريخ، خرجوا لجريمتهم تلك بعد أن صلى بهم قائدهم صلاة الصبح! أصحيح أنهم صلوا، وقرأوا فى آخر صلاتهم «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد؟» إذن ما بالهم ينفتلون من صلاتهم ليحصدوا بسيوفهم الأئمة آل محمد؟! لكَم كان «نافع بن هلال البجلى» صادقًا وهو يقول لابن ذى الجون الشقى: «والله لو كنت من المسلمين: لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا فالحمد لله الذى جعل منايانا على أيدى شرار خلقه». أجل، الحمد لله، فتلك مزية ادخرها القدر للحسين وأصحابه ـ أن يجيء مصرعهم المقدر على أيدى شرار لايقيم الله لهم وزنًا فى الدنيا ولا فى الآخرة. فلكَم يشق على الأنفس المؤمنة أن تجيء مناياها على أيدى قوم خيار. أتذكرون كلمات أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» عندما أفاق من غشية الطعنات الغادرة التى وجهها إليه وهو يصلى، أبو لؤلؤة المجوسى؟ لقد تهلل وجه «عمر» حين عرف هوية قاتله. وحمد الله كثيراً، إذ لم تجئه الضربة من بر تقى. وجاءت من ذلك المجوسى الزنيم. ومن الحظوظ الوافية للحسين وأصحابه، أن خصومهم فى تلك المعركة كانوا أشراراً. أشراراً من الرأس إلى القاع. ولم يكن فيهم خير واحد، ولا بر واحد يمكن أن يشكل وجوده بينهم أمارة احتجاج أو علامة استفهام[1].

اتضح أن استشهاد الإمام الحسين جاء تتمة لحلقات من التجارب النضالية التى خاضها أنصار التيار الرئيسى الثانى الذى أعلن ممثلوه منذ البداية معارضتهم

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص116.

للانحراف الذى بدأ يبرز وضوحًا فى دمشق أيام حكم معاوية، وابنه يزيد، فإنه من الطبيعى - إذن - أن يرفض الإمام الحسين البيعة ليزيد رغم التهديد بالقتل. إن أهل الأمصار، وخصوصًا أهل الكوفة لم يرفضوا بيعة يزيد، ويكتبوا إلى الإمام الحسين ليقدم عليهم ليبايعوه لأنه سبط الرسول ﷺ، وابن الإمام على كرم الله وجهه فقط، بل لأنه أولا وقبل كل شىء يقود تيارًا إسلاميًا معارضًا، ومخالفًا لسياسة الحكم الأموى التى وصفتها رسالة زعماء الكوفة إليه، فقد كتبوا يقولون: «... أما بعد، فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد الذى انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبُعدًا له كما بعدت ثمود! إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق». ومقابل هذه السياسة الأموية التى تشرحها رسالة أهل الكوفة يعبر الإمام الحسين عن واجبات الإمام فيقول: «فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله»، وكتب فى رسالته إلى أهل البصرة يقول: «وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولى، وتطيعوا أمرى أهدكم سبيل الرشاد والسلام عليكم ورحمة الله». ويقارن عبدالله بن الزبير فى خطبته فى أهل مكة بعد مقتل الإمام الحسين رضى الله عنه بين زعيمى التيارين الرئيسيين المشار إليهما: الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما، ويزيد بن معاوية فيقول: «أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم (يعنى الأمويين)، ونصدق قولهم، ونقبل لهم عهدًا!! لا، ولا نراهم لذلك أهلا، أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه، كثيرًا فى النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم، وأولى به فى الدين والفضل، أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى تطلاب الصيد - يعرض - بيزيد - فسوف يلقون غيًا»[1]

1 - د. الحبيب الجنحانى - المرجع السابق ص 171.

أوضح نص يعبر عن منهج التيار المعارض كان الذى يمثله الإمام الحسين رحمه الله فى خطبته بالبيضة، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: «أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: (من رأى سلطانًا جائرًا مستحلا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنة رسول الله، يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقًا على الله أن يدخله مدخله) ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفىء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيّر» وقد كان رحمه الله مدركًا لميزان القوى العسكرية، وأنه لا يستطيع مواجهة قوى الظلم المحدقة به فى كربلاء، ولكنه كان يرفض الذل، والخضوع لقوى البغى، فطلب وأصحابه الموت شهادة فى سبيل مقاومة الظلم، فقد قام بذى حُسُم، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها واستمرت جدًا، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحق لايعمل به، وأن الباطل لايتناهى عنه! ليرغب المؤمن فى لقاء الله محقًا. فإنى لا أرى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برمًا» إنه ليس من السهل إدراك مغزى قرار الإمام الحسين عليه السلام الإقبال على الشهادة رفقة أهله وأصحابه فى سبيل مقاومة الحاكم الجائر المستبد، وقد يرى فيه البعض ضربًا من ضروب المثالية، وضعف الحنكة السياسية، وسوء تقدير للمعطيات السياسية والعسكرية، ويعنى هذا المنطق المراوغة وقبول المساومة فى الحق، وهو مارفضه دائمًا قادة التيار الذى يمثله الإمام الحسين رحمة الله عليه. إن لقرار الإمام الحسين الإقدام على الاستشهاد فى معركة الدفاع عن الحق، وعن القيم الإسلامية، وفى سبيل مقاومة الظلم والطغيان، والانحراف عن النهج القويم معانى عميقة سامية، ودروسًا خالدة خلود مسيرة النضال البشرى ضد الظلم، وفى سبيل بناء مجتمع الحق، والحرية، والعدل الاجتماعى، فلما سمع الإمام الحسين عليه السلام بمقتل رسوله إلى أهل الكوفة: قيس بن مسهر الصيداوى

ترقرقت عيناه، ولم يملك دمعه، ثم قال: «منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا»[1].

وكان نفر يسير من أصحاب عمر بن سعد قد ضاقوا برفض ابن زياد ما عرض عليه الإمام الحسين ﷺ من الخصال، ففارقوا جيشهم وانضموا إلى الإمام الحسين ﷺ، فقاتلوا معه حتى قتلوا بين يديه. ونظر المسلمون فإذا قوم منهم - على رأسهم رجل من قريش من أبناء المهاجرين، أبوه أول من رمى بسهم في سبيل الله، وأحد العشرة الذين شهد النبي لهم بالجنة، وقائد المسلمين في فتح بلاد الفرس، وأحد الذين اعتزلوا الفتنة فلم يشاركوا فيها من قريب ولا من بعيد - نظر المسلمون فإذا قوم منهم، عليهم هذا القرشي عمر بن سعد بن أبي وقاص، يقتلون أبناء فاطمة بنت رسول الله، ويقتلون أبناء الإمام عليّ ﷺ، ويقتلون ابني عبدالله بن جعفر بن أبي طالب الطيار شهيد مؤتة ثم يحزون رءوسهم ثم يسلبونهم، ويسلبون سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ حتى يتركوه متجرداً بالعراء، ويصنعون بهم ما لايصنع المسلمون بالمسلمين. ثم يسبون النساء كما يسبى الرقيق، وفيهم زينب بنت فاطمة بنت رسول الله[2]. أوشك القتال أن يبدأ ولكن قبل أن تنقذف أول سهامه، وقع حادث عجيب. «الحر بن يزيد التميمي» قائد الطليعة التي أرسلها ابن زياد من الكوفة، والذي التقى بركب «الإمام الحسين ﷺ» واضطره للنزول في كربلاء. إنه لم يكد يرى القتال على وشك البدء، حتى أحس فداحة الجريمة التي ستلوثه، وبشاعة الوزر الذي سيحمله، وظلام المصير الذي سيكون له عند الله، فخرج بجواده من صفوف فرسانه، واقترب من قائد الجيش - عمر بن سعد - وصاح به: أصلحك الله! مقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: أي والله قتالا أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي، قال: أفمالكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا؟ قال عمر

---

1 - د. الحبيب الجنحاني - نفس المرجع ص174.
2 - طه حسين - المرجع السابق ص241.

ابن سعد: «أما والله لو كان الأمر إلى لفعلت، ولكن أميرك قد أبى ذلك»، قال: فأقبل حتى وقف من الناس موقفا، ومعه رجل من قومه يقال له قرة بن قيس، فقال: ياقرة، هل سقيت فرسك اليوم؟ قال: لا، قال: إنما تريد أن تسقيه؟ قال: فظننت والله أنه يريد أن يتنحى فلا يشهد القتال، وكره أن أراه حين يصنع ذلك، فيخاف أن أرفعه عليه، فقلت له: «لم أسقه، وأنا منطلق فساقيه»، قال: «فاعتزلت ذلك المكان الذى كان فيه، قال: فوالله لو أنه أطلعنى على الذى يريد لخرجت معه إلى الحسين، قال: فأخذ يدنو من حسين قليلا قليلا، فقال له رجل من قومه يقال له المهاجر بن أوس: ماتريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذه مثل العرواء[1]، فقال له يا ابن يزيد، والله إن أمرك لمريب، والله ما رأيت منك فى موقف قط مثل شىء أراه الآن، ولو قيل لى: من أشجع أهل الكوفة رجلا ماعدوتك، فما هذا الذى أرى منك! قال: إنى والله أخير نفسى بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت وحرقت، ثم ضرب فرسه فلحق بحسين عليه السلام فقال له: جعلنى الله فداك يا ابن رسول الله! أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع وسايرتك فى الطريق، وجعجعت بك فى هذا المكان، والله الذى لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ماعرضت عليهم أبدا، ولايبلغون منك هذه المنزلة. فقلت فى نفسى: لا أبالى أن أطيع القوم فى بعض أمرهم، ولايرون أنى خرجت من طاعتهم، وأما هم ... لون من حسين هذه الخصال التى يعرض عليهم، ووالله لو ظننت أنهم لايقبلونها منك ماركبتها منك، وإنى قد جئتك تائبا مما كان منى إلى ربى، ومواسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لى توبة؟[2].

قال: نعم، يتوب الله عليك، ويغفر لك، ما اسمك؟ قال: أنا الحر بن يزيد، قال: أنت الحر كما سمتك أمك، أنت الحر إن شاء الله فى الدنيا والآخرة، انزل، قال: أنا لك فارسا خير منى راجلا، أقاتلهم على فرسى ساعة، وإلى

1 ـ العرواء كغلواء: الرعدة تكون من الحمى.
2 ـ سلامة قاقيش ـ المرجع السابق ص70.

النزول مايصير آخر أمرى. قال الحسين: فاصنع يرحمك الله مابدا لك. فاستقدم أمام أصحابه ثم قال: أيها القوم، ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التى عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله؟ قالوا: هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه، فكلمه بمثل ما كلمه به قبل، وبمثل ما كلم به أصحابه، قال عمر: حرصت، لو وجدت إلى ذلك سبيلا فعلت: فقال: «يا أهل الكوفة، لامكم الهبل والعبر إذ دعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقلتوه، امسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمة، وأحطتم به كل جانب، فمنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح فى أيديكم كالأسير لايملك لنفسه نفعا، ولايدفع ضرا، وحلأتموه ونساءه وصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجارى الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وهاهم قد صرعهم العطش، بئسما خلفتم محمدا فى ذريته! لاسقاكم الله يوم الظما إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه. فحملت عليه رجالة لهم ترميه بالنبل، فأقبل حتى وقف أمام الحسين. وكما صنع «الحر بن يزيد» صنع بطل آخر، هو «يزيد الكندى»، لقد غادر مكانه فى جيش ابن زياد، وبصق عليه، ثم انطلق يعدو بجواده إلى جبهة «الحسين» العظيم!!

زحف عمر بن سعد نحوهم، ثم نادى: «ياذؤيد ادن رايتك»، فأدناها ثم وضع سهمه فى كبد قوسه، ثم رمى فقال: اشهدوا أنى أول من رمى. قال أبو مخنف عن عذاء بن السائب، عن عبدالجبار بن وائل الحضرمى، عن أخيه مسروق ابن وائل، قال: كنت فى أوائل الخيل ممن سار إلى الحسين، فقلت: أكون فى أوائلها لعلى أصيب رأس الحسين، فأصيب به منزلة عند عبيد الله بن زياد، قال: فلما انتهينا إلى حسين تقدم رجل من القوم يقال له ابن حوزة، فقال: أفيكم حسين؟ قال: فسكت حسين فقالها ثانية، فسكت حتى إذا كانت الثالثة قال: قولوا له: نعم، هذا حسين، فما حاجتك؟ قال: يا حسين، أبشر بالنار، قال، كذبت، بل أقدم على رب غفور وشفيع مطاع، فمن أنت؟ قال: ابن حوزة، قال، فرفع

الإمام الحسين ﷺ يديه حتى رأينا بياض إبطيه من فوق الثياب ثم قال: اللهم حزه إلى النار، قال: فـغضب ابن حـوزة، فذهب ليقـحم إليه الفرس بيـنه وبين نهر، قال؛ فعلقت قدمه بالركاب، وجالت به الفـرس فسقط عنها، قال: فرجع مسروق وترك الخيل من ورائه، قال: فسألته، قـال: لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئًا لا أقاتلهم أبدا، قـال: ونشب القتال. قال هشـام، عن أبيه محمـد بن السائب، عن القاسم بن الأصبغ بن نباته، قال: حدثنى من شهد الإمام الحسين ﷺ فى عسكره أن حسينا حين غلب على عسكره ركـب المسناة يريد الفرات، قال: فقال رجل من بنى ابان بن دارم: «ويلكم! حولوا بينه وبين الماء لاتتأم إليه شيعته»، قال: وضرب فرسه واتبعه الناس حتى حالوا بينه وبين الفرات، فقال سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحـسين ﷺ: اللهم اظمه، قـال: وينتزع الابانى بسهم، فأثبـته فى حنك الحسين، قـال: فانتزع الحسـين السهم، ثم بسط كفيـه فامتلأت دمـا ثم قال سبط رسول الله مـحمد ﷺ الإمام الحـسين ﷺ: اللهم إنى أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك، قال: فـو الله إن مكث الرجل إلا يسيرا حتى صب اللـه عليه الظمأ، فجعل لايروى[1].

وتلاه على الأثر، بروز صف مـن رجال ابن سـعـد يطلبـون المبـارزة من صفوف الأبطال خـرج إليهم أكفاؤهم الأشداء. هذا «عبـدالله بن عمر الكلبي».. مؤمن من الكوفة لم يكد يعلم باحتجاز سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين ﷺ» عند كربلاء، حتى اصطحب زوجته مـعه وشد إليه الر " ها هو ذا يوفى لله بيعه. وها هو ذا يخرج إلى مبارزه، فيـصرعه من فوره. وكان استهلالا باهراً، أطار صواب الآخـرين، فهجم عليه الشـياطين المرقة حـيث ضربه أحدهم بسيـفه فطارت أصابع كفه فى الهواء. لكنه انثنـى على ضاربه فصرعه فى لحظة. وتكالب عليه آخرون، تنكروا حتـى لشرف المبارزة وقواعدها، لاسيـما حين رأوا أن جميع مبارزيهم صرعوا بأيدى الذين خرجوا إليهم من أنصار سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحـسين ﷺ». ولم يتركـوا الرجل إلا عندما أبصـروا فريقًا من أصـحابه يقتربون منهم بسـيوفهم المشرعة. عندئذ ولوا عنه، وهو مثـخن بجراحه واشرأبت

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص72.

زوجته من بعيد، فبصـرت به، وانطلقت تهرول إليه حاملة، بيمناها حربة طويلة. حتى إذا بلغته راحت تحتضنه بين ذراعيـها لينهض قائما وهى تقول له: «فداك أبى وأمي قاتل دون الطيبيـن من ذرية محمد» لكنه يصيح بها، ويضـرع إليها كى تعود إلى خبـائها، فإذا هى تـلعلع بصوتها الواثق: «لا، لـن أعود. ولن أدعك تذهب إلى الفردوس وحدك» لكـنه يزحف بجسده المثخن، ويدفعـها أمامه نحـو الخيام. فتستعصى عليه، وتستميت دون الرجوع.

ويلمح سبط رسول الله محـمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» المشهد من بعيد فيناديها: «جـزيتم عن أهل بيتى خيراً. ارجعى يرحـمك الله، فليس عليكن قتال» وآنئذ لا غير، تمتـثل وتطيع، فإنها لاتستطيع لأمر ابن الرسول عصـيانًا. ويستأنف «عبدالله بن عمـر الكلبى» زحفه فوق أرض جاشت بالصراع، ضـاربًا بسيفه ذات اليمين وذات اليـسار، حتى غاضت حـياته تحت وطأة الهول الذى كان جـسده قد تلقاه. ومرة أخـرى، تندفع إلى أرض القتال زوجته التـى صممت على ألا يذهب قـبلها. وألا يذهب دونهـا إلى الجنة. وراحت تبـحث بين جثث الشـهداء حـتى وجدته، فـجلست بجواره تسجـيه بحنانها، وتضمـه بكيانها، وتقـبّل الجراح التى رصعـت جسده وهـى تصيح: «هنيـئًا لك الجنة». ثم ربضت إلى جـواره، ويدها على مـقبض سـيفـه، لتحـرس جثـمانه من الوحـوش الذين كانوا يعـودون إلى الشهداء، ليـحتزوا رؤوسهم. لكن الشقى الزنيم ـ شمـر بن ذى الجون ـ أبصرها، فأمـر واحداً من شياطينه، غـافلها من الخلف وهشم رأسهـا، وهكذا لم تحرم من صحبة زوجها إلى الفردوس الأعلى. التحمت الجبهتان التحامًا رهيبًا. ورأى جنود زياد كثرة القتلى الذين يسقطون منهم رغـم كثرتهم الهائلة، فجن جنونهم، وهجم فرسانهم فى ضراوة. وبرز لهم فرسان سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» الذين لـم يكونوا أكثر من اثنيـن وثلاثين فارسًا، فدمروا هجومـهم تدميراً، وجاوزوا الدفـاع إلى الهجوم فى سـرعة ماحـقة، وأحاطوا بفـرسان ابن زياد، ثم مرقوا داخل صفوفهم يطوحون برؤوسهم كالذباب[1].

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص119.

وسقط فى يد قائدهم (عروة بن قيس) فنادى (عمر بن سعد) من فوق صهوة جواده، كى يدركه بالرماة!! وأمر (ابن سعد) جيشه فتقدم بأجمعه، يتقدمه خمسمائه من الرماة. وكبر سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» تكبيرة هزت الأرض ونادت زلزالها. وانقذف يضرب بسيفه، فكأنه قدر، لاراد لأمره ولا مهرب من حكمه. كان يشد كالليث على غريم فيصرعه، ثم يبصر آخر فى طريقه بسيفه الغادر إلى بعض أصحابه؛ فينثنى إليه كالصقر ويرديه. وحل روحه الغلاب فى أفئدة أصحابه، فاشتعل حماسهم، واتقد مضاؤهم وامتلأت أفئدتهم المؤمنة عزمًا وشوقًا، وراحوا يضربون ويقاتلون، فى استبسال عظيم. كانوا كلما قل عددهم بوقوع الشهداء منهم، ازدادوا إقدامًا وقوة، لكأنما كانت أرواح شهدائهم تستأنف بعد انطلاقها من أجسادها، نضالها وقتالها. لم يكن أصحاب سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» يتعجلون النصر؛ فما أبعد النصر عن قوم يقاتلون فى مثل ظروفهم وبمثل عددهم. إنما كانوا يتعجلون الجنة؛ إذ لم يكن لديهم ريب فى أنها المنتهى والمصير. وركز رماة الأعداء ضرباتهم على الجياد التى يمتطيها فرسان سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» فعقروها جميعًا. وهبط الفرسان إلى الأرض ليقاتلوا مع إخوانهم. كان كل بطل من أصحاب سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» يتكاثر عليه عشرات من جيش ابن زياد وهذه وحدها، ترينا كيف كانت ضراوة القتال وعظمة الاستشهاد ورغم ما كان لجيش الباطل من تفوق، فقد كان الفزع من نصيبه وحده[1].

وليس هناك ما يصور هذه الحقيقة مثل إقدامهم على حرق المضارب والخيام التى كانت لأهل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره. لقد أحرقوها؛ ليشغلوا بإطفاء نارها المندلعة تلك القلة الصامدة لقتالهم والمطوحة برؤوسهم. كان الإمام الحسين عليه السلام قد أقام فسطاطًا له، وجمع النساء والأطفال فيه، وكان أصحابه يقاتلون أشد القتال ولا يقدر أعداؤهم على أن يأتوهم إلا من

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص120.

وجه واحد لقرب أبنيتهم بعضها من بعض، فلما رأى ذلك عمر بن سعد، أرسل رجالا يقوضونها ليحيطوا بها فقتلهم أصحاب الإمام الحسين ﷺ فأمر عمر بإحراقها فقال الإمام الحسين ﷺ: دعوهم فليحرقوها، فإنهم لو أحرقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم منها، وكان ذلك كذلك، وأخذوا لايقاتلونهم إلا من وجه واحد فحمل شمر بن ذى الجوشن حتى طعن فسطاط الإمام الحسين ﷺ برمحه ونادى: عليٌّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله فصاح النساء، وخرجن من الفسطاط وصاح به سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ: «يا ابن ذى الجوشن، أنت تدعو بالنار لتحرق بيتى على أهلى، حرقك الله بالنار» فقال له حميد بن مسلم: «سبحان الله، إن هذا لايصلح لك أتريد أن تجمع خصلتين؛ تعذب بعذاب الله (يعنى بالنار)، وتقتل الولدان والنساء؟!! والله إن فى قتلك الرجال لما ترضى به أميرك». فقال: «من أنت؟». قال: «لاأخبرك» وخشى أن يضره عند الأمير. فجاءه رجل يسمى شبث بن ربعى فقال له: «ما رأيت مقالا أسوأ من قولك؛ ولا موقفًا أقبح من موقفك؛ أمرعبًا للنساء صرت؟» فاستحى وانصرف[1].

واشتعلت الحرائق عالية، فنادى سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين ﷺ» فى ثبات عجيب. «لابأس. اجعلوا الحريق وراء ظهوركم؛ فلا يستطيعوا اجتياز النار إليكم» ونجا فسطاط «الإمام الحسين ﷺ» من الحريق وفى خضم هذا الهول الذى شكّله القتال الضارى الوبيل، وقف «البطل» يقلب وجهه فى السماء. لقد كان ينتظر مقدم عزيز لم يخلف قط موعده معه ـ ذلكم هو الصلاة. أجل، لقد انتصف النهار، وجاء ميقات الظهر، وموعد صلاته وللصلاة فى ميدان القتال طريقة خاصة. وهكذا نادى «الإمام الحسين ﷺ» لصلاة الظهر ـ صلاة حرب وقتال. هل رأى الناس شيئًا كهذا، فى جلاله، وجماله، وعظمته حتى والموت ينوشه وينوش أصحابه من كل جانب، لايغفل عن واجب ربه، ولا عن فرائض

1 ـ محمد رضا ـ المرجع السابق ص132.

دينه. ويفـرغون من صلاتهم، لـيواصلوا جهـادهم، وقد بدأ النصف الـثانى من النهار. أى إعـجاز كان هذا الذى حـدث وكيف صمـد اثنان وسبـعون طيلة هذا الوقت لأربعة آلاف فارس، ورام، وكيف ستظل بقيـتهم صامدة حتى آخر النهار. أو كل هذا الثبـات، يهبه الحق أتباعـه وأشياعه؟ أجل، وأكـثر من هذا يمنح الحق ويعطى. لقد أحاط الباقون من أصحاب «الإمام الحسين عليه السلام» به يقاتلون من حوله ويذودون عنه، وكل أمـانيهم أن تواتيهم منـاياهم وهم بين يديه، أو عند قدمـيه. فـهذا «حنظلة بـن سعـد الشبـامى» ينادى أعـداء الحق. «إنى أخـاف عليكم يوم التناد.. فإياكم وقـتل سبط رسول الله مـحمد ﷺ الإمام «الحـسين عليه السلام»؛ فقد خاب من افـترى» ثم يثبـت بين يديه كأنه جبل، لاتزحـزحه عن مكانه عـشرات السيوف والرمـاح التى اتخذته هدفًا. ويظل يقاتل حتى يقع شهـيدًا. وهذا «سيف ابن الحارس وأخوه مالك» يقتربان من البطـل، ويعانقانه، ثم يقولان له: «موعدنا الجنة» ويقاتلان مـعه ومن حوله حتى تدركهـما الشهادة. وهذا «عـبدالله بن عروة وأخوه عـبدالرحمن» يخـوضان فى صفـوف الأعداء ويصليـانهم سعيـرًا. ويثقل جسـداهما بالطعن وبالضرب والجـراح، فيقـعان على الأرض خائرة قواهما، ثم لاتكاد أعينهـم المجهدة تقع على البطل يقـاتل وحده عـشرات من الأعداء القـساة حتى تنتفض فيهـما من جديد عافية الأسود، ويتضرم بأسـهما، وينهضان من بين يديه فى قتال مرير حتى يقع أجرهما عـلى الله شهيدين عظيمين. وهذا «شوذب» و«عـبـاس بن أبى شـبـيب» و«نافع بن هلال البـجـلى» و«سـويد بن أبى المطاع» وعشرات من إخوانهم المـباركين، راحوا يقاتلون فى جسارة وغـبطة.. كلما سقط أحدهم جريحًا نهض فـوق جراحه، وسبح فوق دمائه حتى يعود فـيقاتل. ويقاتل فى عزم شـامخ وثبات مكين؛ حتى لحقـوا جميـعًا بإخوانهم الذين سبـقوهم أول النهار ـ «زهيـر بن القين» و«عـبدالله بن عـمر الكلبيى» و«الحـر بن يزيد» و«يزيد الكندى» أولئك الأبطال الذين قـاتل الواحد منهم وكأنه جـيش وحده والذين أبلوا فى المعركة بلاء يتعاظم كل وصف وكل إطراء[1].

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص122.

لما أحيط بالحسين بكربلاء وقيل له: انزل على حكم بنى عمك قال: لا والله - لا أعطيكم بيدى إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد فأختار المنية على الدنية وميتة العز على عيش الذل. وقال: ألا إن الدعى ابن الدعى قد ركز بين اثنتين السلة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وجدود طابت وحجور طهرت وأنوف حمية ونفوس أبية ولا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام. أقدم الإمام الحسين عليه السلام على الموت مقدمًا نفسه وأولاده وأطفاله وأهل بيته للقتل قربانا وفاء لدين جده صلى الله عليه وسلم بكل سخاء وطيبة نفس وعدم تردد وتوقف قائلا بلسان حاله[1]

إن كان دين محمد لم يستقم   إلا بنفسى ياسيوف خذينى

ومما لاشك فيه أن شجاعته هى الصفة الأولى فيه، وهى صفة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده، وقد شهد معظم الحروب، وحضر مع أبيه وقائعه جميعًا من الجمل إلى صفين، وليس فى بنى الإنسان من هو أشجع قلبًا ممن أقدم عليه فى كربلاء، وقد تعلم الإمام فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة من صباه. وروى ابن أبى حديد فى شرح نهج البلاغة أنه فيما فخرت به بنو هاشم على بنى أمية قولهم من مثل الإمام الحسين بن على عليهما السلام ويوم الطف، ما رأينا مكثوراً قد أفرق من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه، كان كالليث المحارب يحطم الفرسان حطمًا. وقال فى موضع آخر: سيد أهل الآباء الذى علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية الإمام أبو عبدالله الحسين بن على رضى الله عنهما عرض عليه الأمان وأصحابه فانف من الذل، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان مع أنه لايقتله فاختار الموت على ذلك، وسمعت النقيب أبا زيد يحيى يروى: أن الإمام الحسن عليه السلام لما صالح معاوية قال أخوه الإمام الحسين عليه السلام: «لقد كنت كارهًا لما كان طيب النفس على سبيل أبى حتى عزم على أخى، فأطعته وكأنما يحذ أنفى بالمواسى». ابن زيد

1 - توفيق أبو علم - المرجع السابق ص449.

العلوى البصرى يقول كأن أبيات أبى تمام فى محـمد بن حميد الطائى ما قيلت إلا فى الإمام الحسين عليه السلام:[1]

وقد كان فوت الموت سهلا فرده | إليه الحفاظ المرء والخلق الوعر
ونفس تعاف الضيم حتى كأنه | هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فاثبت فى مستنقع الموت رحله | وقال لها من تحت أخمصك الحشر
تردى ثياب الموت حمراً فما أتى | لها الليل إلا وهى من سندس خضر

تقدم آل بيت الحسين. تقدم أبناء الرسول نحو مصايرهم العظيمة. لم يعد الذى يضنيهم، الظمأ إلى الماء الذى حرمهم منه المجرمون بل الظمأ إلى الشهادة والشوق إلى الجنة!! لقد كانوا فى لحظاتهم المجيدة تلك، يشمون عبير جدهم الرسول. وجدتهم خديجة وعبير حمزة. وجعفر وعلى وفاطمة، فيدركون أنهم صاروا فى الجنة على قرب ذراع، فينطلقون نحوها فى هيام. وكان أولهم انطلاقًا «على بن الحسين» فتى لم يجاوز التاسعة عشرة من عمره. انظروا ها هو ذا - فى نضرة شبابه وريعان إهابه فى روعة بأسه وشرف نفسه يتوسط حراب الأعداء وسيوفهم، وهو ينشد أنا على بن الحسين بن على. نحن ورب البيت، أولى بالنبى. تالله، لايحكم فينا ابن الدعى. تمامًا، كما كان يصنع من قبل جده «الإمام على» حين كان يقتحم المعارك فى عنفوانه اللجب، وهو يزأر. أنا الذى سمتنى أمى حيدرة كليث غابات، كريه المنظرة. أوفيهمو بالصاع كيل السندرة. ها هو ذا، ابن التاسعة عشرة، يعيد إلى الحياة مرة أخرى بطولات جده العظيم. ذرية بعضها من بعض. ويمضى، يضرب ويضرب حتى تصيبه طعنة رمح؛ فيقع على الارض، وقبل أن يتحامل على جراحه لينهض من جديد كانت عشرات السيوف الباغية قد مزقت جسده الغض الشريف. ويراه الإمام الحسين - مجّد الله الحسين -

1 - توفيق أبو علم - نفس المرجع ص450.

فيسرع نحوه ويسرع معه شباب بنى هاشم وفى رباطة جأش تذهل كل حى، حمل البطل ابنه الحبيب، ثم سجاه على ذراعى واحد من بنى عمومته، وأمره أن يذهب به إلى فسطاطه. ولا تكاد الطاهرة البتول «زينب بنت على» رضى الله عنها وأرضاها لاتكاد تبصر جثمان ابن أخيها حتى تعلو زفرات أساها. أهذا الذى كان من دقائق معدودة، يملأ الأعين شبابه، وبهاؤه، وسناؤه. هنالك انكبت على الأشلاء الطاهرة الناضرة، تضخها بدموعها وشجنها. وأثر فى البطل مشهد أخته، فسار إليها يسألها الصبر ويقودها فى رفق إلى خبائها. وعاد هو إلى ساحة القتال. لم يكن هناك على أرض المعركة سوى أهل بيته أما أصحابه وأنصاره، فقد رحلوا جميعًا شهداء ممجدين. ولقد استفتح آل البيت بفتاهم العظيم «على بن الحسين». ومن بعده تقدموا جميعًا كالصقور الكواسر. هاهم أولاء إخوته لأبيه: عبدالله بن على بن أبى طالب، وجعفر، وعثمان، ومحمد الأصغر، وأبو بكر، والعباس، يقذفون بأنفسهم وسط الهول، وأخوهم العباس يهتف فيهم قائلا: «تقدموا؛ حتى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله». فيتقدمون إلى قلب الجيش المسعور بسيوفه العاوية، ورماحه الباغية. وكلما لمحوا خطرًا يقترب من أخيهم البطل «الإمام الحسين ﷺ» تلقوه بأجسادهم حتى سقطوا جميعًا صرعى بل قولوا: صعدوا جميعًا شهداء. وعلى ثراها تمددت أجسادهم الكريمة يسبقها جثمان «العباس بن على» الذى كان لبهاء طلعته، وتألق شخصيته، يلقب بـ «قمر قريش».

تقدم أبناء «الحسين» وأبناء «الحسن»: أبو البكر بن الحسين وعبدالله بن الحسين والقاسم بن الحسن. كما تقدم أبناء جعفر بن على بن أبى طالب: عون ومحمد وعبدالله. وأبناء «عقيل بن أبى طالب». عبدالله الأكبر وعبدالله الأصغر. وجعفر. وأبناء «مسلم بن عقيل» الذى قتله ابن زياد بالكوفة: محمد وعبدالله كما تقدم محمد بن أبى سعيد بن عقيل تقدموا جميعًا فى بطولة تتحدى نفسها[1].

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص125.

أقبل الحسين إلى ابنه، وأقبل فتيانه إليه، فقال: احملوا أخاكم، فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه. ثم إن عمرو ابن صبيح الصدائى رمى عبدالله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفه على جبهته، فأخذ لايستطيع أن يحرك كفيه، ثم انتحى له بسهم آخر ففلق قلبه فاعتورهم الناس من كل جانب. فحمل عبدالله بن قطبة الطائى ثم النبهانى، على عون بن عبدالله ابن جعفر بن أبى طالب فقتله. وحمل عامر بن نهشل التيمى على محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب فقتله. وشد عثمان بن خالد بن أسير الجهنى، وبشر بن سوط الهمدانى ثم القابضى على عبدالرحمن بن عقيل بن أبى طالب فقتلاه. ورمى عبدالله بن عزرة الخثعمى جعفر بن عقيل بن أبى طالب فقتله. قال حميد بن مسلم: خرج إلينا غلام كأن وجهه شقة قمر، فى يده سيف، عليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع أحدهما، ما أنسى أنها اليسرى، فقال لى عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى: والله لأشدن عليه فقلت له: سبحان الله وما تريد إلى ذلك؟ يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم. فقال: والله لأشدن عليه، فشد عليه فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، فقال: ياعماه. فجلى الحسين كما يجلى الصقر، ثم شد شدة ليث غضب فضرب عمرا بالسيف فاتقاه بالساعد، فأطنها من لدن المرفق، فصاح، ثم تنحى عنه، وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوا عمرا من حسين، فاستقبلت عمرا بصدورها، فحركت حوافرها وجالت الخيل بفرسانها عليه، فوطأته حتى مات، وانجلت الغبرة، فإذا أنا بالحسين قائم على رأس الغلام، والغلام يفحص برجليه، وسبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ يقول: بُعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك، ثم قال: عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لاينفعك، صوت الله كثر واتره، وقل ناصره، ثم احتمله فكأنى أنظر إلى رجلى الغلام يخطان فى الأرض وقد وضع الإمام الحسين ﷺ صدره على صدره. فقلت فى نفسى: مايصنع به فجاء به حتى ألقاه مع ابنه على بن الحسين

وقتلى قد قتلت حوله من أهل بيته، فسألت عن الغلام، فقيل: هو القاسم بن الحسن بن على بن أبى طالب[1].

مكث الإمام الحسين ﷺ طويلا من النهار، كلما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه، وكره أن يتولى قتله وعظيم إثمه عليه. وإن رجلا من كندة يقال له مالك بن النسير من بنى بداء، أتاه فضربه على رأسه بالسيف، وعليه برنس له، فقطع البرنس، وأصاب السيف رأسه، فأدمى رأسه، فامتلأ البرنس دما. فقال له سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين رضى الله عنه. لا أكلت بها ولا شربت، وحشرك الله مع الظالمين. فألقى ذلك البرنس، ثم دعا بقلنسوة فلبسها، واعتم، وقد أعيا وبلد، وجاء الكندى حتى أخذ البرنس، فلما قدم به بعد ذلك على امرأته أم عبدالله ابنة الحر أخت البدى، أقبل يغسل البرنس من الدم، فقالت له امرأته: وأسلب ابن بنت رسول الله ﷺ، تدخله بيتى أخرجه عنى، فذكر أصحابه أنه لم يزل فقيرا بشر حتى مات. ولما قعد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ أتى بصبى له فأجلسه فى حجره زعموا أنه عبدالله بن الحسين. قال عقبة بن بشير الأسدى: قال لى أبو جعفر محمد بن على بن الحسين إن لنا فيكم يا بنى أسد دما. قلت: فما ذنبى أنا فى ذلك رحمك الله يا أبا جعفر وما ذلك؟ قال: أتى الحسين بصبى له، فهو فى حجره، إذ رماه أحدكم يا بنى أسد بسهم فذبحه، فتلقى الحسين دمه، فلما ملأ كفيه صبه فى الأرض ثم قال: رب إن تلك حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين. قال: ورمى عبدالله بن عقبة الغنوى أبا بكر بن الحسين بن على بسهم فقتله. وشد هانئ بن ثبيت على عبدالله بن على بن أبى طالب فقتله. ثم شد على جعفر بن على فقتله وجاء برأسه. ورمى خولى بن يزيد الأصبحى عثمان ابن على بن أبى طالب بسهم. ثم شد عليه رجل من بنى أبان بن دارم فقتله،

1 ـ موسى محمد على ـ سيد الشهداء الإمام الحسين ص111.

وجاء برأسه. ورمى رجل من بنى أبان بن دارم محمد بن على بن أبى طالب فقتله وجاء برأسه. قال هانئ بن ثبيت الحضرمى: رأيته جالسا فى مجلس الحضرميين فى زمان خالد بن عبدالله وهو شيخ كبير، فسمعته وهو يقول[1]

كنت ممن شهد قتل الإمام الحسين ﷺ، فوالله إنى لواقف عاشر عشرة ليس منا رجل إلا على فرس، وقد جالت الخيل وتصعصعت، إذ خرج غلام من آل الحسين وهو ممسك بعود من تلك الأبنية، عليه إزار وقميص، وهو مذعور، يتلفت يمينا وشمالا، فكأنى أنظر إلى درتين فى أذنيه تذبذبان كلما التفت، إذ أقبل رجل يركض، حتى إذا دنا منه مال عن فرسه، ثم اقتصد الغلام فقطعه بالسيف. وقال جابر الجعفى: عطش سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ حتى اشتد عليه العطش، فدنا ليشرب من الماء، فرماه حصين بن تميم بسهم، فوقع فى فمه، فجعل يتلقى الدم من فمه، ويرمى به إلى السماء، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم جمع يديه فقال: اللهم احصهم عددا، واقتلهم بددا، ولاتذر على الأرض منهم أحدا. وقال القاسم بن الأصبغ بن نباتة: حدثنى من شهد الإمام الحسين ﷺ فى عسكره أن حسينا حين غلب على عسكره ركب المسناة يريد الفرات. فقال رجل من بنى أبان بن دارم: ويلكم حولوا بينه وبين الماء لاتتام إليه شيعته: وضرب فرسه، وأتبعه الناس حتى حالوا بينه وبين الفرات. فقال الحسين: اللهم أظمه. قال: وينتزع الأبانى بسهم، فأثبته فى حنك الإمام الحسين ﷺ. فانتزع الإمام الحسين ﷺ السهم، ثم بسط كفيه فامتلأت دما، ثم قال الحسين رضى الله عنه: اللهم إنى أشكو إليك مايفعل بابن بنت نبيك. فو الله ان مكث الرجل إلا يسيرا حتى صب الله عليه الظمأ، فجعل لايروى. وقال القاسم بن الأصبغ: لقد رأيتنى فيمن يروح عنه والماء يبرد له فيه السكر وعساس فيها اللبن، وقلال فيها الماء، وإنه ليقول: ويلكم اسقونى قتلنى الظمأ، فيعطى القلة أو العس كان مرويا أهل البيت فيشربه، فإذا نزعه من فيه اضطجع الهنيهة ثم يقول: ويلكم اسقونى قتلنى الظمأ. قال: فو الله ما لبث إلا يسيرا حتى انقد بطنه انقداد بطن البعير. ثم إن شمر بن ذى الجوشن أقبل فى نفر نحو من عشرة من رجاله أهل الكوفة قبل منزل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ الذى فيه ثقله

1 ـ موسى محمد على ـ نفس المرجع ص132.

وعياله فمشى نحوه، فحالوا بينه وبين رحله. فقال سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام: ويلكم إن لم يكن لكم دين، وكنتم لاتخافون يوم المعاد، فكونوا فى أمر دنياكم أحرارا ذوى أحساب، امنعوا رحلى وأهلى من طغاتكم وجهالكم. فقال ابن ذى الجوشن: ذلك لك يا ابن فاطمة قال: وأقدم عليه بالرجالة، منهم أبو الجنوب ـ واسمه عبدالرحمن الجعفى ـ والقشعم بن عمرو بن يزيد الجعفى، وصالح بن وهب اليزنى وسنان بن أنس النخعى، وخولى بن يزيد الأصبحى، فجعل شمر بن ذى الجون يحرضهم فمر بأبى الجنوب وهو شاك فى السلاح. فقال له اقدم عليه: قال: وما يمنعك أن تقدم عليه أنت. فقال له شمر: ألى تقول ذا؟ قال: وأنت لى تقول ذا فاسبًا. فقال له أبو الجنوب ـ وكان شجاعا: والله لهممت أن أخضخض السنان فى عينك[1].

فانصرف عنه شمر وقال: والله لئن قدرت على لن أضرك ثم إن شمر بن ذى الجون أقبل فى الرجالة نحو سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام، فأخذ الإمام الحسين عليه السلام يشد عليهم فينكشفون عنه. ثم إنهم أحاطوا به إحاطة، وأقبل إلى سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام غلام من أهله، فأخذته أخته زينب ابنة الإمام على عليه السلام لتحبسه، فقال لها الإمام الحسين عليه السلام: احبسيه، فأبى الغلام، وجاء يشتد إلى الإمام الحسين عليه السلام، فقام إلى جنبه، قال: وقد أهوى بحر بن كعب بن عبدالله ـ من بنى تيم الله بن ثعلبة بن عكابة ـ إلى الإمام الحسين عليه السلام بالسيف. فقال الغلام: يا ابن الخبيثة، أتقتل عمى فضربه بالسيف، فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلا الجلدة، فإذا يده معلقة، فنادى الغلام: يا عماه فأخذه الإمام الحسين عليه السلام فضمه إلى صدره، وقال: يا ابن أخى، اصبر على ما نزل بك، واحتسب فى ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين، برسول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب وحمزة وجعفر والحسين بن على، ﷺ وعليهم أجمعين. قال حميد بن مسلم: سمعت الحسين يومئذ وهو يقول: اللهم أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض. اللهم فإن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا، واجعلهم طرائق قددا، ولاترض عنهم الولاة أبدا، فإنهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا فقتلونا. قال: وضارب الرجالة حتى انكشفوا عنه، قال: ولما بقى سبط

---

1 ـ موسى محمد على ـ نفس المرجع ص134.

رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام في ثلاثة رهط أو أربعة، دعا بسراويل محققة[1] يلمع فيها البصر، يماني محقق، ففزره ونكثه لكيلا يسلبه. فقال له بعض أصحابه: لو لبست تحته تبانا. قال: ذلك ثوب مذلة، ولا ينبغي لي أن ألبسه. قال: فلما قتل أقبل بحر بن كعب فسلبه إياه فتركه مجردا. قال محمد بن عبد الرحمن: إن يدى بحر بن كعب كانتا في الشتاء ينضحان الماء، وفي الصيف ييبسان كأنهما عودة. قال عبدالله بن عمار بن يغوث البارقي: وعتب على عبدالله ابن عمار بعد ذلك مشهد، قتل الإمام الحسين عليه السلام، فقال عبدالله بن عمار: إن لي عند بني هاشم ليدا. قلنا له: وما يدك عندهم؟ قال: حملت على الإمام الحسين عليه السلام بالرمح فانتهيت إليه، فو الله لو شئت لطعنته، ثم انصرفت عنه غير بعيد، وقلت: ما أصنع بأن أتولى قتله يقتله غيري. قال: فشد عليه رجال ممن عن يمينه وشماله، فحمل على من عن يمينه حتى ابذعروا، وعلى من عن شماله حتى ابذعروا، وعليه قميص له من خز وهو معتم، قال: فو الله ما رأيت مكسورا قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا، ولا أمضى جنانا ولا أجرأ مقدما منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب[2].

قال حميد بن مسلم: كانت عليه جبة من خز، وكان معتما، وكان مخضوبا بالوسمة، قال: وسمعته يقول قبل أن يقتل، وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع يتقي الرمية، ويفترض العورة، ويشد على الخيل، وهو يقول: أعلى قتلي تحاثون أما والله لاتقتلون بعدي عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله مني. وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لاتشعرون. أما والله أن لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لايرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم.

لك الله، أبا عبدالله!! وهل اختارتك المقادير لهذا العبء الذي يدغدغ الجبال، إلا وأنت له كفؤ وبه جدير؟؟ الا صبراً آل محمد، فهذا دوركم في الحياة، وحظكم من الدنيا، ياسادة الآخرة، ويا ملوك الجنة!! راح الأبرار يسقطون

1 ـ ثوب محقق: محكم النسج.

2 ـ موسى محمد علي ـ نفس المرجع ص136.

فى الحومة أبطالا، وسبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» يصول هنا، ويقاتل هناك، ودمه الزكى يتفجر من فمه الذى اخترمه سهم وهو يحاول أن يأخذ جرعة ماء ووقف وحيداً أمام أعدائه. وحيداً.. فقد رحل الأهل جميعًا، بعد رحيل الأصحاب كلهم عانقوا الشهادة فى سبيل الحق. وأحاط به القتلة الذين سمروا فى أماكنهم، زائغة أبصارهم، واجفة قلوبهم. لقد كانوا - على كثرة ما اقترفوا من جريمة وسفكوا من دم - يهولهم دم سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» فيتفادى كل منهم وزر الإجهاز على حياته. وهنا انبعث أشقاها (شمر بن ذى الجون) فصرخ فيهم؛ ليختطفوا رأس البطل، فاقتربوا منه، لكنه رغم جراحه ووحدته ينقض عليهم بسيفه، ويواجه البطل أعداءه فى جولة أخيرة، فتقع ضربة سيف على رأسه الشريف فتدميه، فيشده بعصابة، ويحمل سيفه والدم ينزف من كل جسمه، هذا الحسين الذى قال عنه رسول الله محمد ﷺ: الحسين بضعة منى، فأين الحسين من أمة محمد هذا اليوم وهو يقتل وأين أمة محمد عنه؟.

والمجرمون يضربون، ويضربون، بيد أنهم لايزالون يرهبون دمه، ويتجنبون مقاتله!! ومرة أخرى، تخرج «السيدة زينب» من خدرها. فترى أخاها وحيداً بين الوحوش، فتتقدم إلى حيث يسمعها «عمر بن سعد» قائد جيش ابن زياد، وتصيح به: «يا عمر أيقتل أبو عبدالله وأنت تنظر» ؟؟ فيطرق «ابن سعد» خزيًا وندامة، ويصرف وجهه عنها وقد تفجرت عيناه بالدموع، لكنه لا يستطيع أن ينسلخ من الموقف الذميم الذى ورطه فيه هواه، أين أمة محمد ﷺ من الحسين الذى قال عنه رسول الله ﷺ: اللهم أحب من أحب الحسن والحسين وأبغض من أبغضهما.

يضرع «البطل» إلى أخته كى تعود إلى مكانها، ثم يصيح فى القتلة: «أعلى قتلى تجتمعون؟ إنى لأرجو الله أن يكرمنى بهوانكم، ثم ينتقم لى من حيث لاتشعرون» ويطير صواب شمر بن ذى الجون، فينادى فرسانه من جديد، ويأمرهم أن يقفوا من وراء مشاته ورماته؛ ليمنعوهم عن النكوص إلى وراء. ثم يصرخ فى الرماة، متوعداً إياهم المصير، عندما يرجعون لابن زياد، ويهتاج كالمسعور طالبًا رأس البطل. ويتقدم من ريحانة رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» واحد فيضربه بسيفه الأثيم على معصم يسراه، فتطير كفه، ثم يتقدم ثان فيضربه بسيفه الظلوم على عاتقه، فيقع على الأرض ويحسبون أنه انتهى، فينصرفون عنه، لكنهم

يفاجأون به ينهض من جديد متوكئًا على سيفه فنادى شمر فى الناس: ويحكم، ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم، هذا الحسين الذى قال عنه رسول الله محمد ﷺ إنه سيد شباب أهل الجنة، فأين هؤلاء من رسول الله محمد ﷺ وسيد شباب الجنة أم أنهم ليسوا مسلمين؟؟. قال: فحمل عليه من كل جانب فضربت كفه اليسرى ضربة، ضربها زرعة بن شريك التميمى، وضرب على عاتقه، ثم انصرف وهو ينوء ويكبو، قال: وحمل عليه فى تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النخعى فطعنه بالرمح فوقع. ثم قال الخولى بن يزيد الأصبحى: احتز رأسه، فأراد أن يفعل، فضعف فأرعد. فقال له سنان بن أنس فت الله عضديك. وأبان يديك فنزل إليه فذبحه واحتز رأسه الشريف الذى كان رسول الله محمد ﷺ يحنو إليه وهو صغير وكان يقول لفاطمة لا تجعليه يبكى فإن صوته يؤذينى!!!، ثم دفع إلى خولى بن يزيد، وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف وكل ذلك لقاء بضعة دراهم من ابن معاوية. قال جعفر بن محمد بن على: وجد بالحسين عليه السلام حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة. قال: وجعل سنان بن أنس لايدنو أحد من الحسين إلا شد عليه مخافة أن يغلب على رأسه، حتى أخذ رأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام فدفعه إلى خولى، قال: وسلب الحسين ما كان عليه. فأخذ سراويله بحر بن كعب. وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته. وأخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود. وأخذ سيفه رجل من بنى نهشل بن دارم، فوقع بعد ذلك إلى أهل حبيب بن بديل. قال: ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها. وقال زهير بن عبدالرحمن الخثعمى: إن سويد ابن عمرو بن أبى المطاع كان صرع فأثخن، فوقع بين القتلى مثخنا، فسمعهم يقولون: قتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام، فوجد إفاقة، فإذا معه سكين وقد أخذ سيفه، فقاتلهم بسكينه ساعة، ثم إنه قتل، قتله عروة بن بطار الثعلبى، وزيد بن رقاد الجنبى، وكان آخر قتيل. قال حميد بن مسلم: انتهيت إلى الصبى على بن الحسين بن على الأصغر وهو منبسط على فراش له، وهو مريض، وإذا شمر بن ذى الجون فى رجالة معه يقولون الا نقتل هذا؟ قال: فقلت: سبحان الله أنقتل الصبيان إنما هذا صبى. قال: فما زال ذلك دأبى أدفع عنه كل من جاء حتى جاء عمر بن سعد فقال: الا لايدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد، ولايعرضن

لهذا الغلام المريض، ومن أخذ من متاعهم شيئا فليرده عليهم. وقال: فو الله ما رد أحد شيئا فقال على بن الحسين: جزيت من رجل خيرا فوالله لقد دفع الله عنى بمقالتك شرا[1].

وانتهى كل شيء، ليبدأ كل شيء!! انتهى اليوم الرهيب بآلامه وأمجاده.. ليبدأ من جديد بدروسه وبحصاده!! ولقد ألف المؤرخون والكتاب أن يتمثلوا حصاد كربلاء، فيما أصاب قتلة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين ﷺ» بعد حين، من قتل وتدمير، ثم فيما شاده المطالبون بثأره من امبراطوريات ودول سادت الأرض وعمرتها قرونًا طوالا. أما نحن، فلنا وجهة نظر تختلف تمامًا فصحيح أن جميع الذين اشتركوا فى قتله وقتاله، لقوا حتفهم على أبشع الصور وأشدها مذلة وهوانا. كلهم، من ابن زياد، إلى شمر بن ذى الجوشن، إلى آخر واحد من الذين تحمسوا للباطل لابن معاوية، ووقفوا من ابن بنت الرسول موقف التحدى والعدوان، ومن عجب أن التاريخ تتبع مصارعهم، فإذا هم جميعًا يقتلون فارين هاربين ليس فيهم من مات ميتة رجل. وكأنما كانت هذه أولى بشائر دعوة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين ﷺ» عليهم حين صاح فيهم، وهو صامد وحده وسط سيوفهم ورماحهم قائلا «إنى لأرجو الله أن يكرمنى بهوانكم» كلهم قتلوا وديست جيفهم بالأقدام[2]. قال الناس لسنان بن أنس: قتلت سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام حسين بن على وابن فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، قتلت أعظم العرب خطرا، جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم، فأت أمراءك الأمويين فاطلب ثوابك منهم، لو أعطوك بيوت أموالهم فى قتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ كان قليلا، فأقبل على فرسه، وكان شجاعا شاعرا، وكانت به لوثة، فأقبل حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد ابن أبى وقاص فنادى بأعلى صوته:

---

1 ـ موسى محمد على ـ المرجع السابق ص139.
2 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص133.

أو قـر ركـابي فـضـة وذهبـا أنا قـتلت الملـك المحـجبـا

قـتلت خيـر الناس أما وأبا وخـيـرهم إذ ينسبـون نسبـا

فقال عـمر بن سعـد: أشهد أنك لمجنون ما صـححت قط، أدخلوه على، فلما أدخل حـذفه بالقضيـب ثم قال: يامجنون، أتتكلم بهـذا الكلام أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك. قال: وأخذ عمر بن سعد عقبة بن سمعان. فقال له: ما أنت؟ قـال: أنا عبد مملوك فخلى سـبيله فلم ينج منهم أحد غـيره. إلا أن المرقع بن ثمامة الأسدى كان قد نثر نبله وجثا على ركـبتيه، فقاتل، فجاءه نفر من قومه، فـقالوا له: أنت آمن، اخرج إلينا، فخـرج إليهم، فلما قدم بـهم عمر بن سعد بن أبى وقـاص على ابن زياد وأخبره خبره سيـره إلى الزارة. ثم إن عمر بن سعد بن سـعد بن وقاص نادى فى أصحـابه: من ينتدب للحسين ويوطئـه فرسه؟ فانـتدب عشـرة: منهم إسحـاق بن حيـوة الحضـرمي، وهو الذى سلب قمـيص الحسـين، وأحبش بن مرثد بن علقـمة بن سلامة الحـضرمى، فأتوا فداسـوا سبط رسول الله محمـد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام بخيولهم حـتى رضوا ظهره وصدره، فبلغنى أن أحبش بن مـرثد بعد ذلك بزمان أتاه سهم غـرب، وهو واقف فى قتال فلق قلبه، فمات. فـقتل من أصحاب سبط رسول الله محمـد ﷺ الإمام الحسين عليه الـسلام اثنان وسبـعون رجـلا، ودفن الإمام الحـسين عليه السلام وأصحـابه وأهل الغاضرية من بنى أسد بعد ما قتلوا بيوم. وقتل من أصحاب عمر بن سعد بن أبى وقاص ثمانية وثمانون رجلا سوى الجـرحى، فصلى عليهم عمر بن سعد ودفنهم. قال: وما هو إلا أن قتل سبط رسول الله مـحمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام، فسرح برأسه من يومه ذلك مع خـولى بن يزيد، وحميد بن مسلم الأزدى إلى عـبيد الله ابن زياد.

فأقبل به خولى فأراد القصر، فوجد باب القـصر مغلقا، فأتى منزله فوضعه تحت إجانة فى منزله، وله امـرأتان: امرأة من بنى أسد، والأخرى من الحـضرمى يقال لهـا النوار ابنة مالك بن عقـرب، وكانت تلك الليلة ليلة الحـضرميـة. قالت النوار بنت مالك: أقـبل خولى برأس سبط رسول الله مـحمد ﷺ الإمام الحـسين عليه السلام فوضعه تحت إجانة فى الدار، ثم دخل البـيت، فأوى إلى فراشه، فقلت له:

ما الخبر؟ ما عندك؟ قال: جئتك بغنى الدهر، هذا رأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام معك فى الدار. قالت: فـقلت: ويلك ـ جاء الناس بالذهب والفضـة وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ؟ لا والله لايـجمع رأسى ورأسك بيت أبدا. قال: فقمت مـن فراشى، فخرجت إلى الدار، فدعا الأسدية فـأدخلها إليه، وجلست أنظر، قالت: فو الله ما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإجانة، ورأيت طيرا بيضا ترفرف حولهـا. فلما أصبح غدا بالرأس إلى عبيد الله بن زياد، وأقام عمـر بن سعد بن أبى وقاص يومه ذلك والغد، ثم أمـر حميد ابن بكير الأخـمرى فأذن فى الناس بالرحيـل إلى الكوفة، وحمل معـه بنات سبط رسول الله محمـد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام وأخواته ومن كان معـه من الصبيان، وعلى بن الحسين مـريض. قال قرة بن قيس التمـيمى: نظرت إلى تلك النسوة لما مررن بحسيـن وأهله وولده، صحن ولطمن وجوههن، فاعترضـتهن على فرس، فما رأيت منـظرا من نسوة قط كان أحسن من منظر رأيتـه منهن ذلك (اليوم) والله لهن أحسن من مـها يبرين فـقال: فمـا نسيت من الأشيـاء لا أنس قول زينب ابنة فاطمة حـين مرت بأخيها الإمـام الحسين عليه السلام صريعا وهى تقـول: يا محمداه، يامحمداه، صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء، مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمـداه وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفى عليهـا الصبا. فأبكت والله كل عدو وصديق[1]، فأين كانت أمة محمد ﷺ من ذاك الحدث؟؟

يتقدم شـمر بن ذى الجون، رجس البشـرية كلها، فيحتـز رأس البطل سبط رسول الله محـمد ﷺ. ثم يحتفظ به ليحـمله هدية إلى ابن زياد والى الأمويين، ويزيد. تمامًا، كمـا قدم من قبل رأس «يحيى بن زكريا» عليـه السلام، هدية لبغى من بغايا بنى إسرائيل. كان النهار قد لفظ آخـر أنفاسه. ومالت الشمس للغروب، مخلفة وراءهـا شفقًا عجيبًا فى حمرتـه الزاهية، ووهجه المتألق. ولقـد امتد على طول الأفق، وكأنه بساط وضع ومـهد لتعرج عليه إلـى جنان الله أرواح الشهداء. وعلى غـير عادة الـطقس والمناخ فى ذلك الحين وفى تلك الأرض، دوت طلـقات

1 ـ موسى محمد على ـ نفس المرجع ص141.

قوية صادعة كأصوات الرعود. ولقد حسبها المجرمون نذيراً لهم. ولكن لا، فهم أهون على الله من ذلك. إنما هى السماء، كانت تطلق مدافعها تحية. تحية إجلال، للمهمة التى أنجزها الشهداء. وتحية استقبال للأرواح التى كانت قد بدأت رحلة خلودها . . حيث تتلقى من يمين الرحمن ما أعده لها من مثوبة، ونعيم وعطاء[1]. وقطف رءوس الباقين، فسرح باثنين وسبعين رأسا مع شمر بن ذى الجون، وقيس بن الأشعث، وعمرو بن الحجاج، وعزرة بن قيس، فأقبلوا حتى قدموا بها على والى الأمويين عبيد الله بن زياد.

عدد القتلى من أصحاب الإمام الحسين: قتل الإمام الحسين عليه السلام أول سنة 61 الموافق يوم الجمعة وقيل يوم السبت لعشر مضين من المحرم وهو يوم عاشوراء بكربلاء بأرض العراق، وقبره مشهور يزار، وهو ابن سبع وخمسين سنة. وقتل من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام 72 رجلا فى أول مجزرة جماعية فى الإسلام دفنهم أهل الغاضرية من بنى أسد بعد ما قتلوا بيوم. وجىء برءوس من قتل مع الإمام الحسين عليه السلام من أهل بيته وشيعته وأنصاره إلى والى الأمويين عبيد الله بن زياد وكان عددها 70. وهذه أسماء من قتل من آل بيت رسول الله محمد ﷺ: (1) الحسين بن على بن أبى طالب. (2) العباس بن على، أبو الفضل قتل وله 34 سنة. (3) جعفر بن على قتل وله 19 سنة. (4) عبد الله بن على قتل وله 25 سنة. (5) محمد بن على، وهو محمد الأصغر. (6) أبو بكر بن على. (7) عثمان بن على قتل وله 21 سنة. (8) على بن الحسين وهو الأكبر، ويكنى أبا الحسن وأمه ليلى لاعقب له. (9) عبدالله بن الحسين وأمه أم البنين قتل وهو ابن 25 سنة لا عقب له. (10) أبو بكر بن الحسن. (11) عبدالله بن الحسن. (12) القاسم بن الحسن. (13) عون بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب. (14) محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب. (15) جعفر بن عقيل بن أبى طالب. (16) عبدالرحمن بن عقيل. (17) عقيل بن أبى طالب. (18) مسلم بن عقيل. (19) عبدالله بن مسلم بن عقيل. (20) محمد بن أبى سعيد بن عقيل. (21) سليمان مولى الحسين بن على. (22) منجح مولى الحسين. (23) عبدالله ابن بقطر، رضيع الحسين.

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص128.

وعدد القتلى من جيش الأمويين بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص 88 رجلا سوى الجرحى، فصلى عليهم عمر ودفنهم ولم يكن فيهم أحد من أهل الشام[1].

قال حميد بن مسلم: دعاني عمر بن سعد بن أبي وقاص فسرحني إلى أهله لابشرهم «بمجزرة آل بيت رسول الله محمد ﷺ»، فأقبلت حتى أتيت أهله، فأعلمتهم ذلك، ثم أقبلت حتى أدخل فأجد ابن زياد قد جلس للناس، وأجد الوفد قد قدموا عليه، فأدخلهم، وأذن للناس، فدخلت فيمن دخل، فإذا رأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام موضوع بين يديه، وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنتيه ساعة، فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب، قال له: اعل بهذه القضيب عن هاتين الثنيتين، فو الذى لا إله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما، ثم انفضخ الشيخ يبكى، فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك فو الله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك[2]. فنهض فخرج، فلما خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال زيد ابن أرقم قولا لو سمعه ابن زياد لقتله. قال: فقلت: ما قال؟ قالوا: مر بنا وهو يقول: ملك عبد عبدا، فاتخذهم تلدا، أنتم يامعشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعدا لمن رضى بالذل. فلما دخل برأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام وصبيانه وأخواته ونسائه على عبيد الله بن زياد لبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها، وتنكرت، وحفت بها إماؤها، فلما دخلت جلست، فقال عبيد الله بن زياد: من هذه الجالسة؟ فلم تكلمه، فقال ذلك ثلاثا، كل ذلك لاتكلمه. فقال بعض إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله محمد ﷺ فقال لها عبيد الله: الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب حدوثتكم. فقالت: الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد ﷺ وطهرنا تطهيرا، لا كما تقول أنت إنما يفتضح

1- محمد رضا - المرجع السابق ص133.
2 - موسى محمد على - المرجع السابق ص143.

الفاسق، ويكذب الفاجر. قال: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك وبيت رسول الله محمد ﷺ؟ قالت: كتب عليهم القتل، فبروزا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجون إليه، وتخاصمون عنده. فغضب ابن زياد واستشاط، فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمير إنما هى امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشىء من منطقها إنها لاتؤاخذ بقول، ولاتلام على خطل. فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسى من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك فبكت ثم قالت: لعمرى لقد قتلت كهلى، وأبرزت أهلى، وقطعت فرعى واجتثثت أصلى، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت. فقال لها عبيد الله: هذه شجاعة، لعمرى كان أبوك شاعرا شجاعا. قالت: ما للمرأة والشجاعة إن لى عن الشجاعة لشغلا، ولكن نفثى ما أقول.

ورأى الجبان أنه أمام بطلة صعبة المراس، فراح يجيل بصره فى بقية آل بيت رسول الله محمد ﷺ حتى وقع على غلام مريض ظن ابن زياد أنه فرصة ليدير معه حديثه المتوقح محاولا إظهار صلفه وغروره. كان هذا الغلام «على بن الحسين الأصغر» الذى صار فيما بعد إمامًا عظيمًا عرف باسم «على زين العابدين» ومن هذا المريض الصغير خرج وتكاثر عقب سبط رسول الله محمد ﷺ، ومنهم الأئمة الاثنى عشرة ذريتهم إلى يومنا هذا. سأله ابن زياد: من أنت ..؟؟ فأجابه الشبل الكريم: قال: أنا على بن الحسين، قال: أو لم يقتل الله على بن الحسين فسكت. فقال له ابن زياد: مالك لاتتكلم. قال: قد كان لى أخ يقال له أيضا على، فقتله الناس. قال: إن الله قد قتله، فسكت على، فقال له: مالك لاتتكلم. قال: «الله يتوفى الأنفس حين موتها» «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله». قال: أنت والله منهم، ويحك انظروا هل أدرك؟ والله إنى لأحسبه رجلا، فكشف عنه مرى بن معاذ الأحمرى. فقال: نعم قد أدرك. فقال: اقتله، فقال على بن الحسين: من توكل بهؤلاء النسوة؟ وتعلقت به زينب عمته فقالت: يا ابن زياد، حسبك منا، أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحدًا؟ قال: فاعتنقته فقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمنا إن قتلته لما قتلتنى معه قال: وناداه على فقال: يا ابن زياد، إن كانت بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلا تقيا يصحبهن بصحبة

الإسلام «ويقصد محرم من المحارم»، قال: فنظر إليها ساعة، ثم نظر إلى القوم فقال: عجبا للرحم والله انى لأظنها ودت لو أنى قتلته أنى قتلتها معه، دعوا الغلام، انطلق مع نسائك. ولما دخل عبيدالله القصر ودخل الناس، نودى: الصلاة جامعة فاجتمع الناس فى المسجد الأعظم، فصعد المنبر ابن زياد فقال: الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب، سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على وشيعته، فلم يفرغ ابن زياد من مقالته حتى وثب إليه عبدالله بن عفيف الأزدى ثم الغامدى، ثم أحد بنى والبة ـ وكان من شيعة الإمام على كرم الله وجهه، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع الإمام علىّ عليه السلام، فلما كان يوم صفين ضرب على رأسه ضربة، وأخرى على حاجبه، فذهبت عينه الأخرى، فكان لايكاد يفارق المسجد الأعظم يصلى فيه إلى الليل ثم ينصرف.

فلما سمع مقالة ابن زياد، قال: ياابن مرجانة، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه، يا ابن مرجانة، أتقتلون أبناء النبيين، وتكلمون بكلام الصديقين؟ فقال ابن زياد: على به، فوثبت عليه الجلاوزة فأخذوه، فنادى بشعار الأزد: يا مبرور. فقال: ويح غيرك أهلكت نفسك، وأهلكت قومك، وحاضر الكوفة يومئذ من الأزد سبعمائة مقاتل، فوثب إليه فتية من الأزد فانتزعوه فأتوا به أهله، فأرسل إليه من أتاه به، فقتله وأمر بصلبه فى السبخة، فصلب هنالك. ثم إن عبيد الله بن زياد نصب رأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بالكوفة أسوة بما فعله قتلة نبى الله المسيح ابن مريم، عندما صلبوه وها هو سبط رسول الله محمد ﷺ يمثلون برأسه الشريف أمام أعين المسلمين وسمعهم ولم يحرك أحدهم ساكنا ولم يمض على وفاة رسول الله محمد ﷺ بضع سنين؟، فجعل يدار به فى الكوفة، ثم دعا زحر بن قيس فسرح معه برأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ورءوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية وكان مع زحر أبو بردة بن عوف الأزدى وطارق بن أبى ظبيان الأزدى، فخرجوا حتى قدموا بها الشام على يزيد بن معاوية[1].

1 ـ موسى محمد على ـ المرجع السابق ص145.

تسريح رأس الإمام الحسين ورءوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية بدمشق:
دعا عبيد الله بن زياد زحر بن قيس فسرح معه برأس الحسين ورءوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية ليظهر للخليفة أنه قهر آل بيت رسول الله محمد ﷺ أعداءه وانتصر عليهم وقطع رءوسهم انتقامًا له، أى ليزيد بن معاوية بن أبى سفيان، وأنه أهل لثقته وقد برهن عبيد الله على أنه أقسى الحكام قلبًا، لا يبالى بسفك الدماء فى آل بيت رسول الله محمد ﷺ ولا تأخذه شفقة على أحد. وكان مع زحر، أبو بردة بن عوف الأزدى وطارق بن أبى ظبيان الأزدى فخرجوا حتى قدموا بها الشام على يزيد بن معاوية. أقبل زحر حتى دخل على يزيد فقال له يزيد «ويلك ما وراءك وما عندك؟». فقال «أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره. ورد علينا سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على فى ثمانية عشر من أهل بيته وبيت رسول الله محمد ﷺ وستين من شيعته. فسرنا إليهم. فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيدالله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام. فعدونا عليهم من شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى إذا أخذت السيوف مأخذها منهم هام القوم، يهربون إلى غير وزر (مأوى) ويلوذون منا بالآكام والحفر لواذا كما لاذ الحمائم من صقر. فو الله يا أمير المؤمنين ما كان إلا جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة، وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة، تصهرهم الشمس. وتسفى عليهم الريح. زوارهم العقبان والرخم فى سبسب»[1].

وبذلك يفتخرون بهذه المجزرة الرهيبة فى آل بيت رسول الله محمد ﷺ وبانتصارهم على الحسين وشيعته وهم نفر قليل (18 من أهل بيته و60 من شيعته فيكون مجموعهم 78 حسب ما أحصاهم زحر) وليدخل السرور فى نفس يزيد بن معاوية وشرح كيف قاتلوهم ومثلوا بهم وتركوهم طعمة للجوارح والوحوش كأن ذلك مما يدعو إلى الفخار والتيه والعجب وإن يزيد قال:

يفلقن هامًا من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

1ـ السبسب: المفازة، وقيل الأرض المستوية البعيدة.

أما والله يا حسين لو أنا صاحبك ما قتلتك. وفى رواية أخرى للطبرى: لما وصل رأس الشهيد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين إلى يزيد بن معاوية، حسنت حال ابن زياد عنده وزاده ووصله وسره ما فعل، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى بلغه بغض الناس له ولعنهم وسبهم؛ فندم على قتل الإمام الحسين ﷺ فكان يقول: وما على لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معى فى دارى وحكمته فيما يريد وإن كان على فى ذلك وهن فى سلطانى حفظاً لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته، لعن الله ابن مرجانة فإنه اضطره وقد سأله أن يخلى سبيله ويرجع فلم يفعل أو يضع يده فى يدى[1].

على بن الحسين بين يدى يزيد: دعا يزيد بن معاوية أشراف الشام فأجلسهم حوله ثم دعا بعلى بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه فأدخلوا عليه والناس ينظرون فقال يزيد لعلى: «يا على أبوك الذى قطع رحمى، وجهل حقى، ونازعنى سلطانى. فصنع الله به ما قد رأيت». فقال الصبى الصغير على: «ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها». فقال يزيد لابنه خالد، اردد عليه، فما درى خالد ما يرد عليه، فقال له يزيد، قل: «ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عنْ كثير». قد كان ابن بيت النبوة على بن الحسين يحفظ القرآن ويحتج به على صغر سنه وكان حاضر البديهة طلق اللسان. ثم دعا يزيد بالنساء والصبيان فأجلسوا بين يديه فرآهم فى هيئة قبيحة. فقال: قبح الله ابن مرجانة (عبيد الله بن زياد) لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم هكذا. وعن فاطمة بنت على قالت: «لما جلسنا بين يدى يزيد بن معاوية، رق لنا وأمر لنا بشىء وألطفنا، وقام رجل من أهل الشام إلى يزيد فقال: يا أمير المؤمنين! هب لى هذه (يعنينى) وكنت جارية وضيئة. فأرعدت وفرقت وظننت أن ذلك جائزة لهم وأخذت بثياب أختى زينب وكانت أختى زينب أكبر منى وأعقل وتعلم أن ذلك لايكون. فقالت: «كذبت والله ولؤمت. ما ذلك لك وله». فغضب يزيد. فقال: «كذبت والله إن شئت أن أفعله لفعلت». قال: «كلا والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا» فغضب يزيد

1 ـ محمد رضا ـ المرجع السابق ص141.

واستطـار، ثم قال: «إياى تستـقبلين بـهذا؟ إنما خرج من الديـن أبوك وأخوك». فقالت زينب «بدين الله وديـن أبى ودين أخى وجدى هديت أنت وأبوك وجدك». قال: «كذبت ياعدوة الله». قالت: «أنت أمير مسلط. تشتم ظالمًا وتقهر بسلطان». قالت فو الله لكأنه استحيى فسكت. ثم أعاد الشامى فقال: «يا أمير المؤمنين! هب لى هذه الجارية» فقال يزيد: «اغـرب. وهب الله لك حتفًا قاضيًا» لأنه كـان سببًا فى هذه المشـادة بينه وبين حفـيدة رسـول الله محـمـد ﷺ زينب. ثم قـال يزيد: «يانعمان بن بشير! جهزهم بما يصلحـهم وابعث معهم رجلا من أهل الشام، أمينا صالحًا. وابعث معه خيلا وأعوانًا فيسير بهم إلى المدينة ثم أمر بالنسوة أن ينزلن فى دار على حدة. معهن ما يصلحهن وأخوهن معهن، على بن الحسين فى الدار التى هن فيها»[1].

فخرجن حـتى دخلن دار يزيد. فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استـقبلتهن تبكى وتنوح على الشهيد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام. فأقاموا عليه المناحة ثلاثة. وكـان يزيد لايتغدى ولايتعشى إلا دعا على بن الحـسين إليه. فدعـاه ذات يوم ودعا عمرو بن الحـسين بن على وهو غلام صغـير فقال لعـمرو: أتقاتل هذا الفـتى؟ (يعنى خالداً ابنه) قـال: لا. ولكن أعطنى سكينًا واعطه سكينًا ثم أقاتله!! فقام له يزيد وأخذه فضمه إليه ثم قال: «شنشنة أعرفها من أخزم، هل تلد الحيـة إلا حية». هل هكذا يقـال لأبناء بيت رسول الله محمـد ﷺ؟؟ ويقول القاسم بن بحيت: لما أقـبل وفد أهل الكوفة برأس الشهيد سبط رسـول الله محمد ﷺ الإمام الحـسيـن، دخلوا مسـجد دمـشق فقـال لهم مروان بن الحكم: كـيف صنعتم؟ قالوا: ورد علينا منهم ثمانية عشر رجلا، فأتينا والله على آخرهم، وهذه الرؤس والسبايا، فـوثب مروان فانصرف. وأتاهم أخوه يحيى بن الحكـم فقال: ما صنعتم؟ فأعادوا عليه الكلام، فقال: حجبتم عن محمد يوم القيامة، لن أجامعكم على أمـر أبدا ثم قام فـانصـرف. ودخلوا على يزيد فـوضعـوا الرأس بين يديه، وحدثوه الحديث فسمعت دور الحديث هند بنت عبدالله بن عامر بن كريز ـ وكانت تحت يزيد بن معاوية فتقنعت بثوبها، وخرجت فقالت:

---

1 ـ محمد رضا ـ نفس المرجع ص145.

يا أمير المؤمنين، أرأس الحسن بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟

قال: نعم فـأعولي عليه، وحـدى على ابن بنت رسول الله ﷺ وصـريحة قريش، عجل عـليه ابن زياد فقتله. قتـله الله. ثم أذن للناس فدخلوا والرأس بين يديه، ومع يزيد قـضيب فهـو ينكت به فى ثغره ثم قـال: إن هذا وإيانا كمـا قال الحصين بن الحمام:

يفلقـن هامـا مـن رجـال أحـبـة   إلـينا وهم كـانوا أعق وأظلمـا

فقال رجل من أصحـاب رسول الله ﷺ يقال له أبو برزة الأسلمى: أتنكت بقضيبك فى ثغر سبط رسول الله محمـد ﷺ الإمام الحسين؟ أما لقد أخذ قضيبك من ثغـره مأخـذا لربما رأيت رسـول الله ﷺ يرشفـه. أمـا إنك يا يزيد تجىء يوم القيامـة وابن زياد شفيعك، ويجىء هذا يوم القيامـة ومحمد ﷺ شفيـعه، ثم قام فولى. وقال عنوانه بن الحكم: لما قـتل عبيد الله بن زياد سبط رسـول الله محمد ﷺ الإمام الحـسيـن بن على وجىء برأسه إليـه. دعا عـبدالملك بن أبـى الحارث السلمى فقال: انطلق - تى تقدم المدينة على عمرو بن سعيد بن العاص فبشره بقتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين - وكـان عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يومئذ. فذهب ليـعتل له، فزجره - وكان عبيـد الله لايصطلى بناره - فقال: انطلق حـتى تأتى المدينة، ولايسبـقك الخبـر، وأعطاه دنانير وقـال: لاتعتل، وإن قامت بك راحلتك فاشـتر راحلة. قال عبدالملك: فقـدمت المدينة فلقينى رجل من قـريش، فقـال: ما الخـبر؟ فـقلت: الخبـر عند الأمـير. فـقال: إنا لله وإنا إليـه راجعون، قتل سـبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحـسين بن على؟ فدخلت على عمرو بـن سعيد فقـال: ما وراءك؟ فقلت: ما يـسرّ الأمير، قتل سـبط رسول الله محمـد ﷺ الإمام الحسين بن علـى. فقال: ناد بقتله، فناديت بقـتله، فلم أسمع والله واعية قط مثل واعية نساء بنى هاشم فى دورهن على سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين، فقال عمرو بن سعيد بن أبى وقاص وضحك:

عجـت نساء بنى زياد عـجة   كـعجـيج نسوتنا غـداة الأرنب

ثم قال عمرو بن سعد بن أبى وقاص: هذه واعية بواعية عثمان بن عفان، ثم صعد المنبر فأعلم الناس قتله. وعن عبدالرحمن بن عبيد أبى الكنود، قال: لما بلغ عبدالله بن جعفر بن أبى طالب مقتل ابنيه مع الإمام الحسين ﷺ، ودخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه فقال: هذا ما لقينا ودخل علينا من الإمام الحسين ﷺ. فحذفه عبدالله بن جعفر بنعله، ثم قال: ياابن اللخناء، أللحسين تقول هذا؟ والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه، والله إنه لما يسخى بنفسى عنهما، ويهون على المصاب بهما، إنهما أصيبا مع اخى وابن عمرى مواسين له صابرين معه، ثم أقبل على جلسائه فقال: الحمد لله عز وجل على مصرع الإمام الحسين ﷺ، الا تكن آست حسينا يدى، فقد ساه ولدى. ولما أتى أهل المدينة مقتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين خرجت ابنة عقيل بن أبى طالب ومعها نساؤها وهى حاسرة تلوى بثوبها وهى تقول:

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم

بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى ... منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم

وقال هشام: حدثنى بعض أصحابنا بسنده عن عمرو بن عكرمة، قال: أصبحنا صبيحة قتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بالمدينة، فإذا مولى لنا يحدثنا قال: سمعت البارحة مناديا ينادى وهو يقول:

أيها القاتلون جهلا حسينا ... أبشروا بالعذاب والتنكيل

كل أهل السماء يدعو عليكم ... من نبى وملاك وقبيل

قد لعنتم على لسان داو ... د وموسى وحامل الإنجيل

قال الكلبى: سمعت هذا الصوت. وبعد فقد أخرج على بن محمد عن جعفر بن سليمان الضبعى قال: قال الإمام الحسين رضى الله عنه: والله لايدعونى حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفى، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم

حتى يكونوا أذل من قرم الأمة، فقتل بنسينوى يوم عاشوراء سنة إحدى وستين. وقال سفيان حدثنا شهاب بن حراس عن رجل من قومه قال: كنت فى الجيش الذى بعثهم ابن زياد إلى سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين، رضى الله عنه وكانوا أربعة آلاف يريدون قتال الديلم، فعينهم ابن زياد وصرفهم إلى قتال الحسين رضى الله عنه[1].

نتائج مجزرة كربلاء:

ويلقانا من حصاد مجزرة كربلاء ودروسها العظيمة، جلال الإيمان وسلطانه القاهر، فالحسين رضى الله عنه حين خرج إلى الكوفة لم يكن طالب دنيا ولا جاه. إنما كان مستجيبًا لسلطان الإيمان الذى لايعصى ولا يغلب. ولقد رأى الإسلام بكل قيمه الغالية وأمجاده العالية، يتعرض لمحنة قاسية يفرضها عليه بيت أبى سفيان. ورأى خطيئة الصمت والسكوت تجتاح الناس رغبة حينًا، ورهبة أحيانًا. كانت بيعة يزيد دعمًا لسلطان الجاهلية على حساب الدين، ودعما لسلطان القبيلة والأسرة على حساب الأمة. وهكذا صارت مقاومتها دعمًا لسلطان الدين والأمة معًا. ولئن فات «الحسين» دعم هذا السلطان فى النظام العام عن طريق الخلافة، التى لم يكن له من أمرها شىء، فإنه لم يتخل عن واجب دعمه فى الضمير، عن طريق التضحية والصمود والفداء. وهكذا، وفى سبيل إيمانه الوثيق والعريق ضحى البطل الشهيد براحته، ثم بحياته، وضحى معه أهله الأقربون، وصحبه الأكرمون. ولقد يبدو لبعض الذين يفكرون فى عجلة، أن «الإمام الحسين» ومن قبله والده «الإمام على» كانا بإيمانهما، وبما ينشدان للحياة وللحكم من ورع وتقوى يمثلان جمودًا لم تعد تطيقه الحياة بعد التطور البعيد الذى حققه الإسلام وانفعل به. فالحق أنهما على العكس تمامًا، كانا يمثلان روح التقدم وضميره، بينما كان الآخرون من بنى أمية بتحويلهم الدين إلى مزرعة أموية، وبتحويلهم الخلافة إلى ملك يحتكرونه ويتوارثونه، وبتحويلهم السلطة إلى سوط، وبإشاعتهم

---

1 ـ موسى محمد على ـ المرجع السابق ص155.

النزعة القبلية بعد أن أذابها الإسلام فى وحدته الصلبة. كانوا بذلك كله يمثلون الرجعية المتكسة إلى عادات الجاهلية وتقاليدها، لقد كانت تضىء إيمان الإمام الحسين عليه السلام وتستجيشه دومًا، تلك الكلمات الصادقة التى قالها جده العظيم رسول الله ﷺ:

«هلاك أمتى على أيدى أغيلمة من قريش»

وها قد جاء زمان الأغيلمة الأمويين ممثلا ومثلين فى يزيد، وابن زياد، وما حولهما من بطانة الإثم والسوء. وهناك حقيقة كان يدركها «الإمام الحسين عليه السلام» تمامًا، ويدركها أبوه «الإمام» من قبله ـ هى أن بلاط معاوية وجيش الشام نفسه قد أفسحا مكانًا رحبًا وعريضًا لكثيرين من الموتورين الذين تظاهروا بالإسلام ليندسوا بين صفوفه مخربين ومدمرين. فالإيمان الذى حمل الإمام «الحسين» لواءه، وذهب شهيده كان لهذا كله، وبهذا كله، إيمانًا مستنيرًا وواعيًا ورشيدًا. وكذلك نواجه من حصاد مجزرة كربلاء ودروسها، ذلك الدرس العظيم عن عظمة التضحية، وقداسة الحق، فالقدر الحكيم، يرتفع بالتضحية فى «كربلاء» إلى أعلى مستوياتها المرموقة، ويجعل منها ومن الحق «قيمة مطلقة» تحقق ذاتها داخل ضميرها أولا، ثم تعكس جلالها وسلوكها على الزمان والمكان بعد ذلك، إنه يفصلها عن كل شىء عداهما، حتى عن النصر ذاته. وهكذا رأينا اثنين وسبعين مقاتلا يصمدون لأربعة آلاف فارس يومًا بأكمله ثم يستشهدون جميعًا بعد أن ينزلوا بعدوهم خسائر فادحة تمثلت فى زيادة أعداد قتلاه عن عدد أولئك المستشهدين كأنما أراد القدر أن يقول لنا: إن الدرس الذى أريد إلقاءه اليوم، ومن فوق منصة كربلاء الشاهقة، لايتمثل فى قدرة القلة المؤمنة على إحراز النصر على الكثرة الساحقة، فطالما ألقيت دروسًا من هذا الطراز. إنما درس اليوم عن عظمة التضحية وقداسة الحق. درس اليوم فحواه أن التضحية قيمة بذاتها، وأن الحق قيمة بذاته. وهما لايستمدان جدارتهما ومكانتهما مما يحرزان من نصر. أو يكتسبان من مغنم وسلطة. فالانتصارات والمغانم يظفر بهما الباطل أحيانًا، ويحققهما الإذعان أحيانًا. وإذن فالصفة المميزة

للتضحية، أنها التضحيـة وحسب، والصفة المميزة للحق، أنه الحق وكفى، والمثوبة العظمى التى ينفرد بها أبطال التضحية وأبـناء الحق، هى انتماؤهم العظيم للتضحية وللحق. أجل، هذا هو الدرس الجليل الذى كـان القدر يلقيـه على الدنيا فى يوم كربلاء، متخذاً من حركة القتال وسير المعركة وسائل إيضاح[1].

فهو يدع الآلاف الأربعـة من فرسان ابن زياد يترنحـون تحت ضربات «اثنين وسبـعين» لا غيـر من أنصار «الإمام الحـسين عليه السلام» وأبناء الحق؛ ليكشـف ـ أعنى القـدر ـ عن قـدرته على إبادة ذلك الجيش لو أراد، لكنه لايريد؛ لأنه يعـد هذه المعركـة وذلك القتال لمغزى آخـر يؤكد شرف التـضحية وقـداسة الحق مستـعليين بذاتيهـما عن كل شيء حـتى عن النصر والنـجاح. ولقد أبرزت بطـولات كربلاء شرف التضـحية على نحو باهر وجليل، حتـى لنكاد نحسب أن الأقدار إنما أرادت ذلك اليوم بكل أهواله وتضـحياته لتؤكد شـرف التضحية فى وعى البـشرية كلها، ولتضيء بمغزاه العظيم ضمير الحـياة، من أجل ذلك، اختارت لها فى يوم كربلاء، نماذج رفيـعة، بالغة الرفـعة، وقضـية عادلة، بالغـة العدالة ونضـالا باسلا، بالغ البسالة. إذن هى شرف الإنسـان وشرف الحياة. ومادامت التضحيـة شرفًا، فيجب أن يصرف النظر عن الشكـل الذى يفرضه عليـها الاضطهاد والبغـى. فالتضحـية ليست حفلا سـاهراً. وسواء على البطل أن يستشهد وجـسده سليم. . أو يقضى، وجسده ممزق. أن يبـقى رأسه مكانه من الجسد، أو يفصل الرأس ويمـثل بالجسد. كل ذلك، وأكثر من ذلك يغطيه شـرف التضحية، ويحولّ أساه إلى مجـد وفواجعه إلى بطولات. ومن شاء فلينـظر، فهؤلاء نفر من أكـرم الخلق، وأتقى الناس، تمزق أجسادهم بسيـوف الباغين، ثم تحتز رؤوسهم ـ اثنان وسبـعون رأسًا ـ وتغرس فى أسنة الرماح. فهل انتقص ذلك مـثقال ذرة من شرف التضحيـة وعظمتها؟ أبدًا بل زادها تألقا وشـرفًا. إن الأجـساد بمجرد إلقـائها النفس الأخيـر يزايلها الإحـساس بالألم، ثم تنال الأرواح مكانها العالى عند الله بقدر بلائها وتضـحياتها، كما تنال مكانها العـالى فى ضمير التـاريخ بقدر بذلها وعطائها. ومن ثم فـالناس يخطئون

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص141.

عندما يقفــون أمام شكل التضحية ومــا يصاحبها من ألم وفاجـعة، ثم لايجاوزون هذا الشكل إلى جوهر التضحية، حيث العظمة والجلال. ولقد أدرك هذه الحقيقة، وعبــر عنها فى أصالة عظيمــة، بطل الإسلام العظيم «خالد بن الوليــد» حين تمثل مأساة حـياته في موته على فراشـه، محرومًا من شرف القـتل على أرض المعارك والنضال. فقال قولته المأثورة[1]:

«لقد شهدت كذا، وكذا زحفًا وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة سيف، أو طعنة رمح، أو رميــة سهم، ثم ها أنذا أمـوت على فراشى حتف أنفى، كـما يموت البعيــر، فلا نامت أعين الجبناء» ويتألق فى مجـرزة كربلاء هذه ذلك المغزى تألق النهــار. فإذا كــانت فى شكلهــا الخارجى تبـعث الأسى والحــزن، فإنهــا فى جوهرها العظيــم تستجيــش كل ما فى النفس البشــرية من إعجاب وإجــلال. إنها تبدو، وكــأنها مهــرجان للحق بالغ الروعة. وتبــدو، وكأنها عيــد للتضحــية نادر المثال. إن المسلمين يحتفلون كل عام مرة بعيــد الأضحى، ويسمونه «العيد الأكبر» فماذا كانت مناسبة هذا العيد فى التاريخ؟ كانت مناسبته التضحية ولاشيء سواها. فخليل الرحمن «إبراهيم» أراد القدر أن يلقن البشــرية عن طريقه درسًا ليس كمثله درس فى تقديس مشيئة الله وتلبية ندائه وأمره. فدعاه أن يذبح ولده، فسارع من فوره، وشــحذ سكينه، وتل ولده للجبــين وفى اللحظة الباهرة مــلأ الوحى روعه وفؤاده: (يا إبراهيم، قـد صدقت الرؤيا. إنا كـذلك نجزى المحسنين) فهل اتــخذ الإسلام من تلك المناسـبة عيـدًا، لأن الله افتـدى «اسماعيــل» بذبح عظيم؟ كلا، فلقد كــان سيــحتــفل بها أيضًــا لو انتهى الأمر إلــى أن يكون «إسماعــيل» الذبيح والقربان. ذلك أن الإسلام يحتفل بمضمون المــوقف وجوهره ـ التضحية بأعز شيء وفى سبيل رب كل شيء، وإله كل شيء. ولقد وقف سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين» وأهله وأصحابه من أجل الحق موقـفًا استحق ببطولاته وتضحياته أن يكون للتضــحية عــيدًا، أى عيــد!! لقد رفـضوا الباطل، واخــتاروا الحق. ثم

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص143.

رفضوا الصمت، وآثروا المقاومة ثم رفضوا المساومة، وصمدوا مع إيمانهم. ثم لما رأوا انفسهم اثنين وسبعين، وسط أربعة آلاف فارس ورام، ولم يعد هناك أدنى ريب فى أن الموت هو الذى ينتظرهم، اقتحموا الهول فى مشهد مجيد، مقررين بمحض اختيارهم وإرادتهم أن يمنحوا أمتهم،بل والبشرية كلها هذه القدرة الرائعة فى التضحية وهذا العيد الممجد للفداء وفى جلال المفتدين، وإخبات المتقين، راحوا يؤدون مهمتهم القاسية والعالية، حتى أنجزوها فى نجاح عظيم[1].

لم يعرف التاريخ على مدى عصوره جميعا مجزرة بشرية أو مذبحة وإبادة جماعية أو مأساة كمأساة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين لا فى عالم الواقع ولا فى عالم الإنسانية. إنها مأساة إنسانية عامة، لا مجرد مجزرة أو مأساة فردية أو طائفية أو عربية أو إسلامية، بل هى مأساة كونية، ولكن فى صورة إنسانية. هاتان قضيتان نود أن نتجه إليهما بكل ما لدينا من قوى واعية، مهما تختلف بيننا الملل والنحل والأعراف والعنعنات. وهناك قضية ثالثة نود أن تنال حقها من التأمل والتقدير. هذه القضية الثالثة هى أن مجزرة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين لم تبدأ مع بداية الأيام الثلاثة الأخيرة من حياته حين بدأ خصومه يحاصرونه فى كربلاء، ثم يشتدون فى الحصار عليه وعلى من صحبوه من آل بيته، ومن تبعوه من أنصاره، ثم يشتطون فى القسوة عليه وعلى جماعته الصغيرة، فيمنعون عنهم الماء والنوم والراحة، ويسلطون عليهم الظمأ المحرق بمن فيهم من الأطفال والنساء والحيوانات العجم، إلى أن استراح بقتلهم إياه تلك القتلة البشعة، وإن كانوا هم لم يستريحوا منه حتى بعد أن احتزوا رأسه، ومثلوا بجثته تمثيلا شنيعا لم يعهده المسلمون من قبل بل لم يعهده العرب فى أشد عهود الجاهلية الأولى ظلما وظلاما، بل إن خصومه لم يستريحوا منه حتى الآن، ولن يستريحوا منه طالما ذكرت الإنسانية مأساته الفاجعة، وذكروهم معها، بأنهم الجناة الذين ارتكبوا جريمة تعذيبه وقتله والتمثيل به على مشهد من النساء من آل بيته الذين هم آل بيت النبى عليه وعلى آله وأوليائه السلام. فينبغى عقلا وخلقا أن

---

1 ـ خالد محمد خالد - نفس المرجع ص144.

يدان كل منهم فى هذه الجريمة الشيطانية بمقدار ما أسهم فيها، ولايقتصر فى إدانته على مقدار ما شارك فيها بعمله وتحريضه فحسب، بل على مقدار نيته الشريرة فيها، وشعوره بالرضا عنها والتشفى بها، سواء قبل وقوعها أو خلال ارتكابها، أو بعد نهايتها الدامية. إن مجزرة الشهيد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين لم تبدأ ببدء أيام الحصار فى كربلاء، بل بدأت منذ تلقى الحياة من أبويه الكريمين أبيه: (على) فتى الفتيان فى تاريخ العرب جميعه بل فى تاريخ البشرية جميعا، وأمه فاطمة البتول بنت محمد عليه وعلى آله السلام. ولم تكن أيام الحصار التى انتهت بقتله والتمثيل بجثته الكريمة إلا ذروة الصراع فى مأساته، أو نهايتها الفاجعة. أو هى تبدو كذلك، إذ ليس من المقبول عقلا، ولا من المألوف فى الواقع، ولا فيما يقتضيه التاريخ فى حركاته أن يكون المرء فجأة أهلا للشهادة، ولاسيما الشهادة التى ترتقى إلى أعلى المعارج كرما ونبلا. وليس من المقبول عقلا ولا عادة، فى الواقع أن يتمم المرء تأهبه لشهادة عظيمة كشهادة الشهيد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين أو دونها خلال سنة أو سنتين، بل لاتكفى لتكوينها عشرات السنين ما لم يكن متأهبا للشهادة بموروثاته ومأثوراته من آبائه الكرام، ثم بنشأته الكريمة فى حجور مربيه ومربياته، ثم بجهاده بعد ذلك على وعى بها فى سيرته، سواء بنياته وكلماته أو بعزماته ونزعاته[1].

هذا ما يقتضيه الواقع عقلا وعادة، وما يقتضيه التاريخ أيضا فى الحكم على الشهادة، والحكم على الشهداء وأولادهم بذلك كبارهم الذين ينهضون بتكاليف الشهادة فى وعى وصبر وعزم وحماسة، لأنهم مطبوعون على الإيمان بما يرون أنه الحق، كما أنهم مطبوعون على الأريحية والنجدة والفداء فى سبيله. وهكذا ينبغى أن ننظر إلى مجزرة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ونتأملها قبل أن نحكم فيها برأى، سواء قدرناها بمعيار الواقع، أو قدرناها بمعيار التاريخ. إن علينا أن نعرف البواعث العاتية التى كانت تزلزل نفس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين من أعماقها، قبل أن يتجه من المدينة إلى مكة، ثم إلى الكوفة، حتى دفعت به إليها مختارا كمضطر، أو مضطرا كمختار، ونحن إن لم نحط خبرا بتلك

1 ـ سلامة قاقيش ـ المرجع السابق ص79.

البواعث وجبروتها فى ضميره ـ لن نصل إلى فهم تلك المجزرة، كما ينبغى لها الفهم والشعور. يقولون «إذا ظهر السبب بطل العجب» ونرى نحن أنه من اليسير فهم أسباب هذه المجزرة وقد يبطل عجبنا بعد ذلك أو يستمر، ولكن الذى لاشك فيه هنا ـ بعد كل هذا أو ذاك ـ أن المرء الذى يدرك هذه البواعث الثقيلة الجبارة فى ضمير الإمام الحسين ﷺ، ثم فى ضمائر أنصاره يومذاك، ويحسها بكل قوتها ـ لن يميل بعطفه وتقديره إلا نحو الإمام الحسين ﷺ ومن والوه فى محنته، ولن يميل بشيء من العطف ولا بشيء من العذر إلى خصومه ولو عرف كل ما قالوه وقيل عنهم من أعذار وتعلات، ولايمكن أن يميل إلى أخذهم بالإشفاق دون العدل (الصارم) أنه لامعنى للإشفاق هنا إلا الإذعان والتسليم لطائفة من الأشرار أو السفهاء ليعيثوا فسادا كما يشتهون، فيضيعوا غيرهم كما يضيعون هم، وليس فى ذلك مصلحة لهم ولا للجماعة التى تسلمهم القياد فتملى لهم فى التسلط والطغيان. ولو وعينا تلك البواعث العاتية فى نفس الإمام الحسين ﷺ ـ كما تدفقت فى أعماقه بإمداد من موروثاته ومأثوراته عن آبائه وأمهاته، ومن تربيته بين أنبل النبلاء من مربيه ومربياته، ثم من سيرته مستقلا ـ ولكن على منهج أسلافه الصالحين الأطهار ـ إذن لما وجدنا فى موقف الإمام الحسين ﷺ فى كربلاء إلا أنه الخاتمة المنتظرة لسيرته الكريمة منذ حملت به أمه البتول إلى أن اتجه للكوفة، بل منذ كان غيبا فى أصلاب آبائه وترائب أمهاته. ومهما نعرف لهذه المجزرة من أسباب فلن نستطيع أن ننظر إلى الإمام الحسين ﷺ فى جميع أطوار حياته إلا بالعطف والتقدير والإعجاب، وأولى مواقف حياته بكل ذلك هو موقفه فى كربلاء، فهو موقف لن نجد له نظيرا فى التاريخ وفى عالم الواقع[1].

حركة الإمام الحسين ﷺ فى شهره الأخير من مكة إلى الكوفة هى الحركة المباشرة التى أدت إلى مصرعه فى كربلاء، أو هى ـ على الأصح ـ قد انتهت فعلا بمصرعه هناك، فلو أن الدولة التى قتل جندها الإمام الحسين ﷺ مبخوسة الحظ من فقه الدين وفقه الأخلاق معا، ثم كانت على حظ وافر من فقه السياسة وفقه

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص81.

العرف العربى قبل الإسلام وبعده، أو كانت تعرف مصلحتها الذاتية على مدى الأشواط البعيدة، لا فى مدى الشوط القصير على خطوة واحدة منها - إذن لما عدمت وسيلة تشل بها حركة الإمام الحسين ﷺ، وتعطل كل آثارها، ولو فى شوط بعد شوط، فتحفظ بذلك سلطانها، ويحفظ لها ولاتها وجندها نفوذهم ونفوذها، دون أن يسقطوا ويسقطوها معهم فى الورطة التى لاخروج منها لمن يهوى فيها، وهذه الورطة هى سفك دم الإمام الحسين ﷺ والتمثيل بجثته فى صورة بشعة زرية، ولم تملك هى بعد ذلك لأسبابها التى قبلتها مضطرة أو مختارة - إلا أن تتغاضى عن هذه الجريمة النكراء، فلما أزعجتها عواقب الجريمة بعد قليل لم تملك إلا زيادة التورط فى فتكاتها الشنعاء، التى يود الناظر إليها - ولو بخياله - أن يغلق دونها بصيرته، أو يلوى وجهه لو كان يستطيع، وإن كان قد ألف مناظر القتل والتمثيل[1]. وأصبح للشيعة ثأر عند الخوارج لأنهم قتلوا عليا غيلة، وللخوارج عند الشيعة ذحول لأن عليا قتل من قتل منهم فى النهروان وفى غير النهروان من المواقع، وأصبح للشيعة ثأران عند بنى أمية، لأن معاوية قتل حجراً وأصحابه، ولأن يزيد قتل الإمام الحسين ﷺ وأهل بيته وجماعة من أصحابه. وكان بنو أمية يزعمون أن لهم عند الشيعة ثأراً، أو قل عند الشيعة والخوارج، لما كان من قتل عثمان بأيدى الثائرين من المسلمين، الذين وفى بعضهم لعلى وخرج بعضهم عليه. ثم لبنى أمية ذحول أخرى عند عامة المسلمين، لقتل من قتل منهم من الكفار يوم بدر. وقد ذكر يزيد، هذه الذحول فى هذا الموطن حين أنشد بعد وقعة الحرة:

ليت أشياخى ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

ومهما يكن من شىء فقد أصبح الخلاف بين هذه الجماعات لايقوم على تباعد الرأى فى الدين وحده، وإنما يقوم على الذحول والأوتار والدماء. لكل جماعة من هذه الجماعات ثأر عند الجماعتين الأخريين. ومعنى هذا كله أن

---

1 - سلامة قاقيش - نفس المرجع 81.

العصبية أصبحت أساسًا من أسس الفتنة، التى دفعت المسلمين إلى كثير من الشر، والتى لم تنقض بقتل الإمام الحسين ﷺ ولا بموت يزيد، وإنما اتصلت بعد ذلك دهرًا طويلا وبقيت آثارها فى حياة المسلمين إلى الآن. والشىء الذى ليس فيه شك، هو أن أهل العراق لم يكونوا وحدهم هم الذين قربوا القرابة وباعدوا الدين، كما قال لهم زياد فى خطبته البتراء، وإنما عمت المحنة بذلك أهل العراق وأهل الشام وأهل مصر وأهل الحجاز. وقد يقال إن الإمام الحسين ﷺ قد ثار بيزيد ورفض بيعته، وثار إلى الكوفة يريد أن يخرج أهلها عن طاعته ويفرق جماعة الناس، ويرد الحرب بين المسلمين إلى ما كانت عليه أيام أبيه. فلم يكن يزيد وأميره فى العراق بادئين فى الشر مثيرين للفتنة، وإنما زادا عن سلطانهما وحافظا على وحدة الأمة. وقد كان هذا يستقيم لو أن الإمام الحسين ﷺ مضى إلى حربه مصممًا عليها، لايقبل فيها مفاوضة ولا يقبل عنها رجوعًا، ولكن الإمام الحسين ﷺ عرض خصاله الثلاث تلك التى عرضها. وكانت العافية فى كل واحدة منهن، فلو قد خلى بينه وبين الرجوع إلى الحجاز لعاد إلى مكة التى لم يكن يحب أن تسفك فيها الدماء، لأنها بلد حرام، ولأنها لم تحل لرسول الله نفسه إلا ساعة من نهار. ولو قد خلى بينه وبين اللحاق بيزيد لكان من الممكن أن يبلغ يزيد منه الرضى على أى نحو من الأنحاء، أو أن يقيم عليه حجة ظاهرة لاتقبل مراءً ولا جدالا. ولو قد خلى بينه وبين المسير إلى ثغر من ثغور المسلمين لكان رجلا من عامة الناس يجاهد العدو ويشارك فى الفتح، لايؤذى أحدًا ولا يؤذيه أحد من المسلمين. ولكن أصحاب ابن زياد أبوا إلا أن يستنزلوه ويستزلوه على حكم رجل لم يكن الإمام الحسين ﷺ يراه كفؤًا ولا ندًا. فلم يكن ما وقع من الشر إلا طغيانًا وإسرافًا فى التجبر والبغى، وكأن ابن زياد ظن أنه سيجتث الفتنة من أصلها بقتل الإمام الحسين ﷺ، فيوئس الشيعة من أمرها، ويضطرها إلى أن تنحرف عما كانت تعلل نفسها به من الآمال والمنى إلى الإذعان لما ليس بد من الإذعان له[1].

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص244.

ولكنك سترى، أن ابن زياد لم يزد الفتنة إلا استعاراً، وأن الشر يدعو إلى الشر. والدماء تدعو إلى الدماء، وهذا الإسراف فى القتل والتنكيل بالمقتولين وبمن تركوا من الأطفال والنساء. فقد سلب القتلى وفيهم ابن فاطمة حفدتها، وسلب أبناء على وغيرهم من أصحاب الإمام الحسين ﷺ، ونزع من النساء كل ما كان معهن من حلى وثياب ومتاع، واضطر يزيد بعد ذلك إلى أن يعوضهن ما أخذ منهن. وكان الإمام على عليه السلام رحمه الله يتقدم إلى أصحابه فى حروبه الا يتبعوا هاربًا، ولا يجهزوا على جريح، ولا يأخذوا من المنهزمين إلا ما أوجفوا به من خيل أو سلاح، وكان الأمر يجرى على ذلك فى صفين. فسيرة ابن زياد هذه التى سارها فى الإمام الحسين ﷺ وأصحابه كانت بدعًا منكراً مما ألف المسلمون حتى فى فتنهم الشنيعة، ثم هو لم يلق من يزيد فى ذلك عقابًا ولا لومًا، وإنما لقى منه رضى وإيثاراً. وقد تمت بهذه الموقعة محنة لعلى فى أبنائه لم يمتحن بمثلها مسلم قط قبل هذا اليوم. فقد قتل من بنيه الحسين بن فاطمة والعباس وجعفر وعبدالله وعثمان ومحمد وأبو بكر، فهؤلاء سبعة من أبنائه قتلوا معًا فى يوم واحد، وقتل على بن الحسين الأكبر وأخوه عبدالله، وقتل عبدالله بن الحسن وأخواه أبو بكر والقاسم، وهؤلاء الخمسة من حفدة فاطمة. وقتل من بنى عبدالله ابن جعفر الطيار محمد وعون. وقتل نفر من بنى عقيل بن أبى طالب فى الموقعة، بعد أن قتل مسلم بن عقيل فى الكوفة. وقتل غير هؤلاء سائر من كان مع الإمام الحسين ﷺ من الموالى والأنصار. فكانت محنة أى محنة للطالبيين عامة وأبناء فاطمة خاصة. ثم كانت محنة أى محنة للإسلام نفسه، خولف فيها ما هو معروف من الأمر بالرفق والنصح وحقن الدماء إلا بحقها وانتهك أحق الحرمات بالرعاية، وهى حرمة رسول الله ﷺ التى كانت تفرض على المسلمين أن يتحرجوا أشد التحرج، ويتأثموا أعظم التأثم، قبل أن يمسوا أحداً من أهل بيته. كل ذلك ولم يمض على وفاة النبى ﷺ إلا خمسون عامًا. فإذا أضفت إلى ذلك أن الناس تحدثوا فأكثروا الحديث، وألحوا فيه بأن الإمام الحسن ﷺ قد مات مسمومًا لتخلص الطريق ليزيد إلى ولاية العهد، عرفت أن أمور المسلمين قد صارت أيام معاوية وابنه إلى شر ما كان يمكن أن تصير إليه[1].

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص245.

إننا نكاد نرى المعركة أمامنا، وأرى وقع السيوف، وقذف الحراب، أرى قطع الرقاب، وتمزيق الأجساد، أرى وحشية المجرمين، وصمود المتقين، أرى ذلك كله؛ فلا يخدعنى الشكل الفاجع عن الجوهر المجيد ولا تصرفنا مأساة الموت، عن عظمة الشهادة. ولا يشغلنا مأتم الأرض، عن انبهار السماء. أجل. لكأننا نرى السماء يومها مبتهية وهى ترى الحق يستعيد قداسته فى ذلك اليوم الرهيب، ويثبت استعلاءه بهذا الصمود العجيب، ثم وهى ترى حكمة الله فى اختياره تتجلى فقديمًا، وعندما كان الرسول محمد ﷺ فى بداية دعوته، قال كفار قريش: أو لم يجد الله غير ذلك البيت الهاشمى الفقير ليختار منه رسوله فأجابهم الوحى صادعًا رائعًا: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) أجل، الله أعلم وها هو ذا علمه يتألق للدنيا، ولا كمثله تألق النهار فالرسول لم يكن وحده بطل التضحيات، لأنه رسول بل ها هو ذا عمه «حمزة» بطل الإسلام فى «أحد» تمزقه السيوف والأحقاد، حتى تستقر كبده بين أنياب «هند» زوجة أبى سفيان وها هو ذا «جعفر» ابن عم الرسول، بطل «مؤتة» تحصد جسده سيوف الروم وها هو ذا «الإمام علىّ عليه السلام» ابن عم الرسول بطل الإسلام فى كل غزواته ومشاهده وبطله فى وجه الوثنية الأموية التى أرادت أن تحوله إلى ملك عضوض - يمضى هو الآخر شهيد اغتيال أثيم وها هو ذا «الإمام الحسن عليه السلام» بطل السلام فى الإسلام، تغتال عصابة الشيطان حياته بالسم، ويأخذ مكانه العالى بين الشهداء ثم ها هم أولاء، أبطال كرام من نفس البيت الممجد والعظيم، يصارعون أربعة آلاف مدججين بالجريمة والسلاح وليس معهم فى ذلك اليوم الرهيب سوى خمسين ناصرًا أو مقاتلا إنهم لم يقدموا على تضحية يرجى من ورائها النصر. بل أقدموا على التضحية من أجل التضحية ذاتها وهكذا جعلوها وسيلة وغاية. كما أكدوا معنى أنها مثوبة نفسها، وأنها قيمة بذاتها[1].

---

1 - خالد محمد خالد - المرجع السابق ص148.

لاحاجة بنا لتتبع كل آثار هذه الجريمة فى تعـاقبها وتصرفات الدولة الأموية عقبها، حين أرسلت جندها إلى المديـنة لإخماد ثورتها، ثم إلى مكة لإخماد ثورة أخرى، وكانت قد ربت هؤلاء الجند بكل وسائل التـرغيب والترهيب مدى أربعين سنة، ليطيعوها طاعة عـمياء، حتى صاروا فى تحقيق رغائبهـا «لا يميزون بين ناقة وجمل» كما قال أحد الدهاة، وكـانوا «أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق» كما قال داهية آخر، وكلاهما بهم خبـير، أو كما قال الأحنف بن قيس زعيم بنى تميم فى أحد رؤسـائهم «لو طلب منه أن يهتك عرض أمـه لفعل» ولم تكن الدولة فى قيادة جندهـا - المتعبد بطاعتـها - فى حاجة إلى غـير القادة من الأمسـاخ البشرية المطبـوعة على الإجـرام والخـسة والصلف، حـتى ليـحار المرء كـيف يصف هذه الأمساخ وما انطوت عليه نفوسهـا من عفن اللؤم والحقد، وضراوة الشر والفتك، واستـهتـار بسفك الدماء وهتك الأعـراض، سواء فى مكة حـرم الله (كمـا كانوا يؤمنون) بحكم إسلامهم، أو فى المدينة حرم رسـول الله محمد ﷺ الذى يؤمنون بدينه، فإنهم - كما قال ابن كثير فى تاريخه - قـد استباحوا حول قبره «من المفاسد العظيمة ما لايحد ولايوصف. واستعرضوا أهلها بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم، حتى سـاخت الأقدام فى الدم، وقتل أبناء المهاجـرين والأنصار، فكان من قتل من أهلها كثيـر خلال القتال حولها، واستباحـة الجند لها ثلاثة أيام - كما رأى قـائدهم - وقد بلغ القـتلى - فى رواية ابن قـتيـبة - ألفـا وسبع مـئة من الأنصـار والمهاجرين والوجـوه، ومن سائر الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصـبيان»[1]. أى أكثر بكثير ممن قتل من كفار الأمويين وقـريش بقيادة أبى سفيان زعيم المشركين فى معركة بدر وهذا يعتبر انتقامًا لمقتل كفار الأمويين كما يقول يزيد بن معاوية بن أبى سفيان.

---

1 - سلامة قاقيش - المرجع السابق ص82.

وما يثير الاشمئزاز تلك التصرفات المؤلمة التى قاموا بها بعد مقتل الإمام الحسين ﷺ. فبعد تلك الطعنات والضربات التى ألحقت به بعد مقتله حمل رأسه بعد فصله عن الجثة والتمثيل بجثته وانتزاع ملابسه عن جسده، وقد فصل هذا المشهد (تاريخ الطبرى) وابن الأثير وابن كثير. تقول تلك المراجع: وسلب الإمام الحسين ﷺ ما كان عليه، فأخذ سراويله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته - وكانت من خز، وكان يسمى بعد قيس قطيفة - وأخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بنى نهشل بن دارم، فوقع بعد ذلك إلى أهل حبيب بن بديل، ومال الناس على الورس والحلل والابل وانتهبوها، ومال الناس على نساء الإمام الحسين ﷺ وثقله ومتاعه، فإن كانت المرأة تنزع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها[1]. وبعد، فأكاد أسمعكم تقولون: إنك لم تحدثنا عن أجساد الشهداء الأبطال، أين استقرت ولا عن رأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين العظيم» أيان مصيره ومرساه. أما أجسادهم الكريمة، فقد استقرت تحت الثرى الدامى لأرض كربلاء لعلى أثر رحيل جيش ابن زياد، وخف إلى مكان المعركة نفر من بنى أسد، كانوا ينزلون بالقرب منها، فدفنوا جثمان البطل العظيم وعند قدميه دفنوا جثمان ابنه الحبيب «على الأكبر بن الحسين»، ومن حولهما دفنوا أجساد بقية الشهداء الممجدين وحيث وقع «العباس بن على» أخو «الإمام الحسين» شهيداً، دفنوا جثمانه الكريم. وأما رأس البطل، فقد راحت البقاع الإسلامية تتنافس ادعاء شرف إيوائه، فيدعى كل منها أن الرأس عندها يعطر أرضها، ويبارك حماها لكن لايعرف على وجه اليقين أين هو وذلك أمر يتسق مع حياة البطل ومصيره. فرأس الإمام الحسين ﷺ، بكل ما مثله من صمود وعظمة وتضحية لم يعد ملكًا للحسين، ولا ملكًا لجسده لم يعد ملكًا لأرض بل ولا لدين دون دين لقد صار ملكًا للبشرية الراشدة فى كل زمان ومكان صار ملكًا للحق، يرفعه فى أوديته العامرة والثائرة لواء وقدوة، ويملأ بسناه إرادة

---

1 - تاريخ الطبرى - ج5 ص453 وابن الأثير ج3 ص142.

الحيـاة عزمًا، وضميرها نوراً وكذلك صارت رؤوس أهله وصحبه مشـاعل فوق طريق الحق، والشرق، والإيمان[1].

ولا حاجـة بنا لتتبـع هذه الشناعات وسردها، وكلهـا تمت فى عهـد القائم بالدولة الأموية عند مقتل الإمام الحسين عليه السلام، وذلك خلال أقل من أربع سنوات، وبموت هذا الطاغية زالت السـفيانية إلى الأبد، فلم تقم لهـا قائمة فى أى بلد من بلاد الإسلام شرقا أو غربا حتى اليوم. وإن تعـجب هنا فعجب لدولة تستعمل كل وسائل الترغـيب والترهيب أربعين سنة لإقـامتها ثم توطيدها، ثم تـنهار بعد أربع سنوات بلا قيامة. فأما الدولة التى قامت بـعدها فدولة مروانية، ولم يكن شعورها إزاء الدولة السفيانية المولية شـعور رضاء أو ولاء، مهما يكن الرأى فى صواب الشعـور أو خطئه، وبره أو عـقوقه. يسـمى المؤرخون الدولة التى حكـمت العالم الإسلامى بعد الخلفاء الراشدين «الدولة الأموية» (40 ـ 132هـ) وهم على صواب ولكن ينبغى أن نفطن إلى أنهما دولتان لا واحدة، أولاهما الدولة السفيانية (40 ـ 64هـ) التى قتل الإمام الحسين عليه السلام فى نهاية حكمها، فانهارت بقتلها إياه، وتلتها الدولة المروانية، التى حكمت بعد قـتل سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الإمـام الحسين عليه السـلام. لقد كانت الدولة السـفيانيـة أشبه بالحـصن العملاق الذى جـهدت السياسـة بكل وسائلها فى ترسيخ أسسه، وتمكين أسـواره وأبراجه، وإعلاء ذراه، حتى ظن أهله أنه سيستمر أجيـالا بعد أجيال، وكان الإمام الحسين عليه السلام هو اللغم الذرى الذى تسـرب إلى أعمـاق هذا الحصن، فلم يجـد حمـاته الأذكياء وسـيلة يتخلصـون بها من هذا اللغم إلا أن يفـجروه وهو فى أعماق الحـصن لظنهم أنهم يخلصون منه بدلا من أن يبطلوا آثاره أو ينحوه عنه فلما انفجر تهافت الحصن وكل من فيه فذهب كـما ذهبوا هباء. ولكن الإمام الحسـين عليه السلام بقى فى قلوب المسلمين وفى لسـان كل من يقول فـى صلاته «اللهم صلِّ على مـحمـد وعلى آل محمد . . .».

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص149.

فالثورة عندما قامت استمدت عزمها من روحية الشريعة وكانت تهدف إلى إعادة بث هذه الروحية فى نفس كل مسلم، ولو كان التصور يقف عند حدود إزالة الأمويين، لما عنى سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام نفسه بهذه الثورة، لكنه عليه السلام كان عارفا بأنه خاسر معركة ليكسب الإسلام الحرب، الحرب على الظلم عامة، والانتصار على مسببات ضعف العقيدة، وأكبر دليل على ذلك أنه كان بإمكانه عليه السلام أن يلجأ إلى نفس الأساليب التى لجأ إليها خصمه يزيد، فيشترى الأنصار ويبذل المال لشراء الضمائر، نعم، كان الإمام الحسين عليه السلام قادرا على فعل ذلك، إلا أنه لم يرض بهذا الأسلوب الوقتى النفعى، وهذا ما أعلنه فى خطابه للذين بايعوه، كى تظل ثورته صافية، لايتهم بأنه استأجر لها أنصارا ولأفكاره مؤيدين، إضافة لكونه عليه السلام كان عارفا بأن ثورته فى حساب الخسارة والربح، لابد خاسرة لكنه كان يستقرئ المستقبل لربح أعظم يتعلق بدوام صفاء العقيدة، وإلا لكان بإمكانه الاعتصام فى شعاب الحجاز وقيادة ثورته من ركن قصى آمن، موفرا نفسه وأنفس أهل بيته، وخلص أصحابه، ولكن كذلك لم يكن كافيا لإقناعه عليه السلام ونقول إقناعه ونحن على فهم تام بأن عدم قناعته كانت تستند إلى وحى إلهى لإتمام المسيرة التى لابد منها لخير الأمة. لقد قتلوا كل رجاله، وكل فتيان بيته وولدانهم، فلما لم يبق فى المقاتلة إلا هو لم يهن، وقد أحاطته كل أسباب الوهن من داخل معسكره ومن أعدائه، وكلها تطبق عليه وترهق نفسه وجسمه المثقلين بالغصص والجراح كأشد ما تكون الأزمات، وظل يقاتل وحده والدماء تنزف منه، حتى خر صريعا، إذ لم يبق له النزيف أدنى قوة تقيمه على رجليه، أو تمكنه من القبض على سلاحه، أو التحرك من مكانه، فقد وجدت فى جسمه عشرات من ضربات السيوف والحجارة وعشرات طعنات الرماح والسهام، حتى قيل إنها زادت على مئة[1].

وما العذر بعد ذلك ـ وقد مات ـ فى أن يجتزوا رأسه ثم تدوسها سنابك الخيل ذهابا وإيابا حتى يحطموا عظامه، وينزعوا عنه ملابسه بعد أن مزقتها

1 ـ سلامة قاقيش ـ المرجع السابق ص106.

عشرات الضربات والطعنات ولطختها الدماء، وامتزجت بالتراب، فلم يتركوا عليه إلا مايستر عورته وهو سراويلات مزقها قبل أن يتأزر بها صبيحة يومه الأخير، لكي يتركوها تستر عورته وكان قد تفرس فى عنفهم وخستهم أنهم لن يزهدوا فيها ما لم تكن زهيدة بحيث لاتصلح لشيء وأيقن من أنهم لابد أن يمثلوا بجثته. ثم ما العذر فى نهب ما على النساء من الثياب والحلى فى هذه الحالة النكراء، ولو أن ماعندهم أضعاف مايمكن جمعه مئات المرات لما نفعت كثيرا بين أربعة آلاف من طلاب المغانم الأمويين. وما العذر فى إمرار النساء والصغار من أهل بيته وغيرهم على جثته المنبوذة على التراب شبه عارية، ومن حولها جثث أصحابه من أقارب بعض هؤلاء النساء والصبيان؟ وما العذر بعد ذلك فى تعليق رأسه على طرف رمح، ليطاف به فى البلدان من كربلاء، إلى الكوفة، حتى دمشق، وهل هناك شبه بينه وبين صلب السيد المسيح عليه السلام فى الشام، ثم ما شاءوا من بلاد المسلمين كأن الناس فى حاجة إلى ما يسرهم شماتة بالحسين، أو يردعهم فيحملهم على الطاعة ولو مكرهين. لم يرتكب سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين جرما يستحق عليه شيئا من السوء الذى أنزلوه به، وكان له إلى جانب ذلك شفاعات كثيرة توجب عذره لو احتاج إلى عذر، وماهو فى حاجة إلى ذلك. أظهر شفاعات الحسين وأيسرها فهما وألصقها بالقلوب يومئذ أنه حفيد محمد الذى هم بنبوته مؤمنون، وهذه شفاعة فوق الكفاية لو كان فى قلوبهم العفنة بقية من كرم أو حياء، فإن الحسين وأخاه الحسن ـ كما يعلم هؤلاء المتواطئون عليه ـ كانا مهجة قلب رسول الله محمد ﷺ، وغاية ما هفت إليه نفسه الكريمة من الأبناء بعد أن يئس فى كبره من الذرية، وكانا طفليه الأثيرين اللذين رباهما فى حجره ولم يكن يطيق فى رحمته الأبوية التى شملت كل البشر أن يسمع من أيهما شكوى أو صيحة بكاء مع علمه أكثر من غيره أن الأطفال سراع إلى الشكوى والبكاء! ومحمد هذا ـ جد الحسين ـ هو الذى جاء بالإسلام الذى يدين به هؤلاء الخصوم كما يدين به الملايين من أتباع هذه الدولة التى تحكم باسم الإسلام، ومع ذلك قتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بسلطانها جهارا، وقد جاء رسول الله

محمد ﷺ بالإسلام رحمة للعالمين، وأول من نال رحمته هم هؤلاء العرب من حاكمين ومحكومين، وبينهم من قتل الإمام الحسين ومثل به وطاف برأسه[1].

ورسول الله محمد ﷺ هذا - كما يعلمون - هو الذى جاء قومه وهم همل متفرقون يختصمون ويقتتلون، فوحد بينهم بدينه وعظمة شخصيته وكرم أخلاقه ونبل سياسته ففتح لهم بذلك سبل الطمأنينة والرغد والعزة ومكن لهم من السيادة والسلطان ليقودوا الأمم فى طريق الله رب العالمين. ورسول الله محمد ﷺ هذا - كما يعلم الخصوم وغيرهم يومئذ من الحاكمين والمحكومين - لم يكن قد انقضى على غيابه عن أعينهم إلا خمسون سنة، لم تكن تكفى بنيهم لنسيان فضله عليهم وعلى البشر جميعا، لترديدهم دائما سيرته، وتعبدهم ليل نهار بالقرآن الذى جاء به. كل هذا بل بعضه كان شفيعا كافيا للحسين لو كان للشفاعة موضع فى هذه القلوب الغلف، والآذان الصم والأعين العمى، ولكن هذه الشفاعات لم تغن الإمام الحسين عليه السلام شيئا عند الدولة وأعوانها، لأن الدولة نفسها مخلوق ولد مسخا شائها يحمل فى بنيته المتضخمة بأورامها ما يكفى من الآفات للقضاء العاجل عليه، فهو لم يأت ليعمر، ولا قدرة لأبرع الحكماء أن يمده بسبب من أسباب البقاء، فلا تغفل عنه الرعاية المكثفة حتى يختلج ويتخبط كى يسلم أنفاسه الأخيرة، وقد لايثير سقوطه من الإشفاق بقدر ما يثير من الدهشة للمفارقة بين ضخامة بنيانه وتهافته السريع فجأة، وصدقت الآية ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ][2].

يعتبر سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام من الرجال القلائل الذين يذكرهم التاريخ بالشجاعة والإقدام والبأس، فلم تكن هذه القضية التى قدم نفسه ثمنا لها قضية شخصية، ولا لهوا فى نفسه إنما هى دفاع عن حق رأى من واجبه أن يدافع عنه لو كلفه حياته. كان يقول قبل أن يقتل وهو يقاتل على رجليه

1 - سلامة قاقيش - نفس المرجع ص108.
2 - سلامة قاقيش - نفس المرجع ص109.

قتال الفرسان الشجعان لايهاب المنية يتقى المنية ويفترض العورة - بتعبير الطبرى - ويشد على الخيل، وهو يقول: «أعلى قتلى تحاثون أما والله لاتقتلون بعدى عبدا من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله، منى، وأيم الله إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم، ثم ينتقم لى منكم من حيث لاتشعرون. أما والله أن لو قد قتلتمونى لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لايرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم». والإمام الحسين هو الذى دعا الناس إلى المبارزة، فلم يزل يقتل كل من برز إليه حتى قتل مقتلة عظيمة، وهو الذى حين سقط عن فرسه إلى الأرض وقد أثخن بالجراح، قاتل راجلا قتال الفارس الشجاع، يتقى الرمية ويفترض العورة، ويشد على الشجعان، وهو يقول: «أعلىّ تجتمعون» وهو الذى جبن الشجعان وأخافهم وهو بين الموت والحياة حين بدر خولى ليحتز رأسه، فضعف وأرعد، وفى ذلك قيل:

عفيراً متى عاينته الكماة يختطف الرعب ألوانها

فما أجلت الحرب عن مثله قتيلا يجبن شجعانها

وهو الذى صبر على طعن الرماح، وضرب السيوف، ورمى السهام حتى صارت السهام فى درعه كالشوك فى جلد القنفد، وحتى وجد فى ثيابه مائة وعشرون رمية بسهم، وفى جسده ثلاث وثلاثون طعنة برمح، وأربع وثلاثون ضربة بسيف[1]. وكان استشهاد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين فى كربلاء أسوة لكل القوى المناضلة ضد الظلم بشتى أصنافه، فلم تمر إلا مدة قصيرة حتى اندلعت ثورات إسلامية متعددة ضد النظام الأموى نذكر منها على سبيل المثال الثورة التى تزعمها نجدة بن عامر الحنفى باليمامة، وثورة سكان المدينة عام 63هـ، ثم انتفاضة أهل الكوفة، وغيرها من الحركات المناهضة التى اتخذت من كربلاء قدوة، ونموذجاً[2].

---

1 - توفيق أبو علم - المرجع السابق ص450.

2 - د. الحبيب الجنحانى - المرجع السابق ص176.

إن من السذاجة أن نقدم هذه الأحداث الخطيرة التى عرفها مجتمع صدر الإسلام باعتبارها صراعًا على السلطة، أو عودة صراع قديم بين بنى هاشم وبنى أمية، إن القضية ـ فى نظرنا ـ أعمق من ذلك بكثير، وماتشير إليه النصوص القديمة أحيانًا من مظاهر التحالف القبلى، وغيرها من القضايا هو فى رأينا يمثل عوامل ثانوية جدًا أمام الاختلاف الجذرى بين اتجاهين رئيسيين بدأت تتبلور مميزاتهما منذ خلافة عثمان. وإننا نجد اتجاهين ضمن التيار المعارض لسياسة التحول السياسى والاقتصادى الاجتماعى التى برزت ملامحها فى النصف الثانى من خلافة عثمان رحمة الله عليه، ودعمت أركانها أيام معاوية: اتجاهًا معارضًا، ولكن معارضته سلبية، ويمثله أولئك الذين اعتزلوا المشاركة فى الشؤون العامة للأمة، أما الاتجاه الثانى، وهو مايمكن أن نطلق عليه بلغة اليوم «الاتجاه الثورى» فهو الذى شهر السلاح، مدافعًا عن مبادئ الإسلام، ولاسيما مبدأ رفض الظلم السياسى والحيف الاجتماعى، وهو الاتجاه الذى تزعمه الإمام على عليه السلام، ثم ابنه الحسين عليه السلام فيما بعد، فقد كان الإمام على عليه السلام أمير المستحقين المحرومين، وكان الإمام الحسين ﷺ سيد الشهداء فى الدفاع عن العدل السياسى والاجتماعى فى مجتمع صدر الإسلام. وإننا لاننكر الفرق بين مفهوم العدل الاجتماعى فى عصر الإمام الحسين ﷺ، ومفهوم «العدالة الاجتماعية» اليوم، فالظروف التاريخية اليوم مختلفة أشد الاختلاف عما كانت عليه قبل أربعة عشر قرنًا، ولكننا نختلف مع من ينظر إلى هذا الاتجاه نظرة تاريخية ماضوية بحتة، لأننا نؤمن عميق الإيمان بضرورة الاستفادة من هذا الرصيد الثمين فى تراثنا الإسلامى للنضال فى سبيل إرساء أسس المجتمع الإسلامى الجديد القائم على مبادئ المساواة، والعدالة الاجتماعية والحرية والديمقراطية، إننا نؤمن بتوظيف التراث حسب منهجية جديدة، وفى سبيل رؤية عصرية متكاملة للمجتمع الإسلامى البديل.

إن مفهوم الدولة، وأساليب تسيير شؤون الأمة قد تطورت تطوراً كبيراً منذ عصر مجتمع صدر الإسلام إلى اليوم، ولكن القيم التي دافع عنها أنصار التيار المعارض لمظاهر التحول بقيت حية، متجددة إلى يومنا هذا، وستستمر خالدة خلود نضال الإنسان ضد جميع أنواع الظلم السياسي، والحيف الاجتماعي. تنطلق الاستفادة من هذه التجربة من التعمق في دراسة تاريخ المجتمع الإسلامي بجميع مظاهره، وفي شتى عصوره دراسة علمية، نقدية، متعمقة، ومستفيدة، من أحدث ما بلغته المنهجية المعاصرة في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وبعيدة كل البعد عن مظاهر التعصب والانغلاق، أو الانسياق وراء العاطفة الجامحة، وإصدار الأحكام المسبقة. إن مثل هذه الدراسة هي التي ستسمح لنا بفهم التركيبة السياسية والدينية والاجتماعية المعقدة لمجتمع صدر الإسلام من جهة، والتناقضات الكبرى التي عاشها المجتمع الإسلامي بين النظرية والتطبيق في كثير من مراحله من جهة أخرى، ونعني بالتناقضات بين النظرية والتطبيق تلك التناقضات بين أصول إسلامية واضحة وبين عالم الفعل، ولا سيما حول قضايا أساسية ومصيرية، مثل قضية أسلوب الحكم، وقضية الحرية، وقضية العدل الاجتماعي، وغيرها من القضايا[1].

ولو كانت حركة الإمام الحسين ﷺ في شهره الأخير تختص بقضية تعنيه أو تعني بيته وأنصاره معه فحسب لانتهت كل القضية بانتهاء حركتهم مدحورين مخذولين في كربلاء ولعفى عليها الزمن كما عفى على كثير من القضايا والحركات الخاصة بأهلها، ولكن القضية التي دفعت الإمام الحسين ﷺ ومعه أنصاره إلى حركته الأخيرة، ليدافع عنها، ويستشهد وإياهم غيرة عليها، لم تكن قضية فرد ولا أسرة ولا حزب في طلب الملك وتسخير الناس لخدمته بكل وسيلة، ولكنها كانت قضية قيم إنسانية تعني الناس جميعا بحكم إنسانيتهم كما تخدم مصالحهم جميعا، أو هكذا ينبغي أن تعنيهم وتكون مناط عطفهم وتقديرهم وإعجابهم، بحكم أنهم ناس، لا لأنهم أتباع ملة أو نحلة، أو لأنهم فريق خاص بأموره، فإذا

1 ـ د. الحبيب الجنحاني ـ نفس المرجع ص177.

أهمل الناس هذه القيم الإنسانية، أو ساوموا فيها ضاعوا وأضاعوا، وسقطوا فى الهالكين، لأنهم ليسوا أهلا لأى حياة حرة كريمة لا فى حاضر ولا فى مستقبل. فلولا أن سبط النبى محمد ﷺ كان ضنينا بمبدأ، ولو لم تكن له عقلية متطورة موحى لها، لما استطاع أن يفلت من رقة الأطماع التى كانت بمثابة دين ثان فى ذلك العهد، ولما ارتفع بنبل قل نظيره فوق الدوامة التى لفت الجميع، فإن أولئك المتزلفين ليزيد كانوا على خطى من سبقهم فى التزلف لوالده معاوية. والسيرة العطرة لحياة سيد شباب أهل الجنة، واستشهاده الذى لم يسجل التاريخ شبيها له، كان عنوانا صريحا لقيمة الثبات على المبدأ وعظمة المثالية فى أخذ العقيدة وتمثلها، فغدا حبه كشائر واجبا علينا كبشر، وحبه كشهيد جزءا من نفثات ضمائرنا، فقد كان عليه السلام شعلة الإسلام التى أضاءت ممثلة ضمير الأديان إلى أبد الدهور، وكان درعا حمى العقيدة من أذى منتهكيها، وذب عنها خطر الاضمحلال، وكان انطاؤه فوق أرض كربلاء مرحلة أولى لاشتعال أبدى، كمثل التوهج من الانطفاء، والحياة فى موت[1].

كان ﷺ لو شاء لأصبح بانحناءة رأس بسيطة، أميرا مطلقا على ولاية، أو يقنع بزعامة شيعة أبيه عليه السلام بينما تنتهك حرمات الدين على يد الخليفة أو أمير مؤمنين مزيف. لكنه لم يؤثر السلامة، ولم يرن إلى تطلعات أرضية، فقد كان هدفه أعظم، ورسالته أعمق غورا وأبعد فهما لعقلية الإنسان آنذاك. كان يريد أن يقول: مادامت السنة قد نزلت، ومادام الإسلام وليدا يحبو، فما على المسلم إلا أن يكون حفيظ سنته، وراعى عقيدته، لا من أجله فحسب، بل من أجل كل من سيولد فى الأحقاب التالية على هذه السنة، فجاءت صيحته نبراسا لبنى الإنسان فى كل عصر ومصر، وتحت أية عقيدة انضوى، إذ أن أهداف الأديان هى المحبة والتمسك بالفضائل، لتنظيم علاقة الفرد بربه أولا، وبأخيه ثانيا. فلعمرى أية ثورة تقوم على الحقّ الصراح الخالى من أغراض الهوى، ولاتجد لها سبيلا إلى

---

1 ـ سلامة قاقيش ـ المرجع السابق ص11.

المنهج والحنايا؟ ألـم تكن دعـوة الإمام الحـسين ﷺ دعـوة للتـفـريق بين الحق والباطل؟ أما قيل إعـجابا بهذه الثورة: «إن الإسلام بدؤه محمـد وبقاؤه حسينى»؟ ولعل خـير من وصف هـذه الثورة كـان «ماربـين» الألمانى فى كتـابه «السـياسـة الإسلامية» إذ قال: «إن حركة الحسـين فى خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير عـز عليه الإذعان وعز عليه النصر العاجـل، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به النصر الآجل بعد موته، ويحيى به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة»[1].

يتضح من هذا الفهم أن قضـية السنة الإسلامية كانت قضيـة مخذولة عندما قام الإمام الحسين ﷺ بثورته، وما كـان له محيص من السيـر بها بالشكل الذى بدت به، غير ضـان بنفسه وبأنفس أهل بيتـه وصحبه الأطهار، لعلمـه الأكيد بأن ثورته وإن كانت ضعيفة بتركيبتها المادية، إلا أن لها صلابة الصخر والمبدأ بتركيبتها الروحيـة والرمزية، وأنه بالغ بها النصـر والاستمرار للعـقيدة، ما لم يكن ليـبلغه بإيثار السلامة من مذبحة كربلاء. والإمام الحسين ﷺ عندما ثار لم يثر لأجل نيل كرسى الحكم إذ لـم تكن منطلقاه من قـاعدة فردية أو زمنيـة، بل كانت أهدافـها تتعداه إلى الأحقاب والأجيال القادمة، التـى ستعرف كيف كان شكل الفداء دفاعا عن عقيدة سلمت لهـا متلألئة. وإنها عقيدة الشهـداء البررة التى لاتنخدع بسراب المطامع الدنيـوية، ولاترضى بمبـدأ المساومـة فى ميـدان العقـيدة. ورفض الخـداع والمساومة، مـقرون دومًا بالاستعـداد لبذل الحياة وإطفاء شـعلة النفس إذا كان فى إطفائها مـاينير شمعـة تهدى السائرين على طرق الحق والعدل. وهذا المبـدأ المنبثق عن هكذا عقيدة من الصعب إدراك معانيه فى أوانه سيما إذا كانت الموازين آنذاك، هى الموازين التى نصبها حكام ظالمون لأمة تدجنت روحهـا، وذبلت عقيدتها، فما عادت تفـرق بين الخطأ والصواب. وعلى هذا المقيـاس الذى لايرفعه إلا الصـفوة المختارة من الصالحين. أصاب الإمام الحسين ﷺ بثورته فى المدى البعيد، وأخفق

---

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص112 وانظر السياسة الإسلامية ـ لماربين ص213.

فى المدى القريب، طلب إحقاق الحق فى وقته، فلم يصل إليه، لكن أمة الإسلام أدركته بمماته، ولم يقف الأمر عندها على مستوى إدراكه فحسب، بل صار جزءا من وجدانها العقائدى، وضميرا يستصرخها ويستحثها فى كل مواقف الضعف، وحيال مختلف أشكال التدجين والظلم والانحراف عن السنة[1].

تشتعل الثورة عارمة فى مكة، وفى المدينة حيث يجرد لها ـ يزيد ـ من جنده وقواده من ينزلون بالحرمين المقدسين من الدمار والقتل والإفك ما يخجل الشيطان من اقترافه. ولكن الجذوة المباركة لاتخبو، حتى يموت بحسرته يزيد، ويخلفه ابنه «معاوية الثانى» وهنا يوجه القدر الحكيم أذكى ضرباته، فيقف ابن يزيد نفسه ليحمل شعلة الإمام الحسين عليه السلام، ويزيد الجذوة إضرامًا، حين يجمع الناس ليوم مشهود، ثم يعلن فيهم ـ كما أسلفنا من قبل ـ أن جده وأباه اغتصبا الحق من أهله، وأنه يبرأ إلى الله مما جنت أيديهما وأنه يربأ بنفسه ويتقواه عن أن يجلس على العرش الملوث بالجريمة. ثم يعلن عليه اعتزاله منصبه ويعتكف فى بيته حتى يأتيه الموت، فليقى الله تقيًا، نقيًا، سعيدا[2].

قال أبو جعفر الحسين شارحًا الأسباب التى أوجبت محبة الناس لعلى: «فمعلوم أن عليا عليه السلام كان مستحقًا محرومًا، بل هو أمير المستحقين المحرومين، وسيدهم وكبيرهم، ومعلوم أن الذين ينالهم الضيم، وتلحقهم المذلة والهضيمة، يتعصب بعضهم لبعض، ويكونون إلبًا ويداً واحدة على المرزوقين الذين ظفروا بالدنيا، ونالوا مآربهم منها، لاشتراكهم فى الأمر الذى آلمهم وساءهم، وعضهم ومضهم، واشتراكهم فى الأنفة والحمية والغضب والمنافسة لمن علا عليهم، وقهرهم، وبلغ من الدنيا ما لم يبلغوه، فإذا كان هؤلاء ـ أعنى المحرومين ـ متساوين فى المنزلة والمرتبة، وتعصب بعضهم لبعض، فما ظنك بما إذا كان منهم رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف، جامع للفضائل محتو على

---

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص113 وانظر: الحسين فى الفكر المسيحى ـ انطون بارا.
2 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص139.

الخصائص والمناقب، وهو مع ذلك محروم محدود، وقد جرعته الدنيا علاقمها، وعلته علًلا بعد أن نهل من صابها وصبرها، ولقى منها برحًا بارحًا، وجهداً جهيداً، وعلا عليه من هو دونه، وحكم فيه وفى بنيه وأهله ورهطه من لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان فى حسابه، ولا دائراً فى خلده، ولا خاطراً بباله، ولا كان أحد من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له ثم كان فى آخر الأمر أن قتل هذا الرجل الجليل فى محرابه، وقتل بنوه بعده، وسبى حريمه ونساؤه، وتتبع أهله وبنو عمه بالقتل والطرد والتشريد والسجون، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم، وانتفاع الخلق بهم، فهل يمكن ألا يتعصب البشر كلهم مع هذا الشخص! وهل تستطيع القلوب ألا تحبه وتهواه، وتذوب فيه وتفنى فى عشقه، انتصاراً له، وحمية من أجله، وأنفة مما ناله، وامتعاضًا مما جرى عليه، وهذا أمر مركوز فى الطبائع، ومخلوق فى الغرائز»[1].

بعد استشهاد ثلة من أبناء الرسول محمد ﷺ وصفوة المؤمنين والأصحاب، فلتكن هذه البقية شهادة شاهد من أهلها. وهذا الشاهد هو: «معاوية بن يزيد» ثالث خلفاء بنى أمية فقبل أن يموت ـ يزيد ـ فى العام الرابع والستين للهجرة، خلع الخلافة أو بتعبير أصح خلع الملك على أكبر أبنائه ـ معاوية ـ الذى عرف باسم «معاوية الثانى»: وكان «معاوية» هذا، شابًا تقيًا، ورعًا، عابداً وسبحان من يخرج الحى من الميت، والهدى من الضلال وعلى الرغم من أنه تسلم الملك شابًا لم يجاوز الخامسة والعشرين، فإن تقوى روحه، كانت أقوى من إغراء شبابه، فلم يلبث فى منصبه إلا بضعة أشهر حتى ضاق به، ودعا المسلمين إلى مؤتمر مشهود، ونهض يخطب الجمع الحاشد فقال: «أيها الناس إن جدى معاوية، نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله وسابقته فى الإسلام، وهو: على بن أبى طالب ولقد ركب بكم ماتعلمون حتى أتته منيته، فصار فى قبره رهين أعماله. ثم تقلد أبى ـ يزيد ـ الأمر من بعده، فكان غير أهل له وركب هواه،

---

1 ـ ابن أبى الحديد ـ ج10 ص224.

وأخلفه الأمل، وقصر به الأجل، ثم صار فى قبره رهين ذنبه، وأسير جرمه وإن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله، وأباح الحرم، وخرب الكعبة. وما أنا بالمتقلد أمركم، ولا بالمتحمل تبعاتكم فاختاروا لأنفسكم والله، لئن كانت الدنيا خيراً فلقد نلنا منها حظًا. ولئن كانت شراً؛ فكفى ذرية أبى سفيان ما أصابوا. ألا فليصل بالناس حسان بن مالك، وشاوروا فى خلافتكم، يرحمكم الله» ثم غادر منبره إلى داره، ولبث بها عاكفًا على عبادة الله، حتى لقيه راضيًا مرضيًا. إن هذه الكلمات التى قالها «معاوية الثانى» ابن - يزيد - وحفيد - معاوية بن أبى سفيان - لتشكل برهانا باهراً على عدالة القضية التى هى فى غنى عن كل برهان. وهذا الشاب الصالح الذى أثقلت ضميره الحر أوزار آبائه، قدم بوقفه ذاك.. أو بالأحرى قدم القدر به وبموقفه، وثيقة الإدانة كاملة وصادقة لأولئك الذين وقفوا من الإمام، ومن أبنائه، ومن القضية التى حملوا مشعلها، مواقف الكيد والعداء. وإننا اليوم، وبعد مضى مايقرب من أربعة عشر قرنًا على ذلك الصراع، لنجد حرارة الصدق ووضوح الحق فى موقف «الإمام على» من «معاوية» ثم فى موقف «الإمام الحسين ﷺ» من يزيد إننا نتصور عصر النبوة، كما كان فى عهد منشئه وبانيه «محمد رسول الله ﷺ». ثم نتصور كما كان فى عهد خليفتيه النادرين الباهرين «أبى بكر، وعمر». فنرى جلالا يسحر القلوب والألباب.!! ويأخذنا الأسى ونحن نرى بعض الغواشى تغشى ذلك الجلال فى عهد «عثمان» لابسبب قصور فى صلاحه وتقواه، بل بسبب ذلك النفر من الأمويين الذين أساءوا استغلال سلطانهم وكذلك بسبب عوامل تاريخية كان لها دورها المسؤول[1].

وسواء كان يزيد المسؤول أو واليه المخلص والأداة المنفذة، فإن النظام هو الذى حمل عمليًا وزر التصرف الارتجالى الذى عولجت به هذه الحركة. كما أثبت رأسه - أى يزيد بن معاوية بن أبى سفيان - فشله الذريع فى قيادة مصير المسلمين

---

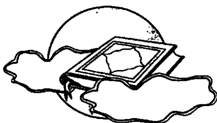
1 - خالد محمد خالد - المرجع السابق ص37.

وشؤون الدولة، وسقط عند أول امتحان لقدراته المتواضعة فى السياسة. وكانت محاولة الإمام الحسين ﷺ، أول انتفاضة على مستوى الثورة والتغيير، ضد حكم الأقلية التى استأثرت بالحكم وحولتها إلى ملك وراثى، متجاهلة الأكثرية المجبرة على الصمت والمكرهة على تقبل الواقع. فالحسين، وهو الممثل الطبيعى للاتجاه الإسلامى - الإصلاحى، كان صوت الجماهير المفجوعة بآمالها ومواقعها التى اكتسبتها فى دولتى الرسول وعمر وحاولت استردادها فى عهد الإمام علىّ ﷺ، تلك التى التزمت بأفكاره، وتابعت نضالها من بعده فى أجواء القهر والملاحقة. ومن هذا المنظور فإن تقويم هذه الحركة، يتجاوز البعد الكوفى الضيق، أو الشخصى الأضيق، كونها مجرد تسجيل لموقف خاص من الخليفة، إلى أن تصبح ثورة على النظام القائم وعلى مبدأ الوراثة فى السلطة، وعلى واقع يسوده الظلم وتتآكله العصبيات المختلفة. لقد شحنت ثورة الإمام الحسين ﷺ الفكر السياسى فى الإسلام، بمادة جديدة من التحدى الصعب والانتصار على الذات والتضحية من أجل المبدأ، فكانت حدثًا غير عادى فى التاريخ العربى الإسلامى، حين اجتاحت فى أعقابها دولة الأمويين عاصفة ثورية عارمة، كان من نتائجها القريبة إسقاط الحكم السفيانى، دون أن ينجو منها الحكم المروانى على المدى الأبعد. ويصبح الموقف السياسى العام مباشرة بعد «كربلاء» على النحو التالى: فى الحجاز عصيان مسلح فى المدينة وإعلان ابن الزبير دولته فى مكة. وفى العراق تطورات مذهلة، انعكست خاصة على الحركة الشيعية التى اشتدت عليها وطأ الملاحقة، كما أثقلتها عقدة الذنب والتقصير، مما أدى إلى إفراز حركة التوابين الانتحارية، وحركة المختار الثقفى ومعها أول سلطة شيعية منذ تنازل الإمام الحسن ﷺ. أما فى الشام، فقد تراكمت كل سلبيات الانهيار السياسى هذا الذى تعاظم بعد وفاة يزيد الفجائية، مما أوقع الأسرة الحاكمة فى الفراغ والانقسام[1].

---

1 - د. إبراهيم بيضون - نفس المرجع - ص189.

الفصل التاسع



الثورات ضد النظام الأموى

- فكر الخوارج.
- مذهب الخوارج.
- ثورات الخوارج على الأمويين.
- الثورات فى الولايات الأموية.
- ثورات الحجاز.
- التوابون وعقدة الشعور بالذنب.
- نهاية عبد الله بن الزبير.
- أمر العصبية القبلية.
- تمرد عبد الرحمن بن الأشعث.
- ثورة العبيد.
- ثورة الترك.
- حرب العصبيات فى إسبانيا.
- ثورات المغرب العربى.

فكر الخوارج

اصطلح إطلاق لفظة الخوارج على تلك الجماعة التى شايعت الإمام على عليه السلام فى نزاعه مع معاوية ثم خرجت عليه إبان حادثة التحكيم. ويرجع ظهور الخوارج إلى أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، وإن الفهم الموضوعى لعصر الدولة الإسلامية الأولى والثانية يضع العامل الدينى فى الاعتبار، فظهور الخوارج مرتبط بمسائل السياسة والحكم إضافة إلى التطور الاقتصادى والاجتماعى الذى عم الدولة الإسلامية بعد الفتوحات وكان ذلك يجرى فى إطار دينى إسلامي. وقد يكون ظهور الخوارج يعبر عن رغبة القبائل اليمنية وهى الغالبية العظمى والكبيرة من القبائل العربية إضافة إلى قوتها فى المعارك حيث كانوا يشكلون أغلبية القبائل وأقواها فى صفوف الإمام على عليه السلام وكذلك فى صفوف خصمه معاوية بن أبى سفيان، ولذلك رأت القبائل اليمنية من الخوارج إقصاء قريش عن التشبث بالخلافة والاستئثار بالحكم. فالخوارج من هذه الزاوية حزب سياسى ولهذا أرادوا التخلص من الإمام على عليه السلام ومعاوية بن أبى سفيان باعتبارهما من قريش.

ووجود العامل الاقتصادى ـ الاجتماعى فى ظهور الخوارج، هو انتفاضة لعرب البادية الذين استوطنوا الكوفة والبصرة بعد الفتوح الأولى، فهؤلاء وخاصة من كان منهم من قبيلة تميم كانوا قبل الإسلام يعيشون فى فقر مدقع كما كانوا من القبائل الدنيا أو الوضيعة والطبقة المهمشة الأخيرة، ولم تتحسن أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية كثيراً فى ظل الإسلام بينما كانت القبائل الأخرى من قريش واليمن تنعم بالثراء مترفل فى الترف فامتلأت قلوبهم حقداً وغيظاً وزاد فى ثورتهم تمسكهم الشديد بالتعصب القبلى والولاء للقبيلة ومن هذا المنطلق انضموا إلى القبائل اليمنية الكبيرة والقوية المعارضة لحكم قريش، ومن هنا كان ظهور الخوارج مرتبطاً بتطورات اقتصادية واجتماعية عميقة غيرت بنية المجتمع الإسلامى على أثر حركة الفتوح الإسلامية الكبرى، فبرزت قوى اجتماعية جديدة ذات

مصالح متعارضة وتبلور الصراع بين هذه القوى حول مسألة سياسية دينية هى قضية الخلافة، فكان الدين والدولة إذ ذاك شيء واحد والجماعة السياسية انبثقت من الجماعة الدينية وبالتالى يعتبر الخوارج والشيعة من أولى الأحزاب السياسية الدينية وإن التاريخ الإسلامى حتى العصر الأموى اتخذ شكل حركات سياسية دينية[1].

تبلور الصراع الاجتماعى فى خلافة عثمان حول مسألة الإمامة أو الخلافة، فقد نجمت بعد وفاة رسول الله محمد ﷺ مشكلات لا ننكر أن الثغرات القبلية والأطماع الشخصية كانت تغذيها لكنها بوجه عام اتخذت طابعًا دينيًا واضحًا. فقد أخذ المسلمون يتلمسون فى القرآن والسنة مخرجًا فكثر الجدل والتأويل وتعددت الآراء وتشعبت وزعم كل طرف أو وجهة نظره هى الحق ونجم عن ذلك ظهور الفرق الإسلامية التى عبرت عن تناقضاتها فى صورة خلاف اجتهادى «فى مسائل دينية ظنية» وما لبث هذا الخلاف أن تحول إلى صراع دموى عبر عنه الشهرستانى بقوله: وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة». وتأسيا على ذلك نرى أن ظهور الخوارج مرتبط بمشكلة الإمامة والاجتهاد حولها ومما يؤخذ على الخوارج تشددهم وتطرفهم فى معتقداتهم ومن هنا كل متطرف فى الإسلام يسمى بالخوارج مجازًا.

ظل عرب العاربة من البربر فى العصر الأموى بمعزل عن السياسة العامة، ومن هنا نؤكد المسؤولية فى الشرق عما جرى فى بلاد المغرب من تمايز عنصرى قائم على أوضاع طبقية، وقد نختلف فى هذا الصدد مع بعض الدارسين المحدثين الذين يبرئون الحكام من مسؤولية المساوئ التى استشرت فى المغرب آنذاك ويلقون بتبعتها على الولاة وحدهم، وكتب التراجم والطبقات لاتقدم سجلا للولاة العمال وسياساتهم فحسب، بل تقدم صورة واضحة صادقة عن حياة المجتمع بعناصره وطبقاته، بفقهائه وعلمائه، بصناعه وزراعه ورعاته وتجاره، إلى غير ذلك من المعلومات التى تصور حياة الشعب وتسجل تاريخه غير المكتوب، لذلك فقيمة تلك

1 ـ د. محمود: إسماعيل ـ المرجع السابق ص37.

الكتب جد هامة فى الإفادة من مادتها للكشف عن زيف التاريخ الرسمى المكتوب. ومن أهم هذه الكتب «رياض النفوس» للمالكى و«طبقات علماء افريقية» لأبى العرب تميم و «طبقات الإباضية» للدرجينى، و«معالم الإيمان» للدباغ ومن تلك المصادر جميعًا وغيرها نستقى مادتنا فى تفسير تاريخ الثورة الاجتماعية فى المغرب، ففى العقدين الأولى من القرن الثانى الهجرى نجح الدعاة الصفرية فى بث الدعوة بين قبائل المغرب الأقصى والأوسط من عرب العاربة البربر والبرانس على السواء، فضلا عن الأقليات العنصرية المضطهدة مثل الأفارقة وزنوج السودان. هذا فى الوقت الذى كان فيه دعاة الأباضية ينشرون مذهبهم بين قبائل المغرب الأدنى والأوسط. ولم يقدر لهم أن يحرزوا ما أحرزه الصفرية من نجاح إلا فى العقد الخامس من القرن الثانى الهجرى. ويخيل إلينا أن السبب فى ذلك يعزى إلى بعد بلاد المغربين الأوسط والأقصى عن مقر الولاية فى القيروان فضلا عن شقة البعد بينها وبين مصر التى كانت تنفذ منها جيوش الخلافة لدعم نفوذها فى المغرب. لذلك كان الصفرية سباقين إلى نشر مذهبم كما كانوا سباقين أيضا إلى المبادرة الثورية إذ اندلعت ثورتهم الكبرى عام 121هـ، تلك التى تزعمها ميسرة «سقاء القيروان»[1].

مذاهب الخوارج

كان الخوارج من أنصار «الإمام على بن أبى طالب»، وشهدوا معه معركتى «الجمل»، و«صفين»، ثم انشقوا عليه قبل التحكيم بينه وبين «معاوية»، فسموا الخوارج، لخروجهم على إمامهم، ولما بالغوا وتطرفوا فى عدائهم له، وعاثوا فى الأرض فسادًا؛ اضطر إلى مقاتلتهم فى معركة «النهروان». وكانوا فى مبدأ أمرهم فرقة واحدة، يدور خلافهم مع بقية الأمة حول الخلافة ومن أحق بها، ومجمل أمرهم أن الخلافة حق لمن يصلح لها من المسلمين، وتتوافر فيه شروطها من العلم والأمانة والشجاعة، وليس من الضرورى أن يكون عربيًا فضلا عن أن يكون

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص149.

قرشيًا. ولو أنهم حصروا خلافهم مع غيرهم فى جدا وحوار نظرى يقوم على مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل لم يكن فى الأمر شيء ولكن الخطر كل الخطر جاء من لجوئهم إلى العنف واستخدام السيف فى فرض آرائهم، وقد بدأ مع «الإمام على بن أبى طالب» مما جعل خصومهم يواجهون القوة بالقوة، وتكبدت الأمة الإسلامية عشرات الآلاف من الضحايا من أبنائها نتيجة هذه الخصومة العنيفة. وظل الخوارج فرقة واحدة، تتبنى أفكاراً ومبادئ واحدة حتى وفاة «يزيد بن معاوية» سنة (64هـ)، ثم بدأ الشقاق والخلاف يدب بينهم هم أنفسهم، فانقسموا فرقًا وأحزابًا، حتى وصل عددهم إلى ثلاثين فرقة، ثم تطور تفكيرهم بمرور الزمن، وبدءوا يخوضون فى قضايا تدخل فى صلب الدين، مثل مباحثهم فى مرتكب الكبيرة هل هو مؤمن أو كافر، وغير ذلك من القضايا، وأشهر فرق الخوارج التى ناصبت الدولة الأموية العداء وشنت عليها الحرب، وهى[1]:

1. **الأزارقة:** هم أتباع «نافع بن الأزرق»، أحد زعماء الخوارج الكبار، وهى تعد أشد فرق الخوارج تطرفًا فى أفكارها السياسية والدينية، فهى ترى الخروج على الخليفة الذى يخالفها فى آرائها وقتاله، وأتباعها يتبرءون ممن لا يوافقهم على ذلك، ويعدونهم من القاعدين، ويكفرون مرتكب الذنوب الكبيرة ويحكمون بخلوده فى النار، مخالفين فى ذلك صريح القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 48] ويبيحون دماء مخالفيهم فى الرأى

2. **النجدات:** وينسبون إلى «نجدة بن عامر»، وهم أقل تطرفًا من «الأزارقة»، لأنهم لا يقولون بكفر مرتكب الكبائر.

3. **البيهسية:** وينسبون إلى زعيمهم «بيهس»، وهم أقل تطرفًا من «الأزارقة»، ويرون أن مخالفيهم فى الرأى منافقون، تجرى عليهم أحكام المنافقين، لكنهم يجيزون حوارهم، والتزاوج معهم، وميراثهم.

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص36.

4. **الصفرية**: أتباع «زياد بن الأصفر»، وهم كذلك أقل تطرفًا من «الأزارقة»، ومعتدلون فى أفكارهم.

نتلمس التفسير السياسى للثورة فى آراء الدكتور حسين مؤنس إذ ينفى عن الحركة سماتها المذهبية ويقول «وربما كان الأحرى أن نشك فى نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والأباضية خاصة لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية، ولسنا نجد على أى الأحوال فى أخبار هذه الثورة الكبيرة دليلا واضحًا على صفرية القائمين بالحركة أو أباضيتهم، والأسلم أن نسميهم خوارج - سياسيين لا خوارج دينيين» وأستاذنا محق فى ان العامل المذهبى لم يكن عماد الثورة ومحركها الوحيد، لكن لا ننكر أن ساعد على اذكائها بأن قدم لها «التبرير الشرعى» وأكسبها دفعة الحماس الدينى، وهو أمر فطن إليه الدكتور حسن محمود حيث ذكر أن ثورة ميسرة لم يكن مبعثها الأسباب السياسية فحسب، بل كان من أهم أسبابها الدعوة لمذهب الخوارج ونجاح هذا المذهب فى المغرب ولم يكن نجاح هذا المذهب إلا لما انطوى عليه من جوانب اجتماعية تنشد مبادئ العدالة والمساواة، والدكتور حسن محمود حين عول على انتشار الخارجية فى المغرب للثورة ألمح إلى ذلك البعد الاجتماعى، فاختلف عن بعض المستشرقين الذين فسروا الثورة تفسيراً دينيًا بحتًا من أمثال المؤرخ ألفريد بل الذى تطابقت نظرته مع مؤرخى الفرق القدامى، فاعتبر تاريخ المغرب كله محض صراعات بين الملل والنحل. وهاك ترجمة لما أورده فى هذا الصدد، يقول بل «فالحركات الجماهيرية، والصراعات، والثورات التى اندلعت فى المغرب منذ التحرير الإسلامى قامت فى الغالب الأعم - بغض النظر عن بعض الاستثناءات الضئيلة - من أجل الدين، أو احتجاجًا على الدين أحيانًا» بل امتدت نظرته تلك إلى تاريخ المغرب العربى فى العصور القديمة، كما انسحبت أيضا على تاريخه الحديث والمعاصر، ولاغرو فقد فسر الجزائر المعاصرة تفسيراً دينيًا بالدرجة الأولى. ونحن لاننكر دور الدين فى التاريخ والحضارة عمومًا، ولانغفل أهميته فى

تاريخ المغرب العربى، إنما نقيم وزنًا للرؤية الاجتماعية الشاملة التى يشكل العامل الدينى أحد جوانبها[1].

• ثورات الخوارج على الأمويين:

لجأ الخوارج إلى القوة واستخدام السيف فى فرض أفكارهم وآرائهم على الناس، وأبدوا فى صراعهم الدموى مع الدولة الأموية كثيرًا من ضروب الشجاعة والتضحية والإقدام وكانت الأعداد القليلة منهم تهزم جيوشًا جرارة للدولة، ولو أن شجاعتهم وبطولاتهم اتجهت اتجاهًا صحيحًا، ووحدوا جهودهم مع الدولة الأموية فى مجال الفتوحات الإسلامية ومحاربة أعداء الإسلام، لكان ذلك أجدى وأنفع، والعجيب أن أغلبهم لم يكونوا من طلاب الدنيا، والتطلع إلى المال والمناصب، وإنما كانوا طلاب آخرة، ولكنهم أخطئوا الطريق إليها، كما قال لهم «عمر بن عبدالعزيز». أعلن الخوارج وبخاصة «الأزارقة» حربًا شعواء على الدولة الأموية منذ قيامها، ولم تفلح معهم سياسة «معاوية بن أبى سفيان»، فثاروا فى وجهه عام (41هـ الموافق 661م) - أى عام الجماعة - قبل أن يغادر «الكوفة»، وكان أول من ثار عليه «عبدالله بن أبى الحوساء» فى مكان قريب من «الكوفة»، ثم ثار عليه «المستورد» ابن علنة الطائى». وكان عجيبًا أن تشب هذه الثورات فى «الكوفة» أيام واليها «المغيرة بن شعبة» الذى انتهج سياسة متسامحة، لكنهم تمردوا من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية وقام «المغيرة» إلى التصدى لهم والقضاء على ثوراتهم. ثم ازداد ضغط الدولة عليهم منذ أن ولى«زياد بن أبى سفيان» ولاية «البصرة» عام (45هـ الموافق 665م) فأخذ يتعقبهم فيه «المغيرة بن شعبة» فى «الكوفة»، حتى ضيق عليهم الخناق، وضرب عليهم بيد من حديد، حتى ضعفت شوكتهم. وعلى الرغم من ذلك فقد استأنف الخوارج نشاطهم على نحو أعنف بعد وفاة «معاوية» عام (60هـ الموافق 679م)، فأرسل إليهم «يزيد بن معاوية» حملة بقيادة «عبدالله

---

1 - د. محمود إسماعيل - المرجع السابق ص107.

ابن زياد»، فتصدى لهم بقوة، ثم ازدادت ثوراتهم بعد وفاة «يزيد» عام (64هـ الموافق 683م)، مستغلين فى ذلك حالة الفوضى التى سادت «العراق»، و لما استقامت الأمور للأمويين كلف «عبدالملك بن مروان» «المهلب بن أبى صفرة»، بمواجهة الخوارج، فاستطاع أن يكسر شوكتهم، ويخمد أنفاسهم، فاستكانوا فترة طويلة تزيد على العشرين عامًا (78 ـ 100هـ الموافق 697 - 718م)، ولم تقم لهم ثورة خلالها، ثم عاودوا نشاطهم فى عهد «عمر بن عبدالعزيز»، فاستعمل معهم أسلوب الحوار، فاستجابوا له لما أقنعهم بخطأ أفكارهم المتطرفة، ووعدوه بالهدوء، لكنهم هبوا من جديد بعد وفاته عام (101هـ الموافق 719م)، ولم تهدأ ثوراتهم التى استمرت حتى آخر أيام الدولة الأموية. وبلغت حركة الخوارج أقصى درجات العنف فى عهد «مروان بن محمد» آخر خليفة أموى (127 ـ 132هـ الموافق 744 - 749م)، الذى شهد آخر ثورات الخوارج وأشدها خطرًا، بقيادة «الضحاك بن قيس الشيبانى» فى «العراق»، و«أبى حمزة الخارجى» فى جنوبى الجزيرة العربية. وقد شغلت هذه الثورات «مروان» واستنزفت طاقته، وشغلته عن مواجهة خطر العباسيين الزاحف عليه من «خراسان»؛ حيث اشتعلت ثورتهم المسلحة ضده، واكتسحت قواته فى «خراسان»و «العراق»، وانتهى به الأمر إلى القتل وزوال الدولة الأموية، ولعل هذا يؤكد أن ثورات الخوارج كانت من عوامل انهيار الدولة الأموية أمام أعدائها.

الثورات فى الولايات الأموية:

لم يستطع الحكم الأموى وعلى المدى البعيد، اكتساب «الشرعية» الكافية إزاء الجمهور الإسلامى الذى بقيت له تحفظاته واعتراضاته، على الرغم من المحاولات التى بذلها لتحقيق هذا الهدف واتخاذ صفة جماعية أو غير فئوية على الأقل. والواقع أنه، إذا ما استثنينا الشام وبعض ملحقاتها، فإن الموقف السياسى فى الولايات الأخرى، كان يتراوح بين الرفض والصمت والولاء الجزئى المحدود. لإعادة النظر فى الموقف من الحكم الأموى، حين اتضحت معالمه فى الخمسينيات

التى شهدت الدعوة لولاية العهد وتنفيذها ومن ثم ظهور أول انتفاضة منذ قيام الدولة المتجهة حينذاك نحو الملك، على يد حجر بن عدى الكندى، تلك التى اعتبرت سابقة هامة، ولكن دون أن تكون متبوعة بمحاولات أخرى، تتجاوز الموقف الحجازى من ولاية العهد. ذلك أن معاوية حال دائما وارتفاع الأصوات غير المؤيدة لنظامه، فى الوقت الذى وجد أصحابها صعوبة فى التحرك وخطورة فى المواجهة، فى ظل أجواء مغلقة وأدوات بشرية قامعة سواء فى الحجاز أم فى العراق. نجد أن مصادر التاريخ الإسلامى حافلة بالأخبار عن أساليب الظلم والطغيان التى استعملتها السلطة الأموية ضد كل أشكال المعارضة للملك الأموى، فقد وصف هذه الأساليب زهير بن قين مخاطبًا أهل الكوفة يوم كربلاء قائلا: «إنا ندعوكم إلى نصرة ذرية محمد ﷺ، وخذلان الطاغية عبيدالله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عمر سلطانهما كله، ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدى وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه». وبدأت هذه الأساليب باستعمال الدهاء السياسى، وتزوير الشهادات، ثم شراء الأنصار بأموال من بيت المال، وعندما لم تجد المناصب والأموال استعمل النفى، وسوء القتلة وقبح المثلة، والدفن حيا لإرهاب المعارضين، وحمل أول رأس فى الإسلام من الموصل إلى المعاوية فى دمشق[1].

ثم تطورت المعارضة ضد الحكم الاستبدادى الأموى فاتخذت شكل المعارضة الجماعية تزعمها قادة معروفون بورعهم، ودفاعهم عن القيم الإسلامية والاستشهاد فى سبيلها. إن حركة حجر بن عدى بن جيلة الكندى، وأصحابه: شهداء مرج عذراء لم تكن حركة شخص، أو جماعة قليلة، بل كانت تعبيرا عن نقمة واسعة

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ التحول الاقتصادى والاجتماعى فى مجتمع صدر الإسلام ص165.

عمت الأمصار الإسلامية الكبرى، وخصوصًا المدينة، والبصرة، والكوفة بالرغم من وسائل البطش والإرهاب التى استعملها عمال دمشق فى هذه المدن، وقد بلغت موجة الغضب صفوف أشراف الكوفة من أنصار الحزب الأموى وعشائرهم، وقد اعترف زياد بذلك حين وثب بأشراف الكوفة، فقال: «يا أهل الكوفة، أتشجون بيد، وتأسون بأخرى! أبدانكم معى وأهواؤكم مع حجر! هذا الهجهاجة الأحمق المذبوب أنتم معى وإخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر! هذا الله من دحسكم وغشكم! والله لتظهرن لى براءتكم، أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم! فوثبوا إلى زياد، فقالوا: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما ها هنا رأى إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين، وكل ما ظننا أن فيه رضاك، وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمرنا به..»وقد بلغ الظلم الأموى حدًا جعل التململ يبلغ صفوف أسماء شهيرة أيدت بالأمس القريب الأمويين فى مطالبتهم بدم عثمان، ثم فى صراعهم المسلح ضد الإمام على رحمة الله عليه، وتواصلت سياسة تعقب كل معارض، وإخماد صوته بطريقة أو أخرى إلى أن بلغت ذروتها يوم كربلاء[1].

ثورة الحجاز

نحدد بعض الأحداث التاريخية التى كانت لها صفة الثورة الإسلامية أو المعارضة تجاه الحكم الاستبدادى غير الشرعى الأموى، وكان من آثارها انعكاسات فكرية وضعت حركة تطور الفكر العربى، فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن، أمام الواقع الاجتماعى والسياسى وجهًا لوجه، وأقامت بين الفكر والواقع رباطا لم تستطع أن تخفيه عن الأنظار حتى تلك الاستقلالية النسبية التى يتمتع بها الفكر عادة حين يملك القدرة المتطورة على خوض المسائل النظرية التجريدية، أو على التحليق فى مناخات الإبداع الفنى البعيدة عن أرض الواقع المباشر. كانت الأحداث التاريخية هذه متلاحقة بصورة مثيرة ومعقدة فى وقت واحد. وإن الكثير من الصحابة والتابعين فى «المدينة» كانت نقمتهم على نظام معاوية الوراثى

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ نفس المرجع ص166.

الاستبدادى ذات دلالة خاصة، وكذلك شأن مكة، فهما المدينتان المقدستان عند جميع المسلمين، وأهلها يرون أن صلتهم بالإسلام هى صلة أهل القضية التى رعوها بأنفسهم وبتضحياتهم وعاشت وترعرعت مرتبطة بحياتهم. من هنا كانت غيرتهم على قضية الإسلام ذات حساسية متميزة. ولقد عد بعضهم عمل معاوية فى تحويل نظام الخلافة عن طابعه الراشدى بدعة فى الإسلام لا تناقض نهج الراشدين وحسب، بل تناقض - بالدرجة الأولى - طبيعة الخلافة مبدئيًا، كما أشرنا من قبل. وذلك فضلا عن موقف أنصار الإمام على بن أبى طالب الذين يعتقدون بأن الخلافة منصب إلهى يأتى النص على صاحبه من الله بوساطة النبى، وأن النص قد أتى بالفعل باختيار «الإمام علىّ ﷺ» خليفة بعد النبى مباشرة. هذان موقفان من خلافة معاوية يمكن وصفهما بالمبدئية إسلاميا. ولكن هناك مواقف أخرى فى «المدينة» كانت غير راضية على خلافة معاوية لأسباب سياسية ذاتية، وأسباب اجتماعية طبقية. فالأولى ترجع إلى طموح بعض أبناء الصحابة إلى الخلافة كمصعب بن الزبير وأخيه عبدالله. والثانية ترجع إلى أن انتقال مركز الخلافة من «المدينة» إلى دمشق قد أفقد «المدينة» مكانتها شبه المركزية فى العالم العربى والإسلامى، وأفقد أغنياءها، وكذلك أغنياء مكة، مصالح جمة كانا يجنونها من تلك المكانة المفقودة وعطل نشاطهم الاقتصادى والسياسى وسد الطريق دون مطامحهم المتعددة الجوانب، وجعلهم فى عزلة عن المسرح السياسى والاجتماعى كله تقريبًا. لقد كانت قوة معاوية وكان دهاؤه، ثم كان الصراع بين «الإمام علىّ ﷺ» ومعاوية وتألب كثير من الفرقاء المشار إليهم لمخاصمة «الإمام علىّ ﷺ» - كان هذا كله من العوامل التى حالت دون انتفاضة «المدينة» على معاوية فى حياته. ولكن، ما أن جلس ولده يزيد على عرش الخلافة الأموية بدمشق بعد والده، بصفة وراثية، حتى بدأت تلك النقمة المكبوتة من قبل تتحرك لتتفجر. وهنا نعود إلى شخصية يزيد ذاته، لنراها كما وصفناها سابقا، فإذا هى بخصائصها تلك ذات أثر كبير فى تحرك النقمة نحو الانفجار. ولم يبق ليزيد، إذن، سوى الاعتماد على ذوى المصلحة المباشرة فى بقائه ولى أمر المسلمين فى

دمشق، بل فى بقاء العرش الأموى ذاته، وهؤلاء هم ممثلو الطبقة المسيطرة فى بلاد الشام من جهة، والقبائل اليمنية القوية حلفاء الأمويين هناك من جهة ثانية. كل ذلك كان يحمل الإنذار بحدوث انفجار قريب فى «المدينة»، وفى مكة أيضا، كما كان التفجر قد بدأ يحدث بالفعل منذ مصرع سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على عليه السلام فى العراق، حين كان يتركز فى العراق نشاط الحركتين المناوئتين للأمويين رغم تناقضهما: حركة الشيعة، وحركة الخوارج. ثم حدث الانفجار فى «المدينة». فقد أظهر أهلها تمرداً وامتناعًا عن مبايعة يزيد بالخلافة، فوجئه هذا جيشه الشامى المؤلف من أولئك الحلفاء، فقضى على التمرد. ثم تابع جيش يزيد مسيرته إلى مكة فحاصرها وارتكب أثناء حصارها حماقة عجيبة أثارت مشاعر المسلمين فى كل مكان، وظلت تثيرها على مدى الزمن، إذ أخذ يقصف الكعبة نفسها مع سائر بيوت السكان، وأشعل فيها الحرائق. لم يعش يزيد بعد ارتكابه هذه الحماقة. فقد مات فى العام نفسه (عام 683م) وخلفه ابنه معاوية الثانى الذى اعترض على أفعال أبيه يزيد وجده معاوية وتنازل عن الحكم واتجه إلى الله وبذلك انتقل عرش الخلافة الأموية إلى الفرع الأموى الآخر، فرع بنى مروان ابن الحكم الذى كان أول حاكم بعد السفيانيين الثلاثة: معاوية الأول، ويزيد، ومعاوية الثانى[1].

كانت الحجاز حاضرة الإسلام الأولى، عبر قادتها من أبناء الصحابة، وزعماء الأنصار، أول من أثار قضية الحكم الوراثى، وذلك بشىء من التحدى لمؤسس الدولة الأموية. وفى مستهل عهد يزيد، كانت السابقة أيضًا إلى رفض الأمر الواقع وإعلان موقفها مرة أخرى، مع نزوع إلى الثورة المسلحة، . فمنها خرجت حركة الإمام الحسين عليه السلام التى انتهت بمأساة دموية فى العراق وأوقعت النظام الأموى فى ارتباك شديد، ومنها أيضًا انبثقت حركة ابن الزبير التى اتخذت من مكة أرضيتها الأولى والمركزية، لتنتشر من هناك إلى حيث كانت الثورة على الحكم الأموى. وعلى الرغم من خلو هذه الحركة من أية أطروحة إصلاحية لافتة،

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص484.

إلا أن زعيمها (ابن الزبير)، استفاد من الفراغ القيادى فى المعارضة السياسية، مستثمراً ما أمكنه النقمة المتعاظمة على الخليفة. و«المدينة» نفسها كان لها أيضًا موقفها الخاص من هذه التطورات المثيرة، حيث كانت مسرحًا لانتفاضة مسلحة، جاءت محصلة لمخزون مكبوت من الثورة ضد ممارسات السلطتين المركزية والمحلية، مندرجًا ما بين تقييد الحرية الشخصية لأبناء الصحابة التابعين أخذ تابعو التابعين، فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير، وأول من دون التفسير فى الصحف مجاهد المتوفى عام 104هـ الموافق 722م. ومن العلوم الدينية الحديث، ويراد به مايروى عن الرسول من قول أو فعل، وقد أخذ الناس الحديث عن الصحابة الذين طالت صحبتهم برسول الله محمد ﷺ ومنهم السيدة عائشة وعمر ابن الخطاب، ثم ظهرت طبقة التابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة. ولم يدون الحديث إلا فى أواخر القرن الثانى الهجرى فى خلافة عمر بن عبدالعزيز، وكانت الأحاديث تحفظ فى صدور الرجال أو تكتب فى صحائف متفرقة، ولما كان بعض الأحاديث قد انتحلت لتلبية حاجة البدع والنزعات، فقد حرص عمر بن عبدالعزيز على تدوين الأحاديث الصحاح، فأمر بعض من كان يثق بهم من علماء الحديث بجمعها، فكتبت فى دفاتر وأرسلت منها نسخ إلى أنحاء الدولة الإسلامية. ومن أشهر المحدثين فى العصر الأموى سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى بالبصرة (161هـ) وله من الكتب الجامع الكبير الذى يجرى مجرى الحديث، وأبو عبدالرحمن محمد بن عبدالرحمن.

كان تحرك المعارضة فى «المدينة»، قد بدأ بحملة انتقادية صريحة ضد استبداد وظلم الخليفة، بلغت حد التجريح بشخصيته والطعن فى سلوكه وشرعيته. وأعقبتها موجة من السخط، استهدفت الوالى الأموى عثمان بن محمد بن أبى سفيان الذى وصف بأنه قليل التجربة، ليأتى مقتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين وأصحابه فى كربلاء، بمثابة الشرارة التى ألهبت الموقف وفجرت ما

فى النفوس. وكانت خلافة الأمويين المثقلة بهـمومها الكبيرة، تتابع بقلق تطورات الموقف فى الحجـاز، ومن ثم تبادر إلى مجـاورة زعماء الحـركة، حين جـرى لقاء فاشل، بين يزيد ووفد من «المدينة»، لم يضف سوى التشنج على الوضع السياسى فى هذه الأخيرة. وانتهى الأمـر إلى قرار بالعصيان، فى الاجتـماع الذى عقد فى المسجـد وأسفر عن تعـيين عبدالله بـن حنظلة الأنصارى على إدارة المدينة وبيعـته رئيسًـا لثورتها المعلنة. وتجلـت المظاهر الأولى للعصيـان، فى الهجوم على قـصر الإمارة ومنزل مـروان بن الحكم شيخ الأمويين فى الحـجاز، حيث اجـتمع هؤلاء لمناقشة تطورات الأزمة المحـدقة بهم ومواجهة حملة التعبـئة ضدهم. ولم يجدوا - ومعـهم الوالى - سوى الرضـوخ لقرار النفى إلـى الشام، مؤديًا ذلـك إلى خروج «المدينة» من دائرة النفوذ الأموى وإعلان سلطة مؤقتة فيها، فى الوقت الذى وصل فيه المنفيـون من بنى العاص الأمويين إلى دمشق، وسط أجواء سيطر عليـها الحقد والتشنج والرغـبة فى الانتقـام. ولم يلبث الرد على هذه المبادرة، أن جاء بمسـتوى الحقـد الأموى المعروف على «المدينة»، حـيث كان ذلك واضحًـا فى تشكيل القوة المكلفة بقمع الثورة الإسلامية، قـيادة وجندًا، بعد أن غرقت دولة يزيد فى تطرفها إزاء المعارضـة، وبات من الصعوبة البالـغة الخروج من هذه الدائرة الدموية. فـقد عهدت بقيادتها إلى عسكرى محـترف، وذى ميول غريزية نحو العنف، هو مسلم بن عقبـة المرى، من قبائل الشام اليـمنية الموالية للبيت الأموى والمـقاتلة تحت رايته منذ صفـين، وإلى جانبـه قائد آخـر، يمثل الذهنيـة والتجربة نفـسهـا فى الحرب والموالاة، هو الحـصين بن نميـر السكونى. ومـا لبثت الحـملة الشـاميـة هذه، أن أحكمت الحصار حول «المدينة» التى قاوت بضراوة، مـتوسلة شتى الطرق الدفاعية لصد الهـجوم الأموى، ولكن دون أن تصمـد سوى أيام قليلة أمام ضغـط الحصار الشديد والجيش المتفوق والقيادة المحترفة. وسرعان ما استبيحت للجنود المتصرين، دافعة الثـمن غاليا جدًا لموقـفها السلبى من خلافـة دمشق، ومفجوعـة مرة أخرى

بأحلامها السلطوية التى انهارت مع سقوط الثورة المريع فى موقعة «الحرة» الشهيرة.
ولم يتح للقائد الشامى المتصـر، استكمال مهمته الحجـازية بعد القضاء على ثورة «المدينة»، حيث أن فـصلا آخر منهـا كان بانتظاره فى مكة، لإعادتهـا بالقوة على غرار سابقتها إلى السلطة المركزية.

لقد كان لمكة نصيب آخر من الهـزات التى ظهرت فى العهد الأموى. وذلك إذ برز بين طالبى الخلافة، بعـد موت معاوية الثانى، عبـدالله بن الزبير، وقد كان أبوه الزبير من كبار صحابة النبى، ثم رأيناه فيما سبق يقاتل عليا بن أبى طالب فى «حرب الجمل» بالبصرة، محرضا عائشة وخائضا معها هذه الحرب طلبا بثأر الخليفة الثالث عثمان، وقد قتل فى المعركة يومئذ. وذا ولده عبدالله يظهر الآن فى الحجاز داعيا نفـسه خليفة، حين رأى عـرش الأمويين يتزعزع فى دمشق منذ مـقتل سبط رسول الله مـحمـد ﷺ الإمام الحسـين بن على فى العراق، ثـم رأى هذا العرش يتعرض للزوال بعد موت يزيد وموت ولده مـعاوية الثانى. لقد حانت الفرصة إذن لهؤلاء الفـتيان مـن أبناء الصحابة الذين عـزلهم معـاوية الأول عن مسرح الحـياة العربية والإسلامـية بإنشائه الخلافة الأموية فى بلاد الشـام بعيدا عن مكة والمدينة، عاصـمتى العـرب والمسلمـين من قبل. لقـد حانت الفـرصة إذن لهـؤلاء الفتـيان الطامحين إلى مراكز الحكم، وهم يرون أنفـسهم جديرين بذلك بحكم كونهم أبناء الزعامة المكية و«المدينية» معا، بل يرون أنفسهم أحق من أبناء أبى سفيان الذى كان حربا على النبى محمد ﷺ والإسلام فى حين كان آباؤهم من كبار صحابة النبى.
نهض عبدالله بن الزبير ليـعيد الخلافة إلى منبتها الأول فى الحجـاز، مستغلا ذلك الصراع القبلى القديم الذى استغله معاوية من قبل. نعنى به صراع القبائل الحجازية وقبائل اليمنيـة. وفى الوقت نفسه وجد الحجازيون فى دعـوة ابن الزبير فرصة لهم أيضا تمكنهم من الغلبة على اليمنيـين وانتزاع مواقع القوة من أيديهم، وهى المواقع التى اكتسبوها من حلفهم مع مـعاوية زمنا طويلا. وها قد زال معاوية ويكاد عرش دولته أن يزول. فليبادروا إذن لنصرة عبدالله بـن الزبير والاعتراف به خليفة قبل أن

يظهر أموى جديد فى بلاد الشام يفوت هذه الفرصة عليهم. هكذا برز الصراع الحجازى - اليمنى من جديد، فكانت معركة مرج راهط قرب دمشق بين الفريقين، ولكن الغلبة الكاسحة كانت فى المعركة الهائلة لليمنيين الأقوياء، وظهر الأموى الجديد الذى كان الحجازيون يخشون ظهوره، فإذا هو مروان بن الحكم، فاعترف به اليمنيون خليفة جديدا على عرش الأمويين فى دمشق الذى كان لهم فضل إنقاذه من الزوال. غير أن عبدالله بن الزبير لم ينهزم بانهزام الحجازيين فى مرج راهط، لأن قبائل عربية أخرى فى العراق وإيران كانت تؤيده ضد الأمويين، فى حين كان العلويون غير قادرين حينذاك على مقاومة بنى أمية بعد مذبحة كربلاء، ولم يقم زعيم علوى يتولى قيادة الثورة على الحكم الأموى. كان إذن، لابن الزبير ما يسنده فى البقاء على دعوته الخلافة لنفسه فى مكة حيث تسلم بالفعل مركز السلطة[1].

فقد كان عبدالله بن الزبير يتخذ من الكعبة ملجأ للاعتصام بثورته من الملاحقة الأموية، دون أن تثنيه عن قراره، المأساة الجديدة التى حلت بالمدينة. بيد أن حسن الحظ الذى رافقه منذ التجائه إلى مكة، لم يتخل عنه هذه المرة أيضا. فمن مقتل الإمام الحسين، المنافس الرئيس، إلى وفاة مسلم بن عقبة فى منتصف الطريق تحت وطأة المرض والسن، إلى وفاة يزيد المفاجئة فى وقت لاحق، إلى آخر هذه المصادفات التى كان ابن الزبير المستفيد الأول منها، ولكن دون أن تكون لديه الكفاءة، أو لعلها سرعة الحركة، لتوظيف هذه الفرص فى الوقت والمكان المناسبين[2].

أما الحملة الأموية التى كانت تأخذ طريقها إلى مكة، فقد أصبح قائدها الحصين بن نمير الذى نفذ بدقة مهمة سلفه، وفرض الحصار على ابن الزبير فى

1 - حسين مروة - المرجع السابق ص485.
2 - د. إبراهيم بيضون - المرجع السابق ص192.

مكة، حيث كانت المقاومة عنيفة تعززها مشاركة بعض الحلفاء من خصوم الحكم الأموى، كالخوارج. وبعض الهاربين من «المدينة»، فضلا عن الزعيم الشيعى مختار الثقفى الذى أخذ اسمه فى البروز منذ أحداث الكوفة الأخيرة. وقد صمد المدافعون عن مكة، على الرغم من القرار الجرىء باستخدام الحصين مجانيقه فى ضرب الكعبة، متجاوزاً الضجة المترتبة لدى الرأى العام، فى ظل مناخ ماتزال العقيدة الدينية، على رغم التراجع، تأخذ دورها المؤثر والطليعى فيه. وظل الحصين بن نمير محاصراً مدينة مكة، حتى وصله خبر وفاة الخليفة يزيد بن معاوية. وكان خلال فترة الحصار يشتبك مع أنصار ابن الزبير بين الفينة والأخرى، حتى إنه أقدم على نصب المجانيق ورمى الكعبة بالحجارة والنار فاخترقت الكعبة وتصدع منها ثلاثة مواضع واحترق ما كان فيها من خشب وما عليها من كسوة. وتقول معظم الروايات التى أتت على ذكر حريق الكعبة، إن أهل الشام المحاصرين هم الذين أحرقوا الكعبة عن قصد وسابق تصميم، وعندما علم الحصين بن نمير بحقيقة وفاة الخليفة يزيد، تفكر بالأمر مليًّا وخلص به التفكير إلى أن يعرض الصلح على ابن الزبير وأن يبايعه بعد أن وجد أنه لامناص ولا جدوى من القتال وإراقة الدماء، بشرط أن يقوم ابن الزبير بالخروج إلى الشام مع الحصين بن نمير وهناك يعلنوه خليفة للمسلمين، لكن هذا الرأى لم يعجب ابن الزبير، فانقطعت المفاوضات نهائيا، حيث ستنتهى الأمور إلى خروج الخلافة من آل سفيان إلى المروانيين، وخسر بذلك ابن الزبير فرصة غالية، لو تمكن من استغلالها لتبدل مجرى التاريخ العربى الإسلامى خلال هذه الفترة. ومهما يكن الأمر فقد بقى يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان لفترة طويلة موضع اهتمام المؤرخين والباحثين، الذين أجمعوا على ذمه ولعنه، فهو بنظرهم رجل غير أهل للخلافة، حصل عليها بغير حق بمساعدة أبيه ورغبته الأكيدة، وقد اتهموه بتهم متعددة، كالمجون واللهو والشرب وما إلى ذلك من أعمال غير لائقة بخليفة للمسلمين. فى هذا الجو السياسى العاصف، خلف معاوية بن يزيد (معاوية الثانى) أباه، وإنه خشى الفتنة

الجامحة فآثر اعتزال الخلافة، وترك الأمر بعده فوضى. لما مات معاوية الثانى كان المطالبون بالخلافة كثيراً: (1)

1 ـ آل على بن أبى طالب، ولكن لم يكن فيهم بعد مأساة كربلاء من يليق بالخلافة أو يجسر على الإقدام على المطالبة بها. فقد كان فيهم محمد بن الحنفية ابن الإمام على من زوجته خولة، وهى من بنى حنيفة، لم يكن راغبا فى الخلافة على مايبدو، على الأقل خلال هذه الفترة الصعبة، وعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب وهو زين العابدين، وكان لايزال حدثًا.

2 ـ سائر قريش، وتمثلت بعدة أشخاص هم، خالد بن يزيد أخو معاوية بن يزيد، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان ابن عم يزيد بن معاوية، وعثمان بن عتبة بن أبى سفيان، وعمرو بن سعيد بن العاص، ومروان بن الحكم شيخ بنى أمية وكاتب عثمان بن عفان، وكان مروان يعد فى عصره من دهاة العرب، وعبدالله بن الزبير شيخ الحجار والثائر على يزيد بن معاوية، وعبيد الله بن زياد بن أبيه. لم يكن بين هؤلاء المتنافسين من يعتمد على حزب قوى وأنصار كثيرين سوى مروان بن الحكم وعبدالله بن الزبير. إلا أن مركز عبدالله بن الزبير كان أقوى، إذ كان قد نادى بنفسه خليفة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام فبايعه أهل الحجار والكوفة والبصرة ثم لما مات معاوية الثانى بايعت القبائل الحجازية فى الشام ابن الزبير، لأنهم كانوا ناقمين على يزيد وابنه معاوية اللذين قدما اليمانيين فى مراتب الدولة.

التوابون وعقدة الشعور بالذنب

كان العراق، وهو المعنى أساسًا بمأساة كربلاء، الإقليم الأكثر تشنجا من أحداثها، كأسباب ونتائج وتفاعلات، فالكوفة التى احتلت مركز الثقل فى استقطاب المعارضة السياسية، كانت الحركة الشيعية فيها تجتاز أزمة تقصير وشعور فادح بالإثم، بعد إجهاض ثورتها بانقلاب مضاد من جانب السلطة الأموية،

1 ـ د. إبراهيم زعرور، ود. على أحمد: تاريخ العصر الأموى السياسى والحضارى ـ ص36.

وانتهـاء الإمام الحسين عليه السلام مع أصحـابه إلى مجزرة دمـوية، دون أن يتاح لهم دخول المدينـة. ثم كانت الحملة الـقمعـية العنيـفة التى قـادها عبيـد الله بن زياد واستـهدفت زعـماء الحركـة وقادتها، بـحيث كان شـبح كربلاء حـاضرا فى كل التصـورات السريعة التى شهـدتها الكوفة فى ذلك الحـين. ومن هذا المنظور، فإن الموقف فرض نـوعًا ما من المحـاسبـة العفوية للـذات، وتطلب بإلحاح القـيام بأية مبادرة، تخفف أثقال الخطأ وخيانة الالتزام. خصوصًا لدى تيار كان الأكثر حماسة فى الحركـة الشيعيـة لمثل هذا الموقف. غير أن الأجـواء السياسيـة فى الكوفة ـ فى وقت كان التشنج أيضًا، هو المحرك لقـرارات السلطة الأموية، بعيد اهتزازها تحت وطأة النتائـج التى أسفرت عنهـا كربلاء ـ لم تكن مـشجعـة على السيـر فى اتجاه صدامى جـديد مع السلطة. فعـلى المستوى الشـعبى، حـالت إجراءات الملاحـقة الدائمة، دون تحقيق التعبئة المطلوبة ودون تشجـيع بعض قيادات الحركة الشيعية من جانبها هذا الاتجاه، إذ أن التحرك برأيها مازال فى غير أوانه وأقرب إلى المغامرة منه إلى الثورة. وعلى مستوى السلطة. فقد حاولت أجهزتها فى الكوفة الإمساك بزمام الأمـر، دون أن تتورع عن اسـتخـدام أكـثر الوسـائل عنفًا لـفرض الهـيبـة ومنع الانفجـار، بعد أن تورطت حتى الذروة فى مـجابهة الرمـوز والمقدسات، تصفـية (كربلاء) واستبـاحة (المدينة) وخرقًا (الكعبة). وهكذا فإن ثمـة عوائق كانت تحول دون الثورة الشيعية السريعة، ردًا على سقوط الحسين وأصحابه، من غير أن تكون السلطة الأمـوية مصـدرها فـقط، إذ انطلق بعضـهـا من أسبـاب ذاتية تعـود إلى اضطراب الجبهة الشيعية التى تنازعتها حينذاك، اتجاهات ثلاثة:[1]

1 ـ فريق مـتحمس، كانت مـعظم عناصره من المخضـرمين والمتقـدمين فى السن الذين كـان هاجسـهم «غسل الآثام» فى تـلـك المرحلة المتأخـرة من حيـاتهم المديدة، وعرفوا نتيجة لذلك بـ «التوابين» الذين نحن فى صدد الحديث عنهم.

2 ـ فريق آخر، يمـثل الجيل الثانى من التشـيع، كان أكثر واقـعية فى خطه

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ص196.

السياسى المبرمج وتحركه المدروس لاستلام السلطة، متعدية القضية لديه الانتقام، محور تحرك التوابين.

3 - فريق متذبذب، هو الأقرب إلى السلطة الأموية، إن لم يكن متعاونًا معها بصورة فعلية. وكان يتخذ مواقفه فى ضوء الاعتبارات المصلحية، مع المحافظة على علاقة ما بالفريقين السابقين، سرعان ما خبت تماما فى أعقاب الفرز الذى تعرضت له الحركة الشيعية فى العهد المروانى. تلك هى أبرز الاتجاهات فى الكوفة بعيد القضاء على ثورتها، دون أن ننسى القوى السياسية الأخرى، المتحالفة عضويًا مع السلطة والمنسقة معها فى مواجهة خطط المعارضة وعرقلة مشاريعها، وذلك من منطلق الحرص على امتيازاتها التقليدية، غير المتناقضة فى كل الأحوال مع السلطة والاتجاه القبلى الداعم لها. بدأت الفكرة مع الهاجس الانتقامى لدى التوابين، من أنفسهم ومن المسؤولين عن مقتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين فى آن واحد. وقد عاشت أولا بصورة سرية فى ضمير خمسة من الزعماء المسنين الذين رافقوا نضال الحركة الشيعية منذ بدايات تكوينها، وهم: سليمان بن صرد الخزاعى والمسيب بن نجبة الفزارى وعبدالله بن سعد بن نفيل الأزدى وعبدالله بن وال التيمى ورفاعة بن شداد البجلى. وقد اجتمع هؤلاء فى منزل كبيرهم سليمان الذى وصف بأنه «صحابى جليل»، مما كان له دلالة على بلوغه من العمر حدًا متقدمًا، ساعده على تصدر هذا الاجتماع، ومن ثم على تزعمه للحركة التى انبثقت عنه. وكان موضوع التوبة والغفران، هو الذى استأثر بلقاء الخمسة الشديد السرية، اتقاء لشرطة الوالى الأموى المنبثة فى أحياء ومسارب الكوفة. فقرروا أنهم مساهمون فى مأساة الإمام الحسين عليه السلام، وذلك بتقصيرهم عن نصرته وخذلانهم له، وبالتالى فإن ثمة عملا لابد من القيام به، لتصحيح الأخطاء ومسح الذنوب، وهو ما عبر عنه زعيم الحركة بقوله: «إنه لايغسل عنهم ذلك الجرم، إلا بقتل من قتله أو القتل فيه». وهكذا دأب التوابون (الاسم الغالب عليهم والمقتبس من التوبة) على اجتماعاتهم السرية والدعوة الحذرة فى أوساط الشيعة طوال عهد

يزيد، ثم خرجت حركتهم إلى العلن فى أعقاب التطورات التى مرت بها الدولة الأموية من فراغ الحكم فى دمشق، وامتداد الثورة الزبيرية إلى العراق، بعد تمرد البصرة على واليها ابن زياد ولحاق الكوفة بها وطردها نائبه الأموى. وإذ أعلنت الأولى ولاءها لابن الزبير، تحفظت الثانية فى تحديد موقفها النهائى، دون أن تحظى حركته بالعطف الذى لاقته فى البصرة، انطلاقا من تناقضات ما فى الخط السياسى واختلافات فى النهج الثورى بينها وبين الحركة الشيعية. غير أن النفوذ الزبيرى كان أقوى من أن يقاوم، وما لبث الوالى الذى اختارته الكوفة، أن اعترف بالأمر الواقع وأعلن الولاء لخليفة الحجاز، ليصبح المناخ السياسى أكثر ملاءمة أمام حركة التوابين فى ذلك الوقت. فانصرفوا إلى تعبئة الأنصار فى الكوفة وخارجها وإلى جمع السلاح، ومن ثم إلى تحديد موعد التحرك، حيث كانت «النخيلة» ـ المعسكر التقليدى فى الصراع بين العراق والشام ـ المكان الذى وقع الاختيار عليه لاستقطاب المتطوعين فى هذه الحركة. غير أن اختلاف الظروف السياسية، لم يفد التوابين إلا بمقدار ضئيل بعد تعثر الاستجابة الواسعة لدعوتهم التعبوية، كما كانوا يطمحون إليها، فى تركيزهم على نقطة حساسه لدى الشيعة. والواقع أن هذه الحركة، لم تنطو على طرح سياسى أو اجتماعى مقنع، مقتصراً برنامجها على الانتقام، سواء بالسعى وراء الشهادة من أجل الإمام الحسين ﷺ أو بالثأر من قاتليه. فالمثالية التى كانت طابع الحركة، أبعدتها بصورة خاصة عن قيادات الجيل الثانى من الشيعة، تلك التى لم تستهوها شعارات التوابين المحصورة فى نطاق التضحية والغفران، مؤثرة السير فى اتجاه أكثر جذرية، واجدة ضالتها أو بعضا منها، فى شخصية ذكية برزت على مسرح الأحداث، وحاولت قطف ثمرات التعبئة النفسية والموقف المشحون ضد الأمويين، ومن ثم استغلال الفراغ القيادى فى الكوفة، أعنى بذلك المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى ارتبط منذ فجر حياته بالحركة الشيعية وتحمس لها. ولم تكن قناعات المختار ـ الهادف إلى تحقيق دور خاص له تحت مظلة التشيع ـ متجانسة مع أفكار التوابين إلا فى الثأر للحسين. وما عدا ذلك فقد شن عليهم حملة دعائية واسعة، واصفًا حركتهم بالسذاجة، ومتهما زعيمهم بقصر النظر

وعدم الكفاءة لقيادة الثورة الشيعية، وإذا كان المختار قد اخفق فى أن يكون البديل القيادى لسليمان، فإنه نجح إلى حد ما فى حملة التشكيك التى ساهمت بدورها فى تحجيم الحركة وتقليص الاستجابة الشعبية لها. وما لبث أن تحول من ناقد مرتاب، إلى مؤيد مشجع، لاعتقاده أن غياب التوابين عن المسرح السياسى سيمنحه الفرصة الأفضل لتحقيق طموحه فى الكوفة[أ].

أما الموقف الزبيرى من الحركة التوابية، فكان أقرب إلى التأييد غير المباشر، فقد جمعت الطرفين خصومة الأمويين واستنزاف قوى العدو المشترك. وكل مايصب فى خدمة المصالح الزبيرية. بيد أن عبدالله بن مطيع، والى الكوفة حينذاك، كان مخلصًا فى تنبيه التوابين إلى خطر المغامرة ودعوتهم إلى البقاء، لصد الهجوم الأموى الذى يقوده ابن زياد تنفيذاً لأوامر الخليفة الجديد، فى أعقاب السيطرة على الموقف فى دمشق لمصلحة بنى العاص وشيخهم مروان بن الحكم، الذى تولى خلافة الأمويين فى دمشق، فقد أمسك بالسلطة هناك تؤيده، عدا القبائل اليمنية، طبقة الأغنياء المسيطرين على الثروات الكبرى والأراضى، إذ كان هو من ممثلى هذه الطبقة. وهو الذى كان فى عهد الخليفة الراشدى عثمان، من أسباب السيطرة الأموية على الثروات والعقارات والاستئثار بها، ومن أسباب الثورة على عثمان، لأنه كان كاتبا للخليفة عثمان، ومسيطرا على إرادته، حتى إن بعض المؤرخين يصفه بأنه كان الحاكم الفعلى فى ذلك العهد. من هنا يتضح امتداد الطابع السياسى والاجتماعى لحكم الأمويين كما كان فى عهد معاوية المؤسس. فقد ظهر مروان لا منقذا لهذا الحكم وحسب، بل جاء لينقذ كذلك امتيازات الأغنياء والملاكين وكبار الأمويين وحلفائهم، الطبقة الغنية المحلية وقبائل اليمنيين . ولكن مروان لم يعش طويلا فى الحكم. فقد خنقته زوجته بسبب سوء معاملة مروان لابنها خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، كما ذكرنا سابقًا، فخلفه

أ ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص 200.

على العرش الأموى ولده عبدالملك بن مروان. جاء عبدالملك إلى الحكم فإذا أمامه حركتان قويتان تعزلان سلطته عن الحجاز والعراق وإيران: حركة عبدالله بن الزبير الذى يحكم مكة، وحركة الخوارج. بالإضافة إلى ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى فى العراق، القائم بحركة الثأر لدم الإمام الحسين بن على وملاحقة قاتليه للقضاء عليهم جسديًا. غير أن حركة ابن الزبير كانت أشد خطرًا على الخلافة الأموية، فكان على عبدالملك أن يقضى على هذا الخطر قبل كل شىء[1].

وفى الموعد الذى حدده التوابون لخروجهم إلى معسكر «النخيلة» كان عددهم دون الأربعة آلاف مقاتل، وهو الرقم النهائى الذى استقر أو كاد، على الرغم من الشعارات الحماسية والاستعراضات المسلحة فى أسواق الكوفة وأحيائها لجذب الأنصار والمؤيدين. وكانت المحطة الأولى فى مسيرتهم الانتقامية فى كربلاء، حيث كان تجمعهم حول قبر الإمام الحسين عليه السلام فى تلك الصورة المأسوية المفجعة، جزءًا من التحرك الذى حان تنفيذه. فهو بمثابة عهد تكرسوا له بملء إرادتهم وعزمهم، وموقف رهيب تعايشوا فيه مع أجواء التضحية والشهادة، وبعد ليلة من البكاء ـ كان الغضب والانفعال، قد أخذوا منهم حتى العمق ـ قرروا السير نحو دمشق، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام، حيث كبار المتهمين ومعهم النظام، المسؤول الرئيس، بينما سقط الاتجاه الداعى إلى تعقب الأفراد المشاركين فى الجريمة، لأن هؤلاء، فى رأيهم، كانوا فقط الأداة التى نفذت أوامر السلطة المركزية. وفى قرقيسيا، مقر الزعيم زفر بن الحارث الكلابى، كانت محطة التوابين التالية، حيث كان للأخير موقف إيجابى منهم. غير أنهم اكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة، رافضين نصيحته بالعدول عن قرارهم الانتحارى، أو الاعتصام معه لمجابهة القائد الأموى الذى يستهدف الزعيم زفر بن الحارث أيضا. ثم مضوا إلى مصيرهم، فالتقوا بالقوات الأموية فى «عين الوردة»،

---

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص486.

وخاضوا معها معركة بطولية، أسفرت عن تدمير قوتهم ومقتل زعمائهم، باستثناء خامسهم، رفاعة بن شداد الذى تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة. ومن البديهى أن حركة التوابين، كانت حاملة معها بذرة الفشل، لعجزها عن إقامة توازن عسكرى ضد أعدائها الأمويين الذين كانوا مايزالون ممسكين بزمام التفوق. ولكنها كحركة «تكفيرية» فى الصميم لا تخلو من خلفيات سياسية غير مباشرة، نجحت فى تحقيق الحد الممكن من أطروحتها، وهو الانتقام الذاتى. أما دورها فى إطار حركة النضال الشيعى، فلم يخل أيضا من تأثيرات إيجابية، بعد أن تركت وراءها مناخا مثاليًا للتحرك، وتعبئة جماهيرية عريضة، سيسهل استثمارها لأية حركة مستجدة. فقد سجلت من هذا المنظور، تحولا خطيراً فى مسار المعارضة الشيعية، فى وقت أصبحت فيه الكوفة مركز الاستقطاب الدائم ومحور النضال السياسى والمسلح، المناهض للأمويين نحو مايزيد على النصف قرن من الزمن[1].

المختار الثقفى و«الانقلاب» الشيعى فى الكوفة:

نجح المختار فى استثمار المناخ الثورى فى الكوفة، الذى تبلور مع قيام الحركة التوابية. فما كادت فلول التوابين تعود من عين الوردة، حتى تلقاها المختار واعداً ومشجعًا، وبالتالى مقرنا القول بالفعل، حين قام بانقلابه السريع فى الكوفة وسيطر على قصر الإمارة فيها، معلنًا السلطة الشيعية باسم البيت العلوى. والمختار منذ اليفاعة متحمس لهذا الاتجاه، حيث نشأ فى كنف عمه (سعد بن مسعود) الذى كان عاملا لعلى على المدائن، ومتعاطفًا مع خطه السياسى إلى حد كبير. ومن هذه الأخيرة تنطلق مسيرة الثقفى الشاب والطموح فى الحياة السياسية، وأبرز ملامحها خاصتان متلازمتان وهما: الاتجاه الشيعى والنزعة إلى السلطة، وإن كانت الأولى فى الغالب مرتهنة للثانية. ولعل المؤشر اللافت لهذه الحقيقة، كان فى المدائن أيضًا، مع بواكير نشاطه السياسى، حيث فكر بصفقة كبيرة، وهى القبض

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص200.

على الإمام الحسن ﷺ وتسليمه إلى معاوية، ذلك الخاطر الذى أثار غضب عمه وتعنيفه حسب الرواية التاريخية. ومن هنا إلى مؤشر آخر، نجد استهواء السلطة يفوق أى هوى فى شخصية المختار، دون أن يتردد من هذا المنطلق، فى الالتحاق بحركة ابن الزبير فى مكة، فى وقت لم يكن ثمة قاسم مشترك أو حد أدنى منه بين الرجلين. ولكن يبدو أن شهوة السلطة لم تلغ الانتماء الشيعى للمختار، فقد اعتبر دائما أحد زعماء هذا الاتجاه البارزين فى الكوفة. وهو منذ تحرك الإمام الحسين ﷺ، واسمه يتردد فى سجلات الحركة الثورية التى اتخذت مسرحها هذه المدينة، مخترقًا بذلك مألوف الموقع الثقفى الموالى للدولة الأموية. فكان أول من التقاه مسلم بن عقيل من رجالات الكوفة للاطلاع على الموقف السياسى فيها، فضلا عن دوره الهام فى التعبئة الشعبية عشية خروج الإمام الحسين ﷺ، إلى حد الصدام المسلح مع ابن زياد، مما دفع الأخير إلى وضعه فى السجن مع بقية الزعماء ورؤساء القبائل، بعد إحكام سيطرته على المدينة. وبعد الإفراج عنه، عاش وقتًا فى الطائف ـ مركز ثقيف ـ حيث كان إطلاقه على ما يبدو مشروطًا بالابتعاد عن العراق. وفى الحجاز خاض تجربة فاشلة عندما تحالف مع ابن الزبير، حملته على الاقتناع بأن الكوفة هى الأرضية المناسبة لبناء آماله السلطوية. فعاد إليها بعد موت يزيد، ومعه شعار الثأر للحسين، محاولا من خلاله استقطاب جماهير الحركة الشيعية التى افتقدت الشخصية القيادية المحركة بافتقاد الإمام الحسين ﷺ. ولكن المختار يجد من سبقه فى الكوفة إلى طرح هذا الشعار، وهم التوابون الذين نجحوا عبر تنظيمهم السرى، وفى جذب جزء من النخبة الشيعية وتعبئتها ضد السلطة الأموية وممثليها فى العراق. وقد حال ذلك دون إيجاد أى دور له أو قيام تنسيق ما، على الرغم من وحدة الشعار بين الطرفين، إذ كانت الحركة التوابية مبالغة فى مثاليتها السياسية، بينما المختار تجاوز بطموحه الهدف التفكيرى إلى استلام الحكم.

والواقع أن الظروف كانت مهيأة لاتخاذ دوره المنشود، فى وقت فقد الحكم المركزى بريقه مع محنة الخلافة الأموية، من الفراغ، إلى التشرذم، إلى التحدى الكبير فى حركة الحجاز، أما السلطة المحلية فى الكوفة، فكان ارتباطها واهيا بابن الزبير،

واقتصر على الموقف الرسمى، لتسويغ الخروج من الإطار الأموى. وفى نفس الوقت لم يأبه المختار لفشله فى استقطاب التوابين، لأن القوة الحقيقية للشيعة كانت ما تزال خارج الناطق الاستقطابى، الظاهرى على الأقل، وتبحث بدورها عن وسائل مجدية للتحرك. هذه القوة نفسها، هى التى راهن على قيادتها المختار، منذ أن تطلع إلى الكوفة كأرضية مثالية لتحقيق طموحه السياسى. ولقد حاور حينذاك أحد أبرز قياداتها، وهو إبراهيم بن الأشتر، الذى كان أشد خصوم الأمويين تطرفًا، ولكن مع رؤية واقعية خاصة، تناقضت مع الفكر التوابى الانفعالى. غير أن الزعيم الكوفى لم يكن شديد الحماسة للمختار، فقد ارتاب منذ البدء فى إخلاصه للبيت العلوى الذى كان إبراهيم ملتزما توجيهاته، واجدا فيه ربما مجداً انتهازيًا يتسلق الموجة وراء مصالحه الشخصية. ولعله كان على جانب من الموضوعية، فى استنكافه عن الاستجابة لحركتى التوابين والمختار، بعد أن وجد فى الأولى تحركا فى غير أوانه، بينما وجد فى الثانية نوعًا من الاستثمار الشخصى لتراث الحركة الشيعية النضالى، دون أن تكون كلتاهما أكثر من استنزاف لطاقات الأخيرة، لن يخدم فى النهاية سوى مصالح الأمويين فضلا عن ابن الزبير[1].

وفى الوقت الذى خرج فيه التوابون إلى قدرهم فى «عين الوردة»، كان المختار الثقفى مرة أخرى وراء قضبان السجن. فقد كان الحليف السابق ابن الزبير، أكثر الناس ارتيابا بهذا الرجل، بعد أن خبره عن كثب، فضلا عن تحذير جماعته الكوفيين من نشاطه المكثف ودعوته الدائبة إلى تكتيل تحت زعامته. ولكن الفرصة تعيد نفسها، ويغادر المختار سجنه بعد تدخل صهره لدى ابن الزبير، بالشروط السابقة نفسها، وهى الابتعاد عن الكوفة. غير أن القرار بقى دون تنفيذ، إذ لم يشأ المختار إضاعة فرصته الأخيرة، بعد القضاء على التوابين وانعكاس ذلك تشنجًا على أجواء الكوفة. ولم يعدم تسويغًا لإخلاله بالعهد الذى التزم بتنفيذه: «ما احمقهم حين يرون أنى أفى بأيمانهم هذه، أما حلفى لهم بالله فإنه ينبغى لى إذا

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص202.

حلفت على يمين فرأيت ماهو خير منها، أن أدع ما حلفت عليه وآتى الذى هو خير وأكفر يمينى، وخروجى عليهم خير من كفى عنهم». وقبل أن يتحول المختار إلى هدف لملاحقة الشرطة الزبيرية بادر فوراً إلى التحرك، خشية أن لايبقى الوقت حليفه الدائم. وكانت الخطة على جانب كبير من الذكاء، حين فاجأ الناس بإعلان برنامجه السياسى، بالنيابة عن محمد بن على (ابن الحنفية) الذى أصبح بعد موت أخويه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، الزعيم الأبرز فى البيت العلوى، زاعمًا المختار أنه يحمل وثيقة بالدعوة له فى الكوفة. على أنه رغم المداهمة الناجحة والتأثير السريع الذى لقيه ذلك فى أوساط الحركة الشيعية، فقد ظهر من ارتاب فى هذا الزعم ومدى صحة العلاقة بين المختار والزعيم العلوى. وكان فى طليعة المرتابين ابن الأشتر الذى انتدب وفداً للاتصال بابن الحنفية، حيث كان يعيش تحت المراقبة فى الحجاز، شأن بعض الزعماء الذين لم يطمئن لهم ابن الزبير. ولكن ابن الحنفية الذى عاش المعاناة فى ظل عهدين، كان ثانيهما (الزبيرى) أشد ضغطًا عليه، لم يجد مايمنعه من تأييد المختار أو التعاطف معه، ولكن بشىء من الحذر. ولعله فى موقفه غير الحازم كان يخشى فى الوقت نفسه توتر العلاقة مع ابن الزبير، وما يترتب على ذلك من نتائج سلبية، لابد أنها منعكسة عليه وعلى الحركة الشيعية معًا، أو أنه وجد فى المختار شخصية تتجاوز بطموحها، دور الداعية الانضباطى، الأمر الذى ترك هذه المسألة محاطة بالشك ومنطوية على كثير من الغموض. وسواء جاءت «الأوامر العلوية» مموهة أم واضحة، فإن زعامة الحركة الشيعية انعقدت للمختار الذى أصبح فجأة سيد الموقف فى الكوفة، بعد القرار «الحزبى» بتأييده والاعتراف «الخجول» من جانب ابن الأشتر به. ولم يعد من الصعوبة، وقد اجتمعت الطاقات الشيعية تحت قيادة واحدة، السيطرة على الوضع فى الكوفة. ولقد تم ذلك أو كاد عبر انقلاب أبيض، فى الوقت الذى كان فيه صاحب الشرطة الزبيرى متعقبًا آثار المختار للقبض عليه، ولكنه اصطدم بالقائد العسكرى للحركة (ابن الأشتر)، مما أدى إلى مقتله على يد الأخير. وكانت هذه الحادثة، مؤشراً للانتقال إلى طور التنفيذ، بعد تقديمه يومين عن الموعد المحدد له.

وبسرعة مذهلة تم الاستيلاء على السلطة فى أعقاب هزيمة القوة التى أرسلها الوالى الزبيرى (عبدالله بن مطيع) بينما غادر الأخير قصره متخفيا ومواريا عن الأنظار. وهكذا نجح «الانقلاب» الشيعى فى الكوفة، بقيادة المختار الثقفى وحليفه القوى ابن الأشتر، وتمت السيطرة على الحكم لأول مرة منذ تنازل الإمام الحسن عليه السلام عن الخلافة، وذلك بالقليل من الوقت والتضحية. ولو شئنا تقويم هذا النجاح الذى استأثر به المختار دون غيره من قيادات الحركة الشيعية فى تلك الفترة، لوجدنا مجموعة من العوامل، تكاملت مع بعضها وهيأت المناخ المناسب لهذا النجاح[1].

1 ـ الأرضية الملائمة، حيث العواطف ثائرة والنفوس مشحونة، فى وقت كانت نخبة الحركة الشيعية تلقى مصيرها الذى اختارت، عبر عملية انتحارية كان لها صداها المأساوى فى الكوفة. ومن ناحية أخرى فإن حركة ابن الزبير لم تأخذ مواقعها السياسية، المدعمة بالحضور العسكرى المكثف فى هذه الأخيرة، بل كانت ماتزال معتمدة وجهة النظر الهادفة إلى تطاحن «الحزبين» الأموى والشيعى، ومايترتب على ذلك من استنزاف لهما، تكون هى المستفيدة الأولى من نتائجه.

2 ـ الشخصية القيادية البارزة التى تمتع بها المختار، فى الوقت الذى غابت فيه عن الكوفة الزعامة السياسية المحورية، القادرة على توحيد اتجاهات الحركة الشيعية واستيعاب التطورات المتلاحقة. ولا نهمل أيضًا المرونة والدهاء لدى المختار، وهما من أبرز صفات السياسى الناجح، فضلا عن إتقان المناورة والاحتفاظ دائما بأوراق غير مكشوفة لاستخدامها فى الوقت المناسب.

3 ـ الطرح الإصلاحى فى فكر المختار، كان المدخل الاستقطابى للفئات الشابة المنتمية إلى الجيل الثانى من الحركة الشيعية التى تستجيب عادة لدعوات التغيير، دون أن ننسى الفئات المسحوقة غير العربية (الموالى) التى وجدت فى حركته المتنفس لتحقيق أهدافها فى المساواة وتحسين أوضاعها الاجتماعية.

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص204.

4 ـ فشل السلطة الزبيرية فى الكوفة فى أن تكون البديل المقبول، فى وقت كانت الغالبية العظمى تنشد التغيير الجذرى على أكثر من صعيد. فهى لم تضف إلى سابقتها الأموية أى تطوير فى الممارسة أو فى النهج العام، بل كادت تكون استمراراً طبيعيًا لها، حتى فى العلاقات المحلية والتحالف مع «الأرستقراطية» القبلية نفسها، وكذلك استخدام بعض من شاركوا فى قتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه فى كربلاء. كانت هذه أبرز العوامل التى أسهمت فى إنجاح «الانقلاب» الشيعى والسيطرة على الحكم فى الكوفة. ولكن المسألة لم تكن فى تحقيق هذا الإنجاز بقدر ما كانت فى المحافظة عليه، فقد تجلت متاعب المختار الجدية بعيد «الانقلاب»، مع الفشل فى تحويله إلى ثورة متكاملة الأطر الشعبية والتنظيمية، دون أن يحالفه النجاح فى معالجة هذه الثغرة أو التقليل من شأنها بعد الوصول إلى الحكم. ذلك أن التلاحم الشيعى وراء المختار كان مرحليا ومصطنعا، بينما المجابهة مع التحديات فى المقابل كانت مقلقة وغامضة، فالاحتفاظ بالسلطة وسط تلك الدائرة الواسعة والمعقدة، كان مصحوبا بأخطار محلية وخارجية محدقة، وكانت «الأرستقراطية» القبلية المتذبذبة (الأشراف) تشق الانسجام الكوفى، كونها تملك القدرة المادية والمعنوية على إثارة المشاكل الخطيرة ضد المختار، والاستعداد الدائم لاتخاذ نفسها معبراً للطرف المتنصر إلى الكوفة. كانت تلك صورة الوضع الداخلى، بينما فى الخارج اقتربت قوات الأمويين من الموصل، بعد القضاء على التوابين فى عين الوردة، دون ثمة ارتياب بأن الكوفة هدفها المباشر لاعتبارات سياسية وجغرافية، فى مرحلة استعادة مركزية السلطة الأموية عبر المدخل الكوفى.
وما بين متاعب الجبهة الداخلية والتهديد الأموى، كان هنالك خطر ثالث، لايقل شراسة يتربص بالمختار، وهو الطرف الزبيرى الذى أمسك حينذاك بزمام النفوذ الرئيسى فى العراق. وفى غمرة هذه المتاعب، كان لابد من تكتيل الجهود لصد الهجوم الأموى الوشيك، وهو ما كانت تشجع عليه الحركة الزبيرية التى تراقب تطاحن الطرفين الشيعى والأموى. فتوجهت فرقة من الكوفة لتأخير تقدمه، بانتظام استكمال العمليات الأمنية فى الأخيرة، بينما الحملة الرئيسية تولاها إبراهيم بن

الأشتر. وما كـاد هذا القائد يغادر الكوفة بالجزء الأكبر من الـقوة العسكرية، حتى كان «الأشراف» يفاجئون المختار بانقلاب مضاد، وضعه فى غاية الحرج والارتباك. ولعل دافعهم كـان مبنيًا ـ كما تشيـر الروايات ـ على الاستياء من متغـيرات حركة المختـار، لاسيما الجـانب الإصلاحى منها وما رافـقه من تضارب مع الامتـيازات التقليدية لهذه الفئة. وكان التوقيـت مناسبًا لتحرك «الأشراف» الذين اعتمدوا على قوتهم الذاتيـة وعلى الدعم الزبيرى، دون أن يكون لدى المخـتار من القـوة، حتى الدفاعية لإنقـاذ نفسه من هذا المأزق. ولكن المناورة التى برع فيهـا، بقيت سلاحه المتفوق، إذ نجح فى استدراج زعماء «الانقلاب» إلى مفاوضات عقيمة، فى الوقت الذى استدعى قائده ابن الأشتر، فى ظل جو بالغ التكتم إلى الكوفة.

ولم يأخذ قمع التمرد «القبلى» غير وقت قصير من المختار، حين نجح قائده ومعـه بقايا التـوابين بقيـادة رفاعة بـن شداد فى إخمـاده والقضـاء عليه من غـير صعوبة. ثم عـاد ابن الأشتر إلى مهمتـه الأساسية، بعد أن أثبت أنه يتمـتع بألمعية قيادية، ستكون أكـثر بروزاً فى معركته الطاحنة ضد الأمـويين التى جرت عند نهر «الخازر»، وأسـفرت عن تدمير قـوتهم ومقتل قـائدهم المعروف عبـيد الله بن زياد وكبار أصحابه. فـبلغ المختار حينذاك قمة مجده السـياسى، فى أعقاب أول هزيمة عسكرية للأمويين ومـقتل أحد أبرز المسؤولين عن مأساة كـربلاء، مما كان له صداه العميق فى قواعد الحـركة الشيعية وقياداتها فى الكوفة والحـجاز. غير أن الوصول إلى القمة لايعنى الاحتفاظ بها، ونشوة الانتصار الباهر لاتسمح بالمتاعب الكبرى، لاسيـما تلك التى كانت تحاصـر المختار وتضـيق الخناق على حركته، إثر انتـصار «الخازر» وما انطوى عليه من نتائج لم تكن بمجملها واضحة، إذا ماتوقعنا عند بقاء إبراهيم بن الأشتر فى الموصل، مـكرسًا بداية الافتراق عن حليفـه الثقفى. والواقع أن ثمة تناقضا بين الرجلين، لم تخـفه النجاحات التى حققتها الحركـة الشيعية فى الكوفة، حيث بقى زعيم الأشتر وأقوى شخصيات الأخيرة على حذره من حليفه، مشكلا ذلك نقطة الضعف الأخطر فى حركته. ولعله وجد فى المختار الذى كانت

له طريقته فى السلطة، وربما نظرته الخاصة، ما لا يتطابق تماما مع النهج الصارم لابن الأشتر، فضلا عن الارتياب بعلاقته المبهمة بالبيت العلوى. ومن هذا المنظور، فإن الزعيم الكوفى الذى ورث الالتزام المطلق بالاتجاه الشيعى عن أبيه، أحد أبرز المقربين من الإمام علىّ ﷺ والمقاتلين تحت رايته حتى الموت، لم يجد على الأرجح فى المختار، الزعامة المخلصة والمنضبطة، وبالتالى القادرة على إقامة نواة الدولة الإسلامية، وفقًا للطرح السياسى والاجتماعى الذى اكتسبه ابن الأشتر بالفطرة والانتماء والمعايشة للحركة الشيعية.

ومن المعتقد أن ابن الأشتر كان له تقويمه الموضوعى، للمجابهة غير المتكافئة التى بدت حينذاك بين المختار وخصومه الأقوياء، مدركًا استحالة المجازفة مع حليف ضعيف يتوكأ عليه والمراهنة على سلطة شيعية مستقلة، وسط هذا المحيط العدائى فى الكوفة. وكانت المبادرة مازال، فى العراق على الأقل، فى قبضة ابن الزبير، مما دفع ابن الأشتر إلى الالتقاء مع أخيه مصعب، حول أكثر من قاسم مشترك، كحليف مرحلى وند كفؤ فى مواجهة العدو الأموى. وهكذا، لم يكد المختار يصحو من نشوة الفرح التى غمرته والحركة الشيعية، بهزيمة الأمويين ومحاسبة المتهمين بقتل الإمام الحسين ﷺ، حتى وجد حكمه متهاويا بالسرعة نفسها التى صعد بها إلى القمة. فقد فوجئ بقوات مصعب بن الزبير ـ والى البصرة ـ تشق طريقها إلى الكوفة، فى ظل ظروف غير مواتية عسكريا، حيث فرغت الأخيرة من قوتها المقاتلة التى كان معظمها فى الموصل، دون أن تتحمس للدفاع عنه سوى قلة قليلة من جزئها المتبقى فى الكوفة. بالإضافة إلى ذلك، فقد اتخذ رؤساء القبائل (الأشراف)، بعد التجاء غالبيتهم إلى البصرة فى أعقاب «انقلابهم» الفاشل، دوراً تحريضيا لمصلحة ابن الزبير وقواته المتفوقة. وما لبث المختار أن تلقى أخبار الكارثة التى حلت بقواته فى «حروراء» وتراجع بقاياها إلى الكوفة، فخرج من قصر الإمارة بعد اشتداد وطأة الحصار عليه، ومعه قلة من رجاله، ليخوض معهم معركة بطولية انتهت بهم جميعًا إلى القتل. لقد كان

«انقلاب» المختار، المحاولة الوحيدة الناجحة التى قامت بها المعارضة الشيعية لاستلام الحكم فى العهد الأموى، وهى بدون ريب، ثمرة نضال طويل فى عهد معاوية، وتضحيات جسيمة فى عهد يزيد، تُوجت بسقوط سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ مع جماعته فى كربلاء، ومن لحقهم من التوابين فى عين الوردة. ومن البديهى أن الفراغ القيادى فى الحركة الشيعية التى كانت ماتزال تستجمع صفوفها الممزقة والملاحقة، قد أعطى المختار فرصته النادرة لقيادة هذه الحركة، مسجلا بذلك سابقة فريدة، ولكن دون أن تتكرر فيما بعد. ولعلها ثغرة أخرى هامة فى حسابات المختار الخاطئة، أن قاعدة الحركة الشيعية وقيادتها، كانتا وحتى إشعار آخر، ترفضان أية زعامة غير علوية. ولقد شكلت هذه المسألة إحدى الثوابت المتلازمة مع التحرك السياسى والشورى، حتى ما بعد سقوط الدولة الأموية، إذ بقيت الزعامة معقودة من دون جدال للبيت العلوى. ولعل هذه النظرية انبثقت عن المفهوم العام للسلطة عند الشيعة، كما تبلور فى وقت لاحق، جاعلا من الإمام ـ الخليفة ـ الظل والمؤهل دائما لاستلام الحكم والجامع فى يديه، بين دوره الدينى وبين مهامه السياسية[1].

التخلص من مصعب بن الزبير: استتب الأمر لمصعب فى العراق بضع سنوات، بعد أن تم له القضاء على المختار. وفى عام 72هـ/ 792م التقى عبدالملك بن مروان مصعب بن الزبير عند مسكن، وهى قرية على نهر دجلة. وكان مع عبدالملك آنذاك الحجاج بن يوسف الثقفى. ووقعت بين مصعب وعبدالملك معارك كثيرة أنهكتهما. ثم دارت الهزيمة على مصعب، وخر مصعب قتيلا وبهذه السرعة المذهلة انتهت حياة مصعب بن الزبير، ودخل عبدالملك الكوفة وحصل على البيعة من أهلها، وبايعته القبائل المتعددة النازلة فيها، وولى عليها أخاه بشر بن مروان، وولى على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد، ثم عاد إلى دمشق ليلتفت إلى أمر عبدالله بن الزبير، الذى كان ما يزال سيد الحجاز.

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ـ ص209.

فتنة عمرو بن سعيد الأشدق: نصت بعض مقررات المؤتمر الذى عقد بالجابية، على أن يكون منصب الخلافة لعمرو بن سعيد الأشدق بعد موت مروان ابن الحكم، لكن ذلك لم يؤخذ به وتناساه مروان بن الحكم، عندما بايع لولديه عبدالملك وعبدالعزيز، الأمر الذى أثار غضب عمرو، بعكس خالد بن يزيد، الذى انصرف إلى شؤونه واهتماماته العلمية، ولاسيما فى ميدان علم الكيمياء. وكان عمرو من الشخصيات الأموية البارزة، فقد شغل دورا مهما فى أمر الصراع على الخلافة بعد وفاة يزيد، ويقال إنه لم يبايع لعبد الملك، فصار سكان الشام فرقتين، واحدة مع عبدالملك، وواحدة مع عمرو بن سعيد، وقد تدخل بعض المتنفذين وتم الاتفاق على أن تكون الخلافة بعد عبدالملك لعمرو بن سعيد لكن على ما يبدو لم يكن عبدالملك راغبا فى تنفيذ هذا الاتفاق. وبدأت شرارة الفتنة عند خروج عبدالملك من دمشق إلى قرقيسيا وفيها زفر بن الحارث، فتحصن عمرو فى دمشق وأعلن العصيان على عبدالملك فاضطر عبدالملك إلى العودة إلى دمشق، ووقع قتال بين الطرفين انتهى بعقد صلح بينهما. لكن عبدالملك، بقى يكن الحقد لعمرو، واستطاع أن يجره إلى قصره، وذبحه ولفه فى بساط، وحاول أصحابه مقاتلة عبدالملك، لكن عبد الملك أغراهم بالمال فتركوا الأمور تجرى على هوى عبدالملك، وكان هذا الحادث عام 70هـ/ 960م[1].

نهاية عبدالله بن الزبير:

كان عبدالله بن الزبير من المعارضين الكبار، الذين أقضوا مضجع البيت الأموى وأقلقوا عبد الملك بن مروان منذ اللحظة الأولى لاستلامه منصب الخلافة. وقد ساعد القضاء على أخيه مصعب بن الزبير عبدالملك من البدء فى عملية التخلص من عبدالله بن الزبير، الذى انحصر نفوذه فى عهد عبدالملك بن مروان فى منطقة الحجاز. عهد عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف والى الكوفة بمحاربة عبد الله بن الزبير، وأمره بالمسير إلى الحجاز، فسار الحجاج حتى وصل

1 ـ د. إبراهيم زعرور ـ المرجع السابق ص52.

إلى مـدينة الطائف فأقـام بهـا مدة، ثم زحف إلى مـكة المكرمة فى مـوسم الحج ونصب المجانيق على جبل أبى قبيس، فتـحصن ابن الزبير بالمسجد، كان ذلك فى عام 72هـ/ 692م. فطال الحصـار على مكة وتخلى عن ابن الزبير عدد كبـير من أتباعه وجـنده، حتى إن ولديه حبيـبًا وحمزة تركـاه والتحقا بالحـجاج. ويبدو أن عبـدالله بن الزبير، رغم مـواقع القوة التى يسـتند إليهـا من كسـبه معـظم القوى المعارضـة للأمويين، لم يكن من الحنكة السـياسيـة وبعد النظر بحـيث يستطيع أن يستفيد من هذه المواقع، أو يحتفظ بها. فقد كان يرتكب حماقات مثيرة للمؤمنين، كتلك الحماقة التى ارتكبها يزيد بن معاوية بضربه الكعبة بالمنجنيق من قبل، فهو - أى ابن الزبير - كان يحكم بالتـسلط والبطش من جهة، ويعلن إلحاده واستـخفافه بالدين وهو جالس فى الكعـبة، من جهة ثانية. من هنا لم يـستطع أن يقف بوجه الجيش الأموى الذى أرسله عبدالملك بن مروان إلى مكة لاخضاعه. فقد تفرق عنه أنصاره لسوء تصـرفه، وجاءه الجيش الأموى وهو على هذا الضـعف، فحاول أن يختبئ فى الكعبة، ولكن أمه أسماء بنت أبى بكر شجعته على قتال الأمويين وجها لوجه، فخرج لقتالهم فى شوارع مكة، لكن سرعان مـا لقى حتفه قتيلا، وانتصر جيش عبدالملك[1].

فى جمادى الثـانية من عام 73هـ/ سبتـمبر 692م، قتل عبد الله بن الزبير وله من العمر ثلاث وسبعـون سنة وفى أثناء الحصار على مكة، أرسل الحجاج بن يوسف جماعة من جنده سيطروا على مـقاليد الحكم بالمدينة المنورة وأخرجوها من تحت سيطرة ابن الزبير. وتؤكد معظم الروايات على أن الحجاج قام بضرب المسجد الحرام بمكـة بالمجانيق، ولولا ذلك لما كـان عبـدالله بن الزبير قـد خرج لمواجـهة الحجاج وإلقاء ورقته الأخيرة، هذا بالإضافة إلى أن مؤن وذخائر جنده قد شارفت على الانتهاء، وهى الخطة التى كـان قد رسمها الحجاج وأراد أن تثـمر بهزيمة ابن

1 - حسين مروة - المرجع السابق ص486.

الزبير. وقد قاتل ابن الزبير قتالا بطوليا شـديدا حتى قتل عامة مؤيديه، فأحدق به جند الحجاج من كل جانب فضربوه بسيـوفهم حتى قتل، وأمر به الحجاج فصلب بمكة، أما عـروة بن الزبير فقد فـر من الحجاج إلى الشـام، واستجار بعـبد الملك فأجاره.

أمر العصبية القبلية:

حارب الإسلام العصبية والطائفية والعنصـرية فقد كانت العصبية تحكم حياة المجتمع العربى فى الجـاهلية. فبقدر عراقة النسب كان يتـحدد الوضع الاجتماعى للفرد، وكان ظهور الإسلام يمثل ثورة اجتمـاعية كبرى إلى جانب كونه ثورة دينية عقائدية، فقد أطاحت مبادئه فى المساواة بقـيم المجتمع الجاهلى التقليدية ومن بينها التعصب للقبيلة أو العنصر، وحرر الفرد من قيود التبعية العمياء للقبيلة، كما حرر العبيد من وصاية أسـيادهم. وتبرز مبادئ الإسلام قيمـة الفرد بالقياس لدوره البناء فى خدمة الجماعة، وتقيم أسـاسًا جديداً للمفاضلة بين المسلم والمسلم على أساس «التقـوى» لا على أساس العرق والنسب والعنصر كـما كان سائداً من قـبل. وقد حارب رسـول الله ﷺ نزعات الجـاهلية التى كـانت تظهر بين الحـين والآخر فى سلوك بعض الذين لم يتأهل الإسلام فى قلوبهم ممن أسلمـوا بعد فتح مكة ومات رسول الله ﷺ وهو مطمـئن إلى نجاحه فى كـبح جماح تلك النزعـات العصبـية والطائفيـة وقال فى خطبـة الوداع. .«أيها الناس إن الله تعالى أذهـب عنكم نخوة الجاهلية وفـخرها بالآباء» لكن تلك النخوة عادت للظهـور على أثر وفاته ممثلة فى حركة الردة فقمـعها أبو بكر دون هوادة، وخلفه عمر فاستأسد فى اسـتئصالها فلم نسمع طوال حكمه على أثر لها ولم تبرز إلا فى خلافة عثمان وفى العصر الأموى استـفحل خطرها خاصة وأن بـنى أمية عملوا على إذكـاء النعرات القبليـة وأعانوا بعض القبائل العـربية على بعضها الآخر لإحداث نوع من التـوازن السياسى يكفل لحكمهم البقاء والاستمرار فى الوقت الذى كان عمر استئصل شأفة النزعات القبلية والعنصرية[1].

---

1 ـ محمود إسماعيل ـ قضايا فى التاريخ الإسلامى ـ ص26.

قال الطبرى إن عمر كبح جماح أسرته وبنى جلدته «بنى عدى» حين راموا وضعا متفوقًا يجعلهم حيث جعل الله خليفة للمسلمين لكنه وبخهم وأنزلهم منزلتهم فى ديوان العطاء وفقا للمعيار الذى استنه فى هذا الصدد وهو المفاضلة على أساس القرابة من رسول الله ﷺ ثم السابقة فى الإسلام وحسن الأثر فى الدين وقال الطبرى أن عمر زجر أسرته بقوله: «بخ بخ يا بنى عدى أردتم الأكل على ظهرى وان أهب حسناتى لكم، لا والله حتى تأتيكم الدعوة وإن أطبق عليكم الدفتر وأن تكتبوا آخر الناس»، ولقد ضرب عمر المثل بموقفه من قومه بل بنفسه أيضا عندما قال: «ما أحد أحق بالمال إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدهم»، ولم تكن للعصبية أدنى أثر فى المفاضلة بين المسلمين على أساس التقوى حيث قال: «لا نجعل من ترك دياره وأمواله مهاجراً إلى النبى ﷺ كمن دخل الإسلام كرها». ونستخلص من هذا المبدأ أيضا وقوفه فى وجه الذين أسلموا بعد الفتح من الأرستقراطية القرشية وخاصة بنى أمية وفرع أسرة أبى سفيان ومروان الذين أسلموا بعد الفتح يمثلون الأرستقراطية القرشية. ذكر الطبرى فى هذا الصدد أن عمر «فرض للمسلمين الفروض ودون واعطى العطايا على السابقة، فأعطى صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وأهل الفتح أقل مما أخذه منه قبلهم فامتنعوا من أخذه وقال: لا نعترف أن يكون أحد أكرم منا، والقائل: إنى إنما اعطيتكم على السابقة فى الإسلام لا على إلا حساب»[1].

بمقتل عبدالله بن الزبير انتهى عبدالملك بن مروان من أكبر متاعبه السياسية، فشعر بالاستقرار بعد قلق طويل إلى حد كبير، ساعده على ذلك وجود الحجاج ابن يوسف الثقفى فى مقاطعة العراق، التى كانت إلى جانب الحجاز مصدر تعب للأمويين. بقى عليه بعد ذلك أن يعمل على تجميع القبائل التى طالما عاشت متفرقة بفعل أخذها بسياسة العصبية القبلية البغيضة. فقد شعرت الحجازية بخيبة أمل مريرة بعد خسارتها لنفوذها العام بعد معركة مرج راهط، وراحت تضمر

1 ـ محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص27.

الحقد والضعينة والبغضاء لليمانية، وتعمل فى الخفاء وبشتى الوسائل للانتقام. وقد وقف الحكام الأمويون من هذا الأمر مواقف متباينة، فبعضهم تمكن من التغلب على هذا الوضع الصعب، وبعضهم لم يتمكن من فعل شيء يذكر. مثال ذلك أن معاوية بن أبى سفيان تمكن من كبح جماح العصبية القبلية، فأقام توازنًا ناجحًا بين القبائل، أمـا فى فترة ابنه يزيد ومروان بن الحكم، فإن الأمور عـادت إلى أسوأ ما كانت فى الجاهلية، وبذلك يمكن القـول، إن الإسلام على الرغم من تأكيده على احتقار العصبية القبلية، فإنه لم يتمكن من الدخول فى نفوس الناس على الأساس الذى تنتفى معه العصـبية القبلية وتختفى من الحياة العـامة، كما أرادها رسول الله محمـد ﷺ. وقد انتبه عبدالملك بن مـروان بنظرة ثاقبة إلى خطورة بقاء العصـبية القبلية راسخة فى النفوس، فسلك مسلكًا وسطًا ومـعتدلا، فترك التعصب لليمنية وقرب الحجازية بقدر ما كان يقرب اليـمنية، الأمر الذى أدى إلى التخفيف من قوة زخم السيطرة اليمنية وقد عبر عن ذلك الأمر أحد الشعراء بقوله:

فلولا أمير المؤمنين لأصبحت   قضاعة أربابًا وقيس عبيدها

وحصد عبدالملك من هذا التصرف الحـكيم، أن الحجازية عزفت عن سياسة المعارضـة له وسارت تحت لوائه على أتم وجه، وبالمقابل فـقد أحسن إليـها وقرب زعماءها، وأسنـد لهم المناصب كما هو حال الزعـماء من اليمانيـة، مثال ذلك أن زفر ابن الحارث الكلابى وأولاده أصبحوا من ألمع رجالات بلاط عبدالملك بدمشق. وقد أدت هذه السياسـة على المدى البعيد، أنها جعلت الشاميـين يشعرون بضرورة اتفاقهم، لأن فى ذلك مصلحة لهم فى جـميع الميادين وبالتالى فقد أدى ذلك إلى جعل مايجرى فى الأقاليم الأخرى من معارضة ومـخالفة صغيراً لا قيمة له، طالما أن حاضرة الخلافة قوية راسخة البناء[1].

تمرد عبدالرحمن بن الأشعث: كان للظروف العـسكرية التى حدثت فى جـبهـة المشرق أثـرها البالغ فى ظهـور عـبدالرحـمن بن الأشـعث على الساحـة

1 ـ د. إبراهيم زعرور ـ نفس المرج ـ ص54.

السياسية، وقيامه بحركة تمرد ضد السلطة الأموية، التى مثلها يومذاك عبدالملك بن مروان. ففى مدينة كابل فى أفغانستان الحالية، قامت حركة مناوئة للعرب هناك بقيادة رجل اسمه (رتبيل) ولم يتمكن والى سجستان آنذاك عبيد الله بن بكرة من القضاء على هذه الحركة، التى هددت وجود العرب فى تلك المنطقة، وتشاء الظروف أن عبدالرحمن بن الأشعث، الذى كان معدوداً من أشراف مدينة الكوفة، كان موجوداً بالقرب من سجستان، فقام الحجاج بتكليفه بهذه الولاية، وفى الوقت نفسه أمده بجيش قوى بالعدة والعدد، وذلك ليتمكن من إعادة الأمور إلى كابل والتخلص من زعيم التمرد فيها، وقد ظهرت عبقرية عبدالرحمن منذ اللحظات الأولى لتسلمه ولاية سجستان، وتكليفه بحرب (رتبيل) ذلك لأنه ابتعد عن الأسلوب القتالى القديم، الذى يعتمد على الهجوم السريع المباغت، والذى لايضع الاستقرار بعد النصر فى الحسبان، وأراد أن يكون فتحه للمنطقة بالتدريج، ينتقل من موقع إلى موقع آخر بعد أن يرتب أمور الموقع الأول وهكذا حتى سيطر على منطقة واسعة الأرجاء، وأخبر الحجاج بكل الذى فعله، لكن هذا لم يعجب الحجاج، وأمره بالإسراع فى إنجاز مهمته وإلا فإنه سيرسل له أمر العزل. وهذا إن دل على شىء، فإنه يدل بغير شك على عدم بعد نظر الحجاج فى هذا الأمر على الأقل، فهو بعيد عن مجريات الأحداث ولا يعرف طبيعة المنطقة وسكانها. وقد أثار طلب الحجاج هذا غضب عبدالرحمن بن الأشعث، فبادر إلى إطلاع رجاله بالذى حدث بينه وبين الحجاج، ووافقوه على القيام ضد الحجاج الذى أظهر حماقة ظاهرة، وبايعوه أميراً عليهم وكلموه بالتوجه إلى العراق لخلع الحجاج. بعد ذلك بدأ عبدالرحمن بن الأشعث بترتيب أموره فى سجستان فصالح رتبيل وعين عمالا يمثلونه فى مناطق وجوده. وفى عام 81هـ/701م غادر المنطقة باتجاه العراق، بعد أن تجمع معه جيش قوى، عاهده جميع رجاله على خلع الحجاج وعبدالملك بن مروان. فى هذا الوقت بالذات، كان المهلب بن أبى صفرة موجوداً فى خراسان كعامل عليها. فلما علم بخبر خروج ابن الأشعث، بادر إلى إخبار الحجاج وأشار عليه ألا يتعرض لرجال ابن الأشعث حتى يصلوا إلى ديارهم لأن

معظمـهم كانوا من أهل العـراق، الأمر الذى يجـعلهم يلجأون إلى أهلـهم بمجرد وصولهم إلى العراق[1].

رفض الحجاج نصيحة المهلب، وجرد جيـشًا بقيادته لقتال ابن الأشعث وقد تلاقى الطرفـان على نهر الدجـيل فى الأهواز، ووقع بينهمـا قتال صـعب، تمكن بنتيجتـه ابن الأشعث من هزيمة الحجاج وجيشه، الذى لم يقـبل بنصيحة المهلب، وبرهن على حماقة أخرى اقترفها دون تفكير أو ترو، فدخل أصحاب ابن الأشعث إلى البصرة، لكنه لم يتمكن من المحافظة على تفوقـه، فانسحب إلى الكوفة معقل أنصاره، الأمر الذى أفسح المجال للحجاج من دخـول البصرة، وأصدر عفواً عامًا عن أهلها. ثم تركهـا بعد أن رتب أمورها باتجاه مديـنة الكوفة، ونزل إلى الغرب منها. فقـام ابن الأشعث بالمجىء إلى دير الجماجم فـور سماعه بقـدوم الحجاج. وطال القتال بين الـطرفين، على الرغم من تركيز عبـد الملك بن مروان على ذلك بإرساله أخيه محمد بن مروان وولده عبدالله للاشتراك فى القتال، وتعثرت الأمور إلى درجة قام عبد الملك بالسمـاح لقادته أن يعرضوا بعض الحلول، التى كان منها عـزل الحـجاج عن العـراق، وتكليـف ابن الأشعث بـحكم أية مـدينة يريدها فى العراق. لكن الحجاج انزعج من ذلك وكتب لعـبد الملك بن مروان، وحرضه ضد العراقيـين، وأنهم لو استلموا حكم العراق، فلن يكونوا مـواطنين صالحين. لكن عبـد الملك لم يلتفت إلى كلام الحـجاج، الذى كان يشـعر على ما يبـدو أن أحد الأسباب لثورة العراقيين، يتجسد بوجود الحجاج حاكمًا عليهم، لكن حظ الحجاج كان أحـسن من حظ العراقـيين، الذين رفـضوا مـا عرضه عـليهم عبـد الملك بن مروان، على الرغم مـن موافقـة زعيمـهم ابن الأشعث على ذلك، فـأصروا على إصرارهم والتـمسك برأيهم، وقـاموا وخلعـوا الخليفـة والحجـاج فى وقت واحد ودخلوا فى حرب مع أنصـار الخليفـة دام قرابة مئـة يوم، أحرز فى نهايتـه أنصار الخليفة نصرًا مؤزرًا أنقذ السلطة الأموية فى ولاية العراق، وفر المنهزمون من أنصار

1 ـ د. إبراهيم زعرور ـ نفس المرجع ـ ص58.

ابن الأشعث إلى البصرة من جديد، وغادرها بعد إقامة قصيرة إلى بلدة مسكن على الدجيل، فتبعهم الحجاج وهزمهم بعد قتال شديد، فلجأ ابن الأشعث بعد هذه الهزيمة القاسية إلى المشرق فتبعه أنصار الحجاج بقيادة عمارة بن تميم إلى سجستان وكرمان، وهناك اعتقل ابن الأشعث، اعتقله بعض قادة المنطقة، وكان بوده إرساله إلى الحجاج ليقتله، لكن رتبيل تدخل فى المسألة، وتمكن من افتكاك ابن الأشعث من معتقله، وأخذه إلى كابل وظل ابن الأشعث فى حماية ورعاية رتبيل فى كابل، حتى اقتنع بتسليمه إلى الحجاج بعد مراسلات واتصالات طويلة جرت بين رتبيل والحجاج، وعندما سلم إلى الحجاج صعد إلى القصر وألقى بنفسه من على جداره فمات عام 85هـ/ 704م وهكذا تخلص الأمويون بأعجوبة من حركة تمرد، كانت ستغير المنطقة فيما لو تمكن العراقيون من استغلالها، لكنهم خسروا كل شىء بفعل موقفهم، الذى لم يعتمد العقل فى تسييره، فتعزز موقف الحجاج من جديد، وستزيد سطوته عليهم[1].

ثورة العبيد: هذه المرة يواجه العرش الأموى فى شخص عبدالملك نفسه انتفاضة طبقية من نوع جديد. فهى - أولا - تنبع من الداخل، أى فى المعقل الحصين الأمين للأمويين، فى الشام ذاتها. وهى - ثانيا - تنبع من أعماق المجتمع، أى من إحدى فئات الناس البسطاء المظلومين المضطهدين. وهى فئة العبيد. فقد ثار العبيد هؤلاء فى دمشق، فقصدوا إلى السجون وأخرجوا كل من فيها من السجناء، ثم ذهب العبيد والسجناء المحررون إلى حيث اعتصموا خارج دمشق فى الجبل المطل عليها. لكن هذه الثورة، كشأن ثورات العبيد كلها فى العصور السابقة. لم يكن لها أن تظفر بشىء من النجاح، لأن الثائرين لا يملكون السلاح حتى للدفاع عن أنفسهم. ولأنهم لا يملكون كذلك المساندة من القوى الاجتماعية الأخرى المضطهدة أيضا من فقراء الفلاحين وغيرهم من المستثمرين. وكان لايزال

1 - د. إبراهيم زعرور - نفس المرجع - ص59.

للرق مكان من النظام الاجتماعى، وان كان الإسلام جاء بتشريعات تفرض على مالك العبيد فى بعض الحالات تحرير بعضهم تكفيراً عن بعض الخطايا: من أفطر عمدا فى شهر رمضان فكفارته إما صوم شهرين متتابعين أو عتق عبد يملكه أو إطعام ستين مسكينا. وكذلك يجب العتق فى كفارة اليمين الكاذبة، وفى التكفير عن القتل الخطأ. أخفقت ثورة العبيد هذه فى دمشق إذن، وقضى عليها جيش عبد الملك. لكن قائد هذا الجيش نهى جنوده عن قتل العبيد الثائرين احتراما لملكية «اسيادهم»[1].

ثورة الترك: اشتهر عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك بإصلاحات تنظيمية حضارية متميزة فى تاريخ الدولة الأموية. منها صك النقود العربية (وذلك أول عمل من نوعه)، وتعريب سجلات الدولة لأول مرة، ومحاولة فصل سلطان «الدواوين» بعضها عن بعض لضبط أعمال كل منها، وتوسيع الفتوحات فى أقسام واسعة من آسيا وأفريقية، بل فى أوروبا كذلك. وإذا كانت هذه الفتوحات قد وسعت رقعة الدولة العربية وجعلت سلطان العرب والإسلام يشمل بلدانا وشعوبا عدة كان لدخولها فى تاريخ العرب السياسى أثر ملموس فى تنويع الثقافة العربية وإخصابها، فإنها ـ أى هذه الفتوحات ـ قد تركت آثارا سلبية فى السياسية الاقتصادية والإدارية والاجتماعية، لأنها ـ أولا ـ أدت إلى إضعاف مركزية الدولة، إذ اقتضت سياسة التوسع بالفتوح أن يصبح حاكم كل ولاية وكأنه صاحب سلطة مستقلة أو دولة ضمن الدولة حتى لم يكن يدفع لسلطة الخلافة المركزية سوى جزء من واردات الضرائب ويستبقى لديه سائر أجزائها، ولم يكن ما يقدمه لهذه السلطة من غنائم الفتح فى المعارك سوى الخمس ويستولى هو على أربعة أخماسها يتصرف بها كما يشاء. وأما ـ ثانيا ـ فقد أدى هذا التوسع بالفتوحات إلى المزيد من الإنفاق على الجيوش وحماية الأراضى المفتوحة وتنظيم الشؤون العامة. ومن طبيعة الدولة التى حكمها ممثلو الطبقة الغنية المستثمرة للأكثرية أن تلقى بمعظم تكاليفها على

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص486.

اكتاف هذه الاكثرية. وذلك ما حدث بالفعل فى سياسة الدولة الأموية من ذلك العهد، فصاعدا حتى انهيار هذه الدولة تحت وطأة الانتفاضات الاجتماعية، فضلا عن وطأة الصراعات السياسية المتداخلة مع تلك. ومن هذه الانتفاضات، كنموذج، ما حدث فى بلاد الترك بآسيا الوسطى عام 73هـ الموافق 692م. فقد حفلت مؤلفات المؤرخين العرب بأخبار الأحداث الجارية هناك فى العام نفسه والأعوام التالية له. ويبدو واضحا من أخبار المؤرخين هذه أن السياسة المالية التى اتبعها حكام بنى أمية كانت العامل الأهم فى حدوث الاستياء الذى تراكم وتفاقم حتى تحول إلى انتفاضات مسلحة كادت تقضى على سلطة الأمويين فى بلاد الترك. فإن كثيراً من السكان هناك دخلوا فى الإسلام، ولكن سياسة الحكم الأموى لم ترفع عنهم الجزية رغم إسلامهم، بل أضافت إليها ضرائب جديدة، وقد استغل ملوك الترك، وعلى رأسهم «الخاقان الأعظم» استياء البسطاء لاستعادة سلطانهم فحاربوا الدولة حربًا طويلة مرهقة، وقد وقف بعض العرب هناك من دعاة المذهب المعروف بـ «المرجئة» إلى جانب السكان المستائين يؤيدون حقهم على السلطة الأموية أن تخفف عنهم أعباء الضرائب وقسوة الجباية[1].

حرب العصبيات فى إسبانيا: أما الموضوع الثانى الذى سنعنى بدراسته فى عصر الولاة فهو حرب العصبيات فى البلاد: النزاع بين القبائل العربية نفسها، وبين عرب الجنوب وعرب الشمال ثم النزاع بين العرب والبربر. وقد نسأل: لماذا اشتد اهتمامنا بحرب العصبيات هذه فى إسبانيا؟ الحقيقة أن اهتمامنا بهذا الموضوع، يرجع إلى الأثر الذى تركه هذا النزاع فى تاريخ البلاد، فقد طبع الحياة الإسلامية فى إسبانيا بطابع فريد ظل يميزها طوال العصور الإسلامية وترك أثرا فى الحياة الثقافية، وفى معركة الإسلام من أجل الانتصار خارج حدود البلاد. وسنبدأ الحديث عن انقسام العصبية العربية على نفسها وقيام النزاع بين عرب اليمن وعرب الحجاز. الحقيقة أن العصر الأموى هو عصر العصبية العربية فى أوضح صورها

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص487.

حتى ليقال إن الحكم الأموى كان إحياء للقرشية الجاهلية القديمة من تكوين الأحلاف القبلية وصراع الأحلاف بعضها ببعض إبقاء لنفوذهم. ونحن لاننكر أن العصبية كانت أقوى من أن يقضى عليها فى وقت قصير، وأن العرب إذا كانوا قدسوا القبيلة فى بلاد العرب فإنهم كانوا أحوج إليها فى غربتهم إبقاء على عنصرهم ودمائهم، غير أن الأمويين كان فى إمكانهم أن يعالجوا هذه الحالة، وأن يتموا ما بدأه الراشدون، ولكنهم استفادوا من العصبية وعملوا على النفخ فى نارها حتى لايجتمع العرب على كرههم. واندلعت نار هذه الحرب الضروس وما صحبها من صراع على السلطان فى بلاد الشام قلب النفوذ الأموى، ولكن الخصام ما لبث أن امتد إلى جميع البلاد الإسلامية فى وقت واحد رأيناه فى خراسان والعراق وفى الشام ومصر وفى بلاد المغرب. وانتقل النزاع إلى إسبانيا بعد الفتح مباشرة وعلى إثر هجرة قبائل عربية كثيرة، إما من بلاد العرب رأسا أو من بلاد المغرب، وكان المهاجرون ينضمون إلى من يجدونه من أبناء العشيرة فتتجمع كور القبائل وتتكون الجماعات الحجازية، ولم تكن العصبية كلها بسبب النزاع القبلى، ولاننكر أن المهاجرة إلى إسبانيا كانت قلوبهم تفيض بالحقد والمرارة حينما تستعيد ذكريات الصراع الدموى فى بلاد الشام، ولكننا نعتقد أن الذى كان يثير هذه الأحقاد القديمة التنازع على الغنائم والسلطات والمصالح الجديدة التى تكتشف أمام العرب فى البلاد، فقد كانت المغانم كلها فى أول الأمر لليمانية لأنه يبدو أنهم كانوا أقدم القبائل هجرة كما حدث بالضبط فى مصر. ولكن كثرة أعداد المهاجرة من الحجازية الشاميين لم يرضوا بهذا الوضع واشتبك الجانبان فى صراع حياة أو موت شغل شطراً كبيراً من عصر الولاة، وقد اشتبك الطرفان فى معركتين حاسمتين فى تاريخ هذه الفترة من تاريخ إسبانيا الإسلامية.

موقعة أقوة برطورة: وقد كان عرب اليمانية بزعامة عبدالرحمن بن علقمة اللخمى وقطن بن عبدالملك ومن معهما من العرب من إقليم أربونة، وقد ساروا بجمعهم نحو قرطبة للقاء الحجازية الشاميين بزعامة بلج بن بشر، ثارت العصبية

فى إسبانيا كلها وتسارع اليمنيون للانضمام إلى عبدالرحمن، وجمع بلج من استطاع جمعه من الحجازية ومن انضم إليهم من الموالى وأهل البلاد وكانت جموع اليمانية أكبر، فيقال إن عددهم بلغ أربعين ألفا وقيل مائة ألف. ولم يزد عدد الحجازية عن 12 ألفا والتقت هذه المجموع المتخاصمة فى معركة دموية لم تشهد البلاد مثلها واستمر القتال أياما، وانتهز الشاميون فرصة سنحت لهم فأنزلوا باليمانية هزيمة عظمى وكانت الهزيمة ساحقة بحيث أخضعت اليمانية وأقصتهم عن ميدان السياسة والقيادة.

موقعة شقندة: ولبس الصراع لبوسًا آخر فقد اتفق اليمانية عام 100 هـ ـ 747م على محاربة الصميل بن خاتم ومن معه من الحجازية وقد عجل الصميل باستنفار الحجازية كافة فساروا إليه واستنفر اليمانية جموعهم[1].

زحف اليمانيون إلى قرطبة حتى نزلوا على نهر قرطبة بقرب شقنده، وعبر الحجازية النهر للقائهم وبدأ التناحر. كان صراعا لا يدانيه صراع صفين بين الإمام علىّ ﷺ ومعاوية ومن الغريب أن عامة أهل قرطبة أيدوا الحجازية فى هذه الحرب وانحازوا إليهم فرجحوا كفتهم وهزم اليمانيون اليوم كما هزموا من قبل، وروى على لسان أحد زعماء اليمانية قوله: لو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها. كان هذان هما الصراعان الكبيران اللذان خاضتهما اليمانية والحجازية. وقد حفل تاريخ الفترة بصورة أخرى من النزاع ليست بهذه الشدة أو بهذا العنف. وكانت هذه الهزائم عظيمة الأثر فى تاريخ إسبانيا الإسلامية، فقد انصرف اليمانيون إلى الأعمال المدنية كالزراعة والتجارة وبرعوا فيها وأصبحوا من أغنى أهل إسبانيا وأوفرهم مالا، وتفرقوا فى ريف البلاد واشتغلوا بالزراعة واختلطوا بالسكان وعملوا على نشر الإسلام واللغة العربية حتى كانت لهجة أهل إسبانيا لهجة يمانية وكان أغلب أهل المدن يرجعون إلى أصول يمانية وقد ظهر أثرهم فى ميدان العلم وأصبحوا أساتذة إسبانيا الإسلامية فى الفقه وشئون الدين. كانوا فى

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ المرجع السابق ص67.

الحقيقة طليعة الحركة العلمية فى البلاد، وكونوا خلال هذه الفترة الحافلة بالعواصف حزبا معارضًا ظل ينتظر فرصة مواتية للعودة إلى الحكم، فلما أطل عبدالرحمن بن معاوية ظنوا أن الفرصة مواتية فأيدوه. ولم يكن هذا الصراع بين العرب أنفسهم فحسب بل سرعان ما تصارع البربر والعرب، هؤلاء البربر الذين فتحوا البلاد بسواعدهم وسيوفهم ودماء شهدائهم والذين وفدت جموعهم على البلاد بكثرة بعد الفتح نظرا لقربها من موطنهم الأصلى، ومن الغريب أن العرب والبربر الذين اشتركوا معا فى القتال تحت راية الجهاد فرقتهم الأطماع وتصدعت لفرقتهم جبهة الإسلام القوية. ويطيب لنا أن نستقصى الأسباب التى جعلت الفريقين يقفان وجها لوجه فى صراع دموى عنيف. ويفسر بعض المؤرخين هذا الخلاف بأن العرب اختصوا أنفسهم بخير بقاع إسبانيا، ولم يتركوا للبربر إلا النواحى القاحلة فى الشمال والشمال الغربى. وليس هذا التفسير صحيحًا إلى حد كبير، فقد كانت جماعات بربرية كثيرة قد استقرت فى أخصب نواحى إسبانيا فى الجنوب والشرق والغرب، بل كادت ناحية الجزيرة الخضراء أن تكون مقصورة عليهم لكثرة من نزلها من عشائرهم.

هذا، ولم يكن العرب من الكثرة بحيث يستطيعون الانفراد بكل سهول بلد عظيم واسع كإسبانيا، ثم إن الكثيرين منهم كانوا أهل جهاد مقيمين فى إسبانيا وأطرافها ولم تكن بقية العرب من الكثرة بحيث تستطيع احتلال سهول إسبانيا فى الشرق والجنوب والوسط. هذا، وقد استقرت جماعات من العرب فى أقصى الشمال وفى نواحى الهضاب الشمالية المجاورة لمواطن الأسبان والنصارى. لكن البربر غضبوا لاستبداد العرب بأمر الحكم واعتبارهم شعبًا محكومًا لايترك لهم نصيب فى الحكم والإدارة، ولم يكن البربر يعتبرون أنفسهم أقل من العرب دينا أو كفاية أو مساهمة فى الجهاد ولأنهم من العرب العاربة أصلاً. ولم يقف الأمر بالعرب عند مجرد الانفراد بالسلطة والاستبداد بها، بل امتدت أيديهم إلى البربر بسوء المعاملة والإهانة والامتهان. وقد اندلع الصراع بين العرب والبربر فى الغرب الإسلامى كله، اشتعلت الثورة أول الأمر فى بلاد المغرب وهزم العرب فى معركة

تسمى «معركة الأشراف» بسبب كثرة من قتل فيها من أشراف العرب وفر كثيرون من العرب بأنفسهم واعتصموا فى إسبانيا. ثم امتد لهب الثورة إلى إسبانيا نفسها. ثار بربر شمال إسبانيا على عربها المقيمين فى الأجزاء الشمالية فقتلوا منهم أعدادا وأسرع من بقى منهم بالهرب صوب الجنوب. وما كاد البربر يحرزون هذا النصر حتى اتخذت ثورتهم طابعًا خطيرًا شاملا يدل على أنهم كانوا يخضعون لقيادة واحدة تنظم صفوفهم وترسم لهم الخطط التى تكفل لهم النجاح، فقد جمعوا ثلاث جيوش كبيرة، كان الأول منها وجهته طليطلة، والثانى قرطبة، والثالث الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر الثوار فى الغرب وليقطع صلات العرب فى الشرق فيحاصرون حصارا لا مفر منه. وقد عبرت جموع من الحجارية إلى إسبانيا فى هذه الآونة الحاسمة من تاريخ العرب عبروا من سبته عام 123هـ الموافق 740م بقيادة بلج بن بشر وكان عددهم عشرة آلاف من خيرة فرسان الشام. وقد نهضوا للعمل الذى أتوا من أجله وهو لقاء البربر والقضاء على ثورتهم. وقد اتجهوا أول الأمر إلى القضاء على الجيش البربرى الذى كان يتجه صوب الجزيرة الخضراء، وقد هزم هذا الجيش فى معركة شذونة، واتجه العرب بعد هذا إلى جيش قرطبة فقضى عليه، أما الكتلة البربرية الثالثة التى كانت تحاصر طليطلة فقد كانت أشد خطرًا، فقد كانت كبيرة العدد ونجحت فى حصار المدينة نحوا من شهر[1].

سارت القوات العربية لقتالهم ودارت المعركة الحاسمة بين الجانبين عند وادى سليط، واستطاع الشاميون القضاء على هذه الجموع والانتصار عليها أوائل عام 124هـ ـ 741م. فلما تم للعرب إخماد ثورات البربر على هذا النحو تعقبوهم فى كافة نواحى الجزيرة يقتصون منهم فبدأ البربر يضيقون بالحياة فى إسبانيا واتجهوا نحو الجنوب فى طريق العودة إلى أوطانهم الأصلية. وكانت جموع البربر المهاجرة من الكثرة بحيث أدت إلى اضطراب الحياة الاقتصادية فى البلاد، إذ دخلت المزارع والقرى منهم وانتشرت المجاعة فى البلاد، كما أدت هذه الهجرة إلى إخلاء مناطق

---

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ نفس المرجع ص69.

فى شمال إسبانيا وغربها كادت تـخلو من المسلمين تماما. وانتهز النصارى الفرصة المواتية فاتسعـت دولة الأسبان فى جيليقية واسـتوريس اتساعًا مفاجـئًا إذ أصبحت ضعف حجمها الأول بين سنتى 751م، 753م لخلو البلاد من السكان المسلمين، ولم يكتف الأسبان بهذا القدر فقد اسـتولوا على اشترقة وليون، وانحدرت حدود إسبـانيا الإسلاميـة إلى الخط الممتد من قلمـرية على المنديجو إلى قورية وطلبـيرة وطليطلة على التاجه إلى وادى الحجارة وتطيلة. وقد خـسر المسلمون بهذا نحو ما فتحوه من البلاد ونمت المقاومة النصـرانية عبر الحدود، وتخلفت فى نفوس العرب والبربر رواسب من الكراهية ظلت قائمة قرونا طويلة. وبعد. ماذا كان حصاد هذه السنوات الدموية فى تاريخ إسبانيا؟. كـان حصادها هذه الحروب بين من وحدهم بالأمس كفاح وهدف واحد وخضبت أرض إسـبانيا بدماء كان يجب أن تسفك من أجل أغراض أسمى. اسـتنفذت قوة لو اندفعت عـبر البرانس، لاكتسـحت فرنسا كلها ولما كـانت لدولة الفرنجـة قائمة، فـقد طعن هذا الصـراع المد الإسلامى وراء البرانس طعنة نجلاء وسينحصر هذا المد بعد الغافـقى إلى غير رجعة، بل ستتعرض إسبانيا نفسها للعدوان فى عهـد شرلمان. لو كانت هذه القوة قد تضافرت فى جهد مشتـرك للقضاء على المقـاومة النصرانية فى مـأواها القاحل فى الشمال لـما استرد هؤلاء الثوار أنفـاسهم ولما تطاولوا على ديار المسلمين بالإغارة ولـما انتهى الإسلام إلى المصير الذى انتـهى إليه، فقد شغل المسلمـون عن بقايا القوط فثبـتت أقدامهم واستزدوا البـلاد التى أخلاها البربر، حتى إذا قـامت الإمارة الأموية وهدأت ريح الفتنة وتوحدت الصـفوف وانتهت الفرقة وجـد أمراء بنى أمية إمارات إسـبانية فى الشمال قوية قادرة على النضال والمقاومـة يأتيها المدد من دولة الفرنجة ومن البابوية فكانت نواة مـعركـة صليـبيـة فى الغرب سـتصل إلـى الذروة فى عهـد المرابطين والموحدين[1].

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص70.

ثورة المغرب العربى: اندلعت الثورة الاجتماعية فى المغرب فى أواخر العصر الأموى ومعلوم أن العنصر العربى كان عصب النظام الأموى، بينما كان الحكم العباسى يستند على الفرس والخراسانيين معظم العصر العباسى الأول، وبديهى أن يتسنم العرب قمة البناء الطبقى فشكلوا أرستقراطية عسكرية تشبثت بصدارتها طوال العصر الأموى، لكنها أرغمت على ترك مكانتها للعناصر الإيرانية بقيام الدولة العباسية، فتصدرت العناصر الجديدة الهرم الاجتماعى كأرسهتقراطية عسكرية بيروقراطية هيمنت على مصائر الحكم ومقدرات السياسة وقيادة الجيوش وخاصة بعد إسقاط العرب من ديوان العطاء. ولم يكن الأمر محض إحلال عنصر محل آخر، أو تصارع عصبيات فى حلبة السياسة، فالصراع السياسى كان يعكس تناحراً للاستئثار بوضع اجتماعى متفوق. أما العنصر العربى فينقسم إلى شعبتين أساسيتين: عرب الشمال ويعرفون بالحجازية، وعرب الجنوب ويعرفون باليمنية ومعلوم أن الصراع بين الطرفين كان مريراً وشاقًا فى عصور الجاهلية، وكتب الأدب تسجل ملاحمة الدموية فيما يعرف «بأيام العرب». وبفضل الإسلام إختفت النعرات القبلية وأصبح الجميع بنعمته إخوانا، جنبًا إلى جنب شاركوا فى حركة الجهاد تحت راية الإسلام الذى حول طاقاتهم لخدمة الدعوة، بعد أن كان بأسهم بينهم شديداً. وفيما يتعلق بفتح بلاد المغرب كان للعرب اليمنية فضل السبق، وكانت حركة الفتح تواكبها الهجرة والاستقرار فى الأمصار، فنزحت كثير من القبائل اليمنية إلى بلاد المغرب واستقرت فى المدن التى كانت أشبه بقلاع عسكرية، كما وفدت موجات أخرى من عرب الشمال ـ الحجازية ـ وتمتع الطرفان جميعًا بميزات الفاتحين، فشكلوا طبقة مميزة عن بقية السكان وكانت أرستقراطية بيروقراطية عسكرية بطبيعة الحال، فمنهم الولاة والعمال. وهم عماد الجيش فى الولاية، إذ تفرغوا للقتال، وتركوا الحرف والصناعات الأخرى للسكان الأصليين. ومعنى احترافهم الحرب تمتعهم بامتيازات غير محددة، فمن «ديوان الجند» تصرف لهم مرتبات وأعطيات ثابتة فى أوقات الحرب والسلم على السواء، ومغانم الحروب من أموال الفيء والسبايا، والأراضى المفتوحة عنوة لهم وحدهم حقا مشروعًا. بل وجد من سادات العرب من كان يمنح أعطيات ثابتة على أساس تسجيل أسمائهم

فى ديوان العطاء دون أن يشتركوا فى الحروب. وكان النظام الإسلام كما وضعه عمر بن الخطاب لايتيح للجند امتلاك الأرضى والضياع، لكن تلك السنة ضرب بها عرض الحائط فى العصر الأموى، فوجدنا الولاة والعمال يقتنون الضياع الواسعة فى الشرق والغرب على السواء ويديرونها لحسابهم، تقليدا لسادتهم من أفراد البيت الأموى، ويصف الطبرى الضياع الواسعة والبساتين التى امتلكها خالد ابن عبدالله القسرى فى العراق ويقدم إحصاء بأسمائها. وفى المغرب يخبرنا ابن عذارى عن مدى جودة وخصوبة مزارع الوالى يزيد بن حاتم ووفرة غلتها. ونعلم من الرقيق القيروانى أن مراعى أحد أبنائه كانت تغص بقطعان من الأغنام هالت كثرة أعدادها يزيداً حين خرج يومًا للنزهة خارج القيروان. تلك الأمثلة وغيرها تنهض دليلا على الوضع الطبقى المتميز الذى تمتع به العرب فى بلاد المغرب[1].

يمكن القول إن الأستقراطية العربية فى النظام الأموى تصدرت السلم الاجتماعى على حساب السواد الأعظم من سكان المغرب بكافة عناصره من البربر والأفارقة والزنوج الذين انضموا جميعًا فى طبقة واحدة عرفت «بالموالى». وجدير بالذكر أن التناقضات داخل الطبقة العليا سهلت من مهمة الثوار. وقد برزت تلك التناقضات فى صورة إحياء الخصومات القبلية والنعرات العنصرية. كما وأن ظهورها كان محكومًا بالمصالح الاقتصادية بالدرجة الأولى. أما الخصومة القبلية، فقد عادت من جديد بين عرب الحجازية وعرب اليمنية، كيف كانت تلك الظاهرة من أسباب هزيمة الجيوش العربية أمام الثوار. والخلافة الأموية مسؤولة عن ذلك إلى أبعد الحدود، إذ شجعت على إذكاء الضغائن والسخائم بين القبائل بقصد إحداث نوع من التوازن يكفل لها البقاء والاستمرار فكانت تارة تتعصب للحجازية وأخرى تشايع اليمنية. وكان ولاتها فى المغرب يتعصبون بالتالى لبنى جلدتهم ويؤثرونهم بالحظوة ويبطشون بالفرع الآخر. ففى بداية الأمر غلب نفوذ اليمنية

1 - د. محمود إسماعيل - قضايا فى التاريخ الإسلامى - ص113 وانظر الطبرى ج2 ص165.

أثناء ولاية موسى بن نصير، لكن الوالى الحجارى محمد بن يزيد نكل بآل موسى واليمنية معا، وعاد نفوذ اليمنية من جديد إبان ولايتى يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان، فأسرفا فى إذلال الحجارية، وما لبث أن دارت الدائرة على اليمنية فى عهود ولاة هشام بن عبدالملك على المغرب. ومن هنا حق لبعض الدارسين القول بأن الفوضى السياسية التى ترتبت على الخصومات القبلية كانت من الدوافع الأساسية لثورات البربر على الحكم الأموى. قصارى القول أن التناقضات الاجتماعية داخل الأرستقراطية المتسلطة كانت من العوامل الممهدة لنشاط القوى الثورية ولعل من أهم ما يميز الطابع الاجتماعى للثورة احتوائها عناصر وعصبيات شتى، فإلى جانب عرب البربر سكان البلاد الأصليين ضم معسكر الثوار كافة الأقليات غير الوطنية التى اعتنقت الإسلام بعد الفتح من الأفارقة والزنوج، فضلا عن المستنيرين من العرب الذين قاتلوا فى صفوف الثوار احتجاجًا على تسلط الطبقة الحاكمة، وتمشيا مع روح الإسلام فى الحض على مناهضة الحكم الجائر.

إن السياسة الأموية الجائرة مسؤولة عن عدم إقبال عرب البربر على الإسلام والتعريب، فحتى خلافة عمر بن عبدالعزيز كان إسلام عرب البربر سطحيًا، ولم يقدم البربر على تعلم اللغة العربية إلا فى وقت متأخر. لما اعتنق البربر الإسلام، وجدوا تناقضا صارخًا بين دعوته للعدالة والمساواة، وبين سياسة الحكومة بما تنطوى عليه من خروج عن الشريعة، فعولوا على الثورة، والتأم البتر والبرانس معا فضلا عن العناصر الأخرى من غير البربر فى محاولة لإقرار عدالة الإسلام، فقاموا بالثورة. واشترك فى الثورة من غير عرب البربر أقلية عرفت «بالأفارقة»، وقد توحى تلك التسمية - نسبة إلى افريقية (أى تونس) - بأنهم من سكان البلاد الأصليين، والواقع أنهم عاشوا فى تلك الولاية حقا منذ أمد طويل من الفينيقيين القرطاجيين وكونوا أقلية أكثر حضارة من البربر، لهم لغتهم الخاصة ونمط حياتهم المميز. وقد دافعوا الفتح الإسلامى فى البداية ولما انتصر العرب لم يغادر الفينيقيون القرطاجيون البلاد - كما فعل البيزنطيون - إنما اعتنقوا الإسلام، لكن ولاة بنى أمية

عاملوهم معاملة عرب البربر، فتعرضوا للاسترقاق والسبى وعوملوا معاملة أهل البلاد التى فتحت عنوة، وازدادت أحوالهم سوءاً فى أواخر العصر الأموى من جراء استبداد الولاة الذين أرهقوهم بالمغارم والجبايات. لذلك سخطوا على الحكومة الأموية وانضموا إلى البربر فى الثورة عليها، حتى إن زعيمهم شغل مركزاً قياديًا بعد نجاحها إذ تولى حكم مدينة طنجة. كما ضم معسكر الثوار طائفة «الزنج» أو «السودان» وتقع مواطن الشعوب الزنجية جنوبى الصحراء الكبرى، ويفصلها عن البربر سلسلة من الفواصل الجبلية تتخللها بعض الممرات المعروفة «بالمفاوز». وتلك الشعوب تتكون من أخلاط شتى يمكن التمييز بينها على أساس قبلى، فهناك قبائل زغاوة وصوصو وكوكو والتكرور وغيرها، ويصفها صاعد الأندلسى بالفوضى والهمجية، ولكل منها عاداتها وتقاليدها وطواطمها ومعبوداتها. وقبل الإسلام كانت تلك الشعوب تتاجر مع بلاد المغرب، وكانت القوافل تخترق المفاوز الجبلية محملة بالذهب والأبنوس وسن الفيل لتعود بالملح والنحاس. وبديهى أن يستقر بعض السودانيين فى المدن المغربية لمتابعة حركة القوافل الدائبة بين الشمال والجنوب، وازدهرت حركة التجارة بعد الفتح الإسلامى وعمل المغاربة وسطاء فى تجارة الرقيق حيث صدورا الرقيق الأسود إلى أوروبا والشرق، كما كانوا يرسلون بالرقيق الأبيض إلى الشرق كذلك[1].

وإذا كان الإسلام قد شجع على عتق العبيد، فإن بنى أمية لم يراعوا تعاليمه فى هذا الصدد، وغصت قصورهم وقصور ولاتهم وعمالهم بجيوش من الرقيق الأبيض والأسود على السواء. وعلى الرغم من اعتناق السودانيين بالمغرب الإسلام، وتفانيهم فى الإخلاص له فلم تكن حالهم فى ظل النظام الأموى بأحسن منها زمن الرومان والبيزنطيين. لذلك رحبوا بدعوة الخوارج والعلويين التى لاتفرق بين المسلم والآخر على أساس اللون أو العرق. واستطاعوا تجنيد أعداد غفيرة من

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ المرجع السابق ص120.

السودان اشتركت فى الثورة على الأمويين. وإذا كانت ثورة العناصر المستضعفة من بربر وأفارقة وسودان استهدفت الإطاحة بالأرستقراطية العربية فى العصر الأموى، فلم نعدم من العرب من انضوى فى معسكر الثوار، وقاد الثورة فى بعض مراحلها. وإذا كانت بعض هذه العناصر تبنت قضية الثوار عن إيمان بعدالتها وحرصًا على إرساء العدالة الاجتماعية فى الإسلام، كعبد الأعلى بن السمح المعافرى الذى قاد الثورة فى المغرب الأدنى؛ فلا شك أن كثيرين من العرب انضموا إلى الثورة لأسباب أخرى منها التنافس بين العرب الحجازية واليمنية، وهو أمر أذكاه خلفاء بنى أمية، كانوا يؤثرون فرعًا على الآخر فيسندون إليه المناصب الإدارية والمالية والعسكرية. وكان الفرع الآخر لايحظى بمثل تلك الامتيازات بل كان يخسف حقه فى الأعطيات والمرتبات. شكل هذا الفرع المغضوب عليه من الحكومة الأموية «الطبقة الوسطى» بين الأرستقراطية والموالى، وقد لعبت تلك الطبقة دورًا بارزًا فى ثورات الموالى فى العصر الأموى وتصدت لقيادتها فى المشرق والمغرب على السواء، وحسبنا فى هذا الصدد ثورات المختار، وعبدالرحمن بن الأشعث، ويزيد بن المهلب. وبدأ تشرب بعض تلك القيادات «البورجوازية» إلى بلاد المغرب فى صحبة الجيوش الأموية وقامت بدور ملحوظ فى مساعدة الثوار. وقد اتهم أحد ولاة بنى أمية فى المغرب العربى بتعاطفه مع الثوار. قصارى القول أن قوى الصراع تمثلت فى الأرستقراطية العسكرية الحاكمة، العرب فى العصر الأموى، بينما ضم معسكر الثوار كافة العناصر «المستضعفة» التى اندرجت تحت طبقة الموالى من البربر والأفارقة والسودان وبعض العناصر المستنيرة والانتهازية من العرب، وهو أمر ينفى عن الثورة تهمة الشعوبية، ويعطيها طابعًا اجتماعيًا مميزًا.

أسباب الثورة: البحث فى أسباب الثورات ودوافعها، يقود إلى تعدد تلك الأسباب وتنوعها ما بين سياسية واقتصادية وعنصرية ودينية، وإن كان العامل الاقتصادى هو المحرك الفعال وراء تلك الأسباب جميعًا، ومع أهمية الدين فى تفسير تاريخ الإسلامى - فى الشرق والغرب على السواء - لا مناص للباحث فى

هذا الميدان من وضع العامل الاقتصادى فى المحل الأول؛ فكافة الأحداث والوقائع التى اتخذت مظهراً دينيًا كانت تنطوى على أبعاد اقتصادية كامنة فيها.

العامل السياسى: فالفوضيوية السياسية عمت بلاد المغرب طوال عصر الولاة، فإن الحركة الاستقلالية فى المغرب كانت مبكرة جدا، فقد ظهرت على شكل ثورات ابتداء من عام 123هـ الموافق 740م على وجه التحديد، فهى من أسبق الحركات الاستقلالية ظهوراً فى التاريخ الإسلامى، الأمر الذى يدل على أن المغرب العربى كان أسبق الأقطار انفعالا بالحياة الإسلامية، وأن المغاربة كانوا من أسرع الشعوب دخولا فى الإسلام وتقبلا للحياة الإسلامية. ولعل ذلك نتيجة لسياسة المشاركة التى سار عليها الأمويون والتى أدت إلى استقرار الأمور فى المغرب ومكنت العرب من فتح إسبانيا ومحاولة التوسع فى جنوب فرنسا. ولم ترتبط الحركة الاستقلالية فى المغرب بظهور الإمارات المستقلة إنما كانت أسبق زمنًا من ظهور هذه الإمارات. وقد تجلت فى ثورات المغاربة التى عمت البلاد والتى كانت تظهر وتختفى أحيانًا حتى ظهور كل من الأغالبة والأدارسة. ثورات المغاربة إذن من أهم الأحداث فى تاريخ المغرب؛ لأنها تصور لنا التعبير الأول للحركات الاستقلالية فى المغرب، ويجب أن يعاد النظر فى هذه الثورات وأن تقيم تقييما جديداً، وأن نتعرف على ملامح الحركة الاستقلالية التى عبرت عنها. ومن الخطأ أن نفسر أحداث هذه الثورات على أنها مجرد رد فعل لعسف أمير أو ظلم والى، فهى أشد عمقًا من هذا. كما أنه من الإسراف أن نقبل تفسير المستشرقين الفرنسيين أمثال جوتية لأحداث هذه الثورات على أنها ثورات عرب العاربة من البربر أصحاب المصلحة الحقيقية فى البلاد فى وجه العرب الجدد، وأنها رغبة حقيقية فى التخلص منهم وأن النزاع بين البربر والعرب إنما تتعمق جذوره فى تاريخ المغرب لتصل إلى أحداث هذه الثورة التى اشتعلت فى عام 123هـ الموافق 740م. والحقيقة أن هذه الثورات كانت انفعالا لمغرب أظله الإسلام وانفعل به انفعالا

عميقًا وأراد أن يعبر عن نفسه تعبيرًا إسلاميًا واضحًا كما عبرت الأمصار الإسلامية الأخرى عن نفسها. فقد كانت الشخصية المغربية ذات الشكل الإسلامى تبحث لها عن إطار تريد أن تتجلى فيه وتتلمس طريقا إسلاميًا تسلكه لكى تبلغ أهدافها. وقد وجدوا فى دعوة الخوارج والعلويين ضالتهم المنشودة وجدوا فى تعاليمهم المثل التى ترشى تكبرهم وتحقق أهدافهم. فهى فرقة تخلط بين الجهاد وبين الدعوة إلى الإسلام، الأمر الذى يجد قبولا وصدى فى نفوس المغاربة، ثم نزعة لإسقاط امتيازات طبقة الأرستقراطية العربية، وتسوى بين العرب وغير العرب ثم هى حرب عنيفة على السلطان الأموى، وهى تريد أن تعود بالمجتمع الإسلامى إلى مثله القديمة[1].

بسبب الصراع بين العرب وبعضهم البعض فى العصر الأموى، هذا الصراع الذى يبدو سياسيًا، كان يعكس مواقف قوى وطبقات اجتماعية لها مصالحها ومطامعها. وأن الصراع الدموى على السلطة فى المغرب أسفر عن حالة من الفوضى السياسية هيأت مناخًا ملائمًا للعمل الثورى، فبقدر غلواء الصراع وإنهاكه للقوى المتصارعة، بقدر ما كان العمل الثورى يتعاظم أسلوبًا وتنظيمًا وانتشارًا. ولو وجدت حكومة سياسية مستقرة فى المغرب تمسك بناصية أمور، لكان دور الثوار صعبًا ونصيبهم من النجاح محدودًا. لكن الفوضى السياسية سهلت من مهمة الثوار، وهاك صورة موجزة لتطور الأحوال السياسية فى المغرب فى ذلك الحين. فتحت بلاد المغرب فى العصر الأموى، ومنذ ولاية موسى بن نصير أصبح حاكم البلاد أميرًا يقيم بالقيروان ويعين من قبل الخليفة بدمشق، وكان الوالى يوكل أمور الولاية إلى بنى جلدته وعشيرته، وكان هم هؤلاء الإثراء على حساب بيت المال والرعية معا، فالمشتغلون بالجندية منهم أثروا إثراء غير مشروع باستئثارهم بمزيد المغانم ووافر الأعطيات السنوية، فشكلوا أرستقراطية عسكرية لها وزنها. والعاملون بالدواوين وشؤون الحكم أسرفوا فى اختلاس أموال الدولة، والجباة منهم اشتطوا فى عسف الأهالى وتحميلهم من الجبايات والمغارم ما يفوق طاقتهم، وشكل هؤلاء

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص115.

أرستقراطية بيروقراطية لها مكانتها، ولأن الصلة بين الولاة والارستقراطية العسكرية والبيروقراطية صلة رحم ومنفعة فى آن واحد، كان الولاة يغمضون أعينهم عن سياسة جهازهم الحربى والإدارى لارتباط سلطتهم بنفوذ ذويهم من رجال عصبيتهم، ولما كان خلفاء بنى أمية كثيرى التقلب والانحياز لأحد الفرعين العربيين من الحجازية أو اليمنية، فقد كثر تغيير الولاة فى المغرب وبالتالى تغيير أجهزة الحكم وهو أمر أفضى إلى حالة من الفوضى السياسية، وأنها كانت سببًا فى ثورات عرب العاربة من البربر. فقد شهدت بلاد المغرب العربى صراعًا بين الفرعين العربيين ـ الحجازية واليمنية ـ وكان نفوذ اليمنية غلابًا أول الأمر لأن الوالى موسى بن نصير كان يمنيًا، لكن الحجازية بزغ نجمهم فى ولاية محمد بن يزيد الحجازى الذى بطش بآل موسى وأتباعه من اليمنية، ثم عاد اليمنية للظهور فى ولايتى يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان فأسرفا فى إذلال الحجازية. وعاد الميزان فى صالح الحجازية بعد ولاية بشر حتى نهاية الحكم الأموى لأن خلفاء بنى أمية عولوا على تعيين ولاتهم من الحجازية، فامتحن اليمنية أشد المحن ولقوا عنتًا شديدًا، واستصرخ شاعرهم الخليفة هشام بن عبدالملك لإنقاذهم من محنتهم مذكرًا إياه بأفضالهم على الخلافة الأموية فى قصيدة قال فيها[1]:

وقيناكم حر القنا بسيوفنا ... وليس لكم خيل سوانا ولا رجل

فلما تبقنتم نيل ما قد أردتموا ... وطلب لكم فينا المشارب والأكل

تغافلتم عنا كأن لم تكن لكم ... صديقًا وأنتم ما عملتم لنا وصل

ويمكن القول إن الصراع السياسى بين العرب ـ الحجازية ويمنية ـ كان يعكس مصالح كلاً من الحزبين، وأن تنكيل الولاة الجدد بالولاة السابقين وعمالهم كان فى الغالب «الحصول عما اكتنزوه غدرًا من الأموال» على حد قول باحث معاصر، فضلا عن «العبيد والإماء والجوارى المتخيرة والخصيان والخيل والدواب والذهب

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع وانظر ـ د. سعد زغلول تاريخ المغرب العربى ص245.

والفضة والآنية» كما نطالع عند ابن عبدالحكم، وليس أدل على مدى الفوضى السياسية فى المغرب العربى فى أواخر العصر الأموى من نجاح أحد المغامرين العرب - ويدعى عبدالرحمن بن حبيب - فى اغتصاب السلطة فى القيروان والاستيلاء على بيت المال، وتوريث الحكم لبنيه من بعده، ولم يكن بوسع خلفاء دمشق الأواخر إقصاؤه عن ولايته واستبدال آخر به، نظراً للمشكلات الكثيرة التى واجهتهم فى المشرق. لذلك لم يجد مروان بن محمد - آخر خلفاء بنى أمية - مناصًا من الاعتراف بشرعية حكم ابن حبيب.

التفرقة العنصرية: وتتضح سطحية التفسير العنصرى للثورة ليس فقط فى دخول معترك الصراع عناصر أخرى غير العرب والبربر بل وانضواء بعض العناصر العربية فى معسكر الثوار، وأيضًا فى عدم تفرقة السلطة الحاكمة بين البتر والبرانس، إنما تتجسد سافرة فى وجود سياسة أموية عامة قائمة على التفاضل بين العرب وبين غيرهم من الشعوب الأخرى كالفرس والروم والبربر والقوط ممن دخلوا الإسلام وأصبحوا «موالى» فأصبحت البنية الاجتماعية للمجتمع الإسلامى تتشكل فى العصر الأموى من طبقتين أساسيتين، الأرستقراطية العربية، والعامة من الموالى. وإن ولاة المغرب كانوا يمثلون مشيئة الدولة الأموية وينفذون سياستها، وأن الحكام الأمويين درجوا على اختيار ولاة على شاكلتهم، وإلا فما تفسير الإصلاحات التى شهدتها بلاد المغرب إبان ولاية اسماعيل بن عبيد الله. لقد كان هذا الوالى التقى معينًا من قبل الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز. والظلم الذى حاق بالبربر على يد يزيد بن أبى مسلم إنما تم تحت سمع الخلافة وبصرها، فالخليفة يزيد بن عبدالملك عرف بالطمع والجشع وحب المال الذى جمع له عماله منه ما لم يجمع لأحد من قبل، وإذا كان الحجاج بظلمه فى المشرق قد أشبع نهمه، فإن يزيدا فى المغرب قدم له المزيد. ولا غرو فقد قال فيها عبارته الشهيرة «ما مثلى ومثل الحجاج وابن أبى مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهم فوجد ديناراً». وكان الخلفاء يستحبون طرائف المغرب ويبعثون إلى عمالهم فى طلبها

وخاصة «الوصائف». ولدينا من النصوص التى أوردها الطبرى - والتى لايتسع المجال لذكرها - ما يدين حكام الأمويين ويؤكد تواطؤهم مع ولاتهم وعمالهم فى المغرب، بسبب جشعهم فى طلب المال «فكان الحاكم الأموى يكره العمال على امتصاص دم الرعايا». ومن مظاهر التمايز العنصرى تجنيد عرب البربر كرجالة «مشاة» فى الحملات والجيوش التى كان الولاة يعشونها لغزو الجزر البحرية فى البحر المتوسط، أو فى المغرب الأقصى وبلاد السودان، وحرم عليهم العمل كفرسان إذ حظى العرب وحدهم بتلك الميزة. أكثر من ذلك كان البربر يتقدمون الصفوف، فيفنى منهم من يفنى لتلقيهم الضربات الأولى، وبعد المعارك كان العرب وحدهم يستأثرون بالمغانم والفيء من دون البربر. وبعبارة أخرى اتخذ العرب من البربر وقوداً للحروب التى خاضوها فى جزر صقلية وسردينية وبلاد السوس الأقصى فى أعوام 101هـ الموافق 719م، 109هـ الموافق 727م، 117هـ الموافق 735م والتى لم يكن لها من هدف سوى السلب والنهب.

اشتط بعض الولاة فى إهدار كبرياء عرب العاربة من البربر وإشعارهم بالمذلة والخنوع فكان يزيد بن أبى مسلم يطبق تقليداً اتبعه البيزنطيون من قبل وهمً أن يشم حرسه من البربر فى أيديهم، فكان يكتب اسم الرجل على راحة يده اليمنى، وصفته على راحة يده اليسرى فيكتب عليها كلمة «حرس»، وقد أنف عرب العاربة من البربر من هذا التقليد واعتبرون نوعًا من التفرقة التى لاتتفق ومبادئ الإسلام، فكانوا يقولون «جعلنا بمنزلة النصارى» ونحن نعلم ما اتصف به البربر من شمم وإباء فضلا عن شدة المراس وقوة البأس والميل الغريزى للعنف، لذلك دبروا مؤامرة فى الخفاء أسفرت عن اغتيال الوالى الأموى. على أن الذى أثار حفيظة البربر وأهدر كبرياءهم معاملة نسائهم وبناتهم معاملة الجوارى والسبايا، فمنذ الحملات الأموية الأولى على بلاد المغرب وأسواق الرقيق فى الشرق تزخر بالإماء البربريات. والمراجع تحفل بمعلومات وفيرة عن تلك التجارة المربحة التى ازدهرت إبان الفتوحات العربية فى بلاد المغرب وبعد الفتوحات كذلك، وعن الوعود

الكثيرة التى كان القواد يعدون بها الحكام الأمويين فى إرسال المزيد من السبايا البربريات اللائى ازدادت أعدادهن فى قصور ملوك بنى أمية وكبار رجال الدولة ومياسير الناس. وبعد فتح البلاد واعتناق أهلها الإسلام لم يغير ولاة بنى أمية من سياستهم فى معاملة المسلمات من عرب البربر، فاعتبروا بلاد المغرب «دار حرب» وطفقوا يرسلون الحملات تثخن فى أصقاعها من أجل الأموال والسبايا؛ فالوالى عبيد الله بن الحبحاب منى الخليفة هشام بن عبدالملك بمزيد من الإماء البربريات، فعهد إلى ابنه إسماعيل بولاية السوس الأقصى فاستبد إسماعيل بالبربر هناك «وكثر عبثه بذراريهم»، بل دفعه طمعه إلى تجنيد حملة لنفس الغرض أسند قيادتها إلى حبيب بن أبى عبيدة «أصابت من السبى والذهب أمراً عظيماً». ويلخص الطبرى سياسة بنى أمية فى التمايز العنصرى فى الحوار الذى جرى بين وفد من عرب البربر وبين حاجب الملك هشام بن عبد الملك فى دمشق حين ذهب الوفد يشكو للملك جور عماله، لخص الطبرى الشكوى فيما يلى «. . قالوا أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال هم أحق به، فقلنا هو أخلص لجهادنا لأنا لا نأخذ منه شيئاً، إن كان لنا، فهم منه فى حل وإن لم يكن لنا لم نره. وقالوا إذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وأخر جنده، فقلنا تقدموا فإنه ازدياد فى الجهاد ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناكم. . ثم إنهم ساومونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، فقلنا هذا ليس فى كتاب ولاسنة، ونحن مسلمون»[1]. .

العامل الاقتصادى: كان العامل الاقتصادى هو العامل الفعال فى دفع المغاربة إلى الثورة على بنى أمية، يشهد على ذلك سوء الأحوال الاقتصادية فى بلاد المغرب عشية قيام الثورة. وإذا كانت هذه الأحوال السيئة ترجع إلى طول مدة الفتح وما ارتبط به من تخريب المزارع، وإحراق المراعى، وإهمال التجارة، فلاشك أن السياسة المالية الأموية الجائرة زادت تلك الأحوال تفاقماً. فمسؤولية الدولة

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص135 وانظر ـ تاريخ الامم والملوك، جـ4، ص264.

الأموية ترجع إلى أطماعها فى خيرات بلاد المغرب منذ السنوات الأولى للفتح حيث بلغ جشع بعض قوادها مداه، فكانوا يسترقون أبناء عرب البربر حين يعجزون عن دفع ما عليهم من أموال، وتطالعنا المراجع عن وفرة الغنائم والفىء الذى كان يوزع على الفاتحين بعد المعارك العسكرية، فمعاوية بن حديج أسفرت حملته عن «غنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر».

وبعد إتمام الفتح عول الولاة فى القيروان على اتباع سياسية مالية جائرة فأرهقوا عرب البربر بالمغارم والجبايات واعتبروا بلادهم «دار حرب» حتى بعد اعتناقهم الإسلام. وفى ذلك خروج على تعاليم الإسلام، وعدول عن النظم والقوانين المالية الإسلامية كما شرعها من قبل عمر بن الخطاب. فقد طبقت السياسة التى استنها الحجاج فى كافة الولايات الإسلامية لأنها ضمنت للخلافة مزيداً من الأموال، وتقضى هذه السياسة بعدم إسقاط الجزية عن الموالى أسلموا أم لم يسلموا، فضلا عن إرهاق الفلاحين بمزيد من الضرائب غير ضريبة الخراج التى ضوعفت فى بعض الأحيان، «فكان كل فرد ملزمًا بأن يبين قيمة كسب طيلة العام فيترك له الوالى ثمن الكسوة والغذاء وبعض النفقات الضرورية ثم يستولى على ما بقى باسم بيت المال، ناهيك عن أطماع الولاة والعمال الخاصة وإسرافهم فى طلب الأموال بأوجه غير مشروعة إرضاء للخلافة من ناحية وكسبًا للأتباع والأنصار وإشباعًا لنهمهم من ناحية أخرى، يدل على ذلك ما شاع على الألسن فى ذلك العصر من إطلاق تعبير «أكل الولاية وحلبها كما تحلب الناقة» على منصب إمارة البلدان. وقد حاول الخليفة عمر بن العزيز وضع حد لتلك المظالم فعاود تطبيق سياسة عمر بن الخطاب تمشيًا مع الشريعة الإسلامية، ففى المغرب العربى أسند الإمارة إلى والٍ تقى هو إسماعيل بن عبيد الله، وأمره بإسقاط الجزية عن البربر المسلمين وتحرير من استرق من نسائهم، كما أمره بإعادة الأرض إلى أصحابها يجنون ثمارها ويدفعون عنها خراجها المعلوم، وأشار عليه بأن يجمع بين أعباء الحكم من إدارة وحرب إلى جانب جمع الخراج والصدقات ليحول دون جورهم

واستبدادهم، ويستعيد ثقة البربر فى الحكومة الإسلامية. لكن هذه السياسة الرشيدة ضرب بها عرض الحائط بعد موت عمر، وعادت الخلافة الأموية إلى سيرتها الأولى، فاستبدل الخليفة يزيد بن عبدالملك بإسماعيل بن عبيد الله يزيد بن أبى مسلم، فاستبد بالبربر وقضى على الإصلاحات التى أنجزها سلفه، ولما كان يزيد كاتبًا للحجاج الثقفى فى العراق قبل ولايته المغرب؛ فقد تأثر به، واشتط فى معاملة عرب البربر، ففرض الجزية عليهم جميعًا ليتسنى له الحصول على مزيد من الأموال والتنصل من دفع الأعطيات للمسلمين من عرب البربر. واتبع الولاة من بعده نفس النهج وخاصة عبيد الله بن الحبحاب الذى اعتبر عرب البربر فيئًا وعاملهم كأرقاء[1]. واتبع عماله نفس سياسته، فعامله على طنجة أساء السيرة وتعدى فى الصدقات والقسم، وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فىء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله. ويذكر ابن عذارى أن سياسة ابن الحبحاب وعماله فى المغرب كانت مرضاة للخلافة فى الشرق، يخبرنا ابن خلدون أن الخليفة طالبه بالوصائف البربريات والأودية العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب؛ فكان يستغالى فى جمع ذلك وانتحاله حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ولا يوجد منها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه». وفى نفس المعنى ذكر الطبرى أن عمال ابن الحبحاب «كانوا يعمدون إلى الماشية فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين، فيقتلون ألف شاه فى جلد». معنى ذلك أن ولاة بنى أمية هددوا البربر الرعاة فى مصدر رزقهم من الأغنام والماشية، كما أجحفوا الزراع بما فرضوه من ضرائب وجبايات باهظة، ومن هنا يمكن تفسير الأزمات الاقتصادية الكثيرة التى عمت بلاد المغرب العربى فى العصر الأموى، والتى كانت أهم الأسباب التى دفعت بالبربر إلى الثورة.

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص139 وانظر: ابن عبدالحكم، ص287. وابن عذارى، جـ1، ص52.

Hopkins: Medieval Moslem Government in Barbary,

العامل الإيديولوجي الإسلامي: نقصد بالعامل الإيديولوجي أثر اعتناق البربر الإسلام وفهم تعاليمه في العدالة والمساواة في وقوفهم على انتهاك السياسة الأموية لهذه التعليم، وبالتالي إقبالهم على اعتناق مذهب العلويين الخوارج الذي يحض - باسم الإسلام - على الثورة ويعطيها طابعها الشرعي. فأيديولوجية الثوار إذن تمثلت في الخلاص من الظلم الاجتماعي الذي عانوه، وتحقيق المبادئ العادلة للإسلام عن طريق الثورة المشروعة التي تبنتها تعاليم العلويين. وعلى ذلك فالثورة لم تكن ثورة دينية أو مذهبية، إنما اتخذت من الدين والمذهب تبريراً لتغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الجائرة، والطابع الديني الذي غلفت به الثورات في الشرق والغرب على السواء كان نتيجة خروج الحكام في سياساتهم على تعاليم الإسلام. وفي هذا المعنى يقول فلهوزن «.. فبعد أن حادت الحكومة عن المبادئ التي يجب أن تقوم عليها الحكومة التيوقراطية جاء الإسلام الثائر فجعل تلك المبادئ أساساً لمحاربة نظام الحكم الذي كان قائمًا إذ ذاك» وخاصة ثورة الإمام الحسين عليه السلام الإسلامية. في ضوء ذلك يمكن تفسير رفع معظم كافة الثورات الاجتماعية شعارات العدالة والمساواة باسم الله وباسم الدين. ومن ذلك نستطيع أن نقرر أن أحزاب المعارضة السياسية الدينية التقت في أهدافها مع مطالب الثورات الاجتماعية فشرعت في استقطاب الجماهير الساخطة وتنظيمها بما لها من خبرة سياسية؛ في ذات الوقت الذي أفادت فيه الثورات الاجتماعية من الفكر السياسي الديني لأحزاب المعارضة في صياغة أيديولوجيتها، وإكساب حركتها طابعها الشرعي. وإذا كانت بلاد الشرق الإسلامي قد غلب على ثوراتها الاجتماعية طابع التشيع والأرجاء، فإن مذهب الخوارج والعلويين السنة ساد بلاد المغرب بلا منازع، ومن مبادئه صيغت أيديولوجية الثورة الاجتماعية فيها. فالمغاربة لم يقبلوا أول الأمر على اعتناق الإسلام، نظراً لسياسة الفاتحين الأوائل التي دأبت على الابتزاز واستعمال العنف أكثر من تعويلها على نشر الإسلام. حتى ليذكر المؤرخون أن البربر اعتنقوا الإسلام وارتدوا عنه لكن بفضل جهود عقبة بن نافع وحسان بن النعمان وموسى بن نصير أقبل عرب العاربة من البربر على اعتناق

الإسلام. وتعاظمت حركة إسلامهم فى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، حيث «غلب الإسلام على المغرب» ولم يبق من عرب البربر يومئذ أحد إلا أسلم[1].

انتقلت دعوة الخوارج إلى المغرب فى النصف الأخير من العصر الأموى منذ أيام عبد الملك بن مروان فصاعدا وكانوا يرحلون إلى الغرب بأعداد وفيرة هربا من تنكيل الأمويين واضطهادهم، وكانوا يجدون فى البلاد الملاذ والمأوى يعتصمون بجبالها النائية أو يلجأون إلى القبائل فى النواحى البعيدة من المغرب الأقصى خصوصًا إقليم طنجة والسوس الأقصى. وجد البربر المسلمون بونًا شاسعًا بين عدالة الإسلام كما فهموها وبين سياسة الحكام كما عانوها، وضاقوا ذرعًا بما حل بهم من مظالم لكنهم لن يستطيعوا تحويل السخط الكائن فى الصدور إلى عمل إيجابى ثورى إلا بفضل الدعاة الذين وفدوا على المغرب فى ذلك الحين هربًا من بطش الخلافة فى الشرق ورغبة فى بث دعوتهم بين البربر وظلت الدعوة إلى الثورة قائمة على أكتاف القادمين من المشرق وانتشرت انتشاراً عظيمًا ولقيت قبولا واسعًا حتى تأصلت فى نفوس الناس وبدأت منذ عام 122هـ الموافق 739م تتخذ لها قيادات مغربية خالصة. وكانت الموجة الأولى من ثورات يقودها ميسرة المطغرى وهو رجل من قبيلة مطغرة وينسب إلى بيت كبير من بيت هذه القبيلة، وكان من رواد المجالس العلمية فى مسجد القيروان وكان يسقى الماء احتسابًا لوجه الله فسمى ميسرة السقاء. وقد اعتنق مذاهب الخوارج الصفرية وآمن بها فى عمق كبير وأراد أن ينشرها فى بلاده واتجه إلى ديار قومه مطغرة فى إقليم طنجة وسافر إلى هناك وأخذ يدعو للمذهب ويكسب الأنصار، ورفع راية العصيان. ولم تلبث الدعوة ان امتدت حتى شملت مكناسة فأقبلت بجموعها وانضمت إلى ميسرة، وكذلك فعلت برغواطة وانضمت القبائل الثائرة بعضها إلى بعض وجعلت تترقب الفرصة

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص125 وانظر: ارنولد: الدعوة إلى الإسلام ص349.

Fournel: Les Berberes, Vol. I, P. 552.

البلاذرى: ص273.

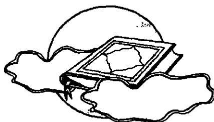
المواتية لإعلان الثورة على بنى أمية. ولم تلبث أن حانت الفرصة وذلك بانشغال عبيد الله بن الحبحاب بغزو صقلية عام 122هـ الموافق 739م، ومعه خيرة الجند فاستولى الثوار على طنجة وقتلوا عاملها وساروا إلى بلاد السوس واستولوا عليها وخرج المغرب الأقصى من يد المسلمين. والتقى العرب بقوات ميسرة على مقربة من طنجة فهزموا وقتل منهم الكثير وعاد ميسرة إلى طنجة منتصراً وادعى الخلافة وبويع له هناك واتخذ لقب أمير المؤمنين. وأعد ابن الحبحاب جيشًا كبيراً وسميت بموقعة الأشراف ولم تفلح حملات هشام بن عبد الملك المتكررة فى إخماد هذه الثورة. ثم بدأت الموجة الثانية من ثورات البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتى بعد وفاة ميسرة، وكان ذلك إيذانا بثورة عارمة جديدة من عرب العاربة البربر جميعًا على من معهم من العرب سواء كانوا من رجال الدولة أو غيرها.

فقامت ثورة فى طرابلس يحركها الخوارج الصفرية وانهزم العرب وقام البربر بحصار القيروان وكان الجيش العربى يقوده كلثوم بن عياض. وقد انقسم العرب إلى فريقين، العرب الوافدون من الشام والعرب المقيمون فى البلاد، والتقى الجيش المنقسم مع البربر يقودهم خالد بن حميد الزناتى خليفة ميسرة فى بلدة نقدروه على مقربة من تاهرت على مجرى نهر سبو، وانقض البربر على العرب وأحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيوف وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للعرب ليؤكد المؤرخون أن ثلث هذا الجيش العربى الكبير قد قتل وأن ثلثه الآخر سبى، أما الباقون فقد تفرقوا فلولاً مهزومة لا تكاد تلوى على شيء. وزادت ثورة عرب العاربة من البربر فى المغرب عنفا وقام من البربر فى كل ناحية زعيم يقود مواطنيه فى هذا الكفاح. نكب العرب إذن فى معركة الأشراف ثم هزموا عند بقدروة وكان واضحًا أن الثورة إذا استمرت على هذا النحو فربما كانت نتيجتها خروج المغرب عن طاعة الخلافة، وأرسل هشام حنظلة بن صفوان لإنقاذ الموقف، وقد انتصر ودخل القيروان وجمع العرب تحت لواء واحد للدفاع عن النفوذ الأموى. وانتهت المعركة بانتصار العرب وانقصم ظهر الثورة، وأخذت تهدأ عام 125هـ الموافق 742م، وساد السلام ربوع

البلاد وأخذ العرب يطمئنون إلى مصيرهم ولزم البربر السكون بعد هذه الهزائم القاسية. ثم احتل عبدالرحمن بن حبيب القيروان واستقر بها، وكان انتصار عبدالرحمن بن حبيب وسيادته على المغرب العربى بداية استقرار أهل البلاد حتى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية[أ] وبعد ذلك نجحت دعوة العلويين بين صفوف عرب البربر والتى تحض على الثورة ضد الحكام الجائرين، فقد وجد عرب العاربة من البربر فى مبدأ العلويين مبرراً شرعيًا يقول لثورتهم يتواءم مع مبادئ العلويين ممثلة فى ثورة الإمام الحسين عليه السلام ضد الظلم والطغيان والانحراف عن الإسلام وإعادته إلى ما جاء به رسول الله ﷺ. حيث نجحت هذه الدعوة فى ظهور «الأدارسة» و«الفاطميين» و«الموحدين» والمرابطين والأغالبة والعلويين حكام المغرب الحالين وكذلك السنوسيين وغيرهم.

أ ـ د. حسن احمد محمود ـ المرجع السابق ص165.

الفصل العاشر



سقوط النظام الأموى

- مميزات الدولة الأموية ومآثرها.
- موقف الموالى من الأمويين.
- الشعوبية.
- الهجرة بعيدا عن دمشق.
- موقف العلويين من الأمويين.
- القدرية والانقسام بين أفراد الأسرة الأموية.

مميزات الدولة الأموية ومآثرها:

قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة العربية. ويجدر بنا قبل الكلام عن هذه الدولة الجديدة أن نصفى حساب الدولة العربية المنهارة، فنبين مميزاتها ومآثرها التى خلدت ذكراها، ثم نعدد عيوبها ومثالبها التى أدت إلى سقوطها. والمراد بالدولة العربية هى الدولة التى قامت بقيام الإسلام واتسعت بالفتوحات الكبرى التى قام بها العرب أيام الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية. ثم انتهت الدولة العربية بسقوط الدولة الأموية عام 132هـ (749م). فالدولة العربية إذن هى ظاهرة تاريخية مركبة نبتت صغيرة أيام الدعوة الإسلامية ثم أخذت تنمو وتتسع أيام عمر بن الخطاب فى عصر الخلفاء الراشدين ثم فى أيام الوليد بن الملك فى عصر الخلافة الأموية حتى شملت أجناس المشرق والمغرب. وهكذا نجد أن الدولة العربية مرت بثلاث مراحل: مرحلة الدعوة الإسلامية، ومرحلة الخلفاء الراشدين ثم مرحلة الخلافة الأموية، فالدولة الأموية هى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل نمو الدولة العربية، وقد انتهت على أيدى العباسيين عام 132هـ الموافق 749م. ولقد وصفت هذه الدولة بالعربية لأن الجنس العربى هو الذى كان حاملا لواءها ومصرفًا لشؤونها حتى نهاية الدولة الأموية. فلما قامت الدولة العباسية آل الأمر إلى الأعاجم أو إلى الشعوب التى تحولت إلى الإسلام كالخرسانيين والأتراك. وقد لاحظ المؤرخون هذا الفرق بين الدولتين، فقالوا إن دولة بنى العباس دولة إسلامية ودولة بنى أمية دولة عربية وسقوط الدولة العربية فى حد ذاته أمر طبيعى، لأن الدول ـ كما يقول ابن خلدون ـ كالأفراد والكائنات الحية تمر فى أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء. إنما المهم هنا ما تتركه هذه الدول من آثار إيجابية تخلد ذكراها. ولكن فى مجملها العام إذا ما تركنا الجنس، فإنها دولة إسلامية ولهذا يمكن القول إن دولة الرسول محمد ﷺ تعتبر الدولة الإسلامية الأولى والخلفاء الراشدون الدولة الإسلامية الثانية والأموية الدولة الإسلامية الثالثة والعباسية الرابعة والفاطمية الخامسة والعثمانية السادسة.

مآثر الدولة العربية كثيرة نكتفي بذكر أهمها وهي[1]:

أنها زادت في مساحة الدولة الإسلامية الجديدة، فدفعت حدودها شرقًا إلى أواسط آسيا، وغربًا إلى المحيط الأطلسي. ففتحت بلاد ما وراء النهر على يد قتيبه ابن مسلم، وإقليم الهند في شمال غرب الهند على يد محمد بن القاسم الثقفي والمهلب بن أبي صفره، كما فتحت الشام على يد خالد بن الوليد، ومصر على يد عمرو بن العاص، والمغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط على يد عدد من كبار القادة العرب أمثال عقبة بن نافع وحسان بن النعمان وموسى بن نصير وغيرهم.

الدولة العربية صبغت هذه المساحة الشاسعة من الأراضي بالصبغة العربية وذلك عن طريق نشر الجنس العربي في أنحاء تلك البلاد. فكثير من القبائل العربية قد تركت موطنها الأصلي في الجزيرة العربية، وهاجرت إلى البلاد المفتوحة بقصد المعيشة فيها والدفاع عنها واتخاذها وطنًا لها. فهذه الهجرة لم يكن الغرض منها استغلال البلاد وثرواتها كما يفعل المستعمرون حديثًا، وإنما كانت تهدف إلى الاستقرار فيها والاختلاط بأهلها والمشاركة في تعميرها، حينما ضحوا بوطنهم في سبيل المعيشة في البلاد التي فتحوها ونشر جنسهم وثقافتهم فيها.

ونجد أن الدولة العربية كانت لها سياسة عربية مرسومة وموضوعة وقد نجحت في ذلك نجاحًا كبيرًا بحيث أصبحت لغتها العربية أداة التخاطب الوحيدة بين أبناء العالم العربي إلى اليوم وهذا يعتبر من مآثرها كدولة عظيمة. ورغم الإقرار الحقيقي بأن بوادر العنف في الدولة قد بدأت قبل قيام الدولة الأموية ومنذ وقت مبكر، منذ بداية خلافة عثمان بن عفان وما تمخضت عنه حادثة الثورة أو المعارضة الإسلامية، ولقد حاول بعض رجال المسلمين احتواءها فلم يتمكنوا، ورافقت أحداثًا جسامًا كحرب البصرة وصفين التي أدت في النهاية إلى زوال عصر الراشدين وقيام عصر الأمويين. إن انتهاء عصر الراشدين، ومجيء الأمويين للسلطة قد غير الصورة الحقيقية للدولة تماما، وخاصة بعد أن غير معاوية الأمر

---

1 ـ د. أحمد العبادي ـ الدولة العربية ص10.

وجعله وراثة فى بيت بعينه، وتمكن من نقل الدولة من النظام الإسلامى وتطبيق الشريعة الإسلامية إلى النظام القمعى الاستبدادى الذى يقوم على أساس التوريث. وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب إلى السياسة منها إلى الدين. بعد أن جعلوها ملكا لهم. وقد جرت هذه السياسة إلى الكثير من الأخطاء والتجاوزات التى برزت فى عهدهم فى فرض العقوبات والحدود وعدم تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية. هذه السياسة وما رافقها من أحداث كانت من أكبر أسباب المعارضة للأمويين والتى شكل العلويون والعباسيون التيار الأقوى فيها. وهكذا كان رد الفعل العنيف من قبل العباسيين ضدهم وما نفذوه من سياسة مجافية للشرع وتجاوزات فى فرض العقوبات والحدود تعتبر بحق تكرارا لما عمله أو نفذه الأمويون من قبلهم، وتحديا صارخا لمبدأ تطبيق الشريعة الإسلامية. ويفسر لنا اليعقوبى والطبرى والمسعودى، ما قام به الأمويون من تصرفات مجافية للشرع لجأوا إليها لحماية دولتهم التى ولدت والمعارضة تحيط بها من كل جانب، مما دعاهم إلى اللجوء إلى العناصر العربية المتعصبة لمساندتهم ضد تيارات المعارضة القوية سواء من الداخل من العلويين والعباسيين والخوارج وغيرهم، أو من الخارج من الأعداء المجاورين كالبيزنطيين، مما حملهم على إحياء العصبية القبلية التى حاربها الإسلام من قبل. مما أدى إلى إذكاء روح المعارضة الشديدة للدولة، وأصبحت الدولة الأموية فى نظر المعارضين لا تمثل رأى الأمة، وما أقره الشرع فى إقامة الجماعة الإسلامية على أساس من الأخوة، وما أمر الدين الإسلامى من المحافظة على وحدتها وأمنها. هذه الظاهرة السياسية تكررت فى عهد العباسيين، وبشكل خطير فى أيام أبى جعفر المنصور، لأن دهشة الانتقال عندما زالت وأفاق الناس إلى حقيقة ما حدث تبينوا أن الأمر فى النهاية لم يتغير كثيرا عما كان فى عهد الأمويين، لأن الخليفة المنصور مثلا لايختلف فى سياسة أو طريقة إدارته للأمور عن هشام بن عبدالملك، فمازالت المظالم قائمة، والضرائب ترهق الناس، ونظام الحكم مختلا، والحكم القائم بعيدا فى روحه ومظهره عن إقامة شرع الإسلام وعدله. لذا اتجه العباسيون إلى الفقهاء والمؤيدين لإيجاد سند شرعى لدولتهم ليظهرها بمظهر الدولة الشرعية، وقد تحقق لهم ذلك فى عهد الخليفة محمد

المهدى. وهكذا فإن نقل الخلافة إلى الأمويين وبالصورة التى نقلتها لنا المصادر، وبدون إشراك رأى الأمة بشكل حقيقى وفعال، أحدث تغيرا ونقلة كبرى فى مسار الخلافة الأموية ظهرت آثاره فيما بعد فى ضعفها وتدهورها وبالتالى سقوطها وانتهائها[1].

اتصفت الدولة الأموية بالعربية لاهتمامها بجنس العرب وحده، وإغفال حقوق الشعوب المفتوحة التى تحولت إلى الإسلام. أما الخلافة العباسية التى قامت على أكتاف الأعاجم أو الشعوب التى أسلمت بعد الفتح فقد اتصفت بالدولة العربية الإسلامية، لأنه آل الأمر إلى الأعاجم من خراسان والترك. . . إلخ.

التعريب: من المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب قد ترك إدارة البلاد المفتوحة أجنبية بمعنى أنه أبقى على تحرير الدواوين بلغة أهلها: فديوان الشام كتب بالرومية (اليونانية) وديوان العراق وفارس بالفارسية، وديوان مصر القبطية. لكن عبد الملك بن مروان بعد أن استتب له الأمر أمر أن تكون اللغة العربية وحدها هى لغة الدواوين جميعها. فقد نقل ديوان الشام من اليونانية إلى العربية، وكذلك ديوان العراق من الفارسية إلى العربية أيضًا بينما تأخر نقل ديوان مصر إلى أوائل عهد الوليد بن عبد الملك. وقد تبع هذه الخطوة خطوة ترمى إلى تقوية الحكم العربى بضبط ميزانيته واقتصادياته. فأمر عبدالملك بن مروان بضرب العملة ونقشها، ونهى على أن يضربها غيرهم وقد عرفت هذه العملة الرسمية باسم «السكة الإسلامية» ولم تتغير وحدة العملة بتعريبها، فبقى الدينار الذهبى والدرهم الفضى والقطع من الدرهم مثل الدانق والمثقال[2].

تدوين الحديث الشريف: بدأ الاهتمام بكتابة السيرة النبوية منذ النصف الثانى من القرن الأول للهجرة نظرا للحاجة إلى الحديث النبوى الشريف، وبما أن

1 ـ د. عبدالجبار منسى العبيدى ـ قراءة جديدة فى أسباب سقوط الدولة الأموية مجلة عالم الفكر ـ العدد الثالث ـ مجلد الخامس عشر ـ أكتوبر 1984 ص271.

2 ـ د. إبراهيم أيوب ـ التاريخ العباسى السياسى والحضارى ص9 وانظر ابن خلدون ص21 والخطط 1/ 158

الحديث النبوى الشريف يعد المصدر الثانى للعقيدة الإسلامية بعد القرآن، نظراً للحاجة إليه فى التشريع الإسلامى، والتنظيم الإدارى، فقد قام بعض رجال الصحابة بتدوين الحديث من تلقاء أنفسهم وعلى رأسهم عبدالله بن عمرو بن العاص بالرغم من أن الرسول نهى عن كتابة الحديث حتى لا يختلط الحديث بالقرآن أو ينشغل المسلمون بشيء آخر غير كتاب الله. وتأخرت عملية التدوين حتى خلافة عمر بن عبدالعزيز الذى اختلط بأتقياء أهل المدينة مثل أنس بن مالك جامع الأحاديث المشهور، أو لثقافته بإقباله على دراسة علم الدين، فكان أول من أمر بجمع الأحاديث وتدوينها. ويعد محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهرى (توفى عام 124هـ الموافق 741م) أول من حاول تدوين الحديث إذ إنه كان يحفظ ألفين ومائتى حديث، ثم توالت بعد ذلك محاولات التدوين والتفسيرات المشهورة ودراسة الأحاديث النبوية وتفسيراتها كان لها الفضل الأكبر على انتشار اللغة العربية بين المسلمين وبخاصة منهم الموالى، فاشتهر الإمام الليث بن سعد بفضل كتابه «الجامع الصحيح» وأخيراً لا آخراً فقد أنشأت الدولة العربية بذور الحضارة الإسلامية التى تفاخر بها اليوم[1].

عندما جاء الإسلام، جاء ليعلن نهاية العصور القديمة التى كانت السيادة فيها على الناس لطبقة محدودة، تملك زمامهم، وتتصرف فى أموالهم، وتحجر على حرياتهم، وتعتدى على دمائهم دون أن تخشى رقيبا أو حسيبا. والباحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام يجد شواهد كثيرة لهذا الواقع المتردى آنذاك سواء على مستوى القبيلة أو على مستوى الأفراد. هذا الواقع دعاهم إلى ضرورة التفكير فى تغيير هذا الواقع المؤلم الذى يحيط بهم. فحين جاء الإسلام جاء ليقول للناس حكاما ومحكومين أن هناك رقيبا هو الله. ومن هنا فإن دعوة الإسلام إلى الوحدانية المطلقة وإلى عبادة الله وحده، معناها تحويل البشرية جمعاء إلى أمة إله واحد رقيب حسيب، قادر وخالق، وأن الناس لابد أن يلتفوا حول هذا اللواء

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ نفس المرجع ص9 وانظر الكامل فى التاريخ 4/ 53 فتوح البلدان 4/ 54.

الكبير القـوى وقد جاء الإسلام بمبادئ اخـلاقية أرسى دعائمـها فى سنيه الأولى.
هذه المبـادئ هى فى ذاتها مـبادئ سيـاسيـة لأن الأمة لو سـارت عليهـا لصلحت سياسـتها وسارت فى الطريق القويم الذى رسمـته الشريعة لها. فـعندما يقول الله سبحـانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران] فمعنى ذلك أن الاعـتصام بأمر الله أمـر، وعدم التفريق أمـر وليس هو خيارا ولا استثناء فى هذا ولا ذاك. وفـى قوله تعـالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبيـاء]، فمـعنى ذلك أن الأمة ينبـغى أن تكون واحدة، ولا يجوز لأى جماعة أن تنصرف عن هذه الوحدة لأى سبب من الأسباب، ولهذا قال الرسول (ﷺ): «لا تجـتمع أمـتى على ضلالة»، أى أن إجـماع الأمـة واجتـماع كلمتـها لابد أن يكون خيـرا. والذى حدث أن بعض المسلمـين تصور أن العقـيدة الدينية هى عقيدة دينيـة فحسب، بينما هى فى ذاتها قواعد سيـاسية، فالدين معناه منهج الحياة المتكامل عـقيدة وشريعة وأسلوب حيـاة. ويقوم المنهج الإسلامى على المساواة الكاملة بين أفراد الأمـة، فلا يتميز حـاكم على محكوم، إلا بما يقضى به الشرع، لأن الله لم يمـيز إنسانا على إنسـان إلا باتباعه لأوامر الله وهذا مـايسمى بالتقوى. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجـرات]. والشريعة الإسلامـية تسوى بين الحاكم والمحكوم فى سـريان القانون وفى مسؤولية الجمـيع عن التصرف أيا كان نوعه، ومـن أجل ذلك فإن الحاكم لا يتمـتع بصفة القداسة ولايـمتاز على غيره وإذا ارتكب أحدهم مخـالفة للشريعة عوقب عليها كـما يعاقب أى فرد آخر.
وإذا ما خرج عـلى نهج الشريعة وجب على جمـاعة المسلمين الوقوف فـى وجهه وعزله عن السلطة، أو الثـورة عليه وإزاحته من ساحـة الحكم بالقوة والعنف. إن سياسـة الخلفاء الراشدين التزمت بهـذا الاتجاه، فقد اعـتادوا طرح سياسـتهم أمام الرعيـة، فهـذا الخليفة أبو بـكر يقول: «أيها الناس إنى قـد وليت عليكم ولست بخيـركم، فإن أحـسنت فأعينونى وإن أسأت فـقومونى، أطـيعونى مـا أطعت الله ورسوله، فإذا عـصيت الله ورسوله فـلا طاعة لى عليكم». والخليفة عـمر يقول: «أيهـا الناس إنى قد وليت عليكم ولولا رجـاء أن أكون خـيركم وأقـواكم عليكم

وأشدكم اضطلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم» وانسحب ذلك على الخليفتين عثمان والإمام عليّ ﷺ. ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن بعض الولاة الأمويين الذين عينهم عثمان حاولوا الاستفادة من الأوضاع آنذاك لتحقيق بعض الأطماع السياسية والشخصية مما سبب تكثيف المعارضة للخليفة عثمان من قبل معارضيه فى الدولة. وهنا يبدو لنا كأن بعض المسلمين لم يعد قادرا على فهم طبيعة الأمة الإسلامية، وهى أنها جماعة من المؤمنين متساوون وأحرار يديرون شؤون جماعتهم بالتفاهم بين بعضهم وبعض على أساس مبادئ الإسلام التى تتلخص فى وحدة الأمة والتمسك بالمثل الأعلى تمسك إيمان واقتناع، لأن الآية القرآنية تقول: «ولله المثل الأعلى»، واعتبار الأمة وحدة عقيدية تقوم على مبادئ أخلاقية قبل أن تقوم على نظم إدارية. ففى أيام الرسول محمد ﷺ وأبى بكر وعمر لم يكن بالدولة موظفون مسلطون على الناس، ولم تكن هناك سجون بالمعنى العام الذى نفهمه الآن، وإنما كانت حدود الله تطبق على المعتدين، وكان الناس متساوين فى الحقوق والواجبات، ولهذا كان الشعور بالمسؤولية تجاه الله والدولة راسخا وواضحا فى نفوس الناس دونما حاجة إلى رقابة من أحد. وتلك أعلى درجات الالتزام بالقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية. وحتى الأموال التى كانت تجبى لا تخرج عن الزكاة وأعشار الأراضى وبعض موارد التجارة. وكان المال كله للأمة، فكانت الخزانة تسمى بيت مال المسلمين، وأى تغير فى هذه الأوضاع، لابد أن يؤدى إلى تغير فى طبيعة الأمة الإسلامية. والخليفة عمر بن الخطاب عندما وضع الديوان، لم يضع إلا ديوانا واحدا هو ديوان الجند والعطاء الذى يعطى لهم وينظم أمورهم، ولكنه لم ينشئ دفاتر تحصى فيها أموال الناس، ولم يستبح الخليفة أموال الناس وأرواحهم ولم يستبد بالأمر دونهم[أ].

ثمة ومضة اختبار فى حياة كل أمة تمثل منعطفا خطيراً على أساس ما يتخذ فيه من (قرار) يحدد مصير الدولة، إن هذا القرار سوف يحدد بالضبط هل بقيت

أ ـ د. عبدالجبار منسى العبيدى ـ نفس المرجع ص272.

لدى هذه القوة مؤهلات القيادة، وأنها قادرة على الاستئناف والانقلاب ملائمة للتحديات أو أنها قد انهزمت من داخلها ولم تعد قادرة على المبادرات الحضارية. وبالنسبة للأمويين فى التاريخ حدثت لهم (ومضة الاختبار) هذه مرتين: مرة فى المشرق وقد أخفقوا فيها وكان ذلك عام 100هـ الموافق 718م. ففى هذا العام - أى فى الاختبار الأول - حاول عمر بن العزيز إحداث هذا الانقلاب. كان سليمان قد نجح حين ولى عمر بن عبدالعزيز على خلاف السنة المعهودة فى الولاية فقدم الفرصة أمام الدولة للاستئناف فى ظل دم جديد لكن بنى أمية رفضوا هذا الإقلاع، وخافوا أن يخرج عمر بن عبد العزيز ما فى أيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد بعده. وبموت عمر بن عبد العزيز الغامض والذى تثور حوله الشبهات عاد بنو أمية سيرتهم الأولى وأجهز الخليفة بعده على إصلاحاته. وجاهد هشام طيلة عشرين سنة دون أن يكون فى مستوى الإقلاع الحضارى المنشود، ودون مستوى عمر بن العزيز ورؤيته الحضارية الشاملة. ومرة فى إسبانيا، بعد أن نزحوا ببقية قوتهم إلى هناك بعيداً العباسيين وأنشأوا ملكا لهم عام 138هـ الموافق 755م، وقد حدثت ومضة الاختبار لهم هناك بعد أن كانت دولتهم تعيش فوضى عاتية وقد نجحوا وولوا عبدالرحمن الناصر دون أن تكون الولاية له فنجح فى قيادة السفينة المترنحة فكأن بنى أمية استفادوا من درس المشرق[1].

وفى عصر الخليفة عثمان بن عفان تغير الأمر، لأن طبيعة الخلافة اختلفت، فالخليفة كان يعتمد على اجتهاده الشخصى واستقلاله فى تعيين الولاة من الأمويين فى مناصب الدولة الهامة. ولما كان محتاجا إلى مساعدين، فقد اختار المساعدين من أهل بيته وخاصة مروان بن الحكم الذى كان رسول الله محمد ﷺ قد نفاه إلى خارج المدينة نتيجة لسلوكه وتصرفاته غير اللائقة، وكان مروان بن الحكم الرجل الثانى، وكاتب ووزير عثمان بن عفان، إضافة إلى ذلك فقد كانت أسرة عثمان بن

1 - محمد عبدالحليم عويس - سقوط الدولة الأموية ص79.

عـفان من الأمـويين الذين كانوا رجـال قبـيلة قـوية طامحـة إلى المال والسلطان، فاتجـهت همتهم إلى الاستـبداد دون النظر إلى رأى الأمة مـستغلين سمـاحة ولين الخليفـة الجليل، الأمر الذى أغضب منه كـبار الصحابة من أهل الشـورى وأسخط عليه أهل الورع والتقـوى من المسلمين وأثار الناس على سلطان قريش واستـئثارها عن باقى القبائل. ويذكـر الطبرى المحاورة التى جرت بين سعـيد بن العاص والى الكوفة ومالـك الأشتر فيقـول: قال سعيـد: «إنما هذا السواد بستان قـريش، فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسـيافنا بستان لك ولقومك، والله ما يزيد أوفاكم فـيه نصيبا إلا أن يكون كـأحدنا، وتكلم معه القـوم». فنقل الخبر مضخمـا إلى الخليفة مما حدا به أن يكتب إلى سعيد بن الـعاص عامله على الكوفة ليرسلهم إلى معاوية فى الشام لتأديبهم ومعاقـبتهم، فازداد الأمر سوءا حين استغل معاوية هذا الإجراء لصالحه.

الموالى: والموالى هم أهالى البلاد المفتوحـة الذين اعتنقوا الإسلام. وهؤلاء كانوا فى عهد الدولة الأمـوية يعاملون معاملة غير معاملة العـرب، فقدحرموا من المساواة السياسـية والاجتماعية بالعرب. حـرموا من الوظائف الكبرى فى الدولة، ومن العطاء الذى يستـحقونه نظير التـحاقهم بالجيش، بل وفرضت عـليهم الجزية رغم إسلامهم. وهذه التفرقة لم يكن مصدرها الإسلام، لأن الإسلام لم يفرق بين العناصر والأجناس. بل ينص صراحة على أن المسلمين أخوة فى الدين، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتـقوى وإنما مصدر هذه التفرقة هو سـياسة الدولة الأموية التى تقوم على أساس سـيادة الجنس العربى. ومن يتصفح الشعـر العربى فى عهد الدولة الأموية، يجد تعبيراً واضحًا لهذه السياسة العربية. فالعربى فى نظر الشعراء الأمويين قد خلق ليسود، بينما خلق غيره ليخدم، وصاروا لا يفخرون إلا بمن كان الدم العـربى يجرى فى عـروقه، ويحـتقـرون من سواه، ويمـيزون بين الصـريح والدخيل. وهذا كان مدعـاة لتذمر الموالى. وقد حاول الخليفة عمـر بن عبدالعزيز

(ت101هـ الموافق 719م) اصلاح هذه الحالة فأمر عماله بأن يضعوا الجزية عمن أسلم قائلا عبارته المشهور: «إن الله بعث محمد هاديا ولم يبعثه جابيًا». وكان من أثر هذه السياسة العمرية أن ازداد اعتناق أهل الذمة للإسلام ولكن فى الوقت نفسه نقص إيراد بيت المال فى الوقت الذى كانت فيه الدولة فى حاجة ماسة إلى بذل الأموال فى مشروعاتها التوسعية وفتوحاتها الكبرى. ومن هنا حدث تضارب بين السياسة المالية والسياسة الدينية فى الدولة، وانتهى الأمر بفشل هذه السياسة بعد موت صاحبها عمر بن عبدالعزيز، والعودة من جديد إلى فرض الجزية على الموالى. ولهذا يرى بعض المؤرخين أن سياسة عمر الإصلاحية، كانت سببًا غير مباشر فى سقوط الدولة الأموية، لأنها أيقظت فى نفوس الموالى آمالا كبيرة لم تلبث أن خابت بعد موته. انتشر التذمر الاقتصادى والاجتماعى بين الموالى فى كل مكان وصاروا ينضمون إلى كل خارج على الدولة الأموية. كذلك ظهر هذا التذمر أيضًا على شكل حركة كلامية وهى المعروفة بحركة الشعوبية. وهذه الحركة كانت تطالب بالمساواة بين الشعوب مستندة فى ذلك على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... (١٣)﴾ [الحجرات]. (قيل إن المقصود بالقبائل هم العرب، والشعوب هم المسلمون من غير العرب) وقد عرف أصحاب هذه الحركة أيضا باسم أهل التسوية لأنهم كانوا ينادون بالمساواة. الشعوبية حركة اجتماعية أدبية سياسية هدفها الطعن فى السيادة العربية وفى الجنس العربى، وليس فى الدين الإسلامى بطبيعة الحال لأن أصحابها مسلمون وكان موالى خراسان أكثر الناس تذمرًا لأنهم أسلموا قبل غيرهم فى البلاد الأخرى، وشاركوا العرب فى جهادهم ضد الترك فى بلاد ما وراء النهر، وضد الهنود فى إقليم السند بل وفى فتح مصر أيضًا حيث نسمع عن فرقة من الخرسان كانت تدعى بالحمراء شاركت فى جيش عمرو بن العاص. وعلى الرغم من كل هذه الخدمات فإن الدولة حرمتهم من عطاء الحرب وفرضت عليهم الجزية لدرجة أن بعض العناصر العربية فى خراسان قامت بحركات ثورية

تنتصـر فيهـا لإخوانهم الخراسانيين ضد سوء إدارة بنى أمـية. ومن زعـماء هذه الحركة نذكر أبا الصيداء صالح بن طريف الذى عاقبته الدولة بالسجن[أ].

إن تاريخ العراق السـياسى، كأحـد المحاور الاستقـطابية الأولى التى ناوأت الحكم الأموى، يكاد يكون المدخل الضـرورى لدراسة هذا العصر وتبيان مـلامحه الخاصة. فقد بدأ هذا النظام كدولة موحدة من العراق، ولكنها كانت بداية الغالب والمغلوب التى لم تلـبث أن أصبـحت نهج السـيـاسة الأمـوية بجـمـيـع مراحلهـا المتلاحـقة. ولعل النهـاية ستـأخذ طريقـها أيضا من هذا الإقـليم، كنتيـجة لذلك الصـراع الطويل بين العـراق والشـام، ومـا ينطوى عليـه من تنافـر فى الأهداف والمصالح والمستوى الاجتماعى. فالتحرك المتواصل عبر الاتجاهات السياسية المختلفة ممثلة بالشيعة والخوارج، فضلا عن بعض حـركات «الأرستقراطيين» التى كانت لها دوافعها الخاصة، ولكنها عمليا كانت قـادرة على شحن الجماهير وتفجيرها بصرف النظر عن التباين المصلحى بين الطرفين، كل ذلـك جعل من العراق البؤرة الثورية الخطيرة التى أنهكـت نظام الأمويين واستنزفت طاقـاته فى معركـة جانبيـة ولكنها مسـتمرة. وفى بدايات القـرن الثانى للهجـرة، كان على المعارضـة السياسـية فى العراق، أن تأخـذ مسـارا جديدا، أكثـر بلورة فى نضالهـا التقليدى ضـد السلطة الأموية. غـير أن التغـيير قد تناول الأطر العامـة للمعـارضة، دون أن يستـهدف المضامـين المبدئيـة، إلا فى جوانب محـددة، أكثر مـا أصابت الاتجـاه الإسلامى، وذلك مع ازدياد تأثير الفئات المسحوقة فى المجرى العام للتحرك الثورى.

مـوقف الموالى من الأمـويين: لم يهتم الأمويين بـإسلام شـعوب البـلاد المفتـوحة، وإنما كان همـهم أخذ خيـراتهم، وألا تنقص إيراداتهم، فاستـمروا فى فـرض الجزيـة والخراج عليـهم، بل أطلقـوا على من أسلـم منهم اسم: «الموالى» ومفردها مـولى أى الخاضعين لـقبائل العرب. وقـد حاول عمر بن عبـدالعزيز أن

1 ـ أحمد مختار العبادى ـ الدولة العباسية ص15.

يصلح الأمور بين العرب والموالى، وينفذ الاتفاقات الأولى بينهم أثناء الفتوح، فمنحهم المساواة فى كل شىء، لكن عمال الأمويين عادوا بعده إلى ما كانوا عليه من تفرقة، فكانت محاولة عمر بن العزيز تنبيهًا لهم إلى حقوقهم. لذلك ظهرت فى أواخر عهد الدولة الأموية الحركة التى عرفت «بالشعوبية» أى المطالبة بحقوق الشعوب التى أسلمت بالمساواة. وامتدت هذه الحركة فى المطالبة بالمساواة إلى شعوب مختلفة من عجم، وبمعنى آخر، فإنها شملت معظم الدولة الأموية[1].

الشعوبية

بدأت الحركة الشعوبية كلامية، اعتمدت فى تأييد حقها فى المساواة على آيات من القرآن، مثل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]، وعلى أحاديث نبوية، مثل: «ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى». وقد انقسم العرب إزاء ذلك إلى: فريق من أتقياء العرب الذين كانوا يعطفون على هذه الحركة، فيما رأوا من سوء معاملة أفراد الطبقة الحاكمة لإخوانهم المسلمين من غير العرب، مما لا يتفق مع شريعة الله ومبادئ الرسول. وفريق متعجرف لم يعترف بسوء سياسة الحكام. ثم بدأت الاتهامات والتجريح بين الحكام والمحكومين، حتى قال العرب: «لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى». أما الموالى فأخذوا يصغرون من شأن العرب ويفتخرون بملوكهم وتاريخهم. ولكن هذه الحركة لم تظهر بقوتها مثلما ظهرت بين الفرس، لأن الموالين لم يهتموا بإسلامهم، وأطلقوا عليهم اسم: «العجم أو العلوج». أى الذين يتكلمون لغة غير مفهومة. لذلك، ومنذ عهد مبكر، اعتنق الفرس المبادئ التى تناوئ الأمويين، بخاصة المبدأ الشيعى، الذى كان يدعو إلى ولاية أسرة النبى الخلافة، لاسيما وأنهم نظروا لهذه الأسرة نظرة احترام

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص14 وانظر العقد الفريد 2/ 86.

وتقديس، إذ كان الحسين بن على ﷺ قد تزوج بابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين، فقد كان معظم الفرس من الشيعة يومذاك[1].

فالموالى الذين عاشوا فى إطار التبعية المطلقة للأقلية الحاكمة فى العراق، أخذوا يتحررون تلقائيا من هذا الموقع المهزوم، حين أصبحوا جزءاً من المجتمع العربى الإسلامى، على الرغم من المحاولات المضادة التى بذلها بعض المتطرفين فى الإدارة الأموية، للحد من نتائج هذا الانقلاب الذى هدد مباشرة معادلات النظام التقليدية. وكان مؤشر التناقض بين السلطة الأموية، التى رفضت عمليا الاعتراف بمبدأ المساواة الإسلامية فى العراق وبين الموالى، القوة الفاعلة فى المعارضة الإسلامية السياسية، هو انتقال التيار الثورى قيادة وجماهيراً إلى الفئات غير العربية، ففى المشرق، أخذ الموالى يتحركون بحثًا عن شخصيتهم المفقودة فى إطار ما عرف بتيار «الشعوبية» التى ظهرت فى أواخر العصر الأموى، متلمسين طريقهم إلى الثورة فى الدعوة العباسية. وفى المغرب أخذ عرب العاربة من البربر وهم أكثر حداثة بتراثهم الإسلامى، يتحسسون بدورهم طريق التغيير، خصوصًا وأن هجرة الخوارج بأفكارهم المعروفة إلى هذه المنطقة، قد تركت بصماتها الواضحة على أفكار عرب العاربة من البربر وموقفهم من السلطة التى مثلها متطرفو الحزب الحجازى من الولاة الأمويين. امتازت هذه الفترة بتعاقب عدد من الولاة الحجازيين على حكم المغرب، الذين ساهموا بتعصبهم فى انفجار ثورة البربر الكبرى، المعاصرة للخليفة هشام بن عبدالملك. وهكذا حدث تحول ملموس فى حركات المعارضة التى ناهضت الحكم الأموى، وذلك باتخاذها اتجاهات غير عربية، بعد انتقال ثقلها الجماهيرى إلى الموالى فى المشرق وعرب البربر فى المغرب. وهذا ما أدى إلى اكتساب التيار الثورى بعداً اجتماعيًا فى الصميم، خلافًا للحركات الثورية السابقة، حين كانت مضامينها الراجحة سياسية أو فكروية. وكان ذلك نتيجة حتمية لانتقال المبادرة فى هذا المجال إلى الفئات المسحوقة، التى استغلت الاختلال

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ نفس المرجع ص16 وانظر الانسانى 4/ 334، أبو يوسف 1/ 30.

فى قاعدة المساواة، للمطالبة بحقوقها فى المجتمع، متوسلة لذلك مختلف الطرق بما فيها الثورة[1].

النزاعات الدينية: إن المذاهب الخارجية التى اتخذت، فى الولايات الغربية البعيدة، أشكالا من المقاومة الوطنية، ثم ظهرت وكأنها قضى عليها فى الولايات القريبة من الخلافة، بعد عمليات القمع القوية التى قام بها الحجاج، ظلت تشغل النفوس، ولن تتأخر فى معاودة الظهور تبعا لضعف الحكومة المركزية فى دمشق. فمنذ عام 127هـ الموافق 745م حشسدت الخارجية قواها من جديد حول الكوفة وخلقت مشاكل خطيرة للأسرة الأموية. فقد قام الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى، وانتهز فرصة انقسام الأمويين عقب قتل الوليد بن يزيد وزحف على الكوفة (عام 127هـ الموافق 744م) بأنصاره الذين بلغوا زهاء 100ألف رجل ثم خرج إلى الموصل ونصيبين، قبل أن يقضى عليه مروان عند ماردين عام 128هـ الموافق 745م التالية، وفى جزيرة العرب، قام خارجى آخر بمكة هو أبو حمزة وسار إلى حضرموت عام 128هـ الموافق 745م ثم إلى المدينة عام 130هـ الموافق 747م ولكنه قتل فى نفس السنة. وفى العراق قاعدة المذهب، حيث عاد إلى الظهور كان المذهب قد أصيب بضعف شديد فى عهد الخليفة هشام نتيجة للدعاية لصالح العلويين. فكما عمل أهل الكوفة منذ ستين عامًا من قبل، على استدعاء الإمام الحسين ﷺ، استدعوا من المدينة أحد أفراد الأسرة العظيمة وهو الإمام زيد ابن على (زين العابدين بن الحسين بن على عام 121هـ/ 739م على أيام هشام بن عبدالملك)، وأعلنوا إمامته وطالبوا له بالخلافة. وطيلة عشرة أشهر فشلت التدابير التى اتخذتها دمشق ضد ثورة العراق. وفى النهاية قبض على اثنين من أنصار زيد، وتتبع أثر المطالب بالخلافة، وقتل رميا بالسهام (فى يناير عام 740م/ صفر 122هـ) وهكذا أراق الأمويون من جديد دم حفدة النبى، وكان أصحابه قد دفنوه فى ساقية وأجروا الماء على قبره خوفًا أن يمثل به، ولكن عرف القبر ونبش وأخرجت الجثة وصلبت ثم أحرقت وذر رمادها فى الفرات[2].

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ـ ص288.
2 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص26.

ولعل التساؤل يفرض نفسه، لمعرفة مدى الجدية في موقف الخلافة الأموية إزاء هذا «الانقلاب» الخطير في هيكلية المعارضة الذي تبلور في الثلث الأخير من تاريخها؟ ذلك أن أي خليفة أموي لم يكن لديه التصور الواقعي لمشاكل دولته، التي أخذت تستفحل مع تزايد مساحتها وارتفاع أعداد سكانها. فقد ظلت المعادلة الأولى التي استخدمها معاوية ـ المعتمدة على التوازن النسبي بين القبائل، والمتجاهلة أوضاع الشعوب غير العربية ـ هي السائدة لدى خلفائه حتى الكبار منهم أمثال عبدالملك والوليد. ولاشك أن طبيعة النظام الأموي الذي قام أساسًا في ظروف غير عادية، كانت وراء الأسباب التي جعلت من الخلفاء يتخذون تلك الشخصية الصدامية، محافظة على هذا النظام المهدد دائمًا بالسقوط. ولذلك نستطيع القول إن جهود الخلفاء الأمويين كانت منصبة في اتجاهين: الأول هو التصدي للتيارات السياسية المناوئة وإحباط المحاولات الثورية، والآخر هو تشجيع الاتجاه التوسعي الذي تحول إلى هدف في ذاته، وليس مدخلا إلى علاقة متكافئة، تأخذ في الاعتبار مصالح مختلف الأطراف بمن فيها الشعوب «المغلوبة». وكان عمر بن عبدالعزيز، أول خليفة في الأسرة الأموية، يشذ على القاعدة التقليدية، ويعطي هذه المشكلة نصيبها من الاهتمام ومن الجدية. فهو يختلف عن أقرانه في الأسرة الحاكمة، حتى في حياته الخاصة التي وصفت بالبساطة والابتعاد عن المظاهر الملكية. وقد يبدو من أسباب ذلك أن الخلافة سعت إليه، وكان للصدفة ربما الدور الرئيس في اختياره. فثمة ظروف غير عادية تدخلت في هذا الأمر، أهمها موت الخليفة سليمان في «دابق»، وهو يتابع أخبار حملته إلى القسطنطينية، تلك التي كان أحد قادتها ابنه داود، وهو على الأرجح ولي عهده. فكان أن استغل هذا الفراغ أحد الفقهاء المقربين منه وهو رجاء بن حيوة الذي توصل إلى إقناعه بتعيين عمر بن عبد العزيز خليفة له. وجاء القرار صدمة لأبناء عبدالملك، وفي طليعتهم هشام الذي رفض في البدء الاعتراف بالأمر الواقع، ولم يبايع إلا مرغما الخليفة الجديدة. وهذا الموقف يكشف ذهنية الأسرة المروانية، التي وجدت في هذا

الاختيار أمراً غير مألوف فى الاعراف السائدة، ونهجا لايتطابق والمقاييس المفروضة للخليفة المرشح[1].

وفى الفتـرة الإسلاميـة الأولى كانت الفكرة الجـديدة ذات طاقات توسعـية هائلة. وكانت طاقـاتها هذه تنساق فى مـجارى التوسع ولم يقم فى الوقت نفـسه نظام داخلى يعادل أداة ذلك التوسع من حيث القوة. وهذا هو العامل ذو الأثر فى تاريخ الدولة الأموية، وهو عامل كثيرا ما أساء فهمه الدارسون من بعد، إما ذهابًا مع الهوى وإمـا افتقـاراً إلى المعرفة التـاريخية، أو افـتقاراً إلى الإحـساس بالنظرة التاريخـية. وإن فكرة (الأيديولوجيـة) لم يتح لها خلال القـرن الأول أو نحوه أن تتجسد فى أية نظم اجتماعيـة سوى نظام الحكومة. فإذا احتكرت الحكومة وحدها السلطة التى تمارسها لم يكن إلى جانبها نظام آخر ينازعها سلطانها ـ فلم يكن ثمة اختيار بين احتكار الحكومة للسلطة أو تنازلها عن بعضها لنظام آخر لأن هذا النظام الآخـر لم يكن له وجـود، والسلطة على أية حـال شيء لايمكن نقله، إنما كـان الاختيـار الوحيد بين احتكار السلطة ـ سـواء أكان يمارسها الأمـويون أو غيرهم ـ وبين الفوضى[2].

إننا نجد أن تحول الطاقة لايضعف نظام الحكم مطلقًا فى أول أمره وذلك لأن مجموعـة الطاقة المتوفرة هائلة، ولأن تحويلها يجـرى على نحو متدرج بطيء. ثم إننا قد رأينا فيما يتـصل بالأمويين أن القوة التوسعية التى بعثتـها الفكرة الإسلامية أصلا إلى الوجود تمثلت فى واقع الأمـر، فى صورة قوة توسعية قبـلية عربية، ولما تلاشى حافـز الفكرة الذى كان يحـدو للتوسع الخـارجى فى مرحلة تاليـة، كانت الحكومة مـاتزال تستطيـع الاعتمـاد على الطابع العدوانى، الـذى وسمت به روح القـبائل وأشربتـه نظرتهـا، وأن تستـغله فى التوسع ومع هذا فـلا بد من أن يأتى عاجلا أو آجلا وقت يحصل فيه توازن تقريبى بين قوى التوسع والقوى الخارجية،

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ـ ص289.

2 ـ د. محمد عبدالحليم عويس ـ المرجع السابق ص82.

وعند هذا الحد إما أن يكون حافز التوسع قد استنزف طاقاته وإما أن يكون قد أصبح أضعف من أن يتغلب على القوى المعارضة، وعندئذ يصبح نظام الحكم مضطرًا إلى أن يقف موقفًا دفاعيًا. وهكذا أوشك أن يصل إلى المأزق الحضارى الذى وقعت فيه الدولة الأموية، إلا أن رؤيته المقيدة بالسوابق الثقافية قد حالت دون ذلك. مع أنه اقترب كثيرًا من الحقيقة. ومهما يكن من أمر فإن الدولة الأموية لم تستوعب قانون الامتداد (بالفتوحات) كان عليها أن تمتد (بالدعوة) وإلا فقدت مؤهلها للبقاء والتقدم[1].

كما شهدت منطقة خراسان سياسة أموية مجحفة بجعلها موردا للشام وذلك بفرض ضرائب الجزية والخراج على أهلها والاستحواذ على الأراضى التى كان ملوكها يستصفونها لأنفسهم من الضياع العامرة وجعلها صافية لنفسه وأهل بيته. بالإضافة إلى ملايين الدراهم المتحصلة منهم كضرائب للموالى. كما ظهر تيار إسلامى متمثل بموقف الخوارج واستنكارهم من حيث المبدأ كل تمييز بين العرب والموالى ويطالب بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية عليهم وإنصافهم من التعدى والظلم واعتبارهم مثل العرب فى الحقوق والواجبات، وليس هناك من سبب مباشر يدعو للتفريق بينهم وبين العرب، ما داموا قد دخلوا فى الإسلام وحاربوا فى صفوفه ضد الأعداء فى بلادهم وخارجها وأن إخلاصهم أصبح واضحا فى سبيله. هذا الأمر شعر به بعض خلفاء وولاة بنى أمية كعمر بن عبدالعزيز ونصر ابن سيار وحاولوا إصلاحه، لكن ظروف المجتمع فى خراسان وغيرها وحالة التداعى والتداخل حالت دون ذلك. ومع كل الذى يقال فى سياسة الدولة الأموية فى خراسان، فإن الشعوبية لعبت دورا بارزا فى التعتيم على الإصلاحات هناك وإبراز المساوئ لتشويه سمعتها وبالتالى إسقاط الحكم العربى وإظهاره بالمظهر غير الشرعى فى تلك البلاد، وقد تنبه نصر بن سيار عامل الأمويين إلى ذلك فكتب إلى الخليفة يدعوه إلى اليقظة والحذر مما يحاط بدولته من دسائس ومؤامرات بعد أن أعيته حيل الكرمانى فى خراسان وظهور أبى مسلم.

---

1 ـ د. محمد عبدالحليم عويس ـ نفس المرجع ص83.

ومما زاد الأمر تعقيدا على السياسة الأموية ما صرح به معاوية نفسه حين قدم المدينة يستطلع الأحوال فيها تمهيدا لمبايعة يزيد بولاية العهد، فردوا عليه بأن الخلافة ليست بقيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء، وإنما هى فى قريش لمن كان لها أهل ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم، فعارضهم فى رأيهم معارضة شديدة. ولرغبة معاوية فى جعل الخلافة فى البيت السفيانى أثار حفيظة البيت المروانى مما أثار الشحناء بين البيتين وبالتالى إضعافهما، وهذا واضح من كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يطلب منه أخذ البيعة ليزيد، وكان جواب مروان ما يوحى به على غير ما يحب، فعزله معاوية وولى مكانه سعيد بن العاص، مما أغضب مروان وقرر العودة إلى الشام فى أهل بيته ووفد كبير فى أخواله من كنانة وناقش معاوية فى الأمر وبين له بأن لهم حق المشورة فى ذلك، وحاول معاوية إصلاح ذات البين بأن فرض له ألف دينار وفى أهل بيته مائة مائة. كما رفض سعيد بن العاص والى المدينة الجديد هذه السياسة أيضا وكتب إلى معاوية يقول: «العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابتنا، أن يضغن بعضنا على بعض، وإدخاله القطيعة بيننا والشحناء وتوارث الأولاد ذلك، فوالله لو لم نكن بنى واحد إلا بما جمعنا الله عليه من نصرة الخليفة المظلوم، واجتماع كلمتنا لكان حقا علينا أن نرى ذلك والذى أدركنا به خير»، فكتب إليه معاوية يتنصل من ذلك، وكان لهذه السياسة التى سلكها معاوية أثرها البعيد فى العلاقة بعد ذلك بين فرعى البيت الأموى، واستمرت العلاقة تتباعد حتى انقسم البيت الأموى إلى فرعين متميزين، الفرع السفيانى والفرع المروانى، وكما أبعد البيت السفيانى فرع مروان، فإن المروانيين حين وصل الحكم إلى أيديهم تداولوه بينهم ولم يجعلوا للفرع السفيانى منه شيئا. وهذا واضح من نقل مروان ولاية العهد لولديه عبدالملك وعبدالعزيز، وجعلهما وليى العهد. واستبعد خالد بن يزيد بن معاوية مما أدى إلى إضعاف البيت الأموى فى المدى البعيد. وهكذا فإن ما أقدم عليه معاوية من نظام

التوريث أثبت أنه لم يحسن التقدير، فقد ظهرت الخلافات بعد موت معاوية مباشرة وبدأ الانتفاض على يزيد منذ تولى الخلافة والتى جرت على الدولة الويلات والكوارث واستبيح بسببه الكثير من الحرمات والدماء، وذهب فى خلاله من يد بنى أبى سفيان الملك الذى ظن معاوية أنه وطده لبيته. أما مروان بن الحكم الذى جاء إلى الحكم على أثر مؤتمر الجابية الذى نجم عنه افتراق كلمة الحجازية واليمانية نتيجة اعتماده على سياسة القوة والعصبية القبلية مما أضعف العنصر العربى الذى تعتمد عليه الدولة، وقد سئم العرب السياسة الأموية التى تفرق بينهم وخاصة بعد موقعة مرج راهط المعروفة فلم يكن مروان بن الحكم محببا إلى الأمة أو إلى نفوس العامة.

الهجرة بعيدا عن دمشق: خلال هذه الصعوبات الشديدة حدث ما يمكن أن نسميه بتباعد روحى بين الأمويين وبلاد الشام. إذ كان من نتائج شعور الأمويين بعدم الأمن والاطمئنان فى عاصمتهم، ورغبتهم فى القرب من العرب الذين ربطوا مصيرهم بهم، أن قرر الخلفاء منذ عهد الوليد بن عبدالملك هجر دمشق مؤقتًا، فى أول الأمر، ثم بطريقة مستمرة بعد ذلك. ولم يعودوا يظهرون أمام الناس إلا فى الأعياد الدينية أو فى الاحتفالات الرسمية. فلقد استقر هشام فى وسط بادية الشام، فى شمال تدمر، فى مدينة سرجيوبوليس القديمة التى أعيد بناؤها وأصبحت تسمى الرصافة. وهكذا فضل الأمويون سكنى الصحراء على سكنى العاصمة. وهناك شيدوا القصور، مثل التى أقاموها فى شرق الأردن، كقصر عمرة ومشتى، اللذين يحتمل أن يكوناً من تشييد الوليد بن يزيد، كما فضلوا محلات البدو كذلك، فهناك كانوا يتمتعون بحرية تلائمهم كرجال مولعين بالرياضة والصيد، وهناك كانوا يجدون الحياة العربية الحقيقية، منبع الشعر الصافى، حيث كان يمكنهم سماع الشعر الجاهلى الذى يحفظه الرواة والقصائد الجديدة التى تعيد الموضوعات التى كان يعالجها الشعراء قديمًا[1].

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص28.

العصر الأموى هو عصر نهضة حقيقية، وازدهار بالنسبة للشعر العربي. فالخلفاء الذين كانوا يقرضون الشعر أنفسهم أحاطوا مجالسهم بالشعراء وضربوا صفحا عما اتصف به هؤلاء من خروج على الأخلاق أو آداب الكلام. إذ كانوا كلهم يشربون الخمر ويحتفلون بمجالسها دون مداراة أو خجل، وشاعر الأسرة دون منازع هو الأخطل الذى كان مسيحيا مثل معظم أفراد قبيلته وهى تغلب، كما كان يجاهر بعقيدته. وإن ما أنعم به الأمويون على الأخطل والبارزين من معاصريه من الشعراء مثل جرير والفرزدق لتدل على مبلغ تذوق الخلفاء وأفراد أسرهم للشعر وحبهم للأسلوب الجميل والصور المبتكرة، وهذه كانت وسيلة من وسائل الحكم أيضًا. فالشعراء كانوا يمثلون قوة معنوية عظيمة فى مجتمع العرب. فمدائحهم التى كانوا يكثرون منها كانت تزيد من هيبة الخليفة وكبار موظفى الدولة من أعوانه، كما أن هجاءهم كان سلاحًا رهيبًا ضدهم[1].

إن اختيار خراسان مكانا لأغلب هذه الحركات يفسر لنا اختيار العباسيين لها حيث اتخذت الدعوة العباسية الوعد بتحسين أوضاع الموالى اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ومساواتهم بالعرب نتيجة السياسة الأموية وانطلاقا من الأساس الدينى الذى لايفرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى برنامجا اجتماعيا لها. لذا فقد حاولت الدعوة أن تستغل هذا الشعار وتضم أكبر عدد ممكن من الأتباع والعناصر المناوئة للحكم. هذه العناصر التى كانت تشعر بضرورة التغيير لأنها أصبحت فى نظر العرب موالى أو مواطنين دون العرب، فهناك التقت مصلحة الخراسانيين والعباسيين معا لتحقيق الأهداف المشتركة، ألا وهى إسقاط الدولة الأموية، وتكوين دولة جديدة كل منها يستطيع تحقيق آماله وأمانيه فيها[2].

وإذا كان العرب والخراسانيون قد تأثروا دائمًا بأجواء الصراع السياسى فى العراق، فإنهم تأثروا كذلك وبصورة أعمق بالانقسامات داخل السلطة الأموية

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص28.
2 ـ د. عبدالجبار منسى العبيدى ـ المرجع السابق ـ ص289.

وتذبذب مواقفها مع تغير المواقف بين خليفة وآخر. فكان ولاتها فى خراسان، مرآة لسياسة الخلفاء الأمويين والوجه الحقيقى لهم، ربما بصورة أكثر تعبيراً من الولايات الأموية الأخرى. فهم يمنيون إذا كانت ميول الخليفة يمنية، وحجازيون إذا كان الأخير كذلك. ولعل أشهر الولاة الأمويين فى خراسان، الذين تركوا بصماتهم القبلية فى المشرق، المهلب بن أبى صفرة، من الأزد اليمنية، وقتيبة بن مسلم من باهلة الحجازية. فلم يتورع كلاهما عن التورط مباشرة أو غير مباشرة فى المسألة العصبية، على الرغم مما أصاباه من مكانة عالية، وما امتازا به من الدهاء، وهى صفة السياسى المحنك فى ذلك الحين. بيد أن ولاية المهلب على خراسان، كانت أكثر تأثيراً فى التركيب القبلى، الذى أصبح للأزديين فيه الشأن القوى، لاسيما بعد تحالف هؤلاء مع بكر وربيعة ضد التكتل المضرى. وكان لهذا التفوق الأزدى تأثير هام فى التطورات الخراسانية خلال السنوات الأخيرة من الحكم الأموى، إلا أن هؤلاء لم يثبتوا فى الموقع نفسه الذى رسم حدوده المهلب، بعد أن جنحوا إلى المعارضة المتطرفة فى مطالع القرن الثانى الهجرى. وتجلت حينذاك ظاهرة لافتة، وهى ارتفاع نسبة العرب، بعد استمرار التدفق القبلى على خراسان التى توفرت لها كافة عناصر الاستقطاب فى ذلك الحين، بدءا بخصوبة الأرض والثراء وانتهاء بالحصانة الجغرافية، حيث شجع بعدها عن مركز الخلافة، معارضى الأخيرة على الهجرة إليها، بحثًا عن الأمان لدى قبائلها القوية وذات النفوذ الكبير فى إقليم المشرق. ولكن الظاهرة الأهم حينذاك، كانت فى التعايش بين العرب والخراسانيين، إذ كان هؤلاء ما يزالون فى موقع التفوق العددى، على الرغم من كثافة التحرك القبلى إلى هذه المنطقة. وكانت بوادر هذا التعايش، قد ظهرت فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز الذى كانت له سياسة إصلاحية واضحة فى هذه المسألة. وعلى الرغم من حساسيات العلاقة أو بعضها التى تجلت بين العرب والموالى الفرس فى العراق، تلك التى بلغت ذروتها فى ثمانينيات القرن الأول، فإن ثمة نهجًا آخر شهدته هذه الولاية، عندما فرض التعايش العربى ـ الخراسانى نفسه، ليصبح نواة تيار إسلامى متجانس فى المصالح (اشتغال بعض العرب فى

الزراعة - حرفة الموالى - نتيجة للاستقرار وركود العمليات العسكرية)، وفى العقيدة مع تحول الكثير من الخراسانيين إلى الإسلام، وهو ما لم يحدث بالحماسة ذاتها على الأقل فى العراق.

إلى جانب توقف التوسع فى الخارج، صادف الإسلام صعوبات فى الأراضى التى كانت قد انضمت إلى الدولة منذ حوالى نصف قرن على الأقل. فقد كانت الولايات المتطرفة مضطربة نتيجة طبيعية لسياسة العرب بالنسبة إلى أهل البلاد الذين دخلوا فى الإسلام. فرغم إسلام هؤلاء فإنه كانت تقع على كاهلهم أعباء مالية لايخضع لها إخوانهم فى الدين من العرب، إذ أن حق الفتح كان ما يزال يميز العرب بالأرزاق وخاصة تحول أهل البلاد إلى الإسلام كان يقلل من الأموال اللازمة للعرب. والظاهر أن الأعباء المالية التى كانت خففت بعض الشىء على عهد عمر بن العزيز عادت أثقل مما كانت منذ تولى هشام، وكان هذا نتيجة طبيعية لتوقف الفتوحات وقلة الغنائم. وفى خراسان كما فى المغرب طالب الناس بالمساواة فى الأعباء المالية، كما وعد بذلك الإسلام، هذه المقاومة الوطنية كان عليها أن تأخذ طريقًا مختلفا حسب طبيعة البلاد وأحوال الناس والظروف العسكرية والدينية. كما أن هذه المقاومة ستتعقد وتزداد خطورة بفضل الخلافات التى أتى العرب بها. ففى خراسان ستنجد الفرس بالقبائل التركية التى كانت معادية لها من قبل لتؤيدها فى احتجاجها ضد الضرائب. وكان على الدولة أن تقاتل القائمين ضدها، كما كان عليها أن تقوى الحاميات، ولكن القوات العربية نفسها كانت تمزقها الخصومات القبلية والعصبيات التى كانت تتبعها فى كل مكان، والتى كان يشترك فيها أهل البلاد، أينما حل العرب. وأخيراً بدأت خراسان تستمع من رجال يقومون بالدعوة ضد الأمويين ويبشرون بعهد تكون فيه الخلافة لأسرة من آل البيت[1].

---

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص24.

ومن هذا المنظور، فإن العلاقة الاجتماعية بين العرب والخراسانيين، تصبح أقل تعقيداً في خراسان من علاقة العرب ببعضهم الذين أوغلوا في الانقسام، كلما ظهرت بوادر التقارب والتعايش مع الخراسانيين أو غيرهم في هذه البلاد. ولعل دلالة هذه الظاهرة، أنها جعلت المجتمع الخراساني يمثل اتجاهين مختلفين في التركيب والطرح والمفهوم: الأول، هو الاتجاه القبلي الذي انطلق من أرضية الصراع الشمالي - الجنوبي أو الحجازي - اليمني، ذلك الصراع الذي أحسن استغلاله في وقت لاحق أبو مسلم الخراساني في الإجهاز على الدولة الأموية. والثاني، هو الاتجاه الإسلامي الذي يمثل العرب كما يمثل الخراسانيين، متجاوزاً حدود القبيلة العربية وقضية الموالي الخراسانية، وداعيًا إلى قيام دولة إسلامية عادلة ومتوازنة[1].

موقف العلويين من الأمويين: لم يعد باستطاعة الذرية العلوية عمل شيء يذكر ضد بني أمية، بعد أن قتل معظم أفرادها في كربلاء، وبذلك تأكد انتصار هؤلاء على بني هاشم أكبر المنافسين لهم. ولكن أصبحت البقية الباقية من آل أبي طالب مقدسة. وأخيراً قام المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي مناديًا بثأر آل البيت، وداعيًا إلى محمد بن الحنفية كما دعى سليمان بن صرد سراً بين العرب للانتقام للحسين، فعرف أنصاره بسبب ذلك باسم «التوابين» إلى أن قتله ابن زياد - عامل الأمويين على الجزيرة - في عين الوردة من أرض الجزيرة مع عدد كبير من أصحابه، فقوى موقف المختار بموته حتى تمكن منه مصعب بن الزبير وقتله بقصر الإمارة في عام 68هـ/ 687م وبذلك كان الانتصار على الشيعة العلويين، وبخاصة عندما تمكن الحجاج بن يوسف الثقفي - عامل الأمويين على العراق - من الانتصار على عبدالله بن الزبير، فأصبح المسلمون جماعة واحدة تحكمهم الدولة الأموية[2].

1 - د. إبراهيم بيضون - المرجع السابق - ص317.
2 - د. إبراهيم أيوب - المرجع السابق ص12 البلاذري 5/ 308.

موقف الخوارج من الأمويين: ما أن هدأت حدة الصراع ضد الأمويين، حتى تأججت الثورة من جديد فى العراق، ولكن هذه المرة ليست من جانب الشيعة الذين كانوا قد ضعفوا، وإنما من قبل جماعة أخرى كانت مع الإمام على ابن أبى طالب فى صفين، وأنكرت عليه جعل حقه المقدس فى الخلافة موضع التحكيم بين الناس وقالت: «لاحكم إلا لله»، أى أنها كانت ترغب فى استمرار المعركة، لتستمر وحدها حاملة لواء النزاع مع معاوية، وأنه لايجوز العدول عن حكم الله إلى حكم الرجال، فعرفوا بسبب قولهم هذا: «بالمحكمية»، وإنما انحازوا إلى قرية حروراء ـ بالقرب من الكوفة ـ فعرفوا أيضًا بالحرورية. وبدأت تختمر بين هذه الجماعة المنفصلة، فكرة الخروج على نظام الخلافة القائم، وجعلوها جائزة فى غير قريش، وأنها يجب أن تعود إلى أفضل الناس مهما يكن أصله أو جنسه ما دام عارفًا بالكتاب والسنة. أخذت هذه الجماعة تتجمع، بعيدًا عن البصرة والكوفة، عند وسط مجرى نهر دجلة، واختاروا لهم أميرًا أو إمامًا اسمه عبدالله ابن وهب الأزدى وبسبب هذا الخروج عرفوا أيضا «بالخوارج، وهو الاسم الذى غلب عليهم، وقد كفروا عليا ومعاوية وعثمان وأصحاب الجمل، وكل من رضى بتحكيم الحكمين، وحتى مرتكبى الذنوب الصغيرة. ساعد الخوارج معاوية فى تولى الخلافة بقتلهم الإمام على، ومع ذلك وقفوا موقف الأعداء الألداء من الأمويين الذين حاربوهم بواسطة عمالهم فى الكوفة والبصرة باستمرار حتى ملأوا السجون بهم، وقتلوا جماعة كثيرة منهم رجالا ونساء، فانتقلوا إلى بلاد الأهواز بين البصرة وفارس، وبدأوا من هناك بشن غاراتهم التى أزعجت الأمويين كثيراً، وبخاصة فى أيام زعيمهم نافع بن الأزرق الذى كان السبب فى انشقاقهم إلى فرق متعددة بلغت عشرين فرقة. وقد تمكن عبدالملك بن مروان من القضاء على فتنة الخوارج عندما تمكن عامله على العراق، الحجاج بن يوسف الثقفى من إخماد أخطر فتن الخوارج بالمشرق، الأمر الذى جعل البغدادى يقول عن هزيمتهم «طهرت الأرض من الأزارقة، والحمد لله». وبذلك مهد عبدالملك لخلافته، و لمن جاء من الخلفاء بعده، الاستقرار[1].

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ نفس المرجع ص13، الأخبار الطوال ص205.

شهد الربع الأول من القرن الثانى الهجرى، انعطافًا بارزًا فى العلاقة بين الأسرة الأموية الحاكمة والقوى المتحالفة معها، وبين المعارضة السياسية التى اتخذت منذ مطلع هذا القرن طابعًا اجتماعيا ظاهرًا، بعد أن غلب الصراع السياسى على الحقبة السابقة، سواء تمثل بالمعارضة العلوية أو الخوارجية أو الحجازية (حركتا ابن الزبير بالمدينة). وإذا كانت السياسة المالية قد فجرت الوضع فى الجناح الغربى من الدولة ـ بقيام ثورة عرب العاربة من البربر الكبرى (122 ـ 125هـ الموافق 739 ـ 742م) التى كانت مفتاح ذلك التحول فى العلاقة مع الحكم المركزى، تلك التى أصبحت مضطربة حينًا، متقطعة فى أغلب الأحيان ـ فإن الجناح الشرقى من هذه الدولة، كان أكثر جذرية فى تحركه ونضجًا فى طروحاته التى اختمرت أخيرًا فى إطار تيار إسلامى عام، منسجم مع التغيير الذى طرأ على بنية هذه المنطقة الاجتماعية. فقد كان من مؤشرات الخلل الذى أصاب مؤسسة الخلافة وما رافقه من تحجيم دورها المتكامل ـ بعد طغيان الجانب الدنيوى فيها على الجانب الدينى ـ ذلك الفرز السياسى والاجتماعى بين فئتين متناقضتين فى الرؤية والمصلحة، الأولى ممثلة بالسلطة (الولاة والدهاقين)، والثانية ممثلة بـ «الحركة الشعبية» بعناصرها المختلفة، من العرب والخراسانيين والترك على السواء. وهكذا كان الاختلاف واضحا، بين «الحركة الشعبية» فى المغرب العربى وبين مثيلتها فى خراسان، فالأولى كانت أسيرة إقليميتها وتأثرها بالفكر الخارجى المتطرف والمهزوم فى المشرق، مما أدى إلى ذلك النطاق من العزلة الذى أحاط بها، ومن ثم فضلها فى اتخاذ صفة تمثيلية عامة، على غرار الحركة الأخرى المتزامنة معها التى لم تمس الصيغة القائمة للنظام السياسى شبه الإمبراطورى، وفى الوقت نفسه كانت مدخلا إلى التشرذم والتمزق السياسى.

لم يكن رد الفعل فى المغرب بأقل عنفا، إذ اتخذ هو الآخر شكلا خطيرًا. ومهما يكن من أمر، فإن أسباب الاضطراب كانت من نفس النوع. فأهل البلاد الذين أسلموا لم يعاملهم الولاة العرب معاملة حسنة. فيزيد بن مسلم مولى الحجاج ومعاونه فى إدارة العراق أخضع عرب العاربة من البربر لنفس الأعباء المالية

التى كانوا يخضعون لها قبل إسلامهم (الجزية). فلقد سار على نفس نهج الحجاج واستوحى النظام المسيحى البيزنطى ووشم على يد كل جندى من حرسه من البربر اسمه، كما وشم على اليد الأخرى كلمة «جندى» وكان من الطبيعى أن يثير هذا الإجراء خواطر أهل البلاد. واغتيل يزيد فعلا فى عام 102هـ الموافق 721م. إلا أن رد الفعل الذى سيأخذ شكلا خطيراً آخر حدث بعد حوالى عشرين سنة، نتيجة لاشتطاط، أحد ولاة طنجة فى طلباته. فعقب إحدى الثورات، ادعى أن البربر المسلمين الذين وقعوا أسرى كجزء من الغنائم وأراد أن يسترق خمسهم، وهو الخمس الذى كان من حق الخليفة. فثارت البلاد وقتل هذا الوالى وتمكنت الثورة من كل المغرب[1].

أعطى هذه الثورة صفة جد خطيرة أن قائدها، وهو رجل بربرى اسمه ميسرة، كان يذهب مذهب الخوارج الصفرية. وهكذا انتشرت الدعوة التى ظهرت فى المشرق أيام معاوية فى المغرب الأقصى وكانت بمثابة سلاح تسلح به عرب البربر الذى دخلوا فى الإسلام ضد استبداد الأمويين. فمذهب الخوارج الذى كان، كما هو معروف، متشبثا بفكرة الشورى، وحكم الجماعة فى الميدان السياسى ظهر فى المغرب بمظهر السنية الخالصة، الحريصة على إقامة المساواة المطلقة بين جميع المؤمنين دون النظر إلى أى تحيز عنصرى. وبذلك نفهم كيف قدر لهذه الحركة النجاح بين عرب البربر، ومدى الانتشار الذى ستبلغه وسيحرز عرب البربر انتصارين باهرين على الأمويين فى منطقة طنجة: الأول فى وقعة الأشراف حيث يخر فيها زهرة شباب الجيش الأموى صرعى والثانية سيكون والى المغرب وقائد قوات الخلافة من بين القتلى فيها. ووجد الوالى الجديد الذى أرسله الخليفة هشام أمام ثورة عظيمة كان عليه قمعها. وتمكن من ذلك بعد انتصارين دفع ثمنهما غاليا. وثانى هذين الانتصارين حيث هلك 180,000 من عرب البربر كما تبالغ الرواية العربية وقع فى مكان يسمى الأصنام على بعد يوم من القيروان[2].

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص25.
2 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص25.

كان المغـرب العربى رائد تلك النمـاذج الاستـقلالية المبكرة الـتى قامت فى أعـقاب ثورة عـرب العاريـة من البربر الآنفـة الذكـر. ومن الواضح أن التصـدى للتجـربة الرائدة ـ أى الخلافـة ـ وهى فى مراحل نموها وبدايات اسـتقـرارها، قد انعكس بصورة خاصـة على العلاقة بين الأمويين الحاكمـين، وبين شعوب البلدان التى خـضعت لهم، وبالتـالى فقد أسـهم فى ضعـضعـة الإطار الاحتوائـى لهذه المؤسسة، وهو أبرز مفاهيمها السياسية التى تبلورت فى العهد الراشدى الأول. فلم يكن ثمة تمايز آنذاك بين العقيدة وأصحابها الأوائل الذين حملوها إلى مناطق النفوذ الفارسى والبيزنطى، كما لم يكن ثمة استلاب لها أو تأقلم أو تدجين، على الرغم من شيوع النمط الإمبراطورى فى ذلك الزمن. فسقط هذا النظام أمام صيغة الخلافة المبتكرة، تلك الأداة التنفيذية والنموذجيـة للدعوة التى كان العرب مؤهلين حينذاك لقيادتها والقيام بهـذا الدور التاريخى، عبر مجموعة متضـافرة من العوامل النفسية والجغـرافية والاقتـصادية. ولم يكن ثمة مـايحول أيضًا دون انـتقال هذا الدور أو بعضه إلى شـعب آخر، ليست له تلك الريادة ولا ذلك الرصيـد الحضارى المتكافئ معـه. فقـد كانت العـقيدة الإسـلاميـة، الإطار الجامع الذى يسـتوعب مـختلف الشعوب، دون تناقض بين عالميـة الدعوة وبين الشخصية القومـية والحضارية لكل منها، بحيث تصبح القوميات المتعـددة التى يدين أصحابها بالإسلام، أشبه ماتكون بالجزر وسط محيط من التضامن الأخوى الذى تحكمه العـقيدة الإسلامية السمحة، مما ينفى التناقض العدائى بين القومية وبين العقيدة فى الإسلام، كما عبر عن ذلك مؤرخ معاصر. ومن البديهى أن حركة التوسع أو الفتوح، قد أسهمت بدون مجال للتردد فى إحياء النزعة الإمبـراطورية، مع اختلال نظلم الخلافة الذى وضع موضع التنفيذ لبنة الولاء للدولة ـ المؤسسة. وقد جـاءت الانتصارات العسكرية نتيجة ذلك الانسـجام والتـعاطى المتكافئ مع الدولة، خـلافًا للفـتوح الأمـوية التى خضـعت لاعتبـارات متفاوتـة، سواء ارتبطت بسياسـات خاصة للخلفاء والولاة، أو إشـباع

رغبات الجند أو امتصاص النقمة الشعبيـة، فافتعال حملات عسكرية قد لايكون ما يسوغها فى كثير من الأحيان[1].

وبعد مقتل المختار على يد مصعب بن الزبيـر توجه عبدالملك لقتال مصعب حتى قتله عام 72هـ الموافق 691م. بالنسبة لمحمد بن الحنفية فإنه لم يدع إلى نفسه فى يوم من الأيام، ولم يعرف عنه أنه أوكـل مهمة الدعـوة باسمه للمخـتـار، لأن المعروف أنه بايع لعبدالملك بن مروان عندمـا تبين له عدم جدوى أى عمل يقوم به العلويون ضد الأمـويين، والأمويون هم الأقوى. وبالرغم من أن المختـار قد دعا باسم ابن الحنفية إلا أن ابن الحنفـية لم يكن له أى دور فيها. وقـد خمد العلويون بعد تلك الأحـداث إلى أن قام بالدعوة لآل البـيت عبدالله بن مـحمد بن الحنفـية «أبوهاشم» فى نهـاية القـرن الأول الهـجرى. أمـا الإمـام زين العـابدين على بن الحسين ﷺ فلم يعرف عنه أنه أشهر السلاح فى وجه الأمويين، وإن كان المذكور غير راض عن حكمهم وبرغم من إحجامـه عن الدخول فى مجال السياسة إلا أن ذلك لم يحل دون ملاحقته من قـبل السلطات الأموية، إذ يقال: بأن عبدالملك بن مروان أمر بحمله إلى الشام مقيداً بالأغلال[2]. وهذا هشام بن عبدالملك ـ قبل أن يكون خليفـة ـ عندما حج وطاف بالبـيت وأراد استلام الحـجر الأسـود فلم يقدر فنصب له منبر فجلس عليه، فبينمـا هو كذلك إذ أقبل الإمام على بن الحسين فى إزار ورداء، وكان أحسن الناس وجهًا، وأعطرهم رائحـة، وأكثرهم خشوعًا فطاف بالبيت، وأتى ليستلـم الحجر فتنحى له الناس هيبة وإجلالا، فـغاظ ذلك هشامًا، فقال لـه رجل من أهل الشام: من هذا الذى أكرمه الناس هذا الاكـرام، وأعظموه هذا الإعظام؟ فقـال هشام: لا أعرفـه. ويبدو أنه قال ذلك لئـلا يعظم فى صدور أهل الشام فقال الفرزدق: وكان حاضراً، أنا أعرفه وأنشد:

---

1 ـ د، إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ـ ص308.
2 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ العلاقة بين العلويين والعباسيين ـ ص28.

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم

إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

إلى أن يقول:

وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

ثم إن هشامًا أمر بسجن الفرزدق بعد قصيدته تلك التى مدح بها عليًا زين العابدين وآل على، والتى هى فى نفس الوقت تحط من قدر الأمويين أمام أتباعهم مقارنة بالعلويين. وقد انطفأ أمر العلويين إلى أن قام بهذا الأمر أحد أحفاد الإمام الحسين بن على وهو «زيد بن على زين العابدين بن الحسين» الذى خرج على الأمويين فى عهد هشام بن عبدالملك فى الكوفة ودعا إلى نفسه وبايعه كثير من أهل الكوفة. ولعل السبب فى عدم قيام العلويين وشيعتهم بثورات ضد مملكة الأمويين فيما بين ثورة المختار، وثورة زيد هذا هو ما أصيب به العلويون وأنصارهم من الهزائم على يد بنى أمية، وعدم وجود من يطمئن إلى نجاح فيما لو قام بهذا الأمر وهذا هو ما جعلهم يحجمون عن القيام بأية ثورة ضد الأمويين[1].

كذلك ارتبطت الفتوحات بقضية أخرى ليست أقل تعقيدًا، وهى العلاقة مع الشعوب التى خضعت للدولة الإسلامية. إذ كان محورها سياسة الضرائب، وهى من أبرز عوامل التفجير للأزمات بين هذه الشعوب والولاة الأمويين. وقد انهارات كل الضوابط والأطر التنظيمية، وفى طليعتها كبح الإثراء غير المشروع ومراقبة المداخيل (المقاسمة). وبذلك أصبح الخروج على قواعد الجباية عرفًا مألوفًا، لا تتورع الدولة عن توجيهه والاعتراف به، كواقع أو كضرورة للمحافظة على

---

1 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص29 وانظر: الحصرى/ زهر الآداب وثمر الألباب جـ1 ص 103 ـ 104.

القلقشندى/ مآثر الإنافة فى معالم الخلافة جـ1 ص152.

مصـادرها المالية. وكـان يحدث أن تحـاول التصـدى أحيانًا لهـذه المشكلة، إلا أن محـاولاتها اتخذت اتجـاهًا توفيـقيًا فى مـعظمها، وكـانت تنتهى لمصلحـة العرب الحاكمين الذين تقع عليهم مسؤولية اضطراب معادلة المساواة وفشلها. بيد أنه على الرغم من اختلال العـلاقة بين العرب وشعوب البلدان المفـتوحة فى ذلك الوقت، فإنهـا لم تصل إلى المستـوى الذى تصوره مـستشـرقو القـرن التاسع عـشر، وفى طليـعتهـم فون كريـمر Von Kremer وغولدزيـهر Goldzher وفان فلوتن Van Vkoren الذين بالغوا كثيراً فى تجسـيد الخلل فى علاقة الأمويين بالموالى، وانحدار هؤلاء، حسـب تعبيـرهم إلى مسـتوى الرقـيق. وهذا التصـور مرفـوض من عدة جوانب شديدة الوضوح، وفى أولها أن كلمة «مولى» التى أطلقت على المسلم غير العربـى، خصوصـًا من سكان الولايات الشرقـية، لم يكن باعثهـا الاحتـقار أو الاسترقاق، كما يوحى بذلك التفسير اللغوى للكلمة، بل كان لها مدلول الالتحاق بالقبيلة والموالاة لهـا والالتزام بمواقفها فى السلم والحرب، وذلك لاعـتبارات أمنية واجتـماعية، تفـرضها بيئـة تقوم عمليا عـلى التوازن القبلى. كذلك فـإن الرقيق بأشكاله الأوروبية التى ألفها المسـتشرقون فى عهود الإقطاع، لم تعرفـه المجتمعات الشرقية، حتى فى «جمهـورية مكة» التجارية قبل الإسلام. ومن المعروف أن الرق تحجم كثيـراً فى ظل المجتمع العربى الإسلامى الذى نحا خطـوات جريئة فى تحرير الإنسان، مهما اخـتلفت مشاربه وظروفه الاجتماعية. وخلافـًا للمجتمع الكسروى الذى عانت منه الفئات المسحوقة حتى الاسترقاق، فإن المجتمع العربى الإسلامى، كانت له المقدرة والاستعداد لاستيعابها، مـوفراً لها ـ حتى عهود سيطرة «الثقفيين» على العراق والمشرق، حيث الأغلبية من الموالى ـ الحد الأدنى من الحرية الشخصية والدينية. وكانت السلطة الأموية التى دانت فى قيامها لتحالفات ومساومات سياسية وقبلية وارتهنت لها إلى حد ما، غير قادرة على تحـقيق مجتمع متجانس ومتوازن، مما أدى إلى اتساع الهوة مع خصومـهـا وإلى الافتراق عنهم فى المصالح والأهداف. وكان ثمـة دور بانتظار الموالى، ما لبـثوا أن تحسـسوا بداياته، فى وقت كانت فـيه حركة المعـارضة تتنبه أيضًا إلى القوة الجـماهيرية التى يمثلون. فـتحولوا فى مطلع

العهد المروانى، من أكثرية صامتة إلى قوة ضاغطة، تؤثر جذريًا فى مسار التيار الثورى الذى عصف أخيراً بالدولة الأموية[1].

ولكن رياح الثورة لا تستقر فى دائرة المعارضة والحركة الشعبية فقط، بل تسللت إلى معاقل النظام نفسه، فتلقاها بعض أركانه، ممن رفضوا المضى بعيداً فى ركاب الانحراف أو السكوت عليه، وكذلك من الإصلاحيين بالفطرة والمنشأ، حيث السلطة، وهم فى ذروتها، لم تؤثر فى إيمانهم أو تمس قناعاتهم، بل زادتهم قوة وصلابة. ومن نماذج التحرك الأول، انتفاضة المطرف بن المغيرة الجريئة، باكورة الحركات التصحيحية من موقع السلطة. والمطرف يلتقى مع الخوارج فى الثورة على الحكم الأموى، وفى النظرة إلى المرحلة المبكرة من العهد الراشدى، كنموذج مثالى للمجتمع العادل، ولكنه اختلف معهم على «قرشية» الخلافة، ذلك العرف الذى رفضه الخوارج منذ إعلان حركتهم فى صفين. أما النموذج الثانى، فتمثله محاولة الخليفة عمر بن عبدالعزيز، الهادفة إلى تحقيق «ثورة فوقية»، تعيد الأشياء إلى أحجامها وتلغى كافة أنواع الاستغلال والاضطهاد لشعوب البلدان المفتوحة.

كانت الأرض المفتوحة قد اتسعت أكثر مما يقدرون وكان عمر بن العزيز قد حاول ـ بذكاء غريب سبقه إليه جده عمر بن الخطاب ـ أن يوقف هذا الامتداد فى الأرض، حتى يواكبه امتداد فى الدعوة، بحيث لاتطغى الأرض على الحضارة، ولا الدولة على الدعوة، ولاتصبح اعتبارات السياسة أهم من مبادئ الدين. وكان الأمويون لايعالجون ثورة إلا ويدخلون فى علاج ثورة أخرى، فحتى العباسيون الأشداء الذين ورثوهم لم يستطيعوا الحفاظ على المغرب وإسبانيا وأجزاء من المشرق كان حكمهم فيها شكليا. وقد ظن الأمويون أن الرجال الأشداء من أمثال المغيرة ابن شعبة وزياد بن أبيه والحجاج وآل المهلب قادرون على إحكام قبضتهم وهو تصور ساذج، إذ أن الفراغ العقدى والنفسى والحضارى لا تكفى فيه هذه العوامل الخارجية الضاغطة بل لابد من تيار حضارى عقدى يملأ أركان الحياة[2].

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص 321.

2 ـ د. محمد عبدالحليم عويس ـ المرجع السابق ص80.

كانت منطلقات المحاولة التى قام بها عمر بن عبدالعزيز داخلية بحتة، حيث كانت أزمة النظام الأموى وعلاقاته مع الفئات غير العربية، جوهر المشكلة أو المعضلة التى تطلبت حلولا موضوعية وسريعة. ومن ناحية أخرى، فقد عملت على توجيه العرب، الطاقة المقاتلة والمتفرغة للشؤون العسكرية، إلى مجالات إنتاجية فى ذلك المجتمع. ولعل ما هو أكثر أهمية، احتواء الدولة للجند وليس العكس، إذ كان هؤلاء يتعاملون مع تلك الفئات من خلال نزعة فوقية وشعور المنتصر نحو المهزوم. ومن هذا المنظور، كان فشل معظم العسكريين، عندما آلت إليهم مهمات إدارية، فى تحقيق الحد الأدنى من العلاقة المتوازنة بين الدولة وبين الشعوب التى خضعت لها، وهناك أمثلة عديدة، كان مسرحها منطقة ما وراء النهر على وجه الخصوص. على أن القرار العملى الذى توج هذه المحاولة، هو الموقف من «إسلام» هذه الفئات، والذى كان موضع طعن العهود الأموية السابقة، لما يعكسه من تأثير على مصادر الدولة المالية. فغالبًا ما لجأ بعض الولاة الذين تمتعوا بشىء من الاستقلالية ـ تحت تأثير العامل الجغرافى المساعد ـ إلى «تعهد» الضرائب والتزامها أمام الخلافة، بحيث تتحول مهمة الوالى إلى عملية تجارية، يجتهد بأن تكون رابحة ما استطاع سبيلا إلى ذلك. أما المعضلة الأساسية فى النظام الأموى، فكانت مشكلة الأراضى المفتوحة التى كانت مصدر الخلل الدائم، وانعدام التوازن بين محدودية القدرات الإدارية وحتى العسكرية، وبين الاتساع العظيم لهذه الدولة ومعها الطاقة السكانية الهائلة التى تعيش على هامش الإنتاج فيها. وكان التوجه إليها واستيعابها كقوة فاعلة ومنتجة، أحد أبرز ملامح هذه المحاولة الإصلاحية، إذ كانت هذه القوة مؤهلة، دون الحاميات العربية لضمان الاستقرار الفعلى والدائم فى مناطق الفتوح[1].

القدرية والانقسام بين أفراد الأسرة الأموية: إلى جانب هذه الحركة الأدبية المزدهرة لم تتمتع العلوم والفلسفة إلا بحظ ضئيل فى البلاد الأموى. ورغم ذلك

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص 321.

يحق ذكر الجدل العنيف الذى أثارته عند المسلمين مسألة القضاء (والقدر) وظهور القدرية، وهم الفرقة التى تقول بحرية الإنسان فى تصرفاته. والقدرية ليسوا أتباع فكرة القضاء والقدر، بمعنى حتمية المصير الإنسانى، إنما هم الذين يحددونها. فالقضاء هو ما كتب الله على الإنسان وهو خير بحكم الضرورة أما الشر فهو حادث ويأتى عن طريق القدر، والإنسان مسؤول عنه وإن سمح الله بوجوده. وهذه الفرقة هى أصل المعتزلة الذين تفرعوا عنها، بعد أن خرج واصل بن عطاء وعمر بن عبيد على الحسن البصرى فى مسألة مرتكب الكبيرة، فقالا إنه فاسق، ليس بمؤمن ولا كافر واعتزلا مجلس الحسن. ولقد حاول الخليفة هشام إيقاف تضخم هذه الفكرة الهدامة فى نظر المتمسكين كما حاول ذلك الوليد بن يزيد الذى خرق القرآن بالسهام وقال:

تهدد من بجبار عنيد　　نعم أنا ذاك الجبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم بعث　　فقل يا رب خرقنى الوليد

وكان من الطبيعى أن تزداد المعارضة لوليد، وناصرت القدرية جماعة اليمنية التى ثارت عليه لميله إلى الحجارية، وهاجمته فى بعض قصوره حيث قتلته (عام 126هـ/ 744م)، وقد فتح المصحف بين يده، وقال: «يوم كيوم عثمان» ورفع اليمنية يزيد بن الوليد بن عبدالملك، الذى كان قدريا، على عرش الخلافة. ولكن هذا الاختيار كان بعيدا عن إرضاء الجميع، فسرى الاضطراب إلى كل الأقاليم. ففى حمص وفى فلسطين وفى العراق ظهر منافسون للخليفة، وأثناء هذه الأحداث توفى يزيد بهذا (خمسة) أشهر فقط من اعتلائه العرش. وكان أخوه إبراهيم الذى «كان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس بالإمارة، وناس ربما لايسلمون عليه بواحدة منهما»، أكثر عجزاً عن أن يسيطر على مثل هذا الموقف العسير. أما عن اليمنية فإنهم ناصروه نصراً فاتراً. وهكذا تقدم مروان بن محمد منافس الخليفة من العراق نحو الشام، وتمكن من اكتساب الحجارية إلى جانبه. وفى ربيع عام 127هـ الموافق

ديسمبر 744م كان قد سيطر على دمشق. هكذا انقسمت الأسرة الأموية، وقام مروان بن محمد الذى كانت أمه أم ولد كردية بانتزاع الخلافة من أبناء عمومته، أما عن مروان فقد كان ذا حيوية أسطورية حتى إنه عرف بلقب الحمار: لأنه كان لايجف له لبد فى محاربة الخارجين عليه، فكان يصل السير بالسير ويصبر على مكاره الحرب». ولكن الحنان نحو العراق حيث قضى مروان الجزء الأكبر من حياته جعله يحس بأنه غريب فى الشام، وبناء على ذلك فهو ينقل العاصمة إلى حران فى شرق الفرات حيث استصحب أفراد الأسرة الأموية. وكان هذا بمثابة الانفصال الصريح بين الأسرة والعالم الشامى الذى كان يمثل عصبيتها منذ عهد معاوية[1].

شبت الثورات، ولكى يخضع مروان البلاد عمل على تجريد المدن الرئيسية من تحصيناتها. فعندما ثار سليمان بن هشام واستولى على قنسرين ثم فر منها إلى حمص ثم إلى الكوفة، ولما لم تخضع حمص إلا بعد حصار عدة أشهر فإن مروان هدم أسوارها ثم إنه هدم تحصينات بعلبك ودمشق وبيت المقدس وغيرها من المدن الشامية. وكان عليه بعد ذلك أن يقمع الاضطراب الذى أثاره الخوارج فى العراق وفى جزيرة العرب، وكان الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى انتهز فرصة انقسام البيت الأموى وذلك بعد أن عزل مروان والى العراق عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز وولى مكانه النضر بن سعيد القرشى فامتنع عبدالله بالحيرة وسار النضر لعقابه. وزحف على الكوفة (عام 127هـ الموافق 744م) والتف حوله خلق كثير (وخاصة من ربيعة التى أنكرت الخلافة على القرشيين) وهزم الأمويين ثم إنه سار بعد ذلك إلى الموصل ومنها إلى نصيبين حيث هزم ابن مروان ولكن مروان نفسه لحق به وتمكن من القضاء عليه عند ماردين عام 128هـ. وفى السنة التالية تمت هزيمة الخوارج فى العراق. وقبيل هذا الموقف الذى كان سلطان الأمويين قد انتهى فيه تقريبًا ثار العلويون بالكوفة وأعلنوا عبدالله بن معاوية إماما، الذى ادعى أن روح النبى انتقلت إليه عن طريق آبائه ومهد بذلك لمذاهب الشيعة الغلاة. ورغم انضمام

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص30.

الزيدية لهم وأخذهم قلعة الكوفة تمكن والى العراق الأموى، وهو عبدالله بن عمر بن العزيز، من هزيمتهم. ولكن لما كانوا قد أخذوا عهداً بالخروج آمنين فإن العلوى ذهب إلى فارس حيث التف حوله كثير من الأتباع فأقام أولا بأصفهان ثم اصطخر حيث مد سلطانه على ولايات أهواز وفارس وكرمان. ولما كان قد آوى الخوارج الذين هزمهم والى مروان على ضفاف دجلة فإن هذا الأخير هاجمه عام 128هـ، 747م فى مرو الشاهجان. وهرب العلوى إلى خراسان ولكنه لما كان منافساً لأبى مسلم فقد قتله هذا الأخير. وفى نفس هذا الوقت ظهر زعيم خارجى جديد هو أبو حمزة الخارجى، وكان يفد إلى مكة لتأليب الناس على مروان وحثهم على قتاله، وتبعه كثيرون ثم إنه خرج إلى حضرموت هو وعبدالله بن يحيى المعروف بطالب الحق، وبايع هذا الأخير على الخلافة. وفى السنة التالية (129هـ/ 746م) سار الخارجى إلى مكة والمدينة وتمكن من هزيمة الحامية الأموية، ودخل أبوحمزة المدينة وأقام بها حوالى 3شهور، انطلق بعدها إلى الشام. ولكن جيشًا مروانيًا سار إليه، وتمكن من القضاء عليه فى وادى القرى. وسار قائد مروان، وهو عبدالملك بن محمد السعدى، إلى المدينة ومنها إلى اليمن حيث قضى على عبدالله بن يحيى منافس الخليفة. وهكذا ظهر مروان وكأنه كان جديراً بإقرار الموقف الخطير فى البلاد. ولكن الصعوبات الخطيرة كان عليها أن تأتى من التخوم الشرقية للدولة[1].

تسرب الفساد إلى الدولة الأموية فى أواخر أيامها، وبدأت الخلافات تشتد فى البيت الأموى بسبب التسابق والتنازع على الملك. فقد حاول هشام بن عبدالملك (105 ـ 125هـ الموافق 723 - 742م) أن يعزل الوليد بن يزيد بن عبدالملك (125 ـ 126هـ الموافق 742 - 743م) عن ولاية العهد ويوليها لابنه مسلمة لكن الأخير توفى قبل أبيه، مما هيأ للوليد الفرصة فى أن يلى الخلافة، بعد هشام كان الوليد بن يزيد بن عبدالملك مثل غيره من بعض خلفاء بنى أمية، يحب الذات، وشغل عن أمور الدولة، فما أن تولى الخلافة حتى أظهر حبًا فى الانتقام

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص31.

والتشفى، إذ حجز أموال عمه هشام بالرصافة، وقبض على أولاده وجلد بعضهم، ثم انتقم من ولاة عمه على الأقاليم. هذه التصرفات جعلت الوليد بن يزيد بن عبدالملك يثقل على رعيته وجنده، وبخاصة اليمانية منهم لبغض الخلفاء لهم مثل هشام، وتقريبهم للحجازية، كما كرهه أفراد بيته. ثم أخذت العصبية القبلية مأخذها فى الدولة العربية إذ ثارت اليمانية لأول مرة ضد الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وحرضت ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك (126هـ/ 744م) على أخذ البيعة لنفسه. فاستولى الأخير على دمشق وأرسل جيشًا إلى الوليد فى القصر فدخلوا عليه وذبحوه فى عام (126هـ/ 744م). لكن اعتماد يزيد بن الوليد بن عبدالملك على تأييد اليمانية جره إلى العمل على إخماد ثورة الحجازية فى أماكن متعددة، حتى استتب الحكم له مدة ستة أشهر إلى وقت وفاته فى 19ذى الحجة عام (126هـ/ 744م) ووقف مروان بن محمد إلى جانب الحجازية ضد اليمانية فى نزاعه على الخلافة مع إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك فى معركة عين الجر ولازم هذا التطاحن على الملك صراع شديد بين الحجازية واليمانية، وبخاصة أن هذه الأخيرة رأت فى توليه مروان بن محمد الخلافة انتصاراً للمضرية عليها، وهو صراع امتد حيث توجد المضرية واليمانية فى جميع أجزاء الدولة العربية، فعادت أيام العصبية القديمة. كما قامت الفتن من كل لون[1].

- وعندما التقى مروان بعبدالله بن على العباس فى معركة الزاب قرب الموصل عام 132هـ الموافق 749م كان معه أكثر من مائة ألف، وقيل فى مائة وخمسين الفا وكان جيش العباسيين أقل من هذا بكثير ولقد قيل إنه عشرون ألفا ومع ذلك هزم مروان الشجاع لأنه فقد الروح، وفقدت القوة التى يدافع عنها قضيتها ووحدتها، وأصبحت عاجزة عن أن تبصر ما تحت الرماد وتستهلكها صراعات داخلية قاتلة. الحقيقة أن نتيجة معركة الزاب نتيجة غريبة فمروان أفضل من عبدالله

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص11 وانظر الكامل فى التاريخ 4/ 283.

ابن على خبره ودربة وجيشه أكبر وأكثر خبرة. وظروفه الخارجية أفضل كذلك لأنه جيش ينتمى لدولة قائمة ومع ذلك فإن كل ذلك يضيع[1].

والسبب واضح فإن القضية لم تعد قضية المعركة بل قضية الدولة والعقيدة التى تقف وراء المعركة. لقد كان بنو أمية قد انتهوا، كانوا - فى الحقيقة - قد انتحروا وهم كبار أقوياء وخلال السنوات السبع الأخيرة أجهزوا على بعضهم وهزمت جيوش أموية جيوشًا أموية وكل هذا كان من مظاهر الانتحار. لقد وقع بنو أمية فى خطأ حضارى كبير وأقدموا على عمل خطير، لقد فشلوا فى إيجاد تيار حضارى بعد أن اتسعت رقعة الأرض التى يقفون فوقها، لقد كان بإمكانهم تحويل كل المناوئين إلى عاملين معهم فى مجال نشر الإسلام والعربية والقضاء على الفرق والطوائف والشيع بالحوار والفكر ونشر الإسلام الصحيح وترجمته إلى لغات البلاد المفتوحة وتحقيق إسلام وتعريب كاملين لهذه الأرض الشاسعة التى فتحها الله عليهم أى بإيجاز تحقيق التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة والفكر وكانت هذه رسالة عظمى لم يتقدم فيها الأمويون كما تقتضى طبيعة الظروف والتحديات وكما تقتضى الاستجابة الملائمة للتحدى. وهذا هو الخطأ الحضارى الكبير. وأما العمل الخطير الذى أقدم الأمويون عليه فهو أنهم انتحروا عندما تعاونوا على قتل الأسرة الأموية، وتبادلوا مواقع الموت وفى سبع سنوات كانوا قد أجهزوا على أنفسهم وقضوا على أسرتهم التى حملوا رايتها، إنه لأسباب حقيقية (أساسية) تذكر لسقوط بنى أمية فكل الأسباب التى ذكرها الدارسون أسباب لا تكفى لسقوط هؤلاء العظماء وهى أسباب تكاد توجد فى معظم الدول والحضارات بل بعضها من السنن الاجتماعية وكثير من الدول عاشت أضعاف ما عاشوا وهى تحمل جراثيم الفناء أكثر مما كانوا يحملون ولهذا، يمكن أن تتداعى كل الأسباب التى تساق فى هذا الطريق وليس هناك إلا هاتان الحقيقتان حقيقة أنهم انتحروا من داخلهم وحقيقة أنهم لم ينبعثوا بتيار حضارى يتمم تيارات الفتوحات

1 - محمد عويس - نفس المرجع ص95.

ويكملها ويمتص كل حركات الخروج والفتن فهكذا تاريخ الأمم إما أن تتقدم أو تموت[1].

وبرغم انتشار القدرية فإنها لم تشكل خطرا على الدولة فى نهاية عهد هشام. لقد اضطرب وضع الأمويين بعد موت هشام فى عام 125هـ الموافق 742م ولا نجد بينه وبين آخر خلفائهم مروان بن محمد الجعدى سوى الوليد بن يزيد الذى يضرب به المثل فى الإهمال والابتعاد عن الدين، ويزيد بن الوليد بن عبدالملك الذى كان وبالا على الدولة والبيت الأموى والذى مات دون أن يحقق شيئا. أما مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية فقد دفع ثمن أخطاء أهله وأسرته. إذ تميز عهده بالفتن والصراع القبلى. فقد تجدد نشاط الخوارج، وثورة منظمة للعباسيين ـ كما نجد فتنا أخرى ساعدت على نمو النشاط الهدام وعلى انتشار الثورة. كل هذه العناصر يجمعها هدف واحد هو الخلاص من الدولة الأموية. لعبت العصبية القبلية الدور الأهم، فقد خالف مروان من سبقه من الأمويين حيث تعصب للحجازية تعصبا بلا حدود مما أثار حفيظة القبائل اليمانية فى دمشق وبعض مدن الشام الأخرى. مما أضعف العنصر العربى الذى تعتمد عليه الدولة بانحراف القبائل اليمانية عنه وانضمامهم إلى الدعوة العباسية. ولم يقتصر الصراع القبلى على مدن الشام بل شمل الولايات الأخرى، وخاصة ولايات خراسان المعروفة بعدائها للأمويين مما أدى إلى حدوث معارك بين القبائل المتناحرة مثلما حدث فى بلخ. وكان لتعيين مروان ولاته وفى طلب سكان كل ولاية سبب فى إذكاء الفتنة مما دعا هؤلاء الولاة إلى التعصب لولاياتهم وقبائلهم وبالوقوف بوجه الخلافة كما حدث لثابت بن نعيم الجذامى حين عينه مروان واليا على فلسطين. وموقف سليمان بن هشام الأموى الذى خرج على مروان وبايع العباسيين والذى كانت نهايته على أيديهم. إن مراعاة المصلحة العامة أمر ضرورى وجوهرى، فالذين لا يعرفون هذه الحقيقة أو يتجاهلونها هم واهمون، لأن تغليب

---

1 ـ محمد عويس ـ نفس المرجع ص61.

روح العشيرة ومصالحها الجزئية على روح الأمة ومصالحها الحيوية العامة يؤدى إلى تدمير الأمة ككل. أما الخوارج الذين ظهروا بعد حادثة التحكيم، وظلوا يعاصرون الدولة الأموية والذين دب فيهم الضعف والتمزق نتيجة مطاردتهم وقتل الكثير منهم، فإنهم ظهروا على مسرح الأحداث التاريخية فى عهد مروان مستغلين الانقسامات والفتن. فكانت حركة الضحاك بن قيس الشيبانى فى العراق التى انتهت بمقتله بعد أن سيطر على الكوفة والموصل وحركة سعيد بن بهدل الخيبرى فى الجزيرة بعد مقتل الوليد بن يزيد وانتهت الحركة بمقتله أيضا ثم قامت انتفاضة أخرى بقيادة شيبان بن عبدالعزيز اليشكرى الخارجى الذى لم يتمكن من منازلة مروان فهرب إلى الموصل وتحصن بها تسعة أشهر لكنه انتهى بالفشل والتشتت، وبمقتله ضعفت وتشتتت حركة الخوارج فى الجزيرة فكانت هناك محاولات يائسة لاستعادة القوة فقامت لهم حركة بالحجاز بقيادة المختار بن عوف الأزدى المعروف بأبى حمزة الخارجى وانتهت بمقتله أيضا وانتهاء حركاتهم، حتى مات نشاطهم فيما بعد[1].

التقى زيد بن على بهشام بن عبدالملك، فقال له هشام: قد بلغنى أنك تذكر الخلافة وتتمناها، وكيف يكون ذلك وأنت ابن أمة؟ فقال زيد: إن لك عندى جوابًا، قال: تلكم، قال زيد: إنه ليس أحد أولى بالله، ولا أرفع عنده منزلة من نبى ابتعثه، وقد كان إسماعيل من خير الأنبياء، وولد خيرهم محمداً ﷺ، وكان إسماعيل ابن أمه، وأخوه ابن صريحة مثلك، فاختاره ﷺ عليه وأخرج منه خير البشر، ولايضيرنى أن أكون ابن أمه وجدى محمدﷺ، فاستشاط هشام غضبًا، وقال لزيد: اخرج، فقال زيد: أخرج ثم لاترانى إلا حيث تكره. ولا شك بأن هذه العبارة التى قالها هشام لزيد والتى رد بموجبها زيد عليه كافية لإشعال نار الثورة ضد الأمويين مما حدا بزيد إلى أن يجيبه بأنه سيخرج، وأنه لن تراه إلا حيث يكره، وكان معنى هذا أن زيداً عندما خرج من عند هشام كان فى نيته

1 ـ د. عبدالجبار منسى العبيدى ـ المرجع السابق ص290.

الخروج عليه، وهذا هو مـا حصل، وليت هشامًا اكتفى بما قـاله لزيد بل إنه اتهمه بوديعة لخـالد القسـرى، فما كـان من الخليفة إلا أن بعث بزيـد إلى والى الكوفة يوسف بن عمر الثقفى، فاسـتحلفه يوسف، فحلف زيد بأنه ليس لديه مال لخالد فخلى سبيله[1].

عند ذلك خـرج زيد إلى المدينة، ولكن أهل الكوفـة لحقوا به، وحـاولوا ـ بكل ما يستطيعون ـ إقناعه بالعودة، وأنـهم سينضمون إليه ضد الأمويين، وأعطوه العهود والمواثيق بأنهم لن ينكثـوا عهودهم معه كما فعلوا مع جـده الإمام الحسين عليه السلام.

يقـول الطبرى فى هذا: عندمـا خرج زيد من الكوفـة، لحقت بـه الشيـعة وقالول له: أين تذهب عنا ومعك مـائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غدًا، وليس قبلك من أهل الشام إلا عدة قليلة، فنشدك الله لما رجعت، فلم يزالوا به حتى ردوه إلى الكوفة، وكان معـه داود بن على العباس فقال له: يا ابن عم، لايغرنك هؤلاء من نفسك، ففى أهل بيتك لك عبرة وفى خذلان هؤلاء إياهم، وقال أيضًا: أليس قد خذلوا من كـان أعز عليهم منك؟ جدك على بن أبى طالب حتى قتل، والإمام الحسن عليه السلام من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه من عنقه، وانتهـبوا فسطاسه وجرحـوه، أوليس قد أخرجوا جدك الإمـام الحسين عليه السلام، وحلفوا به بأوكد الأيمان، ثم خـذلوه وأسلموه، ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه؟ فلا تفـعل، ولاترجع معهم، فقـالوا: إن هذا لا يريد أن تظهر أنت ويزعم أنه وأهل بيته أحق بهـذا الأمر منكم، فقال زيد لداود: إن عليًا كان يقـاتله معاوية بدهائه ونكرائه بأهل الشام، وإن الحسين قاتله يزيد بن معاوية والأمر عليهم مقبل، فقال له داود: إنى لخائف إن رجعت معهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم، وأنت

---

1 ـ عبـدالعزيز محـمد اللميلـم ـ المرجع السـابق ص30 وانظر الطبرى/ تاريخ الرسل والملوك جـ7 ص ص 165 ـ 166، الازدى/ تاريخ الموصل ص44، ابن عبد ربه/ العقد الفريد/ جـ5 ص210.

أعلم، ومضى داود إلى المدينة، ورجع زيد إلى الكوفة ونفس الشيء بالنسبة لعبدالله بن الحسن بن الحسن عندما كتب إليه محذراً إياه من أهل الكوفة قائلا: يا ابن عم، إن أهل الكوفة نفخ العلانية خور السريرة، هوج فى الرخاء، جزع فى اللقاء، تشايعهم، ألسنتهم، ولاتشايعهم قلوبهم، ولايبيتون بعدة فى الأحداث، ولاينوءون بدولة مرجوة، ولقد واترت إلى كتبهم بدعوتهم، فصممت عن ندائهم، وألبست قلبى غشاء عن ذكرهم يأسًا منهم، واطراحًا لهم، وما لهم مثل إلا ما قال الإمام على بن أبى طالب ﷺ: إن أهملتم خضتم، وإن حوربتم خزتم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم. وبالرغم من صدق تلك النصيحة التى تقدم بها داود بن على العباس ومحمد بن على - كما يشير إلى ذلك البعض - لزيد بن على بالنسبة لموقف أهل الكوفة من آل على إلا أنها تحمل فى طياتها معنى آخر وهو احتمال خوف العباسيين من نجاح ثورة زيد هذا والإطاحة بمشروعهم الذى خططوا له زمنًا ليس بالقصير، وبذلوا فى سبيله جهوداً مضنية[1].

ولم لايكون داود بن على خائفًا من نجاح ثورة زيد؟ لأنه إن تم ذلك فإن آل العباس سيخسرون كل شىء خططوا له، ومن ناحية أخرى ربما ينكشف أمر دعوة بنى العباس فى خضم الاضطرابات التى قد تنجم نتيجة تلك الثورة التى قادها زيد ابن على، ولهذا حاول داود جاهداً أن يثنيه عن التوجه إلى الكوفة مقر أعوانه وأنصاره فى نظر داود. ولاشك بأن ثورة الإمام زيد ونجاحها قد أثارت مخاوف العباسيين لأن حق العلويين فى الدعوة إلى الخلافة أوضح بكثير فى أذهان الناس من حق بنى العباس فيها، فزيد بن على بن الحسين علوى، والكوفة شيعة الإمام على لا شيعة بنى عباس، والعباسيون لايملكون التأييد الشعبى الذى يملكه العلويون هناك. وعلى أية حال فإن زيد لم يسمع نصح الناصحين، ولم يتعظ بما حصل لآبائه وأجداده من قبل من خذلان أهل الكوفة لهم، بل إنه صمم على

---

1 - عبدالعزيز محمد اللميلم - نفس المرجع ص31 وانظر: الطبرى/ تاريخ الرسل والملوك جـ7 ص ص 166 - 169.

الخروج على الدولة الأموية، وقد حصل ما كان متوقعًا، إذ انفض عنه أعوانه، وبقى فى فئة قليلة وقفت إلى جانبه، وحاربت معه إلى أن قتل الإمام زيد على يد أتباع يوسف بن عمر «الوالى على الكوفة آنذاك». وقد حمله أصحابه ودفنوه فى حفرة يؤخذ منها الطين ويكثر فيها الماء، وقيل فى ساقية ودفنوه بها وأجروا الماء على قبره خوفًا من التمثيل به، إلا أن غلامًا سنديا لزيد دل أصحاب يوسف بن عمر على مكان زيد الذى دفن فيه، فأخرج، وبعث برأسه إلى هشام بن عبدالملك، الذى أمر بأن ينصب الرأس على باب مدينة دمشق ثم المدينة، أما جسمه فقد صلب طيلة حكم هشام، فلما تولى الوليد بن يزيد أمر بانزاله ثم أحرق، ويشير القلقشندى[1]: إلى أن رأس الإمام زيد نصب بدمشق حتى مات هشام، ثم حملت الرأس إلى مصر ودفنت فى المشهد الذى بين الكيمان الآن المعروف بمشهد الرأس يقع المشهد بالقرب من جامع ابن طولون.

وقد كان لثورة الإمام زيد بن على تأثيرا واضحًا فى سير الأحداث التى وقعت فى العصر الأموى، إذ تمخض عنها نتائج خطيرة، وكان فشل الثورة بمثابة الدفع لحركات أخرى حذت حذوها، لعل من أبرزها هروب يحيى بن زيد إلى خراسان، وإعلان الثورة على الأمويين هناك، ويبدو أن يحيى قد قطع على نفسه عهداً أمام والده قائلا: أقاتلهم والله لو لم أجد إلا نفسى. يقول الطبرى فى هذا: «لما قتل زيد عمد رجل من بنى أسد إلى يحيى بن زيد فقال له: لقد قتل أبوك، وأهل خراسان لكم شيعة، فالرأى أن تخرج إليها، قال: وكيف لى بذلك، قال: تتوارى حتى يكف عنك الطلب ثم تخرج، فواراه عنده ليلة ثم دفع به إلى عبدالملك بن بشر بن مروان الذى أبقاه عنده مدة، فلما سكن الطلب خرج يحيى ابن زيد إلى خراسان مع فئة من أصحابه، وعن أحداث هذه الثورة يقول

1 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص37 وانظر: ابن أعثم الكوفى/ كتاب الفتوح جـ8 ص ص 121 ـ 222، أبو الفداء/ المختصر فى أخبار البشر جـ1 ص204، الكتبى محمد بن شاكر/ فوات الوفيات جـ2 ص35. مروج الذهب جـ3 ص225. وفيات الأعيان جـ5 ص123.

المسعودى: «ظهر يحيى بن زيد بن على فى أيام الوليد بن يزيد بالجوزجان من بلاد خراسان منكراً للظلم، وما عم الناس من الجور، فسير إليه نصر بن سيار سلم بن أجوز المازنى، فقتل يحيى فى المعركة بقرية يقال لها: «أرعونة» ودفن هناك وقبره مشهور إلى هذه الغاية إذ قتل بسهم أصابه فى صدغه فولى أصحابه عنه يومئذ، واحتز رأسه، فحمل إلى الوليد، وصلب جسده بالجوزجان، فلم يزل مصلوبًا إلى أن خرج أبو مسلم صاحب الدولة العباسية، فقتل أبو مسلم بن أحوز، وأنزل جثة يحيى فصلى عليها، ودفنت هناك[1].

أما تنظيمات آل البيت، فقد قامت لهم فى عصر مروان حركتان فشلت الأولى وكانت بقيادة عبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب فى الكوفة، مستغلا اشتداد العصبية القبلية ومعاداة الكوفيين للأمويين التى انتهت بهزيمته وفراره إلى خراسان ووفاته هناك، أما الحركة الثانية فهى الدعوة العباسية ذلك التنظيم السياسى والعسكرى المحكم الذى كان من نتيجته تلك الطامة الكبرى بالنسبة للأمويين حيث ظهر أبو مسلم والحركة العباسية التى نجحت بقتل مروان بعد معركة الزاب الكبرى وإزالة البيت الأموى ونقل الخلافة إلى العباسيين. ولاشك أن هناك أسبابا أخرى اجتماعية واقتصادية ساعدت على تقويض الخلافة الأموية نمت وبان أثرها فى عهد مروان فقد تغيرت بنية المجتمع العربى الإسلامى بعد دخول الموالى فى الإسلام ومشاركتهم الفعالة فى التنظيمات السرية المناوئة للحكم الأموى واختلاط العرب بهم اجتماعيا. والاضطراب المالى فى الدولة بعد أن تحولت طرق التجارة من حوض البحر المتوسط إلى الخليج العربى والقسطنطينية وخاصة بعد أن هزم العرب فى معركتهم البحرية مع الروم عام 129هـ/ 747م. كان لهذه العوامل من الأثر الحاسم فى هز الكيان الأموى مايعادل قيام الدعوة العباسية كدعوة، كما كان للثورات المحلية الأخرى كتعابير نقمة من أثر، ولابد أن نقول إنه مادامت طبيعة نظام الأمة قد تغيرت، فقد استتبع ذلك أن تغيرت كل التفاصيل تبعا لذلك، فالخليفة لم يعد فى حقيقة الأمر والواقع خليفة رسول الله

1 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص34.

ﷺ بل أصبح ملكا، والأمة لم تعد جماعة متعاونة مع هيئة الحكم لرفع شأنها وتوسيع نطاقها عن طريق الفتوح ونشر الإسلام، بل أصبحت رعية لا رأى لها، والمقاتلون لم يعودوا مجاهدين فى سبيل الله، بل أصبحوا جنودا للدولة مأجورين فيها لتحقيق أهدافها وخدمة رجالها، والأموال لم تعد تقتصر على ما يرضاه الشرع، بل أصبحت جبايات مفروضة من الخليفة ورجال دولته تستخدم لصالحهم، والجنود أصبحوا مأجورين من بيت مال الخليفة، لا من بيت مال المسلمين، وهذا يصور لنا باختصار الأسباب الأساسية فى تدهور الدولة الإسلامية، لأن لكل دولة من الدول طبيعة خاصة بها، إذا هى تخلت عنها خرج زمام أمرها من أيديها، وتغير كل شىء فى طبيعتها نتيجة لذلك. وإنها معادلة حضارية لم يستطع بنو أمية أن يصلوا إلى الفقه الصحيح بها.. فإن كل فكرة خلاقة تولد - كما يقول هاملتون جب - طاقة توسعية هائلة بما تغرسه فى نفوس أتباعها من حماسة للدعوة وهذه القوة لابد من أن تكون من الناحية المثالية، أداة للفكرة (الأيديولوجية) التى أوجدتها[1].

هذا ما حدث فى دولة الأمويين والذى أدى إلى ضعفها وتدهورها وسقوطها فى النهاية[2]. إن من يقرأ تاريخ الدولة الأموية منذ قيامها، ويدرس فتوحاتها ونظمها الإدارية، ومساهماتها الحضارية، وكفاءة خلفائها وولاتها؛ ربما لايتوقع النهاية السريعة والسقوط المدوى لها، وبالفعل يعد سقوطها وانهيار بنيانها الشامخ من الأمور العجيبة فى التاريخ البشرى، غير أن ذلك العجب والدهشة يزولان، بعد دراسة العوامل والأسباب التى تفاعلت وعملت على تحقيق ذلك السقوط، وهى تتلخص فى الآتى:[3]. ثورات الشيعة المتتالية ضد الدولة، بدءا من ثورة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين بن على بن أبى طالب» ضد «يزيد بن معاوية» واستشهاده فى «كربلاء» فى المحرم عام (61هـ)، ونهاية بثورة «الإمام زيد

1 - محمد عبد الحليم عويس - المرجع السابق ص81.
2 - د. عبدالجبار منسى العبيدى - نفس المرجع ص191.
3 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - المرجع السابق ص108.

ابن على بن الحسين» عام (121هـ) ضد «هشام بن عبدالملك». وربما لا تكون ثورات الشيعة ذات أثر عسكرى على الدولة الأموية، باستثناء حركة «المختار الثقفى»، لكن أثرها كان بعيد المدى فى نفوس الناس، وشحنها بالعداء لبنى أمية، وهذا ما استفاده دعاة العباسيين فى مرحلة التحضير لثورتهم. وثورات الخوارج وهذه كانت من العنف والقوة بحيث أسهمت إسهاما واضحا فى إضعاف الدولة الأموية، فلم تتركها تستريح، وظلت تنفجر فى أماكن كثيرة، وبخاصة فى «العراق» والجزيرة العربية حتى آخر لحظة فى حياة الدولة، لهذا كان الحزب معارضًا للأمويين لأنهم جعلوا الخلافة ملكًا وراثيا. وقد اشترك هؤلاء الخوارج فى الفتن التى قامت ضد الدولة الأموية كما انتشر عدد إخماد ثورته عام 108هـ الموافق 726م. وجاء بعده الحارث بن سريج الذى قام بثورته (عام 116هـ الموافق 734م) يدعو فيها إلى العمل بالكتاب والسنة، وهاجر إلى أراضى الترك وأخذ يقاتل معهم جيوش الدولة الأموية احتجاجًا على سياستها التعسفية نحو الموالى واستطاع والى خراسان نصر بن سيار أن يقنع الخليفة الأموى بالعفو عن الحارث ابن سريج فعفا عنه، غير أن ابن سريج لم يلبث طويلا حتى عاد ورفع رايه العصيان من جديد ضد الدولة الأموية وانتهى الأمر بقتله عام 128هـ الموافق 745م. على أن هذه الحركة لم تخمد بموت ابن سريج إذ لم يكد يمضى على وفاته عام واحد حتى أشعل أبو مسلم الخراسانى نار الثورة على بنى أمية. ويكفى للدلالة على تأييد الموالى للخراسانيين لهذه الثورة[1]. فقد سبق القول إن الخوارج شغلوا آخر خليفة أموى، وهو «مروان بن محمد» بثوراتهم العنيفة عن التنبه للخطر الداهم الذى زحف عليه من «خراسان»، بقيادة «أبى مسلم الخراسانى».

وإذا تناولنا العنصر الحاكم، وهو العنصر العربى، نجد أنه كان عنصرًا قويًا فعالا، إلا أنه كانت تسوده المنازعات القبلية القديمة بين اليمنية والحجارية وكان الولاة أنفسهم إما يمنيين أو حجازيين كثيرًا ما كانوا يتحيزون لعصبيتهم فتقع

1 ـ محمد العبادى ـ المرجع السابق ص16.

حروب دامية تنتهى أحيانًا بقتل الوالى نفسه، كما حدث مثلا لقتيبة بن مسلم المضرى فاتح إقليم ما وراء النهر. وبدلا من أن يعمل خلفاء بنى أمية على حسم هذا النزاع، إذ بهم ينحازون إلى فريق دون آخر مما ساعد على اتساع الهوة بين العصبيتين. فالخليفة الوليد بن عبدالملك أخذ جانب الحجازية، ومن كبار عماله الحجازيين الحجاج بن يوسف الثقفى وقتيبة بن مسلم. ثم جاء بعده سليمان بن عبدالملك، وكان حانقًا على الحجاج وقتيبة لاعتراضهما على توليته، فانحاز إلى اليمنية، ومن أبرز رجاله يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى اليمنى. ثم جاء عمر بن عبدالعزيز، فحاول التوفيق بين العصبيتين، على أن هذا الوفاق لم يلبث أن زال بعد وفاته، إذ جاء يزيد الثانى بن عبدالملك وأخذ جانب الحجازية ثم تلاه هشام بن عبدالملك فانحاز إلى اليمنية فى بادئ الأمر ثم تحول عنهم إلى المضرية مما أثار غضب اليمنية. وقد ازداد غضبهم فى عهد الوليد الثانى بن زيد بن عبدالملك عندما انحاز هذا الخليفة إلى الحجازية، فثار عليه اليمنيون وقتلوه. وولى بعد ذلك ابن عمه يزيد الثالث بن الوليد بن عبدالملك، فانضم إلى اليمنية الذين كانوا سببًا فى توليته. وأخيرًا جاء مروان بن محمد فتعصب للحجازية وقضى على ثورات اليمنية. ولاشك أن هذه الحروب الداخلية قد شغلت الخلافة الأموية واستنفدت قوتها. هذا ويلاحظ أن شعراء العرب فى ذلك الوقت كان لهم تأثير كبير فى إذكاء نار هذه العصبيات، ومن يقرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة، تبدو له هذه الظاهرة بوضوح[1].

العصبيات العربية التى احتدمت بين القبائل، وبخاصة بين عرب الجنوب (اليمن) وعرب الشمال (الحجاز)، وكانت تلك العصبيات قد خبت وكمنت بفضل تعاليم الإسلام التى أعلت من رابطة العقيدة، وجعلت التقوى والعمل الصالح ميزان التفاضل بين الناس لا أنسابهم أو أجناسهم. ثم بدأت تطل برأسها فى عهد «عثمان بن عفان»، وكانت من أسباب الفتنة التى راح ضحيتها الخليفة نفسه،

---

1 ـ د. محمد العبادى ـ نفس المرجع ص12.

واستمرت فى خلافة الإمام «على بن أبى طالب ﷺ»، وكان لها أسوأ الأثر فى إفساد الأمر عليه، فزعماء القبائل اليمنية الذين معه مثل «الأشتر النخعى» و«الأشعث بن قيس» كانوا يتصرفون من منطلق قبلى، وأعلوا عصبيتهم فوق مصلحة «الإمام علىّ ﷺ»، بل فوق مصلحة الإسلام نفسه. فلما قامت الدولة الأموية استطاع «معاوية» بمهارته السياسية الفائقة أن يتعامل مع هذه العصبية القبلية بتوزان شديد؛ فاحتفظ بصداقة الجميع وطاعتهم، وكذلك فعل «عبدالملك بن مروان» وأولاده حتى «هشام بن عبدالملك» (105 ـ 125هـ). ثم انفجرت العصبيات القبلية، وفتحت فاها كألسنة النيران، دون أن يستطيع أحد أن يوقفها أو يسد فاها، لأن خلفاء الأمويين الأواخر لم يكونوا أهلا للقيادة فعجزوا عن التصدى لها، وزاد الأمر خطرًا أن تلك العصبيات انفجرت فى الشام، الحصن الحصين للدولة الأموية، فانقلبت عليهم القبائل اليمنية، الحليف التقليدى لهم، بسبب تقلب سياسة الخلفاء وتذبذبها من الاعتماد على اليمنيين تارة وإلى القيسيين تارة أخرى.

الخصومات بين العصبيات العربية: كانت هذه الخصومات تعرقل شؤون الدفاع عن الدولة وتعقد أمور الحكومة التى كانت الأسرة الحاكمة تنتخب منها كبار عمالها وجندها، فمع أن انتصار اليمنية الدامى على الحجازية فى مرج راهط (65هـ/ 684م) أكد النجاح لمروان وعائلته، إلا أنه زاد من حدة الحقد بين العصبيتين. ففى بادية الشام ظلت الحرب مستمرة، كما كان الحال فى العصر الجاهلى وما قبل الإسلام. وكان على الخلفاء مداراة كل من الفريقين أو الوقوف إلى جانب الواحد منهما وإن كان فى الأمر مخاطرة، فاختيار وال من أحد الفريقين كان يغضب الفريق الآخر[1].

والأخطر من ذلك أن العرب حملوا خلافاتهم وعصبياتهم فى كل أرض يحلون بها، وبخاصة «خراسان» التى أصبحت التربة الخصبة للدعوة العباسية، بل إن بعض الولاة أسهموا فى تفاقم نار العصبية والعمل على إشعالها؛ بسوء

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص27.

سياستهم وضيق أفقهم، فكان إذا جاء وال من «اليمن»؛ تعصب لقومه وخصهم بالمزايا والوظائف واضطهد الحجاريين، وإذا جاء وال من «الحجاز» فعل عكس ذلك. وهكذا كانت الأحوال فى «خراسان» تنتقل من سيئ إلى أسوأ، مما دعا الدعاة العباسيين على إلحاق كل ذلك بخلفاء الأمويين، وقد استغل ذلك «أبو مسلم الخراسانى» واستثمره لمصلحة العباسيين. وبغض الموالى وبخاصة الخراسانيين الدولة الأموية، ومضوا فى طريق العداء لها، فلم يتركوا ثورة أو فتنة ضدها إلا انضموا إليها واشتركوا فيها، مهما تكن هوية القائمين عليها، من العلويين إلى خوارج، إلى ثورة «ابن الأشعث» إلى «ابن المهلب»، حتى جاءتهم الدعوة العباسية، فانخرطوا فيها، وكانت على أيديهم نهاية الدولة الأموية.

والخلفاء الأمويون المتأخرون أسهموا بدءاً من خلافة «الوليد بن يزيد» (125 ـ 126هـ الموافق 742 - 743م) فى سقوط الدولة وسهلوا لكل خصومهم مهمتهم للانقضاض على الدولة، وذلك لعدم كفاءتهم لقيادة دولة عملاقة كالدولة الأموية من ناحية، ولتناحرهم فيما بينهم على الحكم والسلطان من ناحية أخرى. وكل هذه العوامل السابقة لو وجدت رجالات من طراز «معاوية بن أبى سفيان» أو «عبدالملك بن مروان» لكان من الممكن التغلب والسيطرة عليها، لكن هؤلاء تركوا الدولة تتعرض لأشد المخاطر، وتفرغوا لمحاربة بعضهم بعضًا، حتى جاء من قضى عليهم جميعًا.

الدعوة العباسية: بدأت الدعوة العباسية عملها منذ نهاية القرن الأول الهجرى، فى خلافة «سليمان بن عبدالملك» عندما انتقلت الدعوة الشيعية من «عبدالله بن محمد بن على بن أبى طالب» المكنى بأبى هاشم إلى «على بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب»، الذى كان يعيش فى قرية «الحميمة» جنوبى الشام، حين أسر إليه «أبو هاشم» بأسرار الدعوة وأسماء رجالها. وقد أظهر العباسيون، منذ أن تولى «على بن عبدالله بن العباس» أمر الدعوة ومن جاء بعده من أبنائه، حصافة سياسية ودهاءً منقطع النظير، فقد أدركوا أن أهم أسباب فشل

العلويين فى الوصول إلى الخلافة هو التسرع، والاعتماد على حب الناس لهم، وعواطفهم نحوهم، دون عمل منظم، فحاولوا تفادى تلك الأخطاء، وصاغوا شعارا خادعًا لدعوتهم، هو الدعوة للرضا من «آل محمد»، فاقتنع كثير من الشيعة أن المقصود هو الدعوة لواحد من أولاد «الإمام علىّ ؓ» أحفاد النبى ﷺ. وأن خروج يحيى على الأمويين إضافة إلى الظلم الذى وقع على الناس كان الرجل موتوراً من بنى أمية نتيجة لما لاقاه العلويون من قتل على يد الأمويين كان آخرهم أباه زيدًا، ولهذا قام بتلك الثورة التى كان مصيرها الفشل إذ لم تكن بأفضل مما سبقها من ثورات علوية بالرغم من وقوعها فى مكان بعيد عن مركز الخلافة الأموية، إلا أن ذراع الأمويين استطاعت أن تصل إليه وتنهى ثورته. وبالرغم من فشل ثورة كل من زيد وابنه يحيى إلا أن ثورتيهما قد مهدتا بطريق غير مباشر للقضاء على الدولة الأموية، إذ يقول اليعقوبى: «لما قتل زيد تحركت الشيعة بخراسان، وكثر من يأتيهم، ويميل معهم، وجعلوا يذكرون أفعال بنى أمية حتى لم يبق بلد إلا فشا فيه هذا الخبر» ولم يقتصر الأمر فى عهد الدولة الأموية على خروج من ذكرنا، بل إن واحداً من العلويين قد خرج فى عهد الخليفة الأموى مروان بن محمد هو: عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة، ذلك أن أهل الكوفة رأوا اضطراب الأمور فى الدولة الأموية، فذهبوا إلى عبدالله بن معاوية، وبايعوه على ذلك، فقاتلهم أمير الكوفة، ولما رأى عبدالله أن لا قبل له بجيش الأمويين طلب الأمان هو وأصحابه، واتفق الفريقان على ذلك، عندها خرج عبدالله إلى بلاد الجبال وهمذان وأصفهان والرى، وغلب عليها، واستمر على ذلك حتى قويت شوكة أبى مسلم الخراسانى الذى أعد له جيشًا حاربه حتى قضى عليه، وأظهر الدعوة لبنى العباس. هذه فى الواقع هى أهم الثورات التى قام بها العلويون ضد الدولة الأموية، والتى كلفت العلويين الكثير من رجالاتهم دون أن يحرزوا نصراً ضد الدولة الأموية، وبالمقابل فإن تلك

الثورات التى قام بهـا العلويون من حين لآخر ضد بنى أميـة كان لها دور بارز فى إضعاف الدولة الأمـوية، إذا عرفنا أن العلويين قد قاومـوا الأمويين منذ أن قامت دولتهـم حتى سقـطت عام 132هـ الموافق 749م إذ كـانوا عامل هدم فى جسم الدولة الأمـوية حـتى نهايـتهـا وأن تلك النكبـات التى حلت بالعـلويين على يد الأمويين من أقوى الأسباب للتقارب بين البيتين العلوى والعباسى، واتفاقهما على الإطاحة بالدولة الأموية، ولعـل ما يؤكد ذلك هو ذلك الاجتمـاع الذى عقد بين رؤوس العلويين والعباسـيين وقرروا فيه ترشيح إمام لهم إن قـدر لهم القضاء على الدولة الأموية[1].

ظهرت عبقـرية زعماء الدعوة من العباسيـين وهم «على بن عبدالله»، وابنه «محمد» وأولاده فى اختيار الدعاة بدقة بليغة، من ذوى الفصاحة والبلاغة والقدرة الفائقة على مخاطبة الناس بما يناسبـهم، ومن المخلصين للدعوة ورجالها، المتفانين فى سـبيلهـا، حتى إن الواحـد منهم إذا ألقى القـبض عليه، وحـقق معـه الولاة الأمويون يفضل الموت، ولايبوح بكلمة واحـدة عن الدعوة ورجالها. وكما تجلت عبقرية العباسيين فى اختيار دعاتهم تجلت أيضا فى اختيار المكان الذى ستنطلق منه الثورة المسلحة؛ لتكتسح الدولة الأموية، وهو «خراسان» فى منطقة قبائل الأوزباك والتركمـان؛ حيث العداء الدفين لـلأمويين، والعصبـية العربية المحتـدمة، وانطلق الدعاة يزرعون العداء، ويكشفون ظلم وفـساد وعبث الأمويين وكيف أن الوليد بن يزيد حاول شرب الخـمر فوق الكعبـة، وكانوا يقومون بذلك وهـم على هيـئة تجار عـاديين، وفى أسلوب هادئ، حتى تحـولت مـشاعـر الناس ضد الدولة الأمـوية ورجالها. واستمـر هذا العمل الدؤوب نحو ثلث قرن (99 ـ 129هـ الموافق 717 ـ 746م)، وكان يجرى عبر محور «الحميـمة» الرئيسى حيث مقر زعماء الدعوة،

---

1 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ المرجع السابق ص34 وانظر: تاريخ اليعقوبى جـ2 ص392. ابن طباطبا/ الفخرى فى الآداب السلطانية ص ص 138 ـ 139.

وتخرج منها التعليمات إلى «الكوفة»، ومنها إلى «خراسان». ولما حانت ساعة العمل العسكرى، عهد الزعماء بهذه المهمة إلى أبى مسلم الخراسانى، وكان مسموع الكلمة عند الخراسانيين، فأعلن الثورة المسلحة على الأمويين فى «خراسان» عام (129هـ)، وزحف بقواته إلى الغرب مكتسحا قوات الأمويين حتى إذا وصل إلى «العراق»، أوقفه العباسيون، وأسندوا القيادة إلى «قحطبة الطائى»، وهو قائد عربى، ولم يشاؤوا أن يقتحم «أبو مسلم» بقواته «العراق»، حتى لايثيروا مشاعر العرب ضدهم، وهذا من براعة العباسيين فى القيادة وفهمهم لنفوس الشعوب. واصل «قحطبة» عمله ضد قوات الأمويين فى «العراق» حتى قتل، فخلفه ابنه «الحسن بن قحطبة»، واستطاع أن يستولى على معظم «العراق». حدث ذلك كله والخليفة الأموى «مروان بن محمد» مشغول من رأسه إلى قدميه فى مشكلات «العراق» و«الشام»، وفى إخماد الثورات التى أشعلها ضده أبناء عمومته، فضلا عن ثورات الخوارج، وقبل أن ينتهى من ذلك كله داهمته قوات العباسيين، وألحقت به هزيمة ساحقة على يد «عبدالله بن على بن عباس» فى موقعة «الزاب» شمالى «العراق» فى شهر جمادى الأولى عام (132هـ الموافق 749م)؛ ففر من المعركة، وأخذ يتنقل من مكان إلى آخر حتى وصل إلى «مصر»، وهناك لاحقته الجيوش العباسية حتى قتل على يد «صالح بن على بن عبدالله بن عباس» فى ذى الحجة (132هـ الموافق 749م). وبمقتله انتهت الدولة الأموية فى المشرق، وقامت الدولة العباسية، حيث بويع «عبدالله بن محمد» الملقب بأبى العباس السفاح بالخلافة فى «الكوفة» فى ربيع الأول عام (132هـ الموافق 749م)، قبل مقتل «مروان بن محمد» بشهور.[1] وسبحان الله القائل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

---

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص110.

الفهرس